جامعة الخرطوم
كليـــة الآداب
قسم اللغة العربية

انسجام النص القرآني

(دراسة نصية من خلال تفسير ابن عاشور التونسي)

بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه في اللغة العربية

إعـــــداد
عبدالوهاب يحيى المؤيد

إشراف الدكتور
الحبر يوسف نور الدائم

١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى من لا أستطيع الوفاء بحقهما "والديّ"

إلى من حملت معي عبء المشوار من بدايته "أم عمر"

إلى الذين كانت تغمرني ابتساماتهم الطاهرة صباحاً ومساءً "أولادي"

إلى الذين أخذوا بيدي إلى طريق العلم "أساتذتي"

إلى كل الأحبة ...

أهدي هذا البحث

شكر و تقدير

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات فهو المستحق أولاً للثناء والشكر
والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على محمد وآله وصحبه

بعد أن وفقني الله إلى إتمام هذا البحث أتوجه بالشكر الجزيل للدكتور الحبر يوسف نور الدائم، الـــذي تفضل بقبول الإشراف عليّ والأخذ بيدي طيلة سنوات البحث فله الشكر على ما أحاطني به من رعايـــة وتسديد وتوجيه ، وله الشكر على ما زين به مسودات هذا البحث من إشارات حكيمة وتعليقات مفـــيدة وتنبيهات دفعت عني كثيراً من مشاق التكلف لما لا يعني ، وأرجو أن تكون قد خففت عني ملامة التقصـــير . فلـــه مني خالص الشكر، ومن الله جزيل الثواب الذي لا يوفيه حقه إلا هو ، وأسأله تعالى أن يبارك في عمره وعلمه وأن ينفع به .

كما أتقد م بالشكر الجزيل للأساتذة أعضاء لجنة المناقشة على توجيهاهم القيمة وتعقيباهم الكريمة التي ستغني هذا البحث بكل نافع ومفيد .

وأســـطر تقديري واحترامي لكل من تعاون معي من العاملين في جامعتي صنعاء والخرطوم أساتذةً وإداريين وأمناء مكتبات .

ولا أنســـى أن أشكر كل من أعان على إخراج هذا البحث إلى النور وأخص بالشكر الأخ مجيب الرحمن سيلان ، الذي ساعد في رقن مادة هذا البحث بهمة وإتقان ، وأسأل الله له الثواب .

والشكر موصول لكل من أمدني بفكرة أو أعانني بجهد ، ولئن كانت هذه السطور لا تتسع لذكر أسمائهم فإن القلب يتوجه إلى الله أن يكتب أجرهم وأن يجزل عطاءهم .

والحمد لله أولاً وآخراً .

الباحث

المقدمة :

الحمد لله الذي أكرم الأمة بالقرآن ، وتكفل بجمعه وحفظه فكان معجزته الخالدة على مر الزمان ، والصلاة والسلام على البشير النذير ، نزل عليه القرآن مفرقاً على الحوادث فثبت الله به فؤاده ، وأقام به الحجة على معانديه الذين توهموا أن تفريقه ماكان إلا عن عجز، وقالوا: ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ...﴾[1]، فلما جمعه وأحكمه وسوَّر سُوَرَه سُقِطَ في أيديهم ، ولم يملكوا أمام ذلك إلا أن قالوا : ﴿ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾[2] ، وأنى للنور أن يمنع انتشاره صراخ أو عويل ، ثم كان الإعلان الأخير فيهم وفي من ورائهم إلى يوم القيامة ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[3].

وبعد : فإن كل يوم تشرق شمسه على هذه الحياة تشرق معها أنوار هذا القرآن على النفوس والعقول هدى ونوراً ، وطمأنينة وسروراً . ولقد ظلت ظواهر الإعجاز القرآني تتسع بتوسع قدرات البشر على رصد تجلياتها ، تسفر لهم كل يوم عن جديد ،ومن هذه الظواهر المعجزة : ظاهرة انسجام القرآن الكريم واتساقه، الانسجام الذي تحيرت أمام روعته العقول الذكية ، والاتساق الذي تعجبت من بديع نظمه القرائح الألمعية ، ﴿ ...وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾[4] وقد توالى على تدبر ذلك التناسب والانسجام أقوام وأقوام كل حسب ما هيأ له من أدوات النظر ووسائل البحث والتحليل ، لأن البحث عن المناسبة في القرآن كان ضمن مباحث الإعجاز اللغوي والبياني وهي الظاهرة الأولى التي توجهت إليها عناية السلف وصفاً وتحليلاً ، وقد توزعت جهودهم إلى أسلوبين من التحليل[5] :

أ. التحليل اللغوي القائم على بيان معنى الكلمة وعلاقتها بجاراتها ضمن الجملة ، ومثّل ذلك الجهد ما كتب في معاني القرآن وإعرابه، وغريبه ومشْكِله[6] . ثم تطور بعد ذلك إلى العناية بخصائص النظم

---

١ سورة الفرقان:الآية ٣٢.

٢ سورة فصلت:الآية ٢٦.

٣ سورة الإسراء:الآية ٨٨.

٤ سورة النساء:الآية ٨٢.

٥ انظر : (أ)مصطفى الجويني : مناهج في التفسير ، طبعة منشأة المعارف – الاسكندرية مصر ، د.ت ، ص٣٠ .

(ب) منير سلطان : مناهج في تحليل النظم القرآني ، منشأة المعارف –الاسكندرية ، (١٩٩٠م) ص٢٢، ٢٣ ،٧٥.

٦ ومن هذه المؤلفات :- معاني القرآن لأبي زكريا يحيى بن زياد الفراء (ت٢٠٦هـ).

- تفسير غريب القرآن لابن قتيبة الدينوري (ت٢٧٦هـ).
- إعراب القرآن ومعانيه لأبي اسحاق الزجاج (ت٣١١هـ).

في الجملـــة ، وتحليل العلاقات القائمة بين الجمل وذلك على يد عبدالقاهر الجرجاني[1] فيما أُطلق عليه "معاني النحو" أو "النظم " الذي ضمّنه كتابه "دلائل الإعجاز" .

ب. التحلـــيل الفني القائم على إدارك الوحدة الموضوعية للآيات ، كما نجد ذلك مبكراً عند أبي بكر الباقلاني[2] ثم ما نجده بعد ذلك من إشارات للمناسبة بين الآيات والسور في كتب التفسير كتفسير "الكشاف " للزمخشـــري[3] و"التفســـير الكـــبير " للفخر الـــرازي[4] وكتاب "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور" لبرهان الدين البقاعي[5] ، ثم ما تضمنته كتب علوم القرآن من إشارات للمناسبة بين الآيات[6] .

لقد وقف المفسرون من السلف أمام ذلك الترتيب المحكم للآيات في السورة فتحدثوا عن روائع نظمها ، وعجائب المعاني الناشئة من تناسقها وانسجامها ، فكانت تلك المباحث خطوة متقدمة في الانتقال من تحليل الجملة إلى تحلـــيل الـــنص ، نقلت القارئ المتدبر من مرحلة الاعجاب والاندهاش إلى إدراك جانب من جوانب إعجاز القـــرآن ووصـــفه والتعبير عنه وهو ما عُرف بعد ذلك بعلم "مناسبات القرآن" الذي تحتفل به البحوث المعاصرة ضمن البحث عن الانسجام والاتساق .

ويكفي للتعبير عن أهمية الحديث في موضوع المناسبة أو الاتساق والانسجام في القرآن أن نتذكر حكمة تفـــرد القرآن بأسلوب التسوير ، وبعدم تدخل الجهد البشري في ترتيب آياته في السورة الواحدة ، ثم نتذكر بعد ذلك الجهد الكبير الذي قام به السلف ولا يزال يقوم به الخلف في محاولة التعبير عن أسرار ذلك الترتيب المعجز والانسجام العجيب الذي يستحق أن يُعدّ ظاهرة من ظواهر الإعجاز في القرآن.

---

[1] عبدالقاهر الجرجاني : صاحب أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز وإعجاز القرآن ، من أئمة اللغة وواضعي أصول علوم البلاغة ، وله دراسات نحوية وصرفية منها : كتاب المغني في النحو .. وأشهر كتبه في البلاغة : دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة . توفي (٤٧١هـــ) [انظر ترجمته في : بغية الوعاة للسيوطي : تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، طبعة مكتبة عيسى البابي الحلبي . القاهرة ، (١٩٦٤م) ،ج٢ ، ص١٠٦].

[2] أبو بكر الباقلاني : محمد بن الطيب بن محمد ، المعروف بالقاضي الباقلاني من كبار علماء الكلام ؛ انتهت إليه الرياسة في مذهب الأشاعرة ، من كتبه : إعجاز القرآن ، الإنصاف ، الملل والنحل . توفي (٤٠٣هـــ)

[3] أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي الزمخشري : العلامة اللغوي ، والمفسر المعتزلي ، جاور بمكة زماناً فصار يقال له : "جار الله" فكان هـــذا اللقـــب علماً عليه ، ألف كتابه الكشافَ بمكة المكرمة ،وله مؤلفات عدة منها : أساس البلاغة ، والمفصل في النحو ، وشرح أبيات كتاب سيبويه، وغيرها من الكتب والمصنفات ، عاش بين (٤٦٧–٥٣٨هـــ).[انظر : صديق بن حسن القنوجي ، أبجد العلوم ، دار ابن حزم – بيروت ، ط١(٢٠٠٢م) ، ص٥٨١].

[4] أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين الرازي ، الملقب بفخر الدين : صاحب التفسير الكبير ، ولد بالري سنة ٥٤٤هـــ ، فاق أهل زمانه في علم الخلاف والجدل والكلام ، وتفسيره جمع فيه كل غريب حتى قيل : فيه كل شيء إلا التفسير ، ترجم له ابن خلكان ترجمة مطولة وتوفي بمراة سنة ٦٠٦هـــ .[انظر في ترجمته : صديق بن حسن القنوجي : أبجد العلوم ص٦٣٠].

[5] برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي : صاحب كتاب "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور" توفي (٨٨٥هـــ) خرّج آياته وأحاديثه عبدالرزاق غالب المهدي ، ونشرته دار الكتب العلمية — بيروت لبنان ، ط١،(١٩٩٥م) .

[6] كما في :كتاب البرهان في علوم القرآن لبدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي(ت٧٩٤هـــ) تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية –بيروت،د.ت.ط. وكتاب : الاتقان في علوم القرآن : لجلال الدين السيوطي ، تقديم محمد شريف سكر ومراجعة مصطفى قصاص ، دار إحياء العلوم – بيروت ،ط٢(١٩٩٢م).

لقد تبين أن الدراسات القديمة كانت تعبر عن هذه الظاهرة بمصطلح "المناسبة" كما أن غالبية الدراسات الحديثة عبرت عنها بمصطلحي "الاتساق والانسجام" ، لذلك فإن التعبير عن مفهوم المناسبة والانسجام في مقدمة هـــذا البحث يقوم على أساس ما تم من تتبع لاستعمال هذين المصطلحين عند المشتغلين بالدراسات القرآنية قديماً وحديثاً .

فأما المناسبة: فمجال الوصف بها هو تعلق الكلام بعضه ببعض ، وتعود في مجملها إلى الحديث عن ارتباط آيـــة بآية ، أو مجموع آيات في موضوع ما بمجموع آيات في موضوع آخر في السورة ، أو علاقة سورة بسورة ، وقـــد اصـــطلح على تسمية الحديث عن الروابط بين آيات القرآن وسوره بعلم "المناسبة[١] وحدّه برهان الدين الـــبقاعي بقوله : ((علم المناسبات : علمٌ تعرف منه علل الترتيب ، موضوعه أجزاء الشيء المطلوب علم مناسبته من حيث الترتيب ... فعلم مناسبات القرآن علم تعرف منه علل ترتيب أجزائه))[٢] ويتضح من أسلوب السلف في التعـــبير عـــن المناسبة رعايتهم للمناسبة بين الآيات ، والمناسبة بين السور ، وحديثهم عن مناسبة فاتحة السورة لخاتمتها، ومناسبة فاتحة السورة لأغراضها ، إلى غير ذلك من ألوان المناسبة التي سيكشف عنها هذا البحث.

وأمـــا الانســـجام : فهو التعبير المعاصر عن التناسب والائتلاف ، والتآخي والترابط النَّصي الذي يعتمد عـــلى مقولات علم اللغة، واللسانيات، والنقد الفني في مفهوم النَّص والخطاب، تلك المقولات التي تصف النَّص بالكل الموحد الذي لا يمكن أن ينظر إليه بصورة مجزأة . وقد فرقت هذه المقولات بين مستويين من وصف ظاهرة الانسجام النَّصي؛ فحين يهتم ببيان الوسائل اللغوية الشكلية كالعطف والإحالة بالضمائر وأدوات الربط والمقارنة تسمى عملية الترابط هذه بـــ"الاتساق" ، أما حين يشمل الوصف الحديث عن العلاقات الخفية بين أجزاء النَّص ثم عن بيان علاقة النَّص بمتلقيه فالمصطلح المناسب لذلك هو "الانسجام"[٣] .

وقـــد اعتمد هذا البحث مصطلح الانسجام لعموميته في التعبير عن وسائل الترابط الشكلية والخفية لأن الفصل بين وسائل الاتساق والانسجام لا يتم عند المتلقي الذي هو محطّ التأثر والانفعال والاحساس بالاتساق أو الانسجام وإنما يتم ذلك في إطار البحث والتحليل .

ومـــا هـــذا البحـــث إلا محاولة لرصد تجليات هذه الظاهرة القرآنية في كتب الدراسات القرآنية القديمة والحديـــثة ، ومن ثم الكشف عن تلك التجليات "مظهراً ووسيلة" في سفر عظيم من أسفار التفسير جعل الكلام عـــن الاتســـاق والانسجام في القرآن هدفاً من أهدافه الجليلة ، وغاية من غاياته النبيلة ، ألا وهو تفسير التحرير والتنوير المعروف "بتفسير ابن عاشور" لمؤلفه العلامة التونسي محمد الطاهر بن عاشور المتوفى(١٩٧٣م).

---

[١] عدّه الزركشي النوع الثاني من علوم القرآن ، وبين فائدته ، ومذاهب السلف في البحث عنه ، وأشار إلى أنواع ارتباط الآي ببعضها البعض . [انظر البرهان : ج١،ص٣٥، ٣٦].

[٢] نظم الدرر : ج١،ص٥.

[٣] انظر محمد خطابي : لسانيات النَّص مدخل إلى انسجام الخطاب ، المركز الثقافي العربي — المغرب ،ط١(١٩٩١م) ،ص١٢، ١٣.

لماذا تفسير ابن عاشور؟[1]:

إن الحديث عن اتساق النَّص القرآني وانسجامه قد بذل فيه جهد كبير وقد تناوله مؤخراً عددٌ من الأدباء والعلماء والكُتاب ممن تيسر لهم الاطلاع على ما كتبه المفسرون والمؤلفون في علوم القرآن والبلاغيون ، فجاءت دراساتهم منطلقة من ذلك الأساس المتين، وأغنوها بكل ما تهيأ لهم من فروع المعرفة المختلفة، ولكن الدعوة لا تزال مفتوحة للباحثين عن عجائب القرآن التي لا تنقضي ، فلا يزال البحث في ظاهرة اتساق القرآن وانسجامه مفتقداً لدراسة متخصصة شاملة تتتبع مواضع تحول السياق وانتقال الخطاب في القرآن ،وتستخلص بمنهج الاستقراء أقرب الوجوه في تفسير المناسبة بعيداً عن التأويلات المتكلفة والتفسيرات الغريبة عن غايات القرآن ومقاصده وظروف تنزله وتلقيه .

ولقد كان الشيخ محمد الطاهر بن عاشور التونسي (رحمه الله) أحد الأعلام المعاصرين الذين أسهموا بكتابة تفسير للقرآن أولى فيه ظاهرة الانسجام والمناسبة جُلّ اهتمامه ، وقد كان اختيار الباحث لتفسير "التحرير والتنوير" قائماً على الأسس الآتية :

- توفر القصد عند المؤلف للعناية بالمناسبة والانسجام، حيث نصّ على ذلك في المقدمة العامة للتفسير، حيث يقول: ((واهتممت -أيضاً- ببيان تناسب اتصال الآي بعضها ببعض، ، وهو منزع جليل قد عني به فخر الدين الرازي وألّف فيه برهان الدين البقاعي كتابه المسمى : "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور" إلا أنهما لم يأتيا في كثير من الآي بما فيه مقنع ، فلم تزل أنظار المتأملين لفصل القول تتطلع))[2] .
- المنهج المتميز الذي سار عليه ابن عاشور في دراسة المناسبة والانسجام ، حيث مثّل هذا المنهج حلقة الوصل بين ما كتب في التراث وما يمكن أن ينشأ عليه من دراسات معاصرة ، وهو باستيعابه طريقة القدماء كان على وعي تام بما ينبغي الأخذ به وما لا ينبغي . فمن معالم ذلك التميز :

• أنه لم يتحدث عن المناسبة بين السور إلا في مواضع محددة – بينها هذا البحث في الفصل الأول من الباب الثاني – وقد أشار إلى ذلك ابن عاشور في المقدمة فقال : ((أما البحث عن تناسب مواقع السور بعضها إثر بعض فلا أراه حقاً على المفسر))[3] وهي طريقة مناسبة لأسلوب تسوير آيات القرآن والفصل بين كل سورة وسورة .

---

[1] تحدث عن شخصية ابن عاشور عدد من الرسائل العلمية التي تعرضت لتكوينه العلمي في جامع الزيتونة -طالباً ومدرساً- وعن إسهاماته في إصلاح التعليم، وكذلك عن منهجه في التفسير، ومن هذه الدراسات :

— دراسة إبراهيم الوافي: محمد الطاهر بن عاشور ومنهجه في التفسير، بحث لنيل شهادة تكوين المكونين، الرباط، جامعة محمد الخامس ، الموسم الجامعي (١٩٨٤م).

— دراسة هيا ثامر مفتاح العلي: الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ومنهجه في التفسير، دار الثقافة، الدوحة قطر (١٩٩٤م).

— دراسة إسماعيل الحسني: نظرية المقاصد عند الإمام محمد الطاهر بن عاشور، إصدار المعهد العالمي للفكر الإسلامي سلسلة الرسائل الجامعية (١٥) ط١(١٩٩٥م).

[2] التحرير والتنوير : مؤسسة التاريخ – بيروت لبنان ، ط١(٢٠٠٠م) ، ج١،ص٨.

[3] المصدر نفسه : ج١،ص٨ .

• ومـــن معـــالم تميّز منهجه المناقشات الواسعة لآراء من سبقه من العلماء في جميع ما أوردوه من وجوه المناسـبة ، والحكـــم عليها بروح علمية متجردة ،مع حسن اعتذار وأدبٍ جمّ وتقدير للسلف. ومن أهم الأمـثلة في ذلك تفسير المناسبة في قولـــه تعالى : ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾[1] وقولـــــه تعـــالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[2] وقولـــه تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ...﴾[3] وقوله تعالى : ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾[4] وقولـــــه : ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾[5] . حيث تبين عبارته في هـــذه المواضع وغيرها دقته في استخراج وجوه المناسبة ومناقشته لآراء من سبقه من المفسرين، وفي البحث نماذج كثيرة تدل على ذلك .

• ومـــن معـــالم تميزه سعة نظرته لجوانب النَّص عند البحث عن المناسبة، فهو يفتتح الحديث في تفسير السورة بمقدمة يوجز فيها أغراضها ومقاصدها ، يقول ابن عاشور : ((ولم أغادر سورة إلا بينت ما أحيط به مـــن أغراضها لئلا يكون الناظر في تفسير القرآن مقصوراً على بيان مفرداته ومعاني جمله كأنها فِقَرٌ متفرقة تصرفه عن روعة انسجامه وتحجب عنه روائع جماله))[6]

- توسل ابن عاشور (رحمه الله) لدراسة المناسبة بجميع ما تهيأ له من إلمام واسع بأساليب العربية وتحرير تام لقواعدهـــا ، وعلم غزير بفنونها البلاغية ، وهو من عُرف باطلاعه الواسع على الشعر العربي وشرح بعض دواوينه[7] ، وتأليفه في أساليب الخطابة وقواعد الإنشاء، هذا إلى جانب تشكيله العقلي بما تحرر من قواعد عـــلم الكلام والجدل والمنطق وعلم الأصول مما نتج عن ذلك امتلاكه لتصور واسع للنص القرآني وسياقه الداخلي والخارجي.

منهج البحث وحدود الدراسة:

لايســـعى هذا البحث لإثبات انسجام النص القرآني ، فالقرآن نصّ منسجم غاية الانسجام لأنه أحسن الحديث، قال تعالى : ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا ...﴾[8]ولكنه يسعى لوصف ظاهرة الانسجام وبيان

---

[1] سورة البقرة:الآية ٢٣٨. [انظر التحرير والتنوير ج٢ص٤٤٣- ٤٤٥].
[2] سورة آل عمران:الآية ١٣٠. [انظر التحرير والتنوير ، ج٣ص٢١٦].
[3] سورة المائدة:الآية ٢٧. [انظر التحرير والتنوير، ج٥ص٨١].
[4] سورة المطففين:الآية ٣٤. [انظر التحرير والتنوير ، ج٣٠ص١٩٠].
[5] سورة الفجر:الآية ١٥. [انظر التحرير والتنوير ، ج٣٠ص٢٨٦].
[6] التحرير والتنوير : ج١،ص٨.
[7] تولى الشيخ ابن عاشور جمع ديوان بشار بن برد ، وديوان النابغة الذبياني ، وكتب في بعض القضايا الأدبية في شعر المتنبي ، وشرح المقدمة الأدبية لشرح الإمام المرزوقي على ديوان الحماسة لأبي تمام ، وفي هذه الأعمال تتجلى قدراته اللغوية والأدبية وتبرز فصاحته وسعة علمه .
[8] سورة الزمر : الآية ٢٣.

عبارة العلماء في التعبير عنها ، ثم يتتبع مظاهما في تفسير ابن عاشور، لذلك فقد كانت الأسئلة التي يسعى للإجابة عليها تتمثل في الآتي :

- ما أبرز مظاهر الانسجام النصي ووسائله التي أشار إليها ابن عاشور في تفسير التحرير والتنوير ؟
- ما هي مستويات التحليل التي اعتمدها ابن عاشور لدراسة هذه الظاهرة ؟
- إلى أي مدىً اقترب حديث ابن عاشور في وسائل الاتساق والانسجام مما وضعته الدراسات اللسانية النصية من نماذج لتحليل هذه الظاهرة وتصنيف وسائلها ؟

وقد استلزم الجواب على هذه الأسئلة أن نتوسل بإطلالة مهمة على طريقة القدماء والمحدثين في دراسة هذه الظاهرة القرآنية وتحليلها ، والكشف عن الاتجاهات المختلفة التي توزعت عليها جهود الباحثين عن المناسبة والانسجام في القرآن قديماً وحديثاً .

ولما كانت مناهج تحليل النصوص متعددة فقد وجد الباحث أن أقرب ما يمكن الأخذ به من هذه المناهج في دراسة ظاهرة انسجام النص القرآني هو منهج التحليل النصي الذي يعتمد على نموذجٍ في تحليل النصوص يتميز عن سائر المناهج بنسبة عالية من الدقة في ضبط عناصر التحليل وتحديد مستوياته ، ويتجنب إلى حد كبير الخواطر الانطباعية التي تطلق أحكاماً لا يمكن تقديم تفسيرات واضحة لها ، كما أنه يلم في تفسير ظاهرة الاتساق والانسجام بجوانب النص كلها فيعطي أهمية لوسائل الاتساق الظاهرة في سطح النص ويهتم بوسائل الانسجام التي تكون ثاوية في عمقة، كما يهتم بوسائل الانسجام التي يعتمد فهمها على تصور سياق النص وظروف المتلقي. ومع ذلك فقد تجنب الباحث – عند أخذه بهذا المنهج في دراسة وسائل الانسجام التي وردت في تفسير ابن عاشور – ما يعمد إليه بعض الباحثين من إغراق القارئ في أنواع عديدة من الجداول والإحصاءات في دراسة وسائل الاتساق ، ومن ثم إجهاد أنفسهم في محاولة الربط بين توزع أرقام هذه الوسائل في النص وما يفترضونه من القضايا التي يريدون النص أن يعبر عنها ، كل ذلك من أجل إثبات اتساق النص وانسجامه والبحث عن وحدته وتآلفه .

ولما كانت مساحة هذه الظاهرة تشمل القرآن كله ، وقد كتب ابن عاشور التفسير في ثلاثين مجلداً فقد وجد الباحث أن من الصعوبة بمكان الإحاطة برصد المظاهر والوسائل في جميع السور ، لذلك فقد كان مجال الدراسة في هذا البحث مقتصراً على تتبع كلام ابن عاشور في تفسير الانسجام في السور الآتية :

سورة البقرة – سورة آل عمران – سورة الأعراف – سورة الأنفال – سورة الرعد – سورة الكهف – سورة مريم – سورة النور – سورة الفرقان – سورة الشعراء – سورة ص – سورة محمد – سورة القيامة – سورة النبأ – سورة عبس – سورة المطففين .

وهذه السور كما نرى تختلف في عدد آياتها وفي زمن نزولها وفي مضامينها وموضوعاتها . وقد رصدت فيها طريقة ابن عاشور في التعبير عن الانسجام في مواضع مختلفة من هذه السور ، وركز الباحث على مواضع (تحول السياق وانتقال الخطاب) حيث عقد مقارنة بين عبارة ابن عاشور وعبارة ثلاثة من المفسرين كان

ابن عاشور يشير إلى اثنين منهما في التفسير وهما الزمخشري وابن عطية[1] واكتفى بالإشارة في المقدمة العامة للثالث منهما وهو البقاعي ، ولم يجد الباحث إشارة إليه في التفسير مع وجود شبه في بعض المواضع بين عبارة البقاعي وعبارة ابن عاشور[2] ، ولعل ذلك من باب تقابل الخواطر وقد اعتذر ابن عاشور –نفسه– عن مثل هذا حيث قال : "وقد ميزت ما يفتح الله لي من فهم في معاني كتابه ... مما لا يذكره المفسرون ... ولست أدعي انفرادي به في نفس الأمر ، فكم من كلام تنشئه تجدك قد سبقك إليه متكلم ، وكم من فهم تستظهره وقد تقدمك إليه متفهم"[3].

وقد حاول الباحث جهده أن يقدم بين يدي كل فصل من فصول الدراسة مدخلاً يحاول فيه ضبط معاقد الحديث ويحدد فيه اتجاهاته ، كما سعى للتعريف بكل وسيلة من وسائل الاتساق والانسجام قبل تتبع مظانها في تفسير ابن عاشور ، حتى تتبن أهمية الإشارة إلى تلك الوسيلة في تحليل الاتساق والانسجام ، وليتضح للقارئ مدى ما وصل إليه ابن عاشور في الإتيان بما فيه مقنع مما لم تزل أنظار المتأملين فيه لفضل القول تتطلع .

وقد قُسم البحث على بابين :

- خصص الباب الأول لتتبع مسيرة الحديث عن انسجام النَّص القرآني في الدراسات القرآنية القديمة والحديثة ، واشتمل الباب على ثلاثة فصول :
    - الفصل الأول : خصص للحديث عن بعض التعريفات والقضايا التي يرتبط البحث في ظاهرة الانسجام بتحديدها.

فقد احتوى المبحث الأول : مناقشة مفهوم النَّص القرآني وتحديد المقصود بمصطلح "السورة "، وبيان حكمة تميز القرآن بأسلوب التسوير ، ثم تناول المبحث مذاهب السلف في موضوع تسمية السور أكان بتوقيف من النبي (صلى الله عليه وسلم) أم باجتهاد من الصحابة ؟ لما لذلك الحديث من أهمية في بحث العلاقة بين عنوان النَّص ومضامينه .

أما المبحث الثاني : فقد خصص للكلام عن ترتيب النَّص القرآني "ترتيب الآيات في السور " و"ترتيب السور في المصحف" . واحتوى المبحث الثالث : حديثاً مجملاً عن خصائص أسلوب

---

[1] هو الإمام القاضي، والفقيه الحافظ أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن (المعروف بابن عطية) عاش في الفترة ما بين (٤٨١هـ ـ ٥٤١هـ) وكتابه في التفسير سفر عظيم سماه المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، حققه مجموعة من الباحثين منهم: عبدالله الأنصاري والرحالي الفاروق وغيرهما ، وقد قامت دار ابن حزم للطباعة والنشر بإعادة طبعه معتمدةً هذا التحقيق في طبعة أنيقة وفي مجلد واحد وهو معتمدنا في هذا البحث .

[2] تشير المقارنة التي عقدها الباحث في المبحث الخاص في تحول السياق وانتقال الخطاب إلى كثير من أوجه التميز والشبه عند ابن عاشور مع عدد من المفسرين ، ومن ذلك تلاقي عبارته مع عبارة البقاعي في تفسير مناسبة قوله تعالى : (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ)[المائدة: من الآية٢٧] . [انظر : البقاعي : نظم الدرر : ج ٢، ص٤٤٢ ، وابن عاشور : التحرير والتنوير ،ج ٥،ص٨١].

[3] التحرير والتنوير : ج١ ، ص٧.

القـــرآن ،لـــا للتذكير بها من أهمية بالغة في مراعاة خصوصية أسلوب القرآن عند بحث المناسبة والانسجام قديماً وحديثاً .

- الفصـــل الـــثاني : تناول هذا الفصل موضوع تناسب الآيات في الدراسات القديمة ، حيث خـــص المبحث الأول : مفهوم القدماء للمناسبة، وفائدة البحث عنها في القرآن . ورصدت في المبحث الثاني :أبرز اتجاهات الدراسات القرآنية القديمة في النظر إلى المناسبة بين التعميم المطلق والتوســـط والانصراف عن بيانها ، أما المبحث الثالث : فقد استعرضت فيه مظاهر التناسب في آيات القرآن وسوره التي تضمنتها الدراسات القديمة ، واكتفى هذا البحث بنموذج واحد من كتب علوم القرآن ، وآخر من التفسير ؛ اشتمل الأول على التنظير والثاني على التطبيق.
- الفصـــل الثالـــث : ويعد قسيماً للفصلين السابقين ، حيث توجه الاهتمام فيه لتتبع ظاهرة انســـجام النَّص القرآني من خلال بروزها في الدراسات الحديثة ، وقد اشتمل هذا الفصل على مبحثين :

خصـــص المبحث الأول : لعرض مفهوم هذه الدراسات للنص والخطاب ومعنى الانسجام ،مع عرض التأثيرات المباشرة وغير المباشرة لمباحث علم اللغة والتحليل البنائي والأسلوبي على نظرة هذه الدراسات .

أمـــا المبحث الثاني : فقد تم فيه استعراض أهم اتجاهات الدراسات القرآنية الحديثة نحو موضوع الاتســـاق والانســـجام في القـــرآن ، حيث صنفت تلك الاتجاهات حسب أسلوبها إلى اتجاهين عـــامين: فـــني ولغوي ؛ الاتجاه الفني : استعرضت فيه طريقة : "سيد قطب إبراهيم " و "محمود البســـتاني" في بحـــث انسجام النَّص القرآني وتقديم إطار فني لدراسته . أما الاتجاه اللغوي فقد عرضـــت فيه إسهامات كل من "تمام حسان" و"محمد خطابي" و"صبحي إبراهيم" الذين تنوعت طـــرائق تـــناولهم لموضوع الانسجام إلى منهجين ؛ بنائي أسلوبي: يمثله أطروحات تمام حسان ، ولســـاني نصي : يمثله الوصف العام للظاهرة عند محمد خطابي ، والتحليل والتطبيق عندصبحي إبراهيم.

- الباب الثاني : خصص هذا الباب لدراسة تجليات ظاهرة انسجام النَّص القرآني في تفسير ابن عاشور ، وقد قسم الباب على فصلين :
  - الفصـــل الأول : تناول الباحث فيه نظرة ابن عاشور لانسجام النَّص ، حيث كان المبحث الأول : لبيان المبادئ التي قام عليها مفهوم ابن عاشور للانسجام ومستويات تحليله .

أما المبحث الثاني : فاستعرضت فيه نماذج متعددة لمواضع تحول السياق وانتقال الخطاب ، وقورنت فـــيه عبارة ابن عاشور عن المناسبة والانسجام بعبارة الزمخشري وابن عطية والبقاعي لإظهار المدى الذي بلغته عبارة ابن عاشور في التعبير عن المناسبة والانسجام .

○ الفصـــل الثاني : ضم هذا الفصل بين دفتيه عرضاً موسعاً لوسائل انسجام النَّص القرآني التي اعتمد عليها ابن عاشور في إبراز الاتساق والانسجام ، وقد اشتمل الفصل على مبحثين :

المبحث الأول : جمعت فيه الوسائل المعجمية ، والنحوية كالتكرار والمقابلة والعطف والإحالة .

أمـا المبحــث الـثاني : فقد جمعت فيه الوسائل الدلالية والتداولية ، كموضوع الخطاب وترتيبه، والعلاقــات المعنوية، والجامع والمناسبة التي أسهمت إشارات ابن عاشور إليها في إعانة القارئ على فهم اتساق القرآن وانسجامه .

- وقــد انــتهى البحث بخاتمة رصدت فيها أبرز النتائج التي استخلصت من الفصول المختلفة في هذه الدراسة ، كما ختم بثبتٍ لفهارس الآيات، والشواهد، والكتب الواردة في ثناياه .

الدراسات السابقة:

بدايــةً يقرر الباحث أن من أهداف هذه الدراسة محاولة جمع أشتات الحديث المتفرق عن ظاهرة انسجام الـــنَّص القــرآني الــتي حظيت بعناية السلف والخلف ، ومثلت هدفاً من أهداف ابن عاشور التونسي في كتابة تفسيره "التحرير والتنوير" .

وقــد تنوعت الدراسات السابقة لموضوع الانسجام في القرآن ، بين دراسات مجملة تكتفي بضرب المثال على المظهر الاتساقي أو وسيلة الانسجام والمناسبة ، ودراسات مستوعبة البحث عن المناسبة والانسجام في النص القرآني كله ، عبرت عنها كتب التفسير القديمة والحديثة ، ويمكن بيان ذلك على النحو الآتي:

- الإشــارات العامة الواردة في كتب التفسير كما في : "الكشاف" للزمخشري ، و"المحرر الوجيز" لابن عطــية ؛ المعتمدة على بيان بعض العلاقات والمناسبات دون التعرض للقواعد العامة لإجراء المناسبة في القــرآن ، حيــث لم تكن هدفاً من أهدافها ، لكن الفائدة من تلك الإشارات اتضحت في الدراسات التالية لها ، فلها فضل السبق والتنبيه ولما بعدها فضل الإقتداء والتوجيه .
- الــنَّص على المناسبة والبحث عنها اعتماداً على الذائقة اللغوية للمفسر وانطباعاته عن النَّص ، ومثّل ذلك كتاب "التفسير الكبير" للفخر الرازي ، غير أنّ غَلَبة مصطلحات علم الكلام وقواعد المنطق على أسلوبه جعلت إشاراته عن المناسبة مستغلقة في كثير من المواضع .
- الحديــث عــن المناســبة تقعيداً وتنظيراً : وتجلى ذلك بصورة واضحة في كتاب "البرهان في علوم القــرآن" لبدر الدين الزركشي[1] حيث يعرّف المناسبة ويتحدث عن فائدتها ويقسم أنواع ارتباط الآي بعضــها ببعض قسمين : قسم تكون فيه الآية معطوفة على ما قبلها وعلى المفسر أن يبحث عن الجهة

---

[1] الإمام بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي (ت٧٩٤هـ)، أحد العلماء الأثبات ، الذين نجموا في القرن الثامن ، له مؤلفات عدة في فنون متعددة ، من مؤلفاته : البرهان في علوم القرآن ، البحر المحيط في أصول الفقه ، التنقيح لألفاظ الجامع الصحيح .[أنظر ترجمته في : مقدمة تحقيق كتاب البرهان لمحمد أبو الفضل إبراهيم].

الجامعـــة بيـــنها ، وقسم آخر لا تكون فيه الآية معطوفة ولهذا يبحث عنها في القرآئن المعنوية كالتنظير والمضادة والاستطراد وغير ذلك .

كما تحدث الزركشي عن مناسبة خاتمة السورة لفاتحتها ، وتحدث عن صور من انتقال الخطاب بين آيات السورة ووجه الاتصال فيما بينها . ويظهر أن مثل هذه الكتابات كانت ترصد ما ينبغي على المفسر أن يترسمه من القواعد والمبادئ في بحثه عن المناسبة في القرآن .

وفي القـــرن التاســـع الهجـــري انبرى برهان الدين البقاعي ليؤلف كتابه الموسوم "نظم الدرر في تناسب الآيـــات والســـور" تـــناول فيه تفسير المناسبة في القرآن كله يبحث علاقة كل آية بما قبلها وبما بعدها، وعلاقة موضوعات كل سورة بفاتحتها، وبأغراض السورة التي قبلها والتي بعدها، وعنده أن بحث المناسبة تتوقف الإجادة فـــيه عـــلى معرفة مقصود السورة لذلك فقد قدم بين يدي كل سورة حديثاً عن مقاصدها . وينطلق البقاعي في حديثه عن المناسبة بين الآيات والسور من القواعد التي وضعها شيخه أبو الفضل البجائي المالكي[1] وخلاصتها أن ((الأمـــر الكلي المفيد لعرفان مناسبات الآيات في جميع القرآن هو أنك تنظر الغرض الذي سيقت لـــه السورة ، وتنظر ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدمات ، وتنظر إلى مراتب تلك المقدمات في القرب والبعد من المطلوب، وتـــنظر عـــند انجرار الكلام في المقـــدمات إلى ما يستتبعه من استشراف نفس الســـامع من الأحكام واللـــوازم التابعة لـــه))[2].

غير أن البقاعي يمثل صورة لمذهب من مذاهب السلف التزم الحديث في مناسبات القرآن على أساس أن القـــرآن كالكلمة الواحدة ، ولذلك فقد تكلف –أحياناً– بيان المناسبة في مواضع توقف عن بيان مناسبتها –من خلال السياق– كثير من المفسرين ، إذ اعتمدوا على سياق أسباب النـــزول أو توقفوا أمامها دون إبداء مناسبة.

ثم يـــأتي بعـــد ذلـــك جلال الدين السيوطي[3] ليؤلف كتابه "تناسق الدرر في تناسب السور" يناقش فيه المناسبات بين السور ؛ لأن مواقع هذه السور –قد تعين لديه– أنها توقيفية في جميع القرآن ، ورأى أن من اللازم البحـــث عـــن المناســـبة بين السور ، وقد برهن على أن ترتيب السور توقيفي بإقامتها على قاعدة أن كل سورة تفصيل لإجمال ما قبلها[4] . كما اشتمل كتابه "الاتقان في علوم القرآن" على إشارات في الحديث عن المناسبة جمع

---

[1] أبو الفضل محمد بن محمد المشدالي المغربي البجائي المالكي : من آثاره شرح جمل الخونجي في المنطق ، توفي (٨٦٥هـــ).

[2] نظم الدرر : ج١،ص٧، ٨.

[3] هو عبدالرحمن بن أبي بكر بن محمد بن سابق الدين الخضيري السيوطي ، جلال الدين : إمام حافظ ومؤرخ أديب ، له نحو ستمائة مصنف منها : الاتقان في علوم القرآن ، الأشباه والنظائر ، جمع الجوامع ، الدر المنثور ، بغية الوعاة ، (ت٩١١هـــ).

[4] تناسق الدرر في تناسب السور : تحقيق عبد القادر أحمد عطا ، دار الكتب العلمية – بيروت لبنان ، ط(١٩٨٦م) ص٦٥.

فيها أقوال العلماء كعادته .على أن هذا النوع من الانسجام ليس محطّ اهتمام هذا البحث لأسباب تناولها الباحث في الفصل الثالث من الباب الأول ، ولكنه يمثل حديثاً ذا علاقة بموضوعنا[1] .

ولئن كانت هذه الدراسات صورة مما وقع عليه اهتمام السلف بموضوع المناسبة حيث ظل الحديث عنها منثوراً في كتب التفسير، واستقل أحياناً بأمثلة في كتب علوم القرآن دون فصل بين النظرية والتطبيق ، فقد اتجهت البحوث المعاصرة إلى التوسع في استثمار مناهج الدراسات الفنية والأسلوبية واللسانية في بلورة إطار تدرس فيه ظاهرة الاتساق والانسجام في القرآن ؛ حيث ترصد فيه مظاهرها ووسائلها مما يدل على خصوبة هذا الموضوع .

- ومن أوائل المحاولات الجادة في هذا المجال : دراسة سيدقطب "التصوير الفني في القرآن" التي جعل فيها التناسق الفني وتناسق الإيقاع الموسيقي مع الأغراض والمعاني من وسائل التصوير الفني في القرآن . وقد عدّ سيد قطب أنواعاً من التناسق الفني في القرآن منها ما تنبه إليه الباحثون في بلاغة القرآن – حسب قوله– كالتسلسل المعنوي في الانتقال من غرض إلى آخر ، وكألوان من النكت البلاغية مثل التعقيب بالفاصلة المتفقة مع السياق ، والتناسق النفسي الناشئ من تدرج النصوص وتدرج المشاعر المصاحبة لها، ومنها ما لم يشيروا إليه . ومن أهم ما اعتنى به سيد قطب التناسق العائد إلى التصوير، وتناسق الايقاع . والمطالع في كتابه "في ظلال القرآن" يلمس محاولته تطبيق نظريته عن التصوير الفني ، وإبراز قضية الانسجام ماثلة في كل سورة .
- ومن الدراسات التي استثمرت مفاهيم النقد الأدبي والفني دراسة محمود البستاني "دراسات فنية في التعبير القرآني" تناول فيها "سورة البقرة" واجتهد في إظهار التحام موضوعاتها وأغراضها وتناسب آياتها، مشيراً إلى قيمة عنوان السورة في تحليل انسجام موضوعاتها وإلى تلاحم الحوار والسرد والقصص فيها .
- ثم جاءت دراسة تمام حسان "البيان في روائع القرآن – دراسة لغوية وأسلوبية" لتمثل صورة من توظيف مفاهيم علم اللغة والأسلوبية في دراسة العلاقات التي تنتظم بها تراكيب الجمل في القرآن ، وقد تناول في دراسته القِيم الصوتية في القرآن وأهمها : الإيقاع والفاصلة ، كما تناول حديثاً عن انسجام القصة القرآنية من خلال تطبيق مفاهيمه عن الانسجام على "سورة يوسف" ، وقد اشتمل كتابه إشارات هامه عن القرآئن النحوية المؤثرة في الارتباط والاتساق وعن تناسق هيكل النص القرآني.
- ومن الدراسات التي اعتمدت على مفاهيم اللسانيات الحديثة وتحليل الخطاب دراسة محمد خطابي "لسانيات النّص – مدخل إلى انسجام الخطاب" استعرض فيها مفهوم انسجام الخطاب في الدراسات

[1] أورد حاجي خليفة في كتابه كشف الظنون : ج١،ص٤٥٨ عدداً من كتب التفسير التي اهتمت بالمناسبة ومنها تفسير المريسي شرف الدين أبي الفضل محمد بن عبدالله بن محمد بن أبي الفضل الشافعي ، المتوفي سنة٦٥٥هـ . وأفاد أنه سفر كبير في عشرين مجلداً ، قصد فيه مؤلفه إرتباط الآيات بعضها ببعض ، وبيّن وجوهه . ولم أعثر عليه ولا على مختصراته .

الغربية ثم في التراث اللغوي العربي أدباً وبلاغة وتفسيراً ، ورصد ما اشتمل عليه هذا التراث من مفاهيم ومصطلحات تعدّ أساساً في تحليل الخطاب اليوم ، وذلك ليثبت وعي السلف بموضوع الاتساق والانسجام.

وقد ذَكَرَ خطابي أن دراسته خلصت إلى أن هناك ثلاثة مستويات وصفية -لدى المفسرين- يظهر الخطاب بواسطتها منسجماً هي : ، المستوى المعجمي ، والمستوى النحوي، والمستوى الدلالي . ومع أن دراسته لم تكن معنية بموضوع الانسجام في النَّص القرآني إذ كان يبحث عن تشكيل إطار لدراسة الانسجام في القصيدة الشعرية إلا أن محاولته في جمع أشتات الحديث عن الاتساق والانسجام المنثورة في كتب السلف وضبط مصطلحاتها وتنظيرها بالدراسات الغربية مثلت جهداً طيباً لا يستغني عنه أي باحث عن الاتساق والانسجام في النَّص القرآني .

- وأقرب الدراسات صلة بموضوع هذا البحث هي الدراسة التي أنجزها صبحي إبراهيم تحت عنوان "علم اللغة النَّصي بين النظرية والتطبيق – دراسة تطبيقية على السور المكية" ، فقد كان التماسك النَّصي "مظاهر ووسائل" هدفاً من أهداف الدراسة ، توسل في البحث عنه بمفاهيم علم اللغة النَّصي، واختار السور المكية مجالاً تطبيقياً لنموذج التحليل النَّصي ، وبيّن أن سبب اقتصاره على السور المكية هو أن هذه السور تمثل نصاً متكاملاً «لأنها تحمل وحدة دلالية كلية تتمثل في أنها تتحدث كلها عن قضية العقيدة؛ الألوهية والربوبية ومايتعلق بها ... والوحدة الدلالية هذه تمثل "التماسك النصي" في أعظم صورة له»[(1)] واعتذر بأن التطبيق على السور المدنية مع المكية تواجهه فيه خطورة الإلتزام بالمنهج الذي أخذ به . وهذه واحدة من النقاط التي يأخذها الباحث على هذه الدراسة ، ذلك أن سور القرآن جميعاً ذات وحدة دلالية مشتركة لأنها تعالج موضوعات العقيدة والتشريع ، وإدراك الترابط بين هذه الموضوعات غير عسير ، فالعقيدة أساس التشريع ، هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن كثيراً من السور المكية اشتملت على آيات مدنية والعكس[(2)] ، فالعبرة في دراسة انسجام السورة هي صورتها النهائية في المصحف ، صحيح أن الفترة الزمنية تستصحب في دراسة السياق الذي نزلت فيه السورة، ولكن الاعتماد المطلق عليه في تفسير الانسجام غير صحيح . وهذا ما سار عليه السلف في دراسة المناسبة .

---

[1] صبحي إبراهيم الفقي: علم اللغة النَّصي بين النظرية والتطبيق ، دار قباء – القاهرة،ط١(٢٠٠٠م) ،ص٩٦.

[2] من آيات القرآن ما نزل في المدينة وحكمه مكي وقد استشهدوا له بسورة الممتحنة ، وأشاروا إلى عدد من الآيات المكية في السور المدنية منها قوله تعالى: (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ...) [الأنفال:٣٣] وأن سورة التوبة مدنية غير آيتين (لقد جاءكم رسول من أنفسكم ...) إلى آخر السورة ، وسورة الزمر مكية إلا ثلاث آيات نزلن بالمدينة قوله : (قل ياعبادي الذين أسرفوا...)[الزمر :٥٣] إلى تمام الثلاث .

انظر : (أ) الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها : لأبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي ، تحقيق محيي الدين رمضان . مؤسسة الرسالة .ط٤(١٩٨٧م) ج٢ ،ص٢٣٦.

(ب) الزركشي : البرهان ،ج١،ص١٩٥ ، ٢٠٢.

ومع أن المنهج الذي أخذ به صبحي إبراهيم يُلزم محلل النَّص القرآني بمفهوم معين للوحدة الدلالية إلا أنـه كـان بإمكانـه أن يجتهد في البحث عن الجامع المشترك والإطار الموحِّد الذي تؤول إليه الوحدة الدلالـية للسـور وهو إطار الدعوة والموعظة والتزكية والتشريع ، وبذلك تلتقي مقاصد السور المكية والمدنـية وموضوعاتها . ويبقى لصبحي إبراهيم جهده المتميز في البحث عن العلاقات والروابط وتقديم الاحصائيات عن وسائل التماسك كالإحالة والتوابع في عدد من سور القرآن .

وأخـيراً : فـإن هذه صورة من الحضور الواسع لموضوع البحث في ميدان الكتابة والتأليف، وهي دليل كـافٍ عـلى أهميته وخصوبة مجالاته . وقد استصحب الباحث خلاصة هذه الدراسات في تتبعه لتجليات ظاهرة انسجام النَّص القرآني في تفسير ابن عاشور التونسي التي لم يجد الباحث من تولى الكشف عنها بدراسة مستقلة ، ولئن أشارت إليها بعض الدراسات التي تحدثت عن منهجه في التفسير فإنما كانت حديثاً عارضاً أو لفتة عابرة لا تتناسـب مع المساحة التي أفردها ابن عاشور لهذه الظاهرة القرآنية المعجزة ، ومهما يكن من شيء فإن عجائب القرآن لا تنقضي ، وما أجمل ما تمثل به الإمام الزركشي في مقدمة البرهان من قول القائل :

هذا، وكم فيه من مزايـا وفي زواياه من خبايـــا

ويطمع الحبر في التقاضي فيكشف الخبر عن قضايا

فمن الله يستمد العون والتوفيق على تدبر كتابه ، والانتفاع بآياته .

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ [1]

والحمد لله أولاً وآخراً .

الباحث،،،

[1] سورة آل عمران:الآية ٨.

الباب الأول:

انسجام النَّص القرآني

بين علم المناسبة والدرس اللغوي الحديث

الفصل الأول:

قضايا وتعريفات في النَّص القرآني

الفصل الثاني:

تناسب الآيات والسور في الدراسات القديمة

الفصل الثالث:

انسجام النَّص القرآني في الدرس الحديث

الفصل الأول:
قضايا وتعريفات في النص القرآني

المبحث الأول: مفهوم النص القرآني

المبحث الثاني: ترتيب النص القرآني

المبحث الثالث: خصائص الأسلوب القرآني

مدخل :

نهـــدف من إيراد هذا الفصل إلى الاطلاع على القواعد والمبادئ التي بنيت عليها نظرة الدراسات القرآنية القديمة للمناسبة بين آيات القرآن الكريم وسوره.

فالمبحـــث الأول : يـــتوجه النظر فيه نحو تحديد مفهوم النص القرآني فليس المقصود بـــ(النص) ــ في هذا البحـــث عـــلى الأقـــل ــ جملة ما في المصحف من السور والآيات وإن كان يصدق عليه ذلك، بل المقصود منه تحديداً ما أطلق القرآن عليه اسم (السورة) فنحن ندرك أن مصطلح (النص) المتعارف عليه في الدراسات الحديثة فيه من السعة ما يمكن أن يوصف به القرآن كلـــه وفيه من الانكماش ما يمكن معه أن يطلق على آية واحدة منه، أو مجموع آيات من سورة من سوره.

ونؤكد أهمية هذا التحديد ــ على وجه أخص ــ حين نستصحب في دراستنا تلك الجهود والمحاولات التي توجهت للكشف عن علاقات التناسب والترابط بين سور القرآن بعضها ببعض تناسباً يصبح معه القرآن الكريم ــ عـــلى حـــد وصـــفهم ــ (كالكلمة الواحدة) وفي ذلك ما فيه من الملاحظات التي سيعرضها البحث، أقل ما وصفت به التكلف البعيد عن طبيعة ترتيب آيات القرآن الكريم وسوره.

إضافة لما سبق، واعتماداً على ما في مصطلح (السورة) التي تعد أساساً في فهم ظاهرة الانسجام و الترابط والاتســـاق؛ فـــإن إطلاق مفهوم النص يتوجه به نحو كل سورة من سور القرآن الكريم ، فكل سورة منه نص مـــتكامل، أمكـــن ويمكـــن من خلالـــه إدراك علاقاته ووشائجه التي تربط بين موضوعاته وقضاياه ، ووصف فضـــاءاته الساكنة والمتحركة سعياً لتحقيق غايتي التدبر والتذكر المقصودتين من إنـــزالـــه ، المنصوص عليهما في قـــولـــه تعالى: ﴿ كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾[1] .

كمـــا أن الســـورة ــ مهما قل عدد آياتها ــ كانت محط تحدٍ للعرب أن يأتوا بمثلـــها حين ادعوا مكابرة مـــنهم أن القـــرآن لـــيس كـــلام الله تعـــالى، فســـجل الله عليهم عجزهم عن الإتيان بمثلـــه في قولـــه تعالى:

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾[2].

ومن خلال التحديد الذي سنعرضه لمفهوم السورة سنوضح الحكمة من تسوير القرآن، ثم نعرض بالمناقشة لتســـمية الســـور (عـــنوان السورة) لما لذلك من أثر في تقييمنا لتلك المحاولات التي تتخذ العنوان مفتاحاً لفهم النص(السورة)، وبيان مدى اقتراب تلك المحاولات من طبيعة الدراسات القرآنية أو ابتعادها عنها .

---

[1] سورة ص:الآية ٢٩.

[2] سورة البقرة:الآية ٢٣.

وقــد ترتــب عــلى تحديد مفهوم النَّص (السورة) الحديث عن ترتيب النَّص (الآيات في السورة الواحدة وترتيــب الســور في القرآن) ، فأما ترتيب الآيات في السور فهو مسألة توقيفية وقع الإجماع بين الأمة على أن ترتيــبها توقيفي من النبي (صلى الله عليه وسلم) على ما أخبره به جبريل (عليه السلام) عن الله عز وجل ، وأما ترتيب السُّور فقد وقع في ذلك الخلاف الذي ستكشف عنه النصوص الواردة في المبحث الثاني .

وبــناءً عــلى هــذه القواعــد والمبادئ –فيما يخص مفهوم النَّص القرآني وترتيبه– كان لأسلوب القرآن خصــائص تمــيزه عــن جملة النصوص الأخرى ، ولــهذه الخصائص أثر كبير في دراسة المناسبة والانسجام عند القدماء والمحدثين ، وقد أجمل المبحث الثالث الحديث عن أهم هذه الخصائص.

المبحث الأول:
مفهوم النص القرآني

معنى السورة لغة واصطلاحاً:

❑ معنى (السورة) في اللغة:

وردت هذه الكلمة في القرآن الكريم بصيغة المفرد في تسعة مواضع ، و بصيغة الجمع في موضع واحد[1]، وذلك في الآيات الآتية:

١- قال تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[2].

٢- قال تعالى: ﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾[3].

٣- قال تعالى: ﴿ وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ ﴾[4].

٤- قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾[5].

٥- قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا ۚ صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾[6].

٦- قال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[7].

٧- قال تعالى : ﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[8].

---

[1] انظر : محمد فؤاد عبدالباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار الجيل – بيروت، (١٩٨٧م)، (مادة: سور) ،ص٣٧٠.

[2] سورة البقرة:الآية ٢٣.

[3] سورة التوبة:الآية ٦٤.

[4] سورة التوبة:الآية ٨٦.

[5] سورة التوبة:الآية ١٢٤

[6] سورة التوبة:الآية ١٢٧.

[7] سورة يونس:الآية ٣٨.

[8] سورة النور:الآية ١.

٨- قال تعالى: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾[1].

٩- قال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[2].

وبالرجوع إلى المعاجم اللغوية لمعرفة معنى الكلمة، والإطلاع على حقلها الدلالي، وجدنا "القاموس المحيط" يسوق المعاني الآتية: ((السورة: المنزلة، والسورة من القرآن: معروفة لأنها منزلة بعد منزلة، مقطوعة عن الأخرى، والشرف، وما طال من البناء وحَسُن، والعلامة، وعرق من عروق الحائط. جمع سُوْر وسُوَر))[3]

والملاحظ أن صاحب القاموس المحيط لم يتعرض لما اشتغل به من قبله كثير من اللغويين والمفسرين الذين نظروا إلى المعنى من خلال النطق بالكلمة مهموزة (سؤرة) أو مخففة ولم يشتغل ـ بناءً على ذلك ـ بما إذا كانت الواو أصلية أو منقلبة عن أصل وما يترتب على ذلك من المعاني.

فالإمام الطبري[4] يوضح في تفسيره معنى هذه الكلمة على اختلاف لغات النطق بها ـ مهموزة أو مخففة ـ فيقول: ((تسمى السورة من سور القرآن سورة ، وتجمع سُوَراً على تقدير خُطْبَة وخُطَب وغُرْفَة وغُرَف، والسورة بغير همز المنزلة من منازل الارتفاع ، ومن ذلك سُوْر المدينة سمي بذلك الحائط الذي يحويها لارتفاعه على ما يحويه، غير أن السُوْرَة من سُوْر المدينة لم يسمع في جمعها سُوَرٌ كما سمع في جمع سُوْرَة من القرآن سُوَرٌ، قال العجاج[5] في جمع السورة من البناء:

فرب ذي سرادق محجور سرت إليه في أعالي السُّور

فخرج بتقدير جمعها على تقدير جمع بُرَّة وبُسْرَة لأن جمع ذلك بُرّ وبُسْرٌ وكذلك لم يسمع في جمع سورة من القرآن (سُوْر) ولو جمعت كذلك لم يكن خطأ في القياس إذا أريد به جميع القرآن))[6]

وبهذا يفرق الإمام الطبري بين معاني سورة القرآن وسورة البناء، بناء على تتبعه المشار إليه بقوله: (ولم يسمع ...) ثم بتحليله طريقة العرب في إطلاق الجمع مثل: (بُر وبُسْر) التي خرج جمع (سُوْرَة) البناء عليها ويخلص إلى أنه: (لم تكن سور القرآن مجتمعة اجتماع البر والشعير وسور المدينة بل كل سورة منه موجودة منفردة

---

١ سورة محمد:الآية ٢٠.

٢ سورة هود:الآية ١٣.

٣ مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي: القاموس المحيط، تحقيق مكتب تحقيق التراث، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢ (١٩٨٧م)، (مادة: سور)، ص٥٢٧.

٤ أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري : صاحب التاريخ الشهير والتفسير الجامع، كان إماماً في فنون كثيرة منها الحديث والفقه والتفسير والتاريخ، ولد سنة ٢٢٤هـ ، وتوفي سنة ٣١٠هـ.انظر: صديق بن حسن القنوجي : أبجد العلوم . دار ابن حزم .بيروت ط١(٢٠٠٢م) ص ٦١٧.

٥ هو عبد الله بن رؤبة : أحد بني سعد بن مالك ، من أشهر الرجاز هو وولده رؤبة . [انظر : ابن سلام : طبقات الشعراء ، ص٢٠٠].

٦ أبو جعفر الطبري: جامع البيان في تفسير القرآن، طبعة دار الفكر ١٩٧٨م ص٣٥.

بنفســها انفــراد كــل غرفة من الغرف وخطبة من الخطب، فجعل جمعها جمع الغرف والخطب المبني جمعها من واحدها.

كما يستدل على معنى المنــزلة من الارتفاع الذي يفيده لفظ (السورة) بقول نابغة بني ذبيان[١]:

ألم تر أن الله أعطاك سورة ترى كل ملك دونها يتذبذب

ثم يفسر الطبري معنى (السورة) في لغة من ينطقها بالــهمز فيقول: "وقد همز بعضهم السورة من القرآن، وتأويلــهــا في لغة من همزها القطعة التي أفضلت من القرآن عما سواها وأبقيت وذلك أن سؤر كل شيء البقية منه تبقى بعد الذي يؤخذ منه"[٢]

ويستدل لمعنى: (البقية) الذي يفيده لفظ (السؤر) بشاهدين من شعر أعشى بني ثعلبة أحدهما قولــه:

بانت وقد أسأرت في النفس حاجتها بعد ائتلاف وخير الود ما نفعا[٣]

والــذي يظهر أن الطبري يميل للنطق بالكلمة بلا همز، ويشهد لذلك إطالة شرحه معنىالمنــزلة والارتفاع وكثرة استشهاداته، وتفريقه بين معنى السورة من القرآن والسورة من البناء.

وقــد لقيت إشارات الطبري في معنى السورة تفصيلاً لدى المفسرين من بعده، فالزمخشري ــ على سبيل المــثال ــ يفصــل القول في معنى الكلمة على اختلاف لغتي النطق بها فيقول: "وواوها إن كانت أصلاً فإما أن تســمى بسورة المدينة وهي حائطها، لأنها طائفة من القرآن محدودة محوزة على حيالــها كالبلد المسور، أو لأنها محــتوية على فنون من العلم وأجناس من الفوائد كاحتواء سور المدينة على ما فيها. وإما أن تسمى بالسورة التي هي الرتبة ... لأحد معنيين لأن السورة بمنــزلة المنازل والمراتب يترقى فيها القارئ وهي أيضاً في أنفسها مترتبة: طوال وأوساط وقصار، أو لرفعة شأنها وجلالة محلــها في الدين. وإن جعلت واوها منقلبة عن همزة فلأنها قطعة وطائفة من القرآن كالسورة التي هي البقية من الشيء والفضل منه"[٤].

فاخــتلاف لغة النطق بالكلمة ــ من وجهة نظر الزمخشري ــ أعطى الكلمة في لغة الــهمز معنى (السؤر) ولم تظهــر الــهمزة لكون الواو قد انقلبت عن همزة، أما إذا كانت الواو أصلية فالكلمة قد أُخِذَتْ من (سورة

١ هو زياد بن معاوية بن ضباب الذبياني ، أبو أمامة : شاعر جاهلي من الطبقة الأولى ، يقول عنه ابن سلام الجمحي: "أحسنهم ديباجة شعر ، وأكثرهم رونــق كلام ... وإنما نبغ النابغة بعدما احتنك وهلك قبل أن يُهتر". كان حظياً عند النعمان بن المنذر ، عُمر طويلاً وتوفي (١٨ق.هــ) . انظر : محمد بن سلام الجمحي : طبقات الشعراء ، تحقيق طه أحمد إبراهيم ، دار الكتب العلمية –بيروت ، ط١(١٩٨٢م) ،ص٤٢.

٢ جامع البيان : في تفسير القرآن . ص٣٦.

٣ البيــت لأعشــى بني ثعلبة وهو ميمون بن قيس بن جندل، من بني قيس بن ثعلبة، أبو بصير المعروف بأعشى قيس من شعراء الطبقة الأولى في الجاهلية، وأحــد أصــحاب المعلقات، كان كثير الوفود على الملوك من العرب والفرس، غزير الشعر يغلب على اللون القصصي الحماسي ووصف الخمر. والبيت من قصيدة لــه يمدح فيها هوذة بن علي الحنفي وهو في ديوانه الذي حققه الدكتور محمد محمد حسين ونشرته مؤسسة الرسالة ط٧ (١٩٨٣م) ص١٥١.

٤ أبــو القاسم محمود بن عمر الزَّمَخْشَرِيّ : الكشاف عن حقائق التنــزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي (بيروت) ط١ (١٩٩٧م)، ج١ ص١٢٨.

المدينة) وهي حائطها، لما ذكر من الاحتمالات والدلالات، أو من الرتبة والمنزلة والرفعة، وهي المعاني التي أوصلنا إليها فيما بعد الفيروز أبادي[1] كما سبق إيراده.

ويتابع بدر الدين الزركشي رأي القائلين إن أصل الكلمة من المهموز سواء ظهر الهمز أم لم يظهر، فيسوق رأياً نسبه للقتيبي[2] يقول فيه: ((السورة تهمز ولا تهمز، فمن همزها جعلها من "أسأرت" أي أفضلت من السؤر وهو ما بقي من الشراب في الإناء كأنها قطعة من القرآن، ومن لم يهمزها جعلها من المعنى المتقدم وسهل همزها))[3]

ويظهر بعد هذا المعنى من لجوء الزركشي لتوضيح الجامع بين معنى السؤر وما تمثله السورة من القرآن على ضوء ذلك المعنى، فلو لم يكن المعنى بعيداً لما احتاج إلى توضيح هذا التشبيه.

ولكن المتأمل في المعاني التي أوردها الطبري ثم الزمخشري للفظ السورة على أساس أن الواو أصلية فيه، وكذا المعاني التي وردت في القاموس المحيط يجدها أقرب في الدلالة على ما تمثله السورة بالنسبة للآيات الواردة فيها ؛ من حيث الإحاطة والمرتبة والمنزلة والبناء الحسن، وليس بينها وبين لفظ السؤر المهموز قرابة ولا آصرة تجعله بها مصدر اشتقاق لها، ويدل على هذا أن أحد المفسرين – وهو ابن عطية – يقول عند شرح معنى هذه الكلمة: ((وأما السورة فإن قريشاً كلها ومن جاورها من قبائل العرب كهذيل وسعد بن بكر، وكنانة يقولون: سورة بغير همز. وتميم وغيرهم أيضاً يهمزون فيقولون: سؤر))[4]

وفي هذا دليل على أن القول بالهمز لا يتوجب منه أن يكون اشتقاق الكلمة قد جاء من الفعل (أسأرت) أو المصدر (السؤر) وأن ذلك مجرد احتمال فحسب. ويشهد لذلك أن بن سيده[5] بين سبب توهين سيبويه[6] لغة الهمز في (النبي) كونها غير مستعملة فقال: ((وزعم سيبويه أن بعض أهل الحجاز يهمزون النبي وهي لغة رديئة، ولم يستردئها سيبويه ذهاباً منه إلى أن أصله غير الهمز وإنما استردأها من حيث كثر استعمال الجمهور من العرب لها من غير همز))[7]

فندرة الاستعمال للفظ السورة بالهمز يجعلنا نتخذ موقف سيبويه في عدم الاعتداد بها، ثم إنه قد سمع عن بعض العرب أنهم يهمزون كل واو ساكنة قبلها ضم وإن لم يكن لها أصل، فقد نقل (ابن سيده) هذا فقال:

---

١ هو مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازي، الفيروز أبادي، من أئمة اللغة والأدب، كان مرجع عصره في اللغة والحديث والتفسير، من مصنفاته القاموس المحيط، وبصائر ذوي التمييز توفي في زبيد، عام(٨١٧هـ)، [انظر: ترجمته في: الأعلام لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، ط٩ (١٩٩٠م)، ج٧ص١٤٦].

٢ هو أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، صاحب عيون الأخبار، ومشكل القرآن، وغيرهما. توفي سنة (٢٧٠هـ).

٣ الزركشي: البرهان، ج ١ ص٢٦٣

٤ أبو محمد عبد الحق بن عطية: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. دار ابن حزم . بيروت ط١(٢٠٠٢م) ص٣١.

٥ هو علي بن إسماعيل أبو الحسن الضرير، المعروف بابن سيده، العالم الأندلسي، صاحب المحكم والمخصص، وشرح أبيات الجمل، توفي نحو (٤٥٨هـ).

٦ أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر : لقب بسيبويه لازم الخليل بن أحمد وألمع شيوخه حماد بن سلمة بن دينار البصري ، دفع به إلى حدق النحو ، والأخفش الأكبر، ويعقوب بن إسحاق،وعيسى بن عمر، ويونس بن حبيب ،وسيبويه صاحب السفر العظيم في النحو المسمى بالكتاب الذي لقي حظاً سعيداً لدى العلماء فتلقوه بالقبول .

٧ ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل النحوي: المخصص، المطبعة الأميرية، بولاق، مصر ط١ (١٣٢٠هـ) ج١٤ ص٨.

((وزعم الفارسي[1] عن بعض الأشياخ أراه محمد بن يزيد[2] أن أبا حية النميري[3] كان يهمز كل واو ساكنة قبلها ضمة، وإن لم يكن لها أصل، وتعليله عنده (أي عند أبي علي الفارسي) أن يتوهم الضمة التي على الحرف الذي قبل الواو واقعة على الواو))[4].

وهذا الذي نقله الفارسي عن أشياخه يعزز ما سبق من عدم ضرورة ربط معنى لفظ السورة مهموزاً بمعنى السؤر أي البقية لأن في العرب من يهمز كل واو ساكنة قبلها ضمة وإن لم يكن لهذه الهمزة أصل.

كما أنه لا داعي لمحاولة البحث عن مناسبة تربط بين بقية ما يشرب الشارب وهو (السؤر) و (السورة) كونها قطعة من القرآن، لأنه لم يذهب شيء من القرآن حتى نسمي ما يفضل منه أو يبقى (سؤرة) بحجة سماعنا من ينطقها بالهمز.

وقد ذكر الزركشي معاني أخر كالعلو والوثبة، ولن نطيل في مناقشتها وعرضها، ولكن لن نتجاوز أحد المعاني التي وردت في كتابه حيث يقول: ((ويحتمل أن تكون من السورة بمعنى المرتبة، لأن الآيات مرتبة في كل سورة ترتيباً مناسباً، وفي ذلك حجة لمن تتبع الآيات بالمناسبات))[5]. فقد يتوهم من هذا وجود تعارض مع ما سبق لنا إيراده من "القاموس" عن المنزلة حيث قال: ((والسورة: المنزلة ومن القرآن معروفة، لأنها منزلة بعد منزلة مقطوعة عن الأخرى))[6] لكن قليلاً من التأمل يحصل به التفريق بين ما عناه الزركشي من الترتيب بين الآيات في السورة الواحدة ، وبين المنازل المقصود بها أحد أمرين: إما السُّوَر المنفصل بعضها عن بعض أو الآيات المنفصل بعضها عن بعض بما اصطُلِح على تسميته بـ (الفواصل)[7] التي يتوقف عندها القارئ، وبها تعد الآيات في كل سورة.

وأخيراً فإن تسمية مجموع آيات معينة من القرآن (سورة) هو من مصطلحات القرآن وقد ((شاعت تلك التسمية عند العرب حتى المشركين منهم، فالتحدي للعرب ... لا يكون إلا تحدياً باسم معلوم المسمى والمدار عندهم وقت التحدي))[8]. ولم يسمِّ أحد من العرب نصاً أو كلاماً منثوراً سورة أبداً.

❑ معنى "السورة" في الاصطلاح:

---

١ أبو علي حسن بن أحمد بن الفارسي : أخذ عنه السيرافي والرماني ، ثم تلمذ له عبدالقاهر الجرجاني ، له كتاب الإيضاح والتكملة في النحو ، توفي ببغداد سنة ٣٧٧هـ.

٢ هو محمد بن يزيد الخزاعي : حدّث عن المبرد وأخذ عنه الفارسي والسيرافي ، توفي (٣٢٥هـ) . [انظر : أبجد العلوم : ص٥٨٩] .

٣ هو الهيثم بن الربيع، الشاعر، قدم على ابن أخيه الراعي النميري، وكان يروي عن الفرزدق . [انظر ترجمته في طبقات الشعراء لابن سلام الجمحي: ص١٤٣].

٤ المخصص : ج١٤ ص١٣.

٥ الزركشي : البرهان. ج ٢ص٢٤٦ .

٦ الفيروز أبادي: القاموس. مادة (سور) ص٢٥٧.

٧ عرفها الزركشي بقوله: ((هي كلمة آخر الآية، كقافية الشعر وقرينة السجع... وتقع الفاصلة عند الاستراحة في الخطاب لتحسين الكلام بها، وهي الطريقة التي يباين القرآن بها سائر الكلام. وتسمى فواصل لأنه ينفصل عندها الكلامان، وذلك أن آخر الآية فصل بينها وبين ما بعدها، ولم يسموها أسجاعا.)) [انظر: الزركشي، البرهان، ج١، ص٥٤،٥٣].

٨ ابن عاشور: التحرير والتنوير ، ج١ ص٨٣.

نقصد بالاصطلاح هنا: اصطلاح المفسرين والمؤلفين في علوم القرآن، وقد اكتفينا في هذا البحث بتعريفات أربعة منهم، موزعين على فترات زمنية مختلفة، وسيكون أحد هذه التعريفات محط تركيزنا للاعتماد عليه في الحديث عن انسجام الخطاب في النص القرآني .

١-تعريف الإمام محمود بن عمر الزمخشري:

((السورة: الطائفة من القرآن، المترجمة، التي أقلها ثلاث آيات))[١].

٢-تعريف أبي محمد عبد الحق بن عطية:

((السورة عبارة عن آيات مسرودة لها بدء وختم)) [٢]

٣-تعريف أبي الحسن علي بن أحمد التجيبي الحرالي[٣].

((السورة: تمام جملة من المسموع يحيط بمعنى تام بمنزلة إحاطة السور بالمدينة))[٤].

٣- تعريف برهان الدين إبراهيم بن عمر الجعبري[٥] :

((حد السورة: قرآن يشتمل على آي ذوات فاتحة وخاتمة، وأقلها ثلاث آيات))[٦]

٤- تعريف محمد الطاهر بن عاشور التونسي:

((السورة: قطعة من القرآن معينة بمبدأ ونهاية لا يتغيران، مسماة باسم مخصوص، تشتمل على ثلاث آيات فأكثر، في غرض تام ترتكز عليه معاني آيات تلك السورة، ناشئ عن أسباب النزول، أو عن مقتضيات ما تشتمل عليه من المعاني المتناسبة))[٧]

وبالنظر في التعريفات المتقدمة نجدها تشترك في التعبير عن حد السورة من حيث: عدد الآيات، والمعنى التام والغرض الذي تحيط به، والبدء والختام المعروفين للقارئ. وقد تفرد التعريف الأول وتابعه الأخير في الإشارة إلى اسم السورة الذي يُدَلُّ به عليها، وفي ذلك مناقشات سنعرض لها لاحقاً.

ونحن نختار تعريف ((ابن عاشور)) فهو ـ على طوله ـ شامل وواضح العبارة، ومبين لسبب دوران الآيات في غرض تام في السورة، كما أنه يحدد السورة من جانب البناء والشكل من جهة، ومن جانب التركيب والنظم والتناسب من جهة أخرى.

---

١ الزمخشري: الكشاف: ج ١ ص١٢٧.

٢ ابن عطية: المحرر الوجيز، ، ص ١٣٤٢.

٣ الحرالي بفتح الحاء والراء المهملتين ، وبعد الألف لام مشددة مكسورة نسبة إلى حرالة قرية من أعمال مرسية ،هو : أبو الحسن علي بن أحمد بن الحسن التجيبي ، صاحب التفسير المسمى : مفتاح لباب المقفل لفهم القرآن المنزل، اعتمد عليه البقاعي في تفسيره ، وله أيضاً شرح الموطأ ، والشفاء . [انظر ترجمته في شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، بيروت، (د.ت.ط) ، ج٥، ص١٨٩ والقاموس المحيط، (مادة: حرل)، ص١٢٧١].

٤ نقل التعريف برهان الدين البقاعي في كتابه: نظم الدرر في تناسب الأيات والسور، ج ١ص٦٢ .

٥ هو إبراهيم بن عمر بن إبراهيم الجعبري، الملقب ببرهان الدين، صاحب شرح الشاطبية، المسمى كنز المعاني، وكتاب عقود الجمان، وغيرها، توفي (٧٣٢هـ) [انظر ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، حيدر آباد(١٣٥٠هـ).

٦ نقل التعريف الزركشي في البرهان. ج ١ ص٢٦٤.

٧ ابن عاشور: التحرير والتنوير. ، ج ١ ص٨٣.

حكمة التسوير:

أسلوب التسوير والتقسيم أحد مبتكرات القرآن الكريم، وسنة جديدة في الكلام العربي، "أدخل بها عليه طريقة التبويب والتصنيف"[١] وقد تعرض المفسرون قديماً وحديثاً لبيان الحكم المتعددة من وراء هذا الأسلوب في ترتيب القرآن الكريم؛ فالزمخشري : يشير إلى عدد من الحكم في منهج التسوير وفي ترجمة السورة (عنونتها وتسميتها) ومنها: "أن الجنس إذا انطوت تحته أنواع واشتمل على أصناف، كان أحسن وأنبل وأفخم من أن يكون بياناً واحداً. ومنها أن القارئ إذا ختم سورة أو باباً من الكتاب، ثم أخذ في آخر كان أنشط له وأهز لعطفه، وأبعث على الدرس والتحصيل منه لو استمر على الكتاب بطوله"[٢]. وهذا فيما يخص فوائد التقسيم والتبويب عموماً، وأما يخص القرآن ، فيذكر أن ذلك المنهج يعين على حفظ القرآن وتعظيمه وتعلمه. كما يشير إلى فائدة أخرى متعلقة بالتفصيل داخل السورة الواحدة، وأثره في البناء العام لها، فيقول: "ومنها أن التفصيل سبب تلاحق الأشكال والنظائر وملاءمة بعضها لبعض. وبذلك تتلاحظ المعاني ويتجاوب النظم"[٣].

ويضيف الزركشي على هذه الفوائد فائدة متعلقة بالإعجاز، ذلك أنه "في تسوير السورة تحقيق لكون السورة بمجردها معجزة وآية من آيات الله تعالى"[٤].

وقد كان التحدي للمشركين الذين أنكروا أن يكون القرآن من عند الله هو أن يأتوا بسورة من مثله، قال تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ [٥].

فكان المطلوب منهم في التحدي "قطعة من ذلك المثل الذي ادعوه حكيمة المعاني متلائمة المباني منتظم أولها بآخرها كسور المدينة في صحة الانتظام وحسن الالتئام والإحاطة بالمباني التي هي كالمعاني"[٦].

وقد بلغ عدد سور القرآن كما هو معلوم مائة وأربع عشرة سورة، وتختلف هذه السور في الطول والتوسط والقصر "تنبيهاً على أن الطول ليس من شرط الإعجاز، فهذه سورة "الكوثر" ثلاث آيات وهي معجزة إعجاز سورة "البقرة""[٧].

ومن حِكَم التسوير واختلاف السور من حيث عدد آياتها "تدريج الأطفال من السور القصار إلى ما فوقها يسيراً يسيراً، تيسيراً من الله على عباده لحفظ كتابه، فترى الطفل يفرح بإتمام السورة فرح من حصل على حد معتبر"[٨].

---

[١] ابن عاشور: التحرير والتنوير. ج ١ ص١١٨.

[٢] الكشاف: ج ١ ص١٢٨.

[٣] المصدر نفسه : ج ١ ص١٢٨.

[٤] الزركشي : البرهان ج١ ص٢٦٤.

• سورة البقرة:الآية ٢٣.

[٦] البقاعي: نظم الدرر ، ج ١ ص٦٣.

[٧] الزركشي: البرهان ، ج ١ ص٢٦٤ .

[٨] المصدر نفسه : ج١ص٢٦٥ .

ومع أن الزمخشري قد ذكر أن الكتب الإلــهية السابقة نــزلت مقسمة، وأدخلها بذلك في معنى التسوير بقولــه: «وكذلك أنــزل الله التوراة والإنجيل والزبور وما أوحاه إلى أنبيائه مسورة»[١] إلا أننا نرى أن ذلك من بــاب إطلاق التسوير على التقسيم على سبيل العموم، فهي مقسمة مرتبة ولكنها ليست على نظام تسوير آيات القرآن في سور تنتظم فيها معاني آياتها. ويدعم هذا ما ذكره الزركشي بقولــه: «فإن قلت: فهلا كانت الكتب الســالفة كذلــك؟ قلــت: لوجهــين: أحدهما لم تكن معجزات من ناحية النظم والترتيب، والآخر أنها لم تيسر لــلحفظ»[٢]. كما يؤكد ذلك (ابن عاشور) بقولــه: «ولم تكن أجزاء التوراة والإنجيل مسماة سوراً عند العرب في الجاهلية ولا في الإسلام»[٣].

ونخلــص ممــا ســبق إلى أن التسوير يتحقق به غرض فني من حيث جمع الأشكال والنظائر، وإفراد بعض الموضــوعات بسور مستقلة، وغرض آخر يعود إلى الإعجاز بالترتيب والنظم والترابط بين آيات كل سورة على حدة، وغرض ثالث تعليمي سبقت الإشارة إليه آنفاً.

تسمية السور:

عرضــنا فــيما ســبق بعض التعريفات الاصطلاحية للسورة التي أشارت إلى تمييز السورة باسمها وعنوانها وترجمــتها مــثل تعريف الزمخشري والبقاعي و(ابن عاشور) ، كما أن بعض المؤلفات في تناسب آيات القرآن، وسوره وكذا الدراسات الفنية الحديثة في النص القرآني ــ أعطت حيزاً كبيراً للحديث عن العنوان وعدته مفتاحاً لفهــم بناء السورة ــ كما سنعرض لذلك مفصلاً في موضعه من هذا البحث إن شاء الله ــ ونريد هنا أن نقف على مقدمات ضرورية ناقشتها الدراسات القديمة في علوم القرآن والتفسير؛ تتمثل هذه المقدمات في الإجابة على أســئلة من نوع: هل تسمية السورة أمر توقيفي؟ وهل أثبت الصحابة أسماء السور في المصحف؟ وماذا يعني تعدد الأسماء للسورة الواحدة؟

هناك ثلاثة مذاهب شائعة في الإجابة عن هذه الأسئلة عموماً:

المذهــب الأول منها: يجزم بأن تسمية السور مأثور عن النبي (صلى الله عليه وسلم) واشتهر ذلك عند الصــحابة (رضي الله عنهم) يقول السيوطي: «وقد ثبت جميع أسماء السور بالتوقيف من الأحاديث والآثار ولولا خشية الإطالة لبينت ذلك»[٤].

---

١ الزمخشري :الكشاف، ج١ ص١٢٨ .

٢ الزركشي : البرهان، ج١ ص٢٦٥ .

٣ ابن عاشور: التحرير والتنوير: ج١ ص٨٣ .

٤ جــلال الدين السيوطي: الإتقان في علوم القرآن. دار الكتب العلمية (بيروت) ط١ (١٩٨٧م) ج ١ ص١١٥. ومن الأحاديث التي تبين هذا قوله (صلى اللــه عليه وسلم): (اقرأوا الزهراوين: البقرة وسورة آل عمران فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان ....) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة. ومن ذلك أيضاً حديث أبي الدرداء الذي أخرجه مسلم أن النبي (صلى اللــه عليه وسلم) قال: (من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال).

المذهـــب الثاني: يقول بعدم التوقيف في تسمية السور عن النبي (صلى الله عليه وسلم) بحيث يتوجب منه عـــدم صحة تسميتها بغيره، ولكنها من تسمية الصحابة، ولـــهذا تعددت أسماء بعض السور، وقد ورد في كتاب الإتقان [١] أن سورة البينة سميت سورة أهل الكتاب في مصحف أبي بن كعب [٢].

المذهـــب الثالث: متوسط بين المذهبين في إثبات بعض أسماء السور عن طريق التوقيف وبعضها عن طريق شهرة تناقل الصحابة لـــها ولم ينكر عليهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ذلك ((والظاهر أن الصحابة سموا بما حفظـــوه عن النبي (صلى الله عليه وسلم) أو أخذوا لـــها أشهر الأسماء التي كان الناس يعرفونها بها ولو كانت التســـمية غير مأثورة ... فقد سمى ابن مسعود [٣] القنوت سورة الخلع ... فتعين أن تكون التسمية من وضعه))[٤] وقـــد اشتهرت تسمية بعض السور في زمن النبي (صلى الله عليه وسلم) وسمعها وأقرها وذلك يكفي في تصحيح التسمية.

ويجيب أصحاب الرأي الأول والثالث عن سبب عدم إثبات الصحابة أسماء السور في المصحف الإمام بداية كل سورة كترجمة لـــها وبيان على بدايتها واختيارهم للبسملة عوضاً عن ذلك ــ أن ذلك ما كان إلا كراهة أن يثبـــت في القرآن ما ليس منه، ولما جاء عصر التابعين أثبتوا هذه الأسماء بخط آخر لتتميز من القرآن، يقول (ابن عاشـــور): ((واعـــلم أن الصحابة لم يثبتوا في المصحف أسماء السور بل اكتفوا بإثبات البسملة في مبدأ كل سورة علامة على الفصل بين السورتين، وإنما فعلوا ذلك كراهة أن يكتبوا في أثناء القرآن ما ليس بآية قرآنية...وكتبت أسماء السور في المصاحف باطراد في عصر التابعين ولم ينكر عليهم ذلك))[٥].

والذي يترجح لدى الباحث أن القول بالتوقيف في تسمية السور على إطلاقه غير صحيح، وإلا لما صح أن تـــتعدد أسماء بعض السور وتختلف بعضها في المصاحف، فالذي ثبت تسميته من السور يتوقف عليه، وما لم يثبت فلا داعي لإلحاقه بما ثبت، ذلك لأنه سيترتب على هذا مبحث من مباحث المناسبة، هو المناسبة بين عنوان السورة وأغراضها، كما صنع ذلك البقاعي وغيره.

---

١ الســـيوطي: الإتقان.ج١ص٢٢ ، وسميت سورة (الإسراء) ببني إسرائيل وسورة (محمد) تعرف بسورة القتال وسورة (براءة) بالتوبة وسورة (الحشر) ببني النظير.... الخ.

٢ هو أبي بن كعب الأنصاري، سيد القراء وأقرأ هذه الأمة. قرأ على الرسول (صلى الله عليه وسلم) وقرأ عليه نفر من الصحابة والتابعين، اختلف في زمن وفاته ومنه (٢٣هـــ) [انظر ابن سعد: الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت(١٩٦٨م) ج٢ص٣٤٠].

٣ هـــو أبو عبدالرحمن عبدالله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذيل: صحابي جليل، من السابقين إلى الإسلام، لزم النبي (صلى الله عليه وسلم) وخدمه، توفي سنة(٣٢هـــ).

٤ ابن عاشور: التحرير والتنوير.ج١ص٨٤ .

٥ المصدر نفسه: ج ١ ص٨٩ .

المبحث الثاني:
ترتيب النص القرآني

أولاً: ترتيب الآيات في السور:

من المعلوم أن الله عز وجل أنــزل القرآن على رسولــه (صلى الله عليه وسلم) في نيف وعشرين عاماً[1]، وكــان ينــزل مفرقاً على الحوادث والمناسبات وربما نــزلت السورة دفعة واحدة كالكهف والأنعام أو نــزولاً متــتابعاً وربمــا نــزلــت السورة مفرقة في أوقات متعددة كسورة البقرة التي نــزلت في نحو ثمانية أعوام فيؤمر الرســول (صلى الله عليه وسلم) بوضع كل آية في موضعها من السورة التي نــزلت فيها، فكان معجزاً في جمعه وترتيبه، كما كان معجزاً في تفرقه وتنجيمه.

وهــذا الجمــع والترتيــب للآيات في سور محددة كان بوحي من الله عز وجل لرسولــه (صلى الله عليه وسلم)، ومن النصوص التي يستدل بها على هذا ما أخرجه الإمام أحمد[2] بإسناد حسن من حديث عثمان بن أبي العــاص[3] قــال : كنت جالساً عند رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إذ شخص ببصره ثم صوبه ثم قال: ((أتاني جــبريل فأمــرني أن أضــع هــذه الآية هذا الموضع من هذه السورة "إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى"[4] إلى آخرها))[5].

وكذلــك مــا أخرجه الترمذي[6] عن ابن عباس[7] عن عثمان بن عفان [8] (رضي الله عنهما) قال: ((كان رســول الله (صلى الله عليه وسلم) مما يأتي عليه الزمان وهو تنــزل عليه السور ذوات العدد فكان إذا نــزل عليه الشيء دعا بعض من يكتب الوحي فيقول ضعوا هؤلاء الآيات في السورة كذا))[9].

كمــا أخرج البخاري[10] عن ابن الزبير[11] قال: ((قلت لعثمان: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم ...﴾[12] قــد نسختها الآية الأخرى فَلِمَ تكتبها أو تدعها؟ قال: يا ابن أخي، لا أغير

---

١ من كتاب السير من قال في عشرين ومنهم من قال في ثلاثة وعشرين عاما وذلك لاختلافهم في المدة التي مكثها الرسول (صلى اللـه عليه وسلم) في مكة بعد النبوة ما بين عشر ة أعوام وثلاثة عشر عاماً، أما في المدينة فلا خلاف في أنها عشر ة أعوام، ويترتب على هذا الخلاف ، الخلاف في عمره الكريم ما بين ستين وثلاث وستين سنة.

[انظر : ابن قيم الجوزية : زاد المعاد ، تحقيق شعيب الأرنؤوط و عبد القادر الأرنؤوط . مؤسسة الرسالة .بيروت .ط٣(١٩٩٨م) ج١ ،ص٨٣ ، ٩٨].

٢ هو الإمام أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، المنسوب إليه أحد المذاهب الأربعة، وصاحب كتاب المسند، توفي سنة(٢٤١هــ).

٣ هو عثمان بن أبي العاص الثقفي، صحابي جليل، نزل البصرة، توفي (٥١هــ).

٤ سورة النحل: الآية (٩٠) .

٥ مسند الإمام أحمد: مسند الشاميين حديث رقم: ١٧٢٤٠.

٦ أبو عبد الله محمد بن مخلد بن حفص العطار من المحدثين الثقات ، وله من الكتب كتاب السنن في الفقه كتاب الآداب كتاب المسند كبير، توفي (٣٣١ هــ). [انظر: ابن النديم، محمد بن إسحاق: الفهرست ، دار المعرفة -بيروت (١٩٧٨م)ص٣٢٥].

٧ هو عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب، حبر الأمة، وبحر التفسير، الصحابي ابن عم الرسول ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ توفي(٦٨هــ).

٨ أمير المؤمنين: عثمان بن عفان، الخليفة الثالث، فضائله كثيرة منها نسخ المصاحف، توفي (٣٥هــ) شهيداً.

٩ سنن الترمذي: كتاب تفسير القرآن عن رسول الله حديث رقم: ٣٠١١.

١٠ هو أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري، الإمام المحدث وصاحب الجامع الصحيح، توفي (٢٥٦هــ).

١١ هو عبدالله بن الزبير بن العوام الأسدي القرشي: أول مولود في المدينة بعد الهجرة، بويع له بالخلافة سنة(٦٤هــ) ودانت له مصر والحجاز واليمن والعراق وأكثر بلاد الشام، ثم تقلصت دولته حتى حوصر في مكة وقتل سنة (٧٣هــ).[الأعلام، ج٤ص٢١٨].

١٢ سورة البقرة:الآية ٢٤٠.

شيئاً من مكانه))[1].

وقد حكى الزركشي الإجماع على أن ترتيب الآيات في كل سورة بتوقيف من النبي (صلى الله عليه وسلم) علـى ما أخبره جبريل (عليه السلام) عن الله تعالى حيث يقول: ((وأما ما يتعلق بترتيبه فأما الآيات في كل سورة ووضع البسملة أوائلـها فترتيبها توقيفي بلا شك ولا خلاف عليه ولـهذا لا يجوز تعكيسها))[2].

ولم يكـن جهد الصحابة إلا في جمعه في موضع واحد لا ترتيبه في سور، وقد عقد (ابن عاشور) في المقدمة الثامنة لتفسيره مبحثاً تحدث فيه عن ترتيب الآي بعضها عقب بعض كما هي عليه في المصحف، وعد ذلك وجهاً مـن وجـوه الإعجاز الراجعة للأسلوب ثم قال: ((فلذلك كان ترتيب آيات السورة الواحدة على ما بلغنا عليه متعيناً بحيث لو غير عنه إلى ترتيب آخر لنـزل عن حد الإعجاز الذي امتاز به، فلم تختلف قراءة النبي (صلى الله عليه وسلم) في ترتيب آي السور على نحو ما هو في المصحف الذي بأيدي المسلمين اليوم، وهو ما استقرت عليه روايـة الحفاظ من الصحابة عن العرضات الأخيرة التي كان يقرأ بها النبي (صلى الله عليه وسلم) في أواخر سني حياته الأخيرة))[3].

واستدل كذلك بأن زيد بن ثابت[4] (رضي الله عنه)ـ وهو من كتاب الوحي في زمن الرسول (صلى الله علـيه وسـلم) ـ لمـا أسندت إليه مهمة الجمع الأول للقرآن أيام أبي بكر الصديق[5] (رضي الله عنه) كتب المصحف ولم يخالف في ترتيب آي القرآن.

ولـهذا فقد جعل العلماء من أدب التلاوة في الصلاة وغيرها ترك خلط سورة بغيرها في مقام واحد، وقد رتب الزركشي مسألة في ترك خلط سورة بسورة، وخلص إلى: ((أن الأولى بالقارئ أن يقرأه على التأليف المنقول المجتمع عليه))[6].

وقـد أمـر الرسول (صلى الله عليه وسلم) بلالاً[7] (رضي الله عنه) وقد سمعه يقرأ من سور شتى أن يقرأ

---

١ صحيح البخاري: دار الفكر (١٩٨١م) ، كتاب تفسير القرآن ،ج٥ص١٦٣.وقد اختلفت عبارة المفسرين في المقصود بالآية الناسخة الأخرى، فمنهم من ذكـر أنها آيات المواريث، ومنهم من ذكر أنها الآية المتقدمة في السورة نفسها وهي قولـه تعالى: (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا ... الآية) [سورة البقرة:الآية (٢٣٤)] وقد ورد أنها كانت متأخرة في النـزول ولكنها رتبت في المصحف قبل الآية المذكورة . انظر التحرير والتنوير : ج٢ ، ص٤٢٧ ، ٤٤٩.

٢ الزركشي :البرهان ، ج ١ص٢٦٥ .

٣ ابن عاشور : التحرير والتنوير، ج ١ ص٧٧ ،.

٤ هو زيد بن ثابت بن الضحاك الأنصاري، الصحابي الجليل، أحد كتاب الوحي، عهد إليه أبو بكر وعثمان (رضي الله عنهما)، بكتابة المصحف وجمعه، (ت٤٥هـ) .[الأعلام: ج٣ص٥٧].

٥ هو عبدالله بن أبي قحافة صاحب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) والخليفة الأول من بعده ، (ت١٣هـ). [انظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٢ص١٧٢].

٦ الزركشي :البرهان ، ج١ ص٤٦٩ .

٧ هو بلال بن أبي رباح الحبشي مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أسلم قديماً فعذب في الله فصبر فاشتراه الصديق وأعتقه، شهد بدراً وما بعدها. وفي سنة وفاته خلاف ذكره ابن كثير في المتوفين من الأعيان سنة عشرين من الهجرة.[انظر : أبو الفداء إسماعيل بن كثير، البداية والنهاية، تحقيق مكتب التحقيق بدار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١(١٩٩٧م)،ج٧ص٧٥].

السورة على وجهها[1] وقد ساق الزركشي تعليقاً على هذا، وفيه أن ((بلالاً (رضي الله عنه) كان يقصد آيات الرحمة وصفات الجنة ، فأمره أن يقرأ السورة على نحوها كما جاءت ممتزجة كما أنـزل الله تعالى فإنه أعلم بدواء العباد وحاجتهم ولو شاء لصنفها أصنافاً وكل صنف على حدة ولكنه مزجها لتصل القلوب بنظام لا يمل))[2].

ثانياً: ترتيب السور في المصحف :

لا بد من الحديث في موضوع ترتيب السور كما تحدثنا في ترتيب الآيات في السورة الواحدة، وإذا كنا خلصنا إلى أن ترتيب الآيات في السورة توقيفي وليس في ذلك خلاف؛ فإن ترتيب السور في المصحف فيه مناقشات نشأت بسبب عدم وجود مصحف مكتوب تركه النبي (صلى الله عليه وسلم) يعلم منه ترتيب السور لأن القرآن لم يزل متنـزلاً.

ويحكي الزركشي الخلاف في ترتيب السور بقوله: ((وأما ترتيب السور على ما هو عليه الآن فاختلف: هل هو توقيفي من النبي (صلى الله عليه وسلم) أو من فعل الصحابة أو يفصل؟ في ذلك ثلاثة أقوال))[3]، وقد وجد الزركشي أن الخلاف بين من يقول بالتوقيف – وهو القول الأول – ومن لا يقول به – وهو القول الثاني[4] – عائد إلى الخلاف حول معنى التوقيف، هل هو توقيف قولي، أم بمجرد استناد فعلي بقي للصحابة فيه مجال للنظر، وأشار الزركشي إلى أن مذهب جمهور العلماء، على أن ترتيب السور إنما كان من فعل الصحابة[5].

وأما القول الثالث فإنه يفرق في الحكم على ترتيب سور القرآن بينما اشتهر ترتيبه على عهد النبي (صلى الله عليه وسلم) وما لم يشتهر، وقد ساق الزركشي لبيان هذا الرأي كلام القاضي أبي محمد بن عطية ونصه: ((وظاهر الآثار أن السبع الطول[6]، والحواميم[7] والمفصل[8] كان مرتباً في زمن النبي (صلى الله عليه وسلم)، وكان في السور ما لم يرتب، فذلك هو الذي رتب وقت الكتب))[9].

---

١ وأورد الزركشي رواية لأبي عبيد في كتاب فضائل القرآن أن بلالاً عندما روجع في ذلك قال : (أخلط الطيب بالطيب) فقال له الرسول (صلى الله عليه وسلم): اقرأ السورة على وجهها ، أو قال : على نحوها – وفي رواية (إذا قرأت السورة فأنفذها) . [انظر البرهان : ج١،ص٤٦٩].

٢ هذه الزيادة نسبها الزركشي للحكيم الترمذي، أبي عبدالله محمد بن علي ، توفي (٤٥٨هـ).[انظر البرهان: ج١ ص٤٦٠].

٣ المصدر نفسه: ج١ص٢٥٧ .

٤ ممن يقول بالتوقيف مكي بن أبي طالب، وأبو جعفر بن الزبير، وأبو جعفر النحاس، وغيرهم. وممن قال بنفي التوقيف في ترتيب السور، مالك بن أنس وأبو بكر الباقلاني.[البرهان: ج١ص٢٥٦-٢٥٨].

٥ يؤيد ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يلتزم ترتيب السور على ما هي عليه في المصحف في بعض الأحيان، فقد ورد في صحيح مسلم عن حذيفة بن اليمان (قال: صليت مع النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة فافتتح سورة البقرة، فقلت:يركع عند المائة، ثم مضى فقلت: يصلي بها في ركعة، فمضى فقلت: يركع بها، ثم افتتح النساء، فقرأها، ثم افتتح آل عمران).

٦ الطول بضم الطاء: جمع طولى، كالكبر جمع كبرى، وأول السبع الطول: سورة البقرة، واختلف في آخرها، فمن عد سورة الأنفال سورة مستقلة جعل آخر السبع سورة براءة، ومن عد سورة الأنفال مع براءة سورة واحدة كان آخر السبع سورة يونس، ونسب الزركشي لسعيد بن جبير أنه عد من السبع سورة يونس، و لم يحسب الأنفال.[انظر البرهان: ج١ص٢٤٤].

٧ جمع (حم) وهي السور المفتتحة بالحروف المقطعة (حم) وهي سبع سور مرتبة ترتيباً متوالياً أولها (حم) المؤمن، وآخرها (حم) الأحقاف.

٨ المفصل: ما يلي المثاني من قصار السور، سمي مفصلاً لكثرة الفصول التي بين السور، واختلف في أول ما يحسب من المفصل إلى آراء أنهاها الزركشي إلى اثني عشر رأياً ثم قال: (والصحيح عند أهل الأثر أن أوله "ق") [البرهان: ج١ص٢٤٦]، واختار ابن عاشور أن مبدأ المفصل سورة الحجرات، ثم قال:(وفي مبدأ المفصل عندنا (المالكية) أقوال عشرة، أشهرها قولان، قيل: إن مبدأه سورة (ق)، وقيل: سورة (الحجرات). [التحرير والتنوير: ج٢٤ص١٧٩].

٩ ابن عطية: المحرر الوجيز، ص٢٧.

وهـــذا يعني أن طوائف من سور القرآن كانت مرتبة في زمن النبي (صلى الله عليه وسلم) على ترتيبها في المصحف الذي بين أيدينا اليوم[1]. ويزيد (ابن عاشور) على ذلك أن زيد بن ثابت وعثمان بن عفان (رضي الله عـنهما) ــ وهمـا مـن كبار حفاظ الصحابة ــ ((توخيا ما استطاعا ترتيب قراءة النبي (صلى الله عليه وسلم) للســور... وكان زيد بن ثابت من أكبر حفاظ القرآن وقد لازم النبي (صلى الله عليه وسلم) مدة حياته بالمدينة ولم يتردد في ترتيب سور القرآن على نحو ما كان يقرؤها النبي (صلى الله عليه وسلم)))[2].

ونستطيع أن نخلص من هذا كلـه إلى أن كثيراً من السور كان مرتباً في زمن النبي (صلى الله عليه وسلم)، ونتيجة لوجود هذا الخلاف فقد آثر كثير من المفسرين ترك الحديث عن المناسبة في ترتيب مواقع السور الكريمة، واقتصـر بعضهم على ذكر مناسبة السور المشهور ترتيبها، وجاءوا بمناسبات لطيفة، وهو مسلك مناسب لدراسة انسجام النص القرآني .

١ ممـا يشير إلى هذا المعنى أن عبدالله بن مسعود (رضي اللـه عنه): قال في سور (بني إسرائيل والكهف ومريم): إنهن من العتاق الأول وهن من تلادي. [انظر الحديث في صحيح البخاري كتاب التفسير برقم: ٤٣٣٩].

٢ ابن عاشور : التحرير والتنوير، ج١ ص٨٥ .

المبحث الثالث:
خصائص أسلوب القرآن

لا نريد هنا أن نعيد ما كتب عن تميز أسلو ب النص القرآني الكريم، فيكفي النص القرآني تميزاً أنه كلام الله تعـالى وقـد وصفه الله تعالى بقولـه: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾[1]. كمـا قال عنه –أيضاً– : ﴿ الٓر ۚ كِتَـٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَـٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾[2].ولكنـنا نسعى من بيان خصائص القرآن في هذا المبحث لنتمكن بواسطتها من دراسة ظاهرة انسجام الخطاب وتناسبه وترابطه في هذا النص العظيم.

وقديمـاً حـاول المشـركون أن يفهموا سر إعجاز القرآن ((ولما لم يجدوا بداً من إلحاق القرآن بصنف من أصناف كلامهم ألحقوه بأشبه الكلام به فقالوا: إنه شعر تقريباً للدهماء بما عهده القوم من الكلام الجدير بالاعتبار مـن حيـث ما فيه من دقائق المعاني وإحكام الانتظام ... والنفوذ إلى القول، فإنه مع بلوغه أقصى حد في فصاحة العربية ومع طول أغراضه وتفنن معانيه وكونه نثراً لا شعراً ترى أسلوبه يجري على الألسنة سلساً سهلاً ... وبنى نظمـه عـلى فواصل وقرائن متقاربة فلم تفته سلاسة الشعر ولم ترزح تحت قيود الميزان ... فكان كونه من النثر داخلاً في إعجازه))[3].

وفي القـرآن نصوص تساق بأسلوب قصصي وأخرى بلغة حوارية، وهي نصوص محكمة الجمل والعبارات منطقية التراكيب، دقيقة في الدلالة عن ما تريد التعبير عنه خالية من الإيحاء، وأخرى ذات دلالات إيحائية وصور فنية بديعة.

وإذا كانـت الدراسـات القديمة والحديثة تؤكد: ((أن ما يميز الشعر من غيره هو الوزن والقافية والإيقاع والتصوير والاهتمام بالتعبير ذاته أكثر من المضمون))[4] فإن النسق القرآني قد جمع بين أجمل ما في الشعر وأفضل ما في النثر ((فقد أعفى التعبير من قيود القافية الموحدة والتفعيلات التامة فنال بذلك حرية التعبير الكاملة عن جميع أغراضـه العامـة وأخذ في الوقت ذاته من الشعر الموسيقى الداخلية والفواصل المتقاربة في الوزن التي تغني عن التفاعيل والتقفية المتقاربة التي تغني عن القوافي))[5].

وكمـا خالف أسلوب القرآن أساليب النثر والشعر فقد خالف كذلك أسلوب الخطابة بعض المخالفة ((بل جـاء بطريقة كتاب يقصد حفظه وتلاوته وذلك من وجوه إعجازه، إذ كان نظمه على طريقة مبتكرة ليس فيها اتباع لطرائق العرب القديمة في الكلام))[6].

---

١ سورة الزمر:الآية ٢٣.

٢ سورة هود:الآية ١.

٣ ابن عاشور: التحرير والتنوير: ج ص١١٣ ،.

٤ محمد مفتاح: دينامية النص تنظير وإنجاز. المركز الثقافي العربي– بيروت ، ط٢(١٩٩٠م) ص٥٥.

٥ سيد قطب: التصوير الفني في القرآن. دار الشروق، ط١٤ (١٩٩٣م) ص١٠٣،١٠٢.

٦ ابن عاشور: التحرير والتنوير. ج١ ص٣١٧ ،.

ونـــدرك هذا التميز الخطابي لأسلوب القرآن الكريم عندما نرى تنوع افتتاح السور واختتامها؛ من عرض لـــلحجج وتقــديم للأدلـــة والبراهين، وتركيز للمفاهيم وتأكيد لها، بالإيجاز حينا والإطناب حيناً آخر، وفق ما يقتضـــيه المقـــام، ومـــع ذلك ((لم يلتزم القرآن أسلوباً واحداً، واختلفت سوره وتفننت فتكاد تكون لكل سورة لـــهجـــة خاصـــة، فإن بعضها بني على فواصل، وبعضها ليس كذلك، وكذلك فواتحها منها ما افتتح بالاحتفال كـــالحمد و"يـــا أيها الذين آمنوا " و"الم". وهي قريب مما نعبر عنه في صناعة الإنشاء بالمقدمات، ومنها ما افتتح بـــالـــهجوم عـــلى الغـــرض من أول الأمر نحو: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾(1) و ﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ (2)))(3).

وعـــلى الـــرغم من تنوع المعاني والموضوعات التي وردت في القرآن إلا أنه سلك أسلوباً متفرداً في الجمع بينها بحيث تراها في النص متآلفة لا يستغرب تداخلـــها ولا ينظر إلى شيء منها في غير مكانه، وهذا ما يعود إلى ((وجـــه تركيـــبه أو هـــو أسلوبه فإنه مباين بنفسه لكل ما عرف من أساليب البلغاء في ترتيب خطابهم وتـــنـــزيل كلامهم، وعلى أنه يواتي بعضه بعضاً، وتناسب كل آية منه كل آية أخرى في النظم والطريقة على اختلاف المعاني وتباين الأغراض))(4).

وقـــد فطـــن عـــلماء اللغة والمفسرون قديماً إلى ما اصطلح على تسميته بـــ(عادات القرآن) التي يدركها المـــتدبر، فهـــذا أبـــو عثمان الجاحظ(5) يقول: ((في القرآن معان لا تكاد تفترق، مثل الصلاة والزكاة، والجوع والخوف، والجنة والنار، والرغبة والرهبة، والمهاجرين والأنصار، والجن والإنس))(6).

وممـــن تعرض لـــهذه الظاهرة الزمخشري والرازي ـــ من المتقدمين ـــ و(ابن عاشور) ـــ من المتأخرين ـــ حيـــث أكـــدوا أن القرآن ما جاء بوعيد إلا أعقبه بوعد، وما جاء بنذارة إلا أعقبها ببشارة كل ذلك بأسلوب الاستطراد والاعتراض لمناسبة التضاد.(7)

---

١ سورة محمد:الآية ١.

٢ سورة التوبة:الآية ١. وقد نظم أبو شامة المقدسي صور الافتتاح في بيتين من الشعر فقال :

أثنى على نفسه سبحـــــــانه بثبـــو ت الحمد والسلب لما استفتح السورا

والأمر ، والشرط، والتعليل ، والقسم الد عـــا ، حروف التهجي ،استفهم الخبرا

[انظر : السيوطي : الإتقان :ج٢،ص٢٩٢].

٣ ابن عاشور: التحرير والتنوير: ج١ ، ص١١٩ .

٤ مصطفى صادق الرافعي: تاريخ آداب العرب. دار الكتاب العربي – بيروت ، ط٢ (١٩٨٤م) ج٢ص٢٠١.

٥ هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ، كبير أئمة الأدب، رئيس الفرقة الجاحظية من المعتزلة، له مؤلفات أشهرها: البيان والتبيين، والحيوان، وغيرهما، توفي (٢٥٥هـــ) . [الأعلام: ج٥، ص٢٣٩].

٦ أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: البيان والتبيين:تحقيق عبد السلام هارون.المؤسسة السعودية -بمصر القاهرة ، ط٥ (١٩٨٥م) ج١ص٢١.

٧ انظر المقدمة العاشرة لتفسير التحرير والتنوير: ج١ص١٠٧.

الفصل الثاني:
تناسب الآيات في الدراسات القرآنية القديمة

المبحث الأول: مفهوم المناسبة

المبحث الثاني: اتجاهات الدراسات القرآنية القديمة في النظر إلى المناسبة

المبحث الثالث: مظاهر التناسب في الدراسات القرآنية

مدخل :

سبق أن ذكرنا في التعريف الاصطلاحي للسورة أن لكل سورة من القرآن غرضاً ناشئاً عن أسباب النزول، أو عن مقتضيات ما تشتمل عليه السورة من المعاني المتناسبة، كما ذكرنا أن ترتيب آيات القرآن توقيفي. وقد تبين من الحديث عن خصائص أسلوب القرآن أنه يجمع في السورة الواحدة بين المعاني والأغراض المختلفة ويسلكها في سبيل لا يظهر فيه أثر اختلاف لمن تأمل ودقق.

وسنعرض في هذا الفصل للدراسات القرآنية القديمة التي تعاملت مع النص القرآني ونظرت في جوانب الإعجاز المتعلقة بلغته وأسلوبه برؤية شاملة.

ولئن كان لنظرية النظم التي جاء بها عبد القاهر الجرجاني أثر عظيم في إدراك سر الإعجاز المتعلق بنظم الجمل؛ فإن الدراسات التي عنيت بالكشف عن العلاقات التي ينتظم بها النص القرآني كان لها عظيم الأثر في توسيع نظرة المفسر إلى أرجاء النص (السورة) كلها بدل الاشتغال بتفسير كل آية على حدة.

وسنحاول أن نقدم في المبحث الأول من هذا الفصل تعريف المتقدمين للمناسبة، وهدفهم من تطلبها بين الآيات، ثم نقدم في المبحث الثاني عرضاً لأبرز اتجاهات الدراسات القديمة في النظر إلى المناسبة من حيث قبولها أو عدم الاحتفاء بها، ثم من زاوية الاكتفاء بالتركيز على تناسب الآيات في السورة الواحدة أو الزيادة على ذلك بالبحث عن وجوه المناسبة بين السورة والسورة، ثم نختم الفصل بمبحث في أبرز ظواهر تناسب النص (السورة) -كما تقدمها الدراسات القديمة ـ بما يمكننا من الاطلاع على مدى رصدهم لتلك الظواهر ومن ثم معرفة أثرها في الدراسات الحديثة لانسجام النص القرآني.

المبحث الأول:
مفهوم المناسبة

مفهوم المناسبة بين الممارسة والوصف:

لـــن يشـــتغل هـــذا المبحث بتتبع تاريخ ظهور هذا اللفظ بصفته مصطلحاً يدل على منهج معين في تتبع العلاقات بين الآيات الكريمة فلذلك مقام آخر، ولكنه يكتفي هنا بالتعريف به من طريقين:

أولاً: توضـــيح المقصود منه من خلال استخدام المفسرين والمؤلفين في علوم القرآن وذلك بعرض السياق اللغوي الذي يأخذه المفهوم عندهم.

وثانيا: ما عرِّف به المصطلح حين أطلق عليه مسمى علم المناسبة.

أمـــا الطـــريق الأول في بيان مفهوم المناسبة فإن المفسرين يعبرون عنه بصور متعددة، تعود في مجملـــها إلى البحث عن العلاقة التي تربط مكونات النص، من ارتباط آية بآية أو مجموع آيات في موضوع ما بمجموع آيات في موضوع آخر في السورة الواحدة.

فهذا الزمخشري عندما يصل إلى تفسير قولـــه تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾[1] يوضح المناسبة دون أن ينص عليها فيقول: "من عادته عز وجل في كـــتابه أن يذكـــر الترغيـــب مـــع الترهيـــب ... إرادة التنشيط لاكتساب ما يزلف[2] ... فلما ذكر الكفار وأعمالـــهم وأوعدهم بالعقاب قفاه ببشارة عباده ... فإن قلت: من المأمور بقولـــه تعالى: "وَبَشِّرِ"؟ قلت: يجوز أن يكـــون رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأن يكون كل أحد ... فإن قلت: علام عطف هذا الأمر ولم يسبق أمر ولا نهي يصح عطفه عليه؟ قلت: .... الخ"[3].

ومحـــل الاستشـــهاد يظهـــر في بداية تقديمه لغرض الآية، كما يتجلى بشكل أكبر عند توقعه تساؤلاً (فإن قُلْـــتَ:...، قُلْتُ: ...) وهو حوار مفترض مع القارئ الذي يتوقع أن يثير التساؤل عن المأمور بقولـــه: "وَبَشِّـــرِ" وعن المعطوف الذي لم يسبق ما يصح عطفه عليه ظاهراً.

وصورة أخرى يمكن أن يتضح بها مفهوم المناسبة نجدها عند البقاعي في تفسير قولـــه تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾[4] ، حيـــث يقول: "ولما افتتح سبحانه بالذين واطأت قلوبهـــم ألســـنتهم في الإيمان، وثنى بالمجاهرين من الكافرين الذين طابق إعلانهم إسرارهم في الكفران أتبعه ذكر المساترين الذين خالفت ألسنتهم قلوبهم في الإذعان وهم المنافقون"[5].

تلك بعض السياقات التي سقناها للاستشهاد على ما يقصد بالمناسبة في استخدام المفسرين لـــها على وجه العموم.

---

١ سورة البقرة:الآية ٢٥.

٢ أي: ما يقرب، والزلف محركة: القربة والدرجة.[انظر: القاموس المحيط، مادة (زلف)ص١٠٥٥.

٣ الزمخشري :الكشاف ، ج١ص١٣٤،١٣٣.

٤ سورة البقرة:الآية ٨.

٥ البقاعي : نظم الدرر ، ج١ ص٣٩ .

وأما الطريق الثاني: الذي نسلكه للتعريف بالمناسبة فهو البحث عن المعنى والدلالة في المعاجم وفي اصطلاح المتقدمين، فقد جاء في "القاموس المحيط" في مادة نسب: ((النَّسب، محركة والنِّسبة، بالكسر والضم: القرابة، أو في الآباء خاصة ... والنسيب: المناسب، ... والمناسبة : المشاكلة))[1].

ويذكر علي بن محمد الجرجاني[2] أن ((النسبة: إيقاع التعلق بين الشيئين))[3] وقد أشار الراغب الأصفهاني[4] إلى عدم ضرورة التطابق التام بين الطرفين اللذين نحكم بتناسبهما بقوله: ((وتستعمل النسبة في مقدارين متجانسين بعض التجانس يختص كل واحد منهما بالآخر))[5]

وغير خاف أن المناسبة لا يقع الوصف بها إلا إذا كانت مقبولة عقلاً وأمكن التعبير عنها ((ولهذا قيل: المناسبة أمر معقول إذا عرض على العقول تلقته بالقبول))[6] .

والمناسبة التي نحن بصدد بيان معناها اللغوي والاصطلاحي مجالها تعلق الكلام بعضه ببعض، إما على مستوى ترابط الجمل، أو العبارات بعضها ببعض، أو على مستوى تناسب النص كله.

وقد اهتم السلف ببيان هذه الروابط بناء على أن ((من محاسن الكلام أن يرتبط بعضه ببعض لئلا يكون منقطعاً))[7]. ولأن القرآن أحسن الحديث، فقد جاء متسق الآيات في كل سوره بالتوقيف ــ كما أسلفنا ــ ((فلهذا كان الأصل في آي القرآن أن يكون بين الآية ولاحقتها تناسب في الغرض أو الانتقال منه أو نحو ذلك من أساليب الكلام المنتظم المتصل))[8].

وقد اصطلح على تسمية الحديث عن الروابط بين آيات القرآن وسوره بـ(علم المناسبة)، وعده الزركشي النوع الثاني من علوم القرآن.

وفي تعريفه يقول البقاعي: ((وعلم المناسبات علم تعرف منه علل الترتيب وموضوعه أجزاء الشيء المطلوب علم مناسبته من حيث الترتيب ... فعلم مناسبات القرآن علم تعرف منه علل ترتيب أجزائه))[9]

وقد أكثر المتقدمون من ذكر فوائده وثمراته، ومنها: ((جعل أجزاء الكلام بعضها آخذاً بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء))[10].

---

١ مجد الدين الفيروز أبادي: القاموس المحيط. مادة (نسب) ص١٧٦ .

٢ علي بن محمد بن علي الحنفي الشريف الجرجاني : كان علامة دهره وفهامة عصره ، يقال إن مصنفاته زادت على خمسين كتاباً ،توفي سنة (٨١٤هـ) [انظر أبجد العلوم :ص٥٩٧].

٣ علي بن محمد الجرجاني : التعريفات . تحقيق إبراهيم الأبياري،، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١ (١٩٨٥م) ص٣٠٨.

٤ الراغب الأصفهاني : الحسن بن محمد بن المفضل أبو القاسم الأصفهاني أو الأصبهاني . المعروف بالراغب ، أديب من الحكماء العلماء ، من تصانيفه: الذريعة إلى مكارم الشريعة ، مفردات ألفاظ القرآن، ت(٤٢٥هـ).

٥ الراغب الأصفهاني : مفردات ألفاظ القرآن . تحقيق صفوان عدنان داوودي، دار القلم – دمشق، ط٢ (١٩٩٧م) ص٨٠١.

٦ الزركشي: البرهان.ج١ص٣٥.

٧ المصدر نفسه: ج١ ص٣٦.

٨ ابن عاشور: التحرير والتنوير. ج ١ص٧٨ ،.

٩ البقاعي : نظم الدرر ، ج١ ص٥.

١٠ الزركشي: البرهان. ج١ص٣٦ .

وقد أشار البقاعي إلى الغاية من علم المناسبة بقوله: ((وغايته الاطلاع على الرتبة التي يستحقها الجزء بسبب ما له بما وراءه وما أمامه من الارتباط والتعلق الذي هو كلحمة النسب))[1].

وينقل الزركشي عن أبي بكر بن العربي[2] ((أن ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني منتظمة المباني علم عظيم))[3].

وعدوا الاشتغال بهذا العلم اشتغالاً ببيان وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم؛ لأن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وبلاغة أسلوبه فهو أيضاً معجز بسبب ترتيبه ونظمه.

---

١ البقاعي :نظم الدرر، ج١ص٥ .

٢ هو محمد بن عبدالله بن محمد المعافري الأشبيلي المالكي، المعروف بأبي بكر بن العربي، قاض من حفاظ الحديث، صنف في الحديث والفقه والأصول والتاريخ، من تصانيفه أحكام القرآن، والعواصم من القواصم، وعارضة الأحوذي في شرح الترمذي، وغيرها، توفي (٥٤٣هـ).

٣ الزركشي : البرهان: ج١ص٣٧.

المبحث الثاني:
اتجاهات الدراسات القرآنية القديمة في النظر إلى المناسبة

رأينـــا فـــيما تقدم أن العلماء الأوائل لا يكادون يختلفون على أهمية الحديث عن المناسبة في تفسير آيات كـــتاب الله تعالى، بل إنهم يستحسنون البحث عنها، وقد نقل الزركشي والبقاعي والسيوطي هذا الاستحسان على إجمالـــه عن أبي بكر بن العربي ،والعز بن عبد السلام[1] وغيرهما.

ولكـــن هذا الاستحسان لا يعني وجود إجماع لديهم على أنه يلزم المفسر أن يبحث لكل آية عن مناسبة، ولا في طـــريق تطلـــبها؛ لهـــذا تعـــددت اتجاهات العلماء المتقدمين – ومن سار على منهجهم في التفسير مـــن المتأخرين – في الاهتمام بها عند تفسير القرآن، وتتلخص تلك الاتجاهات في الآتي:

الاتجاه الأول:

يؤكـــد أصحاب هذا الاتجاه ضرورة الاهتمام بالبحث عن العلاقة والمناسبة بين الآيات في القرآن، وأنه لا بد كذلك من البحث عن علاقة السور بعضها ببعض حسب ترتيبها.

ويقـــيم هـــذا الاتجاه رأيه على أساس أن ترتيب آيات القرآن وترتيب سوره توقيفيان، ويلزم من ذلك أن يكون هذا الترتيب وجهاً من وجوه الإعجاز التي يجب أن يتوجه إليها نظر المفسر.

ويعـــبر عـــن هذا الاتجاه العمل الذي قام به بدر الدين الزركشي في كتابه البرهان في علوم القرآن، الذي يبدؤه بكلام شيخه ولي الدين الملوي المنفلوطي[2] الذي يقول فيه: «والذي ينبغي في كل آية أن يبحث أول كل شيء عن كونها مكملة لما قبلـــها أو مستقلة ثم المستقلة ما وجه مناسبتها لما قبلـــها؟ ففي ذلك علم جم، وهكذا في السور يطلب وجه اتصالـــها بما قبلـــها وما سيقت لـــه»[3].

ويقـــدم الزركشي نماذج للمناسبة بين فاتحة السورة وخاتمة ما قبلـــها، ثم يعقد فصلاً يبين فيه أنواع ارتباط الآي بعضها ببعض.

ولئن اكتفى الزركشي بنماذج تمثل هذا الاتجاه فقد أفرد برهان الدين البقاعي مؤلفاً في ثمانية مجلدات لبيان المناسبات بين آيات القرآن وسوره كافة.

الاتجاه الثاني:

لا يلزم أصحاب هذا الاتجاه المفسر بالبحث عن المناسبة بين الآيات والسور إلا فيما كان متحد الموضوع، وقـــد نقل الزركشي عن الشيخ عز الدين بن عبد السلام قولـــه: «المناسبة علم حسن، ولكن يشترط في حسن

---

١ هـــو عـــبدالعزيز بن عبدالسلام بن أبي القاسم السلمي الدمشقي، عز الدين ، توفي (٦٦٠هـــ). [انظر ترجمته في: طبقات الشافعية، للسبكي، المطبعة الحسنية، (د.ت.ط)، ج٥ص٨٠].

٢ لم ينص الزركشي على اسمه وإنما قال: (قال بعض مشايخنا ...) لكن ذكر السيوطي في الإتقان ج٢ص٢٣٥ أنه الشيخ ولي الدين المنفلوطي وكذلك البقاعي في نظم الدرر ج١ ص٦ ، وهو أبو عبدالله محمد بن أحمد بن إبراهيم الشافعي المعروف بابن المنفلوطي، توفي (٧٧٤هـــ).

٣ الزركشي :البرهان ، ج١ص٣٧.

ارتباط الكلام أن يقع في أمر متحد مرتبط أوله بآخره، فإن وقع على أسباب مختلفة لم يشترط فيه ارتباط أحدهما بالآخر))[1].

وعَدَّ العز بن عبد السلام من يحاول ذلك متكلفاً، وأن ما يأتي به من أوجه الارتباط يلزم أن يصان عنه حسن الحديث فضلاً عن أحسنه[2].

والحجة التي يستند إليها في تحديد الحديث عن المناسبة فيما ذكر أن ((القرآن نزل في نيف وعشرين سنة في أحكام مختلفة ولأسباب مختلفة، وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض))[3].

وقد أورد الزركشي رد أصحاب الاتجاه الأول عليه بقوله: ((قال بعض مشايخنا: قد وهم من قال: لا يطلب للآي الكريمة مناسبة؛ لأنها على حسب الوقائع المتفرقة. وفصل الخطاب أنها على حسب الوقائع تنزيلاً وعلى حسب الحكمة ترتيباً))[4].

والذي يبدو أن تحديد ميدان البحث عن المناسبة في الأمر المتحد المرتبط أوله بآخره، مشكل من وجهين:

الوجه الأول: في تحديد المقصود بالأمر المتحد المرتبط أوله بآخره؛ هل يعنى به الآيات المتعلقة بموضوع ما، متحدة السياق كانت أو متفرقة؟ أم يقصد بذلك الاكتفاء بالحديث عن مناسبة السور التي نزلت جملة واحدة ــ كقصار السور مثلاً ــ ومن ثم الابتعاد عن تطلب المناسبة في السور التي تتعدد موضوعاتها وتطول آياتها؟

لا نجد تفسيراً لهذا الإشكال لا من العز بن عبدالسلام ولا ممن رد عليه، وبذلك لا يتضح هذا الشرط كما نرى.

الوجه الثاني: أن الدليل الذي ساقه حجة على ما اشترطه لا وجه للاستدلال به إلا في آيات يلزم أن يكون قد ورد النص عليها من الرسول (صلى الله عليه وسلم) بوضعها في مواضعها من السور، وأما عدم تحري المناسبة في سائر القرآن ففي الرد الذي أوردناه سابقاً ما يغني.

غير أن رأي العز بن عبد السلام يعتد به في الحد من غلواء الاتجاه السابق، لاسيما الذين لم يتوقفوا عند مواضع من القرآن لا يمكن الحديث عن مناسبتها لما قبلها وما بعدها إلا بالاستئناس بأسباب النزول؛ كما يفعل المفسرون عند قوله تعالى:﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ... ﴾ [5] وكذلك عند قوله تعالى: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴾[6] حيث يلجأون عند الحديث عن المناسبة إلى ذكر سبب نزول الآيات الذي يصف الظرف حين نزولها ثم يربطون بعد ذلك بين سياق الآيات والسياق العام للنص بأكمله .

١ المصدر نفسه: ج١، ص٣٧ .

٢ الزركشي: البرهان، ج١ص٣٧.

٣ المصدر نفسه : ج١ص٣٧ .

٤ المصدر نفسه : ج١ص٣٧ .

٥ سورة مريم:الآية٦٤.

٦ سورة القيامة: الآيات ١٦-١٩.

الاتجاه الثالث:

يتوسط أصحاب هذا الاتجاه بين الاتجاهين السابقين؛ فيكتفون بإبراز العلاقة والمناسبة بين الآيات ويربطونها بسياقها العام في السورة، وحين لا تظهر المناسبة من السياق يعمدون إلى ما صح من المأثور من أسباب النــزول في المواضع التي يظهر فيها انقطاع السياق أو تحولــه مؤقتاً وهو ما يمكن أن يطلق عليه الالتفات السياقي ــ على سبيل التوسع في مفهوم الالتفات ــ وذلك كما يفعل الزمخشري في تفسير الالتفات في سورة الفاتحة عند قولــه تعــالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[1] إذ يقول : ((الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن، تطريةً لنشاط السامع وإيقاظاً للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد))[2]وتابعه في هذا من المتأخرين (ابن عاشور) التونسي في تفسيره.

وتظهــر وسطية هذا الاتجاه في أنه لا يتصور البحث في الترابط والمناسبة عملاً آلياً، لذلك نجدهم يؤكدون طــريقة القــرآن في ترتيــب أغراضه ، فهذا الفخر الرازي يقول: ((اعلم أنه من عاداته سبحانه وتعالى في هذا الكتاب الكريم، أن يخلط هذه الأنواع الثلاثة بعضها ببعض، أعني علم التوحيد، وعلم الأحكام، وعلم القصص. والمقصود من ذكر القصص إما تقرير دلائل التوحيد، وإما المبالغة في التزام الأحكام والتكاليف، وهذا الطريق هو الطريق الأحسن ، لا إبقاء الإنسان في النوع الواحد لأنه يوجب الملال))[3].

كما أن أصحاب هذا الاتجاه من السلف والخلف لم يشتغلوا بالبحث عن المناسبة بين السور، ولا يرونه حقاً على المفسر، وقد أحسنوا في بيان تناسب مطالع السور مع خواتيمها، وكذا بيان مقاصد السورة، ومن ثم انتظام هذه المقاصد في ترتيب موح بكثير من الدلالات والتأثيرات على القارئ والسامع.

١ سورة الفاتحة : الآية ٥ .

٢ الزمخشري : الكشاف ج١ ص ٥٦.

٣ محمد الرازي فخر الدين: التفسير الكبير. دار الفكر – بيروت ط١ (١٩٨١م) ج٧، ص٢٥٥.

المبحث الثالث:

مظاهر التناسب

في الدراسات القرآنية القديمة

نحاول في هذا المبحث عرض أبرز المظاهر التي رصدها المتقدمون من المفسرين والمؤلفين في علوم القرآن في بحثهم عن ترابط آيات القرآن وسوره.

وتحديداً لميدان عرضنا في هذا البحث سنقتصر على حديثهم ووصفهم لتناسب السورة الواحدة ثم ننظر إلى العلاقات التي تنتظم بها الآيات في السورة.

وكمـا حددنـا ميدان بحثنا نحدد بعض المصادر التي تعيننا (في هذا البحث) فمن كتب علوم القرآن التي تناولـت هـذه المظاهر نختار كتاب(البرهان في علوم القرآن) للزركشي، ومن الكتب التي أفردت للحديث عن المناسبة بين الآيات والسور نختار كتاب (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور) لبرهان الدين البقاعي.

وسـنبدأ بالحديث عن المظاهر العامة في تناسب النص (السورة)، ثم نعرض مظاهر التناسب والارتباط بين الآيـات بعضـها ببعض داخل السورة الواحدة من القرآن – كما أبرزها هذه الدراسات – وذلك على النحو الآتي:

أولاً: المظاهر العامة لتناسب السورة الكريمة:

ونعـني بها تلك المظاهر التي تتجلى في سور القرآن جميعها بصورة متقاربة، وهي ما يعود إلى ظاهر النص، كالعنوان، والافتتاح، والاختتام، والفاصلة القرآنية، وغيرها مما سنفصلـه على النحو الآتي:

❑ مناسـبة عـنوان السـورة لأغراضها: يبني الزركشي هذه المناسبة على أساس أن تسمية السور أمر توقـيفي . ولذلك يوصي بضرورة النظر في العلاقة بين موضوعات السورة والاسم الذي أطلق عليها بقولـه : "وينبغي النظر في وجه اختصاص كل سورة بما سميت به "(١) . ثم يبين لنا طريقة العرب في التسمية وأنها"تراعي في الكـثير من المسميات أخذ أسمائها من نادر أو مستغرب يكون في الشيء من خلق أو صفة تخصه ، أو تكون معـه أحكـم أو أكثر أو أسبق لإدراك الرائي للمسمى . ويسمون الجملة من الكلام أو القصيدة الطويلة بما هو أشهر فيها ، وعلى ذلك جرت أسماء سور الكتاب العزيز "(٢).

ثم يضرب أمثلة لتعليل تسمية السورة بما هو مثبت عليها الآن ، ونوضحها في الجدول الآتي :

اسم السورة	سبب التسمية
البقرة	ذكر قصة البقرة في السورة، وعجيب الحكمة فيها.
النساء	تكرير وبسط كثير من أحكام النساء فيها.
الأنعام	لما ورد فيها من تفصيل أحوالـها مما لم يرد في غيرها.
المائدة	لم يرد ذكر المائدة في غيرها فسميت بما يخصها.
هود	لم يتكرر اسم هود (عليه السلام) في غيرها من السور كما تكرر فيها.
قٓ	لما تكرر فيها من ذكر الكلمات بلفظ القاف.

١ الزركشي : البرهان ج ١ ص ٢٧٠ .

٢ المصدر نفسه : ج١ ص٢٧٠ .

وقـــد أحـــال القارئ على تتبع طريقته في الكشف عن مناسبة التسمية. ولا يفوته توقع تساؤل عن تسمية ســـورة "هود" وأنه قد تكرر فيها اسم نوح (عليه السلام) أكثر من اسم هود (عليه السلام)، وأجاب عن ذلك بقولـــــه: ((لما جردت لذكر نوح وقصته مع قومه سورة برأسها فلم يقع فيها غير ذلك كانت أولى بأن تسمى باسمه (عليه السلام) من سورة تضمنت قصته وقصة غيره، وإن تكرر اسمه فيها. أما "هود" فكانت أولى بأن تسمى باسمه (عليه السلام)))[١].

ونقـــف كذلـــك عند تعليل تسمية السور بالحروف مثل: قٓ صٓ نٓ، فقد أرجع التناسب إلى بناء كلمات السورة على ذلك الحرف وهي علة التسمية، ويدل على ذلك: ((انك إذا ناظرت سورة منها بما يماثلـــها في عـــدد كلماها وحروفها وجدت الحروف المفتتح بها تلك السور إفراداً وتركيباً أكثر عدداً في كلماها منها في نظيرها في عدد كلمها وحروفها))[٢]، ثم يحكم باطراد هذه العلة في جميع السور المسماة بالحروف.

ونستنتج مما سبق أن الزركشي حدد لمناسبة تسمية السور المواصفات التالية:

أ ـــ أن يشير الاسم لقصة أو موضوع غريب (البقرة ـــ الفيل).

ب ـــ أن يتكرر بسط الحديث المتعلق بالاسم في السورة المسماة به أكثر من غيرها (النساء – الأنعام).

جـــ ـــ أن تختص بذكر الاسم أو قصته عن بقية السور (المائدة – هود).

د ـــ أن تدور كلمات الآيات في السورة على الحرف الذي سميت به (ق – ص).

ولكن الزركشي لا يغفل عن تعدد الأسماء للسورة الواحدة، ولهذا فإنه يوصي بضرورة ((البحث عن تعداد الأســـامي هل هو توقيفي أو بما يظهر من المناسبات؟ فإذا كان الثاني فلن يعدم الفطن أن يستخرج من كل سورة معاني كثيرة تقتضي اشتقاق أسمائها، وهو بعيد))[٣].

واســـتبعاده للرأي الثاني (القائل: إن تعدد التسمية بحسب المناسبات) يرجح أن تعدد أسماء السور إن كان توقيفياً أمكن البحث عن مناسبته، وأما إن كان وضعياً فلا يمكن، وإن أمكن فلا تأتي مناسبته دقيقه.

أما برهان الدين البقاعي : فقد كان مجهوده أكثر دلالة في إبراز ظاهرة التناسب في هذا المنحى، حيث أكد المناســـبة بين الاسم والمسمى، واجتهد في بيان مناسبة الاسم لمقصود السورة، وأوضح ذلك بقولـــه: ((اسم كل ســـورة مترجم عن مقصودها لأن اسم كل شيء تظهر مناسبته بينه وبين مسماه وعنوانه الدال إجمالاً على تفصيل ما فيه ... ومقصود كل سورة هاد إلى تناسبها، فأَذْكُرُ المقصود من كل سورة وأطبق بينه وبين اسمها))[٤].

ونســـوق للاستشهاد على طريقته المتميزة ما أورده من العلاقة بين مقصود سورة البقرة وبين اسمها حيث يقول: ((مقصودها إقامة الدليل على أن الكتاب "هدى" ليتبع في كل ما قال، وأعظم ما يهدي إليه الإيمان بالغيب

---

١ البرهان: ج١ ص٢٧١ .

٢ المصدر نفسه : ج١ .ص٢٧١.

٣ البرهان ج١ ص ٢٧٠ .

٤ نظم الدرر: ج١ص١٢ .

ومجمعه الإيمان بالآخرة، فمداره الإيمان بالبعث الذي أعربت عنه قصة البقرة التي مدارها الإيمان بالغيب فلذلك سميت بها السورة))[1].

وحين تتعدد أسماء السورة الواحدة ـ مثل سورة البقرة ـ يبحث عن علاقتها بالمقصود فيقول: ((وسميت بالزهراء لإنارتها طريق الهداية والكفاية في الدنيا والآخرة، ولإيجابها إسفار الوجوه في يوم الجزاء لمن آمن بالبقرة))[2].

وعلى قدر سهولة الوصول بالقارئ إلى مقصود السورة ـ كما يراه البقاعي ـ تكون المناسبة أتم فالعنوان مفتاح السورة في فهم مقاصدها.

وإذا كان الزركشي قد أرجع سر التسمية في سورة هود إلى تكرار اسم هود(عليه السلام) فيها أكثر من غيرها من السور ؛ فقد ربط البقاعي بين مقصود السورة وما في قصة هود من التركيز عليه وإظهاره، فقال: ((ووصف الكتاب بالإحكام والتفصيل في حالتي البشارة والنذارة المقتضي ذلك لمنزله سبحانه وضع كل شيء في أتم محاله وإنفاذه ... وأنسب ما فيها لهذا المقصد ما ذكر في سياق قصة هود (عليه السلام)من أحكام البشارة والنذارة بالعاجل والآجل))[3].

أما السور التي سميت بأسماء الحروف فإن البقاعي يتحدث عن المناسبة انطلاقاً من مقصود السورة؛ فيربط بينه وبين ذلك الحرف من حيث المخرج والصفة . يقول في بداية سورة "قٓ": ((ومقصودها تصديق النبي (صلى الله عليه وسلم) في الرسالة ... وأحسن من هذا أن يقال: مقصودها الدلالة على إحاطة القدرة ... وعلى كل من الاحتمالين دل اسمها "قٓ" لما في آياته من إثبات المجد لهذا الكتاب .... وذلك لا يكون إلا والآتي به كذلك، وهو ملازم لصدقه في جميع ما أتى به، وللقاف وحدها أتم دلالة على ذلك أولاً بمخرجها فإنه من أصل اللسان مما يلي الحلق ويحاذيه من الحنك الأعلى، فإن ذلك إشارة إلى أن مقصود السورة الأصل والعلو، وكل منهما دال على الصدق دلالة قوية ... وأما صفتها فإنها عظيمة في ذلك فإن لها (الجهر والشدة والانفتاح والاستعلاء والقلقة)[4]، وكل منها ظاهر الدلالة على ذلك جداً))[5].

---

١ نظم الدرر :ج١ص٢٤.

٢ المصدر نفسه :ج١ص٢٤.

٣ البقاعي : نظم الدرر ج ٣ص٤٩٨.

[4] تبين كتب التحويد هذه الصفات على النحو الآتي:

الجهر: هو منع جريان النفس عند النطق بالحرف لقوة الاعتماد عليه في المخرج – **الشدة**: هي امتناع جريان الصوت مع الحرف لقوته في المخرج– **الانفتاح**: هو تجافي كل من طائفتي اللسان والحنك الأعلى عن الأخرى، حتى يخرج النفس من بينهما عند النطق بالحرف – **الاستعلاء**: وهو ارتفاع اللسان إلى الحنك الأعلى عند النطق بالحرف – **القلقلة**: وهي اضطراب في المخرج عند النطق بأي حرف من حروف القلقلة الخمسة (قطب جد) عند سكونه حتى تسمع لـه نبرة قوية. انظر: (أ) مكي بن أبي طالب : الرعاية في تجويد وتحقيق لفظ التلاوة ، تحقيق أحمد حسن فرحات ، دار عمار – عمان، ط٢(١٩٨٤م)،ص١١٧ ، ١١٨.

(ب)محمد أحمد معبد: الملخص المفيد في علم التجويد، مكتبة الإرشاد، اليمن، ط٤ (١٩٨٩م)ص١٠٩-١١٦.

٥ البقاعي : نظم الدرر: ج٧ ص٢٤٣.

وظاهر أن البقاعي سحب الخيط الذي مده الزركشي لبيان صفات الحرف ومناسبته لمعاني السورة واجتهد في الربط بين إيحاءات صوت القاف ــ مخرجاً وصفةً ــ ومقاصد السورة المتمثلة في إثبات صدق النبي (صلى الله عليه وسلم) وإحاطة قدرة الله بالمخلوقات، وعلو شأن القرآن، غير أن البقاعي لا يشير إلى كلام الزركشي ولا يحيل عليه.

ولن نتمكن في هذا المبحث من تتبع تناسب بقية أسماء السور مع مقاصدها ــ كما ساقها البقاعي ــ حتى نلخص منهجه في الربط، ولعل فيما أوردناه كفاية في توضيح هذا المظهر من مظاهر التناسب.

❑الفاصـــلة: مـــن مظاهر تناسب النص القرآني التي رصدها القدماء والمحدثون الفاصلة: وقبل تفصيل القول في كيفية إسهام الفاصلة في ترابط النص القرآني (السورة) لابد من تعريفها لنتمكن – في ضوء ذلك –من معرفة ما يؤذن به تتابعها أو تغيرها من أثر على تناسب الآيات الكريمة وترابطها.

يعرف الزركشي الفاصلة أنها: ((كلمة آخر الآية، كقافية الشعر وقرينة السجع))[١]. وينقل عن القاضي أبي بكر بن العربي أن ((الفواصل حروف متشاكلة في المقاطع، يقع بها إفهام المعاني))[٢].

ولكـــن هـــذه الفاصلة لا تقحم إقحاماً على الآية التي تقع فيها كما تقحم ألفاظ السجع في النثر وألفاظ القافـــية في الشعر وإنما هي مؤتلفة أتم الائتلاف مع الكلام الذي تختمه، ومنها ما تظهر مناسبتها لأول وهلة ومنها ما يستخرجه اللبيب بالتأمل.

وقد أكثر الزركشي من بيان علاقة الفاصلة بالآية التي وقعت فيها وأن ((إيقاع المناسبة في مقاطع الفواصل حيـــث تطرد متأكد جداً ومؤثر في اعتدال نسق الكلام وحسن موقعه من النفس تأثيراً عظيماً ولذلك خرج عن نظـــم الكلام لأجلـــها))[٣]، وفي موضع آخر يبين ائتلاف الفواصل مع ما يدل عليه الكلام فيقول: ((اعلم أن من المواضـــع التي يتأكد فيها إيقاع المناسبة مقاطع الكلام وأواخره، وإيقاع الشئ فيها بما يشاكله، فلا بد أن يكون مناسبة للمعنى المذكور أولاً، وإلا خرج بعض الكلام عن بعض)) [٤].

---

١ البرهان: ج١ص٥٣ .وتحديد رؤوس الآي ليس لمعرفته طريق إلا الوحي، فهو علم توقيفي. وقد فرق بعض العلماء –ومنهم أبو عمرو الداني،(ت٤٤٤هـ) – بـــين مصطلح الفاصلة ورأس الآية على أساس أن الفاصلة، هي الكلام المنفصل مما بعده، والكلام المنفصل قد يكون رأس آية وغير رأس، وكل رأس آية فاصلة، وليس كل فاصلة رأس آية، فالفاصلة تعم النوعين. [انظر : الزركشي: ج١ص٥٣].

٢ المصدر نفسه: ج١ ص٥٣.

٣ المصدر نفسه: ج١ ص٦٠. ومن أمثلة الخروج عن نظم الكلام مراعاة للفاصلة، وإيفاءً بحق المعاني:

– حذف الياء المتطرفة، نحو قوله تعالى: (والليل إذا يسر) [الفجر:٤]. – حذف ضمير النصب نحو قوله تعالى: (ما ودعك ربك وما قلى) [الضحى:٣].

– زيادة هاء السكت، نحو قوله تعالى: (وما أدراك ما هيه) [القارعة:١٠] – تقديم المعمول على العامل، نحو قوله تعالى: (وهم بالآخرة كافرون) [الأعراف:٤٥] إلى غير ذلك من صور الخروج.[انظر: الزركشي: البرهان، ج١ص٦١-٦٧، والسيوطي: الإتقان ، ج٢ص٢٧٥-٢٧٩].

٤ لمصدر نفسه:ج١ ،ص٧٨

فاعـــتدال نسق الكلام وحسن النظم والتئامه وزيادة المعاني تأكيداً أهم ما تحققه الفاصلة القرآنية من أجل انســـجام الـــنص وتـــرابطه، ولذلـــك كان الوقف على رؤوس الآي سنة ثابتة عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم)[1].

❑ تناســـب الـــبدء والختام: وقد عقد الزركشي فصلاً لمناسبة فواتح السور وخواتمها، وعده من أسرار القرآن وساق شاهداً للتمثيل عليه من سورة القصص ، حيث «بدأت بقصة مبدأ أمر موسى ونصـــرته وقولـــه: ﴿ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾[2] وخروجه من وطنه ونصرته وإسعافه بالمكالمة، وختمها بأمر النبي (صلى الله عليه وسلم) بألا يكون ظهيراً للكافرين، وتسليته بخروجه من مكة والوعد بعوده إليها بقولـــه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾[3]»[4].

ويفهـــم من هذا المثل أن علاقة التشابه بين قصة موسى (عليه السلام) وتوجيه الله لـــه وبين ختم السورة بقصـــة الـــنبي (صـــلى الله عليه وسلم) ووعد الله لـــه بالعود إلى وطنه هي التي أكسبت النص تناسباً بين بدئه وخاتمته. ويمثل بصورة أخرى لتناسب البدء بالختام – مما يعتمد على تحقق التناظر بالتضاد بين البدء والختام – بما نقلـــه عن الزمخشري في ختام سورة (المؤمنون). يقول الزمخشري: «جعل فاتحة السورة ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[5] وأورد في خاتمتها ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[6] فشتان ما بين الفاتحة والخاتمة»[7].

أمـــا بـــرهان الدين البقاعي فلم يدع سورة من القرآن إلا أبان عن تناسب خاتمتها بفاتحتها ، ويأخذ هذا المظهـــر عنده وصفاً آخر هو رد المقطع على المطلع ؛ ففي ختام سورة البقرة عند قولـــه تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ...﴾[8] يقـــول البقاعي: « وأما مناسبتها لأول السورة رداً للمقطع على المطلع فهو أنه لما ابتدأ السورة بوصف المؤمنين بالكتاب الذي لا ريب فيه ... ختمها بذلك بعد تفصيل الإنفاق الذي وصفهم به أولـــها»[9].

---

١ أخرج أبو داود في سننه: ((عن أم سلمة أنها ذكرت قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه كان إذا قرأ يقول: (بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله رب العالمين. الرحمن الرحيم . ملك يوم الدين) يقطع قراءته آية آية)).

[انظر: أبو داود، سليمان بن الأشعث: سنن أبي داود، مراجعة محيي الدين عبدالحميد، دار الفكر، ج٤ ص٣٧، حديث رقم (٤٠٠١)].

٢ سورة القصص:الآية (١٧)

٣ سورة القصص: الآية(٨٥)

٤ البرهان: ج١ ص١٨٦،١٨٥.

٥ سورة المؤمنون: الآية (١)

٦ سورة المؤمنون: الآية(١١٧) .

٧ الكشاف: ج٣ ص٢٠٩ .

٨ سورة البقرة: الآية (٢٨٥).

٩ نظم الدرر: ج١ ص٥٥٣ .

وفي موطـــن آخر يكشف عن علاقة التناسب بين فاتحة السورة وخاتمتها بعبارة موجزة ؛ ففي اختتام سورة المعـــارج بقولــــه تعالى: ﴿ خَـٰشِعَةً أَبۡصَـٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٌۚ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾[1] يقول: ((وهـــذا هـــو زمـــان العذاب الذي سألوا عنه أول السورة، فقد رجع ـــ كما ترى ـــ آخرها على أولـــها أي رجوع، وانضم مفصلـــها إلى موصلـــها انضمام المفرد إلى المجموع))[2].

ثانياً : مظاهر تناسب الآيات في السورة:

قدمنا في بداية هذا المبحث أننا سنعرض ظواهر التناسب القرآني دون تفصيل القول في آلياته وكيفية تحققه فلذلك موضع آخر، وأمامنا الآن مظهر يعد أكثر مظاهر تناسب النص القرآني تناولاً في الدراسات المتقدمة وهو يمثل الأساس الذي نشأت عليه بقية الظواهر.

وللمتقدمين في البحث عن المناسبة بين الآيات قواعد أولية يعدونها ضابطاً في معرفة المناسبة، من ذلك: ((أنه ينـــبغي في كل آية أن يبحث أول كل شيء عن كونها مكملة لما قبلـــها أو مستقلة، ثم المستقلة؛ ما وجه مناسبتها لما قبلـــها))[3].

ويوســـع المـــتقدمون النظر أكثر إلى عموم النص، فيبحثون عن مناسباته، فهذا البقاعي ينقل عن شيخه أبي الفضـــل السـجائي، قاعدة في كيفية التوصل لإدراك المناسبة بين آيات السورة كاملة، يقول فيها: ((الأمر الكلي المفـــيد لعرفان مناسبات الآيات في جميع القرآن هو أنك تنظر الغرض الذي سيقت لـــه السورة، وتنظر ما يحتاج إلـــيه ذلـــك الغـــرض من المقدمات، وتنظر إلى مراتب تلك المقدمات في القرب والبعد من المطلوب، وتنظر عند انجـــرار الكلام في المقدمات ما يستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام واللوازم التابعة لـــه التي تقتضي البلاغة شفاء الغليل بدفع عناء الاستشراف إلى الوقوف عليها))[4].

وتخـــتلف المناســـبات بـــين الآيات تبعاً لاختلاف ظهور الارتباط وخفائه، وبناء على هذا الخفاء والتجلي تخـــتلف نظـــرات المفسرين في إدراك ارتباط الآية أو مجموع الآيات في السورة الواحدة، ولـــهذين القسمين من علاقات الارتباط عند الزركشي مستويات نفصلها في الآتي:

❑ القسم الأول: الارتباط الظاهر:

وذلك حين يؤدي الكلام بعضه إلى بعض بالضرورة، ويتجلى ذلك في مستويين:

الأول: أن يحكم بالارتباط بين الآيتين ((لتعلق الكلام بعضه ببعض وعدم تمامه بالأولى))[5].

---

١ سورة المعارج: الآية (٤٤).

٢ نظم الدرر: ج٨ ص١٦١.

٣ الزركشي: البرهان. ج١ص٣٧ .

٤ نظم الدرر: ج١ ص١١ .

٥ الزركشي: البرهان: ج١ ص٤٠ .

الـثاني: أن يكون الارتباط بين الآيتين أو مجموع الآيات قائماً على واحدة من العلاقات، وذلك إذا كانت الآيـة "الثانية للأولى على جهة التأكيد والتفسير أو الاعتراض والتشديد"(١). ولا يقدم الزركشي أمثلة لتوضيح هذا القسم ولكننا نوضح ذلك بالآتي:

١- في المستوى الأول: يحتاج سياق الآيات إلى استكمال ليتم الغرض، حيث لا يتم الكلام بالآية الأولى، ويظل المتلقي في انتظار بقية الحديث، ولا يؤدي به سماع الآية الثانية إلى تتطلب وجه مناسبتها للأول؛ لأن الكلام متعلق بعضه ببعض، وذلك في مثل قولـه تعالى: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۞ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجًا ۞ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ﴾ (٢). حيـث يظل المتلقي بانتظار جواب (إِذَا) حتى يسمعه، ولا يتطلب منه ذلك بحثاً عن مناسبة الآية الأخيرة لما سبقها.

٢- في المسـتوى الثاني: فإن تلاحق الكلام في نفس الغرض أو الخروج منه ثم العود إليه لغرض التأكيد أو التفسـير أو الاعتراض لا يخفى على المتلقي؛ لأن الكلام لم ينقطع والسياق لم يتحول تحولاً يؤذن بضرورة البحث عـن المناسـبة، وذلك في مثل قولـه تعالى: ﴿... هُدًى لِّلۡمُتَّقِينَ ۞ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ ... ﴾(٣). حيث يظهر بجلاء علاقة الآية الثانية بالأولى ولا تحتاج إلى إعمال ذهن .

❑ القسم الثاني: الارتباط الخفي:

وفي هـذا القسـم الذي ذكره الزركشي "يظهر أن كل جملة مستقلة عن الأخرى، وأنه خلا ف النوع المبدوء به"(٤).

وقد قسم الزركشي هذا القسم إلى نوعين:

الأول : ما جاء معتمداً على العطف (وسائل الربط فيه لفظية) .

الثاني : ما تجرد من العطف (وسائل الربط فيه معنوية) .

وفي الـنوع الأول مـن الارتـباط الخفي خلط في أمثلته بين ما يتحقق به ارتباط الجملة وما يتم به ترابط الآيات . ومن أنواع العلاقات التي أوردها المضادة ، والاستطراد ،والتمثيل ، وحسن التخلص .

وأمـا النوع الثاني من العلاقات الخفية التي لا تعتمد على العطف بين الآيات فقد أوضح أنه "لا بد من دعامـة تـؤذن باتصال الكلام ... وهذا مزج معنوي تنـزل الثانية من الأولى منـزلة جزئها الثاني"(٥). وحدد

١ الزركشي:البرهان ، ج١ ص٤٠ .

٢ سورة النصر: الآيات(١-٣).

٣ سورة البقرة:الآيات (٢ ، ٣).

٤ الزركشي: ج١، ص٤٠ .

٥ المصدر نفسه: ج١ص٤٦.

الأسـباب الـتي يعـتمد عليها في تحديد أوجـه الارتباط وهـي وسـائل لظاهرة التناسب، وأهمها: التنظير والمضادة والاستطراد والانتقال من حديث لآخر لتنشيط السامع.

ومـن خـلال مـا سبق يتضح أن المناسبة يبحث عنها حين يبدو أن العلاقة بين الآيات السابقة واللاحقة مـنقطعة أو شبه منقطعة «مما يستوجب تبرير موقع الآية من سالفتها ولأجل ذلك يلجأ تارة إلى أسباب النـزول وأخرى إلى شرح مطول»[1].

---

١ محمد خطابي: ص١٩٢.

الفصل الثالث:
انسجام النص القرآني في الدرس الحديث

المبحث الأول: مفهوم النص والخطاب ومعنى الانسجام

المبحث الثاني: اتجاهات الدراسات القرآنية الحديثة في النظر إلى المناسبة والانسجام

مدخـل :

يمـثل هذا الفصل القسيم الثاني لدراسة المناسبة والانسجام ، فبعد أن اطلعنا على النظرة القديمة للمناسبة وأشـرنا إلى جملـة القواعد والمبادئ التي بنى عليها المفسرون والباحثون في علوم القرآن نظرتهم ، نتتبع في هذا الفصل الأسس التي تعتمد عليها الدراسات القرآنية الحديثة في بحث ظاهرة الاتساق والانسجام .

فقـد طـورت الدراسات الحديثة وسائلـها في بحث موضوع انسجام النَّص واتساقه بواسطة الانتقال في التحلـيل من نطاق الجملة إلى نطاق النَّص ، وترتب على ذلك التمييز في مستويات اللغة والكلام بين النصوص المكـتوبة والنصوص المنطوقة ، ومن ثَمَّ التفريق بين وسائل الاتساق التي تعود إلى النَّص ووسائل الانسجام التي تنبع من ظروفه المحيطة به .

لذلـك فقـد تناول المبحث الأول تحديد مفهوم النَّص، والخطاب، ومعنى الانسجام، في الدراسات الغربية والدراسات العربية .

أما المبحث الثاني فنستعرض فيه اتجاهات الدراسات القرآنية الحديثة في النظر إلى الاتساق والانسجام التي يمكن تصنيفها إلى اتجاهين عامين :

الاتجاه الفني والاتجاه اللغوي.

وتحـت كـل اتجـاه نستعرض أبرز المحاولات التي تناولت النَّص القرآني ، فقد كان لجهود رواد هذين الاتجـاهين أهمـية بالغة في إعادة قراءة التراث اللغوي القديم الخاص بالمناسبة والانسجام، والاستفادة من نتائج البحوث والدراسات المعاصرة في إظهار تجليات التناسق والانسجام في النَّص القرآني الكريم .

المبحث الأول:

مفهوم النص والخطاب والانسجام

البحث عن الدلالة من الجملة إلى النص:

قبل البدء في تحديد مفهوم النص والخطاب ومعنى الانسجام يلزم التمهيد بمقدمة نتعرض فيها لتطور النظرة إلى الدلالة التي استغرقت زمناً طويلاً في الانتقال من التركيز على الجملة والوصول إلى الدلالة التي يقدمها النص. وسنسعى في هذه المقدمة إلى الاطلاع بشكل موجز على رحلة الانتقال هذه في الدراسات الغربية في مباحث علم اللغة والتحليل البنيوي والأسلوبي، ثم في مباحث لسانيات النص وتحليل الخطاب. ونعرض بعد ذلك للموضوع نفسه في المصادر العربية القديمة والحديثة، وما قدمه السلف والخلف في هذا الميدان.

❑ الدراسات الغربية:

١- علم اللغة والتحليل البنائي والأسلوبي:

من المعروف عند الباحثين في مجال لسانيات النص والنقد الأدبي بمختلف اتجاهاتهم أن دراسة النص وإدراك علاقاته والكشف عن مظاهر الانسجام بين وحداته وسياقاته وتحليل بناه الداخلية التي تمكن من التوصل إلى الدلالة والمعنى ـ لم تكن لتجد طريقها في الدراسات الغربية إلا على ضوء المعطيات والنتائج التي قدمها علم اللغة الحديث الذي يرجع الفضل في تطوره إلى العالم السويسري فردينان دي سوسير (١٨٥٧ـ ١٩١٣م) الذي طور مع تلامذته نظرية لغوية بناها على اعتبار اللغة نظام علامات وشبكة علاقات يمكن بواسطتها تحديد الدلالة والمعنى، وقد تزامن ذلك الإنجاز اللغوي مع نقلة مماثلة في عدد من الحقول المعرفية الأخرى التي جعلت مبحث (سوسير) في العلاقات بين البنى اللغوية مدخلاً للتفكير في طريقة الوصول إلى حقائق الأشياء.[١]

فالبحث في "شبكة العلاقات" التي تكون النص ـ مثلاً ـ كان أحد أهم التطبيقات المطورة للنظرية اللغوية في تعرف دلالة النص، ترتب عليها نقلة نوعية في نقد النصوص الأدبية من مهمة التفسير إلى مهمة التحليل الذي تطورت أدواته مع توظيف نتائج الدراسات في علم النفس والأنثروبولوجيا[٢] والفلسفة ونظريات الاتصال والإعلام.

لقد كان أهم إنجازات علم اللغة في مجال إدراك العلاقات الداخلية التي تنظم النص هو ذلك التركيز المستمر على محور العلاقات السياقية الأفقية «التي تربط بين المفردات الواردة داخل البنية اللغوية أو الجملة على أساس التتابع أو التعاقب»[٣]. كما أن هذه العلاقات السياقية التي تتحقق بواسطة تجاور الجمل في بنية النص «تكون مسؤولة عن تكون سياق نصي معين، يساعد على تفسير التراكيب داخل النص، وكل جملة في النص لايمكن فهمها إلا من خلال ترابطها بأخواتها»[٤]

---

١ عبدالعزيز حمودة : المرايا المقعرة نحو نظرية نقدية عربية. الكتاب (٢٧٢) سلسلة عالم المعرفة. المجلس الوطني للثقافة والفنون- الكويت ، (أغسطس ٢٠٠١م) ص٢٠٣.

٢ الكلمة مأخوذة من لفظ: (anthropology) وتعني علم الإنسان ودراسة أصل النوع البشري.

٣ عبد العزيز حموده : المرايا المقعرة ص٢٤٧.

٤ محمد حماسة عبداللطيف: الجملة في ا لشعر العربي، مكتبة الخانجي- القاهرة ، (١٩٩٠م) ، ص٧٢.

ولكننا لا نستطيع أن نفهم دلالة النص ــ أي نص ــ بمجرد ترتيب الجمل المشكلة له على أساس التعاقب والتتابع في آلية بحتة تدور داخل النص وتعزله عن سياقاته التي تشكل في إطارها؛ لذلك فقد سعت الدراسات في مجال البحث عن الدلالة لتوسيع دائرة النظر إلى كيفية تشكلها وإعطاء دور أكبر للمتلقي الذي يمثل أحد أركان عملية التواصل اللغوي، وقد كان لهذا التوسيع أثره المباشر في الانتقال من دراسة السياقات الصغرى في النص (الكلمة والجملة) التي تمثل مجموع إنجازات بحوث لسانيات الجملة القائمة على علم اللغة إلى دراسة البنية.

وبناءً على ما تقدم «فإن التحليل البنيوي لا يمكن أن يقف في تناول المقال على مجرد توالي العبارات بل لا بد من أن يعتبرها "كلاً ذا دلالة"» [1].

وتبعاً لهذا الفهم البنيوي فقد تطور مفهوم البنية في ميدان اللغة والأدب ليشمل التعبير عن كل المحتويات التي يضمها السياق الأسلوبي للنص. فالبنية في أبسط تعريفاتها توصف بأنها «كل مكون من ظواهر متماسكة يتوقف كل منها على ما عداه، ولا يمكنه أن يكون ما هو إلا بفضل علاقته بما عداه» [2].

فلم يعد مقبولاً فصل الجملة عن سياقها من النص أو تقديم معنىً للنص بناءً على معاني هذه الأجزاء المنفصلة. إن البنية أياً كان نوعها «تملك وحدةً داخلية تضمن تعبير كل العناصر عن جزء من نص ما، ويزداد هذا الأمر وضوحاً لو حاولنا إقحام عنصر غريب في البنية أو تغيير النص عند نصف جملة ما... حيث تتعرض البنية للانكسار»[3].

لقد اهتم التحليل البنائي والأسلوبي بمبدأ التضاد البنيوي الناجم عن انكسار السياق الأسلوبي بعنصر غير متوقع عند القارئ، مما يدفعه لإعادة ترتيب الوقائع داخل المتوالية اللغوية؛ لهذا « فإن التحليل الأسلوبي يتجه إلى رصد ملامح التضاد والتناسب التي أدى إليها اختيار المؤلف وأبرزها القارئ في إعادة تكوينه للأسلوب» [4].

٢- لسانيات النص وتحليل الخطاب:

ثم جاء دور لسانيات النص التي اهتمت بدراسة النص وبيان مظاهر ووسائل انسجامه بوصفه وحدة متكاملة لا يمكن الاكتفاء بالنموذج البنيوي والأسلوبي في إبراز هذه العلاقات، وأصبحت اللسانيات الوصفية معنية ببحث وسائل اتساق النص وتحديد الخصائص التي تميز النص من أي متتالية مكونة من جمل غير مترابطة[5].

وبرزت مفاهيم ومصطلحات أكثر دقة كتنظيم الخطاب وبنية الخطاب والخطاب التام، والخطاب الناقص.

وقد كانت النظريات اللسانية في بداياتها «تعتبر الجملة أعلى وحدة لغوية يمكن أن يطالها الوصف، فإذا تمكنا من وصف الجملة فإن وصفها سيصدق على الجمل المركبة وكذا على متتاليات الجمل» [6].

---

[1] صلاح فضل: نظرية البنائية في النقد الأدبي. دار الشروق – القاهرة. ط١ (١٩٩٨م) . ص٢٧٧

[2] المصدر نفسه: ص١٢١.

[3] محمد خطابي: لسانيات النص ، ص١٦.

[4] صلاح فضل: علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته. دار الشروق – القاهرة ط١ (١٩٩٨م)ص٢٣٣.

[5] انظر محمد خطابي لسانيات النص ، ص٢٧.

[6] المصدر نفسه : ص٢٩.

لهذا فقد سعى الباحثون في لسانيات الخطاب لإضافة المستوى التداولي المتعلق بالسياقات التواصلية التي يتم تشـكيل الخطاب من خلالـها، ودعوا إلى إعادة بناء الأقوال لا على أساس الجمل وإنما على أساس وحدة أكبر هي النص.

وأصـبح مـن الممكن بعد توظيف مفاهيم من علم الاجتماع واللسانيات والذكاء الاصطناعي وغيرها أن "تسمى كل مقاربة تتخذ لـها موضوعاً وحدة لغوية أكبر من الجملة: تحليلاً للخطاب" [1].

❑ الدراسات العربية:

إذا كـان عـلم اللغـة الحديث عند الغرب قد كان سبباً في تطور الدراسات الأدبية واللسانية – ونخص بالذكـر تطور مهمة النقد من التفسير إلى التحليل وتطور التحليل من الجملة إلى النص – فالسؤال المطروح: هل كان للمنهج اللغوي عند العرب التأثير نفسه ؟

لقـد اجتهد بعض الباحثين الغيورين[2] في تجميع أركان النظرية اللغوية من خلال قراءة التراث العربي في الـنحو والـبلاغة والـنقد بـدءاً مـن الجاحظ إلى عبدالقاهر الجرجاني ومروراً بالخطابي[3]، والباقلاني، وحازم القرطاجني[4] وابن الأثير[5]، وغيرهم، وخلص هؤلاء الباحثون إلى أن "كل معطيات علم اللغة الحديث كما طوره "سوسـير" لم تكن فتحاً جديداً، وكان يجب ألا تكون كذلك، بالنسبة للمثقف العربي لو أنه في حماسه للتحديث وانبهاره بمنجزات العقل الغربي لم يتجاهل تراثه العربي" [6].

وكمـثال يثبـت به صحة هذه المقولة يذكر عبدالعزيز حمودة ــ بعد نقاش طويل وعرض موسع لمفاهيم نظـرية النظم عند الجرجاني ــ "أن اللغة نظام أو نسق علامات تربطها شبكة العلاقات التتابعية والاستبدالية أمر عرفه العقل العربي وقتلـه بحثاً وجدلاً لما يقرب من خمسة قرون ... وأنه إذا كان التحليل اللغوي للنص إذن هو مدخـل الـتعامل النقدي مع النصوص في المذاهب النقدية الحديثة والمعاصرة ... فإن البلاغة العربية توقفت منذ مـئات الـسنين عـند كـثير مـن قضايا التعامل النقدي مع النص التي توقف عندها النقاد البنيويون وما بعد البنيويين"[7].

١ محمد خطابي : لسانيات النص ، ص٤٧.

٢ أمثال محمد زغلول سلام وأحمد مطلوب وأحمد زكي عشماوي ومصطفى ناصف ومحمد عابد الجابري وجابر عصفور وعبدالعزيز حمودة وغيرهم.

٣ هو أبو سليمان أحمد بن إبراهيم الخطابي، له رسالة في إعجاز القرآن، توفي (٣٨٨هـ).

[انظر: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، دار المعارف– القاهرة، ط٤(١٩٩١م)].

٤ هو أبوالحسن حازم بن محمد بن حازم الأنصاري القرطاجني، الشيخ النحوي الناظم، صاحب: منهاج البلغاء، توفي (٦٨٤هـ).

٥ هو ضياء الدين: نصر الله بن محمد بن أبي بكر محمد بن محمد بن عبدالكريم، المعروف بابن الأثير الجزري ، توفي (٦٣٧هـ).

٦ عبدالعزيز حمودة :المرايا المقعرة ص٢٥٧.

٧ المصدر نفسه، ص٢٥٧ وما بعدها.

ويفـــترض بعض الباحثين ((أن النشاط اللغوي العربي القديم ينقسم إلى لسانيات الجملة ولسانيات الخطاب "الـــبلاغة والتفســـير وأصول الفقه" أي أن المباحث الأخيرة تواجه "تتخذ لـــها موضوعاً" وحدة لغوية أكبر من الجملة رغم تفاوقما في استحضار مقتضيات التواصل أثناء مواجهة الخطاب))[١].

وقد حاول الباحثون أيضاً إثبات وعي المتقدمين بكثير من مظاهر وحدة انسجام النص ووصفت إسهاماقم بأن ((فيها نظرات لا تقل أهمية وخصوبة عما قدمه الغربيون))[٢].

ويخلـــص "مـــنير ســـلطان" في تتـــبعه لمناهج تحليل النظم القرآني إلى أسبقية إدراك علمائنا لسمة الوحدة الموضـــوعية والفنـــية في النظم القرآني، وخص بالذكر منهم الباقلاني الذي خرج على إطار المنهج اللغوي الذي سيطرت عليه المعالجات الجزئية ((فهو يحتفي بالأسلوب ويخرج من الدائرة الجزئية إلى الدائرة الكلية الشاملة))[٣].

ونحـــن نقـــول: إنه مما لا شك فيه أن الخطوات المبكرة التي خطاها السلف في توسيع نظرة المفسر لتشمل مســـاحة النص بأكملـــه – وقد عرضنا لذلك في الفصل الأول من هذا البحث – قد كان لـــها عظيم الأثر في تطـــور الدراســـات الحديثة حول النص القرآني؛ غير أن تلك المحاولات المبكرة لم تكتمل نماذجها ولم تتلقفها يد الرعاية والتطوير عقب ميلادها حتى تمثل نظرية أو لنقل منهجاً واضح المعالم في دراسة النص وتناولـــه تناولاً كلياً ووصف وسائل ترابطه واتساقه كما استطاعت أن تفعل ذلك في دراسة الصوت والكلمة والجملة.

ولعل الجهود التي بدأت في منتصف القرن الميلادي الماضي والتي تسعى إلى إعادة قراءة التراث اللغوي في التفســـير والـــبلاغة والـــنقد واســـتثمار المـــناهج الحديثة في عرضها قد كشفت عن حجم المأثور من المقولات والمصطلحات التي كان يمكن لـــها أن تمثل نقطة انطلاق مهمة في صياغة منهج لغوي أصيل لدراسة النص دراسة شـــاملة ، نَسلّمُ به من أزمة الترجمات وتعددها وكثرة النظريات الغربية المعتمدة على خلفيات ثقافية لا تتوافق في أحيان كثيرة مع بيئة الدراسة اللغوية العربية.

إن هذه الدراسات بمنهجها الجديد الأصيل تقدم جهداً متميزاً في دراسة النص القرآني يكشف بعض وجوه الإعجـــاز في تركيـــبه وتآلفه وانسجامه ، جمعت بين التنظير والتطبيق ، ويمكن أن يمثل جيل الرواد في هذا المجال كل من : سيد قطب ، ومحمود البستاني ، وتمام حسان ، ومحمد خطابي ، ومحمد مفتاح، وصبحي إبراهيم الفقي، وغيرهم ممن أسهموا في نقل الدراسات اللغوية إلى آفاق النص بجميع مكوناته.

هـــذا هـــو السياق التاريخي واللغوي الذي ولدت فيه مفاهيم النص والخطاب والانسجام التي نبينها على النحو الآتي :

[١] محمد خطابي: لسانيات النص ، ص ٩٥ .

[٢] المصدر نفسه ص٩٥.

[٣] منير سلطان: مناهج في تحليل النظم القرآني، ص٢٤٧.

أولاً : مفهوم النص:

يجـد الباحـث في حقل الدراسات اللغوية اللسانية والأدبية مشقةً في محاولة استخلاص تعريف مجمع عليه لمصطلح (النص) ، ويزداد الأمر تعقيداً إذا حاول تعريفه دون الإشارة للمرجعيات الفكرية التي يستند إليها.وهو أمـر لا نعده غريباً على المصطلحات التي عرفتها الدراسات العربية عبر وسائط الترجمة. ومهما يكن من أمر فإننا سنحاول أن نتعرف مفهوم هذا المصطلح بدءاً من المعجم العربي ونشير إلى الاستخدامات المختلفة لـه في المصادر العربـية ثم نعـرض إلى تعريف المصطلح في الكتابات الغربية، كما سنبين معاني بعض المصطلحات التي تتقاطع أو تـتلاقى مـع هذا المصطلح كمصطلح (الخطاب) الذي يستخدمه كثير من الدارسين في موضع مصطلح (النص) ونشير إلى الفروق التي أبداها المتحفظون على هذا الاستعمال.

❑ مفهوم النص في اللغة:

يـدور لفـظ (النص) في المعجم العربي على معاني: "الغاية، الرفع، الإظهار، السير الشديد، وجعل بعض الشـيء عـلى بعض، و الاستقصاء" يقول ابن منظور[١]: ((النص: رفعك الشيء ... وكل ما أظهر فقد نُـصَّ..ونَـصَّ المتاع نَصّاً: جعل بعضه على بعض ... وأصل النَص أقصى الشيء ، وغايته ... والنص التوقـيف، والنص التعيين ... ونَص الرجل نَصاً إذا سألـه عن شيء حتى يستقصي ما عنده، ونَصُّ كل شيء منتهاه ... وفي حديث هرقل: يَنصُّهم أي يشرح رأيهم ويظهره))[٢].

والذي يدقق النظر في المعاني الواردة لا يجد عناءً كبيراً في الربط الدلالي بين معاني: الإظهار، وبلوغ الغاية، وترتيب الأشياء، والإسناد، وما يمكن أن يتوجه إليه النظر عند إرادة الحديث عن (النص) المكون من جمل مترابطة بلغت غاية مقاصد المتكلم وأظهرها، رُتِّبَتْ جملـه بعضها فوق بعض.

فـالحقل الدلالي (للنص) في بيئته المعجمية يلمح إلى كثير من الأوصاف التي أطلقت على النص عند أهل الاصطلاح في الدراسات النقدية واللسانية المعاصرة.

❑ (النص) في اصطلاح الأصوليين والمتكلمين:

لا يـبعد استعمال هذا اللفظ كثيراً عن حقلـه اللغوي عند الأصوليين والمتكلمين إلا أنه يركز على إظهار المعـنى. فـالـنص: ((ما ازداد وضوحاً على الظاهر لمعنىً في المتكلم، وهو سوق الكلام لأجل ذلك المعنى، فـإذا قـيل: أحسنوا إلى فلان الذي يفرح بفرحي، ويغتم بغمي، كان نصاً في بيان محبته. وما لا يحتمل إلا معنى واحداً، وقيل: ما لا يحتمل التأويل)) [٣].

ويقابل (النص) عندهم مصطلح (الظاهر) وهو: ((اسم لكلام ظهر المراد منه للسامع بنفس الصيغة، ويكون محتملاً للتأويل والتخصيص))[٤].

---

١ جمال الدين أبو الفضل محمد بن علي المصري ، المشهور بابن منظور : توفي (٧١١هـ) .

٢ ابن منظور: لسان العرب ، ج ٧، مادة (نصص) ، ص٩٧ .

٣ علي بن محمد الجرجاني: كتاب التعريفات. ص٣٠٩.

٤ المصدر نفسه : ص١٨٥.

وهـــذا يعني أن ما يدل عليه ظاهر اللفظ من المعاني دون احتمال معانٍ أخر فهو (نص) في ذلك المعنى، فإن احتمل معاني أخرى لدى السامع فاحتاج إلى تأويل أو تخصيص فهو (الظاهر).

ولكـــن هـــذا الاصطلاح المتعارف عليه لدى الأصوليين على وجه أخص يتجاوز وصف طبيعة النص إلى وصف طبيعة المعاني التي يوصل إليها؛ إلا أن أصلي "الإظهار" و"الإسناد" غير بعيدين عن حقلـــهما اللغوي مهما أبعدهما عملية المواضعة والاصطلاح.

والـــذي يتابع كافة استعمالات هذا اللفظ لدى علماء الأصول والمتكلمين لا تخطئ عينه مصطلحاً يطلقون علـــيه (عبارة النص)، وهي تعني عندهم: ((النظم المعنوي المسوق لـــه الكلام، سميت عبارة لأن المستدل يعبر من النظم إلى المعنى، والمتكلم من المعنى إلى النظم فكانت هي موضع العبور، فإذا عمل بموجب اللام من الأمر والنهي يسمى: استدلالاً بعبارة النص)) [1].

فالـــربط بـــين: (النص، والنظم، والمعنى، والعبارة، والكلام) في التعريف بهذا المصطلح إشارة مفيدة لفهم مصطلح النص ولكن لا يصح أن تحمل ما لا تحتمل.

❑ مفهوم النص في الدراسات الحديثة:

تعرف المعاجم اللغوية الإنجليزية مصطلح النص تحت مفردة :**(Text)**.

فقد جاء في المورد الكبير في ترجمة هذا المصطلح المعاني الآتية:

((النص: ١- كلمات المؤلف الأصلية ٢- المتن: متن الكتاب: جزؤه الأساسي مجرداً من الهوامش والملاحق.

٣- آيـــة مـــن الكتاب المقدس تتخذ موضوعاً لعظة ٤- نص معلومات ٥- كتاب مدرسي ٦- موضـوع

٧- كلمات القصيدة الملحنة)) [2].

وجملـــة المعـــاني المتقدمة تشير إلى المكتوب عموماً. فالنص هو ما نكتبه وندونه دون النظر إلى عملية إبلاغه وتلقـــيه. ولهـــذا فإن معجم المصطلحات العربية ينص على أن من المعاني المشهورة للنص: ((الكلمات المطبوعة أو المخطوطة التي يتألف منها الأثر الأدبي)) [3].

ويعرف النص -أيضاً- فيقال: إنه: ((خطاب تم تثبيته بواسطة الكتابة)) [4].

أمـــا الباحـــثون في اللسانيات فيعرفون النص بقولـــهم هو: ((البناء النظري التحتي المجرد لما يسمى عادة خطاباً)) [5].

و النص ــ عند محمد مفتاح ــ هو: ((مدونة حدث كلامي ذي وظائف متعددة)) [6].

---

[1] علي بن محمد الجرجاني : كتاب التعريفات ، ص١٨٩ ، ١٩٠.

[2] منير البعلبكي: المورد . دار العلم للملايين- بيروت، ط(١٩٩٩م) ، مادة: (Text)، ص٩٦١

[3] مجدي وهبة وكامل المهندس . معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب. مكتبة لبنان ط٢ ١٩٨٤م ص٤١٢.

[4] بول ريكو: مقال. النص والتأويل، ترجمة. منصف عبدالحق . مجلة العرب والفكر العالمي. عدد (٣) ، صيف (١٩٨٨م) ، ص٣٧.

[5] محمد مفتاح: تحليل الخطاب الشعري ، المركز الثقافي العربي – الدار البيضاء المغرب . ط١ (١٩٨٥م) ، ص١١٩.

[6] المصدر نفسه : ص١٢٠.

ويصفونه بـ (الكل الموحد) ويشترطون لأي مقطع لغوي لكي يشكل كلاً موحداً؛ أن تتوفر فيه خصائص معينة تعتبر سمة في النصوص ولا توجد في غيرها، وأنه لابد لكي تشكل كل متتالية من الجمل نصاً ((أن تكون بين هـذه الجمـل علاقات أو على الأصح بين بعض عناصر هذه الجمل علاقات تتم هذه العلاقات بين عنصر وآخر وارد في جملة سابقة أو جملة لاحقة، أو بين عنصر ومتتالية برمتها سابقة أو لاحقة)) [1].

ولكـنهم يستدركون: أن ذلك لا يعني أن النص مجموعة من الجمل؛ فالنص يختلف عن مجموعة من الجمل نوعياً في ((أن النص وحدة دلالية وليست الجمل إلا الوسيلة التي يتحقق بها النص)) [2].

كما يعرف النص بما يضاف إليه فيقال: نص علمي، ونص أدبي، ويعرف أيضاً بحسب طبيعة كتابته فيقال: نص سردي ونص وصفي، ونص تحليلي ...الخ.

وقد يعرف بالنظر إلى مهمة تفسيره وتأويلـه فيقال: نص مفتوح، ونص مغلق.

وقد اختلفت المذاهب النقدية في تعريف النص ـ والإشارة هنا إلى النص الشعري ـ حتى لقد رأى بعض الباحـثين ((أن تصنف تعريفات النص إلى مجموعتين متقابلتين بحيث تمثل الأولى ما نتج عن القراءات التي اتخذت الألسنية منطلقاً وعدت اللغة وسيلة وغاية فكان أن أصبح النص الشعري في عرفها بنية لغوية مكتفية بذاتها ...لا يحـتاج النص معها إلى إحالة إلى أي مرجع خارج نظامه الداخلي. وتمثل الثانية اتجاهاً مناقضاً يسعى إلى أن يخرج الـنص من انغلاقه فيتجاوز ذاته إلى محيطه والعوامل الفاعلة فيه فينفتح النص على متلقيه انفتاحاً يتيح لـه تعدد الرؤى والمناحي)) [3].

ولا شك أن لكل فريق من هؤلاء أهدافه في جعل النص مفتوحاً أو مغلقاً حسبما يتطلبه الموقف النقدي وما وراء الموقف النقدي من التزامات ثقافية وفلسفية.

غير أننا نجد بعض الدراسات تستخدم مصطلح النص :**(Text)** وهي تقصد الخطاب(**Speash**) دون الاحـتفال بالفـروق الـتي اجتهد بعض الباحثين في إبدائها بين المصطلحين ولهذا فإنه لابد أن نشير إلى مفهوم مصطلح (الخطاب) ثم نسرد الفروق المنهجية التي ذكرت في تمييزه.

---

[1] محمد خطابي: لسانيات النص ص١٣.

[2] المصدر نفسه: ص١١٣.

[3] عبدالقادر الرباعي: مجلة عالم الفكر. المجلس الوطني للثقافة والفنون- الكويت. العدد: ٢ ، مج٣١ أكتوبر؛ (ديسمبر ٢٠٠٢م) ،ص١٦٨.

ثانياً : مفهوم الخطاب:

بـــالعود إلى الأصـــل الاشتقاقي لهذا المصطلح في المعجم العربي والاستعمال القرآني نجد أن ((الخطب: الشـــأن، والأمر صغر أو عظم، وخطب الخاطب على المنبر خطابةً بالفتح وخطبةً بالضم ... وهي الكلام المنثور المسجع ونحوه))[1].

وقـــد ورد اللفـــظ في القـــرآن الكريم في مواضع متعددة منها قـــولـــه تعـــالى في ذكر نبيه داود (عليه الســـلام): ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴾[2].

وفي تفســـير الآية يقول الزمخشري: ((... فمعنى فصل الخطاب: البين من الكلام الملخص الذي يتبينه من يخاطـــب به لا يلتبس عليه، ومن فصل الخطاب وملخصه: أن لا يخطئ صاحبه مظان الفصل والوصل...وكذلك مظان العطف وتركه، والإضمار والإظهار، والحذف والتكرار))[3].

ويقـــول ((ابـــن عاشور)) في نفس المعنى: ((فصل الخطاب: بلاغة الكلام وجمعه للمعنى المقصود بحيث لا يحتاج سامعه إلى زيادة تبيان))[4].

وعـــند قـــولـــه تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴾[5] يقول الزمخشري: ((وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ) يريد جاءني بحجاج لم أقدر أن أورد عليه ما أرده به، وأراد بالخطاب: مخاطبة المحاج المجادل))[6].

ويذكر الراغب الأصفهاني أن ((الخطب والمخاطبة والتخاطب: المراجعة في الكلام))[7].

ومـــا ســـبق إيراده من النصوص نجد أن المعاني التي أفادها إطلالتنا على المعجم والاستعمال القرآني تجعل مصـــطلح (الخطاب) يؤشر به إلى الموقف والأداء أي إلى الظهور والسياق الذي يستلزمه الأداء ومراعاة القواعد التي تضبط بلاغة الكلام.

وقـــد توسع المتأخرون في إطلاق مصطلح الخطاب على (الرسالة) فالخطاب ((نص مكتوب ينقل من مرسل إلى موصل إليه يتضمن عادة أنباءً لا تخص سواهما))[8]

[1] الفيروز أبادي: القاموس المحيط، ، مادة: (خطب) ص١٠٣.
[2] سورة ص: الآية: ٢٠.
[3] الكشاف : ج٤ ص٨٢.
[4] التحرير والتنوير: ، ج٢٣ ص١٣٠.
[5] سورة: ص الآية: ٢٣.
[6] الكشاف: ، ج٤ ص٨٦.
[7] مفردات ألفاظ القرآن : ص٢٨٦.
[8] مجدي وهبة وكامل المهندس: معجم المصطلحات العربية ، ص١٥٩.

أما في الاصطلاح النقدي فالخطاب (**Speach**) مصطلح متعدد المعاني «فهو وحدة تواصلية إبلاغية ناتجة عن مخاطب معين، وموجه إلى مخاطب معين في مقام وسياق معينين يدرس ضمن ما يسمى بـ "لسانيات الخطاب"»[١].

ويذكر محمد خطابي أن هذا المفهوم يستعمل عند الباحثين «للإشارة إلى وحدة مفترضة أعلى من الجملة»[٢]. وبناءً عليه فإن «الشرط الأدنى لترابط القضايا التي تعبر عنها جملة أو متتالية هو ارتباطها بموضوع (موضوعات) التخاطب نفسه»[٣].

❑ الخطاب والنص:

سبقت الإشارة إلى وجود خلط في بعض الدراسات في استخدامها لمصطلحي الخطاب والنص حيث يتم التسامح في أن يحل أحدهما محل الآخر ويكشف عن هذا التسامح مجمل التعريفات التي سبق إيرادها. والذي يتبادر إلى الذهن «أن مفهوم الخطاب إنما هو مرادف لمفهوم النص ... لكن هذا الترادف يقوم على أساس مجازي توسيعي؛ حيث إن النص ليس إلا التجسيد المادي المغلق، أي التكوين اللغوي المعطى؛ غير أن مفهوم الخطاب يأتي ليحتوي مفهوم النص ويضعه في دائرة أوسع فلا يعزله عن شروط تلفظه وتداوله في مجال حيوي نشيط»[٤].

وعلى الرغم من تجاوز محمد خطابي في استعمال المصطلحين إلا أنه يذكر أن الهدف من تجاوز مفهوم الجملة إلى الخطاب تحقيق غاية أعم وهي: «تفسير العلاقات النسقية بين النص والسياق التداولي»[٥]. ويورد هؤلاء الباحثون[٦] فروقاً منهجية للتفريق بين الخطاب والنص ومنها: أن الخطاب نشاط تواصلي يتأسس أولاً وقبل كل شيء على اللغة المنطوقة بينما النص مدونة مكتوبة.

ومن الفروق التي تذكر بين النص والخطاب: أن اللغة الشفوية تنتج خطابات بينما تنتج الكتابة نصوصاً؛ ولهذا فإن الخطاب الروائي ــ مثلاً ــ يوصف بأنه «اجتماعي في مجموع مجالات وجوده وعناصره ابتداءً من الصورة السمعية ووصولاً إلى التصنيفات الدلالية الأكثر تجريداً ... ووفق هذا المنظور فهو يتضمن مبدأ تلازم الأشكال ودلالاتها»[٧].

ومعنى ذلك أن استعمالنا لمفهومي الخطاب والنص لا يأتي أو لا ينبغي أن يأتي بمعنىً واحد ولكن بفارق تصوري واضح. وعلى هذا فإن مصطلح الخطاب ــ في ضوء ما سبق ــ أشمل من مصطلح النص؛ لأننا ندرك أن العناصر التي يتكون منها النص لا يمكن عزلها عن سياقها الذي أنجزت فيه وهو المسمى بـ(المستوى التداولي) أي أن تفسير النص لا يمكن أن يتم بعيداً عن شروطه الدلالية والتداولية مجتمعةً.

---

[١] بشير أبرير: مقال (النص الأدبي وتعدد القراءات) مجلة المنهل عدد: ٥٢٤. سنة (١٩٩٥م)، ص٢٩.

[٢] محمد خطابي: لسانيات النص. ، ص١٦.

[٣] المصدر نفسه. ص٣٤.

[٤] محمد الدعمومي: مجلة الأقلام. دار الشئون الثقافية. بغداد. العدد (٦) حزيران ١٩٩٠م. ص٥١، ٥٢.

[٥] محمد خطابي: لسانيات النص ، ص٣٠.

[٦] منهم سعيد يقطين، ويوسف شكير، وبشير أبرير.

[٧] يوسف شكير: مجلة عالم الفكر. المجلس الوطني للثقافة والفنون. الكويت. عدد (٢) مج٣٠. أكتوبر، ديسمبر ٢٠٠١م ص٢٤٢.

وهذا الفهم يمكننا من تجاوز العزلة التي ضربتها اللسانيات والنقد البنائي على النص حتى أصبحت النصوص لا تشير إلى شيء محدد.

ومن خلال هذا التمييز بين مصطلحي (الخطاب) و(النص) نستطيع أن نستوعب الحاجة الماسة التي وجدها المفسرون لاستدعاء سياق المقام والظروف المحيطة لمعرفة مناسبة بعض الآيات في السورة.

كما يفيدنا مصطلح (الخطاب) ونحن ندرس النص القرآني إذا ما أدركنا سر الاحتفاء بالتلاوة والقراءة بل سر تسمية هذا الكتاب الكريم: (القرآن). ولكننا سنفيد من مصطلح (النص) بما يشمله من خصائص في وصف (الخطاب) المثبت بالكتابة المعروف ببداية ونهاية محددتين .

فلا غرابة أن يظل بعض الباحثين مصراً على استعمال مصطلح النص وهو يقصد به الخطاب لما بينهما من معانٍ مشتركة ووظائف متكاملة، فالنص قبل أن يثبت بالكتابة كان خطاباً وحين يقرأ يعود خطاباً وهكذا فإننا حين نطلق مصطلح (النص) ينصرف ذهننا إلى الخطاب المدون مع السياقات التداولية أثناء كتابته وأدائه.

ثالثاً انسجام النص :

قبل البدء بسرد المفاهيم المختلفة التي أوردها الدراسات النقدية والبلاغية واللسانية لمصطلح (الانسجام) يجب أن نسترجع بعض المفاهيم المتداولة التي يصل بنا إعادة التذكير بها إلى فهم الحاجة التي دفعت الباحثين للحديث عن (الانسجام) وأهمية توفره في النصوص وبحث الوسائل التي ظهرت النصوص من خلالها منسجمة أو التي أدى غيابها إلى فقدان الانسجام والترابط بين القضايا والموضوعات التي اشتملت عليها تلك النصوص.

مما يجب الإشارة إليه في البدء أن الله تعالى حين خلق الإنسان فضله على سائر الحيوانات بالعقل، والقدرة اللغوية على التعبير عن الأشياء والأحداث والحاجات ومعلوم أن هاتين الملكتين "العقل واللغة" تؤثر كل واحدة منهما في الأخرى، فاللغة قائمة في الأصل على منطق العقل وهو منطق الإفهام، أي أن تحقق الدلالة المرجو من عملية الاتصال اللغوي يعتمد على ترتيب الأفكار والمعاني وفق منطق العقل ((وفي اللحظة التي تفقد الأفكار فيها عنصر التسلسل توصف باللامعقول، فالعقل ليس سوى التعاقب والتوالي والسببية))[1]

غير أن مستويات التعبير اللغوي تختلف في مدى التزامها الصارم بالعلاقات في أسلوب تعبيرها عن الأشياء والأفكار والعواطف والحاجات نظراً لطبيعة التفكير الصادرة عنه، فالتفكير العلمي ((ينعكس في أسلوبه المتماسك الواضح، حيث تفضي كل جملة إلى ما بعدها ... وإذا قامت فجوات صغيرة فهي مبررة ومفهومة ويسيرة الامتلاء))[2].

ويتميز الخطاب العلمي بمميزات من أهمها: خلو معجمه من الإيحاء والتراكم، وتتابع تراكيبه في صورة منطقية، ونمو المعنى في تشاكل وحيد[3]

---

١ صلاح فضل : نظرية البنائية ، ص٢٤٥ .

٢ المصدر نفسه : ص٢٤٥ .

٣ انظر محمد مفتاح : دينامية النص ، ص٥٤.

أما التعبير الأدبي فإنه يختلف عن أنماط التعبير الأخرى، فالألفاظ يمكن أن تزاح عن معانيها الأصلية بالمجاز والاستعارة والكناية، والتراكيب والمعاني تختلف في منطق ترتيبها، فبينما كان الشعر ــ مثلاً ــ «يتسم قديماً بالتماسك والتسلسل ويتم التنسيق النحوي فيه بروابط متجانسة، نجد أن الشعر الرومانتيكي[1] قد بدأ يستخدم حيل التقطيع والقفزات المفاجئة بطريقة منظمة»[2] وهو ما تطور بعد ذلك إلى الخروج على المنطق المعقول الذي انتهى بالشعر إلى الإبهام وفقدان عنصر التوصيل الذي يعد شرطاً أساسياً في كل ما يقال ويقرأ .

لقد أكد السلف مراراً أنه: « ليس الغرض بنظم الكلم أن توالت ألفاظها في النطق بل أن تناسقت دلالتها وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل»[3] وكان هذا الفهم ضمانة للوصول إلى المعنى الواضح وتحقيق غايتي الإمتاع والإقناع.

ويعد التناسق المنطقي بين المعاني والدلالات أحد أهم الأسس الجمالية في نقدنا العربي«فالدلالات هي التي تتناسق ، وهذا التناسق يسير وفقاً لمقتضيات العقل فإذا كان الجمال كامناً في العلاقات فإن العقل هو الذي يستطيع أن يدرك العلاقات في هذا الجمال ، على أساس أن العلاقات تكون أجمل ما تكون على الوجه الذي يقتضيه العقل ... وكلما كانت هذه العلاقات مطابقة للقوانين العقلية كانت أجمل ... وفي مجال اللغة تكون معاني النحو هي تلك القوانين العقلية»[4]. أما التعبير الأدبي المعاصر ــ ونخص الشعر والنقد القائم عليه ــ فإن تيار الحداثة قد جعله مبنياً على مبدأ تضليل المتلقي ولهذا فإنهم لا يرغبون أبداً في استنتاج دلالة محددة للنص، ويلاحظ الناقد عبدالرحمن القعود أن« الدلالة في أدب الحداثة مثل عالم الحداثة نفسها متحركة متجددة مؤجلة مراوغة»[5]. ولهذا فإن البنية الدلالية المراوغة قد أصبحت وسيلة وغاية عند تيار الحداثة مما جعل بعض الباحثين يصفها بأنها «البنية التي يتعلق بها فهم المقصود بالضبط من النص وتجتمع في بؤرتها عناصره الدالة التي تراوغ المتلقي فلا يكاد يمسك بها حتى تفلت من يده فتنزلق إلى منطقة أخرى»[6].

والذي يترتب على ذلك في وجهة نظر كثير من الباحثين هو الوصول إلى مرحلة من الضياع والانفلات من الضوابط التي تحقق قاعدة الفهم المشترك بين أبناء اللغة الواحدة مما يؤدي إلى فقدان الانسجام في بناء الشخصية ، والتمرد على منظومة القيم كما حصل ذلك في كثير من المجتمعات الغربية.

إن اللغة انسجام وتناغم ونظام وقد شبه نسيج اللغة في النص بأنه «كالبنية الكبيرة التي تجري في فلكها بنىً مختلفة دون أن تتفكك بنية البناء فتنعزل عن صنواتها ... وذلك من أجل تجسد نظام لغوي شديد التماسك»[7].

---

[1] الرومانتيكية: في الأدب يقصد بها ثلاثة مذاهب في الفكر الغربي تتميز بالثورة على المبادئ والقواعد الجمالية الموروثة واستبدال الوجدان والانفعالات الشخصية بها، وتدعو إلى تحرير الشعر من القيود الاتباعية، والتعبير عن الشعور بالوحدة والحزن الناشئ عن القلق. انظر :معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب ص١٨٩ .

[2] صلاح فضل : نظرية البنائية ص٢٥٤.

[3] عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز ، تحقيق محمد رضوان الداية وفايز الداية ، مكتبة سعد الدين – دمشق ، ط٢(١٩٨٧م) ، ص ٤١ ، ٤٢.

[4] عز الدين اسماعيل : الأسس الجمالية في النقد العربي . دار الفكر العربي دمشق ط٣(١٩٧٤م)ص٢٣٩.

[5] عبد الرحمن القعود : الابهام في شعر الحداثة . الكتاب (٢٧٩) سلسلة عالم المعرفة المجلس الوطني للثقافة والفنون. الكويت .مارس٢٠٠٢م ص٢٣٣.

٦ صلاح فضل : أساليب الشعرية المعاصرة . شركة الأمل للطباعة والنشر . ط(١٩٩٦م) ص٤١٧.

٧ عبد الملك مرتاض : نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد . الكتاب (٢٤٠) سلسلة عالم المعرفة . المجلس الوطني للثقافة والفنون . الكويت (١٩٩٨) ص١٢٤.

هل البحث عن التآلف والانسجام في النص عملية مستقلة عن قراءته؟

لقد اهتمت بعض النظريات الحديثة في القراءة بتوضيح العمليات الكثيرة التي يقوم بها المتلقي "القارئ" والتي من أهمها عملية "بناء التآلف" وذلك من أجل تحقيق الربط بين أجزاء النص ليتمكن من فهم دلالته.

وفي معرض الإجابة عن التساؤل السابق يعلق "روبرت هولب" صاحب نظرية التلقي على وصف أحد رواد النظرية لعملية القراءة القائمة على التوقعات المعدلة التي يقوم بها القارئ أثناء تقدمه في قراءة النص- بأن «ذلك يعني بناء التآلف؛ فالقارئ في مواجهته للعلاقات والرموز المختلفة في نص ما، يحاول أن يقيم علاقات بين بعضها وبعض تضفي التماسك على نشاطها»[1].

ثم يؤكد مرة أخرى أن «القارئ يشكل وحدات كلية ... فإذا حدث شيء بدا مجانباً لوحدة كلية متخيلة، فإن القارئ يحاول عندئذٍ أن يعيد للأشياء تآلفها خلال سلسلة من المراجعات»[2].

فالبحث عن الانسجام مطلب السامع والقارئ في كل الأحوال، وهو مطلب ملح تفرضه الطبيعة المنطقية للغة.

❑ معنى الانسجام:

هنالك ثلاثة مصطلحات تتناوب كثيراً في الكتابات القديمة والحديثة للدلالة على معان متقاربة وهذه المصطلحات هي "الانسجام، الاتساق، التناسب".

يعرف الانسجام أنه «اتساق العناصر المختلفة اتساقاً موفقاً ينتهي إلى أثر موحد كاتساق الوظائف في الكائن العضوي، والأنغام في الهارمونيات الموسيقية»[3] ويقابل مصطلح (الانسجام) في المعجم الإنجليزي كلمة (Harmony) الذي يقابله معاني «التناغم والتآلف والتناسق»[4].

والملاحظ أن معجم المصطلحات عرف الانسجام بالاتساق، بينما يفرق محمد خطابي بين الانسجام والاتساق حيث يقول: «يقصد عادة بالاتساق ذلك التماسك الشديد بين الأجزاء المشكلة لنص/خطاب ما، ويهتم فيه بالوسائل اللغوية الشكلية التي تصل بين العناصر المكونة لجزء من خطاب أو خطاب برمته»[5].

ويمثل للوسائل اللغوية التي تحقق الاتساق بالضمائر والإشارة ووسائل الربط المتنوعة كالعطف والحذف والمقارنة والاستدراك وغيرها.

أما (الانسجام) فإنه لاينظر إليه في إطار مقابل للاتساق بل مكمل له، فحين يجد المتلقي خطاباً لا توظف فيه تلك الوسائل بصورة تمكن من إدراك تتابع المعاني «فإن الاهتمام يتغير من اتساق

---

[1] روبرت هولب: نظرية التلقي مقدمة نقدية. ترجمة: عزالدين إسماعيل.المكتبة الأكاديمية- القاهرة.ط١. (٢٠٠٠م) ص١٤٩.

[2] المصدر نفسه: ص١٤٤.

[3] مجدي وهبة، وكامل المهندس: معجم المصطلحات العربية ص ٦٣.

[4] منير البعلبكي: معجم المورد. ، ص٤١٤.

[5] محمد خطابي: لسانيات النص ، ص٥ .

النص/الخطاب إلى انسجامه ... فالانسجام أعم من الاتساق، كما أنه يغدو أعمق منه بحيث يتطلب بناء الانسجام من المتلقي صرف الاهتمام جهة العلاقات الخفية التي تنظم النص وتولده»[1].

ويمثل للعلاقات الخفية التي تحقق الانسجام بعلاقات التضمن والكلية والجزئية والملكية والتطابق الإحالي وغيرها.

فالنص يوصف بالاتساق من خلال إدراكنا لوسائل الربط الظاهرة بين أجزائه ، ويوصف بالانسجام من خلال تلمسنا للعلاقات الخفية التي تحتاج إلى إعمال ذهن وطول تأمل.

وهذا التفريق الدقيق بين الانسجام والاتساق يختلف فيه محمد خطابي عن أستاذه محمد مفتاح الذي يرى أن علاقة الوحدات اللغوية في النص ــ في الدراسات اللسانية الحديثة ــ ترد ضمن إطار نظري متنوع ويستخلص مفهومين عامين يمثلان قاسماً مشتركاً لذلك الإطار المتنوع؛ هذان المفهومان هما: الالتحام، والانسجام.

أما الالتحام فيشتق منه مفهومين هما: التنضيد، والتنسيق.

ويذكر أن من الصعوبة الفصل بينهما وأنه إنما يفعل ذلك مواضعة ــ على حد قوله. ويعني «بالتنضيد: الجمل التي نجد فيها أدوات العطف ومختلف الروابط الأخرى التي تعلق جملة بجملة، وبالتنسيق: العلاقات المعنوية المنطقية بين الجمل حيث لا تكون هناك روابط ظاهرة بينها»[2].

ويشير محمد مفتاح إلى أن مصطلح الالتحام وما يقتضيه من تنضيد وتنسيق يعود إلى مفهوم انسجام النص عند الدارسين البنائيين المحافظين والمحللين للخطاب من اللسانيين.

أما مصطلح (الانسجام) فيضعه محمد مفتاح في إطار توسيعه مفهوم النص الذي يشمل الإشارة إلى المؤلف والمتلقي ومقتضيات الأحوال. فيقول: «يمكن أن نسمي نصاً منسجماً بالنسبة إلى تأويل معطى، إذا كانت العلاقة الداخلية في النص الذي منحت له (تلك العلاقة) تحتوي الظهور الصريح أو المتوقع لكل حالات الأشياء في حصيلة نهائية للتأويل»[3].

وحتى لا نتساءل عن المدى الذي تبلغ إليه "حالات الأشياء" التي يبحث عن العلاقة بينها فإنه يدفع بها إلى «أقصى ما تكون واسطة بينه وبين التعبير اللغوي ... وعلى هذا فإن كل نصٍ منسجمٍ، مهما تراءت فوضويته وعبثيته وعدم التحام أجزائه»[4].

ويجدر بنا أن نقف على تعريف محمد مفتاح مفهوم الانسجام السابق ومعرفة الآثار المترتبة عليه فهو ينطلق من منهجية اللسانيات التداولية التي أعطت اهتماماً كبيراً للظروف المحيطة بإنتاج النص وطبيعة التواصل بين المؤلف والمتلقي في تفسير النّص وإعادة إنتاج الدلالة مع فتحها الباب واسعاً أمام التأويلات والربط المتعسف

---

[1] خطابي : لسانيات النص ، ص٥، ٦.

[2] محمد مفتاح: دينامية النص ، ص٤٤.

[3] المصدر نفسه: ص٤٤.

[4] المصدر نفسه: ص٤٤.

– أحـــياناً – بين المعاني من أجل إعطاء العمل الأدبي صفة الانسجام، وهو أمر أدرك عدم كفايته الباحث نفسه، ولذلــك لجأ إلى الاجتهاد في تقديم مصطلح الالتحام بفرعيه: التنضيد والتنسيق للحد من التأويلات التي تحيل إلى خارج النص.

لكـــن مفهـــوم التنسيق الذي يقابل مفهوم الانسجام عند محمد خطابي يمكن أن يحقق مطالب اللسانيات التداولـــية التي اعتمد عليها في تعريف الانسجام دون الحاجة إلى تكثير المصطلحات، فيشمل مصطلح الانسجام مصطلح الالتحام ضمناً.

إن النتـــيجة الـــتي سنصل إليها إذا وسعنا دائرة التأويل والبحث عن وشائج الاتصال بصورة واسعة من خارج النص تقودنا إلى تحميل النصوص ما لا تحتمل وتقويلها ما لم تقل ونحتاج تبعاً لذلك إلى إنتاج نص آخر.

فقـــول محمـــد مفتاح: "كل نص منسجم مهما تراءت فوضويته ... الخ". سيخرج بنا من نطاق اللغة إلى شيء آخر، فإذا لم يكن الخطاب أو النص قادراً على تقديم دلالته من خلال وسائل الاتساق والانسجام إلى جانب السياقات التي أنتج في أجوائها فلسنا بحاجة إلى أن نختلق لـــه نسباً ورابطة بتأويل بعيد.

أما المصطلح الثالث الذي يتلاقى مع المصطلحين السابقين فهو مصطلح (التناسب) الذي يقصد به:((حسن العلاقـــة القائمـــة بـــين الأجزاء المختلفة للأثر الأدبي حتى يتمتع كل عنصر منه بنصيبه من الاهتمام والإبراز مع مساهمته في انسجام الكل وتماسكه))[1].

بينما يعده بعض الباحثين وجهاً من وجوه (مراعاة النظير) ويعتقد أن ((من يدقق النظر فيما ذكره العلماء في وجوه إعجاز الأسلوب القرآني تحت عناوين المناسبة والتناسب المؤاخاة وتشابه الأطراف والمجانسة والائتلاف إلى غير ذلك من عناوين تفيد معنى الترابط والانسجام، فإنه سوف يرى ... أن من الأنسب جمع تلك العناوين تحت مسمى "مراعاة النظير"))[2].

ولاشـــك أن الذين يلحقون التناسب بمفهوم مراعاة النظير اضطروا إلى أن يوسعوا المفهوم الأخير ليشمل أبواباً كثيرة من علم البديع مع أنها قد استقرت على صورها المعروفة.

ولكن المتأمل في مفهوم التناسب لا يجد عناءً كبيراً في جعلـــه مظهراً من مظاهر الانسجام لا أن يحل محلـــه ويدل على ما يدل عليه.

❑ انسجام الخطاب في النص القرآني:

تدرس هذه الظاهرة بوصفها إحدى الظواهر القرآنية التي يتجلى فيها وجهٌ من وجوه الإعجاز لهذا الكتاب العظيم الذي نـــزل مفرقاً فكان معجزاً ، ثم جمع فكان ذلك الجمع والترتيب معجزة أخرى .

إن تمـــيز أسلوب القرآن الكريم يجعل استصحاب المقولات و المفاهيم التي تستعمل في الكشف عن وسائل انســـجام النصـــوص – مهمة قد تمكن من الوصول إلى فهم أسرار ترتيب القرآن و قد لا تمكن . وفي ضوء هذا

---

[1] مجدي وهبة، وكامل المهندس: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب ص١٢٢.

[2] كمال الدين عبدالغني المرسي: مراعاة النظير في كلام الله العلي القدير. دار المعرفة الجامعية – الإسكندرية . ط(٢٠٠٠م) ص٧.

نستفهم حرص المفسرين – قديماً و حديثاً –على التذكير بأن حديثهم عن الانسجام يمثل غاية ما وصل إليه اجتهادهم و يقظتهم في تتبع سياق الآيات، و لا نستغرب توقف بعضهم أمام بعض المواضع من القرآن محاولين الاستعانة بما يرد في الموضع من كلام في أسباب النزول، لأنها تمثل واحدةً من المؤشرات الأسلوبية التي يستعان بها حين لا يمكن الاهتداء للمناسبة من سياق الآيات في السورة .

و قد عولت الدراسات الحديثة على الاستعانة باستراتيجيات تحليل الخطاب ، و نظريات القراءة ، وأدوات علم الأسلوب في مساعدتها على فك شفرة تلك المواضع ، ولعل الله الكريم القائل:﴿ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴾[1] أن يكرمنا و يفتح علينا بفهم وتدبر نهتدي به لفهم أسرار كتابه العزيز .

١ سورة العلق:الآية ٣.

المبحث الثاني

اتجاهات الدراسات القرآنية الحديثة في النظر إلى المناسبة والانسجام

مثـلما أثـرت الدراسات اللغوية والبلاغية على الدراسات القرآنية القديمة في تشكيل نظرتها إلى مفهوم المناسبة وتنوعـت عـلى أسـاس ذلـك أساليبهم في الكشف عن مظاهر تناسب الآيات والسور ووسائلـها؛ فإن أثر الدراسـات الحديـثة في الأدب والنقد واللسانيات وتحليل الخطاب على البحوث الحديثة التي تناولت الأسلوب القرآني كان واضحاً، إضافة إلى استيعاب الباحثين التراث الأدبي وما كتبه المفسرون ، فتضافرت كل تلك العلوم في صياغة مناهج الدراسات القرآنية الحديثة.

ومن خلال تتبع ما كتبه هؤلاء الباحثون في موضوع انسجام الخطاب في النص القرآني ؛ يمكن لنا تصنيف تلك الدراسات إلى ثلاثة اتجاهات هي:

الاتجـاه الفـني : ويمثلـه تلك الدراسات المعتمدة على الخلفية الأدبية والنقدية والتناول الفني، الشامل للنص القرآني .

ولتعرف طريقة هذا الاتجاه في دراسة ظاهرة الانسجام سنعرض للجهود الرائدة لأديبين وعلمين .

الأول هـو :سـيد قطب إبراهيم ، الذي قدم مفاهيم نظرية عن التصوير الفني في القرآن وعززها بدراسة تطبيقية موسعة في كتابه (في ظلال القرآن).

والثاني هو : محمود البستاني ،الذي نطلع على دراسته الفنية التي قدمها للقراء تحت عنوان: (دراسات فنية في التعبير القرآني) اقتصر فيها على دراسة (سورة البقرة).

الاتجـاه اللغوي : ونعـرض في هذا الاتجاه لإسهامات الأساتذة : تمام حسان ، ومحمد خطابي ،وصبحي إبراهيم ، المتمثلة في جملة المفاهيم المعتمدة عندهم في دراسة الانسجام في النصوص عامة ، والنص القرآني خاصة.

الاتجاه البياني : وهو الاتجاه الذي اعتمد المفاهيم والوسائل البيانية والبلاغية ،في شرح علاقات الانسجام والـترابط بـين آيـات الكتاب العزيز، كما نجد ذلك في منهج التفسير الذي أخذ به الشيخ محمد رشيد رضا، والشيخ محمد سيد طنطاوي، والشيخ سعيد حوى، وغيرهم.

وقـد اخـترنا ألا نفصـل القول في هذا الاتجاه ؛ لأنه امتداد للدراسات القديمة – في الغالب – ثم لأننا سنعرض بالتفصيل لدراسة ظاهرة انسجام الخطاب في النص القرآني من خلال تفسير (التحرير والتنوير) للشيخ محمـد الطاهر بن عاشور التونسي –رحمه الله – الذي تتبع هذه الظاهرة بعناية ، ونفترض – سلفاً – أن تفسيره يمثل هذا الاتجاه بجميع ألوانه.

أ . الاتجاه الفني :

المنهج الفني في النقد الأدبي ، منهج له أسلوبه وأدواته في دراسة النصوص ؛ يبدأ من التأثر والانفعال بالأثر الأدبي (النص) وينتقل إلى تحليله وإعادة تركيبه ، وإبراز جماليات الأسلوب وروعة الاتساق .

والأديب الناقد ، ذو الذائقة الفنية والإعداد العلمي والإحساس الفني المرهف ، تختلف قراءته للنص عن قراءة غيره ؛ لأنه يجيد قراءة النصوص ويدرك جوانب تفرد أسلوبها، ويوظف قدرته اللغوية والفنية في التعبير عن أسباب ذلك التفرد وسر ذلك التأثير.

لقد أحدث الاتجاه الفني بابتعاده عن أسلوب القدماء في تناول النص القرآني – نقلة كبيرة في منهجية تدبر الكتاب العزيز ، ولم يعلن أصحاب هذا الاتجاه أنهم بعملهم هذا يقدمون منهجا جديداً في التفسير ويتضح ذلك من عناوين مؤلفاتهم التي ظهرت فيها معالم هذا الاتجاه.

وجد رواد هذا الاتجاه أن « الجهود التي بذلت في التفسير وفي مباحث البلاغة والإعجاز... وقفت عند حدود عقلية النقد العربي القديمة ، تلك العقلية الجزئية التي تتناول كل نص على حدة، فتحلله وتبرز الجمال الفني فيه – الحد الذي تستطيع – دون أن تتجاوز هذا إلى إدراك الخصائص العامة في العمل الفني كله»[1] .

كما وجد أصحاب هذا الاتجاه من الضروري الأخذ بمنهج جديد لدراسة القرآن في ضوء البحث عن الخصائص العامة للجمال الفني في القرآن .

وقد حظيت ظاهرة الانسجام والتناسق الفني للنص القرآني باهتمام هذا الاتجاه ويمكن أن نلحظ ذلك من خلال عرضنا للتصور الذي يقدمه سيد قطب ومحمود البستاني لهذه الظاهرة القرآنية المعجزة ، ونفصل الحديث في ذلك في الصفحات الآتية:

❑ آفاق التناسق الفني في القرآن كما يعرضها (سيد قطب):

تعد الدراسة المبكرة التي قدم فيها سيد قطب تصوره عن التصوير الفني في القرآن وتطبيقاتها على القرآن الكريم في مؤلفه الموسوم (في ظلال القرآن) من أوائل الدراسات المنطلقة من المنهج الأدبي الفني في استعراض آفاق التناسق الفني للقرآن الكريم.

يتتبع سيد قطب ألوان التناسق في فصل عقده عن التناسق الفني ، عد منها ألواناً خمسة مشيراً إلى أن «منها ما تنبه إليه بعض الباحثين في بلاغة القرآن ومنها ما لم يمسسه أحد حتى الآن »[2] وهذه الألوان الخمسة هي :

١– التنسيق في تأليف العبارات بتخير الألفاظ ثم نظمها في نسق خاص.

٢– الإيقاع الذي لم يتجاوز السابقون شكله الظاهر ، ولم يبينوا تعدده ولا تناسقه مع الجو الذي يطلق فيه ولا وظيفته في السياق .

٣– النكت البلاغية ، مثل التعقيب بالفاصلة المتفقة مع السياق، والفصل والوصل ....إلخ .

---

[1] سيد قطب : التصوير الفني في القرآن ص٣٤.

[2] سيد قطب : التصوير الفني في القرآن ، ص ٨٧ .وما بعدها .

٤-التسلسل المعنوي والتناسب في الانتقال من غرض لآخر.

٥-التناســق النفسي الناشئ من تدرج النصوص وتدرج المشاعر المصاحبة لــها، ومثل لذلك بالوصف الذي قدمه الزمخشري في سورة الفاتحة.

ولكــن ســيد قطــب لا يعد ألوان التناسق هذه إلا مظاهر أولية وقف المتقدمون عند مظهرها الخارجي، وكلــها تعود إلى(تناسق المعاني والأغراض).

ويــلحق ســيد قطب بألوان التناسق المذكورة لونين آخرين للتناسق يعدهما" صورة مما يتجه إليه البحث المجدد في التسلسل الفكري والتناسق النفسي بين سياق القرآن ، وهذان اللونان هما:

- التناسق الداخلي بين المعاني والأهداف ، وعرض نموذجا لذلك (سورة العلق).
- التناســق المعــنوي والنفســي بــين القصص التي يعرضها القرآن والسياق الذي تعرض فيه، وانسجام عرضها في هذا السياق مع الغرض الديني والمظهر الفني .

كان ذلك هو اللون الأول من ألوان التناسق الفني ، وكلــها تعود إلى(تناسق المعاني والأغراض).

أما اللون الثاني فهو(التناسق العائد إلى التصوير) : وقد عد لهذا اللون أربع صور هي :

- تناسق التعبير مع الحالة المراد تصويرها لإكمال معالم الصورة الحسية والمعنوية.
- اختــيار اللفظ الذي يستقل برسم الصورة ، إما بجرسه أو ظلــه أو بهما معاً. ويمثل لهذا اللون الذي يساهم فيه اللفظ بجرسه في رسم الصورة بــ(سورة الناس)وعقب عليها بقــولــه: "اقرأها متوالية تجد صوتك يحدث وسوسة كاملة تناسب جو السورة"[١].
- التناسق عبر تقابل الصور التي ترسمها التعبيرات .
- التناســق عــبر تقــابل صورتين إحداهما حاضرة والأخرى ماضية أو متخيلة.ومن ذلك أيضاً: التناسق في زمن عرض الصور ومساحته في النص.

واللون الثالث من ألوان التناسق هو : تناسق الإيقاع ، ومن صوره:

- تناسق الإيقاع في الآيات مع الفاصلة القرآنية ، ويلاحظ سيد قطب أن تغير الفاصلة في السورة يعني تغيراً في الموضوع ، ويقدم مثالاً على ذلك من (سورة مريم ، وسورة النبأ)
- تناسق الإيقاع مع جو السورة العام. وهذا اللون يتبع نظاماً خاصاً في كل سورة باطراد ، يقول عــن الإيقاع في سورة النازعات: "في سورة النازعات أسلوبان موسيقيان وإيقاعان ينسجمان مع جويــن فــيها تمام الانسجام"[٢] ويوضح هذين الأسلوبين من خلال عرضه للسورة التي احتوت إيقــاعين أحدهما سريع قصير الموجة ، ينسجم مع جو الأحداث التي بدأت بها السورة ، حتى إذا

---

[١] سيد قطب : التصوير الفني في القرآن ص٩٤.

[٢] المصدر نفسه :ص ١١١.

وصل إلى قصة موسى (عليه السلام) تغير الإيقاع إلى إيقاع وانيَ الحركة، متوسط الموجة ، يناسب جو القصص.

وهكذا نجد أن سيد قطب قد استطاع أن يعرض آفاق التناسق والانسجام التي تحدث عن بعضها المتقدمون وألمح إلى ألوان لم ينتبهوا إليها مثل تناسق التصوير والإيقاع وزمن العرض، إضافة إلى التناسق النفسي الذي عرضه في صورة جديدة. وقد انطلق في كتابه (في ظلال القرآن) من هذه النظرية يهتم بظاهرة انسجام النص وتناسقه وتسلسل قضاياه ووحدته الفنية.

نظر سيد قطب إلى النص القرآني على أنه وحدة متكاملة ولكل سورة نسقها المستقل، يقدم بين يديها بطاقة تعريف يذكر فيها موضوع السورة الرئيس والموضوعات الأخرى المتعلقة به ، حيث يقول : ((لكل سورة من سوره شخصية مميزة ... ولها موضوع رئيس أو عدة موضوعات رئيسة مشدودة إلى محور خاص . ولها جو يظلل موضوعاتها كلها ويجعل سياقها يتناول هذه الموضوعات من جوانب معينة تحقق التناسق بينها وفق هذا الجو، ولها إيقاع موسيقي خاص – إذا تغير في ثنايا السياق فإنما يتغير لمناسبة موضوعية خاصة ... وهذا طابع عام في سور القرآن جميعاً ولا يشذ عن هذه القاعدة طوال السور))[١].

ويقسم سيد قطب السورة أحياناً مقاطع وأحياناً أخرى مشاهد أو جولات، ففي تناوله (لسورة محمد) يعرض موضوعها الأساس وهو القتال فيقول: ((إنها معركة مستمرة من بدء السورة إلى ختامها يظللها جو القتال وتتسم بطابعه في كل فقراتها، وجرس الفاصلة وإيقاعها منذ البدء كأنه القذائف الثقيلة "أعمالهم. بالهم. أمثالهم..." وحتى حين تخف فإنها تشبه تلويح السيوف في الهواء "أوزارها. أمثالها..." وهناك شدة في الصور كالشدة في جرس الألفاظ المعبرة عنها ... وهكذا يتناسق الموضوع والصور والظلال والإيقاع في سورة القتال))[٢].

و في المواضع التي ينقطع فيها السياق و لا تظهر المناسبة يخلص (سيد قطب) إلى ضرورة التسليم بموقعها كشاهد على زمان تلقيها ، ولذلك يقف أمام قوله تعالى: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴾[٣] فيقول : ((في ثنايا السورة وحقائقها ومشاهدها تعترض أربع آيات تحتوي توجيهاً خاصاً للرسول صلى الله عليه وسلم وتعليماً له في شأن تلقي هذا القرآن . ويبدو أن هذا التعليم جاء بمناسبة حاضرة في السورة ذاتها ...فأما التعليم فقد ثبت في موضعه حيث نزل . أليس من قول الله ؟ وقول الله ثابت في أي غرض كان و لأي أمر أراد . وهذه كلمة من كلماته تثبت في صلب الكتاب شأنها شأن بقية الكتاب ، ودلالة إثبات هذه الآية في موضعها هذا من السورة دلالة عميقة موحية على حقيقة لطيفة في شأن كل كلمات الله في أي اتجاه ... لم يخرم

---

١ في ظلال القرآن : في ظلال القرآن. دار الشروق. ط١١ (١٩٨٥م) ج١،ص٢٧.

٢ المصدر نفسه : ج٦ ص٣٢٨٠.

٣ سورة القيامة : آية ١٩ .

منها حرف ولم تند منها عبارة"[1] . تلك أبرز آفاق التناسق الفني في القرآن التي أشار إليها سيد قطب في كتابيه وهي تمثل منهجاً جديداً في التعبير عن انسجام النّص القرآني .

❑ آفاق التناسق الفني في القرآن كما يعرضها (محمود البستاني):

كتـــب الدكتور محمود البستاني كتاباً سماه دراسات فنية في التعبير القرآني تناول فيه بالتحليل الفني سورة (الــبقرة) ونحاول هنا أن نتبين الملامح الأساسية التي تشكل رؤية (البستاني)لوحدة السورة القرآنية وانسجامها.
وبدايـــةً فإن الذي يلفت النظر خلو الدراسة من مقدمة تنير الطريق أمام القارئ ، وتكشف لـــه ما يريد أن يقدم علـــيه المؤلف لا سيما والمنهج الفني لدراسة النصوص يخضع – في مجملـــه – لمدى قدرة الكاتب على استغلال وسائل المنهج الفني وتوظيفها في تقديم النص القرآني وفق خصوصيته و تميزه .

لكـــن الكاتـــب يرجئ هذا التوضيح حين يصل مع القارئ إلى ما أطلق عليه (الخطوط التي وهّجت البناء الفـــني العام للنص) بعد كشفه لتناسق بداية السورة و وسطها و نهايتها فيقول : "يجدر بنا الوقوف سريعاً على الخطوط التي وهجت البناء الفني العام للنص ما دام هدفنا منصباً على توضيح الـــهيكل العضوي للسورة بصفتها نصاً فنياً مركباً من أجزاء متنوعة و يرتبط بعضها بالآخر وفق سببية محكمة تفصح عن معمارية متميزة "[2] .

و قد حشد البستاني كل إمكاناته الأدبية و النقدية في توضيح الوشائج التي تربط ظواهر النص المختلفة فنياً و فكرياً و التي يمكن تلخيصها فيما يلي :

١- العنوان ومهمته العضوية والفنية :

يركز البستاني في بداية دراسته على إبراز القيمة الفنية للعنوان (اسم السورة) المثبت على النص حالياً وهو (ســـورة البقرة) و لم يجهد نفسه في إعادة المناقشات التي دارت بين المتقدمين حول تسمية السور في القرآن و ما إذا كان ممكناً اتخاذ العنوان مفتاحاً للنص حين تتعدد أسماء السورة الواحدة أم لا ؟ .

و أيـــاً كانت زاوية النظر التي يميل إليها فإن هذا العنوان مثبت في المصحف المتداول شائع الاستخدام عند الصحابة و التابعين .

بـــين (البستاني) أهمية النظر من خلال العنوان إلى الغرض العام من السورة، وهو في ذلك متبعٌ لا مبتدع فقـــد سبقه من المتقدمين – كما سلف – الزركشي ، و البقاعي ، و غيرهما ، ولكنه تناول القيمة الفنية و المهمة العضـــوية للعـــنوان في منحىً جديد من خلال ربط ظواهر النص بالظواهر التي يعبر عنها العنوان ، أو تعبر عنها قصة البقرة التي أخذت تسمية السورة منها.

---

[1] سيد قطب : في ظلال القرآن . ج٦ص٣٧٦٧ .

[2] محمود البستاني : دراسات فنية في التعبير القرآني . دار الهادي – بيروت ط١(١٩٨١) ، ص ٢٧٧.

بـــادئ ذي بـــدء يقرر (البستاني) أن ((انتقاء العنوان يشير إلى أهمية وجهة النظر التي يستهدفها النص ... وتثبيـــت وجهة النظر يتم من خلال الإلحاح عليها : إما لاستغراقها لغالبية النص أو تكرارها في جملة من مواقفه، أو اقتصارها على مواقف جزئية))[1].

و العـــنوان كمـــا سبق مأخوذ من قصة البقرة التي أمر بنو إسرائيل بذبحها ، و لكنها (أي القصة) ختمت بتعقيب أشار إلى ظواهر أخذت حظاً من التكرار و الإلحاح عليها في مواطن كثيرة من السورة ، ويتمثل التعقيب في قـــولـــه تعالى: ﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[2].

والظواهـــر الـــتي تشير إليها الآية – كما يذكر (البستاني)– إحياء الموتى ، إبراز قدرة الله تعالى ، وأخيراً الأثر المطلوب تحققه من عرض الآيات (لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) .

ويسمي (البستاني) تلك التعقيبات الثلاث (ظواهر) ويؤكد أن استصحابها مهم في قراءة السورة عموماً– بالـــنظر إلى الجو الذي أطلقت فيه ثم إلى سلوكيات الأشخاص الذين عقبت الآية على واحدة من قصصهم و هي بذلك ((تضع المفتاح بأيدينا لمعرفة الوظيفة الفنية للعنوان ، وصلتها العضوية بالنص))[3] .

وتتمثل صلة العنوان بمحتويات النص في ((أن المساحة التي احتلـــها رسم السلوك الإسرائيلي يكاد يقارب نصف مساحة النص و هي نسبة ضخمة بالقياس إلى رسم الظواهر الأخرى))[4].

يؤكد (البستاني) أن التواشج بين العنوان والظواهر الأخرى في السورة يبرز كذلك من خلال الحديث عن ظاهـــرة الإحياء حيث تكررت في قصة الـــهاربين من الموت ،وقصة إبراهيم في محاجة النمرود ، و قصة الطير ، وقصة الملأ من بني إسرائيل[5] .

أمـــا عـــن علاقـــة العنوان بما ورد في السورة من ذكر أحوال المنافقين و المشركين فيؤكد (البستاني) أن ((الســـورة و هي تطرح ظواهر متعددة ، لا تني تصل بين هذه الظواهر المختلفة وبين الظواهر التي طرحتها قصة الـــبقرة ... فهـــي إذ ترســـم أنمـــاط (الســـلوك الملـــتوي) من منافق ومشرك وكافر تربط بينها وبين السلوك الإسرائيلي... وهي إذ ترسم (السلوك الإيجابي) تربط بينه –على نحو التضاد – والسلوك الإسرائيلي أيضاً))[6].

---

[1] دراسات فنية في التعبير القرآني : ص٥ .

[2] سورة البقرة . الآية ٧٣ .

[3] محمود البستاني : دراسات فنية في التعبير القرآني ص٦ .

[4] المصدر نفسه . ص٢٧٨ .

[5] وكـــذا قصة خلق الإنسان في قوله : (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ...) [البقرة :٢٨] وقصة الصاعقة التي أصابت بني إسرائيل حين طلبوا رؤية الله جهرة ، وقصة البقرة نفسها في إحياء قتيل بني إسرائيل ، وقصة الرجل الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها .

[6] محمود البستاني : دراسات فنية في التعبير القرآني ، ص٢٧٩ .

وأما علاقة العنوان بسلسلة الأحكام التي وردت في السورة يؤكد أن السورة "تربط بين الاستجابة السوية والاســتجابة المَرَضِيَّة رابطةً إياهما بالسلوك الإسرائيلي ، فالقارئ يلحظ الربط المتقدم بنحو لافت للنظر في زحمة تلقيه رسم الأحكام التي لا يتوقع إرهاصها بخطوط رابطة بينها و بين السلوك المتقدم "[1] .

٢- مستويات التعبير و أثرها في الانسجام :

حــدد (البستاني) في بداية دراسته معالم النص (سورة البقرة) من حيث الشكل أو مستوى التعبير و قسمها إلى النــثر الطبــيعي ، و النــثر القصصي ، و ذكر أنهما "يتآزران ليؤديا وظيفتيهما الفنية بالنحو الذي يستدعيه السياق "[2].

٣- هيكل النص و أثره في الانسجام :

يــنظر (البستاني) إلى أن هيكل النص جاء متوازناً من حيث المضمون ، و قد قسم السورة إلى ستة مواقف تتبعها مواقف جزئية يعطي كل موقف شكلاً متناسقاً في الدراسة يبدأ بذكر التمهيد للموقف و أبرز ملامحه وصلته بالظواهر التي تحدثت عنها السورة ثم التعقيب على الموقف .

وهـــناك لونٌ آخر يكتمل به انسجام الموقف غير الترابط العضوي بين القضايا والموضوعات التي يشملها النص و تساهم في اكتمال انسجامه سماها أدوات التعبير الفني وهي :

أ- الصـــورة : و هـــي صـــورة مركبة يبين (البستاني) انسجامها مع السياق في واحد من المواقف الستة بقــولــه : "إن الصورة المتقدمة تمثل نموذجاً من الصورة التركيبية ذات الأطراف المتشابكة ... تتواكب فتشكل صــورة اســتمرارية ذات قــدرات إيحائــية بالغة المدى ، حتى أنها لتتناسب مع تشابك المواقف التي ينطلق منها المنافقون في طبيعة تركيبهم النفسي واستجابتهم"[3] .

ب- الحوار : يشير (البستاني) إلى أن النص قد وظف تقنية الحوار بنوعيه الداخلي والخارجي ليحقق تجانساً عضــوياً مــع كثافة الحديث المفصل ، و تجانساً مع بداية الحديث عن موقف جديد متعلق به و تجانساً مع تنوع أشكالــه الخفية و الظاهرة .

ج- الســـرد: يوظــف النص تقنية السرد كنمط تعبيري مناسب للموقف ، ففي حديثه عن المنافقين الذين يقــوم سلوكهم على التضاد كان السرد مناسباً لوصف هذا التضاد "ومن هنا جاءت ضرورة السرد ... ليلغي التضاد القائم بين الحوار الخارجي والداخلي "[4] .

كمـــا قـــام السرد بوظيفة فنية أخرى هي " اللجوء إلى عنصر الصورة ... لإلقاء المزيد من الأضواء على سلوكهم "[5] .

---

[1] محمود البستاني : دراسات فنية في التعبير القرآني ، ص٢٧٩ .

[2] المصدر نفسه : ص٢٧٩ .

[3] المصدر نفسه :ص١٥ .

٤ المصدر نفسه : ص٢٤ .

٥ المصدر نفسه : ، ص٢٤.

ويـــنظر (البســـتاني) إلى ضرورة تجانس السرد و الحوار مع الموقف و أن ذلك «يجسد البناء العضوي أبرز تجسيد في الموقف جزئياً ، و الموقف في صلته بسائر أجزاء النص »[١] .

وقد سلك (البستاني) في وصف ظاهرة الانسجام طريقاً آخر حيث يقسم النص إلى بداية ووسط و نهاية، فالنص (سورة البقرة) قد «بدأ برسم محدد ، فصلــه الوسط ، و نمى خطوطه حتى تتوجت بالختام »[٢] . ثم يفصل هذه الخلاصة تفصيلاً نجملــه نحن فيما يلي:

١- علاقة البداية بالوسط : يخلص (البستاني) إلى أن النص قد جانس بين البداية والوسط من خلال :

- التوافق بين انحصار السلوك الإيجابي في ظاهرة المتقين ، و تذييل كل الأحكام التي تشكل ظاهرة السلوك الإيجابي بظاهرة الاتقاء .
- الـــتوافق بـــين بدء النص بوصف المتقين و تكثيف ظاهرة التقوى ((و منحها عناية خاصة دون غيرها لنحو يفرز التجانس بين البدء و الكثافة التي تمت في الوسط))[٣] .
- التوافق بين التقوى و ما يميز المتقين في التزامهم بالأحكام و التوجيهات .

٢- علاقة الوسط بالنهاية : توجت النهاية معالم الوسط بالحديث عن علم الله بظاهر السلوك و باطنه ثم أنحـــت النهاية في الآيتين الأخيرتين إلى خلاصة خطوات الإيمان التي رسمت في الوسط و الحصيلة النهائية للمواقف الستة .

٣- علاقـــة الـــبداية بالنهاية : و يشير فيها إلى أن «النص بدأ بتحديد معالم الإيمان وانتهى بطرح إيمان الرســـول (صلى الله عليه و سلم) و المؤمنين ، بدأ بتحديد "مفصل" من خلال تنمية الوسط إياه و انتهى بتحديد "كلّي" يستجمع نثار ما طرحته المواقف السابقة »[٤] .

و الذي نخلص إليه أن (البستاني) ركز كثيراً على القاعدة المشتركة و الرابط العضوي بين القضايا والوقائع الـــتي وردت في الســـورة ، ونظر إلى النص نظرة كلية، غير أنه لم يقم بتحديد العلاقات التي تتواشج بها المقاطع وتترابط بها الموضوعات تحديداً واضحاً ، وأهم ما يمكن أن نخرج به من ألوان انسجام النص باستقرائنا للمواقف الستة التي عرض من خلالـــها السورة هو كل من العلاقات والوسائل الآتية:

- الإجمال و التفصيل .
- التقابل والتناظر .
- الاختزال و الانتقاء .
- التضاد و التماثل .
- التداخل (الحوار مع السرد ، النثر الطبيعي والقصصي) .
- التنامي و التناقص .
- انتقاء موقع الصورة .
- تناسق البدء والختام.
- التذييل .
- التوازي والتضام .
- التكرار .

---

١ محمود البستاني : دراسات فنية في التعبير القرآني ، ص٢٤.

٢ المصدر نفسه:ص٢٧٤.

٣ المصدر نفسه: ص٢٧٥.

٤ المصدر نفسه : ص٢٧٧ .

ب . الاتجاه اللغوي :

تعـد المفاهـيم التي قدمها الباحثون –المصنفون على هذا الاتجاه – في تناول ظاهرة انسجام النّصّ القرآني مـثالاً عـلى التطور الذي شهدته الدراسات اللغوية ؛ باعتمادها على معطيات النظريات اللغوية ومفاهيمها التي ازدهرت في الغرب ، وتأثر بها الفكر اللغوي العربي الحديث .

وقـد ترشحت تلك التطورات فيما عرف بالنظرية البنائية وعلم الأسلوب ، ثم في لسانيات النّصّ وتحليل الخطاب .

ولهذا فإن من الضروري – ونحن نستعرض اتجاهات الدراسات القرآنية الحديثة نحو ظاهرة انسجام الخطاب في النّصّ القرآني – أن نلمّ بمناهج هذه الاتجاهات وأساليبها في تحليل النصوص عامةً والنّصّ القرآني خاصة.

وإذا كانـت الإشارات المتقدمة – في بداية هذا الفصل – قد ألمحت إلى طبيعة تطور هذه الدراسات ؛ فإن تناولـنا لمـناهجها في التحليل يفرض علينا عرض أبرز ما تطرحه هذه المناهج ، بصورة يمكن معها إدراك الأسس التي تستند عليها النماذج المختلفة للتحليل ، مع مناقشة ما يمكن أن يثير الاهتمام –مما لـه علاقة بهذا البحث– من مفردات تلك المناهج ، ومدى ملاءمتها لدراسة النّصّ القرآني .

وتيسـيراً للوصـول إلى خلفيات هذه الدراسات اللغوية في تناول ظاهرة انسجام النص القرآني ؛ يمكن تقسيمها إلى منهجين :

الأول : منهج التحليل البنائي الأسلوبي .

الثاني : منهج التحليل اللساني النّصّي .

ونشير بداية إلى أن الدراسات – المتوفّرة بين أيدينا – التي تعتمد على المنهجين السابقين في كشف ظاهرة الانسـجام ، لا تُقدم بحثاً شاملاً للنّصّ القرآني بأكملـه ، الأمر الذي جعل بعض الباحثين يُعد نتائجه التي توصل إليها في بيان وسائل الانسجام نسبيّة[1] .

ولئن كان الاتجاه اللساني النّصّي قد قدم دراسات تناولت نصوصاً قرآنية مكتملة أكثر من الاتجاه البنائي؛ فـإن فـيما قدمه رواد الاتجاه الأخير ما يُلِحُّ علينا بضرورة عرضه وتقديم نتائجه؛ للإفادة من كل منهج في تدبر آيـات الكتاب العزيز من حيث يتأتى لنا التدبر ، والتوسل لذلك الغرض بوسائل كل منهج ما أمكن لنا التوسل وهو ما سنعرض لـه في الصفحات القادمة.

---

١ أمثال محمد خطابي في كتابه لسانيات النص ، وصبحي إبراهيم في كتابه علم اللغة النّصي دراسة تطبيقية على السور المكية .

أولاً منهج التحليل البنائي الأسلوبي:

يَعتمدُ التحليلُ البنائي للنصوص – في صورته المستخدمة في النقد الأدبي – على فكرة مفادها أن « أي نَّصّ يمتلك نسقاً(Sestema) لغوياً أساسياً بالنسبة لبنيته الخاصة ، التي تمتلك وحدة عضوية ، أو نواة ذات مدلول قابل للشرح »[١] .

و بتجاوز الجدل حول مفهوم البنية ، باعتبارها نموذجاً عقلياً أو جوهراً واقعياً ، فقد تقرر لدى الباحثين أن البنـــية « عـــبارة عن مجموعة متشابكة من العلاقات ، وأن هذه العلاقات تتوقف فيها الأجزاء أو العناصر على بعضها من ناحية ، وعلى علاقتها بالكلّ من ناحية أخرى »[٢] .

و بـــناءً على ذلك فإن التحليل البنائي الشامل يرفض «أن تعالج العناصر التي يتكون منها كلٌّ ما على أنها وحـــدات مستقلة ... إذ إن البنية كلٌ ينبغي اعتباره من وجهة نظر علاقاته الداخلية ، طبقاً للمبدأ المنطقي الذي يقضي بأولوية الكُلّ على الأجزاء »[٣] .

وأول خطـــوة في التحليل البنائي للنَّصّ هي تحليل البنية و عزْلـــها [٤] ثم تحليلها و كشف عناصرها، حيث «يـــنظر في مكونـــات الـــنَّصّ كما تكشفها مفاصل البنية وأشكال التكرار فيها»[٥] وذلك من أجل الوصول إلى القوانين التي تحكم علاقات هذه الأنساق و البنى في أي نَّصّ من النصوص .

وأهـــم خصـــائص المـــنهج البنائي : أنه تحليلي تركيبي ، وتأتي الناحية التحليلية من جهة أنها تبحث «عن العلاقـــات التي تُعطِي للعناصر المتحدة قيمة وضعها في مجموع منتظم ؛ مما يجعل من الممكن إدراك هذه المجموعات لأوضاعها الدالة »[٦]و ذلك يعني أنه عند إعادة تركيب هذه العناصر فإنه يجب أن يحافظ على خصائصها .

ويلزم عند تحليل النَّصّ الأدبي – وفق المنهج البنائي – النظر إلى نوعين من العلاقات السياقية ، و هما :

١–علاقات المجاورة : وتمثل المحور الأفقي للنَّصّ أي علاقات التسلسل والتوافق .

٢–العلاقات الإيحائية الاستبدالية : أي علاقات كلّ عنصر من السياق بما يثيره من عناصر مخالفة لـــه .

و يهـــتم التحليل البنائي – بصورة أكبر – بالنوع الأول من هذه العلاقات ، حيث يقوم المحلل بوضع يده عـــلى الوحـــدات المشكّلة للنَّصّ «حيث تبدأ الوحدة في النَّصّ النثري من الفقرة إلى الفصل حتى تشمل الكتاب

---

١ باسم قطوش : استراتيجيات القراءة التأصيل و الإجراء النقدي ، مؤسسة حمادة و دار الكندي – اربد الأردن،ط(١٩٨٨م)،ص١٨

٢ صلاح فضل : البنائية ، دارالشروق ط ١ – (١٩٨٩م)ص ١٢٣ .

٣ المصدر نفسه ص ١٣٣ .

٤ مطلـــب عزل البنية : يعني التركيز على داخل النَّصّ و إهمال السياق الثقافي و الاجتماعي ، و قد طرحته بعض الدراسات البنائية من أجل التركيز على تمـــيز النص و استقلاليته ، ثم تطور إلى مرحلة بعيدة عن الطبيعة اللغوية للنَّصّ ليمثل حركة التمرّد التي قادها بعض النقاد الغربيين على كل ما يمثل سلطة أو مقدســـاً . و هو مطلب يتناقض مع الطبيعة الاجتماعية للغة ، لأنه لا يمكن للنَّصّ أن يحقق دلالته إلا من خلال حضوره الحي في المجال الثقافي والاجتماعي . [انظر : حكمت الخطيب : في معرفة النَّصّ . دار الآفاق الجديدة ، بيروت ط٣ (١٩٨٥م) ص٣٧ و ما بعدها].

٥ صلاح فضل: البنائية ص٣٢ .

٦ المصدر نفسه، ص١٣٣.

بأكملـــه . ويمكــن رصد الروابط النحوية التي تصل ما بين هذه الوحدات وخاصةً تلك التي تعود إلى الأجزاء السابقة من النَّصّ »[1].

و إذا كـــان التحليل البنائي يتناول في الأصل الوحدات الصغرى كالكلمة والجملة ؛ فإنه كذلك يتناول تحليل المستويات التي تزيد على مستوى الجملة «أي أجزاء القول ، التي يمكن أن تُستنبط منها بنية القصيدة ، أو هـــيكل الــنَّصّ ، و لا ريـــب أن علاقـــات التكامل بين الوحدات الصغرى والكبرى توازي علاقات الحروف بالكلمات ، والكلمات بالجمل ؛ إلا أنها تتم على مستويات وصفية مختلفة»[2].

وقـــد اخـــتلف الباحثون كثيراً حول ترتيب هذه المستويات ، وعددها ؛ ولكنها في مجموعها لا تخرج عن المستويات الآتية[3] :

١- المستوى الصوتي : حيث تدرس الأصوات ؛ رمزيتها و تكويناتها الموسيقية.

٢- المستوى الصرفي : وتدرس فيه الوحدات الصرفية ، ووظيفتها في التكوينين اللغوي والأدبي .

٣- المستوى المعجمي : وتدرس فيه الكلمات ، لمعرفة خصائصها و علاقاتها .

٤- المستوى النحوي : ويدرس فيه تأليف الجمل وتركيبها وطرق تكوينها .

٥- مستوى القول :لتحليل تراكيب الجمل الكبرى ومعرفة خصائصها الأساسية.

٦- المســـتوى الدلالي : ويهتم فيه بتحليل المعاني المباشرة و غير المباشرة ، ويستفاد هنا من نتائج علم النفس وعلم الاجتماع .

٧- المســـتوى الرمزي : ويدرس فيه كيفية قيام المستويات السابقة بدور الدالّ الجديد الذي ينتج مدلولاً أدبياً جديداً .

وتعمل هذه المستويات كلـــها مجتمعة في وقت واحد ، وليس الفصل بينها إلا فصلٌ صناعيٌ اقتضته طبيعة الدراسة ، ورغبة الوصول إلى الدقة في التحليل .

لقـــد اكتسبت هذه النظرية رواجاً في حقل الدراسات الأدبية ؛ لأنها لم تجعل من أهدافها كما يقول صلاح فضل : «أن تصف عملاً بالجودة و آخر بالرداءة ، وإنما تحاول إبراز كيفية تركيبه ، والمعاني التي تكتسبها عناصره عندما تتآلف على هذا النحو»[4].

و بغـــض الـــنظر عمـــا آلت إليه بعض صور تطبيقات هذه النظرية في حقل النقد الأدبي من نتائج ؛ فإن الممارســـة الواعـــية لمفاهيم هذه النظرية من خلال نموذجها في التحليل ؛ يفتح أمام الدرس اللغوي والأدبي آفاقاً جديدة و مفيدة ، و يمكن إدراك ذلك من خلال دراسة ظاهرة الانسجام في النَّصّ القرآني ، كما تعكسها دراسة أحد رواد هذا الاتجاه والتي سنعرضها في الصفحات القادمة.

---

١ صلاح فضل : البنائية ، ص٢١٥ .

٢ المصدر نفسه ص ٢١٢ .

٣ المصدر نفسه : ص ٢١٤ و ما بعدها .

٤ المصدر نفسه : ص٢٢٢.

❑ انسجام النَّصّ القرآني عند (تمّام حسان) :

ليس بين أيدينا – إلى الآن – دراسة تأخذ بمنهج التحليل البنائي والأسلوبي في تناول ظاهرة انسجام النَّصّ القرآني تجمع بين النظرية و التطبيق . ولكن مُجمل المبادئ والإجراءات التي قدمها (تمام حسان) في ثنايا كتابه الموسوم (البيان في روائع القرآن دراسة لغوية وأسلوبية) يمكن أن تُعَدَّ ممارسة نَّصّية ، تقترب حيناً من أفق النَّصّ المتسع ، وتضيق حيناً آخر لتعود إلى دراسة العلاقات في نطاق الجملة في جميع مستوياها .

ولا شك أن (تمام حسان) من الجهابذة الذين كان لهم إسهام متميز في حقل الدراسات اللغوية في عصرنا ، فقد تشبَّع بالدراسات اللغوية العربية القديمة ، واطلع على إسهامات الغرب في حقول علم اللغة ، حتى عدّه بعض الباحثين أحد الأقطاب ((الذين استوعبوا بعمقٍ مكاسب علم اللغة الحديث ، وتشربوا أهم مبادئه ، وأصبحوا يتناولون قضاياه بدقة علمية ترقى إلى أحدث مستوى في الدراسات اللغوية))[1] .

كما يُعدُّ (تمام حسان) عند كثير من الباحثين ((أول من مهد الطريق لنوع من العلوم نحن في أشد الحاجة إليها الآن ، وهو علم الأسلوب ، الذي يراجع جميع التطورات البلاغية القديمة ، ويعيد وضعها وصياغتها على ضوء علم اللغة الحديث من جانب ، وعلى ضوء النظريات السيميولوجية[2] من جانب آخر))[3]

ومن الإطلالة الأولى على كتابه (البيان في روائع القرآن) نلمس تركيز اهتمامه على المباني اللغوية والغايات الأسلوبية التي يتضمنها سياق النَّصّ القرآني ، وقد صرَّح المؤلف أن بحثه ((يشتمل على دراسة لغوية و أخرى أدبية أو بعبارة أدق "أسلوبية" فأما الدراسة اللغوية فتتم من خلال موقف القرآن من القرائن اللفظية الدالة على المعنى النحوي ، وهي : الإعراب والبنية والربط والرتبة والتضام وقرينة السياق ... وأما الدراسة الأسلوبية فتبدأ بالنظر في استعمال الأسلوب القرآني للقيم الصوتية ... ثم تتخطى اللفظ المفرد إلى التراكيب القرآنية من حيث خصوصيتها و ترخُّصها ... ثم تعقد الدراسة فصلاً لتأبّي القرآن على اللبس إذا عرض اللبس للنمط التركيبي،... وتنتهي الدراسة الأسلوبية بإلقاء الضوء على أسلوب قصة يوسف عليه السلام ، و تأمُّل بنيان بعض السُّور القرآنية ؛ إذ تقوم السُّورة على عناصر متكاملة ذات وحدة عضوية))[4].

و يتضح من هذا العرض أن الحيِّز الأكبر الذي أعطاه الباحث هو للبحث عن المعنى من خلال المبنى ، في نطاق الجملة ، ثم للعلاقة بين الجمل، ولكن الإشارة المباشرة منه لدراسة أسلوب القصة القرآنية ، وتأملاته في بناء بعض السور القرآنية ، تجعل الاهتمام بهذه الدراسة أمراً مبرَّراً . كما يدفع لعرض هذه الدراسة أن حديث (تمام

---

١ صلاح فضل : البنائية ص١١٥.

٢ تعرف السيميولوجيا (Semiotic) : بأنها علم العلامات وهو العلم الذي يحاول أن يطبق نطاقاً منهجياً على نشوء كل ما يمكن أن يسمى بالعلامة أو الإشارة ، لغوية كانت أم تصويرية ... كما يعالج تقسيم العلامات بما في ذلك الكتابة الخطية ، والرموز التعبيرية للصم والبكم ، ... ويتناول هذا العلم تطورات مدلول الإشارة وتحولها ويمكن إدراج علوم الدلالة المختلفة تحت مفهوم علم العلامات أو علم الإشارات . [انظر : مجدي وهبة ، وكامل المهندس : معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب ، ص٢٥٧] . وقد اقترح صلاح فضل تسمية هذا العلم في اللغة العربية بـ(السيميائية) مستفيداً من الكلمة العربية (سيماء) أي علامة أو ملمح .انظر : نظرية البنائية في النقد الأدبي : ص٢٩٧.

٣ صلاح فضل : البنائية ، ص١١٧.

٤ تمام حسان: البيان في روائع القرآن، عالم الكتب- القاهرة، ط١ (١٩٩٣م) ص١٢ ،١٣.

حسان) حول أساليب الارتباط ووسائله له علاقة وثيقة بما تستخدمه اتجاهات أخرى في إثبات ترابط النصوص وانسجامها .

ويمكن أن تصنف مجمل المبادئ و المفاهيم التي لها علاقة بموضوع الانسجام في هذه الدراسة إلىأربعة أقسام:

- القسم الأول : القيم الصوتية ، وأهمها : الإيقاع والفاصلة .
- القسم الثاني : و نعرض فيه حديث (تمام حسان) عن العلاقات السياقية ، ووسائل الترابط في نطاق الآية الواحدة أو مجموع الآيات ذات السياق المترابط في السورة الواحدة.
- القسم الثالث : وينطوي تحته حديث (تمام حسان) عن انسجام القصة القرآنية (سورة يوسف) .
- القسم الرابع : وفيه تم الوقوف على طريقة تناول (تمام حسان) لموضوع انسجام السورة ، بوصفها (بنية) تقوم على عناصر متكاملة –على حد تعبير المؤلف – مركزين في هذا كله على اختيار نماذج تستوعب أكبر قدر يمكن تعميم نتائجه في دراسة ظاهرة الانسجام في النَّصّ القرآني ، وذلك على النحو الآتي :

القسم الأول : القيم الصوتية :

عقد (تمام حسان) الفصل الأول من الدراسة الأسلوبية لدراسة القيم الصوتية في القرآن الكريم ، ويعني بمفهوم القيم الصوتية : «تلك الخصائص التي تتمايز بواسطتها الأصوات ، ويتعلق بها نوع من المعاني يسمى "المعاني الطبيعية" التي لا توصف آثارها بأنها عرفية ولا ذهنية»[1] ويعني بذلك : أن آثارها ترجع إلى إحساس الفرد بها وانطباعه المتشكل منها .

ومن هذه القيم الصوتية : الإيقاع ، الفاصلة ، الحكاية ، المناسبة ، حُسْن التأليف .

والذي يهمنا هو ما يتصل بحقل الدراسة النَّصية من تلك القيم ، أي ما كان أثره ظاهراً على مستوى النَّص، حيث يمكن أن نطلق عليه : "مصطلح الانسجام الصوتي".

وأبرز ما يمكن رصده من حديث (تمام حسان) من تلك القيم مما له علاقة بهذا النوع من الانسجام: الإيقاع ، والفاصلة القرآنية ، ونتبين ذلك في الآتي :

- الإيقاع :

أشار (تمام حسان) إلى أن «المقصود بالإيقاع ليس هو الوزن المحكم ، وإنما هو التوازن الناشئ عن تقارب الشبه بين المسافات الفاصلة بين كل نبر ونبر ... هذا التوازن هو مصدر رشاقة الأسلوب ، وسبب قوي من أسباب ارتياح النفس له»[2].

---

١ البيان في روائع القرآن : ص٢٥٧.

٢ المصدر نفسه : ص٧٢.

وقد أوضح (تمام حسان) أن هذه القيمة الصوتية تظهر في تنوع المقاطع الصوتية وانتظامها ، تلك المقاطع التي تعتمد على عنصر الترتيل والتجويد «فتجويد القرآن يشتمل إلى جانب إعطاء الأصوات حقها على أمور أخرى منها : المدّ بأنواعه ، والغنة ، والسكت ، وما إلى ذلك»[1] فتصبح مراعاة هذه القواعد رديفاً للإيقاع الصوتيّ المعتمد على تلك المقاطع ، وإن كان يرجع ذلك –في غالبه– إلى الأداء إلا أن الالتزام بقواعد التجويد اكتسب خصوصية الإلزام بما يتيح قاسماً مشتركاً في الأداء بين جميع القراء .

- الفاصلة :

أشار (تمام حسان) إلى أهمية الفاصلة القرآنية في تحقيق الإيقاع المطلق المتوازن الذي يخالف الإيقاع الموزون للقافية في الشعر ولا يُلتزم فيه ما أُلتزم في القافية .

وقد تتبع (تمام حسان) فواصل سورتي "الرعد والحج" واستنتج أن الفاصلة : «تضفي على النّص قيمة صوتية ينقسم سياق النّص بها إلى وحدات أدائية تُعدّ معالم للوقف والابتداء ...ولأمر ما كان الوقف على رؤس الآي سنة إلا أن يفسد به المعنى... فيقف القارئ عند الفاصلة ليتزود بزاد نَفس جديد ، وليحس عند الفاصلة بأنه يقف لدى معلم من معالم السياق المتصل تحف به روائق الإيقاع وروائع المعنى من كل جانب»[2].

وأشار (تمام حسان)–أيضاً– إلى أن الفاصلة إما أن تكون علاقتها بالآية علاقة عضوية تركيبية وأسلوبية ، أو أن تكون واردة بعد تمام المعنى في الآية فتكون تذييلاً وقد وجد أن «هناك انسجاماً وتآلفاً بين مضمون الآية ومضمون التذييل ، فليس في القرآن آية يدعو مضمونها إلى العقاب وتذييلها إلى المغفرة والرحمة»[3].

ولكن (تمام حسان) يعود لينبه على ما يؤكده السلف من أن الفواصل توقيفية، فقد يتحقق في اللفظ تمام المعنى وحروف الفاصلة ولكنه مع ذلك لا يُعدّ من الفواصل ، واستشهد بآيات كثيرة، ومنها أنه لم تكن عبارة "كيف يشاء" رأس آية، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[4] ثم قال : «والعكس واقع في القرآن أيضاً فقد تكون الفاصلة دون تمام المعنى وقد تحقق لها جرس ما يحيط بها من الفواصل كالذي في سورة البقرة من قوله تعالى ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[5] فالذين يؤمنون بالغيب صفة للمتقين ، ومعنى ذلك أن

---

[1] البيان في روائع القرآن : ص ٢٧٢ .

[2] المصدر نفسه : ص٢٧٩.

[3] المصدر نفسه : ص٢٨٠.

[4] سورة آل عمران : الآيات ٥، ٦.

[5] سورة البقرة : الآيات٢-٥.

المعنى لم يتم عند الفاصلة الأولى لأن الصفة تخصص الموصوف وهو بدونها عام يحتاج إلى هذا التخصيص ، فإن قلتَ : إن "الذين يؤمنون بالغيب" مبتدأ خبره "أولئك على هدى من ربهم" قُلتُ: إن الفاصلة في الآيتين الثالثة والرابعة جاءت قبل تمام المعنى، لأنهما جاءتا قبل استكمال الخبر ... ومعنى هذا كما سبق أن الصلة غير مطردة بين الفاصلة وتمام المعنى»[١] .

وقد ختم (تمام حسان) حديثه في الفاصلة بالإشارة إلى أن وظيفتها ربما أدت إلى تقديم عنصر أو تأخيره كما في قوله تعالى : ﴿...وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾[٢] وقوله :﴿...وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾[٣] وقوله : ﴿...فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾[٤] وقوله: ﴿...فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[٥] مما يدل على أن رعاية الفاصلة مقصد قرآني يتحقق به تمام الانسجام .

وجميع ما ذهب إليه (تمام حسان) في القيمة الصوتية للفاصلة قد تقدم بحثها والإشارة إليها عند السلف، ومن أهم من تطرق إليها: الزمخشري في الكشافِ ، واتفق معه بدر الدين الزركشي في كتابه البرهان، وذلك بتأكيد بقاء المعاني على سدادها مع حُسن النظم والالتئام بالفاصلة وأنها لا تأتي لمجرد الجرس الصوتيّ وتناسق الإيقاع[٦].

القسم الثاني العلاقات السياقية

١- القرائن النحوية :

يُمَهِّدُ (تمام حسان) للحديث عن أهمية الحفاظ على المعنى و إباء اللبس في ظروف التواصل اللغوي بقوله : «شرط الجملة العربية أن تكون مفيدة . لأن السعي إلى الإفادة هو سبب الاتصال اللغوي، وحصول الفائدة نتيجته ، من هنا كان من الضروري لنمط الجملة أن يشتمل على قرائن تؤدي إلى الحفاظ على المعنى»[٧].

ويُعدُّ تقرير هذا المعنى من الأهمية بمكان ؛ إذا علمنا أن انتظام الجمل في الآية الواحدة ثم انتظام الآية مع الآية مبنيٌّ على هذا الشرط ، و هو ما يفسر النظر إلى البنية في إطار علاقاتها في النَّصّ جميعه، التي لا يمكن إدراكها إلا من خلال القرائن والأدوات ومن هذه القرائن :

---

١ البيان في روائع القرآن : ص٢٨١.

٢ سورة البقرة : الآية ٣.

٣ سورة البقرة : الآية ٤.

٤ سورة البقرة : الآية ٨٨.

٥ سورة النساء : الآيات ٤٦ ، ١٥٥.

٦ انظر في تفصيل ذلك : (ا)بدر الدين الزركشي : البرهان ،ج١،ص٧٢ . (ب) السيوطي : الإتقان ،ج٢،ص١٢٠ .وانظر كذلك : محمد الحسناوي : الفاصلة في القرآن ، المكتب الإسلامي ببروت ،د.ت.ط . وقد ألف الدكتور حسين نصار رسالة مفيدة عن الفواصل ضمن سلسلة إعجاز القرآن سماها "الفواصل" نشرتها مكتبة مصر ،ط١(١٩٩٩م).

٧ البيان في روائع القرآن : ص١٠٧ .

• قرينة الرتبة :

قرينـــة الرتبة ((قرينة نحوية ووسيلة أسلوبية : أي أنها في النحو قرينة على المعنى[1] ، وفي الأسلوب مؤشر أسلوبي ، ووسيلة إبداع ، وتقليب عبارة واستجلاب معنى أدبي))[2].

وقـــد أشار (تمام حسان) إلى أنواع من الرتبة مثل (الرتبة المحفوظة) لبعض الأدوات ذات الصدارة مثل: صـــدارة الأدوات في أســـاليب الشرط ، والاستفهام والعرض والتحضيض ، أو الأدوات الداخلة على المفردات كحـــرف الجـــر عـــلى المجرور وأداة الاستثناء على المستثنى ؛ ومن الرتب المحفوظة تقديم الموصول على الصلة، والموصوف على الصفة ، وتأخير البيان عن المبين ، والتوكيد عن المؤكد ، و(الرتبة غير المحفوظة) مثل رتبة المفعول مـــن الفعل ، والمبتدأ من الخبر ورتبة الضمير والمرجع ... الخ ، وهناك نوع آخر من الرتبة تكون في الكلام سماها (الرتبة الزمانية) وذلك حين ((يَحْكُم العقل لأحد الأمرين بالتقدم ثم لا يتوقف المعنى على تقديمه في الكلام ، وإنما يؤمـــن اللبس رغم انعكاس رتبة الأشياء))[3] وقد مثل لذلك بترتيب قـــولـــه تعالى: ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾[4] . يقول (تمام حسان) : ((نجد ترتيب ذِكْرِ الرســـل يناسب ترتيب وجودهم في الحياة ، حتى وصلت إلى الأسباط فجاءت بعدهم مباشرة بعيسى الذي ليس بينه وبين نبينا عليهما الصلاة و السلام – وهو خاتم الأنبياء – إلا فترة من الرسل لم يوجد فيها رسول واحد ، ثم تلا عيسى في الذّكْرِ من هو أقدم منه وجوداً على غير ترتيب ، حتى ختمت الآية بموسى عليه السلام ؛ ولقد جاء تجاهل الترتيب التاريخي نتيجة لشهرته وعدم الحاجة إلى رعايته في الكلام))[5] .

ولكن الوسيلة اللغوية التي أمكن من خلالـــها الخروج على الترتيب الزمني هي العطف بالواو ((إذ الواو لا تفيد ترتيباً و لا تعقيباً ... و انصبت الملاحظة في جميع ذلك على أن المتعاطفات قد خالفت في الذكر ترتيبها في الزمان))[6] .

---

١ يستنتج تمام حسان في دراسته القيمة عن دور القرآن في تشكيل المعاني : أن الرتبة قرينة لفظية وعلاقة بين جزأين مرتبين من أجزاء السياق يدل موقع كل منهما من الآخر على معناه . وأن الرتبة بكونها قرينة لفظية تخضع لمطالب أمن اللبس ، وقد يؤدي ذلك إلى أن تنعكس الرتبة بين الجزأين المرتبين بها . ويكون ذلـــك أيضـــاً إذا كانت الرتبة وعكسها مناط معنيين يتوقف أحدهما على الرتبة والآخر على عكسها نحو: ما أمرَّ جاء بك ؟ وأمرٌ ما جاء بك . انظر: اللغة العربية معناها ومبناها . ص٢٠٩ .

٢ تمام حسان : البيان . ص ١١ .

٣ المصدر نفسه : ص٩٥ .

٤ سورة النساء : آية ١٦٣ .

٥ تمام حسان : البيان . ص ٥٦ . ((وقد ألمح بعض المفسرين إلى أن هذا الترتيب مقصود به أن لافرق بين النبي والرسول في الوحي إذ كانت الآية رداً على بني إسرائيل الذين طعنوا في نبوة النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، وقولهم : لو كان نبياً أتى بكتابه جملة كما أتى موسى عليه السلام بالتوارة كذلك)) [انظر : برهان الدين البقاعي : نظم الدرر في تناسب الآيات والسور .ج٢ ، ص٣٦٨].

٦ المصدر نفسه : البيان ص ٩٦.

ومن الشواهد التي أوردها لإمكان تجاوز حفظ الرتبة إيفاءً لمطالب أسلوبية مثل كسر الرتابة في الأسلوب: «تحوير التركيب بين الجملتين الاسمية والفعلية،في نحو قوله تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۞ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ۞ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾[1] »[2] .

- قرينة الربط :

و هي إحدى القرائن التي يتم بواسطتها إدراك العلاقة في السياق ، ويعدها (تمام حسان) إحدى العلاقات السياقية «وظيفتها إنعاش الذاكرة لاستعادة مذكور سابق ، بواسطة إحدى الوسائل اللفظية التي تعين على الوصول إلى هذه الغاية »[3] والمعروف أن الربط بين أجزاء الكلام إما أن يتم بالإحالة، أو بالمطابقة ، أو بالأداة [4].

وقد أورد (تمام حسان) شواهد تمثل مستويات متعددة لبيان كيفية تحقق الربط بالإحالة من ذلك :

- الإحالة بإعادة الذكر (التكرار) : و يقصد بذلك «إعادة ذكر صدر الكلام بعد أن حال بينه وبين ما يتعلق به فاصل طويل من الكلام ، جعله مظنة النسيان أو ضعف العلاقة بما يتبعه ، من خبر أو فاعل أو جواب ، فإذا أعيد صدر الكلام إلى الذاكرة اتضحت العلاقة بما يليه وينتمي إليه »[5] .

ومن الشواهد التي ساقها لهذا النوع قوله تعالى: ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ۞ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۞ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾[6] فالملاحظ تكرر الفعل (قَالَ) ثلاث مرات . وهذا شكل من أشكال الإحالة بإعادة الذكر ، وقد استنتج (تمام حسان) سببين لتكرار هذا الفعل هما: «أ- اختلاف مناجاته (عليه السلام) لنفسه وخطابه لربه جعل (قَالَ) الثانية ضرورية ؛ لأن الانتقال

---

١ سورة النساء : الآيات ٢٦– ٢٨ .

٢ تمام حسان: البيان ،ص١٠٩.

٣ المصدر نفسه ، ص ١٠٩ .

٤ يذكر ابن هشام في مغني اللبيب هذه الروابط تحت عنوان (روابط الجملة بما هي خبر عنه) و ذكر عشر روابط هي :
١– الضمير : و هو الأصل و لذا يربط به مذكور و محذوف . ٢– الإشارة. ٣– إعادة المبتدأ بلفظه . ٤– إعادته بمعناه . ٥– عموم يشمل المبتدأ "ألـ" التي للعهد. ٦– العطف بفاء السببية "عطف جملة ذات ضمير على جملة خالية منه أو العكس" . ٧– العطف بالواو . ٨– الشرط المشتمل على ضمير مدلول على جوابه بالخبر. ٩– "ألـ" النائبة عن الضمير "عند الكوفيين وبعض البصريين " في مثل "المأوى " من قوله تعالى (فإن الجنة هي المأوى) [النازعات : ٤١] . ١٠– كون الجملة نفس المبتدأ في المعنى ومن ذلك أخبار ضمير الشأن و القصة . انظر: ابن هشام الأنصاري : مغني اللبيب عن كتب الأعاريب . تحقيق الدكتور مازن مبارك ومحمد علي حمد الله . دار الفكر بيروت ، ط ٦ (١٩٨٥م) ص ٦٤٧ و ما بعدها .

٥ تمام حسان: البيان في روائع القرآن ،ص١١٣ .

٦ سورة القصص : الآيات ١٥ –١٧ .

مــن هــذا إلى ذلك لا يصلح لأن يفسر بالالتفات ولا غيره ، إذ لم يكن بدّ من نداء ربه قبل خطابه ، فلو لم تأت (قَالَ) الثانــية لجعــل ما قبلــها من كلام كأنه خطاب لله و ليس نجوى للنفس . ثم فصلت جملتان معترضتان بين ندائــه لــربه أولاً و ندائــه لـــــه ثانياً وهما "فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ" فأصبح تكرار (قَالَ) الثالثة أمراً ضرورياً لاستقامة الكلام»[1] .

ومــن شواهد الإحالة التي تحقق ربط أجزاء الكلام بالتكرار : الآيات التي ختمت بها سورة الحشر، قال تعــالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ ۞ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَـٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۞ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَـٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[2] حيث تكــرر الضمير (هُو) خمس مرات ، يقول (تمام حسان) : «تكرر الضمير خمس مرات ، ثلاث منها متبوعة بلفظ الجلالة ، واثنتان من هذه الثلاث يأتي فيها التهليل بعد لفظ الجلالة بعبارة "لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ" و لولا التكرار المذكور لتوالــت الأسماء الثلاثة عشر دون فاصل بينها ، مع ما في ذلك من إملال هو أبعد ما يكون عن أسلوب القرآن الــذي لا يَخلَــق ولا يُمــل . بل إن هذا التكرار لم يكن كافياً فأضافت إليه الآيات تهليلاً وتسبيحاً وثناءً بنسبة الأسماء الحسنى إلى ذاته سبحانه»[3].

– الإحالة بالضمير : فالضمائر وسيلة من وسائل الربط التي تعد بديلاً عن إعادة الذكر . ويتسع مفهوم الضــمير – عند (تمام حسان) – ليشمل أسماء الإشارة والموصولات حيث إن «المعنى العرفي العام الذي يعبر عنه الضمير هو عموم الحاضر أو الغائب دون دلالة على خصوص الغائب أو الحاضر ... والحضور قــد يكون حضور تكلم "كأنا ونحن" ، وقد يكون حضور خطاب "كأنت" وفروعها ،أو حضور إشارة "كهــذا" وفــروعها ، والغيبة قد تكون شخصية كما في "هو" وفروعه، وقد تكون موصولية كما في "الذي" وفروعه »[4] .

و من الشواهد التي أوردها (تمام حسان) في الاستغناء بالضمير عن تكرار لفظ ما يرجع عليه، قــولــه تعــــالى: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۞ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ۞ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۞ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۞ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۞ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۞ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ۞ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ۞ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ۞ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ۞ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ۞ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ۞ إِنْ هُوَ إِلَّا

---

١ تمام حسان: البيان في روائع القرآن ،ص١١٥ .

٢ سورة الحشر : الآيات (٢٢-٢٤).

٣ تمام حسان : البيان في روائع لقرآن . ص ١١٦ .

٤ تمام حسان : اللغة العربية معناها و مبناها ،دار الثقافة، الدار البيضاء المغرب، (١٩٩٤م) ص١٠٨. وممن توسع في مفهوم الضمائر و قسمها إلى شخصية و إشارية و موصولة من القدماء ابن يعيش انظر : شرح المفصل، دار الطباعة المنيرية- القاهرة، ج٣ص٨٤ - ١٦٠ ، ج٤ص١ - ٢٤ .

ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۞ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴾ [1] يـلحظ (تمام حسان) أنه قد ((تكرر ضمير الغائب في هذه الآيات في قـولـه [إنه –رآه – وما هو– إن هو] دون أن يتقدم عليه مرجعه ، وإنما دل السياق على المرجع ، إمـا بإشارة إليه بعد الضمير كما في قـولـه "مجنون" أو "بالأفق" أو "ضنين" أو "قول" أو "ذكر" فكل كلمة من هـذه تشـير إلى المقصود بالضمير)) [2] و يشير في موضع آخر إلى أنه قد لا يظهر مرجع الضمير لا صراحةً و لا تصـيُّداً مـن الفعل و لا من السياق ، واستدل على ذلك بقـولـه تعالى: ﴿ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ [3] حيث لا نجد – كما يقول (تمام حسان)– لضمير (يده) ما يصلح قبلـه أن يكـون مـرجعاً، وهذا من باب الترخص في شرط عود الضمير على مرجع مذكور ((لأن اللبس مأمون بأن صاحب اليد لا بد أن يكون سالكاً في هذه الظلمات فكأنه قال : إذا أخرج السالك يده لم يكد يراها)) [4] .

- قرينة التضام [5] :

تحـدث (تمام حسان) عن فكرة العلاقة التركيبية التي تحكم الترابط بين مفردات الجملة وعناصر النَّصّ، وكذا عن العلاقة التقليبية (الاستبدالية) التي تكشف عن التنوع داخل المصفوفة أو الجدول –على حد تعبيره – وذكر أن هاتين العلاقتين ذواتا صلة بقرينة التضام .

ويتضـح من حديثه أن مظهر العلاقة التركيبية يتمثل في عملية التتابع ؛ الذي يفهم في إطار ((العلاقات التي تقـوم عـلى السطر بين عناصر أنماط الجمل والمركبات ، وبين التابع والمتبوع والمفسَّر والمفسِّر و التمييز والمميز والضـمير ومرجعه ، وتَحَمُّل الضمير وعدمه ... والفصل والوصل ... فالعلاقة في كل موقع من هذه المواقع إنما تقوم بين عنصرين من عناصر النَّصّ أفقياً على السطر لا رأسياً في الجدول)) [6] .

---

١ سورة التكوير : الآيات ١٥ – ٢٨ .

٢ تمام حسان : البيان ،ص١٣٢ .

٣ سورة النور : الآية ٤٠.

٤ تمام حسان: البيان ، ص ٢٣٠ .

٥ لمفهوم التضام وجهان يذكرهما تمام حسان :

الوجـه الأول : أن التضام : هو الطرق الممكنة في رصف جملة ما فتختلف طريقة منها عن الأخرى تقديماً وتأخيراً ، وفصلاً ووصلاً ، وقد أطلق على هذا الفرع اصطلاحاً "التوارد"، وأشار إلى أن التضام بهذا المعنى أقرب إلى اهتمام دراسة الأساليب التركيبية البلاغية .

الوجـه الـثاني : أن المقصود بالتضام : أن يستلزم أحد العنصرين التحليليين النحويين عنصراً آخر فيسمى التضام هنا "التلازم" ، أو يتنافى معه فلا يلتقي به وليس هذا "التنافي" ، والتضام بهذا المعنى يدرس ضمن العلاقات النحوية من القرائن اللفظية . انظر : اللغة العربية معناها ومبناها . ص٢١٧ .

٦ تمام حسان: البيان ،ص١٥٣.

٢- المؤشرات الأسلوبية :

يتحقق الانسجام في النّصّ بمؤشرات أسلوبية إلى جانب تلك القرائن ، وقد أدرج (تمام حسان) تحت هذا العنوان ما سُمّي (بالأسلوب العدولي) و هو مورد من موارد التأنق في الأسلوب القرآني يتم الخروج به على صرامة تلك القرائن إذ لا قيد عليه إلا أمن اللبس.

و سنعرض فيما يأتي أبرز ظواهر العدول عن قرائن الربط ، والرتبة ، والتضام مما له علاقة بدراستنا، فمن ظواهر العدول ذات الدلالة الأسلوبية :

أ - العدول عن قرينة الربط بواسطة الالتفات :

فالمعروف أن الالتفات إجراء أسلوبي يقع في سلسلة التتابع اللغوي والدلالي ؛ وهو ما يمثل نقطة توقف للقارئ أو المستمع يحاول عندها إعادة ترتيب المعنى . و قد قسَّم (تمام حسان) الالتفات ثلاثة أقسام :

- التفات دلالي خالص : "ومعنى أنه دلالي خالص أن العنصر النحوي الذي من شأنه أن يكون محل الالتفات يبقى على صورته فلا يتغير من صورته شيء ولكن دلالته عند إيراده ثانياً تختلف عنها عند إيراده أولاً "[1] ومن شواهد هذا النوع من الالتفات في القرآن قوله تعالى:﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[2] .

يقول (تمام حسان) : "فإذا نظرنا إلى الضمير في (ٱذۡكُرُواْ) وجدناه لجماعة المخاطبين ،وهم بنو إسرائيل ، ثم تمضي الآيات بعد ذلك تعلق أحداثاً معينة من أيام بني إسرائيل بالفعل (ٱذۡكُرُواْ) بواسطة الظرف (إذ) على النحو التالي[3] :

﴿ وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ ... ﴾ ﴿ وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ ...﴾ ﴿ وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةً ... ﴾
﴿ وَإِذۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ ... ﴾ ﴿ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ ... ﴾ ﴿ وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ ... ﴾
﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ ... ﴾ ﴿ وَإِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ ... ﴾ ﴿ وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصۡبِرَ ... ﴾
﴿ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ ... ﴾ ﴿ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ ... ﴾

ثم يبقى الضمير على صورته بعد ذلك ويختلف المخاطبون به ، في قوله تعالى : ﴿ أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ ﴾[4] فاختلاف المدلول مع بقاء الضمير على صورته يجعل الالتفات دلالياً غير نحوي "[5] .

---

١ تمام حسان : البيان ص١٨٤ .

٢ سورة البقرة : الآية ٤٧.

٣ سورة البقرة : الآيات (٤٩، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٦٧).

٤ سورة البقرة : الآية : ٧٥.

٥ تمام حسان : البيان ،ص٣٧١.

• التفات دلالي ونحوي : وذلك إذا تغيرت الدلالة وصورة الضمير كلتاهما ، ومن شواهده التي أوردها قوله تعالى : ﴿ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۞ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾[1]

يقول (تمام حسان) : ((لاحظ الفرق بين ضميري الخطاب في "إليك" و"اتبعوا" فالأول للنبي (صلى الله عليه وسلم)، والثاني لعامة المؤمنين ، فاختلف الضميران دلالياً بذلك ، ونحوياً بالفرق بين الإفراد و الجمع))[2] .

• التفات نحوي : وذلك في حالة ((ما إذا بقي المدلول في بؤرة القصد ، واختلفت صورة الضمير...وهذا كثير شائع في الأسلوب القرآني ، كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾[3].

قارن : " لِّمَا مَعَكُم " و " نَلْعَنَهُمْ "))[4] .

و مع أن (تمام حسان) قد عدّ هذا التقسيم للالتفات من مبتكرات بحثه إلا إنه أهمل الإشارة للقيمة الأسلوبية لهذا العدول الأسلوبي بواسطة الالتفات، وكان ابن الأثير قد سبق البلاغيين في توسيع مفهوم الالتفات ليشمل الضمائر والأفعال وبيّن فائدته مع التزامه بالشرط الأساس الذي يجب أن يوصف به موضع الالتفات في الضمائر [5] وهو أن ((يشترك الضمير الأصلي والضمير الملتفت إليه في العود إلى مرجع واحد ، فالضميران المختلفان اللذان يردان في بنية الخطاب وهما "الملتفت عنه، والملتفت إليه" ينصبان على مقصود واحد ولولا هذا الشرط لكانت كل مغايرة في صيغ الضمائر من باب الالتفات والأمر ليس كذلك))[6].

ب- العدول عن قرينة الرتبة :

ويتمثل ذلك في عدم مراعاة قرينة الرتبة ؛ بتقديم ما رتبته التأخير أو العكس ((وهو أسلوب عدولي عن أصل الرتبة ، ومؤشر أسلوبي إنما يكون لغايات تتصل بالمعنى))[7] و في هذا النوع من العدول يقول (تمام حسان) : ((إذا قرأنا قوله تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ

---

١ سورة الأعراف : الآيات (٢ – ٣).

٢ تمام حسان: البيان ،ص٣٧١.

٣ سورة النساء : الآية (٤٧) .

٤ تمام حسان : البيان ،ص٣٧١، ٣٧٢ .

٥ انظر: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر : تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ، المكتب العصرية – بيروت (١٩٩٠) ، ج٢، ص٥-١١.

٦ سعاد عبدالملك داوود الحدابي : الالتفات في القرآن الكريم . دراسة أسلوبية (رسالة ماجستير) ، جامعة صنعاء ، كلية الآداب –صنعاء (٢٠٠١م)، ص٤٠

٧ تمام حسان: البيان ص٣٧٩ .

عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ۝ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾[1] ثم لاحظنا فعل الإرادة ولفظ الجلالة رأينا ترتيب ذلك كما يلي : يريد الله – و الله يريد – يريد الله . فإذا بحثنا عن السبب وجدنا تقديم لفظ الجلالة في مورده الثاني إنما كان لوضعه موضع المقارنة مع الذين يتبعون الشهوات ، أما في المرة الأولى والثالثة فالاهتمام معلق بالإرادة لا بالمقارنة))[2] .

ج – العدول عن قرينة التضام :

يُعدل عن قرينة التضام التي تحقق الاتصال بين أجزاء الجملة لأغراض أسلوبية بعدة وسائل ، منها الاعتراض ، فالأصل في الجملة ((أن تتصل أجزاؤها ... ولكن الأغراض الأسلوبية أباحت العدول عن هذا الأصل بواسطة اعتراض مجرى الكلام بجملة (أو جمل) يتطلبها الموقف ، تسمى الجملة المعترضة ... وهي لكونها معترضة غريبة عن سياق الكلام لا ينسب إليها محل من الإعراب ... وللاعتراض وظيفة بلاغية مهمة هي المبادرة بإبلاغ السامع معنى لولا إبلاغه إياه في حينه لورد على الكلام بدونه ما لا يرد عليه بوجوده))[3] .

ومن الشواهد على هذا النوع من الاعتراض ، الجمل التي وضعها (تمام حسان) بين أقواس للإشارة إليها في الآيات الآتية : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا (وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا) وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ (نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ) وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ (ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) ۝ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ (لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ (ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) ۝ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[4] .

ثم يعقب (تمام حسان) على هذه الآيات بقوله : ((فالاعتراض الأول لبيان أن النهي عن الشرك لا يعني عدم الإحسان إلى الوالدين ؛ بدعوى إخلاص الخضوع لله ، والثاني عهد من الله بإنزال الرزق لدعم النهي عن

---

١ سورة النساء : الآيات ٢٦ – ٢٨ .

٢ تمام حسان : البيان ، ص٣٧٩. وقد قال ابن عطية في تفسير قوله تعالى : (والله يريد أن يتوب عليكم ... الآية) : ((وتكرار إرادة الله التوبة على عباده تقوية للإخبار الأول ، وليس المقصد في هذه الآية إلا الإخبار عن إرادة الذين يتبعون الشهوات ، فقدمت إرادة الله توطئة مظهرة لفساد إرادة متبعي الشهوات)).[انظر:المحرر الوجيز: ص٤٢٦].

٣ تمام حسان : البيان ،ص ٣٨٦.

٤ سورة الأنعام : الآيات ١٥١ – ١٥٣ .

قــتل الولــد ، والثالــث للفاصـــلة ، والــرابع لبيان أن الأمر بالقسط إنما هو بحسب طاقة المقسط ، والخامس للفاصلة))[١].

القسم الثالث معالم الانسجام في القصة القرآنية (سورة يوسف):

أفــرد (تمــام حسان) الفصل السابع من قسم الدراسة الأسلوبية للحديث عن قصة يوسف (عليه السلام) كما تعرضها السورة ، ومع أن حديثه كان مركزاً على أسلوب القصص القرآني من خلال قصة يوسف ؛ إلا إن تناولــه هذه القصة تمّ من خلال النظرة إلى الانسجام والتآلف في السياق النَّصّي للقصة (السورة الكاملة). ومن أجل ذلك سنعرض معالم الانسجام في حديث (تمام حسان) عن الافتتاح والاختتام للسورة القرآنية ، وتناسبه مع السياق القصصي .

بدايــة يقرر (تمام حسان) أن ((القرآن ليس كتاب قصص ، وإنما هو كتاب دعوة وتشريع فإذا جاء بالقصة فإنمــا يــأتي بها في إطار الدعوة إلى الإيمان بالله ، وللإشارة إلى وحدة الدعوة على رغم تعدد الأنبياء ... وهكذا ينــبغي أن يكــون النظر إلى القصة القرآنية مختلفاً عن النظر إلى القصة الأدبية فهي ليست للمتعة ، ولا للتذوق الأدبي المجرد ولا لفرض منهج نقدي عليها ، ...لأن القصة القرآنية فريدة في طابعها وغايتها وتكوينها))[٢]

وفي ضوء هذه المقدمة يتناول (تمام حسان) قصة يوسف (عليه السلام) من خلال المحاور الآتية :

– الزمان – المكان – أشخاص القصة – بناء الأحداث – السرد – الحبكة – العبرة (الغاية من القصة من خلال مقدمة السورة وخاتمتها).

و نحاول أن نستخلص معالم الانسجام والتآلف من خلال تلك المحاور ، حسبما تتيحه لنا الإشارات المباشرة في كل محور وذلك في النقاط الآتية :

❑ بناء القصة :

يرصد (تمام حسان) تحت هذا العنوان عدة محاور تمثل في مجموعها جوهر الترابط والانسجام وهي :

١– محــور الشخصــيات : حيث ((تُبْنَى القصة في جملتها حول شخصية مركزية، وكل ما عداها فهو في خدمـــة تطويرها وإبرازها؛ فالشخصية المركزية في هذه القصة هي يوسف (عليه السلام)... وكل شخصية عدا شخصية يوسف فهي عون في نطاق القصة على نسبة الأحداث إليه)).[٣]

٢– تطــور الأحــداث: يشكل تطور الأحداث حلقة مترابطة من بداية القصة إلى نهايتها؛ حيث وضعت الأحــداث في صـــورة أزواج متقابلة تمثل كلاً مترابطاً ((وهذا الترابط هو نظام الحبكة في القصة؛ فليست أحداثهـــا منعزلة ، فأول القصة خطيئة وآخرها مغفرة لهذه الخطيئة ، وفيما بين هذه الخطيئة وتلك المغفرة

---

١ تمام حسان: البيان ،ص٣٨٩.

٢ المصدر نفسه: ص٥٥١ .

٣ المصدر نفسه: ص٥٥٨.

نجد صراع الشهوة والفضيلة ، كما نجد مقابلة الرق بالسيادة، والخمول بالتفوق، والفشل بالنجاح، واليأس بالفرح ، والمرض بالشفاء(*) وبين كل قطب من أقطاب التقابل وصاحبه إضافة منطقية عضوية إلى نسيج القصة لا يستغني تركيبها عنها"(1).

❑ سرد القصة :

يوضح (تمام حسان) خصائص الأسلوب السردي في القرآن ومنها :

١- الترتيب الزمني المنطقي المتدرج سواء في الحدث الرئيسي أو الأحداث الفرعية .

٢- حذف ما يقتضيه سياق النّصّ من الأحداث .

٣- الاقتصار على الضروري من وصف المناظر .

٤- ربط الأحداث المفردة بالغايات والآيات .

❑ إطار القصة (انسجام فاتحة السورة وخاتمتها) :

لم ينص (تمام حسان) على هذا العنوان ولكن حديثه عن انسجام الفاتحة مع الخاتمة في تحقيق غاية القصص وعبرته جاء متضمناً هذا . ومن ذلك قوله : "في قصة يوسف تبدأ القصة بقوله تعالى: ﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۞ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۞ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴾ (2) إلى قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾(3) والآيات المذكورة أدلة على صدق الرسالة ... وأما في نهاية السورة فالاستدلال على صدق الرسالة قائم بما في قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ ﴾(4) فمعرفة القصة...لا تأتي إلا عن مشاهدة أو وحي ، فإذا انتفت المشاهدة فقد ثبت الوحي ... فإذا انفتحت العقول لإدراك هذه الحقيقة آمن الناس ، أما إذا لم تنفتح فلا سبيل لإزالة الغشاوة عنها حتى مع الاجتهاد في طلب ذلك : ﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴾(5)... ومن هذه الآيات التي يعرضون عنها قصة يوسف

---

* و من التقابلات كذلك: الرؤيا و التعبير ، البدو والحضر، اليأس و الأمل ، التقابل بين شخصيتي صاحبي السجن ، التقابل بين العلم و الجهل ، النبوة والملك ، القحط و الخصب، و غيرها .

١ تمام حسان : البيان ،ص٥٥٨، ٥٥٩ .

٢ سورة يوسف : الآيات ١-٣.

٣ سورة يوسف : آية ٥.

٤ سورة يوسف : آية ١٠٢.

٥ سورة يوسف : آية ١٠٣.

واخوته... وتنتهي السورة بقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [1]))[2].

ومن خلال هذا العرض الموجز لأسلوب (تمام حسان) في تناول القصة القرآنية من خلال سياقها المتكامل –مع ما في قصة يوسف من خصوصية تفردها بسورة كاملة– يظهر لنا كيف ساهمت البنى القصصية مع السياق المؤطّر لها ، من فاتحة السورة وخاتمتها ، في تجلي ظاهرة الانسجام في النّصّ القرآني في أحد جوانبها .

القسم الرابع الهيكل البنيوي لبعض سور القرآن :

يمثل هذا العنوان محتوى الفصل الثامن من الدراسة الأسلوبية ؛ وعلى الرغم من أهمية هذا الفصل إلا أن هجوم المؤلف على غرضه دون التمهيد له بمقدمة يُعرِّف القارئ من خلالها المقصود بـ(الهيكل البنيوي) قد حرمنا كثيراً من الفوائد التي كانت ستمكننا من أن نتوسل بها لمعرفة بُنية أي سورة من سور القرآن كما فعل (تمام حسان) .

ولكن سنلتقط من بين السطور بعض الإشارات المهمة التي نُعدُّها مفاتيح لهذا النوع من الدراسة الأسلوبية.

ففي مقدمة الكتاب يشعرنا (تمام حسان) أن وحدة النّصّ القرآني وانسجامه ظاهرة مقررة ، ويدعونا إلى التأمل معه في ((بنيان بعض السور القرآنية ، إذ تقوم السورة على عناصر متكاملة ذات وحدة عضوية))[3].

وفي بداية تحليله بنية سورة الفرقان يشير – على عجل– إلى المقصود بالهيكل البنيوي للسورة فيقول: ((ومعنى أن للسورة هيكلاً بنيوياً : أنها تتجه إلى موضوع واحد))[4].

ولا نجد غير هاتين الإشارتين: (قيام السورة على عناصر متكاملة، واتجاه السورة إلى موضوع واحد) أي تفصيل لطريقته في تأمّل الهيكل البنائي لخمس سور من القرآن الكريم ، هي على الترتيب : الفرقان –الشعراء – النمل – القصص – العنكبوت . وسنعرض نموذجاً لأسلوب (تمام حسان) في تصوُّر بناء السورة القرآنية وذلك من خلال حديثه عن الهيكل البنيوي لسورة الفرقان الذي نلخصه في الآتي:

بعد أن يستعرض (تمام حسان) آيات سورة الفرقان وفق تقسيمها إلى زُمَرٍ منفصلة ، مبيناً ترابط موضوعاتها آيةً آية ، ووحدة وحدة ، يُلخّص ذلك بقوله : ((وهكذا نجد بنية السورة تقوم على دعوى، وإنكار، وضرب للأمثال:

- دعوى أن لله ولداً، والرد على ذلك.
- إنكار أن القرآن من مصدر إلهي، والرد على ذلك.

---

١ سورة يوسف : آية ١١١.

٢ تمام حسان : البيان ،ص٥٧٧، ٥٧٨ .

٣ المصدر نفسه : ص١٣.

٤ المصدر نفسه : ص٥٥٨.

- استنكار بشرية الرسول والحض على نـــزول الملائكة ، والرد على ذلك.
- إنكار معرفة (الرحمن) بعد نسبة الولد إليه في بداية السورة ، والرد على ذلك.
- أمـــثال يضـــربها الله تعالى من ثلاثة أنواع هي: مصائر الكافرين، والتذكير بخلق الله (ظواهر كونية)، والتعريف بعباد الرحمن ...

و معنى أن للسورة هيكلاً بنيوياً أنها تتجه إلى موضوع واحد، هو ما يسوقه الكفار بزعمهم من مآخذ ثم :

أ- لا يظل مأخذ من ذلك بلا جواب يبطلـــه .

ب- قـــد يجاب عن أحد المآخذ بآية في السورة بينها وبين المأخذ المزعوم آيات طوال ؛ كالرد على كون الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق مثلاً »[1].

وعـــلى نفـــس الطريقة يسير (تمام حسان) في دراسة بقية السور ، حيث يقوم بتتبع سياق الآيات من نقطة الافتتاح؛ ليكشف عن العلاقات الرابطة بين وحداتها ،ثم يقدم ملخصاً للسورة كالذي سقناه آنفاً .

ولعـــل تركيزه على الموضوع الرئيس للسورة جعل اتجاه بحثه عن الانسجام يتم من خلال تصور العلاقات بين موضوعات السورة ، دون الكشف عن الوسائل اللغوية والأسلوبية المساهمة في تحقيق هذا الانسجام ، وهذا الأمـــر يمـــثل خللاً واضحاً لا نجد لـــه في دراسات (تمام حسان) الرصينة مبرراً ، ولعلّ الأمر يعود إلى كون هذا المـــنهج في تأمل بناء السورة في القرآن لم تكتمل معالمه بعد عند المؤلف ، إذ لا بُدّ من بيان كيفية ترابط وحدات السورة ووسائل ذلك الترابط والانسجام وهو أقل ما ينتظر من الدراسات البنائية والأسلوبية .

---

١ تمـــام حســـان : البيان ، ص٥٥٨. والآية التي ورد فيها الرد هي قوله تعالى : (وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ...الآية) [سورة الفرقان : الآية ٢٠] .

ثانياً منهج التحليل اللساني النَّصي:

يتجه التحليل اللساني للنَّصّ والخطاب نحو البحث عن الاتساق والانسجام ، حيث إنه يتعين لفهم الخطاب "السنظر إلى كيفية تنظيمه باعتباره وحدة تتجاوز حد الجملة ... ويعتمد فهم الخطاب المترابط على ترتيب الجمل أكثر من اعتماده على معانيها "[1] ، ولا تعد عملية تنظيم الجمل معياراً كافياً لفهم النَّصّ ، بل لا بد في تحليله من دراسة العلاقة بين اللغة و السياق الذي تستخدم فيه ، إذ إن طبيعة التحليل لا تقتصر "على الدراسة الشكلية للنَّصّ وحدها ، بل تعدَّت ذلك إلى إبراز دور المشاركين (Participants) في العملية اللغوية ، وكذلك تتمثل طبيعة التحليل اللغوي للنَّصّ بكيفية اختيار المبدع لأدواته اللغوية مثل الأدوات ، والضمائر، والأزمنة ، والتكرارات ... بمعنى آخر الاهتمام بالعلاقات الداخلية و الخارجية "[2].

وقد تعددت نماذج تحليل الخطاب ، وتنوعت المفاهيم المستخدمة في تصنيف وسائل الانسجام وعلاقات الاتساق ، تبعاً لتعدد زوايا النظر للعلاقة بين عناصر النَّصّ والسياقات الخارجية، وكذا اختلاف طبيعة النصوص والخطابات التي يتم تحليلها ، وزيادة على ذلك الاختلاف حول نقطة البداية التي يبدأ التحليل منها ، وحدود هذا التحليل .

وبناءً على ذلك فقد اهتمت بعض نماذج تحليل الخطاب بالنظر إلى العلاقة بين تحليل الخطاب واستخدام اللغة ؛ لا على أنهما موضوعان مختلفان ولكن "لكي نفهم موضوع تحليل واستخدام اللغة بمزيد من العمق ؛ لابد من تعرف الجوانب اللغوية التي يتناولها ... ومن أهمها: التماسك اللغوي ،والوحدة الموضوعية للنَّصّ ،والفعل الكلامي ،ومبادئ التواصل الشفوي (كمبدأ التعاون بين المتحدثين) ... وأنواع الاستنتاجات المنطقية من الجمل كالاقتضاء ،والاستلزام ، والعلاقات بين الجمل واستراتيجيات بدء الحديث وإنهائه"[3].

بينما تتجه الدراسات اللسانية – المعتمدة على علم النفس – من النظر في تحليل الخطاب إلى بناء الخطاب نفسه "وهناك مستويان لبناء الخطاب : البناء المحلي Local structure (أو البناء الصغيرMicro) والبناء الشامل Global structure (أو البناء الكبير Great)"[4] ولتوضيح ذلك ، فإن فكرة البناء المحلّي تقوم على فكرة تماسك النص ، التي تدرس فيها وسائل التماسك كالإحالة والإشارة والعطف ، بينما تقوم فكرة البناء الشامل على التمييز بين أنواع الخطاب (روايات – قصص– شعر) و أساليب عرضها .

أما اللسانيات الوصفية فإن أسلوبها في تحليل النصوص يلزم محلل النص أن "يسلك طريقة خطية متدرجاً من بداية الخطاب (الجملة الثانية منه غالباً) حتى نهايته ، راصداً الضمائر والإشارات المحيلة إحالة قبليةً أو بعدية ، مهتماً أيضاً بوسائل الربط المتنوعة كالعطف والاستبدال والحذف... الخ "[5] .

---

١ نازك إبراهيم عبد الفتاح : مشكلات اللغة و التخاطب في ضوء علم اللغة النفسي . دار قباء للطباعة– القاهرة (٢٠٠٢م)،ص١٣٥.

٢ صبحي إبراهيم : علم اللغة النَّصّي ، ص٦٣.

٣ شحدة فارع و آخرون : مقدمة في اللغويات المعاصرة – دار وائل للنشر – عمان . ط١(٢٠٠٠م)،ص٢٠٠.

٤ نازك: مشكلات اللغة ، ص١٦٣.

٥ محمد خطابي : لسانيات النَّصّ ، ص٥ .

كما تتسع دائرة البحث عن الدلالة في النص – هنا – لتشمل وسائل انسجام المقاطع اللغوية والنصية باستخدام عدة مفاهيم كمفهوم الإطار[1] ، وتطابق الذوات[2] ، وعلاقات التضمن والاقتضاء، والتفسير والتخصيص ، وحين لا يمكن الوصول إلى فهم دلالة النص من داخله يبحث عنها ضمن إطار ما يسمى العلاقات التداولية (التواصلية) التي تعود إلى السياق الخارجي للنّصّ والعلاقة بين المتحدث والسامع أو الكاتب والقارئ... إلخ .

ويلحظ أن كل النماذج السابقة تجعل قضية تماسك النص محوراً ذا أهمية ؛ لذلك فإنها تتلاقى في ذكر أغلب وسائل هذا التماسك .

وإذا كان ثمة اختلاف في أسلوب التناول فإن ذلك يرجع إلى أن بعض الباحثين يجعل هذه الوسائل خاصة بمفهوم الاتساق ،أما مفهوم الانسجام فإن وسائله أشمل من هذه الأدوات التي يكتفي بالبحث عنها بعض محللي النصوص من ظاهر تلك النصوص .

وقد قدم (محمد خطابي) إطاراً نظرياً حدد فيه مستويات تحليل الاتساق والانسجام النصي في المستويات الآتية:

١- المستوى المعجمي والنحوي .

٢- المستوى الدلالي .

٣- المستوى التداولي .

حيث تصنف وسائل انسجام الخطاب وعلاقات الترابط والاتساق وفقاً لهذه المستويات[3].

ولم يذهب (صبحي إبراهيم) بعيداً عن هذا التقسيم ؛ حيث حدد مستويات التحليل النصي (النحوي والمعجمي والدلالي) وأضاف المستوى الصوتي واستبعد المستوى التداولي[4] ؛ إلا إنه مع إضافته المستوى الصوتي عاد فاستثناه من دراسته ووضح أن السبب في استبعاده إياه أنه يرتبط بالنص المنطوق لارتباطه بالأداء . غير أن الدراسات الصوتية يمكن أن يتم تناولها من زاوية أخرى ليس لها علاقة بالأداء كالفاصلة القرآنية ، وتوازي التراكيب، والإيحاءات الصوتية المطردة كما فعل سيد قطب وتمام حسان .

---

١ مفهوم الإطار : أحد المفاهيم التي اقتبست من نظريات الذكاء الاصطناعي ، ويقصد بالأُطُر: ((شبكة من العلاقات يكون مستواها النموذجي الأولي مطابقاً لأحداث ثابتة Stereotyped متعلقة بأوضاع نموذجية ، وشبكة دنيا هي تحققات لتلك الشبكة)) وبعبارة أخرى: ((فالأطر : هي أشكال معينة للتنظيم بالنسبة للمعرفة المحددة عرفياً)) التي نملكها عن العالم . ومن ثم تشكل الأطر جزءاً من ذاكرتنا الدلالية العامة . انظر : محمد مفتاح : دينامية النّصّ ،ص٢٦. وكذلك : مجلة عالم الفكر : المجلس الوطني للثقافة والفنون – الكويت . العدد(٢) المجلد (٣٢) (أكتوبر- ديسمبر ٢٠٠٣م) ص١٥١.

٢ يقصد بتطابق الذوات : النظر إلى ما يعود على الفقرة السابقة في النّص من ضمائر ، أو أوصاف ، أو إعادة للأسماء أو الأفعال المتشابهة ، أو الأحداث المتكررة المحكية عن شخصية سبق الحديث عنها مباشرة في فقرة متقدمة بحيث تنسب الأحداث والوقائع في الفقرة اللاحقة إليها . انظر : محمد خطابي : لسانيات النّص . ص٣٢.

٣ انظر : الفصل الثامن من كتابه لسانيات النّصّ مدخل لتحليل الخطاب

٤ استبعد هذا المستوى من النموذج ولكنه أدرج مفاهيمه ضمن المستوى الدلالي .

وسنعرض – على التوالي– منهج التحليل اللساني النصي الذي أخذ به كل من محمد خطابي وصبحي إبراهيم في دراسة ظاهرة انسجام الخطاب في النص القرآني ، مراعين ما بين الدراستين من فوارق في التنظير والتطبيق .

❑ انسجام النص القرآني عند محمد خطابي :

لم يكن (محمد خطابي) معنياً في الأساس بالحديث عن مظاهر انسجام الخطاب ووسائله في النص القرآني في مؤلفه القيم (لسانيات النص : مدخل لتحليل الخطاب) ولكنه أراد أن يثبت وَعْيَ المفسرين والمؤلفين في علوم القرآن بهذه المظاهر والوسائل ، كما أثبت وعي المؤلفين من السلف في علوم البلاغة والنقد الأدبي جنباً إلى جنب مع إسهامات الدراسات الغربية لظاهرة تماسك النصوص وانسجامها ، وذلك سعياً منه لتشكيل إطار نظري مناسب يصلح لتحليل انسجام القصيدة العربية.

و قد أفرد (خطابي) فصلاً مستقلاً استعرض فيه نظرة المفسرين إلى تماسك النص القرآني ، ونَصّ على أن ما يهمه من هذا الاستعراض «هو استخراج بعض الوسائل والعلاقات و(الآليات) التي تَفَطَّن المفسرون إلى مساهمتها في جعل النص القرآني – آياتٍ وسوراً – كلاً واحداً موحداً برغم اختلاف أوقات نزوله وأسبابه»[1] .

وقد اقتصر في بيان هذا على تتبع أعمال ثلاثة من المفسرين ، وواحدٍ من المؤلفين في علوم القرآن[2] موضحاً عنايتهم بهذه الظاهرة في تفسير سورة البقرة ، وقد بيّن سبب الاقتصار على هذه السورة بقوله : «ليس [فقط[3]] لأنها أطول سورة في القرآن ، بل لأنها حوت مضامين متنوعة عبر عنها بأساليب مختلفة مما يؤهلها – في نظرنا – لأن تقدم نموذجاً يثير مجمل التساؤلات المتعلقة بالانسجام في النص القرآني»[4] كما بين سبب اقتصاره على تلك المؤلفات المختلفة في عصور كتابتها برغبته «في الاطلاع المزدوج على كيفية تفكير القدماء والمحدثين في تماسك النص القرآني وانسجامه»[5].

ومع أن هذا المنهج الذي سلكه المؤلف في تتبع ظاهرة المناسبة والانسجام يصعب الاكتفاء بنتائجه – الأمر الذي أدركه المؤلف نفسه – إلا إن جهده في تجميع وتنظيم العلاقات والوسائل التي ذكرها المفسرون ، ثم صياغتها في مصطلح لساني حديث ، وتصنيفها عقب ذلك إلى مستويات وصفيه يجعل من اللازم علينا الإشارة إلى هذا الجهد ضمن الحديث عن اتجاهات الدراسات الحديثة في تناول ظاهرة الانسجام في النص القرآني.

---

١ محمد خطابي : لسانيات النّصّ ، ص١٦٥.

٢ هم بحسب الترتيب الزمني : الزمخشري في كتابه الكشاف ، الفخر الرازي في التفسير الكبير ، بدر الدين الزركشي في البرهان ، جلال الدين السيوطي في الاتقان ، ابن عاشور في التحرير و التنوير .

٣ الأولى أن تكون لفظة(فقط) بعد الجملة فيقول (ليس لأنها أطول سورة في القرآن فقط ...الخ).والظاهر أن لغة الصحافة قد أثرت في كثير من الكتابات المعاصرة .

٤ محمد خطابي : لسانيات النّصّ، ص١٦٥. ولاشتمالها على موضوعات مختلفة كالصلاة، والصوم ، والحج ، والقتال،حتى قيل في الأثر : (إن كادت لتستحصي الدين).

٥ المصدر نفسه : ص١٦٦.

ولعل من المفيد التذكير بتفريق (محمد خطابي) بين مصطلحي الاتساق والانسجام ، إذ يتحقق الأول بالأدوات والوسائل ، بينما يتجلى الثاني في علاقات النص الداخلية والخارجية .

وتُظهِرُ عبارة (محمد خطابي) في كتابه إعجاب باحث لساني معاصر بالوعي المبكر لدى المفسرين بأهمية هذه الوسائل والعلاقات ونصهم على ذلك صراحةً أو تلميحاً .

وتتلخص هذه الوسائل والعلاقات التي تتبعها (محمد خطابي) في الكتب الثلاثة للتفسير في الآتي :

❑ العطف :

لفت انتباه (محمد خطابي) عناية المفسرين بمظهر العطف عموماً لأنه إحدى وسائل الربط والاتساق ، ولاحظ تركيز المفسرين على الجوانب الآتية :

أ- عطف جملة كلام على جملة كلام آخر : والمعلوم أن العطف يعد أحد وسائل الربط بين الجمل ، وقد وجد (محمد خطابي) اهتمام المفسرين بنوع من أنواع العطف سمي عندهم بعطف القصة على القصة أو جملة كلام على جملة كلام سابق، ويمثل ذلك تجاوزاً لأسلوب عطف المفردات والجمل المجردة إلى عطف وصفٍ أو مجموع أوصاف ، أو عطف خبرٍ أو مجموع أخبارٍ على مثلها ، كما لفت نظره إشارة المفسرين – ومنهم ابن عاشور– إلى بيان مسوِّغ هذا اللون من العطف ؛ وهو ما لخصه (محمد خطابي) بمصطلح (وحدة المخاطب) أي ((أن الطرفين المتمحور حولهما الخطاب متماثلان))[1].

ب- تعدد المعطوف عليه : يشير (محمد خطابي) إلى اهتمام المفسرين بتبرير مرجع المعطوف عليه في حالة تعدده ؛ فمن ذلك ما ذكره الزَّمَخْشَرِيّ في احتمال ما يصح أن يعطف عليه قوله تعالى : (وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ) أعلى "أنزل" أم على "أحيا"؟ وذلك في قوله تعالى : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [2] وبعد أن يسوق كلام الزَّمَخْشَرِيّ[3] يقول (محمد خطابي) : ((الواقع أن العطفين معاً جائزان ؛ لأن البنية المنطقية التي تحكمهما متماثلة وهي بنية السبب والنتيجة ... فالإحياء نتيجة مترتبة عن نزول الماء ويمكن أن تتقوى هذه العلاقة السببية إذا

---

١ محمد خطابي : لسانيات النّصّ ،ص.٤٢٠. و الشاهد الذي ساقه لمثل هذا اللون من العطف من تفسير ابن عاشور هو عطف قوله تعالى : (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ...) الآية [البقرة : ٣٤] على قوله تعالى : (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة...)الآية [البقرة : ٣٠]و بينهما ثلاث آيات.

٢ سورة البقرة : الآية (١٦٤).

٣ نصّ كلام الزَّمَخْشَرِيّ : ((فإن قلتَ : قوله : " وبث فيها " عطف على (أنزل) أم (أحيا) ؟ قلت : الظاهر أنه عطف على (أنزل) داخل تحت حكم الصلة، لأن قوله : " فأحيا به الأرض " عطف على (أنزل) فاتصل به وصارا جميعاً كالشيء الواحد . فكأنه قيل : وما أنزل في الأرض من ماء وبث فيها من كل دابة . ويجوز عطفه على (أحيا) على معنى فأحيا بالمطر الأرض وبث فيها من كل دابة ؛ لأنهم ينمون بالخصب ويعيشون بالحيا)) انظر : الكشاف ج١، ص٢٣٦.

اعتبرنا سلسلة النتائج التي ترتبت عن إنــزال الماء بين "بث" و"أنــزل" عبر الوسيط "أحيا" لأنه شــرط ضروري لقيام الحياة على الأرض ››[1].

الإحالة :

يوضح (محمد خطابي) الدور الذي تقوم به الإحالة سواءً أكانت ضميريــة أم إشــارية في ربــط أجــزاء الخطاب. وقد أشار إلى أن اهتمام المفسرين بدور الإحالة تميَّز بالانتباه إلى احتمال تعدد ما يحيل عليه الضمــير أو يشير إليه اسم الإشارة ، وقد فصَّل أنواع الإحالة التي وجدها عند المفسرين كما يلي :

أ- الضمائر : تتبع (محمد خطابي) أسلوب المفسرين في العناية بمظهر الإحالة بالضمائر إذا احتمل الضمـير أحياناً أن يعود إلى أكثر من مُحال . وهذا اللون من ألوان الإحالة إما أن يشير إلى سابق مذكور صراحــة، أو إلى عنصر في خطاب سابق ، أو إلى خطاب بأكملــه .

وقد أورد لذلك عدة شواهد توضح اهتمام المفسرين بتعدد المحال إليه بالضمير ، من ذلك ما ذكره ابــن عاشور عنــد قــولـــه تعــالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [2] حيث أورد (ابن عاشور) ثلاثة احتمالات لما يصحّ أن يعود عليه الضمــير المنصوب في (يعرفونه) :

- إما إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وإن لم يسبق لــه ذِكْر لكنه قد علم من الكلام الســـابق[3] والضمير حينئذٍ يحيل إلى عنصر فقط.

- وإما أن يعود إلى (ٱلْحَقَّ) وهو مذكور والضمير يحيل هنا إلى عنصر والعنصر يحيل إلى خطاب .

- وإما إلى (العلم) وهو مذكور كذلك فهي إحالة إلى خطاب.

وقد عقب خطابي على حديث المفسرين عن تعدد المحال إليه بالضمير بقــولــه : ‹‹بناءً عليه، فإن الضمـير -كما يبرز ذلك من خلال تخريجات المفسرين- يساهم بشكل فعال في اتساق الخطاب القرآني ... خاصةً منها ضمائر الغيبة ، تقوم بوظيفتين : استحضار عنصر متقدم في خطاب ســابق، أو اســتحضار مجمــوع خطاب سابق في خطاب لاحق››[4].

ب- الإشارة : يؤكد (محمد خطابي) أن ‹‹المبدأ العام الثاوي خلف الإشارة هو جعل الخطاب متماسكاً من خلال استحضار عنصر متقدم أو خطاب بأكمله››[5] وقد وجد أن هناك نوعاً آخر من الإشارة يذكره ابن

---

١ محمد خطابي : لسانيات النّصّ ،ص١٧١.

٢ سورة البقرة:الآية ١٤٦.

٣ وذلك في قوله تعالى : (وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ....) [البقرة : الآية ١٤٣].

٤ محمد خطابي:لسانيات النّصّ ، ص١٧٥.

٥ المصدر نفسه : ص١٧٧.

عاشور وسماه (محمد خطابي) (الإحالة المقامية) وذلك في تفسير قوله تعالى : ﴿ الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[1] حيث فسر ابن عاشور الإشارة (ذَٰلِكَ) بقوله : ((وعلى الأظهر تكون الإشارة إلى القرآن المعروف لديهم يومئذ ، واسم الإشارة مبتدأ ، والكتاب بدل وخبره ما بعده))[2] وأشار (محمد خطابي) إلى أن ابن عاشور هو المفسر الوحيد الذي التفت إلى هذا النوع من الإحالة المقامية[3] .

❑ التكرير :

لم يحدد (خطابي) معنى التكرير ولكن الشواهد التي أوردها تدل على أنه يقصد به : أن يعاد الكلام مرة أخرى بأغلب ألفاظه كما أعيد قوله تعالى : ﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾[4] مرتين ، كما ألمح إلى وظيفتي التكرير التي أشار إليها المفسرون وهما : ((الربط أولاً أي الجمع بين الكلامين، والثانية : الوظيفة التداولية المعبَّر عنها بالاهتمام بالخطاب ،أي لفت أسماع المتلقين إلى أن لهذا الكلام أهمية لا ينبغي إغفالها))[5]

❑ موضوع الخطاب :

ويصنف (محمد خطابي)هذا العنصر في المستوى الدلالي ويقصد به ((بنية دلالية تصب فيها مجموعة من الآيات بتضافر مستمر عبر متواليات قد تطول أو تقصر حسب ما يتطلبه الخطاب من إيجاز أو إطناب أو شرح أو تمطيط))[6] .

وقد استخلص هذا المفهوم من العرض الذي يقدمه المفسرون بين يدي السورة ويذكرون فيه أغراضها؛ لتأكيد انتظام الآيات في مواضيع خطابية تتمحور حولها السورة .

---

١ سورة البقرة : الآيات ٢،١.

٢ ابن عاشور : التحرير والتنوير ج١ . ص٢١٦ .

٣ اختلف المفسرون في تحديد ما يشير إليه اسم الإشارة "ذلك" أهو إلى القرآن فتكون "ذلك" بمعنى هذا ، أم هي إشارة إلى غائب مما كان قد نزل من القرآن ، أو ما كان في اللوح المحفوظ ، أو إلى حروف المعجم المفتتح بها هذه السورة . والحق أن اختيار ابن عاشور أن تكون الإشارة مقصوداً بها القرآن المعروف لديهم أنسب لتفسير مقام الخطاب يومئذ ، هذا إذا علمنا أن هذه السورة نزلت بالمدينة فتكون هذه الإحالة من نوع الإحالة المقامية كما يذكر محمد خطابي ، ولكن ليس ابن عاشور هو الوحيد من بين المفسرين التفت إلى هذا النوع من الإشارة فقد أشار إلى هذا المعنى الإمام عبد الحق بن عطية في معرض حديثه عن الخلاف المذكور فقال : واختلف في((ذلك هنا فقيل : هو بمعنى : هذا ، وتكون الإشارة إلى هذه الحروف من القرآن ، وذلك أنه قد يشار بـ(ذلك) إلى حاضر تعلق به بعض الغيبة ، وبـ(هذا) إلى غائب هو من الثبوت والحضور بمنزلة وقرب ، وقيل : هو على بابه إشارة إلى غائب واختلف في ذلك الغائب فقيل : ما قد كان نزل من القرآن ... الخ)) [انظر:المحرر الوجيز : ص٥٠] فهذه إحالة مقامية تستفاد من قوله : يشار بـ(ذلك) إلى حاضر تعلق به بعض الغيبة .

٤ سورة البقرة : الآيات ٤٠ ،٤٧.

٥ محمد خطابي :لسانيات النّصّ ، ص١٧٩.

٦ المصدر نفسه : ص١٨٠.

ويتبع هذا المفهوم مفهوم آخر سماه (محمد خطابي) تنظيم الخطاب ، واستخلصه من تقسيم الرازي –مثلاً– موضـــوعات سورة البقرة وأنها تمثل خطاباً تحكمه علاقة العام بالخاص، فالمواضيع العامة في النص "تتخصص كلما تقدمنا في قراءته ، فالنص ابتدأ – مثلاً– بسرد النعم العامة لسائر البشر ثم استرسل مستعرضاً نعمه تعالى الخاصة ببني إسرائيل ... إلخ"[1] .

ويـــلحق بهـــذا أيضـــاً مفهوم (تغير أوضاع الخطاب) وذلك حينما يُعبّر المفسرون عن انتقال الخطاب أو انقطاعه وخروجه عن سياقه .

❑ ترتيب الخطاب:

ويقصـــد بـــه (محمد خطابي) أن يأتي ترتيب الوقائع والأحداث في الخطاب حسب ما تقع في الخارج، وقد ســـاق لذلـــك شـــاهداً مـــن تفسير الزمخشري ترتيب قصة قتيل بني إسرائيل والأمر بذبح البقرة، حيث يقول: "فإن قلت : فما للقصة لم تقص على ترتيبها وكان حقها أن يقدم ذِكْر القتيل والضرب لبعض البقرة على الأمر بذبحها ... قلت : كل ما قص من قصص بني إسرائيل إنما قصَّ تعديداً لما وجد منهم من الجنايات وتقريعاً لـــهم علـــيها ... وهاتـــان قصتان كل واحدة منهما مستقلة بنوع من التقريع وإن كانتا متصلتين متحدتين ... وإنما قدمت قصة الأمر بذبح البقرة على ذكر القتيل لأنه لو عمل على عكسه لكانت قصة واحدة ولذهب الغرض من تثنية التقريع"[2].

و لا يقـــبل ابـــن عاشور ما وجّه به الزَّمَخْشَرِيّ و شرّاح الكشاف ترتيب القصة هنا، وعنده أنهما قصتان منفصـــلتان ، الأولى : لتشريع سِيْقَ ذِكْره لما قارنه من تلقيهم الأمر بكثرة السؤال . والثانية : منّة عليهم بآية من آيـــات الله ومعجـــزة مـــن معجزات رسولـــهم . وقد وضح ابن عاشور أن :" تقديم جزء القصة لا يقتضي إلا تفكـــيك القصـــة إلى قصتين تعنون كل واحدة منهما بقـــولـــه "وإذ" مع بقاء الترتيب على أن المذام قد تعرف بحكايـــتها والتنبيه عليها بنحو قـــولـــه : ﴿ ...أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾[3] أو قـــولـــه : ﴿ ...وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴾[4]"[5]. ثم أشار عند قـــولـــه تعالى : ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾[6]بقـــولـــه: " تصديره بـــ(إذ) على طريقة حكاية ما سبق من تعداد النعم والألطاف ومقابلتهم إياها بالكفران والاستخفاف ؛ يومئ إلى أن هذه قصة غير قصة الذبح ولكنها حدثت عقب الأمر بالذبح لإظهار شيء

---

١ محمد خطابي : لسانيات النّص ، ص١٨٢.

٢ الزمخشري: الكشاف ج١ ،ص١٨٢.

٣ سورة البقرة : الآية ٦٧.

٤ سورة البقرة:الآية ٧١.

٥ التحرير والتنوير :ج١ ص٥٢٩

٦ سورة البقرة:الآية ٧٢.

مـــن حكمة هذا الأمر الذي أظهروا استنكاره عند سماعه إذ قالوا: ﴿ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾[1] وفي ذلك إظهار معجزة لموسى (عليه السلام)))[2] .

يعقب (محمد خطابي) على كلام الزمخشري بقـــولـــه : ((نخلص من هذا إلى أن الزمخشري انتبه أولاً إلى أن القصة كما هي في الخطاب ، وقع فيها التقديم والتأخير ، وثانياً إلى أن قلب الترتيب تحكم فيه مقصد المتكلم وهو تثنية التقريع ... معنى هذا أن المقصدية – وهي مبدأ تداولي– هي التي زحزحت الترتيب الأصلي بل قلبته))[3] .

- ❑ العلاقات المعنوية :

أشـــار المفسرون إلى عددٍ من العلاقات التي تربط بين الآيات المتجاورة أو المتباعدة كعلاقة البيان والتفسير والإجمـــال والتفصـــيل، واستخلص (محمد خطابي) من ذلك أن العلاقة بين الآيات لا تسلك دائماً سبيل الإجمال والتفصـــيل ، ولكن قد يتقدم المفصل منها على المجمل لتحقيق غايات ومقاصد أسلوبية، وحينما يحصل هذا فإن ذلك يدل على علاقات تداولية وليست معيارية[4].

كمـــا استخلص أيضاً أن ((علاقة البيان ، سواء بين عنصرين داخل نفس الآية أم بين آيتين ، غالباً ما تكون استجابة لاستفهام مقدر))[5] فهي علاقة تداولية ناتجة عن توقع ظروف المتلقي .

وممـــا توصل إليه (محمد خطابي) من قراءة التفسير أن علاقة الإجمال والتفصيل لا تقتضي التتابع المباشر؛ إذ لا يلزم أن يتبع المفصل المجمل . وقد استدل (خطابي) على هذا بتفسير الفخر الرازي ارتباط قـــولـــه تعـــالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[6] بقـــولـــه تعالى في موضع متقدم في السورة : ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[7] وأن العلاقة التي تـــربط الخطـــاب في الآيتين هي أن الإجمال في الآية (٢٤٥) جاء تفصيلـــه في الآية (٢٦١) وبينهما ست عشرة آيـــة، وقد استنتج (محمد خطابي) من هذا ((أن المفسرين لم يهتموا بالعلاقة الخطية بين الآيات فحسب ، بل اهتموا –أيضـــاً– بالعلاقـــة العموديـــة ...دون أن يعـــني هـــذا أن العلاقـــة بيـــنهما قطعتها الآيات التي تملأ الفضاء من (٢٤٥) إلى (٢٦٠)))[8].

---

١ سورة البقرة:الآية ٦٧.

٢ التحرير والتنوير :ج١،ص٥٤٢

٣ محمد خطابي: لسانيات النصّ ، ص١٨٤.

٤ المصدر نفسه : ص١٨٧ وما بعدها .

٥ المصدر نفسه : ص١٨٨.

٦ سورة البقرة:الآية ٢٦١.

٧ سورة البقرة:الآية ٢٤٥.

٨ لسانيات النص : ص١٨٩.

❑ انسجام النص القرآني عند (صبحي إبراهيم) :

إن محاولـــة تطبيق مفاهيم علم اللغة النصي على تحليل ظاهرة الانسجام في النص القرآني واحدة من تلك الجهــود الــتي يبذلــها الباحثون العرب في توسيع دائرة البحث عن الدلالة من خلال تخطّي بنية الجملة إلى بنية النص – على حد تعبير (صبحي إبراهيم) – ذلك أنه ((لما كانت دلالة الجملة المنفصلة عن نَّصّها تُعدُّ دلالة جزئية غـــير كاملـــة – في الغالب– كانت الحاجة لإتمام الدلالة الكاملة ، ومن ثم تأكدت أهمية التحليل النصي لإدراك الدلالة التامة للنَّصّ وذلك من خلال الصلة الواجب توافرها بين هذه الجمل التي تمثل الدلالة الجزئية للنَّصّ))(١).

ولما كان التماسك النصي أهم مظاهر التحليل النصي ؛ فإن اهتمام الباحث – كغيره ممن اطلع على مفاهيم اللســـانيات الحديـــثة وعلم اللغة النصي – كان منصباً على البحث عن مظاهره ووسائلـــه وأدواته ؛ لهذا فإن (صـــبحي إبراهيم) يحدد مفهوم التماسك النصي بأنه ((ذو طبيعة دلالية من ناحية ، وذو طبيعة خطية شكلية من ناحية أخرى ، وأن الطبيعتين تتضافران معاً لتحقيق التماسك الكلي للنَّصّ))(٢).

و التماســـك النصـــي وفقـــاً لـــهاتين الطبيعتين يعني العلاقات الشكلية والدلالية التي تربط النص داخلياً وتربطه ببيئته المحيطة .

وقـــد اختار (صبحي إبراهيم) السُّور المكية مجالاً تطبيقياً لنموذج التحليل النصي الذي أخذ به ، وعدّها جمـــيعاً نصاً واحداً فقال: ((وهذا النص "السور المكية"خاصة ، لأنها تحمل وحدة دلالية كلية تتمثل في أنها تتحدث كلـــها عن قضية العقيدة ؛ الألوهية والربوبية وما يتعلق بها... والوحدة الدلالية هذه تمثل "التماسك النصي" في أعظم صورة لـــه))(٣) .

وأشـــار إلى أن هـــذه الوحدة الدلالية للسور المكية ، يدعمها وحدة مكان نـــزولـــها وزمانه ، وهما من عناصـــر الســـياق المحيط بالنص . ويبين المؤلف أن سبب اقتصاره على السور المكية لكون ((التطبيق على السور المدنية مع المكية أمر على درجة كبيرة من الخطورة والصعوبة من حيث المنهج والحجْم وعملية البحث))(٤) ولن نعـــيد هـــنا مناقشـــة الباحث في هذا الأمر المتعلق (بالفضاء النصي) الذي يمكن أن تدرس ظاهرة انسجام النص القرآني من خلالـــه ففيما تقدم في هذا البحث ما يغني عن الإعادة (٥).

لقد حدد (صبحي إبراهيم) هدفه من البحث وميدان هذا البحث غير مرة ، ونبّه منذ الوهلة الأولى إلى أن إثـــبات دور أدوات التماسك النصي ليس المقصود منه القول إن القرآن غير متماسك ، ولكن من أجل توضيح كيفية إسهام تلك الأدوات في تحقيق ذلك التماسك ، إذا ما عُدّ نوعاً من أنواع الإعجاز القرآني . ومن أجل أن تكون النظرة لإسهامات هذا الباحث أكثر عمقاً نُفصل الحديث عن منهجه في الآتي :

---

١ صبحي إبراهيم : علم اللغة ،ص١٥.

٢ المصدر نفسه : ص٩٨.

٣ المصدر نفسه:ص٩٦.

٤ المصدر نفسه : ص١٥.

٥ انظر مقدمة هذا البحث .

❑ المبادئ النظرية للتحليل النصي :

- عناصر التحليل النصي :

تتمثل عناصر التحليل النصي عند (صبحي إبراهيم) في الآتي :

١ – الجملة الأولى في النص :

حيث تستمد الجملة الأولى أهميتها من أهمية الاستهلال ((الذي يحتل مكانة بارزة من حيث أهميته من ناحية، ومن حيث علاقته ببقية أجزاء النص من ناحية أخرى ، وتحكُّمه كذلك في هذه الأجزاء))(١) وقد أشار إلى إدراك القدماء والمحدثين أهمية الجملة الأولى بل الكلمة الأولى ، والفعل الأول ،والزمن الإشاري الأول وعنوان النص في تعلق أجزاء النص الأخرى بها.

٢ – الإحالة :

فصَّل (صبحي إبراهيم) الحديث عن الإحالة بنوعيها الداخلية (إلى سابق في النص أو متأخر) ،والخارجية التي يتوقف معرفتها على سياق النص والأحداث والمواقف ((ومن ثم تبرز أهمية معرفة أسباب النزول في النص القرآني ، إذ كثيراً ما يغمض عود الضمير بسبب عدم معرفة هذه المناسبات))(٢) ويمثل هذا الغموض إحدى الصعوبات التي واجهت (صبحي إبراهيم) – كما نصّ على ذلك – عند دراسته الإحالة بالضمير خاصة.

٣ – التماسك :

وهو أحد عناصر التحليل النصي ، ويرى (صبحي إبراهيم) أن هذا العنصر يقوم على العنصر السابق، وفيه يتم دراسة العلاقات بين جمل النص . وقد قسم وسائل التماسك العائدة للعلاقات إلى نوعين :

- وسائل تماسك داخلية : مثل العطف ، الفصل والوصل ، أدوات التعريف ، الرتبة والإسناد،...،وغيرها.
- وسائل تماسك خارجية : مثل الإحالة ، والإشارة ((وهذه تسهم في الربط فيما يوجد داخل النص وما يتصل به من خارجه))(٣).

أما محاور التماسك التي رصدها (صبحي إبراهيم) في التحليل فتتمثل في :

- محور التماسك بين الكلمة وجاراتها .
- محور التماسك بين الآية وما يليها .
- محور التماسك بين فقرات السورة .
- محور التماسك بين السورة وما يسبقها وما يليها .
- محور التماسك بين أول السورة وآخرها .

---

١ صبحي إبراهيم : علم اللغة النّصّي ، ص٦٥.

٢ المصدر نفسه : ص٤١.

٣ المصدر نفسه : ص٧٥.

٤ – عنصر التواصل (السياق والمتلقي) :

يمثل هـذا العنصر التحليلي واحداً من النقاط التي شغلت الباحثين في علوم اللغة – كما يرى (صبحي إبراهـيم) – فلقد "أصبح المعنى والسياق متلازمين خاصةً إذا حدث الغموض وحينئذ ليس هناك بد من اللجوء إلى السياق"(١) .

ولا تـتمكن العلاقات الدلالية أو الوسائل الشكلية من إبراز تماسك النص بعيداً عن السياق، أما المتلقي الموصـوف بالكفاءة التي تمكنه من استيعاب النص ومعرفة لغته وأسلوبه ؛ فإنه يمثل كذلك ركناً مهماً من أركان التحليل النصي "ولهذا الإدراك لدور القارئ أو المتلقي وجدنا أن النص القرآني ، خاصة في القصص القرآني ... يأتي بعناصر جوهرية في القصة أو الموضوع ثم يحذف عناصر أخرى ثانوية ، وعلى القارئ أن يستكمل هذه الجمل المحذوفة"(٢) .

كانـت هـذه هي مجمل المبادئ النظرية التي استند عليها (صبحي إبراهيم) في تحليلـه النصي لظاهرة انسجام الخطاب في النص القرآني .

❏ الإجراءات التطبيقية:

القارئ لكتاب (صبحي إبراهيم) لا يجد الطريق أمامه ممهداً لاستخلاص الإجراءات التطبيقية التي سلكها في حديـثه عـن تماسك النص القرآني (السور المكية) ذلك أنه يقوم بدراسة التماسك في هذه السور من خلال دراسـته أدوات التماسك وعناصره السابقة كلاً على حدة ، فيقوم مثلاً بدراسة تحقق التماسك من خلال إحالة الضـمائر ، حيـث يـبين دور الضمائر في تحقيق التماسك النصي، ثم يعمد إلى سور من القرآن ليدرس مرجعية الضـمائر فـيها، وحـين لا يتمكن من عزلـها لتبيين دلالاتها المختلفة يلجأ لوسائل التماسك النصي الأخرى كعلاقات الإسناد والإجمال والتفصيل إلى غير ذلك ، مع أنه يتحدث عن دور الضمائر في تحقيق التماسك .

وقـد اخترنا نموذجاً واحداً من سُور القرآن (سورة الملك) بعد قراءتنا جميع السور التي احتوتها الدراسة ، واقترحـنا بعـض العناوين الفرعية التي وجدناها ثاوية في متن الدراسة لتوضيح الإجراءات التطبيقية التي سلكها (صبحي إبراهيم) في دراسة ظاهرة الانسجام في هذه السورة الكريمة وذلك على النحو الآتي :

- التماسك النصي بواسطة الضمائر في سورة الملك:

يؤكـد (صبحي إبراهيم) أهمية الدور الذي تلعبه الضمائر في إبراز تماسك النص، ويرى أن تشكّل المعنى يعـتمد عـلى وضـع الضمائر ؛ فهي بإحالتها إلى ما سبق في النص من كلمات أو جمل أو فقرات تحقق الإيجاز ، وتعمل على تأكيد العلاقة بين قضايا النص الأساسية والثانوية وموضوعاته، ويمكن إدراك ذلك من خلال الآتي:

١ صبحي إبراهيم : علم اللغة ، ص١٠٧.

٢ المصدر نفسه: ص١١١.

١-نواة النص (جملة الأساس):

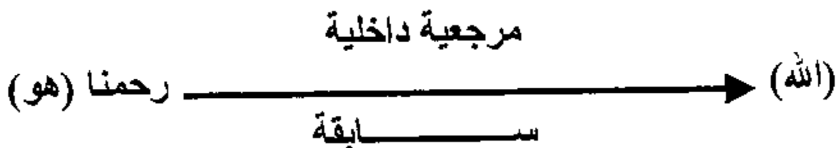
إن أول خطـــوة يعـــتمدها (صبحي إبراهيم) أساساً للتحليل النصي ضرورة ((الانطلاق من الأساس الذي تـــدور حولـــه السور المكية أي معرفة القضية التي تعالجها ... وذلك لندرك العلاقة بين وسائل التماسك النصـــي والموضوع الأساس))(١) وتتضح جملة الأساس في (سورة الملك) من خلال إدراكنا الموضوع العام، وهـــو موضوع العقيدة، ولهذا فالسورة تناقش هذا الموضوع ((من جهة هيمنة الله تعالى وامتلاكه لكل شيء ومفتاح السورة وبدايتها تشير إلى هذا ﴿ تَبَـٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٢)))(٣).

٢-تفصيل جملة الأساس :

يعرض (صبحي إبراهيم) الآيات الدالة على ملك الله في السورة وهي على التوالي الآيات[٢-٣-٥-١٣-١٥-١٦-١٧-١٩-٢١-٢٣-٢٤-٣٠] ثم يقـــول : ((فكـــأن الآيات من [٢] إلى آخر السورة تفصيل لهذا الملك ، وهذا التفصيل كلما طال احتاج إلى رابط يربطه بنواة النص))(٤).

٣-مرجعية الضمائر :

يـــناقش (صـــبحي إبراهيم) مرجعية الضمائر المتعددة في السورة ، ويرجح أن أكثر الضمائر في السورة تحـــيل إلى خارج النص أي إلى (الله تعالى) حيث إن ((لفظ الجلالة لم يرد لـــه ذكر صريح في أول السورة ومـــن ثم فمرجعية هذه الضمائر خارجية))(٥) غير أنه يشير إلى أن الآيتين [٢٨،٢٩] قد كانت مرجعية الضـــمائر فـــيها داخلية تحيل إلى سابق مذكور في النص ، ويمثل لذلك بالآية [٢٨] ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَـٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾(٦) على الشكل الآتي :



وكذا الضمائر في الآية [٢٩] ﴿ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾(٧) (هو – به – عليه) تعود إلى لفظ الجلالة(الله) المذكور في الآية التي سبقتها.

وحول ما إذا كانت الضمائر في الآيات الأولى تحتمل الإحالة إلى مرجعية داخلية لأنها اشتملت على اسم الموصـــول (الـــذي) حيـــث يمكن أن يحلّ محل لفظ الجلالة ، فإنه لا يستبعد هذا الاحتمال ، لكنه يعود فيقول :

---

١ صبحي إبراهيم : علم اللغة النّصّي ، ص١٧٣.

٢ سورة الملك : الآية ١.

٣ صبحي إبراهيم : علم اللغة النّصّي ،ص٢١٤.

٤ المصدر نفسه : ص٢١٥.

٥ المصدر نفسه:ص٢١٥.

٦ سورة الملك:الآية ٢٨.

٧ سورة الملك:الآية ٢٩.

"وهـو مـع ذلـك ضعيف ، وذلك لسبب واضح وهو أن (الذي) يقوم بوظيفة الضمير ... ومن ثمَّ فالمرجعية خارجية وليست داخلية"[1].

هـذا عن الضمائر التي تحيل إلى جملة النواة ، فماذا عن الضمائر التي تحيل إلى مرجعية أخرى مثل قـولـه تعالى: ﴿ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [2].

يستنجد (صـبحي إبراهـيم) هنا بما يذكر في أسباب النـزول عند تفسير هذه الآية ، ويخلص إلى أن الضـمائر في (أسـروا ، قولكم ، اجهروا) مرجعيتها خارجية تحيل إلى المشركين ، ثم يتساءل بناءً على هذا عن الضمائر التي تعود على المشركين في الآيات من [٥: ١١] وعلاقتها بقضية السورة ؟ فيجيب "هذه الآيات تتجه إليهم بالنذير بسوء العاقبة بعد تذكيرهم بنعمه عليهم وهذه النعم من ملك الله ، والجنة والنار كذلك ملك الله ، بـل هـؤلاء الكفـار أنفسـهم ملك لله ، هذا إضافة إلى أن تبليغ هؤلاء الكفار بأن هذا الكون كلـه لله ... سيجعلـهم يدخلون الإسلام ، فالحوار كذلك موجه إليهم . وبذلك أسهمت الضمائر على اختلاف مرجعها في تحليل ذلك النص"[3]

- التماسك النصي بواسطة التوابع في (سورة الملك):

تـأتي أهمـية الـتوابع في تحقـيق التماسك النصي وتحليل النص من "مصطلح التابع نفسه إذ التابع يتبع متـبوعه... ومـن ثم يرتبط به لدرجة جعلت عدّ بعض التوابع مع متبوعها كالكلمة الواحدة ... ويمثل التابع امـتداداً نصّـياً للمتبوع ، إذ نلاحظ أن صدى المتبوع يظهر في التابع كذلك"[4] ويذكر (صبحي إبراهيم) أن عـلماء النص يكتفون في التحليل النصي بإبراز دور العطف والبدل فقط، ولكنه "وجد أن النعت والتوكيد على الدرجة نفسها من الأهمية في تحقيق التماسك النصي "[5] .

ويـبدو أثر التوابع في تحقيق التماسك النصي في (سورة الملك) من خلال عود (صبحي إبراهيم) للحديث عن أهمية الآية الأولى في السورة، حيث يؤكد مرة أخرى أن "الظواهر والأحداث التي في السورة ، ترتد كلها إلى كون الله تعالى هو الخالق لهذا الكون كله ... وهذا يؤدي إلى نتيجة مؤداها الوحدة الدلالية لهذه السورة "[6].

وأول مـا يـلحظه الكاتب في تحليله التوابع : انتشارها وتنوعها في هذه السورة إذ بلغ عددها في الجدول الإحصائي الذي قدمه (٦١) تابعاً تفصيلـها على النحو التالي :

- (٤٨) مرة للعطف بأدواته وأكثر العطف بالواو (٢٨) مرة.
- (٧) مرات للنعت .

---

١ علم اللغة النصي :ص٢١٦.
٢ سورة الملك :الآية ١٣.
٣ علم اللغة النَّصّي : ص٢١٧.
٤ المصدر نفسه :ص ٢٤٣
٥ المصدر نفسه : ص٢٤٣.
٦ المصدر نفسه : ص٣٢٨.

- (٦) مرات للبدل .

ولم يرصد أي مظهر للتوكيد في السورة.

وقبل عرضه نماذج تدعم موضوع التماسك في السورة ، يؤكد أن محاولة تقسيم السورة ((إلى مقاطع من التوابع كل مقطع يحمل وحدة معنوية معينة ترتبط بموضوع السورة ... هو أمر غير متاح هنا ، لأن السورة كلها تدور حول محورها الأصيل المتمثل في اسمها (الملك) فكلها تدور حول ظواهر وأحداث مرتبطة بهذا الملك))(١) .

وتتوزع وظيفة التوابع في الربط وتقوية التماسك بين الكلمات المفردة والعبارات والجمل والآيات. ومن نماذج الربط بالنعت بين الآيات ((ربط الموصول "الذي" بين الآيات [١،٢،٣] إذ إنه نعت لله تبارك وتعالى . والتماسك عن طريق النعت نابع من كون المنعوت هو النعت في المعنى))(٢) .

ومن نماذج تحقق التماسك بالعطف يأتي دور العاطف "ثم" ليربط بين الآيتين [٣،٤] و"الواو" للربط بين الآيات [٤،٥،٦] ويرى (صبحي إبراهيم) أنه كلما ازداد عدد أدوات العطف ازدادت قوة التماسك بين مكونات النص القرآني ، كلماته وعباراته وجمله وسوره لتخرج في النهاية نصّاً محكماً.

ومع أن التحليل مخصَّص في هذا الفصل للتوابع إلا إن (صبحي إبراهيم) يذكر وسائل أخرى تسهم في تحقيق التماسك ومنها :

- ((وحدة الآيات من [١٦] إلى نهاية السورة وذلك من خلال الاستفهام الاستنكاري والتعجبي))(٣).

- ((العلاقة بين المتلقي والنص وتظهر في الآية الأخيرة على سبيل المثال ، إذ يقول تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ (٤) فمن الواضح أن المتلقي لا يملك إلا أن يجيب:الله رب العالمين . فقد تركت الإجابة للمتلقي ، وفي هذا إظهار لدور المتلقي في استقبال النص وتأويله وهذا من الجوانب النصية الواضحة في النص القرآني كله))(٥) .

- ومن وسائل التماسك التي أشار إليها – عَرَضاً – في تناوله التوابع ، حديثه عن أثر السياق المحيط بالنص في تحقيق الوحدة الدلالية ((فالمدقق في الموضوعات التي تتناولها السور المكية بصفة عامة يلاحظ وحدة موضوعاتها غالباً . وذلك ناتج عن السياق العام المحيط بالمسلمين آنذاك إذ كان الهدف هو إرساء قواعد العقيدة وترسيخها ، وذلك قبل التشريع والتكليف))(٦).

تلك أبرز تجليات ظاهرة انسجام الخطاب في النص القرآني في الدراسات الحديثة ، وقد تبيّن لنا أن موضوع الانسجام لقي حظاً من الاهتمام عند الباحثين المحدثين كما لقيه عند المتقدمين ، ويحسب للدراسات

---

١ صبحي إبراهيم : علم اللغة النصي ، ص٣٢٩.

٢ المصدر نفسه : ص٣٣١.

٣ المصدر نفسه: ص٣٣٠.

٤ سورة الملك :الآية٣٠.

٥ صبحي إبراهيم : علم اللغة النَّصّي ، ص٣٣٢.

٦ المصدر نفسه : ص٣٢٨.

الحديثة التنبيه على مظاهر الانسجام ووسائله سواءً تلك التي يمكن إدراكها من داخل النص أم تلك التي تدرك من خلال ظروف الخطاب ومقاماته ولا غنى عنها في تفسير انسجامه وتآلفه .

ولئن كان النمط الأول من هذه الدراسات قد انطلق من التأثر بالمنهج الفني في تحليل النصوص، وهو منهج شامل يدرس الصوت وإيحاءه ، والرمز وتأثيره، ويصف التناسق في جميع أبعاده، فإن الاتجاه اللغوي أراد أن تكون عباراته في وصف الانسجام أكثر دقة من خلال بحثه وسائل الاتساق الداخلية وعلاقات الانسجام الخارجية، ووصف فضاء النص ، وعلاقاته ووحدته وترابطه، وهو جهد عظيم قدمه هؤلاء الباحثون في محاولة معاصرة لإعادة كشف جانب من جوانب إعجاز هذا الكتاب الكريم، وستفيدنا نماذج التحليل المختلفة في بناء تصور شامل لمظاهر الانسجام ووسائله ونحن نتتبع تجليها في تفسير التحرير والتنوير فيما يأتي من فصول هذا البحث .

الباب الثاني :

تجليات ظاهرة انسجام النَّص القرآني في تفسير ابن عاشور

الفصل الأول :

نظرة ابن عاشور لانسجام النَّص

الفصل الثاني :

وسائل انسجام النَّص القرآني عند ابن عاشور

الفصل الأول:
نظرة ابن عاشور لانسجام النص

المبحث الأول: مفهوم الانسجـــام ومستويات التحليل

المبحث الثاني: تحول السياق وانتقال الخطاب

مدخل :

يمثل هـذا الفصل مع الفصل الذي يليه بؤرة الاهتمام في هذا البحث ، إذ يُعد ما تقدم من الحديث عن المناسبة والانسجام في الدراسات القديمة والحديثة خلفية نظرية –إن صحت التسمية– لما يمكن أن يمثل الإطار الذي يحدد جوانب هذه الظاهرة القرآنية التي اهتم بها (ابن عاشور) في التفسير .

ولذلك فإن هذا الفصل سيتناول في المبحث الأول مفهوم الانسجام عند (ابن عاشور)، وقد تم استخلاص ذلـك من خلال قراءة متأنية لأسلوبه وعباراته وإجراءاته التي يعمد إليها في بيان المناسبة على مستوى السورة أو بعـض أغراضها ، أو على مستوى تحليل الانسجام لموقع الآية في السورة ، ونتج عن هذه القراءة استخلاص ما يفـترض – هذا البحث – أنه يمثل مُجمل المبادئ التي اعتمد عليها (ابن عاشور) في دراسة ظاهرة الانسجام في النَّصّ القرآني .

كما يتعرض هذا الفصل إلى مستويات تحليل هذه الظاهرة عند (ابن عاشور) اعتماداً على ما تقدم في معنى النَّصّ والخطاب والانسجام .

وفي المبحث الثاني : تركيز خاص على ملمح من ملامح دراسة الانسجام ، وذلك حين يلجأ (ابن عاشور) إلى توظيف السياق بأنواعه في توضيح مناسبة بعض الآيات التي تفيد بوضعها حصول تحوّل أو انتقال بين أغراض السورة ، ولّما كان من اللازم تحديد أنواع السياق التي استعان بها (ابن عاشور) في تفسير انسجام هذه المواضع ، فقـد مهدّنـا لذلـك بإلمامة حول معنى السياق وأهميته في تنسيق المعاني وترتيبها وتصوُّر مقاماتها ، وأهم الملامح السياقية التي يؤخذ بها في الدراسة النَّصّية .

ثم استعرضنا نماذج من تفسير الانسجام في مواضع تحول السياق وانتقال الخطاب في القرآن كما هي عند (ابن عاشور) ومقارنتها بما في تفسير الزَّمَخْشَريّ وابن عطية والبقاعي .

ونشير بداية إلى أن هذا الفصل مقدمة لما بعده، ولذلك فلا بد من بسط الحديث في مباحثه وفقراته، إذ يتجلى فيه جانب من جهد (ابن عاشور) – رحمه الله – نرجو أن نعطيه حقه .

المبحث الأول:

مفهوم الانسجام ومستويات التحليل

بين يدي المنهج :

سبقت الإشارة في مقدمة الفصل السابق إلى أن تفسير التحرير والتنوير يمكن تصنيفه في دائرة الاتجاه البياني الـــذي درس ظاهرة الانسجام في النّصّ القرآني ضمن ظواهر الإعجاز البياني للقرآن ، وهذا الاتجاه يميل عادةً إلى متابعة مناهج القدماء في تناول الظواهر القرآنية البلاغية والأسلوبية ،وقد اتضح من الخلفية العلمية والثقافية التي تشكّل من نسيجها أسلوب (ابن عاشور) منهجه في التعامل مع النّصّ القرآني وهي – كما أسلفنا- خلفية تقوم عـــلى هضم التراث العربي في اللغة ؛ نحوها و صرفها وبلاغتها وشعرها وآدابها المختلفة ، إلى جانب هضمه لعلم الأصـــول والمنطق والدراسات القرآنية ، ويشهد لـــه على ذلك تلك المناقشات والترجيحات التي ضمنها كتابه والتي سنشير إلى نماذج منها في هذا البحث.

لذلـــك كله لم يكن غريباً على (ابن عاشور) أن يقف عند هذه الظاهرة القرآنية التي استوقفت كثيراً من المفسرين منذ القرون الأولى .

ويتضـــح لقـــارئ الصفحات الأولى من التحرير والتنوير أن (ابن عاشور) ينصُّ على جعله موضوع بيان تناســـب اتصال الآيات في القرآن أحد أهم اهتماماته ، رغبة منه في سد ثغرة كانت تستوقفه لحظات التأمل في كتاب الله حيث لم يجد ما يشفي الغليل حولها في كتب التفسير.

يقـــول (ابن عاشور) : "واهتممت أيضاً ببيان تناسب اتصال الآي بعضها ببعض ، وهو منـــزع جليل قد عني به فخر الدين الرازي ، وألف فيه برهان الدين البقاعي كتابه المسمى (نظم الدرر في تناسب الآي والسور)إلا أنهما لم يأتيا في كثير من الآي بما فيه مقنع ، فلم تزل أنظار المتأملين لفضل القول تتطلع "[١] .

ومـــع أن (ابـــن عاشور) لم يشر هنا إلا إلى مستوى واحد من مستويات تحليل ظاهرة الانسجام؛هو بيان مناسبة اتصال الآيات إلا أنه في ثنايا التفسير قد تحدث عن مستويات أخرى سنتناولها في هذا المبحث بالتفصيل .

ومـــن أهـــم مـــا يؤكده (ابن عاشور) في مقدمة الكتاب أنه قد اختط لنفسه منهجاً في دراسة المناسبة بين الآيـــات في السورة الواحدة ، واختار أن يتجنب البحث في تناسب ترتيب السور فقال : "أما البحث في تناسب مواقع السور بعضها إثر بعض فلا أراه حقاً على المفسر"[٢].

وفي الاتجاه ذاته يحرص (ابن عاشور) على أن يقدم السورة بوصفها وحدة متكاملة ذات أغراض ومقاصد ، لا يمكـــن لقارئها أو لقارئ تفسيرها أن يصل إلى تصور تلك الأغراض وهو ينظر إليها نظرة مجزأة ، ولهذا يقول : "ولم أغـــادر ســـورة إلا بينت ما أحيط به من أغراضها ، لئلا يكون الناظر في تفسير القرآن مقصوراً على بيان مفرداته ومعاني جمله كأنها فِقَرٌ متفرقة تصرفه عن روعة انسجامه وتحجبه عن روائع جماله "[٣] .

وقـــد مكنته تلك النظرة إلى الهيكل البنائي للسورة من الحديث عن انسجام تلك الأغراض والمقاصد وفق ذلـــك الترتيـــب العجيـــب ، وهي إحدى صور انسجام النّصّ التي ركز عليها البحث الحديث ، وقد وفّق (ابن

---

١ التحرير والتنوير : ج١، ص٨.

٢ المصدر نفسه : ج١ ، ص٨.

٣ المصدر نفسه :ج١، ص١

عاشـور) بـنظرته هذه في الحديث عن الانسجام بين فواتح السور وأغراضها ، ورد كل ما يوهم الخروج على سياق الآيات إليها .

ويحسـن قبل عرض منهج (ابن عاشور) في دراسة ظاهرة انسجام النّصّ القرآني أن نقف ملياً أمام ما يمكن أن يمـثل مجمـل المـبادئ العامة التي بنى عليها (ابن عاشور) نظرته وفهمه لهذه الظاهرة القرآنية ، وهذه المبادئ والتعمـيمات مبثوثة في تفسيره ، وملخصة في ثنايا بعض المقدمات المنهجية التي افتتح بها التفسير ، وذلك لتتضح لـنا عـبارته ، ويتبين لنا المدى الذي وصل إليه في الإتيان بما فيه مقنع ، وبما كانت الأنظار إليه تتطلع وهي تقرأ التفاسير الأخرى .

❑ المبادئ العامة لمفهوم الانسجام عند (ابن عاشور) :

تمثل هذه المبادئ الإطار النظري الذي يفترضه هذا البحث لمفهوم الانسجام عند (ابن عاشور) وعليها تقوم تلك الإجراءات التي كان يسلكها في تحديد موقع الآية ، أو مجموع الآيات في سورة من السور ، وذلك في تتبعه للتقدُّم الخطِّي للنص ، وتعليله للانتقالات الموهمة لانقطاع السياق ، كما تقدم هذه المبادئ حدود البحث عن المناسبة ، ومدى الحاجة للاستنجاد بأسباب النزول في فهم سياق النَّصّ وإدراك علاقات انسجامه ، وفيها يظهر الوعي بالقواعد العامة لترتيب الخطاب ، وأسلوب بناء المحاورات و الوصف والاحتجاج وغيرها ، ويمكن تلخيص هذه المبادئ فيما يلي :

١- مبدأ (التوقيف)في ترتيب آيات القرآن الكريم في كل سورة :

وهذا المبدأ يعود إلى ما أجمعت عليه الأمة من أن ترتيب الآي بعضها عقب بعض بتوقيف من النبي (صلى الله عليه وسلم) حسب نزول الوحي ، كما دلت على ذلك الآثار والأحاديث المذكورة في الفصل الأول من هذا البحث .

وبناءً على ذلك فإن (ابن عاشور) يتابع من سبقه في عدِّ هذا الترتيب وجهاً من وجوه الإعجاز فيقول : ((فلذلك كان ترتيب آيات السورة الواحدة على ما بلغتنا عليه متعيناً بحيث لو غيّر عنه إلى ترتيب آخر لنزل عن حدِّ الإعجاز))[١].

ويترتب على ذلك الاتساق التوقيفي أن يكون هناك اتصال وترابط بين الأجزاء المكونة لهذا النَّصّ (الآيات)((فلهذا كان الأصل في آي القرآن أن يكون بين الآية ولاحقتها تناسب في الغرض أو في الانتقال منه أو نحو ذلك من أساليب الكلام المنتظم المتصل ، ومما يدل عليه وجود حروف العطف المفيدة الاتصال مثل الفاء،ولكن،وبل،ومثل أدوات الاستثناء...الخ))[٢]. وقد أورد (ابن عاشور) صوراً متعددة لكيفية ترتيب الآيات وأمثلة على ذلك ، ومن هذه الصور :

- أن يكون موقع الآية عقب التي قبلها لأجل نزولها عقبها من سورة هي بصدد النزول فيؤمر النبي (صلى الله عليه وسلم) أن يقرأها عقب التي قبلها . وهذه صورة وصفها (ابن عاشور) بأنها نادرة ، وضرب لها أمثلة ومنها : قوله تعالى : ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾[٣] عقب قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴾[٤] ويورد هنا ما ذكره جمهور المفسرين في سبب نزول الآية عن ابن عباس (رضي الله

---

١ التحرير و التنوير :ج١.ص٧٧.

٢ المصدر نفسه : ج١ ، ص٧٨.

٣ سورة مريم : الآية ٦٤ .

٤ سورة مريم: الآية ٦٣ .

عنهما قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لجبريل : (ألا تزورنا أكثر مما تزورنا ، قال : فنزلت "وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا " الآية)[1].

وقد وضح (ابن عاشور) أن هذه الصورة من ترتيب الآيات لا تحول دون الوصول إلى معرفة المناسبة والعلاقة بين هذه الآية وما تقدم عليها ، وفي موضع الآية من التفسير كلام سنعود إليه في المبحث القادم .

- قد لا تكون هناك مناسبة ترتَّبَ عليها وضع الآية في محلها لكنه« اقتضاه سبب في ذلك المكان ، كقوله تعالى : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۞ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۞ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۞ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ [2] فهذه الآيات نزلت بعد توبيخ المشركين على إنكارهم البعث... وليست لها مناسبة بذلك ، ولكن سبب نزولها حصل في خلال ذلك. [وقد ساق (ابن عاشور) رواية البخاري و مسلم[3] عن ابن عباس في وصف حال الرسول (صلى الله عليه وسلم) حين كان يتلقى القرآن من جبريل (عليه السلام)][4]... فذلك يفيد أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حرَّك شفتيه بالآيات التي نزلت في أول السورة »[5].

- وقد توضع الآية في موضعها لأنها «نزلت على سبب وكان حدوث سبب نزولها في مدة نزول السورة التي وضعت فيها ، فقرنت تلك الآية عقب آخر آية انتهى عليها النزول، وهذا كقوله تعالى : ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ۞ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴾ [6] بين تشريعات و أحكام كثيرة»[7] ونبَّه (ابن عاشور) هنا إلى أن موقع الآية من التي قبلها قد لا يكون فيه ظهور مناسبة ، ولكنه أبان عن وجوه من المناسبة عند تفسير هذه الآية.

وقد أكد (ابن عاشور) أن مبدأ الترتيب المتعلق بإلحاق آية أو آيات بسياق ما من السورة لا يخل بالانسجام والمناسبة فقال : «واعلم أنه إذا أراد الله إنزال شيء من القرآن ملحقاً بشيء قبله جعل نظم الملحق مناسباً لما

---

١ صحيح البخاري : كتاب بدء الخلق ، باب ذِكْر الملائكة ، حديث رقم (٢٩٧٩).

٢ سورة القيامة : الآيات ١٦-١٩.

٣ هو أبو الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري : صاحب كتاب الجامع الصحيح في الحديث ، توفي (٢٦١هـ) .

٤ الحديث في صحيح مسلم برقم (٦٩٧٠) عن ابن عباس في قوله عز وجل [لا تحرك به لسانك] قال : (كان النبي (صلى الله عليه وسلم) إذا نزل عليه جبريل بالوحي كان مما يحرك به لسانه وشفتيه فيشتد عليه ، فكان ذلك يعرف منه فأنزل الله تعالى:"لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه" وهو في البخاري بلفظ آخر في كتاب (بدء الوحي) حديث رقم (٤) .

٥ ابن عاشور :التحرير و التنوير ، ج١.ص٧٩.

٦ سورة البقرة : الآيات ٢٣٨ ، ٢٣٩.

٧ ابن عاشور :التحرير و التنوير ، ح١.ص٧٩.

هــو متصــل به))(1) ولهذا نجد أدوات الربط بين اللاحق والسابق كالفاء التي تفيد التفريع بما يناسب ما تقدم ، وغير ذلك من وسائل الربط النحوي .

٢- مبدأ الإعجاز في تسوير آيات القرآن :

يــدرك (ابن عاشور) أن تسوير آيات القرآن كان من أهم الجوانب التي تجلت فيها ظاهرة انسجام النّصّ القرآني ؛ فلقد كانت السورة القرآنية نصاً متكاملاً ، وقع بها التحدي والإعجاز ((لأن من وجوه الإعجاز أمــوراً لا تظهر خصائصها إلا بالنظر إلى كلام مستوفٍ في غرض من الأغراض ، وإنما تنــزل سور القرآن في أغــراض مقصــودة فلا غنى عن مراعاة الخصوصيات المناسبة لفواتح الكلام وخواتمه بحسب الغرض ، واســتيفاء الغرض المسوق له الكلام ، وصحة التقسيم ، ونكت الإجمال و التفصيل ، وإحكام الانتقال من فــن إلى آخــر من فنون الغرض ... ونحو ذلك مما يرجع إلى نكت مجموع نظم الكلام ، وتلك لا تظهر مطابقــتها جلية إلا إذا تم الكلام واستوفى الغرض حقه ؛ فلا جرم كان لنظم القرآن وحسن سبكه إعجازٌ يفــوت قــدرة البشر هو غير الإعجاز الذي لجمله وتراكيبه ...فكانت السورة من القرآن بمنــزلة خطبة الخطيب وقصيدة الشاعر لا يحكم لها بالتفوق إلا باعتبارات مجموعها بعد اعتبار أجزائها))(2) .

ويتجــلى اهتمام (ابن عاشور) بهذا المبدأ من خلال تعريفه مصطلح (السورة) حين يُعِدُّ الوحدة والانسجام والتناســب أحــد أركان هذا التعريف فالسورة : ((قطعة من القرآن معينة بمبدأ ونهاية لا يتغيران ، مسماة باسم مخصــوص ، تشــتمل عــلى ثلاث آيات فأكثر ، في غرض تام ترتكز عليه معاني آيات تلك السورة ، ناشئ عن أسباب النــزول أو عن مقتضيات ما تشتمل عليه من المعاني المتناسبة))(3).

كما تتضح رعاية (ابن عاشور) لهذا المبدأ في منهجه في التفسير؛ إذ يقدِّم بين يدي كل سورة مقدمة تشتمل على ذِكْر أغراضها، ومن ثم يقوم ببيان أوجه انسجام وتناسب فاتحتها وخاتمتها وجميع آياتها مع هذه الأغراض.

٣- مراعاة خصائص أسلوب القرآن ومقاصده :

. يؤكــد (ابن عاشور) أهمية الانطلاق في فهم ظاهرة الانسجام في النّصّ القرآني من تصوٍّر واضحٍ للأغراض والمقاصــد التي نــزل القرآن كله من أجلها ، وأن تحقيق هذه الأغراض لا يتم إلا بنصٍّ مترابط الأجزاء، وقد ينتقل بين هذه الأغراض بصور مختلفة، لدرجة يحتاج معها المفسر لتوسيع نظرته في تأويل العلاقات إلى أوسع مدى تلتقي عنده هذه الأغراض المتناسبة في السورة الواحدة من القرآن ، يقول (ابن عاشور) : ((إن

---

١ التحرير والتنوير : ج٣٠، ص٥٠٠.

٢ المصــدر نفسه : ،ج١.ص٣٣١. وهذا الوجه من الإعجاز يتضح جلياً حين نقرأ في كتب الحديث أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان يضمِّن خطبته سورة كاملة من القرآن فتستوفي غرض الموعظة الذي أراده.روى مسلم عن عمرة بنت عبد الرحمن عن أخت لعمرة قالت : ((أخذت (ق والقرآن المجيد) من في رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يوم الجمعة وهو يقرأ بها على المنبر في كل جمعة)) صحيح مسلم :كتاب الجمعة . باب تخفيف الصلاة والخطبة،حديث رقم (١٤٤٠).

٣ المصدر نفسه : ج١، ص٨٢.

الغرض الأكبر للقرآن هو إصلاح الأمة بأسرها ... ولذلك كانت أغراضه مرتبطة بأحوال المجتمع في مدة الدعـوة، فكانـت آيـات القرآن مستقلاً بعضها عن بعض ، لأن كل آية منه ترجع إلى غرض الإصلاح والاسـتدلال علـيه وتكميله ... فلم يلزم أن تكون آياته متسلسلة ، ولكن حال القرآن كحال الخطيب يـتطرق إلى معالجـة الأحوال الحاضرة على اختلافها وينتقل من حال إلى حال بالمناسبة، ولذلك تكثر في القرآن الجمل المعترضة لأسباب اقتضت نـزولها أو بدون ذلك»[١].

ووفقاً لهذا المبدأ القائم على إدراك واحدة من خصائص النَّصّ القرآني ، فإن البحث في المناسبة لا يسير بعيداً عن إدراك طبـيعة ترتيب القرآن ، ولذلك يؤكد (ابن عاشور) في موضع آخر أن «الانتقال من غرض إلى غرض في آي القرآن لا تلزم لـه قوة ارتباط ، لأن القرآن ليس كتاب تدريس يرتب بالتبويب وتفريع المسائل بعضها على بعـض ، ولكنه كتاب تذكير وموعظة... فقد يجمع به الشيء بالشيء من غير لزوم ارتباط أو تفرع مناسبة وربما كفـى في ذلك نـزول الغرض الثاني عقب الغرض الأول وتكون الآية مأموراً بإلحاقها بموضع معين... ولا يخلو ذلك من مناسبة في المعاني أو انسجام نظم الكلام »[٢] .

ولعل هذه العبارة – مع ما فيها من الاحتراز – تقرر أن الحديث عن انسجام النَّصّ القرآني أمر مقبول إذا ما روعيت خصائص هذا النَّصّ الكريم ، وأن البحث عن علاقة ما لحديث تمَّ الانتقال إليه في السورة يعتمد على معـرفة أوسـع بعلاقات الانسجام في إطار القرآن كله . ووفقاً لهذا الفهم يبقى النَّصّ القرآني قابلاً على الدوام لإعادة التدبر في عجائبه التي لا تنقضي .

ويظهـر هـذا الـتوازن في نظرة (ابن عاشور) إلى انسجام النَّصّ القرآني من خلال حرصه على مراعاة خصائص النظم القرآني ، وطرائق العرب المعهودة في ترتيب كلامها ، والانتقال من غرض إلى غرض بالإضراب والاعتراض ونحوهما .

ويؤكـد (ابن عاشور) أهمية معرفة مناسبات الانتقال في أكثر من موقع في التفسير ؛ فنجده يقول : «اعلم أن جمـل الكلام البليغ لا يخلو انتظامها عن المناسبة وإن كان بعضها استئنافاً وإنما لا تطلب المناسبة في الحادثات والاقتضابات »[٣].

ولذلـك فإنه لا يتوقف كثيراً في بيان المناسبة في المواضع التي توقَّفَ فيها كثيرٌ من المفسرين ؛ بل يعمد إلى توضـيح الروابط الموجودة بين هذه الآيات ، بطرق تقترب أحياناً كثيرة مما توصل إليه البحث الحديث في إلحاق الموضوعات بعضها ببعض بعلاقات من المستوى التداولي .

ولكـن (ابـن عاشور) لا يعني بوحدة أغراض القرآن ، والتوقيف في ترتيبه ، ما عناه بعض المفسرين حين أجرى المناسبة بين الآيات بطريقة متكلّفة . ومثال ذلك وقوفه عند قول الله تعالى:﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا

---

١ التحرير والتنوير : ج١،ص٨٠.

٢ المصدر نفسه : ج٢،ص٤٤٣.

٣ المصدر نفسه : ج٣،ص٤٦.

تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[1] فقد لاحظ (ابن عاشور) أن حديث القرآن في الآيات السابقة عن (يوم أحد) لم يكتمل حيث عاد إليه بعد هذه الآية وما تلاها بقوله : ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾[2] فكان موقع هذه الآية مع ما تلاها من قرينالها مشكلاً على كثير من المفسرين . يقول (ابن عاشور) :((لولا أن الكلام على يوم أحد لم يكمل...لقلنا إن قوله (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ) اقتضاب تشريع، ولكنه متعين لأن نعتبره استطراداً في خلال الحديث عن يوم أحد ، ثم لم يظهر وجه المناسبة في وقوعه في هذه الأثناء))[3] .

وقد وجد (ابن عاشور) أن المفسرين لا يذكرون سبباً من أسباب النزول يمكن الاسترشاد به ، وبعضهم يذكر وجوهاً عامة للمناسبة ويأتي بها متكلفة ، لذلك وبعد أن يسرد وجوه المناسبة التي ذكرها الفخر الرازي ، والقفال[4] ، وابن عرفة[5] يستبعد ما أوردوه لبعد مَحْمَله ، ثم يقول : ((وعندي بادئ ذي بدء أن لا حاجة إلى اطراد المناسبة ، فإن مدة نزول السورة قابلة لأن تحدث في خلالها حوادث ينزل فيها قرآن فيكون من جملة تلك السورة ... فتكون هاته الآية نزلت عقب ما نزل قبلها فكتبت هنا، ولا تكون بينهما مناسبة إذ هو ملحق إلحاقاً بالكلام))[6] .

وهذا الأمر قد تقرر في مبدأ ترتيب آيات القرآن –كما تقدم– إلا إنه في بعض المواضع المشابهة لهذه الآية كان يذكر وجوهاً من المناسبة ولم يذكر شيئاً هنا وذلك لتكون إحدى صور ترتيب آيات القرآن بالتوقيف ماثلةً ، بدون سبب ظاهر ، وهذا من خصائص القرآن كما سبق .

٤- مبدأ انسجام النصّ مع الظروف المحيطة (السياق و المتلقي):

لا يمكن أن تتجلى ظاهرة انسجام النّصّ برؤيته من الداخل فقط ، أي بالاعتماد على ترتيب علاقات النّصّ الداخلية (النحوية ، والبلاغية ، والأسلوبية) بل لا بد من إعادة بناء السياق العام الذي تَنزل فيه النّصّ، ومعرفة أحوال المخاطبين حتى تدرك أسباب تلك الانتقالات والاعتراضات التي تنشأ في ثنايا خطاب من الخطابات أو محاورة من المحاورات في النّصّ القرآني.

---

١ سورة آل عمران : الآية ١٣٠.

٢ سورة آل عمران : الآية ١٣٧.

٣ التحرير و التنوير .ج٣، ص٢١٧.

٤ أبو بكر محمد بن علي القفال بن إسماعيل الفقيه الشافعي : كان إمام عصره بلا منازعة ، روى عن محمد بن جرير الطبري وأقرانه . وروى عنه الحاكم وابن منده وجماعة . توفي سنة ٣٣٦هـ . [انظر : أبجد العلوم : ص٦٢٩].

٥ محمد بن عرفه التونسي : إمام تونس وعالمها وخطيبها في عصره . تولى إمامة الجامع الأعظم سنة ٧٥٠هـ، من كتبه : المختصر الكبير في (فقه المالكية) وله تفسير من تقييد تلميذه : محمد بن خلفه بن عمر الأبي المالكي ، وهو تعليق على تفسير ابن عطية ولكنه أشبه بالتفسير .[انظر : الأعلام للزركلي : ج٧، ص٤٣].

٦ ابن عاشور : التحرير والتنوير ، ج٣، ص٢١٧.

وقــد أكــدت الدراسات الحديثة في تحليل الخطاب وعلم الأسلوب أننا حين نبحث عن سياق الموقف إنما نسعى لــ(موقعة النَّصّ) وما ذلك إلا لأن «النَّصّ في نهاية الأمر ليس سوى تعبير يشكل جزءاً من عملية اجتماعية معقــدة ممــا يجعل من الضروري استحضار الملابسات التي كتب فيها »[1] . وهو ما أكده (ابن عاشور) كذلك حــين نبه على ضرورة مراعاة المقام في نظم الكلام «فقد تشتمل آية من القرآن على خصوصيات تتساءل نفس المفســر عن دواعيها وما يقتضيها ، فيتصدى لطلب مقتضيات لها ربما جاء بها متكلفة أو مغصوبة ، ذلك لأنه لم يلتفت إلا إلى مواقع ألفاظ الآية ، في حال أن مقتضياها في الواقع منوطة بالمقامات التي نــزلت فيها الآية»[2] .

ويقود الحديث عن الظروف المحيطة بالنَّصّ -أثناء دراسة ظاهرة الانسجام في النَّصّ القرآني- أول ما يقود إلى الحديــث عن أسباب النــزول ؛ ذلك لأن (ابن عاشور) ينص في بعض المواضع على أهمية العودة إلى أسباب النــزول لمعرفة دلالات مواقع هذه الآيات ، ومن ذلك مثلاً استرشاده بسبب النــزول في بيان موقع قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْ ۗ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[3] – الــتي جــاءت عقب الآيات التي تحدثت عن اتباع بني إسرائيل للشياطين واحترافهم السحر – فبعد أن ذمهم الله وذمَّ هــذا العمــل جاءت هذه الآية فكان موقعها مثار سؤال . يقول (ابن عاشور) : «يتعين في مثل هذه الآية تطلّب سبب نــزولها ليظهر موقعها ووجه معناها ، فإن النَّهي عن أن يقول المؤمنون كلمةً لا ذمَّ فيها ولا سخف لابد أن يكــون لسبب»[4] ثم ساق سبباً لنــزول الآية دون إسناد[5]، ولكن المناسبة التي أوردها (ابن عاشور) تجعل الآية ذات صلة بما قبلها .

ولا يلجأ (ابن عاشور) إلى سبب النــزول إلا إذا كان مؤيداً بالنقل الصحيح ، ومتلائماً مع سياق الآيات في الســورة ، ومن الأمثلة على ذلك الآثار التي تذكرها بعض كتب التفسير[6] عند قولــه تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ ﴾[7] لتجعل لفظ (الإنسان) المراد في الآية شخصاً معيناً وأن (أل) للعهد ، فيقول : «وليس هذه

---

١ صلاح فضل : علم الأسلوب . ص٢٥٠.

٢ ابن عاشور :التحرير و التنوير .ج١.ص١٠٩.

٣ سورة البقرة : الآية ١٠٤.

٤ التحرير و التنوير .ج١.ص٦٣٢.

٥ أورد السيوطي في سبب نــزول الآية ما أخرجه« ابن المنذر عن السدي قال كان رجلان من اليهود مالك بن الصيف ورفاعة بن زيد إذا لقيا النبي (صلى الله عليه وسلم) قالا – وهما يكلمانه – : راعنا سمعك واسمع غير مسمع ، فظن المسلمون أن هذا الشيء كان أهل الكتاب يعظمون به أنبياءهم ، فقالوا للنبي (صلى الله عليه وسلم) ذلك فأنــزل الله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا) ». [انظر: لباب النقول : دار إحياء العلوم ، (د.ت.ط) ص٢٤].

٦ تشير بعض كتب التفسير إلى أنه يجوز أن يكون المراد به إنسان معين ، فعن الكلبي أنه أبو الأشدّ ، ويقال أبو الأشدين واسمه أسيد بن كلدة الجمحي...وكان شديد الكفر والعداوة للنبي (صلى اله عليه وسلم) ، وقيل : هو الوليد بن المغيرة ، وقيل : هو أبو جهل . وعن مقاتل : نزلت في الحارث بن عامر بن نوفل ، زعم أنه أنفق مالاً على إفساد أمر النبي (صلى الله عليه وسلم) ، وقيل هو عمرو بن ودّ . والظاهر أن الآية تتحدث عن الإنسان عموماً دون تخصيص لأحد . انظر : (أ) الزمخشري : الكشاف ، ج٤،ص٧٥٨.

(ب) ابن عطية : المحرر الوجيز ، ص١٩٧٩، ١٩٨٠.

٧ سورة البلد : الآية ٤.

الأقـوال شاهد من النقل الصحيح ولا يلائمها القسم ولا السياق))[1] . فهذا المثال وغيره يدل على توسط (ابن عاشـور) في الاعتداد بأسباب النـزول في تفسير مواقع الآيات . ولكن هناك من أسباب النـزول كما يقول : ((مـا لـيس المفسـر بغـنيٍّ عـن عـلمه لأن فيها بيان مجمل أو إيضاح خفي وموجز ، ومنها ما يكون وحده تفسيراً...ومنها ما ينبه المفسر على إدراك خصوصيات بلاغية تتبع مقتضى المقامات ،فإن من أسباب النـزول ما يعين على تصوير مقام الكلام))[2] .

وفي الوقـت نفسـه يشير إلى أن من أسباب النـزول ((مالا يبين مجملاً ولا يؤول متشابهاً ولكنه يبين وجه تناسب الآي بعضها مع بعض))[3] .

ومما يندرج تحت مبدأ مراعاة الظروف المحيطة بالنّصّ في دراسة الانسجام ما أشار إليه (ابن عاشور) من أن القرآن راعى بأسلوبه في انتقاء الكلمة وترتيب الجملة ما كان مألوفاً لدى العربي، وبلغ بذلك حدّ الإعجاز بحيث يفهمه البدوي و الحضري و العالم و المتعلم والأمي [4].

لقـد راعـى الـنّصّ القـرآني متلقيه حيث أجاب عن كل ما يثور في نفسه من التساؤلات بالاستئناف، والاعـتراض ، وحذف مالا فائدة من ذِكْره ، ليفتح المجال للسامع ،ويطنب إذ لزم الإطناب ، ويقدم ما هو أولى بالتقديم ، ويؤخر ما هو أحق بالتأخير ، كل ذلك مراعاة لوصول المتلقي إلى المعاني وتحققه بآثارها .

كمـا راعـى الـنّصّ القرآني معارف هذا المتلقي التاريخية والثقافية والعلمية ، ومهما كان هذا المتلقي في المسـتقبل فإن أسلوب القرآن –قابل باختياره للعبارة وترتيبها في الآية وترتيب الآية في السورة – إلى أن يشبع تطلعه ، وكل هذه المعاني المتعلقة بالمتلقي قد أشار إليها (ابن عاشور) في مواضع مختلفة من تفسيره .

٥- مراعاة قواعد الخطاب :

يـنطلق (ابن عاشور) في إبراز ظاهرة الانسجام في النّصّ القرآني من خلال تأمله في قواعد الخطاب العربي، وهـي تلـك القواعـد المتعلقة بالنحو والبلاغة واللغة ، فيهتم بشرح قواعد الفصل والوصل ، والتفريع والتذيـيل ، والـتقديم والـتأخير ، وبيان أسلوب القرآن في حكاية الأقوال والمحاورات و الإخبار عنها، وأسلوب القرآن في الافتتاح ، ولفت انتباه السامع بالبديع مع التنبيه حيناً والزجر حيناً آخر ،والانتقال بين ثـنايا الخطاب في النّصّ بالاستئناف ،والاستطراد ،والإضراب ،والاقتضاب ، كما يحرص على إبراز ترابط أسـاليب القسـم ،والاسـتثناء ،والشرط ، وبيان متعلقات الحروف ،والظروف ،والجمل وأشباه الجمل، وإعـادة ترتيـب الجمل حين يكون ترتيبها على خلاف مقتضى الظاهر ، ويبين أسلوب القرآن في الربط بالحـروف والظروف كالواو ، والفاء ،وثم ، وإذ ، ويركز على توضيح معاد الضمائر والإشارات ، ويبين

١ التحرير و التنوير .ج٣٠،ص٣١٠.

٢ المصدر نفسه : ج١،ص٤٥.

٣ المصدر نفسه:ج١،ص٤٨.

٤ انظر تفسير سورة الطارق في التحرير و التنوير : ج٣٠،ص٢٣٥.

علاقـات الإجمال والتفصيل ،ويناقش كل الوجوه التي يذكرها المفسرون والبلاغيون حيث لزم مناقشتها ؛ واضعاً نصب عينيه في بيان ذلك كله الحرص على إبراز ظاهرة الانسجام في النَّصّ القرآني ، وإعانة القارئ على التدبر والتفكر بأسلوب ميسَّر وعبارة مبسطة .

ومن أمثلة عنايته ببيان قواعد الخطاب وأساليب الكلام العربي ،وبيان أثرها في تحقيق الانسجام ما يلي :

- في الفصل و الوصل :

– عـند قولـه تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾[1] يقـول (ابن عاشور) : "وإنما قطعت هاته الجملة عن التي قبلها لأن بينهما كمال الانقطاع؛ إذ الجمل السابقة لذِكْر الهدى والمهتدين وهذه لذِكْر الضالين فبينهما الانقطاع لأجل التضاد"[2] .

– عطـف القصـة على القصة : يهتم ببيان هذا النوع من العطف الذي ذكره الزَّمَخْشَريّ وغيره من المفسـرين ، ومن ذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ ﴾[3] يقول (ابن عاشور): "وجملـة (وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَم ...) عطف على جملة ﴿ ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴾[4] عطـف القصـة عـلى القصة ، فلا يراعى حسن اتحاد الجملتين في الخبرية والانشائية ، على أن ذلك الاتحـاد لـيس بملزم . على أنك علمت أن الأحسن أن يكون (ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ) مصدراً وقع بدلاً من فعله"[5] .

– الاعتراض مع التفريع : من المعلوم أنه قد وردت مناقشات بين أهل اللغة حول الاعتراض؛ هل يكون مع الفاء أو الواو أم لا ؟ [6].

و(ابن عاشور) لا يرى مانعاً من وقوع الجملة المعترضة في نهاية الكلام المعطوفة بالواو أو الفاء .
ففي تفسير قوله تعالى : ﴿ وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓ ...﴾ [7] الآيـات إلى

---

١ سورة البقرة : الآية ٦.

٢ التحرير والتنوير :ج١،ص٢٤٤.

٣ سورة مريم : الآية ١٦.

٤ سورة مريم : الآية٢.

٥ التحرير والتنوير .ج١٦،ص٢٠.

٦ راجع مغني اللبيب في معاني الفاء . ص ٥١٩ ، ٥٢٠ . فقد وضح ابن هشام أن الجملة المعترضة يجوز اقترانها بالفاء ، وقد مثّل لذلك بالجملة المعترضة بين الشرط وجوابه نحو قوله تعالى : (إن يكن غنياً أو فقيراً – فالله أولى بهما – فلا تتبعوا الهوى) [النساء : الآية١٣٥] فقوله : (فالله أولى بهما)معترضة بين الشرط وجوابه وهي مع ذلك مفرعة على ما قبلها .

٧ سورة البقرة : الآية ١٠٩.

قولــــه تعــــالى: ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [1] .

يقول (ابن عاشور) : ((جملة (فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ) إلى قوله (وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ) تفريع مع اعتراض ، فــان الجملـــة المعترضـــة هي الواقعة بين جملتين شديدتي الاتصال من حيث الغرض المسوق لـــه الكلام ، والاعـــتراض هو مجيء ما لم يسق غرض الكلام لـــه ولكن للكلام والغرض به علاقةً وتكميلاً ، وقد جاء بالتفريع بالفاء هنا في معنى تفريع الكلام على الكلام لا تفريع معنى المدلول على المدلول لأن معنى "العفو" لا يتفرع عن "ودّ أهل الكتاب" ولكن الأمر تفرع عن ذِكْر هذا الــ"الود" الذي هو أذىً ، وتجيء الجملة المعترضة بالواو وبالفاء بأن يكون المعطوف اعتراضاً))[2] وعند قوله : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۞ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴾[3] يقول (ابن عاشور) : ((وقوله : (فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)اعتراض بين جملة (وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ) ومتعلق فعلها أعني (إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ) والفاء للتفريع ، والفاء تقع في الجملة المعترضة على الأصح خلافاً لمن منع ذلك من النحويين))[4].

- حكاية المحاورات والإخبار عنها :

للقـــرآن أسلوب متميز في سرد المحاورات بين الأطراف المتعددة يعتمد فيه أسلوب الفصل والوصل بدقة بالغة . يقـــول (ابـــن عاشور) :((وقد استقريت أنا من أساليب القرآن أنه إذا حكى المحاورات و المجاوبات حكاها بلفظ (قال) دون حرف عطف إلا إذا انتقل من محاورة إلى أخرى))[5] ويوضح (ابن عاشور) هذا الاستنتاج في تفسير قولــه تعالى :﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا ﴾[6] حيـــث فصل جواب الملائكة عن قول الله لهم : (إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً) ولم يعطف بالواو أو الفاء . يقول:

---

١ سورة البقرة : الآية ١١١ .

٢ التحرير والتنوير .ج١،ص ٦٥٣.

٣ سورة آل عمران : الآيتان١٢٣ ،١٢٤.

٤ التحرير والتنوير : ج٣ ، ص ٢٠٧.

٥ المصـــدر نفسه : ج١ ، ص١٢٣. وقد أشار عبد القاهر الجرجاني إلى طريقة القرآن في حكاية المحاورات وأنها تقوم على أساس معنى السؤال والجواب المقتضي الفصـــل واستدل بقوله تعالى : (هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين . إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال سلامٌ قوم منكرون . فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين . فقربه إليهم قال ألا تأكلون . فأوجس منهم خيفةً قالوا لا تخف ... الآية)[سورة الذاريات : الآيات ٢٤ - ٢٨] ثم قال : ((جاء على ما يقع في أنفس المخلوقين من السؤال ، فلما كان في العرف والعادة بين المخلوقين إذا قيل لهم : دخل قوم على فلان فقالوا : كذا ؛ أن يقولوا : فما قال هو ؟ ويقول المجيب : قال : كذا - أخـــرج الكـــلام ذلك المخرج لأن الناس خوطبوا بما يتعارفونه ، وسلك باللفظ معهم المسلك الذي يسلكونه ، وكذلك قوله : (قال ألا تأكلون) وذلك أن قوله : (فجـــاء بعجـــل سمـــين . فقربه إليهم) يقتضي أن يتبع هذا الفعل بقولٍ فكأنه قيل - والله أعلم - : فما قال حين وضع الطعام بين أيديهم ؟ فأتى قوله : (قال ألا تأكلون) جواباً عن ذلك)) ونبه على أن هذا الأسلوب مطردٌ في القرآن .[انظر : عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز ،ص٢٣٩].

٦ سورة البقرة : الآية ٣٠.

"وفصل الجواب ولم يعطف بالفاء أو الواو جرياً به على طريقة متبعة في القرآن في حكاية المحاورات ، وهي طريقة عربية قال زهير[1] :

قيل لهم ألا أركبوا ألا تا   قالوا جميعاً كلهم ألا فا

أي فاركبوا ، ولم يقل : فقالوا.

وقال رؤبة بن العجاج[2] :

قالت بنات العم : يا سلمى وإن   كان فقيراً معدماً ، قالت : وإن

وإنما حذفوا العاطف في أمثاله كراهية تكرير العاطف بتكرير أفعال القول ، فإن المحاورة تقتضي الإعادة في الغالب ، فطردوا الباب فحذفوا العاطف في الجميع ، وهو كثير في التنـــزيل"[3].

وبعد أن يسرد (ابن عاشور) أمثلة على ذلك يعود فيشير إلى أنه قد تعطف المحاورات بالفاء أو الواو مخالفة للاســـتعمال[4] ويوضح بأنه إنما كان ذلك لنكتة تقتضيه "وذلك إذا لم يكن المقصود حكاية التحاور ، بل قصد الإخبار عن أقوال جرت ، أو كانت الأقوال المحكية مما جرى في أوقات متفرقة أو أمكنة متفرقة "[5].

ولكـــن قد يقع اللبس في حكاية بعض المحاورات في القرآن اعتماداً على هذا ، ففي حكاية حوار أهل النار في ســـورة (ص) يقـــول تعالى : ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ۞ قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ ۞ قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ﴾[6] فـــإن قولـــه تعالى : (قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا) هو من كلام الذين قالوا: (قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ)[7] فالإشكال يقع من أمرين : إعادة فعل القول والقائل واحد ، وتجريد فعل القول الثاني من العطف خلافاً للقاعدة المذكـــورة ! ، وفي الإجابـــة عـــلى ذلك يقول (ابن عاشور) : "فأما إعادة فعل القول ، فلإفادة أن القائلين هم الأتباع، فأعيد القول تأكيداً للفعل الأول لقصد تأكيد فاعل القول تبعاً لأنه يحتمل لضمير القائلين ... وأما تجريد فعـــل "قالوا" عن العطف فلأنه قصد به التوكيد اللفظي والتوكيد اللفظي يكون على مثال المؤكد ... ولا تلتبس

---

1 زهير بن أبي سلمى ربيعة بن رباح المزني : من مضر ، حكيم الشعراء في الجاهلية ، وفي أئمة الأدب من يفضله على شعراء العرب كافةً ، كان أبوه شاعراً وخاله شاعراً ، وأخته سلمى شاعرة ، توفي نحو (١٣ ق.هـــ) كانت قصائده تسمى الحوليات ، لأنه كان ينظمها وينقحها وينظر فيها فتخرج محككة منقحة مهذبة . [انظـــر : ابن سلام الجمحي ، طبقات الشعراء للجمحي ، ص٤١، ٤٤].

2 رؤبة بن عبد الله العجاج بن رؤبة التميمي أبو الجحاف : راجز من الفصحاء المشهورين ، من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية ، كان أكثر مقامه في البصرة ، وأخذ عنه أعيان أهل اللغة وكانوا يحتجون بشعره ، لما مات قال عنه الخليل : دفنا الشعر واللغة والفصاحة. والبيت من شواهد المغني ، وهو في همع الهوامع : ج٢،ص٦٢.

3 التحرير والتنوير : ج١، ص٣٨٧.

4 ممـــا عطف بالفاء مخالفة للاستعمال قوله تعالى : (فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون * فقال الملأ ...) سورة المؤمنون الآيات [٢٣ ،٢٤] ومما عطف بالواو قوله تعالى : (فأرسلنا فيهم رسولاً منهم أن اعبدوا ما لكم من إله غيره أفلا تتقون * وقال الملأ من قومه ...) سورة المؤمنون الآيات[٣٢، ٣٣].

5 ابن عاشور : التحرير والتنوير .ج١،ص ٣٨٧.

6 سورة ص: الآيات ٥٩-٦١

7 والدليل على ذلك ما ورد في سورة الأعراف الآية(٣٨)إذ يقول تعالى على لسان الأتباع: (...قالوا ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار...الآية).

حكاية هذا القول على هذه الكيفية بحكاية المحاورات فيحسب أنه من كلام الفريق الآخر لأن الدعاء بعنوان "مَن قَدَّمَ لَنَا هَـٰذَا" يُعيِّن أن قائليه هم القائلون"أَنتُمۡ قَدَّمۡتُمُوهُ لَنَا" وأن الذين قدموا لهم هم الطاغون»[1] .

- في الربط بالضمائر:

يهتم (ابن عاشور) بتحديد معاد الضمير كونها أحد أهم وسائل الربط في النّصّ – التي سندرسها في الفصل الأخير من هذا البحث – ومن الأمثلة التي تدل على اهتمام (ابن عاشور) بهذا اللون من الإحالة:

- تفسير مرجع الضمائر المختلفة في صورها في قوله تعالى : ﴿ وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَـٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَـٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ ۞ فَمَا كَانَ دَعۡوَىٰهُمۡ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴾[2] يقول (ابن عاشور) : «وأجري الضميران في قوله: (أَهۡلَكۡنَـٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا) على الإفراد و التأنيث مراعاة للفظ "قرية"، ليحصل التماثل بين لفظ المعاد ولفظ ضميره في كلام متصل القُرْب ، ثم أجريت ضمائر "القرية" على صيغة الجمع في الجملة المفرَّعة عن الأولى في قوله : (أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ ۞ فَمَا كَانَ دَعۡوَىٰهُمۡ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَآ ...) لحصول الفصل بين الضمير ، ولفظ معاده بجملة فيها ضمير معاده غير لفظ "القرية" وهو (بأسنا بياتاً) لأن (بياتاً) متحمّل لضمير البأس أي مبيِّتاً لهم ، وانتقل منه إلى ضمير "القرية" باعتبار أهلها فقال:(..أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ ۞ فَمَا كَانَ دَعۡوَىٰهُمۡ إِذۡ جَآءَهُم...)»[3].

- حين يحتمل معاد الضمير أكثر من وجه فإنه يوضح ذلك ويرجح ما يختاره منها ،ففي تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۞ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾[4] يقع التساؤل:على مَن يعود ضمير (إنه) . أيعود على (الإنسان) أم على (رَبِّ) ! فالقاعدة المعروفة أن يعود الضمير على أقرب مذكور، ولكن سياق الكلام –أحياناً– يبيح الخروج على هذا إذا لم يؤد ذلك إلى خلل كبير في المعنى . يقول (ابن عاشور) : «وضمير(وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ) عائد إلى الإنسان على حسب الظاهر الذي يقتضيه انتساق[*] الضمائر واتحاد المتحدَّث عنه. وهو قول الجمهور ... وقال ابن عباس والحسن[5]، وسفيان[6]: ضمير (وإنه) عائد إلى (ربه). أي : وإن الله على ذلك لشهيد ، والمقصود أن الله يعلم ذلك في نفس الإنسان .

---

١ التحرير والتنوير :ج٢٣،ص١٨٢.

٢ سورة الأعراف : الآيات ٤، ٥.

٣ التحرير والتنوير : ج٨،ص١٦.

٤ سورة العاديات :الآيات ٦، ٧.

* انتسق واتسق بمعنى واحد يقول صاحب القاموس المحيط : (نَسَقَ الكلام عطف بعضه على بعض ، والنَّسق محركة ، والتنسيق : التنظيم ... وتناسقت الأشياء وانتسقت وتنسَّقت بعضها إلى بعض) القاموس المحيط : مادة ن س ق .ص١١٩٤ .

٥ هو الحسن بن أبي الحسن بن يسار البصري إمام زمانه علماً وعملاً ، توفي (١١٠هـ) .

٦ هو سفيان بن عيينة الهلالي الكوفي : شيخ أهل الحجاز في الحديث والفقه والتفسير ، توفي (١٩٨هـ) .

وهــذا تعــريض بالــتحذير من الحساب عليه . وهذا يسوغه أن الضمير عائد إلى أقرب مذكور. ونُقِل عن مجــاهد[1]، وقــتادة[2] كلا الوجهين فلعلهما رأياً جواز المحملين ، وهو أولى))[3]. ويؤيد رأي الجمهور أن الآية الــتي تلت هذه الآية وهي قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾[4] لا يحتمل الضمير فيها أن يعود على غير (الإنسان).

- الربط باسم الإشارة :

يظهر (ابن عاشور) عناية لائقة بمظهر الربط باسم الإشارة ، وذلك في حالة ما إذا طال الفصل بين الكلام الســابق واللاحــق ، ومــن أمثلة ذلك تفسير مرجع اسم الإشارة في قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴾[5] فالظاهر من أول وهلة أن اسم الإشــارة يحــيل على متقدم في الكلام ، ولكنه محتمل لأكثر من معاد . لذلك يقول (ابن عاشور): ((جيء باسم الإشارة لربط الكلام اللاحق بالسابق ،على طريقة العرب في أمثاله ، إذا طال الفصل بين الشيء وما ارتبط به ، حكم أو علة أو نحوهما... والكلام السابق الأظهر أنه قوله: ﴿ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴾[6] والمعــنى : أهــم استحقوا العذاب على كتمانهم بسبب أن الله أنــزل الكتاب بالحق ؛ فكتمانهم شيئاً من الكــتاب كتمان للحق ، وذلك فساد وتغيير لمراد الله ... وعليه فالكتاب في قوله : (ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ) هو عين الكتاب المذكور في قوله :﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾[7] وهو كــتابهم الــتوراة والإنجيل ليكون الموضوع في العلة والحكم المعلَّل واحداً... ويجوز أن يكون المشار إليه الســابق هو الكتمان المأخوذ من (يكتمون) أي إنما كتموا ما كتموا بسبب أن الله نــزل الكتاب بالحق ، فعــلموا أنه على النعت الذي بشر الله به على لسان التوراة... والمعنى أنهم كتموا دلائل صدق النبي صداً وعناداً لأن الله أنــزل القرآن على محمد ، فالكتاب هنا غير الكتاب في قوله : (إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ) والجملة على هذا الوجه استئناف بياني))[8].

---

١ هو مجاهد بن جبر المكي : مولى السائب أحد التابعين الثقات ، وأحد العلماء في القراءات والتفسير ، سمع سعداً وعائشة وأبا هريرة وابن عمر وابن عباس (رضي الله عنهم) ولزم ابن عباس مدة وقرأ عليه القرآن ، روى عنه قتادة والأعمش ، والأئمة الستة ، توفي (١٠٣هـ) . [انظر : أبي عبدالله محمد بن أحمد الذهبي : تذكرة الحفاظ : مراجعة عبد الرحمن المعلمي ، دار الكتب العلمية – بيروت (١٣٧٤هـ) ،ج١،ص٩٢].

٢ هو قتادة بن دعامة التابعي : الحافظ العلامة البصري الكفيف المفسر ، حدث عن أنس وابن المسيب وخلق وحدث عنه شعبة ومعمر ، قال أحمد بن حنبل: قتادة عالم بالتفسير . ووصفه بالعلم والحفظ ، توفي (١١٨هـ) .[انظر : الذهبي : تذكرة الحفاظ ، ج١، ص١٢٢].

٣ التحرير والتنوير : ج٨،ص١٦.

٤ سورة العاديات:الآية ٨.

٥ سورة البقرة : الآية ١٧٦.

٦ سورة البقرة : الآية١٧٥.

٧ سورة البقرة : الآية ١٧٤.

٨ التحرير والتنوير : ج٢،ص١٢٥.

ونخلص من عرض هذه المبادئ التي نفترض أن (ابن عاشور) قد أخذ بها وبغيرها في فهم ظاهرة الانسجام ، ومن نصّه على مصطلحي (الانسجام) و(الاتساق) صراحة ؛ أن ذلك كله يشير إلى وجود تصور واضح لمنظومة وسائل الربط القائمة على القواعد النحوية (الاتساق) وعلاقات (الانسجام) القائمة على السياق النَّصّي والظروف المحيطة بالنَّصّ وأحوال المتلقي .

كما نستنتج أن عناية (ابن عاشور) بمناسبة اتصال الآيات في السورة الواحدة ، مكّنته من النظر إلى السورة القرآنية بوصفها وحدة واضحة العلاقات ، ولهذا كانت معقد الإعجاز والتحدي.

كما يظهر أيضاً : أن (ابن عاشور) يدرك خصوصية النَّصّ القرآني ، من جهة أن جميع نظرات المفسرين حول تناسبه وانسجامه ، إنما تعتمد على المتاح في نطاق القدرة البشرية – من تصور مراد الله تعالى من ذلك الترتيب ، وهي نظرة تتناسب وطبيعة أسلوب القرآن الكريم ، والغرض الذي أنزله الله له ، وتلك النظرة تمثل منهج التوسُّط في النظر إلى ظواهر الإعجاز في القرآن الكريم .

❑ مستويات تحليل النص عند (ابن عاشور) :

تــزداد أهمية الحديث عن مستويات تحليل النَّصّ عند (ابن عاشور) إذا ما رجعنا إلى المقدمات الأساسية في التحلــيل النَّصّــي في لســانيات النَّصّ وتحليل الخطاب ، التي تؤكد جميعها أن طبيعة الحديث عن انسجام النَّصّ تقتضي النظر إليه بوصفه وحدة كلية (الصوت ، والمعجم ، والتركيب ، والتداول) وإذا كانت اللسانيات النَّصّية تفهــم النَّصّ على أنه نسيج من تلك المظاهر، فإن التحليل النَّصّي لهذه المظاهر يقتضي توسيع عدسة التحليل إلى أبعد مدى تستوعبه عبارة الوصف وذلك لإدراك العلاقات التي تنظم النَّصّ و ترتُّب بناه المشكلة لــه . والسؤال المطروح الآن : إلى أي مدى استطاع (ابن عاشور) أن ينتقل بالتحليل اللغوي ؟ و بعبارة أخرى هل انتقل به من مستوى التحليل الجملي إلى التحليل النَّصّي وصفاً وممارسة ؟

لقــد حدد (ابن عاشور) أن دراسته لظاهرة انسجام النَّصّ القرآني تلتزم النظر إلى النَّصّ(السورة) بوصفها وحــدة متكاملة – كما أكدنا ذلك في أكثر من موضع – ولهذا فإنه يمكن إدراك علاقات بناء هذا النَّصّ وتناسقه بمزيد من التأمل و التدبر.

ومن خلال استقراء منهج (ابن عاشور) في دراسة المناسبة يتضح أن المستويات التحليلية لظاهرة الانسجام ترتبت حسب اتساعها في الفضاء المكتوب على النحو الآتي :

١- مستوى الانسجام النَّصّي (السورة) .

٢- مستوى الانسجام بين الآيات في السورة :(الغرض الواحد للآية والأغراض المختلفة للسورة).

٣- مستوى الانسجام في الآية الواحدة .

ومع أن الجملة تمثل الوحدة الأولى في التحليل النَّصّي ، إلا أن أسلوب القرآن اعتمد على الآية وحدة أولى تــتكون منها السور القرآنية ، وهي وحدة أدنى من النَّصّ (السورة) – كما اختار هذا البحث – وفوق الجملة، إذا أحلنا ذلك على أوسع مفهوم للنص والخطاب .

وإذا كانــت هــذه المستويات الثلاثة تمثل ظاهر النَّصّ وفق التعبير الحديث فإن هناك مستوى آخر يربط الــنَّصّ بمحيطه ومتلقيه وقد أولاه (ابن عاشور) عناية خاصة ، وتنبه إلى أهمية رعايته عند تحليل ظاهرة الانسجام. وفيما يلي عرضٌ لمستويات التحليل هذه كما ألفينا ذلك في مظانه من تفسير التحرير والتنوير:

أولاً مستوى الانسجام النَّصّي (السورة) :

تقــدّم في عــرْضِ مجمــل المبادئ التي يُفترض أنها تمثل المنطلقات والمحددات المنهجية لمفهوم (ابن عاشور) للانســجام – الإشارةُ إلى عناية (ابن عاشور) بدراسة مقاصد وأغراض النَّصّ (السورة) وإرجاعه أحد أهم علل ترتيب الآيات وتسويرها إلى مقتضيات تلك المعاني المتناسبة.

ونبين الآن أبرز الجوانب التي تجلت فيها ظاهرة انسجام السورة ، وتميزت بها كل سورة من غيرها. حيث تعد الإشارة إليها تحليلاً يتم على مستوى النَّصّ ، لا على مستوى أجزائه (الآيات) المكونة لـه . وقد اتضح من الاستقراء الشامل لتفسير (ابن عاشور) أنه يقوم بتحليل الانسجام على مستوى النَّصّ من خلال المكونات الآتية:

١ – موقع السورة:

لئن كان الحديث عن مناسبة مواقع سور القرآن وترتيبها في السياق العام للنص القرآني قد مثّل أحد مظاهر الاهتمام التي توجهت إليها أنظار بعض المفسرين ، فإن (ابن عاشور) قد قرر مسبقاً أن ذلك المبحث مما لا يراه حقاً على المفسر أن يعتني به .

ولعل السبب يعود إلى استناده إلى الخلاف المذكور في ترتيب بعض سور القرآن الكريم،وعلى ما تقرّر لديه من أن المصاحف الأولى التي كتبها الصحابة لأنفسهم في حياة النبي (صلى الله عليه وسلم) كانت مختلفة في ترتيب مواقع بعض السور .

كما يستند إلى ما صحَّ من عدم وجوب القراءة على ترتيب السور ، وأن النهي الوارد عن قراءة القرآن منكّساً إنما كان المراد منه النهي عن أن يقرأ القارئ السورة من آخرها إلى أولها[١].

ومع هذا كله نجد أن (ابن عاشور) يعطي لمحات سريعة في بيان مناسبة مواقع بعض السور ، التي اشتهر موقعها أو ترتيبها ولم يقع عليه خلاف ومن ذلك :

- موقع سورة الفاتحة :

يتابع (ابن عاشور) في بيان موقع هذه السورة ما ذَكَره قدماء المفسرين[٢] عن مناسبة موقعها فيقول : ((وهذه السورة وضعت في أول السور لأنها تنزل منها منزل ديباجة الخطبة أو الكتاب، مع ما تضمنته من أصول مقاصد القرآن ... وذلك شأن الديباجة من براعة الاستهلال))[٣] ويظهر أن (ابن عاشور) يتناول موقع هذه السورة من جهة منزلتها البنائية (ديباجة الخطبة أو الكتاب – براعة الاستهلال) ثم من ناحية تضمنها أصول موضوعات بقية سور القرآن الكريم ومقاصدها[٤] وهما علاقتان متكاملتان إذا نظر إليهما الناظر

---

١ انظر المقدمة الثامنة لتفسير التحرير والتنوير .ج١.ص٨٥،٨٤ . وقد تقدم في الفصل الأول من هذا البحث مناقشة هذا الموضوع . وقد ورد عن أبي عبد الله حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما قال : (صليت مع النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة فافتتح البقرة، فقلت يركع عند المائة، ثم مضى فقلت: يصلي بها في ركعة ، فمضى فقلت يركع بها ، ثم افتتح النساء فقرأها ثم افتتح آل عمران فقرأها ، يقرأ مترسلاً ...) [انظر : أبي زكريا يحيى بن شرف النووي : رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين ، خرّج أحاديثه وضبطه : محمد الحصري ، المكتب العالمي للطباعة النشر – بيروت لبنان ، د.ت ، ص٥٠-٥١].

٢ يقول الإمام الطبري : ((وسميت فاتحة الكتاب لأنها يفتتح بكتابتها المصاحف ويقرأ بها في الصلوات فهي فواتح لما يتلوها من سور القرآن في الكتابة والقراءة. وسميت أم القرآن لتقدمها على سائر سور القرآن غيرها وتأخر ما سواها خلفها في القراءة والكتابة وذلك من معناها شبيه بمعنى فاتحة الكتاب . وإنما قيل لها لكونها كذلك أم القرآن لتسمية العرب كل جامع أمراً أو مقدماً لأمر – إذا كانت لـه توابع تتبعه هو لها إمام جامع أماً)) [انظر : جامع البيان في تفسير القرآن: ج١ ، ص٣٦].

٣ التحرير والتنوير : ج١،ص ١٣٣.

٤ اهتم كثير من المفسرين بهذا النوع من المناسبات اعتماداً على موقع سورة الفاتحة لبيان أصول العقائد وتاريخ الرسالات وجوامع الأوامر والنواهي وبينوا علاقة هذه السورة بسور القرآن جميعاً وكما اهتم السلف فقد أولى الخلف أيضاً هذه العناية ومنهم : الشيخ رشيد رضا ، والشيخ سعيد حوى ،وابن عاشور، وغيرهم.

المستصـــحب معه فترة نـــزول هذه السورة، وأنها ليست أول الآيات نـــزولاً فكأن اختيار هذا الموقع لهذه الحكمة العجيبة .

- موقع سورة المائدة:

يـــبين فـــيه (ابن عاشور) مناسبة موقع هذه السورة ، حيث يقول : ((وجعلت هذه السورة في المصحف قبل سورة الأنعام مع أن سورة الأنعام أكثر منها عدد آيات : لعل ذلك لمراعاة اشتمال هذه السورة على أغراضٍ تشبه ما اشتملت عليه سورة النساء عوناً على تبيين إحداهما للأخرى في تلك الأغراض))[1].

- موقع سورة الكهف :

يتحدث(ابن عاشور) عن مناسبة موقع السورة ، فيقول: ((لوضع هذه السورة على هذا الترتيب في المصحف مناســبة حسنة ألهم الله إليها أصحاب الرسول (صلى الله عليه وسلم) لمّا رتبوا المصحف ، فإنها تقارب نصف المصــحف ، إذ كـــان في أوائـــلها موضـــع قيل يُعدُّ نصف حروف القرآن وهو (التاء) من قولــه تعالى : ﴿ وَلْيَتَلَطَّفْ ﴾[2] ... وقيل نصف حروف القرآن هو(النون) من قوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴾[3] في أثـــنائها وهـــو نهايـــة خمسة عشر جزءاً من أجزاء القرآن ... فجعلت هذه السورة في مكان قرابة نصف المصـــحف، وهي مفتتحة بالحمد ، حتى يكون افتتاح النصف الثاني من القرآن بـــ(الحمد لله) وكما كان أول الربع الرابع منه – تقريباً– بـــ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[4]))[5].

- موقع سورة الشرح :

يـــربط (ابن عاشور) بين موقعي سورتي الضحى والشرح، من جهة المضمون ، حيث يمثل ما في سورة الشرح حجـــةً ودلـــيلاً عـــلى مضمون ما قبلها ، فيقول في موقع سورة الشرح : ((مضمونها شبيه بأنه حجة على مضمون سورة الضحى، تثبيتاً له[أي النبي (صلى الله عليه وسلم)] بتذكيره سالف عنايته به))[6] .

- موقع سورة القدر :

وهـــو شبيه بالسابق ، إلا أنه ينظر فيه إلى وجه من العلاقة المعتمدة على إحالة الضمير الواقع في افتتاح سورة القـــدر (أنـــزلـــناه)[7] على سورة العلق ، حيث يشير (ابن عاشور) إلى أن ((من تسديد ترتيب المصحف أن

---

1 التحرير والتنوير : ج ٥،ص٧.

٢ سورة الكهف : الآية ١٩.

٣ ســـورة الكهف : الآية ٧٤. وقد قال ابن عطية في هذه الآية : ((ونصف القرآن بعد الحرف (ن) أو ينتهي إلى النون من قوله (نكراً)))انظر المحرر الوجيز ص١٢٠٥.

٤ سورة فاطر : الآية ١.

٥ التحرير والتنوير :ج١٥،ص٩.

٦ المصدر نفسه : ج٣٠،ص٣٥٩.

٧ من قوله تعالى : (إنا أنـــزلناه في ليلة القدر)[سورة القدر: ١].

وضـــعت سورة القدر عقب سورة العلق مع أنها أقل عدد آيات من سورة البينة وسور بعدها ، كأنه إيماء إلى أن الضمير في (أنـــزلناه) يعود إلى القرآن الذي ابتدئ نـــزوله بسورة العلق))[١] .

هـــذه هـــي المواضع الوحيدة في تفسير (ابن عاشور) لبيان مناسبة موقع السورة ؛ والذي يتضح من هذه الإشارات القليلة عدة أمور أهمها :

- يرى (ابن عاشور) أن ترتيب مواقع بعض السور في المصحف من وضع الصحابة – كما أسلفنا – لذلك فإنـــه ينص على أن الله ألهم الصحابة أن يضعوا سورة الكهف –مثلاً– في ذلك الموضع ، كما أن موقع سورة القدر يُعد من تسديد ترتيب المصحف ، وهي إشارات واضحة تدعم الاستنتاج السابق .
- يتضـــح إدراك (ابـــن عاشور) لوحدة النَّصّ القرآني ، في حديثه عن مواقع بعض السور، وهو وإن كان مسبوقاً إلى ما ذُكِر في موقع سورة الكهف إلا أن ذلك الإلمام يمثل اكتمال الصورة عنده أثناء ممارسة التحليل النَّصّي .

كما يتضح أيضاً : أن ترتيب موقع النَّصّ ضمن متوالية النَّصّوص، له اعتبار في تأويل النَّصّ وإدارك علاقاته الداخلية ، فيكون السياق النَّصّي الأوسع هو المصحف الشريف كاملاً .

ولكـــن هذه الاستنتاجات لا يمكن تعميمها على مواقع بقية السور ، لذلك فإن منهج (ابن عاشور) – في دراســـة موقـــع الســـورة– يجعلنا على وعي بظروف نـــزول القرآن وترتيبه ، وهو أمر مهم بالنسبة إلى تأويل العلاقـــات بـــين السور، ولعل محاولة وضع قواعد لضبط ذلك – كما فعل السيوطي ،والبقاعي من المتقدمين ، وســـعيد حوى من المتأخرين – فيه من العناء والتكلف ما يجعل وحدة النَّصّ القرآني صوراً من العلاقات لا يعقلها إلا قليلٌ من أهل العلم والتخصص .

ومـــا دام الأمـــر المطلوب هو الوصول إلى فهم ظاهرة الانسجام في النَّصّ القرآني عموماً فيكفي في ذلك مجموع ما تُوصِلُنا إليه إشارات المفسرين عن مناسبة مواقع بعض السور كما فعل (ابن عاشور) في تفسيره .

٢– انسجام أغراض السورة :

يمثل الحديث عن أغراض السورة في تفسير (ابن عاشور) أحد المقومات الأساسية التي يعتمد عليها في إبراز ظاهـــرة الانسجام على المستوى النَّصّي وتحليلها ؛ وإذا كان ((الشرط الأدنى لترابط القضايا التي تعبر عنها جملـــة أو متتالـــية هو ارتباطها بموضوع (موضوعات) التخاطب نفسه))[٢] فإن قيام (ابن عاشور) بتحديد موضـــوع التخاطب الذي أطلق عليه مفهوم (أغراض السورة) يُعد مقياساً لمعرفة الحد الذي وصل إليه في تصور القضايا الكلية للنص.

---

١ التحرير والتنوير :ج٣٠،ص٤٠٢ .

٢ محمد خطابي : لسانيات النَّصّ ،ص٣٤

وقد عمد (ابن عاشور) إلى استخلاص أغراض السورة من سياق الآيات ، وتتبع الانتقالات، والإشارة إلى أسلوب القرآن في التخلص من غرض لآخر ، كما سلك أسلوباً آخر يقوم على تتبع المؤشرات الأسلوبية في النّصّ ، كتكرار وحدة لغوية (جملة أو كلمة مثلاً) لأن تكرارها في النّصّ دليل على وجود مقصد أسلوبي ، ومن أمثلة تكرار الجمل قوله تعالى:

- ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى ... ﴾ [1].
- ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ ...﴾ [2] .
- ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [3] .
- ﴿ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [4].
- ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [5] .

وغير ذلك مما يعده (ابن عاشور) مؤشراً على الانتقال بين الأغراض أو تأكيدها أو استئناف أغراض جديدة .

ومما التفت إليه (ابن عاشور) تكرار كلمة واحدة حين ترد بصورٍ مختلفة في السورة حيث يمثل ورودها مقصداً من مقاصد أغراض السورة . ومن ذلك ما أشار إليه في تفسير سورة مريم إذ يقول: "وقد تكرر في هذه السورة صفة (الرحمن) ست عشرة مرة وذكر اسم الرحمة أربع مرات فأنبأ بأن من مقاصدها تحقيق وصف الله تعالى بصفة "الرحمن"" [6].

إن عناية (ابن عاشور) ببيان مقاصد السورة وأغراضها، قد أخذت اتجاهات متعددة تؤول كلها إلى عنايته بمظهر التحليل في المستوى النّصّي . لذلك فانه يهتم ببيان علاقة هذه الأغراض بما يمكن أن يسمى أركان النّصّ ، ويتضح ذلك تفصيلاً في بحثه عن المناسبات الآتية :

أ – مناسبة عنوان السورة (أو لقبها) لأغراضها :

لا نجد في تفسير (ابن عاشور) احتفاءً مباشراً بهذا النوع من المناسبات ، بناءً على ما سبقت الإشارة إليه في الفصل الأول من هذا البحث من الخلافِ حول تسمية السور،واختيار (ابن عاشور) الرأي القائل بعدم التوقيف في تسمية جميع سور القرآن ، ولكن المتتبع للتفسير يجد إشارات خفية إلى هذا اللون من المناسبة .

---

١ سورة الفرقان : الآيات ١، ١٠، ٦١ . حيث عدها (ابن عاشور) مؤشرات لافتتاح أغراض السورة ودعاماتها ، ومثل هذا تكرر النداء بقوله تعالى : (يا أيها النبي)في سورة الأحزاب خمس مرات في افتتاح أغراض مختلفة من التشريع ، بعضها خاص به ،وبعضها يتعلق بغيره وله ملابسة به . [انظر التحرير والتنوير : ج ٢١،ص١٧٨].

٢ سورة مريم : الآيات ١٦، ٤١، ٥١، ٥٤، ٥٦ .

٣ سورة الشعراء : الآيات ٨، ٦٧، ١٠٢، ١٢١، ١٣٩، ١٥٨، ١٧٤،١٩٠ . فقد مثل تكرارها علاقة على اكتمال القصة .

٤ سورة الرحمن : ذُكِرت في (٣١) موضع من السورة .

٥ سورة المرسلات : الآيات١٥، ١٩، ٢٤، ٢٨، ٣٤، ٣٧، ٤٠، ٤٥، ٤٧، ٤٩ .

٦ ابن عاشور : التحرير والتنوير ج١٦، ص٧.

ونظراً لتعلق ذلك أساساً بأغراض السورة ومقاصدها فإن البحث في تفسير التحرير والتنوير قد أسفر عن نتيجة مفادها: أن (ابن عاشور) لم يشر إلى هذا اللون من المناسبة إلا في المواضع الآتية:

- سورة الفاتحة : حيث قدم (ابن عاشور) في بداية تفسير السورة الحديث عن اهتمام السلف بتفسير أسمائها التي وصل عددها عند السيوطي عشرين اسماً – بعضها ألقاب وصفات جرت على ألسنة القراء ، ولكن (ابن عاشور) يؤكد أنه ((لم يثبت في السنة الصحيحة ، والمأثور من أسمائها إلا فاتحة الكتاب ، والسبع المثاني ، وأم القرآن ،وأم الكتاب))[1] .

ولذلك فقد اقتصر على بيان مناسبة هذه الأسماء الثلاثة لأغراض السورة ، ونكتفي بحديثه عن مناسبة تسميتها (أم القرآن) حيث يسوق (ابن عاشور) وجوهاً ذَكَرَها الزَّمَخْشَريّ والقرطبي[2] والألوسي[3] والسيوطي وغيرهم ولم يسندها إليهم ، وخلاصة هذه الوجوه في تسمية الفاتحة أم القرآن[4] ما يلي:

- الوجه الأول : أنها مبدأ القرآن ومفتتحه فكأنها أصل الشيء ومنشؤه ... فجعلت كالأم للولد في أنها الأصل والمنشأ .
- الوجه الثاني : أنها تشتمل على أنواع مقاصد القرآن وهي : (الثناء على الله ، واثبات البعث ، والجزاء ، والأوامر والنواهي).
- الوجه الثالث : اشتمال معانيها على جملة معاني القرآن من الحكم النظرية والأحكام العملية .

ولا حاجة للتعليق على أن هذه التسمية مناسبة لأغراض السورة وإن كانت بعضها ألقاباً .

- سورة البقرة : ينص (ابن عاشور) على مناسبة أحد ألقاب هذه السورة لأغراضها وأغراض سور القرآن عموماً فيقول ((هذه السورة مترامية أطرافها ، وأساليبها ذات أفنان ، قد جمعت من وشائج أغراض السور ما كان مصداقاً لتلقيبها فسطاط القرآن ،فلا نستطيع إحصاء محتوياتها بحسبان ... وقد حِيكَت بنسج المناسبات ، والاعتبارات البلاغية ، من لُحمَة محكمة في نظم الكلام وسُدَىً متين من فصاحة الكلمات))[5]

ب – مناسبة فاتحة السورة لأغراضها :

تحظى فاتحة النَّصّ بتقدير خاص عند صاحب النَّصّ ، ورعاية من متلقيه ، وقد كان الأدباء والشعراء والكتاب يولون فواتح نصوصهم بالغ عنايتهم ، حيث نقل لنا أبو هلال العسكري[6] طرفاً من تلك العناية

---

١ التحرير والتنوير : ج١، ص١٥٩.

٢ محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرج الأنصاري الخزرجي أبو عبد الله : من كبار المفسرين . من كتبه : الجامع لأحكام القرآن المعروف بتفسير القرطبي ، والأسماء في شرح أسماء الله الحسنى . توفي سنة ٦٧٣هـ .انظر الأعلام : ج٥ ، ص٣٢٢ .

٣ شهاب الدين الألوسي : محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي ، شهاب الدين : مفسرٌ ومحدثٌ وأديب . من كتبه : روح المعاني في التفسير ، ودقائق التفسير . توفي سنة ١٢٧٠هـ . انظر الأعلام : ج٧ ، ص١٧٦.

٤ ابن عاشور : التحرير والتنوير . ج١ ،ص١٥٩. وانظر كذلك تفسير الكشاف : ج١ ،ص٤٥.

٥ التحرير والتنوير : ج١ ، ص٢٠٠-٢٠١.

٦ أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد اللغوي العسكري: من كتبه: جمهرة الأمثال، وكتاب معاني الأدب، وكتاب الفروق، توفي(٣٩٥هـ).
[انظر مقدمة كتاب الصناعتين : تحقيق الدكتور مفيد قميحة . دار الكتب العلمية ، بيروت . ط١ .(١٩٨١م)].

بهـذا الأمر ، فمن ذلك قول بعض الكتاب : ((أحسنوا معاشر الكتاب الابتداءات فإنهن دلائل البيان))[1] كمـا نقل لنا موقف الشاعر إسحاق بن إبراهيم الموصلي[2] ، بين يدي الخليفة العباسي (المعتصم)[3] وقد أنشد الموصلي شعراً ((في صفته وصفة المجلس ، إلا أن أوله تشبيب بالديار القديمة وبقية آثارها ، فكان أول بيت فيها :

يا دار غيّرك البلى فمحاك يا ليت شعري ما الذي أبلاك

فـتطير المعتصـم منها وتغامز الناس ، وعجبوا كيف ذهب على إسحاق مع فهمه وعلمه وطول خدمته للملوك ... الخ))[4] .

وقد كان للقرآن الكريم أسلوب متفرد في فواتح السور فلم تكن على نمط واحد ،وقد أشار (ابن عاشور) إلى تنوع القرآن وتفنن أسلوبه في افتتاح السور في المقدمة الثامنة .

واعـتماداً عـلى مـا في تنوع هذه الفواتح من المقاصد الأسلوبية فقد ردّ (ابن عاشور) رأي القائلين إن البسملة آية من كل سورة ، حيث يلزم من ذلك ذهاب ما في هذا التنوع من التفنن وشدّ انتباه السامعين ، ويلزم مـن ذلـك كما يقول (ابن عاشور) : ((أن تكون فواتح سور القرآن كلها متماثلة ، وذلك مما لا يحمد في كلام الـبلغاء ، إذ الشأن أن يقع التفنن في الفواتح ، بل قد عدّ علماء البلاغة أهم مواضع التأنق فاتحة الكلام وخاتمته، وذكـروا أن فواتح السور وخواتمها واردة علي أحسن وجوه البيان وأكملها ، فكيف يسوغ أن يُدَّعى أن فواتح سوره جملة واحدة، مع أن عامة البلغاء من الخطباء والشعراء والكتاب يتنافسون في تفنن فواتح منشآتهم،ويعيبون من يلتزم في كلامه طريقة واحدة فما ظنك بأبلغ كلام))[5].

وقـد جاءت تلك الفواتح المتنوعة المتشابهة مراعية لهذا المقصد الأسلوبي ، إضافة إلى ما تحققه هذه الفواتح من تمام الانسجام مع أغراض السورة التي بدئت بها .

لقـد سبقت الإشارة إلى اهتمام القدماء بتحليل وجوه المناسبة بين فواتح السور وموضوعاتها ؛لذلك فقد تـابعهم (ابـن عاشور) في تحليل مناسبة فاتحة السورة لأغراضها ، وقد أوصلته رعاية هذا المستوى التحليلي إلى وجوه من المناسبة يحسن عرضها في النقاط الآتية :

١ أبو هلال العسكري : كتاب الصناعتين ، ص٤٨٩.

٢ اسـحاق بن إبراهيم بن ميمون الموصلي : من أشهر ندماء الخلفاء ، تفرد بصناعة الغناء ، وكان عارفاً باللغة والتاريخ ، راوياً للشعر ، حافظاً للأخبار ، شاعراً ، فارسي الأصل ، مولده ووفاته ببغداد (ت٢٣٥هـ).

٣ هو أبو إسحاق محمد بن هارون الرشيد : الخليفة العباسي بويع له بالخلافة بعد موت أخيه المأمون سنة ٢١٨هـ ، فكانت خلافته ، توفي (٢٢٧هـ) . [انظر : أبي عبد الله محمد بن يزيد : تاريخ الخلفاء ، تحقيق محمد مطيع الحافظ ، مؤسسة الرسالة – بيروت. ط٢ (١٩٨٦م) ، ص ٤١].

٤ أبو هلال العسكري : كتاب الصناعتين ص٤٩٠.

٥ التحرير والتنوير : ج١، ص١٤٠.

١- الافتتاح بالبديع غير المألوف :

يوضح (ابن عاشور) أن القرآن الكريم أتى بأسلوب بديع في افتتاح السور لا عهد للعرب بمثله ، وعدَّ من مبتكرات القرآن الافتتاح بحروف التهجي مثل (آلم ، آلمص ، آلر ، آلمر،كهيعص ، طه ، طسم ، طس ، يس ، ص، حم ، ق ، ن) وقد رجح (ابن عاشور) من وجوه تفسير مجيء هذه الحروف في فواتح السور، ارتباطها بالإعجاز "كون تلك الحروف لتبكيت المعاندين وتسجيلاً لعجزهم عن المعارضة "[١] كما رجح – في الخلاف الدائر حول كونها آيات مستقلة أو لا ؟ – أنها آيات فقال: "والوجه –عندي– أنها آيات لأن بها دلالة تعريضية كنائية ، إذ المقصود إظهار عجزهم أو نحو ذلك فهي تطابق مقتضى الحال مع ما يعقبها في الكلام ، ولا يشترط في دلالة الكلام على معنى كنائي أن يكون له معنى صريح . بل تعتبر دلالة المطابقة[٢] في هذه الحروف تقديرية إن قلنا باشتراط ملازمة مقتضى المطابقة لدلالة الالتزام[٣]"[٤] ويستدل على ارتباط الافتتاح بهذه الحروف – بما فيها من التبكيت – وبما يعقبها من الحديث عن آيات القرآن، والكتاب ، والتنويه بها . ففي مطلع سورة البقرة المفتتحة بـ ﴿ الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[٥] ، يقول (ابن عاشور) : "ابتدئت بالرمز إلى تحدي العرب المعاندين ، تحدياً إجمالياً بحروف التهجي،المفتتح بها رمزاً يقتضي استشرافهم لما يرد بَعده ، وانتظارهم لبيان مقاصده، فأعقبت بالتنويه بشأن القرآن فتحول الرمز إيماءً إلى بعض المقصود من ذلك الرمز له أشد وقع على نفوسهم ، فتبقى في انتظار ما يتعقبه من صريح التعجيز الذي سيأتي بعد قوله : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾[٦]"[٧] .

إذن فالافتتاح بهذه الحروف له ارتباط بغرض التعجيز والتحدي ، ولا ينفك ذلك عن أغراض السورة ، مع ما في ذلك من التنبيه لما في النداء بها من أسلوب بديع غير مألوف،يستخدم في الرمز والإيماء إلى المقصود .

ولم يذهب (ابن عاشور) بعيداً كما فعل بعض المفسرين في محاولة –البحث عن مدلولات أخرى لهذه الحروف المفتتح بها السور، فقد كانت وحدها كافية للفت انتباه السامعين من العرب لما يتلى بعدها ، وتعاملوا وفق ذلك معها على أنها أساس مبدأ التحدي لذلك فإن السيوطي يجزم على هذا الأساس الدلالي فيقول: "والذي

---

١ التحرير والتنوير : ج١، ص٢١٣.

٢ دلالة المطابقة : هي دلالة اللفظ على تمام ما وضع له ، كدلالة الإنسان على الحيوان الناطق . [انظر : بدوي طبانة : معجم البلاغة العربية ، دار ابن حزم ، بيروت ط٤(١٩٩٧م) ، ص ٢٢٧].

٣ دلالة الإلتزام : هي دلالة اللفظ على لازم مسماه ، فإذا رأيت شبحاً من بُعد فقلت: أجماد هذا أم متحرك ماشٍ ؟ فقيل لك : هذا أسدٌ ، فهمت أنه متحرك ماشٍ لأن التحرك والمشي لازمان له. [انظر : بدوي طبانة : معجم البلاغة العربية ، ص٢٢٧].

٤ التحرير والتنوير :ج١، ص٢١٦.

٥ سورة البقرة :الآيات ١، ٢ .

٦ سورة البقرة : الآية ٢٣.

٧ التحرير والتنوير :ج١، ص٢٠١.

أقولـه لولا أن العرب كانوا يعرفون أن لها (أي حروف التهجي) مدلولاً متداولاً لكانوا أول من أنكر ذلك على النبي (صلى الله عليه وسلم) ... بل صرحوا بالتسليم له بالبلاغة والفصاحة مع تشوقهم إلى عثرة وحرصهم على زلّة ››[1] .

ولكـن كـلام (ابن عاشور) عن اطراد ذِكْر القرآن أو الكتاب عقب هذه الحروف ، أو الإشارة إلى آياته وتحـدي المعـاندين لا يؤخذ على إطلاقه ، إذ نجد ثلاث سور في القرآن تفتتح بحروف التهجي ولا يُذكر بعدها حديث عن القرآن ، وهذه الفواتح هي فاتحة سورة مريم:﴿ كٓهيعٓصٓ ۝ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴾[2] وفاتحـة سورة العنكبوت : ﴿ الٓمٓ ۝ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ [3] وفاتحة سورة الروم : ﴿ الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝ فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴾ [4] .

وهـو ما يؤيد القول إن هذه الحروف قد تأتي لغرض التنبيه صراحة و التحدي إذ ذاك تبعٌ لـه ، ومنها هذه المواضع ، وهو أحد الوجوه المعتبرة عند (ابن عطية) كما نصّ عليها في تفسيره[5] .

أمـا (ابـن عاشور) فإنه في تفسير مواضع الافتتاح بهذه الحروف من هذه السور الثلاث يستمسك بغرض الـتحدي فقـط ، ويعـدُّه هدفاً للاستفتاح ، ويبحث في آيات السورة عما يؤيد ذلك من إشارة إلى القرآن أو الكـتاب ، ففـي مطلع سورة العنكبوت يقول: ‹‹واعلم أن التهجي المقصود به التعجيز ، يأتي في كثير من سور القـرآن الكريم ، وليس يلزم أن يقع ذِكْر القرآن أو الكتاب بعد تلك الحروف ، وإن كان ذلك هو الغالب في سـور القرآن ما عدا ثلاث سور ، وهي فاتحة سورة مريم ، وفاتحة سورة العنكبوت ، وفاتحة سورة الروم على أن هـذه السورة لم تخلُ من إشارة إلى التحدي بإعجاز القرآن ، لقوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ [6]››[7] .

ولم ينبه (ابن عاشور) في مطلع سورة مريم أنه قد ورد فيها آية تشير إلى القرآن وهي قولـه تعالى:﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ...﴾ [8] وقولـه: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴾ [9]، ولا إلى ما في سورة العنكبوت من قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ

---

١ جلال الدين السيوطي : الاتقان .ج٢،ص٢٠.

٢ سورة مريم : الآيتان ١، ٢.

٣ سورة العنكبوت : الآيتان ١ ، ٢.

٤ سورة الروم : الآيات ١-٣.

٥ انظر المحرر الوجيز : ص ٥٠.

٦ سورة العنكبوت : الآية ٥١.

٧ التحرير والتنوير : ج٢٠، ص١٢٨.

٨ سورة مريم : الآيات ١٦، ٤١، ٥١، ٥٤، ٥٦.

٩ سورة مريم : الآية ٩٧.

ٱلْمُبْطِلُونَ • بَلْ هُوَ ءَايَـٰتُۢ بَيِّنَـٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾[1] كمـا لم ينبه إلى ما في سورة الروم من ذِكْر للقرآن في قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ • وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾[2]وقولـه تعـالى : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴾[3].

ولكنه أشار إلى هذا المعنى إجمالاً في حديثه عن مناسبة وقوع هذه الأحرف في فواتح السور ، وذلك حيث يقـول: ((وتظهر المناسبة لوقوعها في فواتح السور أن كل سورة مقصودة بالإعجاز لأن الله تعالى يقول : ﴿ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾[4] فناسب افتتاح ما به الإعجاز بالتمهيد لمحاولته))[5] .

و الـذي يظهـر أن للافتـتاح بحروف التهجي غرضاً آخر غير التحدي ، نلمسه في هذه السور الثلاث صراحة ، وندركه في غيرها تأملاً ، وقد ألمح إلى ذلك الغرض الأسلوبي البديع ، أبو هلال العسكري ، حين قال: ((وإذا كـان الابـتداء حسناً بديعاً ،ومليحاً رشيقاً كان داعيةً إلى الاستماع لما يجيء بعده من الكلام ولهذا المعنى يقـول عز وجل: الم وحم وطس وطسم وكهيعص . فيقرع أسماعهم بشيء بديع ليس لهم بمثله عهد ليكون ذلك داعية لهم إلى الاستماع لما بعده والله أعلم بكتابه))[6] .

ومـلاك الأمر فيما تقدم : أن هذه الحروف ، مع ما يأتي بعدها ، تشكل بمجموعها افتتاح السورة بالبديع غـير المـألوف ، ولذلـك تتناسب مع أغراضها . يقول (ابن عاشور) في افتتاح سورة الأعراف: ((افتتحت هذه السورة بالتنويه بالقرآن ، والوعد بتيسيره على النبي (صلى الله عليه وسلم) ليبلغه ، وكان افتتاحها كلاماً جامعاً لما اشتملت عليه السورة من المقاصد))[7].

وحين نتذكر أن السُّور التي افتتحت بهذه الحروف ، هي تسع وعشرون سورة ، ومنها سورتان مدنيتان هما البقرة وآل عمران ، فإن القول بالجمع بين مقصدي التحدي والتنبيه يزداد رسوخاً ، كما يشعرنا ذلك بأثر هذه الفواتح في إدهاش المتلقين ، وقد كان الإيماء والرمز بها يمثل علامة ملفتة على ورود نصّ محكم بديع معجز ، يأتي عقبها من جنس هذه الحروف ، والله أعلم بمرادها .

---

1 سورة العنكبوت:الآيتان ٤٨- ٤٩.

٢ سورة الروم: الآيتان ٥٢، ٥٣.

3 سورة الروم:الآية ٥٨.

٤ سورة البقرة : ٢٣.

٥ التحرير والتنوير : ج١، ص٢١٠.

٦ كتاب الصناعتين : ص٤٩٦ .

٧ التحرير والتنوير : ج٨، ص٧.

٢- الافتتاح بالبديع النادر:

يصــف (ابن عاشور) ألواناً من افتتاح السور في القرآن بأنها من الافتتاح بالبديع النادر،ويبرهن على ندرة هــذه الافتتاحات بإجراء إطلالة على فواتح القصائد العربية الجاهلية . ففي تفسير سورة الفرقان ينبه (ابن عاشــور) أن افتتاح هذه السورة بقوله : (تبارك) افتتاح بديع لندرة أمثاله في كلام بلغاء العرب ، ويعلل ذلك قائلاً : "لأن غالب فواتحهم أن تكون بالأسماء المجرّدة أو مقترنة بحرف غير منفصل مثل قول طَرَفَة[1]:

لِخَولَةَ أطلالٌ بِبَرقَةَ ثهمد [2]

أو بأفعال ... كقول امرئ القيس [3]:

قفا نبكِ من ذِكْرى حبيبٍ ومنــزلِ

أو بحروف التأكيد أو الاستفهام أو التنبيه مثل (إنّ) (قَدْ) والهمزة ، و(هل) [4].

ومن قبيلِ هذا الافتتاح (افتتاح سورة الفرقان) قول الحارث بن حلّزة[5] :

آذنتنا بِبَينِها أَسْماءُ [6]

وقول النابغة :

كتمتكِ ليلاً بالجَمُومَينِ ساهراً　　　　وهمّين همّاً مستكناً وظاهراً [7]

---

[1] هو طرفة بن العبد بن سفيان :شاعر من الطبقة الرابعة ، قال ابن سلام: "فأما طرفة فأشعر الناس واحدة وهي قوله : "لخولة أطلال"...إلخ ". [طبقات الشعراء : ص٥٣] .

[2] البيت من معلقة طرفة بن العبد من (بحر الطويل) وتمامه : لخولة أطلال ببرقة ثهمـــد　　تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد

وبليه : وقوفاً بها صحبي عليّ مطيَّهم　　يقولون لا تهلك أسىً وتجلَّـــد

[انظر المعلقات السبع للزوزني : تحقيق ونشر دار الحياة ، بيروت ط(١٩٩١م)ص٩١].

[3] هو امرؤ القيس بن حجر بن الحارث ، من الطبقة الأولى في شعراء الجاهلية ، يكنى بذي القروح والملك الضليل . [ابن سلام : الطبقات : ص٤١] .

والبيت من معلقته و تمامه :قفا نبك من ذِكْرى حبيب ومنــزل　　بسقط اللوى بين الدخول فحومل

وبليه : فتوضحَ فالمِقْراةَ لم يعفُ رسمهـــا　　لِمَا نسجتهـــا من جنوبٍ وشمْأل

[انظر المعلقات السبع للزوزني ص٢٩].

[4] فمما وقع به الافتتاح بالاستفهام معلقة عنترة التي مطلعها :

هل غادر الشعراء من مُتَرَدَّمِ　　أم هل عرفت الدار بعد توهم

ومعلقة زهير التي مطلعها : أمِنْ أُمِ أوفى دِمنةٌ لم تَكَلَّمِ　　بحومانةِ الدّراج فالمتثــــلم

ومن الافتتاح بالتنبيه افتتاح معلقة عمرو بن كلثوم التي مطلعها :

ألا هُبّي بصحنك فاصبحينا　　ولا تُبقي خمور الأندرينا

ومن افتتاح قصائدهم بـــ(قد) – وهو قليل – فاتحة قصيدة أعشى بني نهشل (الأسود بن يعفر) التي أوردها المفضل الضبي ومطلعها :

قد أصبح الحبلُ من أسماء مصروما　　بعد ائتلاف وحبٍ كان مكتوما

انظر : المفضل بن محمد بن يعلى الضبي : المفضليات.تحقيق أحمد محمد شاكر و عبد السلام محمد هارون ، دار المعارف ط١ (١٩٩٢م) ص٤١٨.

[5] هو : الحارث بن حلزة بن مكروه اليشكري : شاعر قديم ، من المقلين ، يقال أنه ارتجل معلقته هذه بين يدي عمرو بن هند ارتجالاً . انظر المفضليات : ص١٣٢.

[6] البيت من قصيدة للحارث بن حلزة من (بحر الخفيف)وتمامه: آذنتنـــا ببينها أسماء　　رب ثاوٍ يُمَلُّ منه الثـــواء

وبليه :آذنتنا ببينها ثمّ ولّت　　ليت شعري متى يكون اللقاء

[انظر المعلقات السبع للزوزني: ص٢٦٣].

[7] البيت مطلع قصيدة له (من بحر الطويل) وبعده : أحاديثُ نفسٍ تشتكي ما يريبها　　ورِرْدِ هموم لم يجدن مصادرا .

انظر : ديوان النابغة الذبياني ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . دار المعارف . مصر . ط(١٩٧٧م) . وقد جمع محمد الطاهر بن عاشور ، ديوان النابغة وحققه وشرحه ، وطريقته في الشرح ذِكْر أبيات الشعر مرتبةً على حروف القوافي ثم التنبيه إلى ما هو من شعر غيره منسوباً إليه ، وقد شرح مفرداته ، وقام بإعرابها لبيان معانيها .

وبهذه الندرة يكون في طالع هذه السورة براعة المطلع ، لأن الندرة من العِزَّة ، و العِزَّة من محاسن الألفاظ وضدها الابتذال))[1].

ثم يبين (ابن عاشور) مناسبة الافتتاح بلفظ (تبارك) لأغراض السورة ، حيث ينظر إلى السورة نظرةً شاملة بالاعتماد على هذا اللفظ المتكرر فيها فيقول: ((أقيمت على ثلاث دعائم : إثبات أن القرآن من عند الله والتنويه بالرســول ، واثبات البعث والجزاء ، والاستدلال على وحدانية الله وتنــزيهه ... وافتتحت في آيات كل دعامة من هذه الثلاث بجملة (تبارك الذي)))[2] .

ومما وصفه (ابن عاشور) بالعزيز غير المألوف من فواتح السور ، فاتحة سورة النبأ،حيث افتتحت بقولـه تعـالى: ﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴾[3] فقـد أبان (ابن عاشور) عن قيمة الافتتاح بالاستفهام ، وارتـباطه بما دخل عليه من أغراض السورة ، فقال: ((افتتاح الكلام بالاستفهام عن تساؤل جماعة عن نبأ عظيم افتـتاح تشويق ثم تهويل لما سيذكر بعده ، فهو من الفواتح البديعة ، لما فيها من أسلوب عزيز غير مألوف ، ومن تشـويق بطريقة الإجمال ثم التفصيل المحصلة لتَمكُّن الخبر الآتي بعده في نفس السامع أكمل تمكُّن . وإذ كان هذا مؤذنـاً بعظيم أمر كان مؤذناً بالتصدِّي لقولٍ فصلٍ فيه ،ولما كان في ذلك إشعارٌ بأهم ما فيه خوضهم يومئذٍ يجعل افتتاح الكلام به من براعة الاستهلال))[4].

أما عن انسجام فاتحة هذه السورة بأغراضها فيقول (ابن عاشور) في تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴾[5] ((هذا بيان لما أجمله قوله : ﴿ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴾[6] وهو المقصود مـن سياق الفاتحة التي افتتحت بها السورة))[7] وفي هذا الكلام إشارة من (ابن عاشور) لأثر افتتاح السورة بهذا الأسلوب العزيز النادر الذي يأتي ملخَّصاً لأغراض السورة ، ويكون ما بعده من الآيات تفصيلاً له .

ولم يصلح أن يلحق هذا اللون من الفواتح باللون الأول ، مع وصف (ابن عاشور) له بأنه غير مألوف، لأن اللـون الأول أكـثر غرابةً من هذا اللون على أسماع العرب ، فالأول بحروف التهجي المجردة عن المعاني ، وهذا بالألفاظ والكلمات المعلومة المعاني ، كما أن (ابن عاشور) جعل هذا اللون الأخير عزيزاً نادراً وليس بديعاً مبتكراً كسابقه .

ويـلحق هـذا اللون من ألوان الافتتاح بالبديع النادر ، افتتاح السورة بكلمة لم يألفها السامعون ، ليجعلهم بها مترقـبين لما سيرد من الخبر عنها ومن ذلك افتتـاح سورة الرحمن :يقول (ابن عاشور) في تفسير سورة الرحمن

---

١ التحرير والتنوير : ج١٩، ص٧.

٢ المصدر نفسه: ج١٩ ، ص٦.

٣ سورة النبأ : الآيات ١، ٢ . ومنه الإفتتاح بـ(هل) في سورتي الدهر والغاشية .

٤ التحرير والتنوير : ج٣٠، ص٦.

٥ سورة النبأ: الآية ١٧.

٦ سورة النبأ : الآيتين ٢ ، ٣.

٧ التحرير والتنوير ج٣٠، ص٢٦.

"من بديع أسلوبها افتتاحها الباهر باسمه "الرحمن" وهي السورة الوحيدة المفتتحة باسم من أسماء الله لم يتقدمه غيره"[1].

ويشرح علّة اختيار هذا الاسم من بين أسماء الله الحسنى للافتتاح ، وعلاقة ذلك بأغراض السورة فيقول: "وافتتح باسم الرحمن ، فكان فيه تشويق لجميع السامعين إلى الخبر الذي يخبر عنه . إذ كان المشركون لا يألفون هذا الاسم ، قال تعالى: ﴿ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَـٰنُ ﴾[2] فهم إذا سمعوا هذه الفاتحة ترقبوا ما سيرد من الخبر عنه، والمؤمنون إذا طرق أسماعهم هذا الاسم استشرفوا لما سيرد من الخبر المناسب لوصفه هذا مما هم متشوقون إليه من آثار رحمته ... ولأن معظم هذه السورة تعداد للنعم و الآلاء فافتتاحها باسمه "الرحمن" براعة استهلال "[3] .

ونخلص من كلام (ابن عاشور) السابق أن افتتاح هذه السورة (بلفظ) لم يألفه السامعون قد أدى إلى تحقيق غرضين أسلوبيين : الأول :استثارة المستمع لما سيأتي من الخبر ، والثاني:تحقيق الانسجام بين فاتحة السورة وأغراضها المتمثلة في ما عدد الله فيها من النعم والآلاء ، وذلك هو ما وصف ببراعة الاستهلال ؛ كما أن (ابن عاشور) حين يشير إلى أن هذا "الاسم" مما لم يألفه العرب ، لم يكن مبالغاً كما بالغ غيره ممن زعم عدم معرفة العرب لهذا الاسم أصلاً ، مستدلين بالآية الكريمة من سورة الفرقان : ﴿ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَـٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا ﴾[4] وقد أورد هذا القول الأخير ، وردّ عليه الإمام عبد الحق بن عطية في تفسيره ، حيث يقول: "وقال قوم : إن العرب كانت لا تعرف لفظة الرحمن ، ولا كانت في لغتها، واستدلوا على ذلك بقول العرب (وَمَا ٱلرَّحْمَـٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا) ، وهذا القول ضعيف ، وإنما وقفت العرب على تعيين الإله الذي أمروا بالسجود له لا على نفس اللفظ "[5] .

فهو إذن من الأسماء الحسنى التي حرص القرآن على تأكيد معانيها وتفصيلها ، ولهذا جعل فاتحة السورة الكريمة . ويشهد لهذا أن (ابن عاشور) قد تعرض لما تناقله بعض المفسرين حول هذا المعنى فقال:"قد قيل : إن هذه السورة نزلت بسبب قول المشركين في النبي (صلى الله عليه وسلم):(إنما يعلمه بشر) أي يعلمه القرآن ، فكان الاهتمام بذِكْر الذي يُعلّم النبي (صلى الله عليه وسلم) القرآن أقوى من الاهتمام بالتعليم ، وأوثر استحضار الجلالة باسم "الرحمن" دون غيره من الأسماء لأن المشركين يأبون ذِكْره"[6].

---

١ التحرير والتنوير : ج٢٧،ص٢١٦.

٢ سورة الفرقان : الآية ٦٠.

٣ التحرير والتنوير ج٢٧، ص٢١٧.

٤ سورة الفرقان : الآية ٦٠.

٥ المحرر الوجيز : تفسير البسملة ،ص٣٨.

٦ التحرير والتنوير ج٢٣، ص٢١٧.

١-الافتتاح الاحتفالي :

اهتم (ابن عاشور) ببيان صورة أخرى من صور افتتاح السور القرآنية ، وهي التي أطلق عليها مُسمى (الافتتاح بالاحتفال) وذلك نحو الافتتاح بقوله : (الحمد لله) . يقول (ابن عاشور) في تفسير سورة الفاتحة: ((الشأن في الخطاب بأمر مهم لم يسبق للمخاطب به خطاب من نوعه أن يستأنس له قبل إلقاء المقصود ، وأن يهيأ لتلقيه ، وأن يشوّق إلى سماع ذلك))[١].

ثم وضح (ابن عاشور) ما تشير إليه مقدمة هذه السورة من قواعد إنشاء المقدمات ؛ فأولها الإيجاز ، وثانيها الإشارة إلى الغرض المقصود وهو ما يسمى براعة الاستهلال[٢] لأن ذلك يهيئ السامعين لسماع تفصيل ما سيرد عليهم ، وثالثها أن تكون المقدمة من جوامع الكلم ، والرابع أن تفتتح بحمد الله.

ومن ألوان الافتتاح الاحتفالي : الافتتاح بالنداء كقوله : (يا أيها الناس) و(يا أيها الذين آمنوا) و(يا أيها النبي) فينبه السامعين إلى أهمية ما يرد بعد ذلك النداء ، وذلك مثل : افتتاح سورة النساء ، وسورة المائدة، وسورةالحج ، وسورة الأحزاب ، وسورة الممتحنة ، وسورة الحجرات .

ومن ألوان الافتتاح الاحتفالي المشوق : الافتتاح بالقسم نحو افتتاح سورة القيامة فإن ((افتتاح السورة بالقسم مؤذن بأن ما سيذكر بعده أمرٌ مهم لتستشرف به نفس السامع ، وكون القسم بيوم القيامة براعة استهلال لأن أغراض السورة وصف يوم القيامة))[٣] .

ومن ألوان الافتتاح المشوق : الافتتاح بظرف زمان بينه وبين متعلقه فاصل طويل ، نحو افتتاح سورة التكوير . يقول (ابن عاشور) : ((الافتتاح بـ(إذا) ظرف يستدعي متعلقاً ، ولأنه أيضاً شرط يؤذن بذِكْر جواب بعده ، فإذا سمعه السامع ترقب ما سيأتي بعده فعندما يسمعه يتمكن من نفسه كمال تمكن ، وخاصة بالإطناب بتكرير كلمة (إذا) وتعدُّدِ الجمل التي أضيفت إليها اثني عشر مرة))[٤] .

٢-الافتتاح المباشر :

ومن ألوان الافتتاح في القرآن الافتتاح بالهجوم على الغرض دون مقدمات وذلك نحو افتتاح سورة القتال بقوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾[٥] وفي هذا يقول (ابن عاشور) : ((افتتحت

---

١ التحرير والتنوير : ج١ ،ص١٥٠.

٢ براعة الاستهلال :يذكر هذا اللون البديعي في كتب المتقدمين ضمن ما سمي بحسن الابتداء ، أما علماء البلاغة المتأخرين فإنهم رأوا فيه زيادة على حسن الابتداء ، واشترطوا لبراعة الاستهلال في النظم مثلاً : ((أن يكون مطلع القصيدة دالاً على ما بنيت عليه مشعراً بغرض الناظم من غير تصريح بل بإشارة لطيفة...وما سمي هذا النوع (براعة الاستهلال) إلا لأن المتكلم يُفهِم غرضه من كلامه عند ابتداء رفع صوته ... ومما وقع من براعة الاستهلال التي تشعر بغرض الناظم ... قصيدة الفقيه نجم الدين عمارة اليمني ،حيث قال :

إذا لم يسالمكَ الزمانُ فحاربِ وباعدْ إذا لم تنتفعْ بالأقاربِ

فإشارته من العتب والشكوى لا تخفى على أهل الذوق ... ويفهم منها أن بقية القصيدة تعرب عن ذلك)) .[انظر : بدوي طبانة : معجم البلاغة العربية ص٧٣].

٣ ابن عاشور : التحرير والتنوير ج٢٩ ،ص٣١١.

٤ المصدر نفسه :ج٣٠،ص١٢٤.

٥ سورة محمد : الآية ١ .

بما يثير حنق المؤمنين على المشركين ... صُدِّر التحريض على القتال بتوطئة لبيان غضب الله على الكافرين...وفي الابـــتداء بالموصول والصلة المتضمنة كفر الذين كفروا ومناوأتهم لدين الله تشويق لما يرد بعده من الحكم المناسب للصلة وإيماء بالموصول وصلته إلى علة الحكم عليه بالخبر . أي لأجل كفرهم وصدهم ، وبراعة استهلال للغرض المقصود))[١] .

ومـــن ذلـــك الافتتاح بكلمة واحدة وتكرارها بصيغة صرفية محددة توجيهاً بالتهويل والتفظيع نحو افتتاح سورة الحاقة بقوله تعالى : ﴿ ٱلْحَآقَّةُ ۞ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۞ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴾[٢] وذلك لترويع السامعين . يقول (ابن عاشور) : ((وإيثار هذه المادة وهذه الصيغة يسمح باندراج معان صالحة بهذا المقام فيكون ذلك مكمن الإيجاز الـــبديع لتذهـــب نفوس السامعين كل مذهب ممكن من مذاهب الهول والتخويف بما يحق حلوله بهم ... وافتتاح السورة بهذا اللفظ ترويع للمشركين))[٣] .

وفي ســـورة القارعة يقول (ابن عاشور) : ((الافتتاح بلفظ (القارعة) افتتاح مهول وفيه تشويق إلى معرفة ما سيخبر بعده))[٤] .

ج – مناسبة خاتمة السورة لفاتحتها :

مثـــلما أظهر (ابن عاشور) اهتماماً بفاتحة السورة وتبيين قيمتها الأسلوبية في تحقيق إدماج عناصر التشويق والإدهـــاش والتحدي والإمتاع إضافة إلى تحقيق غايات التدرج في ترتيب الأغراض ، بدءاً بإجمال أغراض السورة في كلماتها وآياتها الأولى – تأتي عناية (ابن عاشور)كذلك بخاتمة السورة ، بناءً على أن خاتمة النَّصّ لهـــا منـــزلة كتلك التي لفاتحته ، وتلك سنة متبعة في البيان العربي ، حيث كان الشعراء والأدباء يتفاوتون في بلـــوغ هـــذا المطلـــب البديعي ، حتى احتاج الأمر إلى تذكيرهم بها في بدايات التأليف النقدي وذلك بالحديث عن القواعد التي يجب على الشعراء ترسمها في كتابة قصائدهم .

ومـــن ذلك قولهم : ((ينبغي أن يكون آخر بيت قصيدتك أجود بيت فيها ، وأدخل في المعنى الذي قصدت له في نظمها))[٥].

وقد مثل أبو هلال العسكري لهذه الإجادة بخاتمة قصيدة عبد الله بن الزِّبعري[٦] التي كان غرضها الإعتذار إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) ، واستعطافه وقد ختمها بقوله:

فخذِ الفضيلةَ عن ذنوبٍ قد خلت　　　واقبل تضرُّعَ مستضيفٍ تائبِ

١ التحرير والتنوير : ج٢٦ ، ص٦١.

٢ سورة الحاقة:الآيات ١-٣.

٣ التحرير والتنوير : ج٢٩ ،١٠٤.

٤ المصدر نفسه : ج٣٠ ،ص٤٤٨.

٥ أبو هلال العسكري: كتاب الصناعتين .ص٥٠٣.

٦ هـــو : عـــبد الله بن الزبعري بن قيس بن عدي بن ربيعه ، من شعراء مكة ، قدمه ابن سلام الجمحي على شعراء مكة جميعاً ، وهو صاحب المهاجاة مع المسلمين في يوم أحد وغيرها ، وقد أسلم بعد ومدح النبي (صلى الله عليه وسلم) وأعتذر إليه.[انظر ترجمته في: ابن سلام : طبقات الشعراء ص٩٢-٩٤].

فلــيس غريــباً والشأن هذا أن يكون القرآن الكريم قد بلغ الغاية العليا في إحكام نهايات تلك السور التي كشف لنا (ابن عاشور) عن روعة تناسقها وانسجامها مع فواتح تلك السور وأغراضها ومن ذلك :

١- الاختتام بتفصيل ما أجمل في فاتحة السورة :

الاختتام بغرض جامع ومفصّل لما أجمل من فاتحة السورة أحد ألوان الاختتام التي ألمح (ابن عاشور) إليها في التفسير ، فهذه سورة (الشعراء) كانت فاتحتها مشتملة على ذِكْر القرآن إجمالاً ، ثم أعقبها بالحديث عن آيات من الكون وآيات من أحوال الأمم ، وختمت بالعودة إلى ما بدئت به ، يقول (ابن عاشور) في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴾[١] ((عود إلى ما افتتحت به السورة من التنويه بالقرآن، وكونــه الآية العظمى بما اقتضاه قوله: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾[٢] ... لتختم السورة باطناب التنويه بالقــرآن كمــا ابتدئــت بإجمــال التــنويه به ، والتنبيه على أنه أعظم آية اختارها الله أن تكون معجزة أفضل المرسلين))[٣].

وينــبه (ابن عاشور) على اتصال الحديث في نهاية السورة بأولها ، من خلال الإحالة المستفادة من ضمير "وإنــه" العــائد على غير مذكور في الكلام المتقدم ، وكذلك الارتباط بالعطف بالواو فيقول : ((فضمير "وَإِنَّهُۥ" عــائد إلى معلــوم من المقام ، بعد ذِكْر آيات الرسل الأولين ، فبواو العطف اتصلت الجملة بالجملة التي قبلها، وبضــمير القرآن اتصل غرضها بغرض صدر السورة ، فجملة(وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ) معطوفة على الجمل التي قبلها المحكية فيها أخبار الرسل... وما أيدهم الله به من الآيات ، فعطفها على الجمل التي قبلها عطف القصة عــلى القصة لتلك المناسبة ، ولكن هذه الجملة متصلة المعنى بجملة (تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ) بحيث لولا ما فصل بينها وبين الأخرى من طول الكلام لكانت معطوفة عليها))[٤].

ونلاحــظ أن خاتمــة هذه السورة عند (ابن عاشور) تبدأ من هذه الآية مع أنها تفصلها عن نهاية الســورة ست وثلاثون آية.

ومــن قبــيل هذا الاتصال والتناسب بين الفاتحة والخاتمة اعتماداً على الإحالة بالضمير اختتام سورة (ص) حيــث يقــول تعالى: ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ۞ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۞ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴾[٥] فلــيس في السياق القريب ما يفسر مرجع الضمائر في (عَلَيْهِ)(هُوَ)(نَبَأَهُۥ) إذ لا بــد مــن العودة إلى أول السورة يقول (ابن عاشور) : ((لما أمر الله رسوله بإبلاغ المواعظ والعبر التي تضمنتها

١ سورة الشعراء : الآيات ١٩٢ ، ١٩٣.

٢ سورة الشعراء : الآية ٢.

٣ التحرير والتنوير : ج١٩ ، ص١٩٣.

٤ المصدر نفسه :ج١٩،ص١٩٣.

٥ سورة ص :الآيات ٨٦ - ٨٨.

هــذه السورة ، أمره عند انتهائها أن يقرع أسماعهم بهذا الكلام الذي هو كالفذلكه للسورة تنهية لها ، تسجيلاً علــيهم أنــه مــا جــاءهم إلا بما ينفعهم ...وضمير (عَلَيْهِ) عائد إلى القرآن المعلوم من المقام فإن مبدأ السورة قولـــه:﴿ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴾[1] فهــذا مــن ردّ العجــز عــلى الصدر[2] ... فختم الكلام بتسجيل التبليغ...وختم بالمواعدة لوقت يقينهم بنبنه ، وهذا مؤذن بانتهاء الكلام ومراعاة حسن الختام))[3].

٢- الاختتام بإجمال ما فصلته فاتحة السورة :

وهذا اللون عكس اللون الأول ، حيث تكون خاتمة السورة ملخصة لما جاء مفصلاً في الفاتحة ، وهو لون بديعــي يندرج تحت ما يسمى برد العجز على الصدر . ومن ضروب هذا الاختتام ما جاء في خاتمة سورة النــبأ عــند قولــه تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنذَرْنَـٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴾[4] يقول (ابن عاشور) : ((وهذه الآية جامعة لما جاء في السورة من أحوال الفريقين [الكفــار و المؤمــنين]وفي آخرها رد العجز على الصدر من ذِكْر أحوال الكافرين الذين عرِّفوا بالطاغين وبذلك كان ختام السورة بها براعة مقطع[5]))[6] .

٣- الاختتام بما يقابل فاتحة السورة وأغراضها :

في اختتام سورة التوبة بقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ...الآية ﴾[7] لــيس في ظاهره ما يكون صالحاً للربط بينه وبين فاتحة السورة التي أعلن الله تعالى فيها براءته ورسوله من المشركين ، ولهذا سلك (ابن عاشور) طريقاً آخر في بيان المناسبة هو ما سماه عادات القرآن ، التي تأتي فيها

---

١ سورة ص: الآية ١ .

٢ رد العجز على الصدر : المقصود به هنا غير ما عرف في كتب البديع عامة عن هذا الفن البديعي ، فغالباً ما ترد عبارة القدماء في بيانه أن يقولوا : إن رد العجــز عــلى الصدر في النثر ((أن يجعل أحد اللفظين المقررين وهما المتفقان لفظاً ومعنى ، أو أحد المتجانسين وهما المتشابهان في اللفظ دون المعنى ، أو أحد الملحقين بالمتجانسين ... في أول الفقرة ويجعل اللفظ الآخر منهما في آخر تلك الفقرة)) بدوي طبانة : معجم البلاغة العربية ، ص٢٤٥ ، ولكن المقصود به في هــذا الموضــع مــا يوضــحه ابن أبي الإصبع في تعريف هذا الفن البديعي بقوله : ((عبارة عن كلام بين صدره وعجزه رابطة لفظية غالباً ، أو معنوية نادراً،تحصل بها الملائمة والتلاحم بين قسمي كل كلام)) انظر :ص ٢١١من هذا البحث .

٣ التحرير والتنوير : ج٢٣، ص١٩٥ ،١٩٦.

٤ سورة النبأ : الآية ٤٠ .

٥ براعة المقطع : ويسمى أحياناً حسن الختام ، ومقطع الكلام هو الموضع الذي ينهي فيه المتكلم كلامه ويقطعه . وينبغي أن يكون آخر الكلام الذي يقف علــيه المترسل أو الخطيب أو الشاعر مستعذباً حسناً لأنه آخر ما يفهمه السامع ويحفظه من القصيدة أو الخطبة أو الرسالة . وقد نقل أبو هلال العسكري أن شــبيب بن شبه كان يقول : الناس موكلون بتعظيم جودة الابتداء وبمدح صاحبه ، وأنا موكل بتعظيم جودة المقطع وبمدح صاحبه ، وخير الكلام ما وقف عند مقاطعه وبين موقع فصوله . ومن الأمثلة على براعة المقطع : خاتمة قصيدة تأبط شراً ، وفيها يقول :

لتقرعنَّ عليّ السنّ من ندمٍ إذا تذكّرتِ يوماً بعض أخلاقي

انظر :(أ) كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري ، ص ٥٠٢ .

(ب) معجم البلاغة العربية : ص٧١ .

٦ التحرير والتنوير : ج٣٠ ، ص٥٢.

٧ سورة التوبة : الآية ١٢٨.

البشـــارة عقـــب الـــنذارة فيقول: ((كانت هذه السورة سورة شدة وغلظة على المشركين وأهل الكتاب والمنافقين ... فجاءت خاتمة هذه السورة آيتين بتذكيرهم بالمنة ببعثة محمد (صلى الله عليه وسلم)...وهذا من مظاهر الرحمة...بحيث جاء في هاتين الآيتين بما من شأنه أن يزيل الحَرَج من قلوب الفِرَق التي نـــزلت فيهم آيات الشدة ... تعقيباً للشدة بالرفق وللغلظة بالرحمة وكذلك عادة القرآن))[١].

وبعـــد عرض هذه النماذج لألوان الخاتمة في السور القرآنية ، يلزم أن نشير إلى أن (ابن عاشور) قد لفت الانتـــباه إلى أن مـــن أسلوب القرآن في اختتام السورة أن يؤذن المستمع بانتهائها وذلك بالانتقال إلى غرض عام يرتبط بأغراض النّصّ القرآني كله.

ومـــن بدائـــع هـــذا الاختتام اختتام سورة آل عمران بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[٢] وهو غرض جديد بالنسبة لما تتابع من أغراض السورة، وكذلك اختتام سورة مريم بقوله : ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[٣] وفي هذا الموضع يقول (ابـــن عاشـــور) : ((إيذان بانتهاء السورة فإن شأن الإتيان بكلام جامع لبدء أفنان الحديث أن يؤذن بأن المتكلم سيطوي بساطه، وذلك شأن التذييلات والخواتم ، وهي ما يؤذن بانتهاء الكلام[٤] فلما احتوت السورة على عبر وقصص وبشارات ونذر جاء هنا في التنويه بالقرآن وبيان ما في تنـــزيله من الحكم))[٥] .

١ التحرير والتنوير :ج١٠ ، ص٢٣٧.

٢ سورة آل عمران : الآية١٩٠.

٣ سورة مريم : الآية ٩٧.

٤ وهذا أيضاً ما سمي ببراعة المقطع ، إذ إن ((أحسن الانتهاء ما آذن بانتهاء الكلام ، أي ما علم بأن الكلام الذي جُعل ذلك آخره قد انتهى . والإشارة إلى الانـــتهاء بأن يشتمل ما جُعل آخراً ما يدل على الختم كلفظ الختم ، ولفظ الانتهاء ، ولفظ الكمال ، وشبه ذلك . وإما أن يكون مدلوله مفيداً عرفاً أنه لا يؤتـــى بشيء بعده ، فلا يبقى للنفس تشوف وراء ذلك)) [انظر: معجم البلاغة العربية ص ٧١ ، ٧٢]. وقد تضمنت خاتمة سورة آل عمران الدعاء وهو مـــؤذن بنهاية الكلام . ومما يُمثل به على ما يشتمل لفظ الانتهاء مع الدعاء في نهاية الكلام قول ربيعة بن مقروم في نهاية القصيدة التي مدح فيها مسعود بن سالم :

هذا ثنائي بما أوليتَ من حَسَنٍ   لا زلتَ عَوضُ قريرَ العينِ محسودا

فأشـــعر قولـــه (هذا ثنائي) بالختام ، وختم البيت بالدعاء لممدوحه أن يبقى عَوضُ الدهر ، وأن يظل قرير العين ، كثير المال ، لأن من شأنه ذلك أن يكون محسوداً . انظر : المفضل بن محمد بن يعلى الضبي : المفضليات. ص٢١٤ .

٥ التحرير والتنوير : ج١٦ ، ص٨٨.

ثانياً مستوى الانسجام بين الآيات في السورة:

من أهم مستويات تحليل ظاهرة الانسجام في النَّصّ القرآني التي عني بها (ابن عاشور) مستوى انسجام الآيات في السورة ، ويُعدُّ هذا المستوى التحليلي أساس الدراسة النَّصّية المعتمدة على معرفة العلاقات التي تربط مقاطع النَّصّ بأغراض السورة .

وينبني حديث (ابن عاشور) عن الانسجام بين الآيات على بيان موقع كل آية وعلاقتها بما سبقها أو بما تلاها من الآيات ، وتوضيح بدايات المقاطع أو الأغراض ، وما يلزم لها من تمهيد أو تهيئة ، وهو في ذلك كله يوضّح أسلوب القرآن في التخلص من غرض لآخر ، ويقف بالقارئ على مواضع التحول السياقي الذي أفردناه بمبحث مستقل ، واكتفينا هنا بذِكْر نماذج منه ويمكن تفصيل ذلك على النحو الآتي :

١- توضيح موقع الآية :

يَتَّخذُ (ابن عاشور) عدة طرق في تحديد موقع الآية في سياق الآيات المتحدة أو المختلفة من ناحية الغرض.

فالآية إمّا أن تكون فاتحة غرض من أغراض السورة ، أو مستوفية لغرض ، أو معترضة بين آيات الغرض لمناسبة من المناسبات ، أو منقطعة عن الغرض كلياً ،ويمكن توضيح ذلك على النحو الآتي :

- توضيح موقع الآية المفتتح بها الغرض :

لا تأتي الآيات التي تفتتح بها الأغراض في صورة استئناف ابتدائي دائماً ، ولكنها تأخذ صوراً متعددة تختلف معها وسائل (ابن عاشور) في تحليل وجه المناسبة والانسجام .

فمن ذلك افتتاح الغرض بالإضراب عن الغرض السابق مع بقاء المناسبة بين الغرضين ومن أمثلته:

قوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴾ [1] فهذه الآية بداية حديث القرآن عن قصة أصحاب الكهف التي هي من مقاصد السورة الكريمة . وقد لاحظ (ابن عاشور) افتتاح هذا الغرض بـ(أم) المفيدة للانقطاع والملازِمَة للاستفهام التعجبي[2] ، حيث انتقل بها من الكلام السابق . وفي ذلك يقول (ابن عاشور): ((أم للإضراب الانتقالي من غرض إلى غرض ، ولما كان هذا من المقاصد التي أنزلت السورة لبيانها ، لم يكن هذا الانتقال اقتضاباً ، بل هو كالانتقال من الديباجة والمقدمة إلى المقصود ، على أن مناسبة الانتقال إليه تتصل بقوله تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [3] إذ كان مما صرف المشركين عن الإيمان إحالتهم الإحياء بعد الموت، فكان ذِكْر أهل الكهف وبعثهم ... مثالاً على إمكان البعث))[4].

---

١ سورة الكهف : الآية ٩.

٢ وهكذا تستعمل العرب كلمة (أم) كما في قول علقمة الفحل :

هل ما علمت وما استودعت مكتومُ   أم حبلها إذ نأتك اليوم مصروم.   [انظر المفضليات : قصيدة رقم (١٢٠) ص٣٩٧].

٣ سورة الكهف : الآية ٦ .

٤ التحرير والتنوير : ج١٤ ، ص١٩.

فإن (ابن عاشور) هنا يبين موقع الآية بما يفيده معنى الإضراب والانتقال بـــ(أم) مع تأكيده ارتباط الآية بما سبقها ، ليكون الانسجام بين الأغراض واضحاً .

- توضيح موقع الآية من خلال موقع الآية التي تليها :

يوضـــح (ابن عاشور) موقع الآية أحياناً ببيان مناسبتها لموقع الآية التي تليها ، كأن تكون في حكم التمهيد والمقدمة ، أو في موقع ذِكْر الدليل قبل المقصود .

ومـــن أمـــثلة ذلك ما يذكره في تفسير قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ﴾ [1] يقـــول (ابن عاشور) : "وموقع قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ﴾ قبل قوله تعالى : ﴿ وَقَـٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [2] موقـــع ذِكْر الدليل قبل المقصود ، وهذا طريق من طرق الخطابة ... والمقصود من ذلك الاهتمام والعناية بالحجة قبل ذِكْر الدعوى تشويقاً للدعوى أو حملاً على التعجيل بالامتثال"[3]

- توضيح موقع الآية بإعادة التذكير بالسياق :

كثيراً ما يعمد (ابن عاشور) إلى إعـــادة ترتيب السيـــاق لتوضيـــح موقع الآيـــة ، وذلك حين يطول الفصل بين ما تعود عليه أو تتعلق به الآية من المعاني ، كالتفريع على كـــلام فُصِـــلَ بينه وبين المفرَّع عنه آيات كثيرة .

ومن ذلك قوله تعالى في سورة الغاشية: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ [4] حيث يقول (ابن عاشـــور): "لمـــا تقدم التذكير بيوم القيامة ، ووصف حال أهل الشقاء ... فرَّع على ذلك إنكارٌ عليهم إعراضَهم عن النظر في دلائل الوحدانية ، فالفاء في قوله: "أَفَلَا يَنظُرُونَ" تفريع التعليل على المُعلَّل ، لأن فظاعـــة ذلـــك الوعـــيد تجعـــل المقـــام مقـــام اســـتدلال عـــلى أنهم محقوقون بوجوب النظر في دلائل الوحدانـــية،...فكـــان إعراضـــهم عن النظر مجلبة لما يجشِّمهم من الشقاوة وما وقع بين هذا التفريع وبين المفرَّع عنه جملـــة ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴾[5] كان في موقع الاعتراض "[6].

ومـــا يزيد الحاجة لإعادة ترتيب الخطابات الواردة في سياق السورة ، للاستدلال بذلك على موقع الآية : أن تَرِدَ وسائل العطف وضمائر الإحالة ، في آية واردة بعد القصص القرآني مما يجعل موقع هذه الآية قابل

---

١ سورة البقرة : الآية ٢٤٣.

٢ سورة البقرة : الآية ٢٤٤.

٣ التحرير والتنوير : ج٢، ص٤٥٤.

٤ سورة الغاشية : الآية ١٧ .

٥ سورة الغاشية : الآية ٨.

٦ التحرير والتنوير :ج٣٠، ص٢٦٩.

لاحتمال النظر إليها من خلال علاقتها بالقصص ، ومن ثمّ حَمْل الآية على ما يصلح في القصص ،أو إعادة التذكير بسياق الآيات من أول السورة .

وحتى يتضح هذا الإجراء ننقل تفسير (ابن عاشور) موقع قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [1] فقد جاءت الآية مفتتحة بالعطف عقب قصة (قوم سبأ) مباشرة . وفي ذلك يقول (ابن عاشور) : ((الأظهر أن هذا عطف على قوله:﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ ... الآية ﴾ [2]وأن ما بينهما من الأخبار المسوقة للاعتبار...واقع موقع الاستطراد والاعتراض . فيكون ضمير "عليهم" عائداً إلى "ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ " من قوله: (وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ... الآية) والذي درج عليه المفسرون أن ضمير "عَلَيْهِمْ" عائد إلى سبأ المتحدث عنهم ، ولكن لا مفر من أنّ قوله تعالى بعد ذلك: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ... الآية﴾ [3] هو عَوْدٌ إلى محاجة المشركين ، المنتقل فيها بذِكْر قصة داود وسليمان وأهل سبأ ، وصلوحية الآية للمَحْمَلَين ناشئة من موقعها . وهذا من بلاغة القرآن المستفادة من ترتيب مواقع الآية))[4] .

ومع أن (ابن عاشور) قد جعل الأظهر عطف قوله تعالى (وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ...الآية) على قوله تعالى : (وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ ... الآية) إلا أن توجيهه للضمير في قوله: (فَٱتَّبَعُوهُ) والاستثناء في قوله (إِلَّا فَرِيقًا) لم يُصِبْ فيه المِفْصَل وإن قارب المَحَزَّ إذ قال: ((إِلَّا فَرِيقًا) استثناء من ضمير الرَّفْع في (فَٱتَّبَعُوهُ) وهو استثناء متصل. إن كان ضمير "اتبعوه" عائداً على المشركين . وأما إن كان عائداً على أهل سبأ ، فيحتمل الاتصال إن كان فيهم مؤمنين وإلا فهو استثناء منقطع))[5] واحتاج (ابن عاشور) – تبعاً لتجويزه الاحتمالين السابقين – أن يلتزم ذلك في توضيح موقع الآية التالية ، وهو قوله تعالى : (قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ... الآية) والواضح أنها لمخاطبة المشركين من أهل مكة الذين سيقت لهم هذه الأمثال والقصص .

وقد تحاشى الزَّمَخْشَرِيّ وابن عطية الحديث عن افتراض وجود مؤمنين في قوم سبأ، ليصلح توجيه الاستثناء وإن جوزا وقوع الضمير عليهم ، وعلى غيرهم من (بني آدم)[6].

---

١ سورة سبأ : الآية٢٠.

٢ سورة سبأ : الآية٧ .

٣ سورة سبأ : الآية٢٢.

٤ التحرير والتنوير ج٢٢، ص٤٨.

٥ المصدر نفسه :ج٢٢، ص٤٩.

٦ يذكر الزمخشري أن الضمير في (عليهم) و(فاتبعوه) إما لأهل سبأ ، أو لبني آدم . [انظر: الكشاف : ج٣ . ص٥٨٨]. أما ابن عطية فقد قال: ((وأخبر الله تعالى عنهم أنهم اتبعوه اتباع كفر لأنه في قصة قوم كفار)) ولم يتعرض لمفهوم الاستثناء . [انظر: المحرر الوجيز .ص١٥٣٧].

والواضح من مخالفة (ابن عاشور) لما دَرَجَ عليه المفسرون في الاقتصار على توجيه معاد الضمير في(عليهم) إلى قـوم سـبأ ، أنه محاولة للالتزام بمفهوم أوسع في البحث عن المناسبة ، دون أن يجعل وسيلتي الربط بالعطف والإحالة بالضمير تتحكمان في تحديد علاقات الانسجام .

ومـع ذلـك يمكن القول إن ضمير (عليهم) يصلُح للعودة على مجموع من قصّ الله خبرهم من آل داود وقـوم سبأ أو أهل مكة ، ويسهل عليه تفسير الاستثناء الذي في قوله: ﴿ إِلَّا فَرِيقًا ﴾ وليس في الكلام ما يمنع ، حيث يتحقق الاتصال بدون عناء و الله أعلم .

٢- توضيح موضع الانتقال بين أغراض السورة :

يعمـد (ابـن عاشور) في تحليل الآيات داخل السورة إلى إجراء منهجي ملتزم في مواضع انتقال الخطاب، وذلـك بالـنظر إلى السياق العام لأغراض السورة إذا افتتح الغرض بوسيلة من وسائل افتتاح الأغراض القرآنـية ، ويـندرج تحت هذا الإجراء ما عرف بعطف القصة على القصة ، أو توالي أحكام التشريع في أغـراض متعددة للسورة ، سعياً منه لإلحاق الموضوعات ببعضها ، على قاعدة تماثل الوقائع ، وهي إحدى وسائل الربط التي تظهر حين لا يكون للوسائل اللغوية القوة الكافية لاعتمادها في الربط بين الموضوعات. وقـد أفردنا مبحثاً مستقلاً لدراسة انتقال الخطاب وتحول السياق ، ونختار هنا لبيان أسلوب (ابن عاشور) في تحليل المناسبة في هذا المستوى المثالين الآتيين :

- في قولـه تعـالى: ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ... الآيـة﴾ [١] يقـول (ابـن عاشـور):"فمناسبة ذِكْر فضائل إبراهيم ومنـزلته عند ربه ودعوته لبعثته عقب ذِكْر أحوال بني إسرائيل، هـي الاتحاد في المقصد ، فإن المقصود من تذكير بني إسرائيل بالنعم والتخويف تحريضهم على الإنصاف في تلقّي الدعوة الإسلامية ... والمقصود من ذِكْر قصة إبراهيم موعظة المشركين ابتداءً ، و بني إسرائيل تبعاً، لأن العـرب أشد اختصاصاً بإبراهيم...فحقيق أن نجعل قوله : (وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ) عطفاً على قوله تعالى :﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾[٢] كما دلّ عليه افتتاحه بـ(إذ) على نحو افتتاحه ذِكْر خلـق آدم ... وفي هذه الآية مقصد آخر ، وهو تمهيد الانتقال إلى فضائل البلد الحرام ، والبيت الحرام، ولإقامة الحجة على الذين عجبوا من نسخ استقبال بيت المقدس"[٣] .

إن تحليل المناسبة والانسجام يقوم على تصور عدة إجراءات نستخلصها من هذا النّصّ فمن ذلك:

- ناسـب ذِكْـر فضائل إبراهيم بعد ذِكْر أحوال بني إسرائيل ،الاتحاد في المقصد ، وهو الموعظة لجميع الطوائف.

١ سورة البقرة : الآية ١٢٤ .

٢ سورة البقرة : الآية ٣٠.

٣ التحرير والتنوير : ج١، ص٦٨١، ٦٨٢.

- ابتداء ذِكْر فضائل إبراهيم بواو العطف و(إذ) يصلح أن يكون عطفاً على قصة آدم في أول السورة ، ولعلـه يشـير إلى تماثل الوقائع لغوياً وطبيعياً ، فأما لغوياً : فلأنه افتتاح متشابه في الوسيلة بـ(وإذ) مع المقارنة بين معاني الخليفة والإمام، وأما طبيعياً : فلأن إبراهيم لبني إسرائيل والعرب كآدم للبشر .
- يُعدُّ الانتقال بالحديث عن إبراهيم وذريته تمهيداً للحديث بعد ذلك عن البيت الحرام والقبلة .

والخلاصة : أن (ابن عاشور) نظر إلى السياق النَّصّي للسورة ، والغرض الذي ينتظم القصص فيها ، ثم نظر إلى السياق المتقدم على هذا الغرض واللاحق له ، فانتظمت منه المناسبة وتحقق من خلاله تصور الانسجام.

– عـند قوله تعالى : ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۞ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ [1] . الاستخدام اللغوي الغالب للفـظ (كَلا) هو أن تكون للردع والزجر والإبطال[2] ، وليس في مضمون الآيات المتقدمة ما يقتضي الردع أو الابطال فهي أول ما نـزل من القرآن كما تدل على ذلك الآثار الصحيحة المشهورة ، فكيف يفسر هذا الاستئناف بهذه اللهجة القوية ؟ وما وجه مناسبته لما قبله وما بعده ؟.

يعـد (ابـن عاشـور) هذه الآيات((استئنافاً ابتدائياً لظهور أنه في غرض لا اتصال له بالكلام الذي قبله، وحرف (كَلا)ردع وإبطال وليس في الجملة دليل على أن المقصود بالردع هو ما تضمنه قوله: ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۞ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴾[3] ، وحـق (كَلا) أن تقع بعد كلام لإبطاله والزجر عن مضمونه ، فوقوعها هنا في أول الكلام يقتضي أن معنى الكلام الآتي بعدها حقيق بالابطال وبردع قائله))[4].

---

١ سورة العلق : الآيات ٦ ، ٧ .

٢ يـناقش ابـن هشام موقف النحويين مما تفيده (كلا) من المعاني عند علماء العربية حيث إنها عند سيبويه والخليل والمبرد والزجاج وأكثر البصريين حرفٌ معناه الردع والزجـر ، لا معنى عندهم لها إلا ذلك ، ويجيزون تبعاً لهذا الوقف عليها والابتداء بما بعدها . وقد ردّ ابن هشام على ذلك بأنه لا يظهر معنى الزجر في مواضع من القرآن ذكـرت فـيها (كلا) وليس فيما قبلها ما يصلح لمعنى الزجر مثل قوله تعالى : (في أي صورة ما شاء ركبك . كلا بل تكذبون بالدين)[سورة الانفطار الآيتين ٨ ، ٩] . ورأى الكسـائي وأبـو حاتم ومن وافقهما أن معنى الردع والزجر ليس مستمراً فيها فزادوا فيها معنىً ثانياً يصح عليه أن يوقف دونها ويبتدأ بها . ثم اختلفوا في تعيين ذلك المعـنى على ثلاثة أقوال : الأول للكسائي ومتابعيه ، قالوا : تكون بمعنى حقاً ، والثاني لأبي حاتم ومتابعيه، قالوا : تكون بمعنى (ألا) الاستفتاحية . والثالث للنضر بن شميل والفـراء ومن وافقهما ، قالوا : تكون حرف جواب بمنـزلة إي و نعم . وحملوا عليه قوله تعالى : (كلا والقمر) [سورة المدثر :الآية٣٢]. وقد رجح ابن هشام رأي أبي حـاتم وهـو أن تكون بمعنى (ألا) الاستفتاحية بدليل كسر همزة (أن) بعد (ألا) الاستفتاحية وعدم كسرها بعد (حقاً) ومن ذلك قوله تعالى : (كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين)[سورة المطففين : الآية ١١] و (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون)[سورة المطففين : الآية (١٥)]. هذا في الموضع الذي لا يصلح للردع ، فإن صلح للردع وغيره حملت على الردع لأنه الغالب فيها ، وذلك نحو : (أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهداً . كلا سنكتب ما يقول ...) [سورة مريم : الآيتين ٧٨ ، ٧٩] . ولم يوضح ابن هشـام ما إذا كانت (كلا) تصلح للردع أو لإبطال كلام يأتي بعدها كما أشار (ابن عاشور) إلى هذا في تفسير هذا الموضع . [انظر : ابن هشام الأنصاري : مغني اللبيب .ص٢٥٠ ، ٢٥١]. وأغلـب الظن أن ما ذهب إليه البصريون صحيح في الجملة، فالشائع فيها هذا المعنى (معنى الزجر والردع) ، ولأمر ما جاءت في المكي حيث المكابرة والعناد ولم تأت في المدني ، قال الناظم : وما وردت كلا بيثرب فاعلمن ولم تأت في القرآن في نصفه الأعلى .
يقول الزركشي : "وجميع "كلا" في القرآن ثلاثة وثلاثون موضعاً ليس في النصف الأول من ذلك شيء".
[انظر : (أ)البرهان :ج٤،ص٣١٦ . (ب) السيوطي : الاتقان ج١،ص٣٤٥].

٣ سورة العلق الآيتان ٩ ، ١٠ .

٤ ابن عاشور : التحرير والتنوير ج٣٠، ص٣٩٠. وفي تسويغ مثل هذا الأسلوب يقول (ابن عاشور) : ((ومن هذا القبيل أن يفتتح الكلام بحرف نفي ليس بعده ما يصلح لأن يلي الحرف ، كما في قول امرئ القيس :
فلا وأبيكِ ابنة العامر يِّ لا يدّعي القومُ أنّي أفرّ)). [انظر التحرير والتنوير : ج ٣٠ ، ص٣٩٠].

ثم يذكر (ابن عاشور) من أسباب النـــزول ما يدل على ضرورة الإبطال والردع ولكن الكلام ليس لـــه علاقة بما بعد"كلا" مباشرة .

فمـــا بعـــد (كَلا) ما هو إلا مقدمة لكلام يرد بعده لـــه حديث وقصة قد وقعت واستحقت تقديم الردع والزجـــر . يقول (ابن عاشور) : ((فموقع قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾[1] موقع المقدمة لما يرد بعده من قوله: ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴾[2] إلى قوله: ﴿ لَا تُطِعْهُ ﴾[3]))[4].

ولابـــن عطية في معنى (كَلا) في هذا الموضع توجيه آخر ؛ إذ لا يحمل معنى "كلا" على معنى الردع المقدم عـــلى ما يحتمل الردع والإبطال ، فبعد أن يورد من أسباب النـــزول ما يفيد حصول منعٍ للنبي (صلى الله عليه وســـلم) عـــن الصلاة في المسجد من بعض من أطغاهم المال ، يقول ابن عطية : ((و(كَلا) هي ردّ على أقوال أبي جهل[5] وأفعاله ، ويتجه أن تكون بمعنى "حقاً" فهي تثبيت لما بعدها من القول))[6] . ولكن ابن هشام[7] يردّ على هـــذا بأنه لو كان المعنى كذلك لم تكسر همزة (أنّ) بعدها في هذا الموضع ((لأن اشتراك اللفظ بين الاسمية والحرفية قليل ، ومُخالِفٌ للأصل))[8] . حيث تكون "كلا" اسماً إذا كانت بمعنى "حقاً" كما رأى ذلك الكسائي[9] ، وعلى هذا يكون كلام (ابن عاشور) مراعياً هذه القاعدة في أصل استعمال "كلا" في الردع والإبطال .

ولكـــن انقطاعها عن الغرض السابق عليها ، ووقوعها في صدر كلامٍ لا يراد إبطاله ابتداءً وإنما بالتبعية لما بعده من التصرفات والأعمال (كالنهي عن الصلاة وغيره) يجعل فيها معنى آخر هو الاستفتاح وهو أولى بالقبول، وأمـــا الإبطال فتبعٌ له ولعل في تأخر نـــزولها عن صدر السورة وما وقع من أحداث بعدها يؤيد هذا المعنى . وقد تقرر عند النحاة كابن هشام إمكان خروجها عن معنى الردع لتكون بمعنى (ألا)الاستفتاحية .

والغـــرض أن نبين هنا كيفية بحث (ابن عاشور) عن الانسجام حين لا تهدي إليه الوسائل اللغوية المباشرة ، فقد استعان هنا بأسباب النـــزول لتوجيه مرجع الردع والزجر والإبطال على كلام لاحق لا سابق ، وهو إجراء أخير للبحث عن الانسجام كما هو مقرر.

---

١ سورة العلق : الآيات ٦ ، ٧ .

٢ سورة العلق الآيتان ٩ ، ١٠ .

٣ سورة العلق : الآية ١٩.

٤ التحرير والتنوير : ج٣٠، ص٣٩٣.

٥ هو عمرو بن هشام : كان يكنى في الجاهلية بأبي الحكم ، فسماه النبي (صلى الله عليه وسلم) أباجهل لشدة عدائه ومكابرته ، وقد قتل يوم بدر.

٦ المحرر الوجيز : ص١٩٩٢.

٧ هـــو عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله ، جمال الدين : من أئمة العربية ، من تصانيفه مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، وأوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ، وشرح شذور الذهب ، توفي سنة ٧٦١هـــ .[انظر : مقدمة كتابه : أوضح المسالك : تحقيق مكتب البحوث والدراسات . دار الفكر-بيروت.ط(٢٠٠٠)].

٨ ابن هشام الأنصاري : مغني اللبيب .ص.٢٥٠ .

٩ عـــلي بن حمزة بن عبد الله بن عبد الله الأسدي ، أبو الحسن : إمام في النحو واللغة والقراءة ، له تصانيف منها : معاني القرآن ، والقراءات ، والمتشابه في القرآن توفي (١٨٩هـــ).

ثالثاً مستوى الانسجام في الآية الواحدة :

لاشك أن تفسير معنى الآية الكريمة يرتبط ارتباطاً كبيراً بالنظر إلى موقعها من السياق النَّصّي في السورة، ثم إلى أسلوب نظمها وترتيب جملها .

ولأن هذا البحث قد استخدم مصطلح النَّصّ ليقابل السورة ، فقد ترتب على ذلك أن تكون الآية هي الوحدة الأولى التي يتوجه إليها النظر في التحليل النَّصّي لظاهرة الانسجام في النَّصّ القرآني[1]، ولا عبرة هنا بمقدار الآية ، وما إذا كان الكلام ينتهي في بعض الآيات عند آخرها ، فالآية مصطلح قرآني ، وهي كما يقول (ابن عاشور) : ((مقدار من القرآن مركبٌ ولو تقديراً أو إلحاقاً))[2] ويشرح ذلك بقوله: ((فقولي : تقديراً، لإدخال قوله تعالى : ﴿ مُدْهَآمَّتَانِ ﴾[3] إذ التقدير: هما مدهامتان ، ونحو ﴿ وَٱلْفَجْرِ ﴾[4] إذ التقدير : أقسم بالفجر . وقولي إلحاقاً ، لإدخال بعض فواتح السور من الحروف المقطعة ، فقد عُدّ أكثرها في المصاحف آيات ما عدا : آلر ، وآلمر ، وطس[5] وذلك أمر توقيفي وسنة متبعة))[6] .

وقد نبه (ابن عاشور) على أن ورود الفاصلة القرآنية الملتزمة غالباً في السورة يكون أمارةً على انتهاء الآية ولو كان الكلام لم يتمّ . يقول : ((والذي استخلصته -أيضاً- أن تلك الفواصل كلها منتهى آيات ، ولو كان الكلام الذي تقع فيه لم يتم فيه الغرض المسوق له ، وأنه إذا انتهى الغرض المقصود من الكلام ، ولم تقع عند انتهائه فاصلة ، لا يكون منتهى الكلام نهاية آية إلاّ نادراً ، كقوله تعالى: ﴿ صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴾[7] فهذا المقدار عُدَّ آية وهو لم ينته بفاصلة . ومثله نادر ،فإن فواصل تلك الآيات الواقعة في أول السورة أقيمت على حرف مفتوحٍ بعد ألفٍ مُدَّ بعدها حرف ، مثل : شقاق ، مناص ، كذاب ، عجاب))[8] .

وهذا الاستنتاج الذي أشار إليه (ابن عاشور) يبرز مظهراً من مظاهر الانسجام بين الأغراض والآيات تسهم فيه الفاصلة القرآنية.

---

١ تعرض الإمام الطبري في مقدمة تفسيره لمعنى (آية) وبين أصل استخدامه فقال : ((وأما الآية من آي القرآن فإنها تتحمل وجهين في كلام العرب ؛ أحدهما : أن تكون سميت آية لأنها علامة يعرف بها تمام ما قبلها وابتداؤها كالآية التي تكون دلالة على الشيء يستدل بها عليه كقول الشاعر [سحيم عبد بني الحسحاس] :

ألكني إليها عمرك الله يا فتى | بآية ما جاءت إلينا تهاديا

يعني بعلامة ذلك ... والآخر منهما: القصة ، كما قال كعب بن زهير :

ألا أبلغا هذا المعرض آيةً | أيقظان قال القول إذ قال أم حلم !

يعني بقوله آية : رسالة مني وخبراً عني ، فيكون معنى الآيات القصص ، قصة تتلو قصة بفصول ووصول)) . [انظر : جامع البيان في تفسير القرآن : ج١ ،ص٣٦].

٢ التحرير والتنوير : ج١ ، ص٧٣.

٣ سورة الرحمن : الآية ٦٤.

٤ سورة الفجر : الآية ١.

٥ وكذلك : ص ، ق ، ن .

٦ التحرير والتنوير : ج١ ، ص٧٣.

٧ سورة ص : الآية ١ .

٨ التحرير والتنوير : ج١، ص٧٤.

والمُطلـــع على تفسير (ابن عاشور) يلحظ عنايته بذكْر عدد آيات كل سورة ، وما إذا وقع خلاف حولها . وقد تقدم في الفصل الأول من هذا البحث الإشارة إلى الأحاديث والآثار التي تفيد أن عدد آي السورة قد كان معـــروفاً في زمن النبي (صلى الله عليه وسلم) ، واستمر العمل به في عصر الصحابة والتابعين ، حتى استقر على صـــورته الـــتي بـــين أيدينا في المصاحف ، وقد أرجع (ابن عاشور) اختلاف السلف في عدد آيات القرآن ، إلى الاخـــتلاف في نهايـــة بعضها «فقد يكون بعض ذلك عن اختلاف في الرواية ... وقد يكون بعضه عن اختلاف الاجـــتهاد»[1]-حيـــث عدّ بعضهم (بسم الله الرحمن الرحيم) آيةً من كل سورة ، وبعضهم جعل حروف التهجي المفتـــتح بها كلها آيات ، ومهما يكن من أمر فإن الإجماع متحقق على أن ما في كل سورة من الآيات لم يزد عليه ولم يـــنقص وإن وقـــع خـــلاف في عدّ بعضها آية أو اثنين فلا يعتد به لندرته ، ولايؤثر في تماسك النَّصّ القرآني وترابطه .

إن اهـــتمام (ابن عاشور) بتحليل انسجام كل آية يقوم على أساس طول بعض الآيات ، التي تشتمل جملاً معترضـــة ، يقع بها الاحتراس وإزالة اللبس لدى السامع ، أو يستدرك بها الكلام . ومن جهة أخرى يقوم تحليل (ابـــن عاشـــور) للانســـجام في الآية على مبدأ التوقيف في عدّ آيات السورة ، بحيث يصبح تسلسل جمل الآية وتواليها محتاجاً إلى بيان علاقات الترابط والانسجام ونسوق لبيان ذلك الأمثلة الآتية :

١- قولـــــه تعالى : ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[2]

إن أســـلوب الآيـــة الكريمة يعتمد على الإيجاز ، والإبهام المستوجب للتأويل ويظهر ذلك مـــــــن أول جملتين فيها :

(كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً)

(فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ)

ففـــي أي شيء كان الناس أمة واحدة ؟ وهل يترتب بعث النبيين على كون الناس أمة واحدة؟ . أم أن في الكلام حذفاً يقتضيه التفريع عليه بقوله : (فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ) ؟ .

---

١ ابن عاشور : التحرير والتنوير ج١ ، ص٧٦. ويقصد بالاجتهاد : اجتهاد بعض السلف في جعل بعض مظاهر الوقف نهاية آية أو إدخال (بسم الله) في عدّ آيات السورة.

٢ سورة البقرة : الآية ٢١٣.

يجيب (ابن عاشور) على هذا بقوله : ((الوحدة –هنا– مراد بها الاتحاد والتماثل في الدين بقرينة تفريع (فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ))[1] .

أما على أيِّ دين كانوا أمة واحدة ؟ فإن (ابن عاشور) يورد ما تحتمله الآية من وجوه المعاني التي يذكرها المفسرون ، وقد لخصها في وجهين :

- الوجه الأول : ينقله عن الطبري ، وهو رأي جمهور المفسرين ، (فهو تفسير أبي بن كعب ، وابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة) ، وهو أيضاً مختار الزَّمَخْشَريّ ، والفخر الرازي ، ومفاده : أن يكون المراد: كانو أمة واحدة في الحق والهدى .

لكن (ابن عاشور) يلفت نظرنا إلى أن تفريع قوله : (فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ) عليه مُشْكَلٌ إذا ما نظر إلى أن مهمة الرسل هي إعادة الناس إلى الحق بعد الاختلاف ، لذلك يقول : ((فلا جرم أن يكون مجيء الرسل لأجل إبطال اختلاف حدث . وأن الاختلاف الذي يحتاج إلى بعثة الرسل هو الاختلاف الناشئ بعد الاتفاق على الحق ، كما يقتضيه التفريع على جملة (كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً) بالفاء في قوله: (فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ) وعلى صريح قوله تعالى : (لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ) ولأجل هذه القرينة يتعين تقدير: (فاختلفوا) بعد قوله: (أُمَّةً وَٰحِدَةً) لأن البعثة ترتبت على الاختلاف لا على الكون أمة واحدة ، ولو كان المراد أنهم كانوا أمة واحدة في الضلال لصّح تفريع البعثة على نفس هذا الكون بلا تقدير،ولولا أن القرينة صرفت عن هذا لكان هو المتبادر))[2]

وقد استدل (ابن عاشور) لبيان هذا الوجه بالرجوع إلى السياق الكلي للقرآن ، وذلك من قوله تعالى في سورة يونس: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُواْ ﴾[3] والآيتان متحدتان في الغرض –على حدّ قوله– ، كما استدل بسياق الظروف المحيطة بنزول هذه الآية ، وذلك ما يفيده قوله : ((لأنه لما أخبر هنا عن الناس بأنهم كانوا أمة واحدة ، ونحن نرى اختلافهم علمنا أنهم لم يدوموا على تلك الحالة))[4] كما استدل على هذا الفهم أيضاً بقراءة عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه) (كان الناس أمة واحدة فاختلفوا فبعث الله ...)بزيادة "فاختلفوا"[5].

---

١ التحرير والتنوير ج٢، ص٢٨٤.

٢ المصدر نفسه :ج٢، ص٢٨٤

٣ سورة يونس : الآية ١٩ .

٤ التحرير والتنوير : ج٢ ، ص٢٨٤.

٥ المصدر نفسه : ج٢ ،ص٢٨٤.

فالمقصـــود من الآية على هذا الوجه كما يقول (ابن عاشور) : "التنبيه على أن التوحيد والهدى والصلاح هي الفطرة التي فطر الله الناس عليها حين خلقهم ... وأنها ما غشاها إلاّ تلقين الضلال وترويج الباطل ، وأن الله بعث النبيئين لإصلاح الفطرة ... وأنه بعث محمداً (صلى الله عليه وسلم) لإكمال ذلك الإصلاح ، وإعادة الناس إلى الوحـــدة على الخير والهدى"[١]. وهذا –عند الباحث– هو القول الراجح الذي ترشحه كثير من الأحاديث النبوية والأخبار[٢].

- الوجــه الثاني : وقد أسنده (ابن عاشور) إلى الحسن ، وعزاه ابن عطية إلى ابن عباس –في أحد قوليه– وهــو: "أن المعنى : كان الناس أمة واحدة متفقين على الضلال والشر "[٣] ثم يفسر (ابن عاشور) ما فرع عليه فيقول : "وعليه فعطف قوله تعالى: (فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ) عطف على اللفظ الظاهر لا تقدير معه، أي كانوا كذلك فبعث الله النبيين ، فيُعلم أن المراد ليرشدوا الناس إلى الحق"[٤].

ثم يوضح المقصود بالآية على هذا الوجه فيقول : "فالمقصود من الآية على هذا التأويل: إظهار أن ما بعث الله بـــه النبـــيين قد وقع فيه التغيُّر والاختلاف ... وأن الله بعث محمداً بالقرآن لإرشادهم إلى ما اختلفوا فيه"[٥] وقد اختار (ابن عاشور) الوجه الأول .

وكـــان ابـــن عطية قد لخص هذين الوجهين بقوله : "كل من قدّر (الناس) في الآية مؤمنين قدر في الكلام (فاختلفوا) وكل من قدرهم كفاراً كانت بعثة النبيين إليهم "[٦] .

ولكـــن هناك وجه ثالث ، يضمنه (ابن عاشور) في الوجه الأول منسوباً إلى الفخر الرازي عن القاضي عبد الجـــبار[٧] ،وأبي مسلم الأصفهاني[٨] ،بينما يذكره ابن عطية مستقلاً ، واللفظ هنا لابن عطية وهو: "أن يخبر عن الـــناس الذيـــن هم الجنس كله ، أنهم أمة واحدة ،في خلوهم عن الشرائع وجهلهم بالحقائق ،لولا منُّ الله عليهم وتفضله بالرسل"[٩] .

---

١ التحرير والتنوير : ج٢، ص٢٨٤.

٢ ومن ذلك الحديث الذي في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه : (ما من مولود يولد إلا على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جماء هل تحسون فيها من جدعاء ؟ ثم يقول: "فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم") وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار التميمي أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : قال الله عز وجل: (إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم...)[صحيح مسلم : ٢٨٦٥] . وقد ذكر ذلك ابن كثير عند تفسير قوله تعالى : (وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا..)[الأعراف : ١٧٢].

[انظر : الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن كثير : تفسير القرآن العظيم :دار الفكر . بيروت ط(١٩٨١م)، ج٢، ص٢٦٤].

٣ التحرير والتنوير ،ج٢ ،ص٢٨٥. وانظر : المحرر الوجيز ص ١٨٧ .

٤ المصدر نفسه: ج٢ ؛ ص٢٨٥ .

٥ المصدر نفسه : ج٢ ،ص٢٨٥.

٦ المحرر الوجيز:ص ١٨٧.

٧ القاضـــي أبو الحسن عبد الجبار الأسد أبادي : قاضي قضاة الدولة البويهية بإيران ، أكبر أعلام المعتزلة في عصره ، لـــه مصنفات كثيرة أهمها : المغني في أبواب التوحيد والعدل ؛ وفيه جزء خاص بإعجاز القرآن . توفي (٤١٥هـــ) . [انظر :طبقات الشافعية للسبكي : ج٣ ،ص١١٤].

٨ أبي مسلم محمد بن مكي الأصفهاني : المتوفى (٤٥٩هـــ) .

٩ المحرر الوجيز :ص١٨٦.

وقـــد أشار(ابن عاشور) إلى أن حجة القائلين بهذا الوجه تستفاد من لفظ (النبيين) وهو: ((جمع يفيد العموم فيقتضـــي أن بعـــثة كـــل النبـــيين كانت بعد أن كان الناس أمة واحدة بدليل (الفاء)، والشرائع إنما تلقيت من الأنبياء))(1) .

ثم يفســـر ذلـــك بقولـــه: ((وهما يعنيان (أي : الفخر والأصفهاني) أن الله فطر الإنسان في أول نشأته على ســـلامة الفطـــرة مـــن الخطأ والضلال ... والذي نجزم به أن هذا كان في زمن من أزمان وجود الإنسان على الأرض...والأظهر أنه من زمن وجود آدم إلى أن أشرك قوم نوح))(2)

وكما وقع الاختلاف في تفسير العموم في ألفاظ (الناس) و (أمة واحدة) فقد تبعه الاختلاف في تفسير زمن الفعل (كان) فإنّ (ابن عاشور) يعقب –بعد بيان المقصود بالآية وفق الوجهين الأولين– بقوله: ((وأياً ما كان المراد فـــإن فعـــل (كان)هنا يستعمل في أصل معناه وهو اتصاف اسمها المخبر عنه بمضمون خبرها في الزمن الماضي وأن ذلك قد انقطع ،إذ صار الناس منقسمين إلى فئتين ، فئة على الحق وفئة على الباطل))(3) بينما يكون المراد بها على الوجـــه الثالث كما يقول ابن عطية: ((فـــ(كان) على هذا للثبوت ، لا تختص بالمضي فقط وذلك كقوله تعالى : (وكان الله غفوراً رحيماً))(4) .

والوجـــه مـــا ذكره (ابن عاشور) إذ لا يمتنع من ذلك دخول مضمون الوجه الثالث ضمن الأول، وليس هناك ضرورة لخروج فعل (كان) عن أصل معناه ما دام المعنى مستقيماً .

٢– يقـــول تعـــالى : ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝ وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾(5) .

موضع التحليل والمناقشة هو قوله تعالى:﴿ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ﴾.
فالجزء الأول من الآية ، وهو قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾ تابع لسياق ما حكاه القرآن على لسان الطائفة من أهل الكتاب . وقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ ﴾ هو الأمر الذي لقـــنه الله لرســـوله (صـــلى الله علـــيه وسلم) للرد عليهم ، وقد أشار (ابن عاشور) أنه كلام معترض ، والاشـــكال يقع في الجملة الثالثة ، وما يعطف عليها وهي قوله تعالى: ﴿ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ

١ التحرير والتنوير : ج٢ .ص ٢٨٧.
٢ المصدر نفسه : ج٢، ص٢٨٦.
٣ المصدر نفسه :ج٢ ،ص٢٨٥.
٤ ابن عطية : المحرر الوجيز.ص ١٨٦.
٥ سورة آل عمران : الآيتان ٧٢، ٧٣.

أَوۡ يُحَآجُّوكُمۡ عِندَ رَبِّكُمۡۗ ﴾. هـل هـي تابعة للكلام المفتتح بقوله: (وَقَالَت طَّآئِفَةٌ ...) فتكون رداً على قولهم : ﴿ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ ﴾ وقولهم : ﴿ وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ ﴾ ؟ أم أنها تابعة لمحاورة الطائفة على سبيل التعليل لقولهم: ﴿ وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ ﴾ ؟

يـتحدث (ابن عاشور) عن هذا الاشكال الذي وقع للمفسرين في تحديد موقع قوله:﴿ أَن يُؤۡتَىٰٓ أَحَدٞ مِّثۡلَ مَآ أُوتِيتُمۡ أَوۡ يُحَآجُّوكُمۡ عِندَ رَبِّكُمۡۗ ﴾ ووصـف نَظْم الآية وبيان معناها ، حيث يُعدُّها القرطبي أشكلَ آيـةٍ في السورة ، ويسرد ابن عطية وجوهاً ثمانية في وصف نظمها وبيان معناها وقد أرجع (ابن عاشور) الوجوه المختلفة في تفسير هذه الآية إلى احتمالين :

- "الاحـتمال الأول : أنها تكملة لمحاورة الطائفة من أهل الكتاب بعضهم بعضاً ، وأن جملة (قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ) معترضة في أثناء ذلك الحوار "[1].

ثم لخص ما يتفرع على هذا الاحتمال من وجوه المعاني المقصودة من هذا الترتيب إلى وجهين :

- الأول : أنهـم أرادوا تعلـيل قولهم: (وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ) ويحتاج هذا إلى تقدير (لام تعلـيل) محذوفة قبل (أن) المصدرية وحرف نفي بعد (أن) المصدرية مستفاد من كلمة (أحد) –الواردة في الآيـة– التي لا تأتي لمعنى الشمول إلا في سياق النفي فيصبح تقدير الكلام: لأن لا يؤتى أحدٌ مثلما أوتيـتم . وقـد أوضح (ابن عاشور) أن حذف لام التعليل المقدرة قبل أن المصدرية ، وحذف حرف النفي بعد لام التعليل ظاهرة ومقدرة من الحذف الشائع في الكلام[2] .
- الثاني : أن قوله: (أَن يُؤۡتَىٰٓ أَحَدٞ مِّثۡلَ مَآ أُوتِيتُمۡ) من كلام الطائفة ، على سبيل الاستفهام الإنكاري حذفت منه أداة الاستفهام أي "أنهم أرادوا إنكار أن يؤتى أحدٌ النبوة كما أوتيها أنبياء بني إسرائيل... ويؤيده قراءة ابن كثير[3] (أَن يُؤۡتَىٰٓ أَحَدٞ) بهمزتين"[4] .

١ ابن عاشور : التحرير والتنوير ج٣، ص١٢٧.

٢ ومن ذلك قوله تعالى: (يبين الله لكم أن تضلوا...) [النساء: الآية ١٧٦] أي لئلا تضلوا.

٣ هو عبد الله بن كثير المكي ، إمام أهل مكة في القراءات ، توفي (١٢٠هـ) .

٤ ابن عاشور : التحرير والتنوير ج٣، ص١٢٨. يقول مكي بن أبي طالب : ((قوله : "أن يؤتى" قرأه ابن كثير بالمد ولم يمدّ الباقون ، وحجة من مدّه أنه أدخل ألف الاستفهام على "أن" ليؤكد الانكار الذي قالوه ، بأنه لا يؤتى أحد مثل ما أوتوا ...وحجة من لم يمدّ أن النفي الأول دل على إنكارهم في قولهم: "ولا تومنوا" ، فالمعنى : أن علماء اليهود قالت لهم : لا تصدقوا بأن يؤتى أحد مثلما أوتيتم)).

[انظر : الكشف عن وجوه القرآءات السبع وعللها وحججها: تحقيق محيي الدين رمضان ،مؤسسة الرسالة ، ط٤(١٩٨٧م) ،ج١،ص٣٧٤].

ثم أشار ابن عاشور أن قوله تعالى: (أَوۡ يُحَآجُّوكُمۡ عِندَ رَبِّكُمۡۗ) يكون معطوفاً على (أَن يُؤۡتَىٰٓ أَحَدٌ) «على اختلاف التقديرين . والمعنى ولا يحاجوكم عند ربكم (في حال النفي) أو: وكيف يحاجُّوكم عند ربكم ، أي لا حُجّة لهم عليكم عند الله . وواو الجمع في (يحاجوكم) ضمير عائد إلى (أحد) لدلالته على العموم في سياق النفي أو الانكار»[1] .

- **الاحتمال الثاني** : أن يكون قوله تعالى: (أَن يُؤۡتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثۡلَ مَآ أُوتِيتُمۡ أَوۡ يُحَآجُّوكُمۡ عِندَ رَبِّكُمۡۗ) «مما أُمِرَ النبي (صلى الله عليه وسلم) أن يقوله لهم ، بقية لقوله: (إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ) والكلام على هذا ردّ على قولهم: (ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ) وقولهم: (أَن يُؤۡتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثۡلَ مَآ أُوتِيتُمۡ) على طريقة اللف والنشر المعكوس[2] فقوله: (أَن يُؤۡتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثۡلَ مَآ أُوتِيتُمۡ) إبطال لقولهم: (وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ) أي قلتم ذلك حسداً من أن يؤتى أحدٌ مثل ما أوتيتم . وقوله: (أَوۡ يُحَآجُّوكُمۡ) ردّ لقولهم: (ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ) على طريقة التهكم ... وعلى هذا فواو الجماعة في قوله: (أَوۡ يُحَآجُّوكُمۡ)عائدٌ إلى الذين آمنوا»[3] .

وقد رجح (ابن عاشور) هذا الاحتمال لمناسبته لنظم قوله تعالى: (قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ) الذي يأتي بعد تلك الجمل وذلك «ليكون لكل كلام حُكي عنهم تلقين جواب عنه ، فجواب قولهم: (ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ) قوله: (قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ) وجواب قولهم: (وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ) قوله: (قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ)»[4]

---

١ التحرير والتنوير : ج٣،ص١٢٨. وعطف قوله: (أو يحاجوكم)على (أن يؤتى أحد)في حالة تفسير المعطوف عليه بوجه الاستفهام الإنكاري مشكل من جهة الاعراب كما يقول أحمد بن محمد بن المنير الاسكندري صاحب حاشية الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال: (وهو وقوع أحد في الواجب لأن الاستفهام هنا انكار واستفهام الانكار في مثله اثبات)لكنه عاد فقال: (ويمكن أن يقال روعيت صيغة الاستفهام وإن لم يكن المراد حقيقته فحسُن لذلك دخول أحد في سياقه) .[انظر حاشية تفسير الكشاف :ج١ ،ص٤٠٠].

٢ اللف و النشر المعكوس : ويسمى أحياناً الطي والنشر ومعناه :أن يذكر متعدد ، ثم يذكر ما لكلٍ من أفراده شائعاً من غير تعيين اعتماداً على تصرف السامع في تمييز ما لكل واحد منها وردّه إلى ما هو له . وهو نوعان : أ – النشر المرتب : وهو أن يكون النشر فيه على ترتيب الطّي نحو قوله تعالى : (ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله) [سورة القصص : آية ٧٣] فقد جمع بين الليل والنهار ثم ذكر السكون لليل وابتغاء الرزق للنهار على الترتيب . ب- اللف والنشر المعكوس : وهو أن يكون النشر على خلاف ترتيب الطّي نحو قوله تعالى : (فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب) [سورة الإسراء : الآية١٢] ذكر ابتغاء الفضل للثاني ، وعلم الحساب للأول على خلاف الترتيب . [انظر : معجم البلاغة : ص٣٩٦ ، ٣٩٧] .

٣ ابن عاشور : التحرير والتنوير ، ج٣ ، ص١٢٩.

٤ المصدر نفسه : ج٣،ص١٢٩.

ومـــن هذين المثالين ، يظهر لنا جلياً أن هذا المستوى من التحليل للمناسبة والانسجام ، يعتمد فيه (ابن عاشـــور) على سياق الآية أولاً ، إذ لا يصح تأويل الجمل أو القضايا بمعزل عن الجمل أو القضايا السابقة عليها والتابعة لها كما تقرر ذلك قواعد الانسجام في الدرس اللساني الحديث .

وكذلـــك الحال حين يستخلص المفهوم من الجمل المتتالية في سياق الآية – في حالة الترتيب المخالف لما اعتاده القارئ أو السامع – من سياق الآيات ، ثم من سياق القرآن ،فإن لم تكف استعان بالظروف المحيطة ، كما صنع في انتصاره للوجه الأول من معاني الآية في المثال الأول .

ويظهـــر أيضـــاً أن (ابن عاشور) في تحليله لظاهرة الانسجام في نظم الآية الكريمة في المثال الثاني ، يرجِّحُ الاحـــتمال الـــثاني ، بالاعتماد على العلاقة المتبادلة بين مواقع الجمل السابقة واللاحقة بعيداً عن التأويل بإعادة ترتيـــب الكلام على افتراض الحذف والتقدير ، لتستقيم المناسبة،فما لا يحتاج إلى تقدير أولى بالأخذ مما يحتاج إلى تقدير إذا اتضحت العبارة واستقام المعنى .

المبحث الثاني:

تحول السياق وانتقال الخطاب

في المبحث السابق حديث عن منهج (ابن عاشور) في تحليل ظاهرة الانسجام بين الآيات في السورة الواحدة ،وفيه إشارات لطريقته في بيان ترابط مواقع بعض الآيات مع سياق الغرض الذي وردت فيه ، أو مع أغراض السورة ، وذلك حين لا يمكن ربط هذه الآيات مباشرة من خلال الوسائل اللغوية بما يسبقها مباشرة ، مما يمكن أن نطلق على البحث عن المناسبة لمثل هذه المواقع والمواضع بالبحث عن الانسجام في مواضع تحول السياق وانتقال الخطاب .

لقد كان السلف يصفون المناسبة في مثل هذه المواضع بأنها من مواضع خفاء الارتباط وقد وردت الإشارة إلى نماذج منها ذكرها الزركشي في البرهان ، ويبدو أن هذه المواضع التي توقف المفسرون أمامها طويلاً لإبراز تناسبها وانسجامها ما تزال تمثل ميداناً من الميادين التي تتفاوت فيها الأنظار للإتيان بوجوه مقنعة من المناسبات؛ وما ذلك إلا لخفاء العلاقات واحتجابها وراء السياق النَّصّي ، حيث يُفتقد عنصر (الاستمرارية) المعتمدة على الوسائل الموجودة في ظاهر النَّصّ (Surface Text) ويُحْتَاجُ معها لإعادة تصور (مكونات عالم النَّصّ) (Textual World) من المفاهيم والعلاقات ضمن ما يسمى حديثاً بـ(السياق الخارجي)المحيط بالنَّصّ ، وهذه العملية تستدعي التوسع في أساليب التأويل ، وعدم الاكتفاء بما يقدمه التفسير وحده لما هنالك من فرق منهجي بين التفسير والتأويل[1].

إن اهتمام (ابن عاشور) ببيان المناسبة في مواضع تحول السياق وانتقال الخطاب في السورة الكريمة ،وعرضِه لما قدمه المفسرون من وجوه ما يمكن أن يحتمله موقع الآية ، وترجيح بعضها والإتيان بوجوه أخرى ، تحتم على– هذه الدراسة– أن تخصص هذا المبحث في محاولة لوضع اليد على القواعد والإجراءات التي أخذ بها (ابن عاشور) في تحليل الانسجام في مثل هذه التحولات والانتقالات .

وقد أدرك (ابن عاشور) إشكال بعض هذه المواضع على كثير من المفسرين مما أدى ببعضهم إلى السكوت عن بيان المناسبة ، ومجيء بعضهم الآخر بما ليس فيه مقنع ،أو استظهار بعضهم بروايات من أسباب النزول ،منها الضعيف الذي لا ينبغي إيراده ، ومنها الصحيح الذي لا يمكن حمل موقع الآية عليه .

لهذا كله ، ولأهمية عودة (ابن عاشور) إلى السياق بأنواعه ، لتحليل الانسجام والمناسبة في مواضع تحول السياق وانتقال الخطاب ؛ كان لابد من أن نُمهِّد لهذا المبحث بمقدمة مختصرة لا غنى عنها نتحدث فيها عن

---

[1] يفيد كلام (ابن عاشور) أن هناك فرقاً بين التفسير والتأويل وإن استويا في البحث عن المعنى إلا أنه ((لا يطلق التأويل إلا على ما فيه تفصيل معنى خفي معقول.قال الأعشى :

عَلى أنَّها كانَت تَأوَّلُ حُبَّها   تَأوُّلَ رِبعِيِّ السِقابِ فَأَصحَبا

أي تبين تفسير حبها أنه كان صغيراً في قلبه ، فلم يزل يشب حتى صار كبيراً كهذا السقب أي ولد الناقة، الذي هو من السقاب الربعية لم يزل يشب حتى كبر وصار له ولد يصحبه)) ابن عاشور : التحرير والتنوير ،ج١،ص١٥. [والبيت في ديوان الأعشى : تحقيق د.محمد محمد حسين . مؤسسة الرسالة ط(٧)١٩٨٣م ص١٦٣]. وقد أورد ابن منظور عدّة معانٍ للتأويل منها التدبر والتقدير والتفسير ؛ يقول : "أوّل الكلام وتأوّله : دبّره وقدره ، وأوّله وتأوّله : فسره" ومعنى الرجوع والصيرورة "والمراد بالتأويل : نقل ظاهر اللفظ عن وضعه الأصلي إلى ما يحتاج إلى دليل لولاه ما تُرك ظاهر اللفظ". [انظر : لسان العرب : دار إحياء التراث العربي – مؤسسة التاريخ العربي – بيروت لبنان ، ط٣ ، (١٩٩٩م) ،ج١،ص٦٤-٦٥. مادة (أول)].

مفهوم السياق وأهميته في الدراسات القديمة والحديثة ، وبيان أنواع السياق التي يمكن الاستفادة منها في الدراسات اللغوية واقتراح نموذج لمستويات السياق تناسب طبيعة هذه الدراسة .

ومن ثم نتناول المقصود بتحول السياق وصور التعبير عنه في تفسير (ابن عاشور) مع بيان مؤشرات تحول السياق ، وانتقال الخطاب التي نبه عليها ، من خلال نماذج من دراسته للانسجام في عدد من مواضع التحول والانتقال في بعض سور القرآن ، مع محاولة تنظير عبارة (ابن عاشور) بما كتبه ثلاثة من المفسرين وهم على الترتيب الزمني : الزَّمَخْشَريّ ،وابن عطية ،والبقاعي ،وذلك لندرك مبلغ تميز (ابن عاشور) ومدى متابعته للمتقدمين في دراسة الانسجام في أدق مواضعه .

ويرجع السبب في اختيار هؤلاء الثلاثة لكون (ابن عاشور) قد نصَّ على عبارة اثنين منهم مباشرة في بعض المواضع وهما: الزَّمَخْشَريّ ، وابن عطية ، وذكر الثالث منهم في مقدمة التفسير ، ولم نجد إحالة عليه ولا إلى كتابه في أي موضع من هذه المواضع ، إلا أن تشابه العبارة وطريقة البحث عن المناسبة – في بعض المواضع – تدل على احتمال إطلاع (ابن عاشور) على ما كتبه البقاعي وإن لم يقتنع بما فيه ، كما أشار إلى ذلك في مقدمة التفسير[١].

١ انظر المقدمة العامة للتحرير والتنوير : ج١،ص٨.

❑ مفهوم السياق :

أ- السياق في الدراسات القديمة :

حضـــي مفهوم السياق بعناية الدرس اللغوي قديمه وحديثه ،وذلك لارتباطه بتشكيل المعنى والدلالة ؛فهو يمثل إحدى القرآئن التي يتوصل السامع والقارئ من خلالها لإدراك مقاصد النّصّ.

وقـــد كـــان العربي قديماً على معرفة بأن السياق والمقام يتحكمان – بشكل كبير- في انتظام العمل الأدبي واقناع السامع بتقبل الرسالة والتفاعل معها ،وتقدير قيمتها الفنية ، لذلك فقد راعى أثناء إعداد النّصّ (شعراً أو خطابة) حسن الانتقال بين أغراضه ، بحيث لا يشعر سامعه بنشاز في المعاني المتوالية ، كما وضع نصب عينيه المقام الذي سيلقي فيه ذلك النّصّ ،وظروف متلقيه وما يثير اهتمامه .

وبعـــد نشأة العمل النقدي لم يكن غائباً على النقاد – بمختلف اتجاهاتهم اللغوية والبلاغية والنحوية – أثر الســـياق والمقـــام في تفســـير الـــنّصّ ومعرفة رموزه وإشاراته وإيحاءاته ومصادرها الاجتماعية التي لا يمكن فهم النصوص بمعزل عن تصور مقاماتها الاجتماعية .

ولـــتحديد ذلك يقول (تمام حسان): ((لقد كان البلاغيون عند اعترافهم بفكرة "المقام" متقدمين ألف سنة تقريـــباً على زمانهم . لأن الاعتراف بفكرتي "المقام" و "المقال" باعتبارهما أساسين متميزين من أسس تحليل المعنى تعتبر الآن في الغرب من الكشوف التي جاءت نتيجة لمغامرات العقل في دراسة اللغة))[1] .

ومـــع التجاوز في قبول عبارة (الاعتراف) التي يذكرها (تمام حسان) في هذا النّصّ – كونها تشير إلى إنكار مســـبق لـــدى البلاغيين العرب للسياق – وهو ما لا نجد له أي أثر في الدراسات القديمة – مع افتراض حصول ذلك ؛ فإن هذه الفكرة المبكرة التي يعود إليها الاهتمام بالسياق في جانبي المقام والمقال دليل وعي كامل بأساليب الـــنظم والتركيب والتتابع في الكتابة النّصّية ، فلا غرابة أن يُقَعِّدَ السلف للفصل والوصل ،والاطناب والإيجاز ، وأســـاليب الإسناد،ولا غرابة –أيضاً– أن تظهر بعد ذلك فنون البديع المختلفة ، وتعرف القواعد العامة للخطابة والإنشاء،ولا عجب –كذلك – أن يضع الكتاب والمؤلفون مقدمات لنصوصهم ، في محاولة منهم لإعادة تصوير المقامات التي تشكلت في ظروفها تلك النّصّوص ، حتى تتضح مقاصدهم منها .

ومـــن جهة أخرى : فإننا نجد ملمحاً آخر للاهتمام بالسياق ، مما لـــه علاقة بدراستنا هذه، يظهر في تلك الشـــروط الـــتي وضعت لمن يتصدى للتفسير أو الفتوى الشرعية تدل على تقدير عالٍ واهتمام بالغ بالسياقات الداخلية والخارجية للنصوص ، حيث أوجبوا على المفسّر معرفة القرآن ناسخه ومنسوخه ، وألاّ يغفل عن بعضه في تفسير بعضه ،وأن يكون على علم بالسنة النبوية وملماً بأسباب النـــزول ،وأن يكون على علم بالعربية حاذقاً فـــيها ، مطلعاً على أساليب العرب في كلامهم ملماً بأخبارهم وأيامهم[2]، ومجمل تلك الشروط هو ما يمثل بلغة البحث الحديث معرفة سياق النّصّ وسياق الموقف ، أو ما يسمى بسياق النّصّ والسياق التداولي .

---

١ اللغة معناها ومبناها : ص٣٣٧.

٢ انظر المقدمة الثانية لتفسير التحرير والتنوير ففيها خلاصة ما ذكر السلف مما ينبغي على المفسر معرفته ج١، ص١٦.

فالأول: سياق داخلي: لأنه يمثل قرينة دلالية منطقية من داخل النَّصّ .

والثاني: سياق خارجي : لأنه يبحث عن الدلالة من الظروف المحيطة بالنَّصّ وظروف التواصل اللغوي .

يتجلّى السياق الداخلي(النَّصّي) في تسلسل المعاني في جمل النَّصّ ،وترابط وحداتـــه، وصلاتـــه الظـــاهرة بالنُّصوص المماثلة والمشابهة له ، والجنس اللغوي الذي ينتمي إليه .

ويتجلى السياق الخارجي (التداولي) في مجمل الظروف المحيطة بالنَّصّ : كنوع العلاقة بين المرسل والمستقبل (منتج النَّصّ ومتلقيه) وحالة المتلقي ، والقواعد والمسلمات العرفية والمنطقية التي تعدّ محط اتفاق بـــين العنـــاصر المتداولة لهذا النَّصّ ، ... الخ.

ويشهد لوعي المفسرين بأهمية استصحاب دلالة السياق في تفسير القرآن ، عبارات المفسرين المختلفة عـــن وظيفة السياق . فهذا ابن القيم[1] يجعل السياق إحدى القرائن التي يُسْتدلُّ بها على مُراد المتكلم ، حيث يقـــول: "السياق يرشد إلى تبيين المجمل ،وتعيين المحتمل والقطع بعدم احتمال غير المراد ، وتخصيص العام ، وتقييد المطلق، وتنوع الدلالة ،وهذا من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم فمن أهمله غلط في نظره وغـــالط في مناظرتـــه، فانظر إلى قوله تعالى: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾[2] كيف تجد السياق يدلّ على إنه الذليل الحقير"[3] .

وأكد الزركشي هذه الوظيفة بقوله: "من الأمور التي تعين على المعنى عند الاشكال دلالة السياق"[4] .

وتظهر الإجراءات التي يقوم بها المفسرون في مواضع كثيرة من التفسير وعيا كاملا بأهمية السياق النصـــي والسياق الخارجي في حمل كثير من مواقع الآيات وتفسير معانيها عليها .

كما يظهر وعي المفسرين بأهمية السياق الداخلي (النصي) أثناء توضيح العلاقات بين الجمل ،وذلك مـــن خلال تفسير معاد الضمائر أو الإشارات ،وتوجيه الخطابات ،وربط موقع الجملة والآية بسياقها النصي في السورة

وحين لا يسعفهم السياق النصي بما فيه غنية لبيان المناسبة والانسجام ، يستندون إلى الســـياق الخـــارجي (التداولي) وذلك بالرجوع لأسباب النـــزول ،وتمثل حالة المتلقي وتصور انفعالاته تجاه النص ، والرجوع إلى مـــا يعد من المسلمات أو القضايا المشتهرة في فترة نـــزول الوحي .

ومن ذلك ندرك – بلا مبالغة – المدى الذي وصل إليه الدرس القرآني في توظيف السياق للبحث عـــن الدلالة .

---

[1] شمس الدين أبو عبد الله محمد ابن أبي بكر بن أيوب المشهور بابن قيم الجوزية –نسبة إلى المدرسة التي أنشأها محيي الدين الجوزي- الإمام المحقق ، والأصولي ، والفقيه النحوي ، تلقى الأصول والفقه على شيخه ابن تيمية ولازمه ملازمة تامة وعني بالحديث ومتونه وبرع في علوم متعـــددة لاسيما علـــم التفسير والحديث ، توفي في شهر رجب سنة ٧٥١هـــ .

[انظر ترجمته في: مقدمة كتابه زاد المعاد : تحقيق شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط . مؤسســة الرسالة . بيروت .ط٣(١٩٩٨م) ص ١٥].

[2] سورة الدخان : الآية ٤٩.

[3] ابن قيم الجوزية : بدائع الفوائد –تحقيق بشير محمد عيون .مكتبة البيان .بيروت ط١(١٩٩٤م) ،ج٢ ،ص٣٠١.

[4] بدر الدين الزركشي : البرهان ،ج٢،ص٢٠٠.

ب – السياق في الدراسات الحديثة

مـــع تطـــور البحث اللغوي والدلالي ، أصبح السـياق نظرية أخذت بها بعض الاتجاهات في النقد الأدبي ، وعلم الأسلوب ، وعلم اللغة النَّصّي.

ومن أهم المدارس الغربية الحديثة التي اهتمت بالسياق ، مدرسة فيرث(Firth) الإنجليزية ، فقد أصبح اسم هذا اللغوي يُذكر مع ذِكْر أنواع من السياق مثل السياق اللغوي (Linguistic Context) والسـياق الثقـــافي (Cultural Context) .

وقـــد أكـــد (فـــيرث) أن ((المعنى لا ينكشف إلا من خلال تسييق الوحدة اللغوية أي وضعها في سياقات مختلفة... فمعظم الوحدات الدلالية تقع في مجاورة وحدات أخرى ،وأن معاني هذه الوحدات لا يمكن وضعها أو تحديدها إلا بملاحظة الوحدات الأخرى ، التي تقع مجاورة لها))[1].

ومن الباحثين العرب المعاصرين الذين ركزوا على ضرورة الاهتمام بالسياق باعتباره قرينة من قرائن إنتاج الدلالـــة ؛ تمّام حسان ، وصلاح فضل ، وأحمد مختار عمر ، ومحمد مفتاح ، وغيرهم ، وقد اختلفت زوايا نظرهم إلى السياق باختلاف المناهج التي يعتمدون عليها، ولكنها جميعاً تبحث في تحديد العلاقة بين النّصّ والسياق .

فهذا (صلاح فضل) – مثلاً – يُعدُّ علاقتي المجاورة والاستبدال ، المتعلقتان بخط الكلمات المتعاقبة أفقياً أو رأسياً في النّصّ أهم العلاقات السياقية[2].

أما (محمد خطابي) فيربط بين السياقين النَّصّي والتداولي ، من أجل الوصول إلى معالجة صحيحة للخطاب. ففي معرض شرحه لعبارة الباحث اللساني (فان ديك) يقول : ((الخطاب مرتبط بشكل نسقي مع الفعل التواصلي (الـــتداول) ولما كان هذا هكذا فإن "المكون التداولي لن يحدد فقط شروط المناسبة بالنسبة للجمل ، بل سيحدد أيضاً شروط المناسبة بالنسبة لأنواع الخطاب " والمقصود بالمناسبة – سواء فيما يتعلق بالجمل أو بأنواع الخطاب– مناسبة الجمل والخطابات للسياقات التواصلية التي تنجز فيها))[3].

❑ الملامح السياقية :

لقـــد ظلـــت عملية تحديد الملامح السياقية التي يمكن دراسة النّصّوص من خلالها في الكتابات النقدية غير منضـــبطة ، حيـــث اختلفت النماذج المحددة لأنواع السياق ، الأمر الذي دفع ببعض الباحثين[4] إلى تصنيفها في نوعين من السياق: السياق النَّصّي : ويشمل :

- الإطار اللغوي : الصوت ،والصرف ، والنحو ، والمعجم.
- الإطار التركيبي : ويشير إلى :
  - بداية الجملة أو الفقرة أو النّصّ ووسطها ونهايتها.

---

[1] أحمد مختار عمر : علم الدلالة ، عالم الكتب – مصر . ط٤(١٩٩٣م)ص٨٦.

[2] صلاح فضل:نظرية البنائيةص٢٠.

[3] لسانيات النص ص١٩.

[4] نقل هذا التصنيف صلاح فضل في كتاب علم الأسلوب ص ٢٤٤.

- علاقة النَّصّ بالوحدات النَّصّية القريبة منه .
- الوزن أو الشكل الأدبي .

٢- السياق الخارج عن النَّصّ ويشمل : (سياق الموقف - السياق التداولي - السياق الثقافي) ويتمثل ذلك في :

- العصر
- نوع القول وجنسه .
- ظروف منشئ النَّصّ أو مرسله .
- أنواع المتلقي (المستمع أو القارئ) وعلاقته بالمرسل .
- سياق الموقف و الظروف المحيطة .

ويعد هذا التصنيف التوفيقي مقبولاً -إلى حدّ كبير- عند كثير من الباحثين[1] وإن اختلفوا في المفردات المدرجة تحت هذين النوعين من السياق .

ولكي يظل الحديث عن مفهوم السياق مرتبطاً بالدراسة التطبيقية لظاهرة الانسجام في النَّصّ القرآني ، كما تتجلى في تفسير (ابن عاشور) فإن هذا البحث يقترح نموذجاً لتقسيم أنواع السياق ، لا يبعد عن التصنيف السابق كثيراً ، ويتناسب مع دراسة مواضع تحول السياق وانتقال الخطاب في جميع المستويات النَّصّية (الآية، الغرض ، السورة ، القرآن الكريم) وغير النَّصّية المتمثلة في السياق الخارجي (التداولي) في ضوء ما تم استخلاصه من مقدمات عن نظرة (ابن عاشور) للانسجام .

لذلك فإنه يمكن تصنيف أنواع السياق -في هذا البحث- على النحو الآتي :

أ - السياق الداخلي ويشمل :

١-السياق الجزئي : وهو سياق الآية الكريمة في الغرض الذي وردت فيه ، وعلاقتها بما قبلها وما بعدها .

٢-السياق النَّصّي : وهو سياق السورة ، بناءً على ما اعتمدناه من جعل مصطلح (النَّصّ) يقابل مصطلح (السورة).

وذلك حين يعتمد (ابن عاشور) في تحديد موقع الآية على أغراض السورة عموماً ، أو حين يبين علاقة الآية (موضع الانتقال) بأهم أغراضها ، أو حين يُنَظِّر موقع الآية بموقع آية أخرى سابقة عليها .

٣- السياق الكلّي للنَّص : سياق القرآن كله ونلمسه حين يَعْمد (ابن عاشور) إلى بيان موقع الآية أو معناها بالاعتماد على آية أخرى من سورة أخرى ، أو أن يدرجها ضمن ما سمي بعادات القرآن .

ب - السياق الخارجي : وهو سياق غير نَصّي ، فيشمل الجانب التداولي المتعلق بالمتلقي وظروفه وأحواله ، وقواعد الحوار و الحجاج والتخاطب ،وانتهاءً بالسياق الثقافي العام.

---

[1] انظر صلاح فضل : علم الأسلوب ، ص٢٤٤ ، ٢٤٥.

ونفترض –سلفاً– أن اعتماد هذا التقسيم سيعين في فهمنا تفسير (ابن عاشور) للمناسبة في مواضع التَّحول والانتقال ، وهو يستصحب كل هذه الأنواع من السياق .

❑ تحول السياق وموقف المفسر :

يمكن الإشارة بدايةً إلى أن التفسير يُعنى بالإجابة على سؤالين مهمَّين هما :

- ماذا يعني النَّصّ ؟
- وكيف عملت الوسائل اللغوية والدلالية على أداء ذلك المعنى ؟

ولهذا فإن المفسر – وهو أحد متلقِّي النَّصّ – يقوم "بتنظيم عمليتي الاسترداد والاستدلال بحسب مقتضيات النَّصّ إن كفت ، فإن لم تكف فلتعزز بالمقتضيات الخارجية"[١] .

وبعبارة أخرى : فإن المفسر – وهو يقوم بدور المتلقي في أفضل أحواله – يعمل على ملئ فراغات النَّصّ[٢] التي تظهر في مواضع الانتقال والحذف والطَّي للوقائع ، مستعيناً بما يسمى بـ(وجهة النَّظر الطَّوافة)[٣] التي يستخدمها المفسر لتعديل توقعاته عن التسلسل والتوالي في الأغراض والمعاني ، ووفق هذه النظرة فإنه يستصحب معه المعرفة بظروف تنـزل القرآن وإدراك غاياته ومقاصده العامة ، وأحوال متلقيه .

وعلى قدر تفاوت فاعلية وجهة النظر الطَّوافة هذه تتفاوت أساليب المفسرين في التعبير عن الانسجام في مواضع تحول السياق وانتقال الخطاب .

إن مراعاة (ابن عاشور) لخصوصية أسلوب القرآن في ترتيب آيات السورة ؛ المتمثل في تسليمه بدايةً أن الانتقال من غرض لآخر في القرآن لا يستلزم له وجود مناسبة بين المنتقل منه والمنتقل إليه ، قد كان يسير جنباً إلى جنب مع مراعاته كذلك لمسلمة مفادها : أن نظم أغراض السورة مفيد بوضعه وجود ترابط وانسجام، ولذلك لم تخل مواضع الانتقال وتحول السياق من ذكر لبعض وجوه المناسبة مستعيناً بجميع أنواع السياق ، وفي حالات قليلة جداً وجدنا (ابن عاشور) يتوقف عن ذِكْر أي مناسبة لمواضع الانتقال ، ولكنه في الوقت ذاته لا ينسى الإحالة إلى نوع من أنواع السياق يفيد في إدراك خصوصية ذلك الانتقال في ذلك الموضع .

وقبل أن نستعرض موقف (ابن عاشور) من تحليل المناسبة في مواضع الانتقال سنوضح المقصود بتحول السياق وانتقال الخطاب فنقول :

يقصد بتحول السياق وانتقال الخطاب عموماً : أن يحدث تغير في موضوع الآيات ذات الغرض الواحد ، أو في موضوعات الأغراض المتتابعة المتناسبة في السورة الواحدة، وحين يطول هذا الخروج بحيث لا يعود إلى الغرض

---

١ محمد مفتاح : دينامية النَّصّ ص٢٨ .

٢ ليس القصد أن يقال إن في النَّصّ القرآني فراغ بمعنى النقص – حاشا لله – ولكن المقصود أن أسلوب القرآن يعتمد على طَي بعض الأحداث والوقائع وحذف بعض المتعلقات ، وإحداث انتقالات متعددة ، لأغراض ومقاصد أسلوبية هي غاية في الدقة والإمتاع .

٣ (مصطلح وجهة النظر الطوافة) يرد في الكتابات النقدية المعتمدة على نظرية التلقي والقراءة وقد تم اقتباسه من ترجمة الدكتور عز الدين إسماعيل . كتاب نظرية التلقي لروبرت هولب .

المنتقل منه يسمى (انتقالاً) ، أما حين يعود إلى السياق المنتقل منه فيطلق عليه (تحولاً سياقياً). وهذا ما يفترضه الباحث بناءً على تتبع طريقة (ابن عاشور) في تفسير مواضع الانتقال والاعتراض .

وهذا الفرق بين التحول والانتقال إنما يفهم من عبارة (ابن عاشور) في مواضع تحول الخطاب، وقد نصَّ على "الانتقال" ولم يذكر "التَّحول" ؛ ولكن التتبع للإجراءات التي يقوم بها في دراسة الانسجام والمناسبة تؤول إلى هذا التفريق في الغالب .

وذلك أن انتقال الخطاب : يكون بمناسبة وبغير مناسبة ، ويتم بعدة صور منها الإضراب الانتقالي، والتفريع على غير ما يتضح من ظاهر النَّصّ التفرع عنه ، وتغير الأسلوب ، والاستئناف ، وغالباً ما يسبق هذا الانتقال تمهيد وتوطئة للتخلص إليه بواسطة تذييل الغرض السابق بما يؤدي إلى حسن التخلص إلى الغرض المستأنف أو المنتقل إليه .

أما تحول السياق : فتختلف صوره ، إذ يكون بالاعتراض أو الاستطراد لمناسبة ، أو الاقتضاب ؛ ثم العودة إلى سياق غرض الآيات أو أغراض السورة ، وكثيراً ما يكون تحول السياق بالاعتراض توطئةً وتمهيداً للانتقال في الخطاب .

ولتوضيح هذه الفروق نسوق هذه الأمثلة من تفسير(ابن عاشور) ؛ ليزداد ما ذكر جلاء ، ويتضح لنا كيف يتداخل تحول السياق ، مع انتقال الخطاب في آيات متتابعة :

- قال تعالى : ﴿ صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۞ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۞ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۞ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾[1] .

فالآية الأولى من هذه الآيات قسمٌ حذف جوابه ، والآية الثانية إضرابٌ يقتضي صرف النظر عن الكلام السابق إبطالاً أو انتقالاً[2]. فما الغرض من حذف جواب القسم في الآية الأولى قبل الانتقال ؟ يجيب (ابن عاشور) على ذلك بقوله: "جواب القسم محذوف يدل عليه السياق ، وليس حرف (ص) هو المقسم عليه

---

١ سورة ص : الآيات ١-٤.

٢ يذكر ابن عاشور وجهين لهذا الإضراب ، هما الإبطال والانتقال . وكلاهما عوّن على بيان ما نحن بصدده ، إلا أنه ذكر أن الإبطال المستفاد من (بل) في هذا الموضع لا تصبح فيه (بل) بمعنى النفي ، ولكنه إبطال لما ينشأ من توهّم عن الكلام الذي قبله ، فأخذنا الوجه الثاني (الانتقال)ليستقيم التمثيل على انتقال الخطاب . وقد وضح ابن هشام استعمال الحرف (بل)في الإضراب والانتقال في القرآن خلافاً لابن مالك الذي زعم أنها لا تقع في التنزيل إلا للانتقال.يقول ابن هشام : "(بل) حرف إضراب ، فإن تلاها جملة كان معنى الإضراب إما الإبطال ، نحو : (وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون)[سورة الأنبياء : الآية ٢٦]أي بل هم عباد ... وإمّا الانتقال من غرض إلى آخر... ومثاله : (قد أفلح من تزكى . وذكر اسم ربه فصلى . بل تؤثرون الحياة الدنيا)[سورة الأعلى : الآيات ١٤ - ١٦] ونحو : (ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يظلمون . بل قلوبهم في غمرة...الآية)[سورة المؤمنون: الآيات٦٢ ، ٦٣]وهي في ذلك كله حرف ابتداء لا عاطفة على الصحيح "[انظر : مغني اللبيب.ص١٥١ ، ١٥٢]. والظاهر أن استخدام (بل) للانتقال كثير ، فالأعشى -مثلاً- بعد أن ذكر ناقته المفتولة التي قطع بها البائدة الموحشة قال :

بل هل ترى عارضاً قد بتُّ أرقبه   كأنما البرق في حافاته سُعُلُ

مقدمـاً على القسم : أي ليس دليل الجواب من اللفظ بل من المعنى والسياق . والغرض من حذف جواب القسم هنا الإعراض عنه إلى ما هو أجدر بالذِكْر ، وهو صفة الذين كفروا وكذبوا بالقرآن))[١] .

إذن حذف جواب القسم يُعدُّ مؤشراً من مؤشرات الانتقال .

ويزداد الانتقال وضوحاً مع مجيء حرف الإضراب (بل) في بداية الآية الثانية ، وقد عرض (ابن عاشور) في معـنى الإضـراب بـ(بل) في هذا الموضع احتمال أن يكون إضراباً إبطالياً أو انتقالياً . والإضراب الانتقالي هو المقصـود من ضرب هذا المثل ، ولذلك يقول (ابن عاشور) : ((ولك أن تجعل (بل) إضراب انتقال، من الشروع في التـنويه بالقرآن إلى بيان سبب إعراض المعرضين عنه ... ومعنى ذلك أن الكلام أخذ في الثناء على القرآن ثم انقطع عن ذلك إلى ما هو أهم))[٢].

أمـا الآية الثالثة وهي قوله تعالى : (كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ) فموقعها كمـا يقول (ابن عاشور) :((استئناف بياني ، لأن العزة عن الحق والشقاق لله ولرسوله (صلى الله عليه وسلم) مما يـثير في خاطر السامع أن يسأل عن جزاء ذلك ، فوقع هذا بياناً له . وهذه الجملة معترضة بين جملة (بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ) وبين جملة(وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ)))[٣] .

ولتطبيق ما ذكر من فرق بين تحول السياق وانتقال الخطاب على هذا المثال : نجد الآية الثانية تعتبر (انتقال خطـاب) معتمد على أسلوب الإضراب الانتقالي بواسطة الحرف (بل) ، وقد تقدَّمَ هذا الانتقال تمهيدٌ هو حذف جـواب القسم في الآية الأولى . ولم يرجع سياق التنويه بالقرآن إلا بعد آيات كثيرة ؛ لا في غرض مستقل ولكن في آيـات وقـع الاعـتراض بها بين الأغراض المتتابعة مثل قوله تعالى : ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[٤] حيـث أعيد التنويه بالقرآن ، لغرض الإعراض عن خطاب المشركين، وتوجيه الخطاب للنبي (صلى الله عليه وسلم) .

بيـنما الآية الثالثة تُعَدُّ من أمثلة تحول السياق ، إذ وقعت معترضة بين آيتين لهما نفس الغرض ، وقد جاء أسـلوبها معـتمداً عـلى الاستئناف البياني ، وهذا الاعتراض قد ساقت إليه المناسبة ، وهي منتزعة من السياق الخـارجي للـنص(السياق التداولي) ؛ حيث نشأ من توقُّعِ سؤال لدى المتلقي ؛ تأتي الآية لتجيب عليه ، ثم يعود السـياق مرةً أخرى لمواصلة الغرض الذي جاءت فيه الآيات السابقة واللاحقة ؛ فحقيقٌ أن يوصف هذا بالتَّحوُّل لا بالانتقال.

---

١ التحرير والتنوير : ج ٢٣،ص١٠٨.

٢ المصدر نفسه :ج٢٣ ،ص١٠٩.

٣ المصدر نفسه :ج ٢٣،ص١١٠.

٤ سـورة ص : الآية ٢٩ . وقد أعيد الحديث عن القرآن في الآية (٤٩) وهي قوله تعالى (هذا ذِكْر وإن للمتقين لحسن مئاب) وذلك لفصل الكلام السابق عليها عن اللاحق .

❑ **الانسجام في مواقع التحول والانتقال** : مقارنة بـ(الزَّمَخْشَريّ – ابن عطية – البقاعي)

مـن خـلال تتبع منهج (ابن عاشور) في دراسة انسجام الآيات القرآنية التي هي مواضع لانتقال الخطاب وتحول السياق ، يمكن تصنيف طريقته في البحث عن المناسبة حسب نوعي السياق إلى ما يلي :

١- توظيف السياق الداخلي للقرآن في بيان المناسبة والانسجام .

٢- توظيف السياق الخارجي في بيان الانسجام .

وتحت هذين النوعين صور متعددة تتجلى من خلالها وسائل الانتقال ، وأساليب التَّخلُّص بين الأغراض المُنتَقلِ منها والمنتقل إليها .

لقـد تم اختيار بعض مواضع تحول السياق وانتقال الخطاب في القرآن ؛ حيث نص (ابن عاشور) بعبارة صـريحة على حدوث الانتقال مثل قوله : (مناسبة الانتقال كذا ... ، أو مناسبة موقع هذه الآية عقب قوله تعالى كذا ... خفية ، أو هذه الجملة انتقال من كذا ...) .

وحـتى ندرك الجهد الذي بذله (ابن عاشور) في الاهتمام بدراسة المناسبة في مواضع الانتقال فقد تمّ تَنْظِيرُ عبارته في بعض المواضع بعبارة الزَّمَخْشَرَيّ ، وابن عطية ، والبقاعي ، حيثما كان الموضع قابلاً للمقارنة .

وقد انحصرت المقارنة في مدى استخدام كل واحد منهم لنوعي السياق المذكورين آنفاً ، ومبلغ تأثير ذلك في تحديـد وجـوه المناسبة بين الآيات . ويتضح ذلك من خلال دراستنا لنماذج من مواقع التحول والانتقال في القرآن وذلك على النحو الآتي :

أولاً توظيف السياق الداخلي للنص :

يعـتمد (ابـن عاشور) أثناء دراسة المناسبة والانسجام في مواضع تحول السياق وانتقال الخطاب أساساً على استخدام معطيات السياق الداخلي بمستوياته الثلاثة : السياق الجزئي (سياق الآية في الغرض) والسياق النَّصّي (سـياق السورة) والسياق الكلي للقرآن ، وقد يعزِّزُ ذلك بما يناسب من عناصر السياق الخارجي إذا احتاج الموضع إلى مزيد بيان . ويتضح ذلك من الأمثلة الآتية :

- سورة الفاتحة :

هذه السورة الكريمة ذات أغراض متناسبة ، يوضحها الحديث القدسي المرويّ في الصحيحين أن رسول الله (صـلى الله عليه وسلم) قال: (قال الله عز وجل : قسمت الصلاة نصفين ، بيني وبين عبدي ، فنصفها لي ونصـفها لعبدي ، ولعبدي ما سأل ، يقول العبد : (الحمد لله رب العالمين) فأقول : حَمَدَنِي عَبْدي ، فإذا قـال العبد: (الرحمن الرحيم) يقول الله : أثنى عليّ عبدي ، وإذا قال العبد: (مالك يوم الدين) ،قال الله : مجـدني عـبدي وإذا قـال : (إيـاك نعـبد وإيـاك نسـتعين) قـال الله : هذا بيني وبين عبدي . وإذا قال:(اهدنـا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضـــــالين)

قال الله : هؤلاء لعبدي ولعبدي ما سأل))[1] . ولذلك فإن أغراض هذه السورة يمكن أن تُحدَّد من هذا الحديث .

وقد اعتمد (ابن عاشور) في بيان ترابط أغراض هذه السورة على تتبع وسيلة الربط المتمثلة في الإحالة بالضمائر؛ إذ يمثل تَغيُّرها مؤشراً على الانتقال من غرض إلى غرض ؛ ففي بيان انسجام موضع الانتقال في هذه السورة وهو قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[2] يقول (ابن عاشور) : ((انتقال من الإفصاح عن حق الرَّبِّ إلى إظهار مراعاة ما يقتضيه حقه تعالى من إفراده بالعبادة والاستعانة. فهذا الكلام استئناف ابتدائي ... والانتقال من أسلوب الحديث بطريق الغائب المبتدإ من قوله : (الْحَمْدُ لِلَّهِ) إلى قوله :(مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ)إلى أسلوب طريق الخطاب ابتداءً من قوله : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) إلى آخر السورة فنٌ بديع من فنون نظم الكلام البليغ عند العرب ، وهو المسمى في علم الأدب العربي والبلاغة التفاتاً))[3] .

فالانتقال بين الأغراض تحقق بواسطة الالتفات بالضمائر من الغائب إلى المخاطب ، وهو التفات في السياق النَّصِّي (سياق السورة) الذي رتبت فيه الآيات . وقد نَبَّه الزَّمَخْشَرِيّ إلى دلالة الالتفات المختصة بهذا الموضع بقوله : ((لما ذكر الحقيق بالحَمْدِ ، وأجرى عليه تلك الصفات العظام ، تَعَلَّق العلم بمعلوم عظيم الشأن حقيق بالثناء وغاية الخضوع والاستعانة في المهمات، فخوطب ذلك المعلوم المتميز بتلك الصفات ، فقيل : إيَّاك يا مَنْ هذه صفاته نخص بالعبادة والاستعانة لا نعبد غيرك ولا نستعينه ليكون الخطاب أدَلَّ على أن العبادة له لذلك التَّميُّز الذي لا تَحِقُ العبادة إلا به))[4] .

ويتضح أن هذه الدلالة منتزعة من السياق الداخلي للنص من جهة ، ومستقاة من السياق الخارجي، حيث تَمثَّل الزَّمَخْشَرِيّ حالة المتلقي في تفسيره تحول الكلام من الغيبة في الوصف والثناء ، إلى الخطاب في إعلان الإخلاص في العبودية والاستعانة . وهو الأمر ذاته الذي أشار إليه (ابن عاشور) بقوله : ((فإن الحامدَ لَمّا حَمِدَ الله تعالى ووصفه بعظيم الصفات ، بلغت به الفكرة منتهاها ، فَتَخيَّل نفسه في حضرة الربوبية ، فخاطب ربه بالإقبال))[5] .

---

١ الحديث في صحيح مسلم : كتاب الصلاة . باب وجوب قراءة الفاتحة ، رقم(٥٩٨).

٢ سورة الفاتحة:الآية ٥ .

٣ التحرير و التنوير : ج١ .ص١٧٥ ، ١٧٦. وقد اختلفت عبارة علماء البلاغة والتفسير في تعريف مصطلح الالتفات ، ففي حين يُعرِّف عبد الله بن المعتز(ت٢٩٦)الالتفات أنه : (انصراف المتكلم من المخاطبة إلى الاخبار ، وعن الاخبار إلى المخاطبة ، وما يشبه ذلك ، ومن الالتفات الانصراف عن معنىً يكون فيه إلى معنىً آخر) [انظر: البديع : عبد الله بن المعتز ،تحقيق أغناطيوس كراتشوفسكي ، دار المسيرة ،بيروت ،ط٣(١٩٨٢م) ص٥٨ ،٥٩].
نجد أن يحيى بن حمزه العلوي (ت٧٠٥) يصفه بقوله : (هو العدول من أسلوب في الكلام إلى أسلوب آخر مخالف للأول ، وهذا أحسن من قولنا هو العدول من غيبة إلى خطاب ، ومن خطاب إلى غيبة ؛ لأن الأول يعم سائر الالتفاتات كلها . والحد الثاني إنما هو مقصور على الغيبة والخطاب لا غير) .
[انظر الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز : يحيى بن حمزة العلوي ، بعناية سعيد بن علي المرصفي ، دار الطباعة الخديوية ، القاهرة ط(١٩١٤م)ج٢ ،ص١٣١].
والظاهر أن توسيع مساحة المصطلح ليشمل الالتفات في الضمائر والالتفات في الأسلوب أولى من مجرد الاقتصار على الضمائر وقد سبق الحديث عن تقسيم آخر للالتفات أورده تمام حسان انظر ص٨٠ من هذا البحث .

٤ الكشاف : ج١ ،ص٦٥ ، ٥٧ .

٥ التحرير والتنوير : ج١ ، ص١٧٦.

وللالتفات وظيفة أسلوبية (تركيبية ودلالية) ألا وهي التخلُّص من الغرض الأول إلى الغرض الثاني . وفي ذلك يقول (ابن عاشور) : "ومما يزيد الالتفات وقعاً في الآية أنه تخلُّص من الثناء إلى الدُّعاء ، ولا شك أن الدعاء يقتضي الخطاب ، فكان قوله : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) تَخَلُّصاً يجيء بعده (إهدنا الصراط...)الآيات"[1] .

والعبارة هذه توضح جانباً من جوانب القيمة الأُسلوبية للالتفات ، حيث يتحقق بواسطته تأدية حق المقامات الخطابية كلاً بما يناسبها ، فمقام الثناء يناسبه أسلوب الاخبار بضمائر الغيبة ، ومقام الدعاء يناسبه أسلوب الخطاب بضمائر الخطاب .

لقد وظَّف (ابن عاشور) في بيان انسجام موضع الانتقال في هذه السورة ، السياق اللغوي وهو سياق النَّصّ الداخلي من خلال تتبع مؤشر الضمائر . ولكن هذا الانتقال لم يكن مفاجئاً لأن الالتفات ساعد على التخلُّص بين هذه الأغراض .

كما وظَّف (ابن عاشور) السياق الخارجي للنَّصّ حين تمثل حالة المتلقي (الحامد) وما يقتضيه مقام الثناء ومقام الدعاء من إجراء أسلوبي مناسب ، وقد أحالنا على المُتَعَارف عليه في مثل هذه المقامات وذلك بقوله : "ومفاتحة العظماء بالتمجيد عند التوجه إليهم قبل أن يخاطبوا طريقةٌ عربيةٌ"[2] . وأورد على ذلك مثالاً من شعر النابغة الذبياني في مدح النعمان بن المنذر[3].

وخلاصة القول : إن تغيُّر الأسلوب يُعَدُّ أحد مظاهر انتقال الخطاب ، وقد كانت وسيلته هنا: الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ، الذي يُعَدُّ أيضاً وسيلة للتوطئة والتخلُّص بين الأغراض مما يصح معه أن يُعَدَّ الالتفات مؤشراً من مؤشرات تحول السياق وانتقال الخطاب في القرآن الكريم.

- سورة البقرة :

يقول تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾[4].

لقد كان حديث القرآن في الآية المتقدمة على هذه الآية ؛ حديث موعظة بذِكْر أحوال الأمم السابقة وذلك في قوله تعالى : ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ

---

١ التحرير والتنوير :ج ١،ص١٧٧.

٢ المصدر نفسه :ج ١،ص١٧٥.

٣ روى أبو الفرج الأصفهاني عن حسان بن ثابت قال : كنت عند النعمان فنادمته وأكلت معه فبينا أنا على ذلك معه في قُبَّة إذا رجل يرتجز حولها :

أصمٌ أم يَسمع ربُّ القبة … يا أوهَبَ النّاسِ لعيسٍ صُلْبَه
ضَرّابَةٍ بالمِشفَرِ الأَذِبَّـــة … ذاتِ هِبابٍ في يَدَيها خُلْبَه
في لاحِبٍ كأنّه الأطِبّه

فقال النعمان : أليس بأبي أمامه ؟ (كنية النابغة) قالوا : بلى .قال : فأذنوا له ، فدخل .[انظر :أبو الفرج الأصفهاني ، كتاب الأغاني :ج١١، ص٣٥١٨(د.ت.ط)].

٤ سورة البقرة:الآية : ٢١٤ .

بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[1].

ثم افتتحت الآية بعدها بالاضراب بـــ(أم) إضراباً انتقالياً عن الكلام السابق، فاحتاج الأمر إلى بيان مناسبة هذا الانتقال وقد نقل (ابن عاشور) عبارة الزَّمَخْشَرِيّ في بيان مناسبة هذا الانتقال ، وشرحها بقوله : "وبيانه أن القَصْــدَ مـــن ذِكْــر الأمـــم السابقة حيثما وقع في القرآن هو العبرة والموعظة والتحذير من الوقوع فيما وقعوا فـــيه...فكـــان قولـــه تعالى : (كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً ...الآية) . إجمالاً لذلك . وقد ختم بقوله : (فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ) ولـمـا كان هذا الختام مَنْقَبَةً للمسلمين ؛ أوقضوا أن لا يزهوا بهـــذا الثـــناء ... فَعَقّـــبَ بأن عليهم أن يصبروا لما عسى أن يعترضهم ... على عادة القرآن في تعقيب البشارة بالنذارة ، وعكس ذلك . فيكون قوله : (أَمْ حَسِبْتُمْ) إضراباً عن قوله : (فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟)"[2] .

ومـــع أن الزَّمَخْشَرِيّ يجعل الكلام في الآية من باب الالتفات من الغيبة إلى الخطاب[3] بناءً على ما تقدم في قولـــــه تعـــالى : (فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ...)فإن (ابن عاشور) يردّ هذا ويقـــول : " والأظهـــر أنه لما وقع الانتقال من غرض إلى غرض بالإضراب الانتقالي الحاصل بـــ(أم) صار الكلام افتـــتاحاً محضـــاً ، وبذلـــك يـــتأكد اعتبار الانتقال من أسلوب إلى أسلوب، فالالتفات هنا غير منظور إليه على التحقيق"[4] وهذا الرأي الذي يورده (ابن عاشور) معتبرٌ في مثل هذا الموضع؛ ولا يقاس على الالتفات الواقع في سورة الفاتحة الانتقال بـــ(أم) التي تحقّقَ الانتقال بواسطتها من غرض إلى غرض .

إن ظهـــور الانســـجام بـــين غرض الآية السابقة وهو المضروب عنه وبين غرض هذه الآية المشتملة على الـــتحذير يتضح من خلال توظيف السياق الجزئي للآية ؛ وذلك بربطها بما قبلها مباشرة . ولأنه لا يكفي ذلك ؛ فقد وسع (ابن عاشور) السِّيَاق ليصل به إلى السياق الكلّي للقرآن الكريم ، حيث عدَّ تعقيب البشارة الواردة في الآية السابقة ، بالنذارة الواقعة في الآية محل الشاهد : من عادات القرآن .

ولكـــن (ابـــن عاشـــور) لا يكتفي بالسياق الداخلي (الجزئي والكلّي) في بيان مناسبة الانتقال كما فعل الزَّمَخْشَـــرِيّ ؛ وإنما يسعى للاستعانة بالسياق الخارجي ، المتمثل في الإشارة إلى ظروف نـــزول الآيات ، وذلك بقوله : "وليكون ذلك تصبيراً لهم (أي المؤمنين) على ما نالهم يوم الحديبية من تطاول المشركين عليهم بمنعهم من

---

١ سورة البقرة:الآية : ٢١٣.

٢ التحرير والتنوير : ج ٢،ص٢٧٩ .

٣ يقول الزمخشري : ""أم" منقطعة ومعنى الهمزة فيها للتقرير ... ولما ذكر ما كانت عليه الأمم من الاختلاف ... قال لهم على طريق الالتفات التي هي أبلغ: (أم حسبتم)" . [انظر : الكشاف ج١ ، ص٢٨٣].

٤ التحرير والتنوير : ج٢ ،ص٢٩٧.

العمـــرة ، وما اشترطوا عليهم للعام القابل[1] ... وقد رُوي عن أكثر المفسرين الأولين أن هذه الآية نــزلت في غزوة الخندق[2] ، حيث أصاب المسلمين ما أصابهم من الجهد والشدائد فتكون تلك الحادثة زيادة في المناسبة))[3]

- سورة آل عمران :

١- يقول تعالى:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[4] .

لا يذكـــر الزَّمَخْشَـــريّ شيئاً حول موقع هذه الآية بينما يوضح ابن عطية موقعها اعتماداً على السياق الجزئي (أغراض المحاجة) دون اعتبار لعلاقتها بالآيات السابقة فيقول : ((لما مضى صدر من محاجة نصارى نجران، والرد علـــيهم ، وبـــيان فســـاد ما هم عليه ، جاءت هذه الآية مُعْلِمَةً بصورة الأمر الذي قد ضلوا فيه ، ومنبئة عن حقيقته كيف كانت))[5] .

أما البقاعي ، فيربط الآية بما سبقها مباشرة من حديث القرآن عن محبة الله التي وردت في قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[6].

في حـــين يتابع (ابن عاشور) طريقة ابن عطية ، ولكن بالنظر إلى السياق النَّصّي (سياق السورة) إذ يكون موقع الآية ((انتقال من تمهيدات سبب السورة إلى واسطة بين التمهيد والمقصد كطريقة للتخلص))[7] .

فموقـــع الآية في السياق النَّصّي إذاً يأتي ضمن موقعها في غرض المحاجة ، الذي يُعَدُّ سبب السورة (النَّصّ)، وهـــو موقع الوَسط في سياق الغرض ، تحقق من خلاله التخلص من التمهيد إلى المقصد الذي سيأتي عند قولـــه تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[8].

٢- يقول تعالى :﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[9].

هـــذه الآيـــة تمثل ابتداء تعقيب القرآن على غزوة أحد ، وقعت بعد الحديث عن المنافقين ، مفتتحة بواو العطـــف والظرف (إذ) ، حيث يتعذر ربط هذا الظرف بما قبله مع وجود العطف مما يوحي بوجود انتقال في الخطـــاب . ومع ذلك يُعِدّ بعض المفسرين هذه الآية ، مرتبطة بما قبلها ؛ فالبقاعي يقول : ((ولما كان ما

---

١ أورد ابن كثير قصة منع قريش للنبي (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه من العمرة في عام الحديبية ، وقصة بيعة الصحابة على الموت بعد إشاعة مقتل عثمان (رضي الله عنه) موفد النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى قريش وسرد وثيقة الصلح بين المسلمين وقريش وفيها أن يرجع النبي (صلى الله عليه وسلم) عامه ذلك، وأن يردّ من جاءه من المسلمين بعد هذا الصلح إلى قريش . [انظر : الحافظ بن كثير : البداية والنهاية ، ج٤،ص١٣٠،١٢٩].

٢ ومن هؤلاء المفسرين ابن عطية حيث يقول : ((وهذه الآية نـــزلت في قصة الأحزاب ، حين حَصَرُوا الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه في المدينة ، وهذا قول قتادة والسُّدّي وأكثر المفسرين)) . [انظر : المحرر الوجيز : ص١٨٨].

٣ التحرير والتنوير : ج ٢،ص٢٧٩.

٤ سورة آل عمران:الآية : ٣٣ .

٥ المحرر الوجيز: ص٢٩١ .

٦ سورة آل عمران:الآية ٣١.

٧ ابن عاشور : التحرير والتنوير ج٣، ص٨٢.

٨ سورة آل عمران:الآية ٥٩.

٩ سورة آل عمران:الآية ١٢١.

تضمنته هذه الآية [يقصد قوله تعالى : إن تمسَسْكُم حسنة تسؤهم ... الآية] من الإخبار ومن الوعد ومن الوعـيد ...ذكرهم سبحانه بالوقائع التي شوهدت فيها أحوالهم ؛ من النّصر عند العمل بمنطوق الوعد من الصـبر والـتقوى ... مشيراً إلى ذلك بواو العطف على غير مذكور ...فقال تعالى : (وإذ) أي أذكر ما يُصَـدِّق ذلك من أحوالكم الماضية ، حين صبرتم واتّقيتم ونصرتم»[1] وقد تابع في ذلك تفسير الطبري إلا أن ابـن عطـية قد علّق على رأي الطبري في اتصال هذه الآية بما قبلها فقال : «والظاهر أنها استقبال أمر آخـر . لأن تلـك مقاومة في شأن منافقي اليهود وهذا ابتداء عتب المؤمنين في أمر أحد ، فالعامل في (إذ) فعل مضمر تقديره : واذكر»[2].

أما (ابن عاشور) فإنه يُفصِّلُ الحديث في العطف ، وفي إمكان تعلق الظرف (إذ) بما قبله أو بما بعده فيقول: «وجـود حـرف عطف في قوله : (وَإِذْ غَدَوْتَ) مانعٌ من تعليق الظرف ببعض الأفعال المتقدمة مثل : ﴿ وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ ﴾[3] ومثل : ﴿ يَفْرَحُواْ بِهَا ﴾[4] وعليه فهو آتٍ كما أتت نظائره في أوائل الآي والقصص القرآنية، وهو من عطف جملة على جملة وقصة على قصة وذلك انتقال اقتضابي[5] فالتقدير : واذكر إذ غدوت . ولا يأتي في هذا تعلـق الظـرف بفعل مما بعده لأن قوله : (تُبَوِّئ) لا يستقيم أن يكون مبدأ الغرض، وقوله : (همّت) لا يصلح لتعليق (وَإِذْ غَدَوْتَ) لأنه مدخول لـ(إذ) أخرى»[6] .

ويتضح من جملة الكلام السابق أن السياق النّصّي والجزئي لا يساعدان على ربط موقع هذه الآية بما قبلها، لوجود موانع لغوية . ومع وجود العطف – وهو وسيلة ربط بين الكلام – إلا أنه لم يكن كذلك في هذا السياق؛ لوجـود الظـرف المحتاج إلى متعلق ، وهذا المتعلق ليس من السياق المتقدم أو المتأخر ، ولكنه من السياق الكلي للقـرآن ، وقـد وردت لـه نظائر في القرآن ارتبطت بحكاية القصص ، وسرد الأحداث اعتماداً على عنصر الاسترجاع والاستدعاء والتذكر حيث تُعَدُّ (إذ) الزمانية مؤشراً على الانتقال . ويتأكد ذلك حال ارتباطها بواو العطف ، وليس ثَمَّةَ ما يصلح أن تعطف عليه الواو أو تتعلق به (إذ).

---

١ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : ج ٢،ص ١٤٢، ١٤٣.

٢ المحرر الوجيز :ص٠٣٥.

٣ سورة آل عمران:الآية ١١٨.

٤ سورة آل عمران:الآية ١٢٠.

٥ الانتقال الاقتضابي لا يتطلب له وجه علاقة بما قبله إذ الاقتضاب اقتطاع حديث مختلف عن سابقه لذلك فهو مع مجيء العطف يعدّ باب عطف جملة الكلام السابق أو القصة على القصة ولا تلزم له مع ذلك مناسبة . [انظر: بدوي طبانة : معجم البلاغة العربية،ص٥٥٨] .

٦ التحرير والتنوير : ج٣ ،ص٢٠٤.

ومما يناسب أن يقع التخلص به في مواضع الانتقال ، التخلص بواسطة (إذ) بدون واو العطف، وهو ما يظهره (ابن عاشور) عند قوله تعالى: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾[1]

ومثيلاتها في هذه السورة فقد ترتبت الأحداث التي سردتها السورة بطريقة استرجاع صورة المواقف . وساعد على ذلك وجود (إذ) المجردة عن العطف . يقول (ابن عاشور) : ((لقد أبدع نظم الآيات في التنقل من قصة إلى أخرى من دلائل عناية الله تعالى برسوله (صلى الله عليه وسلم) وبالمؤمنين ، فقرنها في قرن زمانها ، وجعل ينتقل من إحداها إلى الأخرى بواسطة (إذ) الزمانية ، وهذا من أبدع التخلص ، وهو من مبتكرات القرآن فيما أحسب))[2].

٣- قال تعالى:﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[3]

تمثل هذه الآية بداية غرض عام ليس له علاقة مباشرة بأغراض السورة المتتابعة ، وقد تقدمت الإشارة إليه في الحديث عن مناسبة خاتمة السورة لفاتحتها ، حين تختتم بغرض عام، وأن ذلك يعود إلى عادات القرآن. وقد قرَّرَ (ابن عاشور) أن ((هذا غرضٌ أُنُفٌ بالنسبة لما تتابع من أغراض السورة ، انتقل به من المقدمات والمقصد والمتخللات بالمناسبات ، إلى غرض جديد هو الاعتبار بخلق العوالم ... ومثل هذا الانتقال يكون إيذاناً بانتهاء الكلام على أغراض السورة ... وشأن القرآن أن يختتم بالموعظة ؛ لأنها أهم أغراض الرسالة))[4] .

فالانسجام يتحقق من جهة النظر إلى السياق الكلي للقرآن ؛ الذي تبيَّن أن من عاداته الاختتام بالموعظة. ولكن نهاية سورة آل عمران لم تأت منقطعة الاتصال تماماً بحيث كان هذا الغرض العام خاتمتها . وإنما وقعت الإشارة في نهايتها إلى تثبيت المؤمنين وبيان عاقبة الذين كفروا ، والوصية بالصبر والمصابرة والمرابطة ، وهي وإن اشتركت في غرض الموعظة المختتم به السورة ، إلا أنها تُلمح إلى ما تقدم من أغراض السورة المناسبة .

- سورة الأعراف :

يقول تعالى : ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا

١ سورة الأنفال:الآية ١١.
٢ التحرير والتنوير : ج٩،ص٣٥.
٣ سورة آل عمران:الآية ١٩٠.
٤ التحرير والتنوير : ج ٣،ص٣٠٧.

فَمَرَّتْ بِهِۦ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَـٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ۞ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَـٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[1] .

موضــع الانتقال في هذه الآيات هو في الآية الثانية هي قوله تعالى : (هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ...) فإن وقوعها بعد الآية الأولى المفتتحة بــ(قُل) يُوْهِمُ أنها من جملة القول المأمور به .

ولكن وقوع قوله تعالى : (قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ... الآية) بعد سؤال المشركين عن الساعة ، واستهزائهم بالـــنبي (صـــلى الله عليه وسلم) يجعل غرضها الاختصاص بإبطال زعمهم وُجُودَ مُلازَمةٍ بين الرسالة وعلم الغيب .

فلما وقع بعدها قوله تعالى : (هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم ... الآية) تقرر أنه غرض آخر؛ فهو انتقال في السياق، ولم يُشِرْ الزَّمَخْشَريّ ولا ابن عطية إلى هذه النكتة ، ولا إلى مناسبة هذا الانتقال ، في حين ربط البقاعي موقع هذه الآية المقررة للتوحيد – بواسطة دليل الخلق – بالحديث قبلها عن الساعة وقدرة الله تعالى في قوله: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ...﴾الآيــة[2] ، وهـــو نفس الموقع الذي كان في بداية السورة لغرض تقرير التوحيد – بدلـــيل ابتداء الخلق – عقب الحديث عن القيامة والحساب (الساعة) المبتدأ بقوله تعالى : ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۞ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[3] حيـــث ورد بعد هذا بآيتين ، حديث القرآن عن الخلق في قوله : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴾[4] .

وفي هـــذا يقول البقاعي : "ولما ذكر سبحانه الساعة هنا كما ذكرها أول السورة ، بما لم يذكره هناك من تحكمهـــم واســـتهزائهم ، وختم هنا بحصر العلم والقدرة في الله ... ذكر ما ذكر قبلها أول السورة من ابتداء الخلـــق على وجه الحصر ، المستلزم لتمام القدرة ... فقال مقرراً للتوحيد مؤكداً لأمره : (هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم ...الآيـــة)"[5] ويتضـــح مـــن هـــذا إجراء المناسبة والانسجام على مستوى النّصّ بواسطة ما يمكن أن يسمى بـــ(الكلمات الكبرى) للأغراض المتقابلة في السورة : (القيامة ومقتضياتها + دليل الخلق في أول السورة والساعة

١ سورة الأعراف:الآيتان ١٨٨، ١٨٩.

٢ سورة الأعراف:الآية ١٨٧.

٣ سورة الأعراف:الآيات ٦–٨ .

٤ سورة الأعراف:الآية ١١.

٥ نظم الدرر في تناسب الآيات و السور : ج ٣،ص ١٦٧.

وموعدها + دليل الخلق في نهاية السورة) وانظر إلى قوله تعالى في بداية السورة : (وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ) بخطاب الجمع وقوله في نهايتها : (هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ) بخطاب الجمع أيضاً .

فالسياق الذي استعان به (البقاعي) في بيان موقع الآية ومناسبتها للآيات التي قبلها ، هو سياق جزئي وسياق نصي ، وقد تم ذلك الربط من خلال الترابط في المعجم والدلالة بين موضوعي الحديث عن علم الله حين يسأل الخلائق يوم القيامة وبين الاستدلال على ذلك بدليل الخلق والتكوين في أول السورة وآخرها .

وقد فسّر البقاعي مورد هذه الآية بأنها تضرب المثل بآدم (عليه السلام) وزوجه – وهو أحد وجوه التفسير التي سنذكرها في هذه الآية – ويظهر ذلك في تفسيره لضمائر الأفعال : "قوله : (لِيَسْكُنَ)أي آدم ...(فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا) أي غشيها آدم (عليه السلام) ... (دَّعَوَا ٱللَّهَ) أي آدم وحواء (عليهما السلام) (فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا) أي أبويكم آدم وحواء "[1] ولكنه خالف معاد الضمير في قوله : (جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ) ففسره بالنوعين من أولادهما (الذكر والأنثى) وذلك لتنزيه آدم وزوجه عليهما السلام عن الشرك .

أما (ابن عاشور) فيسلك نفس الطريق في تقرير انسجام موقع هذا الانتقال ، ولكن بطريقة أخرى ؛ فإن موقع قوله تعالى : (هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ...الآية) كما يقول : "جملة مستأنفة استئنافاً ابتدائياً عاد به الكلام إلى تقرير دليل التوحيد وإبطال الشرك ، من الذي سلف ذكره في قوله : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴾[2] وليست من القول المأمور به في قوله : ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ... ﴾الآية[3] لأن ذلك القول قصد به إبطال الملازمة بين وصف الرسالة وعلم الرسول (صلى الله عليه وسلم) بالغيب ، وقد تمَّ ذلك ، فالمناسب أن يكون الغرض الآخر كلاماً موجهاً من الله تعالى إلى المشركين ، لإقامة الحجة عليهم...ومناسبة الانتقال جريان ذِكْر اسم الله في قوله : (إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ) "[4].

لا يعير (ابن عاشور) السياق الجزئي للآية أهمية في بيان مناسبة موقعها ، فضلاً عن أن تكون الآية من متضمن القول المأمور به في قوله : (قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ... الآية) اللهم إلا من ناحية مناسبة ورود اسم الله تعالى في سياق الآية السابقة ، حيث أحال عليه الضمير في قوله : (هو الذي خلقكم) وأما انسجام موقع الانتقال هذا ، فقد أجراه ابن عاشور بواسطة السياق النَّصّي،حيث أرجع غرض هذه الآية إلى ما تقرر من عَهْدِ التوحيد

---

١ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : ج ٣،ص ١٦٨.

٢ سورة الأعراف:الآية ١٧٢.

٣ سورة الأعراف : الآية ١٨٨.

٤ التحرير والتنوير : ج ٨،ص٣٨٣.

في قولـــه تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ...الآية ﴾[1] وبذلك صح تفسير معنى (الـــنفس الواحـــدة ، وضـــمائر الأفعال : يسكن – دعوا – جعلا) دون حاجة لما وقع فيه البقاعي وغيره من المفسرين من تشتيت معاد الضمائر . وفي هذا يقول (ابن عاشور): "وقد جعل كثير من المفسرين النفس الواحدة: آدم ، وبعـــض المحققـــين مـــنهم جعلـــوا الأب لكل أحد ، وهو المأثور عن الحسن وقتادة ، ومشى عليه الفخر، والبيضاوي[2] ، وابن كثير[3] ... والذي يظهر لي أن في الكلام استخداماً في ضميري(تَغَشَّنهَا) وما بعده[4] إلى قولـــه "فـــيما آتاهما" وبهذا يجمع تفسير الآية بين كلا الرأيين"[5] وفسّر تبعاً لهذا قوله تعالى : (دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا) بقولـــه : "وظاهـــر قوله : (دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا) أن كل أبوين يدعوان بذلك ، فإن حُمل على ظاهره قلنا : لا يخلو أبوان مشركان من أن يتمنيا أن يكون لهما من الحمل مولود صالح ... وإن حمل "دَّعَوَا" على غير ظاهره فتأويله أنه مخصوص ببعض الأزواج الذين يخطر ببالهم الدعاء"[6] وهذا الذي اختاره (ابن عاشور) في تفسير معاد الأفعال والضمائر على عموم الأزواج ، وتوجيه مرجع الضمائر على أساس فن الاستخدام البديعي للضمائر أولى. حيث خـــرج به من الضمير العائد على النفس الواحدة وزوجها(آدم وحواء) – وأجراه على الأبوين عموماً ، في معاد الأفعـــال (دعوا – جعلا) ، هو ما صَرف عن (ابن عاشور) عناء الاحتراز من وصف آدم وزوجه بما لا يليق بمقام النـــبوة . يقول (ابن عاشور) في تفسير قوله تعالى : (فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَـٰلِحًا ...الآية) : "لما آتى من آتاه منهم ولـــداً صـــالحاً ، وضمير "جعلا" للنفس الواحدة وزوجها ، أي جعل الأبوان المشركان"[7] ولهذا فإن قيام (ابن عاشـــور) بحمـــل موقع هذه الآية على الغرض المفتتح به قوله تعالى : (وإذ أخذ ربك من بني آدم ... الآية) كان

---

١ سورة الأعراف : الآية ١٧٢.

٢ هـــو : الإمـــام أبو سعيد عبد الله بن عمر البيضاوي الشافعي : له كتاب في التفسير المسمى بـــ(أنوار التنـــزيل وأسرار التأويل) وكان قاضياً مفسراً من تصانيفه منهاج الوصول إلى علم الأصول ، وطوالع الأنوار ، توفي بتبريز سنة ٦٨٥هـــ . انظر : الأعلام للزركلي : ج٤ ، ص١١٠ .

٣ أبـــو الفـــداء إسماعيل بن عمر القرشي : الفقيه الشافعي المعروف بالحافظ بن كثير: ولد سنة ٧٠٠هـــ ، إمام محدث سمع من ابن عساكر وصحب شيخ الإسلام ابن تيمية ، صنف التصانيف الكثيرة في التفسير والتأريخ والأحكام ، توفي (٧٧٤ هـــ) ودفن بدمشق .

٤ الاستخدام بالضمير هو: "أن يراد بلفظ له معنيان أحدهما ، ثم يراد بضميره أي بالضمير العائد إلى ذلك اللفظ معناه الآخر . أو يراد بأحد ضميريه أحدهما أي أحـــد المعنـــيين ،ثم يراد بالآخر أي بضميره الآخر معناه الآخر وفي كليهما يجوز أن يكون المعنيان حقيقيين وأن يكونا مجازيين" وقد بين السعد التفتزاني نوعي الإستخدام المذكورين ومثّل لهما فقال : "**فالأول** : وهو أن يراد باللفظ أحد المعنيين وبضميره معناه الآخر ، كقوله :

إذا نـــزل السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا

أراد بالسماء الغيث ، وبضميره في "رعيناه" النبت ، وكلا المعنيين مجازي . **والثاني**:وهو أن يراد بأحد ضميريه أحد المعنيين وبالضمير الآخر معناه الآخر ، كقوله : فسقى الغضا والساكنيه وإنْ همُ شبوه بين جوانحي وضلوعي

أراد بـــأحد ضـــميري "الغضا" أعني المجرور في "الساكنيه" المكان الذي فيه شجر الغضا ، وبالآخر أعني المنصوب في "شبوه" النار الحاصلة في شجر الغضا ، وكلاهما مجازي".[انظر : التفتازاني: المطول شرح التلخيص: تحقيق عبدالحميد هنداوي، درا الكتب العلمية بيروت، ط١، (٢٠٠١م) ص٦٥٣].

٥ التحرير والتنوير : ج ٨،ص٣٨٤.

٦ المصدر نفسه :ج ٨،ص٣٨٦.

٧ المصدر نفسه :ج ٨،ص ٣٨٦.

أولى ، لـيكون الكلام عائداً على تقرير دليل التوحيد وإبطال الشرك الذي وقع فيه بعض الذرية [١]. وعلى هذا التفسير لم يكن (ابن عاشور) مضطراً عند تفسير قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[٢] أن يقـول بفصـل التفريع في قوله : (فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ) الـذي ختمت به الآية عن سياق الآيات، كما فعل الطبري، حين جعل الكلام منفصلاً عما قبله ، حيث تم خبر آدم وحـواء عـندهم بقوله: (جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا) وأن التفريع مرادٌ به مشركي العرب ، ولا أن يلجأ (ابن عاشور) أيضاً إلى ما فعله ابن عطية ، حين ردّ كلام الطبري ولكنه فسر الآية بقوله: "ويتجه أن يقال: تعالى الله عن ذلك اليسير المتوهم من الشرك في عبودية الاسم ، وبعض الكلام في جهة أبوينا آدم وحواء عليهما السلام ، وجاء الضمير في "يشركون" ضمير جمع لأن إبليس مدبِّر معهما تسمية الولد عبد الحارث"[٣] .

والذي ساعد (ابن عاشور) على هذا التفسير نظرته إلى السياق النَّصّي أولاً قبل النظر إلى الآثار الواردة في تفسير الآية . وقد اختار من السياق النَّصّي أنسب أغراض السورة وأقربها ليحمل موضع الانتقال عليه ، وقد تمّ هـذا الانتقال بمناسبة الاتصال والترابط بين الاسم الظاهر في قوله: (إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ) وبين الضمير في قوله : (هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم) ، وهو تخلص حسنٌ إلى الغرض الجديد .

- سورة الأنفال :

افتتحـت السورة الكريمة بسؤال المؤمنين عن حكم الأنفال ؛ بعد وقوع الشجار بين الصحابة حول غنائم بدر ، وابتدئ الجواب بما هو أهمّ من بيان هذا الحكم ؛ وذلك بوصية الله للمؤمنين بالتقوى وصلاح ذات البين ، وطاعة الله ورسوله ، وبيان صفات المؤمنين وجزائهم عند الله ، ثم قال الله تعالى : ﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾[٤] وقد وقف المفسرون طويلاً أمام موقع هذه الآية . بدءاً من تفسير مـتعلق الكاف الوارد في قوله:(كَمَآ) وما يستتبعه ذلك من تقديرات ، ومن ثم ما يترتب عليه من معرفة مناسبة الاية لما قبلها .

ولمعرفة أسلوب الانتقال وتحديد السياق الذي اعتمد عليه المفسرون في بيان مناسبة موقع هذه الآية لما قبله نلخص وجوه تفسير "الكاف" من قوله: (كَمَآ) في الآتي :

---

١ يسـوق كثير من المفسرين ومنهم ابن عطية حديثاً رواه الترمذي وأحمد عن سمرة بن جندب في تسويل الشيطان لحواء أن تسمي ولدها عبد الحارث إن رغبت في خروجه صالحاً ... قال الترمذي حديث حسن غريب ، وقد بيّن ابن كثير في تفسيره ما في سند الحديث من علة قادحة .

[انظر :ابن كثير : تفسير القرآن العظيم : ج ٢،ص٢٧٥].

٢ سورة الأعراف:الآية ١٩٠.

٣ المحرر الوجيز : ص ٧٦٨.

٤ سورة الأنفال : الآيتان ٥ ، ٦ .

١- جمهور المفسرين: على أن الكاف للتشبيه[1]، ذكر ذلك الزَّمَخْشَرِيّ وابن عطية منسوباً إلى الفراء[2]، وهو اختيار (ابن عاشور) وهذا أقرب الوجوه ارتباطاً بسياق النَّصّ .

٢- نقل ابن عطية تجويز كون الكاف نعت لكلمة (حَقًّا) من قوله تعالى:﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾[3] والـتقدير: "هـم المؤمـنون حقاً كما أخرجك" ثم قال ابن عطية: ((والمعنى على هذا التأويل كما تراه لا يتناسق))[4] وهو كما قال ، إذ قد تم الكلام السابق دون احتياج للوصف .

٣- نسـب ابـن عطية -أيضاً - إلى أبي عبيدة[5] أن الكاف : ((قسمٌ أي "لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كـريم كما أخرجك" بتقدير : والذي أخرجك ، فالكاف في معنى الواو ، و(ما) بمعنى (الذي)))[6] وهو رأي لم يعتدّ به المفسرون لِبُعْدِ مَحْمَلِه واحتياجه إلى التأويل.

ويتضـح مـن هذا أن الرأي الأول – وهو أن الكاف لتشبيه حال بحال – قد نظر القائلون به إلى سياق الآيات وسياق النَّصّ، وكان أوفق بالمعنى، أما الذين نظروا إلى السياق الجزئي فحاولوا ربط الآية بما قبلها مباشرة. وقد أبعدوا في ذلك ؛ إذ ليس وقوع التشبيه بالكاف في أول الغرض بمستبعد ولا غريب.

وقد ترتب على الخلاف في معنى الكاف الخلاف في تحديد متعلقها، فالزَّمَخْشَرِيّ، وابن عطية، وغيرهما من المـتقدمين، و(ابـن عاشور) وغيره من المتأخرين، يجوزون في تقدير متعلق الكاف أحد وجهين: وقد حررهما (ابن عاشور) في تفسيره فقال: ((قوله تعالى: (كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ ... الآية) تشبيه حال بحال ، وهو متصل بما قبله: إما بـتقدير مبـتدأ محذوف هو اسم إشارة لما ذكر قبله، تقديره: هذا حال كحال ما أخرجك ربك من بيتك بالحق. ووجـه الشـبه هو كراهية المؤمنين في بادئ الأمر لما هو خير لهم في الواقع . وإما بتقدير مصدرٍ لفعل الاستقرار، الـذي يقتضـيه الخـبر بالمجـرور في قوله:﴿ ...ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ... ﴾[7] إذ التقدير: استقرت لله وللرسول اسـتقراراً كما أخرجك ربك من بيتك ، أي فيما يلوح إلى الكراهية والامتعاض في بادئ الأمر ... وقد أعلم ما في الكـلام مـن معنى مخالفة مشتهاهم قوله:﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾[8] ... والمقصود من هذا الأسـلوب الانتقال إلى تذكيرهم بالخروج إلى بدر وما ظهر فيه من دلائل عناية الله))[9] . وعلى كلا التقديرين السـابقين في متعلق كاف التشبيه ، وبيان وجه الشبه ، فإن الآية غير بعيدة عن سياق الآيات المفتتح بها السورة؛ فالتشبيه يدلُّ على تماثل الوقائع ، إذ لا بد من وجه شبه لِمَا انصرف الكلام إليه مع بقاء أداة التشبيه.

---

١ وقد تزاد الكاف في الكلام العربي الفصيح، كما في قوله تعالى: (ليس كمثله شيء) [سورة الشورى: الآية: ١١].

٢ هو أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء : صاحب معاني القرآن ، توفي (٢٠٧هـ).

٣ سورة الأنفال:الآية ٤ .

٤ المحرر الوجيز : ص٧٧٩ . وهذا الرأي منقول عن الأخفش

٥ هو معمر بن المثنى ، نحوي بصري عالم باللغة والأدب له مجاز القرآن ، توفي (٢٠٩هـ) .[انظر : أبجد العلوم: ص٥٨١].

٦ المحرر الوجيز : ص٧٧٩.

٧ سورة الأنفال : الآية ١.

٨ سورة الأنفال : الآية ١.

٩ التحرير والتنوير : ج٩ ، ص٧٣ . وانظر كذلك الكشاف : ج٢،ص١٨٦ ، ١٨٧.

ولكـــن هــذه المعاني المذكورة في وجه الشبه لم تتضح من السياق النّصّي فحسب ، فقد ظهر بجلاء اتكاء المفسرين على السياق الخارجي للنص (سياق الأحداث والمواقف) التي أعقبت المعركة ؛ كالشجار حول الغنائم، وكراهية بعض المؤمنين أن تنتزع منهم وتوزع كما يريد الله وهو ما لم يرد له ذِكْر مباشر في السورة .

- سورة الإسراء :

يقول تعالى : ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۞ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۞ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [1] .

موضع الانتقال هو عطف قوله تعالى : (وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ ... الآية) على ما قبله . فظاهر كلام الزَّمَخْشَرِيّ، وابـــن عطية ، والبقاعي ، انقطاع هذه الآية عن المعنى السابق ، وكأنهم عدّوه من باب عطف القصة على القصة ، ولم ينبهوا على المناسبة ، وقد استدل الزَّمَخْشَرِيّ ، وابن عطية ، على معنى الآية بما ورد من آثار؛ ولـــيس فـــيها ما يَصْلُح لبيان مناسبة معنى الآية لما سبق ، بينما ربط البقاعي معناها بمقابلته بمضمون الآية الســـابقة فقـــال : "ولـــا ذكر سبحانه ما لكلامه من الدعاء إلى الأقوم ؛ أتبعه ما عليه الإنسان من العوج الداعي له إلى العدول عن التمسك بشرائعه القويمة والإقدام على ما لا فائدة فيه، تنبيهاً على ما يجب عليه من التأني للنظر فيما يدعو إليه نفسه ووزنه بمعيار الشرع ، فقال تعالى : (وَيَدْعُ) ...الخ "[2] .

فمقابلـــة دعوة القرآن (الهداية للتي هي أقوم) بدعوة الإنسان (دعائه بالشر) هو ما يفسر موقع الآية كما نفهمه من عبارة البقاعي ، وهي نظرة للسياق الجزئي للآية ، اعتمدت في إبراز التضاد على وسيلة المقارنة بين دعوتين ؛ دعوة هي النهاية في الاستقامة ؛ ودعوة هي مثال الاعوجاج ، وشتان بين الدعوتين .

أما (ابن عاشور) فإنه ينهج مسلكاً آخر في بيان موقع هذه الآية في هذا السياق ، فيقول: "موقع الآية هنا غـــامض ، وانتزاع المعنى من نظمها وألفاظها أيضاً . ولم يأت فيها المفسرون بما ينثلج له الصدر . والذي يظهر لي أن الآيـــة الـــتي قبلها لّما اشتملت على بشارة وإنذار ، وكان المنذرون إذا سمعوا الوعيد والإنذار يستهزئون به، ويقولون : متى هذا الوعد إن كنتم صادقين – عطف هذا الكلام على ما سبق ، تنبيهاً على أن لذلك الوعد أجلاً مسمى ، فالمراد بالإنسان : الإنسان الذي لا يؤمن بالآخرة"[3] .

ومـــن هذا البيان لموقع الآية ومحل المعطوف عليه المستفاد من السياق الخارجي ، المتمثل في تصور مقامات الخطـــاب ، وحالـــة المتلقي المحتاج إلى الرد على كلامه بالتنبيه إلى سنن الله عز وجل في العذاب والإهلاك – من ذلـــك كلـــه نستنتج أن (ابن عاشور) لا يرى في الكلام انقطاعاً يستدعي أن يوصف بعطف القصة على القصة

---

١ سورة الإسراء:الآيات ٩-١١ .

٢ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : ج ٤،ص ٣٦٥.

٣ التحرير والتنوير : ج ١٤،ص٣٤.

فـيكون تحولاً سياقياً أو انتقالاً خطابياً ، وساعده في الربط الاعتماد على السياقات التداولية المذكورة المتمثلة في مقامات الخطاب ، وحالة المتلقي وضرورة البيان ، وهو بهذا يقترب – إلى حد كبير – من عبارة البقاعي في توجيه مناسبة الآية الكريمة .

- سورة الفرقان :

قـال تعـالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ۝ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ۝ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ۝ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ۝ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ۝ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾[1].

موضع الانتقال في سياق هذه الآيات هو قوله تعالى : (وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ۝ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ ... الآيـة) حيث يظهر تغيرُ موضوعها عن موضوع الآيات التي قبلها والآيات التي بعدها . لذلك يقول (ابن عاشور) : «ومناسبة موقع هذه الجملة وتفريعها بموقع الآية التي قبلها خفية »[2] .

وقـد لفـت موقـع هذه الآية أنظار المفسرين قبل (ابن عاشور) فمنهم من أشار إلى مناسبتها لما قبلها من أغراض السورة عموماً ، كالزَّمَخْشَرِيّ الذي اعتمد على أن الضمير في الآية المتقدمة على موضع الانتقال وهـي قوله تعالى : (وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ) لا يعود على الماء الطهور المذكور في الآية الأولى ، وإنما يعود على القول المذكور فيه انشاء السحاب وانـزال القطر الذي أخبر به الرسل . يقول الزَّمَخْشَرِيّ : «يريد: ولقـد صـرفنا هذا القول بين الناس في القرآن ، وفي سائر الكتب والصحف التي أنـزلت على الرسل علـيهم السلام وهو ذِكْر انشاء السحاب وإنـزال القطر ، ليفكروا ويعتبروا»[3] وبناءً على تفسير هذه الآيـة بهذا المعنى فإن الزَّمَخْشَرِيّ يبين معنى قوله تعالى : (وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا) بقوله : «يقول لرسوله (صلى الله عليه وسلم) : "وَلَوْ شِئْنَا" لخففنا عنك أعباء النذارة في جميع القرى و "لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ" نبياً ينذرها وإنما قصرنا الأمر عليك وعظمناك به ، وأجللناك وفضلناك على سائر الرسل فقابل ذلك بالتَّشدد والتَّصبُّر»[4] .

١ سورة الفرقان:الآيات ٤٨-٥٣.

٢ التحرير والتنوير : ج ١٩،ص٣٧.

٣ الكشاف : ج٣ ، ص٢٩١ .

٤ المصدر نفسه :ج ٣،ص٢٩٢.

وعقب (ابن عاشور) على هذا الكلام بقوله : ((وليس في كلام "الكشاف" .. إلا بيان مناسبة الآية لمهم أغراض السورة دون بيان مناسبتها للتي قبلها))[١] .

وقد جاءت عبارة ابن عطية في بيان معنى الآية كما وردت عند الزَّمَخْشَريّ مع الاختلاف في تحديد موقعها ومناسبتها . حيث يقول : ((وفي قوله تعالى : (وَلَوْ شِئْنَا ... الآية) اقتضاب يدل عليه ما ذكرناه تقديره : ولكنا أفردناك واصطفيناك فلا تطع الكافرين))[٢] .

وقد ناقش (ابن عاشور) كلام ابن عطية في موقع الآية على اختلاف ما يمكن أن يحمل عليه معنى الاقتضاب[٣]. فقال : ((إن كان عنى بقوله : (اقتضاب) معنى الاقتضاب الاصطلاحي بين علماء الأدب والبيان ، وهو عدم مراعاة المناسبة بين الكلام المنتقل منه والكلام المنتقل إليه؛ كان عدولاً عن التزام تطلب المناسبة بين هذه الآية والآية التي قبلها ، وليس الخلو عن المناسبة ببدع ... وإذا كان ابن عطية عنى بالاقتضاب معنى القطع أي الحذف من الكلام (إيجاز الحذف) كما يشعر به قوله : "يدل عليه ما ذكرناه تقديره الخ ..." كان كأن لم يعرج على اتصال هذه الآية بالتي قبلها))[٤] .

والظاهر أن (ابن عاشور) لا يستبعد أن يكون المعنى الثاني هو ما قصده ابن عطية اعتماداً على ما أشعر به التقدير المذكور .

ولهذا فقد جرّد (ابن عاشور) النظر في موقع هذه الآية ومناسبتها بعيداً عن كل ما سبق ، وقرر بداية أن قوله تعالى : (وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا) : ((جملة اعتراض بين ذكر دلائل تفرد الله في الخلق وذكر منّته على الخلق))[٥] وكان لا بد أن يذكر مناسبة هذا الاعتراض،فاستعان بسياق النّصّ في ربط موقع الآية بأقرب غرض وأنسبه ، بعد أن أعاد تلخيص السياقات الجزئية السابقة على موقع هذه الآية ليدعم الاتصال بين عنصر متأخر وخطاب متقدم يقول (ابن عاشور) : ((والذي أختاره أن هذه الآية متصلة بقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ

---

١ التحرير والتنوير : ج ١٩،ص٣٧.

٢ المحرر الوجيز : ص ١٣٨٥.

٣ معنى الاقتضاب : أن يقطع الشاعر كلامه الذي هو بصدده ثم يستأنف كلاماً آخر غيره من مديح أو هجاء ، أو غير ذلك من أفانين الكلام بحيث لا يكون بين الأول والثاني ملاءمة ولا مناسبة ، وهذا هو مذهب الشعراء المتقدمين من العرب كامرئ القيس ، والنابغة ، وطرفة ، ولبيد ، ومن تلاهم من المخضرمين فأما المحدثون كأبي تمام ، وأبي الطيب ... فإنهم تصرفوا في التخليصات فأبدعوا فيها. [انظر بدوي طبانه : معجم البلاغة العربية ،ص٥٥٨].
ومن بديع ما جاء في الاقتضاب قول البحتري يمدح الفتح بن خاقان بعد انخساف الجسر به ، في قصيدته التي مطلعها :

متى لاحَ برقٌ أو بدا طَلَلٌ قَفرُ   جرى مستهلٌ لا بكيءٌ ولا نــزرُ

وبعده :

فتى لا يزال الدهرَ بين رباعــه   أيادٍ له بيضٌ وأفنيةٌ خضــــرُ

وبينما هو في غزله خرج من المديح على جهة الاقتضاب بقوله :

لعمرك ما الدنيا بناقصة الجَدا   إذا بقي الفتح بن خَاقان والقطرُ

فخرج من المديح من غير أن يكون له سبب .[انظر :يحيى بن حمزة العلوي : الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز . ج٢ ،ص٣٥٣].

٤ التحرير والتنوير : ج ١٩،ص٧٣.

٥ المصدر نفسه :ج ١٩،ص٧٣.

كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾[1] فبعد أن بين إبطال طعنهم ... انتقل إلى تنظير القرآن بالكتاب الذي أوتيه موسى (عليه السلام) ... ثم استطرد بذكر أمم كذبوا رسلهم ، ثم انتقل إلى استهزاء المشركين بالنبي (صلى الله عليه وسلم)...وتسلل الكلام بضرب المثل بمدّ الظل وقبضه ، وبحال الليل والنهار ، وإرسال الرياح ... حتى انتهى إلى قوله : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴾[2] ويؤيد ما ذكرنا اشتمال التفريع على ضمير القرآن في قوله : (وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا) . ومما يزيد هذه الآية اتصالاً بقوله تعالى: (وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ...) أن في بعث نذير إلى كل قرية ما هو أشد من تنزيل القرآن مجزءاً ، فلو بعث الله إلى كل قرية نذيراً لقال الذين كفروا لولا أُرسل رسولٌ واحدٌ إلى الناس جميعاً ، فإن مطاعنهم لا تقف عند حدّ))[3] .

لقد اعتمد (ابن عاشور) في بيان مناسبة قوله تعالى : (وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ۝ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا) على تصوُّر السياق النَّصّي ، ولكن بوعي واضح لما يصلح أن يُحَال عليه موقع الآية ، وقد استند على بينات وقرائن لغوية ودلالية ، فمن ذلك : اشتمال التفريع على ضمير القرآن في قوله : (وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ) ، ومنها إجراء ضمير الغائب في الفعل (صَرَّفْنَٰهُ) على ما يلائمه من سياقه وهو الغيث والسحاب ، كما استند كذلك على إمكان المقارنة بين واقع الحال وما سيؤول إليه كلام المشركين لو بعث الله نذيراً في كل قرية .

غير أنه يمكن التساؤل : ألا يصح أن يعود موقع الآية على قوله تعالى في مفتتح السورة ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾[4] ؟ .

والجواب : ليس هنالك ما يمنع من إجراء المناسبة بين الآيتين ،من عدة وجوه وبعدة روابط لغوية ودلالية؛ كالمقابلة بين ما خص الله به رسوله من إرساله نذيراً إلى العالمين ، وبين أن يكون هناك نذيرٌ في كل قرية . وبين اسم الفرقان والأمر بالجهاد به ، وبين ما أجراه الله لنفسه من الوصف والثناء بقوله : (تَبَارَكَ) وكمال المشيئة والقدرة في قوله : (وَلَوْ شِئْنَا) .

ولكن منهج (ابن عاشور) في إلحاق مواضع انتقال الخطاب بأقرب الأغراض صلة بها في السورة أدقُّ ، وإن أطال في شرحه وبيانه.

---

١ سورة الفرقان:الآية ٣٢.

٢ سورة الفرقان الآية ٥١.

٣ التحرير والتنوير : ج ١٩،ص٧٣.

٤ سورة الفرقان:الآية ١.

- سورة ص:

قال تعالى : ﴿ هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ [1].

هـــذه الآيـــة أحد مواضع الانتقال بين أغراض السورة القرآنية ، باستخدام أحد أساليب الانتقال المعروفة عـــند العـــرب . فقوله تعالى : (هَٰذَا ذِكْرٌ) ((جملة فَصلت الكلام السابق عن الكلام الآتي بعدها ، قصداً لانـــتقال الكـــلام مـــن غرض إلى غرض ... وهذا الأسلوب من الانتقال هو المسمى من علماء الأدب بالاقتضاب[*] ، وهو طريقة العرب ومن يليهم من المخضرمين ولهم في مثله طريقتان : أن يذكروا الخبر كما هـــو في هـــذه الآية ، وقول المؤلفين هذا باب كذا . وأن يحذفوا الخبر لدلالة الإشارة على المقصود كقوله تعالى :﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾[2] ... وقوله :﴿ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴾[3]أي هذا مآب المتقين ومنه قول الكاتب : هذا وقد كان كَيْت وكَيْت))[4].

وللوهلـــة الأولى تبدو جملة (هَٰذَا ذِكْرٌ) إشارة غير مباشرة إلى القرآن (الذِكْر) الموصوف في أول السورة بقوله تعالى: ﴿ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴾[5] إلا أنها إشارة إلى سياق بعيد، ولعل مجيء كلام بعدها لا علاقة له بما سبق يصرفها عن وظيفة الإحالة إلى ما سبق .

ولهذا كان هذا الموضع صالحاً لتفسير مناسبة الانتقال فيه اعتماداً على السياق الداخلي ، وذلك من خلال الاســـتفادة مـــن الإحالـــة بالإشارة إلى سياق السورة ؛ فيكون اسم الإشارة مفيداً كذلك الفصل بين الكلامين؛ السابق واللاحق ، وبوقوع الخبر (ذِكْرٌ) بعده فإنه يحتمل معنى حُسْن السّمعة يقول (ابن عاشور) : ((وإنما صَرّح بالخـــبر في قوله : (هَٰذَا ذِكْرٌ) للاهتمام بتعيين الخبر ، وأن المقصود من المشار إليه التذكير والاقتداء ، فلا يأخذ الســـامع اســـم الإشارة مأخذ الفصل المجرّد والانتقال الاقتضابي ، مع إرادة التوجيه بلفظ (ذِكْرٌ) بتحميله معنى حسن السمعة...ومن هنا احتمل أن تكون الإشارة بـــ(هذا) إلى القرآن ، أي: القرآن ذِكْر))[6].

لقـــد تحقق الانتقال بواسطة الاقتضاب ، ولكن اسم الإشارة يحيل إلى داخل النص ، أي إلى حديث القرآن السابق في هذه السورة ، سواءً كان المشار إليه هو قصص الأنبياء المذكور في هذه السورة ، أم إلى الذكْر الحسن الـــذي خصهم الله به . وهذا ما ألمح إليه ابن عطية في إشارته لبعض الاحتمالات التي يقود إليها الإبهام المقصود

---

١ سورة ص:الآية ٤٩.

* سبقت الإشارة إلى معنى الاقتضاب في حاشية ص ١٧٧ من هذا البحث

٢ سورة الحج : الآية ٣٠.

٣ سورة ص:الآية ٥٥ .

٤ ابن عاشور :التحرير والتنوير : ج٢٣ ، ص١٧٣ ، ١٧٤.

٥ سورة ص:الآية ١ .

٦ التحرير والتنوير : ج٢٣،ص١٧٣ ،١٧٤.

من تنكير الخبر (هَٰذَا ذِكْرٌ) من معاني الإشارة بقوله «أن يشير إلى مدح مَنْ ذُكر (أي من الأنبياء) وإبقاء الشرف له ميتاً ، فيتأكد بهذا التأويل قول من قال آنفاً إن الدار [في قوله تعالى:﴿ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴾ [1]] يراد بها الدار الدنيا»[2].

وكـــان ابن عطية قد أشار إلى أن معنى قوله تعالى :﴿ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴾يحتمل «أن يـــريد بـــالدار دار الدنيا ، على معنى ذِكْر الثناء والتعظيم من الناس والحمد الباقي ، الذي هو الخُلد المجازى به. فتجيء الآية في معنى قوله تعالى : ﴿ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴾[3] وفي معنى قولـــــه: ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴾[4]»[5]. وبهذا الاحتمال تكون الإحالة إلى السياق النَّصّي للسورة ، وعلى أقرب غرض منه ، ومع كل هذه الاحتمالات فالانتقال واضح، وأما مناسبته فتفهم من توجيه جملة (هَٰذَا ذِكْرٌ) على ما يصلح أن تعود عليه الإشارة كما تقدم .

- سورة الأحقاف :

قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۞ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۞ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾[6] .

موضـــوع البحـــث في هذه الآيات عند (ابن عاشور) هو وجه اتصال قوله تعالى : (وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ... الآية) بما قبله.

فقد كان موقعها محل بحث عند بعض المفسرين. وقد لخص (ابن عاشور) ما ذُكِرَ من الوجوه في اتصال هذه الآية خلاصتهما فيما يلي :

١ سورة ص:الآية ٤٦.

٢ المحرر الوجيز : ص١٦٠٣.

٣ سورة الشعراء:الآية ٨٤.

٤ سورة الصافات:الآية ٧٨.

٥ المحرر الوجيز : ص١٦٠٣.

٦ سورة الأحقاف:الآيات ١٣-١٥.

– الوجه الأول : أن تكون الآيات هذه ، مع ما جاء بعدها كالمثل المضروب لمن استجاب للنبي (صلى الله عليه وسلم) ومن لم يستجب ، كما اختلف حال الناس مع الوالدين، وقد نسب (ابن عاشور)هذا الرأي إلى القرطبي والقشيري[1] .

– الوجه الثاني : أن يكون موقع هذه الآية بعد ذِكْر التوحيد والاستقامة ؛ على سبيل ما سُمِّي بعادات القرآن أو قرائنه ؛ حيث عُطِفَت الوصيةُ بالوالدين على الأمر بالتوحيد في غير ما موضع من القرآن . وقد عزا (ابن عاشور) هذا الرأي لابن عساكر[2] ، وهو كذلك مُخْتار البقاعِيّ ، حيث يقول: ((ولما تفضَّلَ سبحانه وتعالى على الإنسان بعد الأعمال التي هيأه لها وأقدره عليها ووفقه لها أسباباً قرن الوصية بطاعته – لكونه المبدع – الوصية بالوالدين لكونه تعالى جعلهما سبب الإيجاد ... وعلى مثل هذا المنوال جرت عادة القرآن ؛ يوصي بطاعة الوالدين بعد الأمر بعبادته))[3] .

ولكنّ (ابن عاشور) يرى أن أياً من هذين القولين غير مقنع ، والوجه عنده ((أن هذا انتقال إلى قول آخر من أقوال المشركين وهو كلامهم في إنكار البعث وجدالهم فيه ، فإن ذلك من أصول كفرهم بمحل القصد في هذه الآيات في قوله :﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ ﴾ إلى قوله تعالى :﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَـٰسِرِينَ ﴾[4] وصيغ هذا في أسلوب قصة جدال بين والدين مؤمنين وولد كافر ، وقصة جدال بين ولدٍ مؤمنٍ ووالدين كافرين، لأن لذلك الأسلوب وقعاً في أنفس السامعين ...ولذلك تعيّن أن يكون ما قبله توطئةً وتمهيداً لذِكْر هذا الجدال))[5]. وعند التدقيق فيما يذكره (ابن عاشور) هنا ؛ فإنه يمكن أن يؤول كلامه إلى رأي القرطبي والقشيري اللذين أشرنا إلى رأيهما في الوجه الأول ؛ غير أنه نظر هنا للمناسبة على أساس الانتقال إلى التمثيل لأقوال المشركين في إنكار البعث ؛ إذ تضمنت في الآية التي تضرب المثل بالولد الكافر إنكاراً للبعث: ﴿ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[6] فهي مُناسِبَةٌ لعموم أغراض السورة ، وليست بذات صلة بما قبلها في السياق مباشرة .

وكان (ابن عاشور) قد سرد أغراض السورة في مقدمة تفسيرها ، وقال عن هذا الموضع : ((وأُقْحِم في ذلك [أي في الأغراض] معاملة الوالدين والذرية مما هو من خُلُقِ المؤمن وما هو من خلق أهل الضلالة))[7] مما يدل على أن موقع هذه الآية ليس للتمثيل على المواقف من البعث فحسب ، ولكنه يندرج ضمن الثناء على الذين آمنوا الذي ورد في الآية السابقة على هذه الآية ، والذّم لأهل الكفر الذين سرد خصالهم الدالة على تكذيبهم قبلها وبعدها ، وكلا الوجهين يمكن أن يتلقى بالقبول.

---

[1] هو عبد الكريم بن هوازن ،أبو القاسم القشيري صاحب الرسالة (ت ٤٦٤هـ).

[2] هو عبد الرحمن بن عبد الوهاب بن عساكر ،الإمام المحدث الزاهد(ت ٦٨٠هـ)

[3] نظم الدرر:ج٧ص١٢٧.

[4] سورة الاحقاف :الايات١٧، ١٨

[5] التحرير والتنوير : ج٢٦ ص٢٥.

[6] سورة الأحقاف:الآية ١٧ .

[7] التحرير والتنوير ، ج ٢٦، ص٦

ثانياً توظيف السياق الخارجي للنص :

تقدمت الإشارة إلى وسطية (ابن عاشور) في الاعتماد على توظيف السياق الخارجي للنص القرآني ، وذلك في الكشف عن انسجام الآيات القرآنية في مواضع الانتقال بين أغراض السورة؛ إذ لم يلجأ إلى هذا الإجراء إلا حين تعسّر عليه أن يجد في السياق الداخلي ما يفسر الانسجام .

ولن نعيد ما تقدم من الأسباب التي دعت (ابن عاشور) وغيره من المفسرين إلى الاعتماد على السياق الخارجي للنص القرآني ، واسترجاع المقامات الخطابية التي تنزلت فيها الآيات ، ولكننا نباشر عرض نماذج من تفسير (ابن عاشور) لمواضع تحول السياق وانتقال الخطاب في بعض سور القرآن ، كما فعلنا في القسم المقابل لهذا النوع من أنواع السياق ؛ لنرى كيف استطاع (ابن عاشور) أن يجمع بين ما أطلق عليه خصائص أسلوب القرآن في ترتيب أغراض السورة ، وبين إمكان البحث عن وجوه من المناسبة ، تقرّب للمتدبر في آيات القرآن المسافة التي قد يتوهمها بين مواضع الانتقال والتحول . وقد وردت الإشارة إلى بعض مواضع الانتقال في المبحث السابق، وفيما يلي استعراض ومناقشة لوجوه المناسبات المعتمدة على توظيف السياق الخارجي للنص في المواضع الآتية :

- سورة البقرة :

يقول تعالى : ﴿ حَـٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ۞ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴾ [١].

هاتان الآيتان الكريمتان وردتا ضمن أحكام الطلاق والعدة إذ وردت بعدها آيتان تضمنتا حكمين تابعين لما قبل قوله : (حَـٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ ... الآية) .

وقد تتبع (ابن عاشور) ما كتبه المفسرون حول مناسبة هاتين الآيتين لما قبلهما ، وقرر قاعدة احترازية عامة حول تفسير مناسبة الانتقال من غرض لآخر في القرآن ؛ مفادها أن : ((الانتقال من غرض إلى غرض في آي القرآن لا تلزم له قوة ارتباط ؛ لأن القرآن ليس كتاب تدريس يرتب بالتبويب وتفريع المسائل بعضها على بعض، ولكنه كتاب تذكير وموعظة ...فقد يجمع به الشيء للشيء من غير لزوم ارتباط وتفرع مناسبة ، وربما كفى في ذلك نزول الغرض الثاني عقب الغرض الأول ، أو تكون الآية مأموراً بإلحاقها بموضع معين في إحدى سور القرآن... ولا يخلو ذلك من مناسبة في المعاني أو في انسجام نظم الكلام)) [٢].

ويطبق (ابن عاشور) هذه القاعدة على هذا الموضع حيث تكون آية (حَـٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ...) نزلت عقب آيات العدة والطلاق لسبب اقتضى ذلك ؛ من غفلة عن الصلاة الوسطى أو استشعار مشقة المحافظة عليها ، ولم يُورِدْ أثراً يدل على ذلك ، لهذا فإنه يلجأ إلى عدّة احتمالات، كلها تعتمد

---

١ سورة البقرة:الآيتان ٢٣٨، ٢٣٩ .

٢ التحرير والتنوير : ج ٢، ص٤٤٣ ، ٤٤٤.

عـــلى الســـياق الخارجي للنص ، ولكنها تنطلق من مبدأ مراعاة حالة المتلقي ، وتصور موقفه أثناء تلقيه الآيات الكريمة .

إن ربـــط هذه الآية بما يصلح أن يراعى فيه حالة المتلقي من الآيات السابقة حتى يلتفت له السياق ، يحتمل الوجوه الآتية :

١-الارتباط بالتذييل الذي وقع في نهاية الآية السابقة على هذا الموضع وهو قوله تعالى:﴿ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْۚ ﴾[١] وفي ذلك يقول (ابن عاشور) : ((إن الله دعانا إلى خُـلُق حميد ، وهـــو العفو عن الحقوق ، ولما كان ذلك الخلق قد يتعسر على النفس ... علمنا الله دواء هذا الداء بدوائين ، أحدهمـــا دنيوي عقلي ، وهو في قوله : (وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْۚ) ... والدواء الثاني أخروي روحاني ، وهو الصلاة ... فلما كانت معينة على التقوى ومكارم الأخلاق حث الله على المحافظة عليها))[٢].

ومع ما يمثله هذا التصور من محاولة الاستفادة من السياق الجزئي الداخلي (سياق الآية) في الاستدلال على المناســـبة إلا أنهـــا تـــرجع إلى الســـياق الخارجي للنَّصّ ، المتمثل في تصوُّر العلاقة التكاملية بين الوسائل الدينية والدنـــيوية في تحقـــيق تربية النفوس . فهي علاقة لا يحققها التوالي في النَّصّ فحسب ، بل تحتاج إلى فهم أسلوب التربـــية الإسلامية للمجتمع المسلم أفراداً وأسراً ونـــزيد ذلك وضوحاً إذا تذكرنا أدوار الصلاة في التربية التي لخصها القرآن في آية جامعة هي قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ ﴾[٣] .

٢- الارتـــباط بسياق التلقي وقاعدة تنظيم الخطاب : ويتمثل ذلك في قول (ابن عاشور) : ((ولك أن تقول : لما طال تعاقب الآيات المبينة تشريعات تغلب فيها الخطوط الدنيوية للمكلفين عقبت تلك التشريعات بتشـــريع تغلـــب فيه الخطوط الأخروية لكي لا يشتغل الناس بدراسة أحد الصنفين من التشريع عن دراسة الصـــنف الآخـــر))[٤] فالخطاب على هذا يلتفت إلى سياق التلقي وأحوال المخاطبين وفوائد توالي التشريعات المتشابهة والمختلفة في سياق سردي واحد .

وقد أحسن البيضاوي إذ وضح لنا قيمة هذا التحول السياقي وأثره في تنبيه القارئ الذي تتسلسل عليه أحكام متقاربة في موضوعها ، ثم ينقطع السياق ليؤمر بالمحافظة على الصلاة ، ثم يعود إلى الأغراض السابقة. يقول البيضاوي : ((ولعل الأمر بها في تضاعيف أحكام الأولاد والأزواج لئلا يلهيهم الاشتغال بشأنهم عنها))[٥].

---

١ سورة البقرة:الآية ٢٣٧ .

٢ التحرير والتنوير : ج ٢، ص٤٤٤

٣ سورة العنكبوت:الآية ٤٥ . وفي هذا المعنى يقول برهان الدين البقاعي في تفسير قوله تعالى : (وقوموا لله قانتين) : (فيه إشعار أن من قام لله سبحانه وتعالى قانتاً في صلاته أقام الله سبحانه وتعالى حاله في إقامته ومع أهله) . [انظر : نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : ج ١. ص٤٥٤].

٤ التحرير والتنوير : ج ١، ص٤٤٤.

٥ أنوار التنـــزيل وأسرار التأويل : دار الفكر – بيروت ، (د.ت.ط) ،ج١،ص٥٣٦.

وهذا الوجه والذي قبله ، جاء من خلال فهم دلالة مواقع الآيات على المعاني المستنبطة بمساعدة السياق الخارجي للنص . وقد لفت (ابن عاشور) أنظارنا إلى أن مواقع الأمر بالصلاة في هذه السورة جاءت في سياقات توحي بأن الأمر بها في ذلك السياق لتكون الصلاة عوناً على ما كلفوا به ، ومن ذلك موقع ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾[1] بعد قوله : ﴿ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى ﴾[2] وقبل قوله : ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌ ﴾[3] .

- سورة آل عمران :

يقول تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[4] .

لتوضيح كيفية تحول سياق هذه الآية عن سياق الآيات قبلها ننقل عبارة (ابن عاشور) بنصها إذ يقول: ((لولا أن الكلام على يوم أُحُدٍ لم يكتمل ؛ إذ هو سيعاد عند قوله تعالى : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ ...﴾ إلى قوله:﴿ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ ...﴾[5] لقلنا إن قوله:﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ ...﴾ اقتضاب تشريع . ولكنه متعين لأن نعتبره استطراداً في خلال الحديث عن يوم أُحُد . ثم لم يظهر وجه المناسبة في وقوعه في هذه الأثناء))[6].

موقع الآية الكريمة إذاً استطراد خلال الحديث عن يوم أحد ، ومعلوم أن صورة الاستطراد: ((أن يأخذ المتكلم في معنىً فبينا يَمُرُّ فيه يأخذ في معنى آخر ... وقد جعل الأول سبباً إليه))[7] وقد فصّل ابن رشيق القيرواني[8] معنى الاستطراد بصورة أوضح فقال : ((هو أن يرى الشاعر أنه في وصف شيء وهو إنما يريد غيره، فإن قطع أو رجع إلى ما كان فيه فذلك استطراد ، وإن تمادى فذلك خروج وأكثر الناس يسمي الجميع استطراداً والصواب ما بينته))[9] ولمّا لم تظهر المناسبة بين الكلام السابق وبين الآية من سياق النّصّ ، فقد حاول (ابن عاشور) أن يبحث في كتب التفسير عما يمكنه أن يوجه به موقع الآية من أسباب النزول . فلم يجد ما يصلح

---

١ سورة البقرة:الآية ١٥٣.

٢ سورة البقرة:الآية ١٥٠ .

٣ سورة البقرة:الآية ١٥٤.

٤ سورة آل عمران:الآية ١٣٠.

٥ سورة آل عمران:الآية ١٧١.

٦ التحرير والتنوير : ج ٣، ص٢١٦.

٧ أبو هلال العسكري : الصناعتين ص ٤٤٨(مرجع سابق) .

٨ الحسن بن رشيق القيرواني : أديب ناقد باحث ، من كتبه العمدة في صناعة الشعر ونقده ، والشذور في اللغة ، توفي (٤٦٣هـ) . انظر : الزركلي : الأعلام . ج٢،ص١٩١

٩ انظر : العمدة في صناعة الشعر ونقده : دار الجيل للنشر والتوزيع – بيروت،ط٤ (١٩٧٢م) ،ج٢،ص ٣٩.

لذلك . يقول ابن عطية : «هذا النهي عن أكل الربا اعتراض أثناء قصة أحد ولا أحفظ في ذلك سبباً مروياً»[1] لذلك فقد أعرض (ابن عاشور) عن ذِكْر المناسبة في هذا الموضع فقال : «وعندي بادئ ذي بدء أن لا حاجة إلى إجراء المناسبة ؛ فإن مدة نزول السورة قابلة لأن تحدث خلالها حوادث ينزل فيها قرآن فيكون من جملة تلك السورة ...فتكون هاته الآية نزلت عقب ما نزل قبلها فكتبت هنا ، ولا تكون بينهما مناسبة ؛ إذ هو ملحق إلحاقاً بالكلام ... ويحتمل أن يكون بعض المسلمين دَايَن بعضاً بالمراباة عقب غزوة أحد فنزل تحريم الرِّبا في مدة نزول تلك الغزوة»[2].

وبهذا يحيلنا (ابن عاشور) على السياق الخارجي لبيان مناسبة موقع الآية الذي دعا إليه الاستطراد ، وقبل ذلك إلى قواعد ترتيب الآيات في السور الكريمة ؛ والتي ذكرنا طرفاً منها بداية هذا الفصل[3].

- سورة مريم :

قال تعالى : ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ۞ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾[4]

هذه الآية الكريمة وردت بعد حديث القرآن عن جزاء المتقين المذكور في قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴾[5] و قرر (ابن عاشور) أن موقع هذه الآية هنا غريب ، واختلفت كلمة المفسرين في توجيه موقع الآية إلى عدّة أقوال تؤول بعد الجمع بينها إلى وجهين هما :

- الوجه الأول : يتلخص في البحث عن مناسبة الآية من خلال السياق الداخلي (سياق الآيات السابقة أو سياق السورة كلها) .

وقد حكى الزمخشري جواز أن يتعلق قوله تعالى : (وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ... الآية) بالآية السابقة عليها وهي قوله تعالى : (تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا) فقال : «وقيل هي حكاية قول المتقين حين يدخلون الجنة ، أي وما نتنزل الجنة إلا بأن منَّ الله علينا بثواب أعمالنا وأمرنا بدخولها»[6].

---

1 المحرر الوجيز :ص٣٥٥.

2 التحرير والتنوير : ج ٣، ص٢١٧. ويشهد للاحتمال الأخير وهو (أن يكون بعض المسلمين قد داين بعضاً بالمرابات) الحديث الذي رواه أبو داود عن أبي هريرة أن عمرو بن أقيش كان له رباً في الجاهلية فكره أن يُسْلم حتى يأخذه ، فجاء يوم أُحُد فقال : أين بنو عمي ؟ قالوا : بأحد . قال : أين فلان؟ قالوا: بأحد قال : فأين فلان؟ قالوا : بأحد . فلبس لأمته وركب فرسه ثم توجه قبلهم فلما رآه المسلمون قالوا : إليك عنا ياعمرو . قال : إني قد آمنت . فقاتل حتى جرح فحمل إلى أهله فجاءه سعد بن معاذ .فقال لأخته : سليه، حمية لقومك أو غضباً لهم أم غضباً لله ؟ فقال : بل غضباً لله ولرسوله . فمات فدخل الجنة، وما صلى لله صلاة . [انظر : سنن أبي داود : كتاب الجهاد . حديث رقم (٢١٧٥)].

3 انظر ص ١٠٧ من هذا البحث .

4 سورة مريم:الآيتان ٦٤، ٦٥ .

5 سورة مريم:الآيتان ٦٣.

6 الكشاف :ج٣ ،ص ٣٠.

وقــد حسَّن (ابن عاشور) هذا التأويل وقال عنه : ''جوّز صاحب الكشاف أن تكون من تمام حكاية كلام أهــل الجنة ، بتقدير فعل يقولون ، وهو تأويل حسن ، ... وعليه فكان الخطاب من قوله: (بِأَمْرِ رَبِّكَ) خطاب كل قائل لمخاطبه''[1].

كمــا نســب ابن عطية إلى النَّقاش[2] أن قوله تعالى : (وَمَا نَتَنَزَّلُ) متصلٌ بقوله: ﴿ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَـٰمًا زَكِيًّا ﴾ [3] .

ثم عقب ابن عطية على هذا بقوله : ''وهذا قول ضعيف''[4] – وهو رأي بعيد في توجيه المناسبة ، بناءً على استخدام السياق النَّصّي (سياق السورة) ؛ إذ قد انتهى غرض الحديث في حكاية قصة ميلاد عيسى (عليه الســلام) ومحاورتــه مــع مريم ، وكان يَحْسُن بمن أراد أن يحيل على السياق النَّصّي ، أن يسترشد بما في الســورة مــن حديــث عن إرسال الرسل ونبوة الأنبياء ، ونعم الله على هؤلاء الرسل بالوحي وإحلالهم المقامات العلية ، وأن نــزول الوحي عليهم لا يكون إلا بأمر الله عز وجل، فإن هذا الوجه أقرب ما يمكن أن يفرّع على القصص المذكورة من أول السورة اعتماداً على ما تفيده الواو من التفريع في بعض المواضع.

– الوجه الثاني : أن قوله تعالى : (وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ... الآية) نــزلت على سبب حصل أثناء نــزول جبريل (عليه السلام) بهذه الآيات ، فكانت رداً على كلام محذوف ، توضحه رواية البخاري عن ابن عباس (رضي الله عنه)ما قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لجبريل: (ألا تزورنا أكثر مما تزورنا؟ قال : فنــزلــت(وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا ...الآيــة ")[5] وهــو رأي جمهور المفسرين ، كما حكى ذلك (ابن عاشور) .

وعلى هذه الرواية يكون قوله: (وَمَا نَتَنَزَّلُ) ''حكاية قول جبريل (صلوات الله عليه) حين استبطأه الرسول (صــلى الله عليه وسلم)''[6] وتكون واو العطف كما قال ابن عطية : ''عاطفة جملة كلام على أخرى ، وواصلة بين القولين ، وإن لم يكن معناها واحداً ''[7].

وهو الوجه الذي اختاره (ابن عاشور) في بيان موقع هذه الآية حيث يقول موضحاً معنى الحديث السابق : ''والمعــنى أن الله تعــالى أمر جبريل (عليه السلام) أن يقول هذا الكلام جواباً عنه ، فالنظم نظم القرآن بتقدير : وقــل مــا نتنــزل إلا بأمر ربك . أي قل يا جبريل ، فالواو عاطفة فعل القول المحذوف على الكلام الذي قبله

---

١ التحرير والتنوير : ج١٦ ، ص ٦٣.

٢ هو أبو بكر محمد بن الحسن بن محمد بن زياد المقرئ الموصلي النقاش ، صنف في التفسير والقراءات ، توفي (٣٥١هـ).

٣ سورة مريم:الآية ١٩.

٤ المحرر الوجيز : ص١٢٣٥ .

٥ صحيح البخاري : كتاب بدء الخلق ، باب ذِكْر الملائكة ، حديث رقم (٢٩٧٩).

٦ الزمخشري : الكشاف ج٣،ص٣٠.

٧ المحرر الوجيز : ص ١٢٣٥.

عطف القصة مع اختلاف المخاطب . وأمر رسوله (صلى الله عليه وسلم) أن يقرأها هنا ، ولأنها نزلت لتكون من القرآن))(١).

وهذا الوجه – كما هو ظاهر– يحيل على السياق الخارجي في معرفة موقع الآية ، ولا يمكن تفسير مناسبتها أو معناها بدون تصور تلك المواقف الحوارية التي دارت بين النبي (صلى الله عليه وسلم) وبين جبريل (عليه السلام) . وقد مثّل تسجيل القرآن لجزئها الثاني المتمثل في جواب الله تعالى على لسان جبريل (عليه السلام) تمام الرعاية الإلهية لهذا الوحي ، الذي نزل بالردّ على تساؤل لم يكن من المناسب إرجاء الجواب عنه .

وهذا مما يدل على أن سياق الموقف وسياق الحدث يجب أن يُستصحبا أثناء تفسير ظاهرة الانسجام في النّصّ القرآني .

- سورة القيامة :

تتلخص أغراض هذه السورة في إثبات البعث ، والتذكير بيوم القيامة ، وإثبات الجزاء على الأعمال ، واختلاف أحوال الناس في ذلك .

وقد افتتحت السورة ببعض هذه الأغراض ، إلى قوله تعالى : ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَـٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴾(٢) ثم انقطع الكلام في هذه الأغراض بقوله تعالى:﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝ فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴾(٣) وبعد هذا التحول تعود الآيات لنفس السياق المتحول عنه وذلك بقوله تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝ وَتَذَرُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴾(٤) إلى آخر السورة .

تتلخص مظاهر هذا التحول السياقي – كما ينبه عليها المفسرون – إجمالاً في الآتي :

١– تحول الكلام من غرض الحديث عن العقائد الباطلة حول البعث والحساب إلى غرض آخر دعا إليه سياق الموقف لا سياق النّصّ .

٢– تحول الأسلوب من الإخبار بضمير الغائب العائد على (الإنسان) وما يأتي به من أقوال باطلة ، وما ترتب عليها من ردود – إلى نهاية الإقبال بضمير الخطاب في قوله: (لَا تُحَرِّكْ) على المتلقي الأول للنص ، ينهاه الله فيه عن فعل مصاحب لتلقيه الوحي ، ويأمره بما يناسب مقام التلقي ، ويزيح عنه عبء معاناة هذا التلقي بضمان جمعه،وقراءته، وبيانه .

---

١ التحرير والتنوير : ج ١٦، ص٦٢.

٢ سورة القيامة:الآيتان ١٤، ١٥.

٣ سورة القيامة:الآيات ١٦–١٨.

٤ سورة القيامة:الآيتان ٢٠، ٢١.

٣- لم يجـر ذِكْر في السياق النّصّي لما نُهي المتلقي عن تحريك اللسان به ، وإنما اكتفى بالإحالة عليه بضمير الغائب في قوله: (لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ) ولكن القرائن المتمثلة في قوله : (جمعه – قرآنه – قرأناه – بيانه) تدل عليه.

٤- الرجوع لسياق الزجر باللفظ (كلا) مع بقاء ضمير الخطاب على حاله ، ولكن في صورة ضمير الجمع (تحـبون – تـذرون) لا المفرد الوارد في قوله : (تحرك – تعجل – اتبع) هذا على قراءة الجمهور ، أما قراءة غيرهـم [1] فهي بياء الغائب (يحبون – يذرون) التي تناسب العودة بعد التحول إلى ضمائر الغيبة المتسقة من أول السورة .

وأمـام مظاهر تحول السياق هذه تتظافر كلمة المفسرين على أن المخاطب بقوله : (لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ ... الآيـات) هـو الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وهو اعتراض بين جملة أغراض السورة ، وليس في الكلام السابق ما يصلح أن يفسر به هذا التحول .

لذلـك لجـأ المفسرون للسياق الخارجي للنص (سياق الموقف) من أسباب النـزول ، فاستدلوا بالحديث الصـحيح المروي عن ابن عباس في قوله عز وجل : (لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ) قال : (كان النبي (صلى الله عليه وسلم) إذا نـزل عليه جبريل بالوحي كان مما يحرك به لسانه وشفتيه فيشتد عليه فكان ذلك يعرف منه فأنـزل الله تعالى "لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ")[2] .

وقـد حكى (ابن عاشور) إجماع أهل الحديث والتفسير على أن هذه الآية نـزلت في أثناء سورة القيامة . فقال : ((فيكون وقوع هذه الآية في هذه السورة مثل وقوع ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَ ... الآية﴾[3] ووقـوع ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ ... الآية﴾[4] في أثناء أحكام الزوجات في سورة البقرة ، قالوا : نـزلـت هـذه الآية في أثناء سورة القيامة ، وهذا ما لا خلاف عليه بين أهل الحديث وأئمة التفسير))[5] وبهذا يظهر موقع الآية في هذه السورة .

والعجيـب أن الزَّمَخشَـريّ يفسر الرّدع الوارد بعد هذه الآيات في قوله : (كَلَّا بَلۡ تُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ ۞ وَتَذَرُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ) بأنـه من تمام الاعتراض السابق ، فيقول : (((كَلَّا) ردع لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن عادة العجلة ، وإنكار لها عليه، وحث على الأناة والتؤدة ، وقد بالغ في ذلك بإتباعه قوله : (كَلَّا بَلۡ تُحِبُّونَ

---

١ قـرأ ابن كثير ،وأبو عمرو ،وابن عامر ،والحسن ، ومجاهد ، وقتادة والجحدري (يحبون – ويذرون) بالياء .يقول مكي بن أبي طالب : (ردوه على لفظ الغيبة المتقدم الذِكْر وهو قوله : "ينبأ الإنسان") انظر : مكي بن أبي طالب : الكشف عن وجوه القراءات السبع ، ج٢ ،ص٣٥٠.

٢ الحديـث في صـحيح مسلم : كتاب الصلاة ، باب الاستماع إلى القراءة ، رقم (٦٧٩) . وكذلك هو في البخاري بلفظ مقارب برقم (٦٩٧٠) كتاب التوحيد.

٣ سورة مريم : الآية ٦٤.

٤ سورة البقرة : الآية ٢٣٨.

٥ التحرير والتنوير : ج ٢٩، ص٣٢٤.

ٱلْعَاجِلَةَ) كأنـــه قال : بل أنتم يا بني آدم لأنكم خلقتم من عجل وطبعتم عليه تعجلون في كل شيء ، ومن ثم تحـــبون العاجلـــة وتذرون الآخرة ››[1] وهو خلاف ما ذهب إليه جمهور المفسرين في تفسير الآية ، فقد قال ابن عطـــية: ‹‹قوـــله تعالى : (كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ) رجوع إلى مخاطبة قريش ، يرد عليهم أقوالهم في ردّ الشريعة بقوله "كلا" أي ليس ذلك كما تقولون ، وإنما أنتم قوم قد غلبتكم الدنيا بشهواتها››[2] .

وتابعـــه في هذا التفسير (ابن عاشور) في بيان موقع قوله تعالى: (كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ) فالآية ‹‹رجوع إلى مهيع[3] الكلام الذي بنيت عليه السورة ، كما يرجع المتكلم إلى وصل كلامه بعد أن قطعه عارض أو سائل . فكـــلمة "كـــلا" ردع وإبطـــال يجوز أن يكون إبطالاً لما سبق من قولـــه تعـــالى: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴾[4] إلى قولـــــه : ﴿ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴾[5] فاعيد "كلا" تأكيداً لنظيره ، ووصلاً للكلام بإعادة آخر كلمة فيه››[6] .

ولكن الزَّمَخْشَرِيّ يعود فيقول : ‹‹وقرئ بالياء (أي قوله : تحبون ، تذرون) وهو أبلغ››[7] وكأنه لا يرى أن قـــراءة الجمهـــور بالتاء على الالتفات من الغيبة – التي انتظم بها الكلام السابق على موضوع الاعتراض– إلى الخطاب في قولـــه: (كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ) يوازي ما في القراءة بالياء من البلاغة ، مع أن الالتفات أبلغ من جهة أنه مواجهة بالتقريع للمشركين كما أشار إلى ذلك (ابن عاشور) [8] .

والـــذي يظهـــر أن الزَّمَخْشَرِيّ يُعد (كلا) من تمام جملة الاعتراض للإقبال على الرسول (صلى الله عليه وســـلم) ، ويُعد ما بعدها متسقاً مع ما قبلها ، وشهد لذلك قوله : ‹‹فإن قلت : كيف اتصل قوله : (لا تحرك به لسانك) إلى آخره ، بذِكْر القيامة ؟ قلت : اتصاله به من جهة هذا للتخلص منه إلى التوبيخ بحب العاجلة ، وترك الاهتمام بالآخرة››[9] .

ولكـــن رأي المفســـرين في تعلق موقع قوله : (كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ) بما قبل الاعتراض بقوله : (لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ ... الآيـــة) أكـــثر وجاهة وسداداً ، ويؤيد ذلك قوله : (تحبون – تذرون) بمختلف وجوه القراءة ، إضافة إلى تحول صورة الضمائر تبعاً لتلك الوجوه .

---

١ الزمخشري : الكشاف ج٤ .ص٦٦٢ ، ٦٦٣ .

٢ المحرر الوجيز : ص ١٩٢٥.

٣ مهيع الكلام : مجراه ، جاء في القاموس المحيط : ‹‹طريقٌ مهيعٌ ، كمقعد : بيّن ، ... والتهيع : الانبساط ، والهاع الشراب : جرى›› [انظر : الفيروز أبادي ، القاموس المحيط : ص١٠٠٤، (مادة : هيع)].

٤ سورة القيامة:الآية ٣.

٥ سورة القيامة:الآية ١٥.

٦ التحرير والتنوير : ج ٢٩، ص٣٢٥.

٧ الكشاف : ج٤،ص٦٦٣.

٨ انظر التحرير والتنوير : ج ٢٩، ص٣٢٦.

٩ الكشاف : ج٤ ،ص٦٦٣.

ولذلــك فقد أشار (ابن عاشور) إلى أن (كلاّ) مثلت وسيلة ربط سياقي يتمثل في توازي التراكيب ، وقد عــاد بها الغرض على الكلام الذي بنيت أغراض السورة عليه اعتماداً على ما في وصل الكلام بإعادة آخر كلمة منه من أثر في تماسك النَّصّ .

وخلاصـــة القـــول إنه بعد عرض هذه النماذج التي يظهر من خلالها منهج (ابن عاشور) في دراسة ظاهرة الانســجام في مواضع تحول السياق وانتقال الخطاب ؛ يمكن أن نستنتج حرص (ابن عاشور) على بيان العلاقات التي يلزم القارئ المتدبر معرفتها لتفسير مناسبة ذلك التحول أو الانتقال .

لقــد مثل العود إلى السياق الداخلي للنص القرآني (الجزئي والنَّصّي والكلي) الخطوة الأولى للبحث عن المناســبة ، وهو سياق تبرز من خلاله مظاهر التحول أو الانتقال التي تمثل في الوقت ذاته مؤشرات على حصول ذلك التحول والانتقال .

وقد رُصدت من هذه المظاهر الصور الآتية :

- تغير صورة الضمائر ، المعبر عنه بالالتفات .
- تغير الأسلوب ؛ من البشارة إلى النذارة ، ومن الخبر إلى الإنشاء ، ومن القصص إلى الموعظة ...الخ .
- الإضراب بجميع صوره الإبطالي أو الانتقالي
- الاســتئناف الابتدائي ؛ للتخلص من غرض لآخر ، أو للإعلام بانتهاء أغراض النص وهو ما سمي برد العجز على الصدر ، وبراعة المقطع .
- عطف القصة على القصة ؛ حيث لا يمكن إرجاع المعطوف على أقرب سياق به، فعلاً كان أو اسماً أو مصدراً أو غير ذلك .
- الاســتفتاح المتمــثل في النداءات القرآنية : (يا أيها الناس – يا بني آدم – يا بني إسرائيل – يا أيها الذيــن آمنوا – يا أهل الكتاب – الأمر الموجه للنبي بالفعل قل ... – القسم ...الخ) وما يستدعيه الإقبال بالنداء من تجدد الغرض .

وتمــثل هذه المظاهر نموذجاً لمؤشرات التحول والانتقال وقع بها التخلص بين الأغراض بحيث لا يشعر معها القارئ اللبيب المتدبر بصدمة تستوقفه أمام هذه الآيات طويلاً .

أمــا الخطــوة الثانية ، فهــي ما تَمَثلَ في العود إلى السياق الخارجي ؛ سياق الموقف والحدث ، وتصور مقامــات الخطــاب ، وتمثل حالة المتلقي ؛ وذلك ليوضح (ابن عاشور) – كما فعل كثير من المفسرين – مناسبة الانتقال في حالة الانقطاع التام للسياق ، من خلال مظاهر الاقتضاب ، والاعتراض ، والتفريع على غير ما يفهم من ظاهر النَّصّ ، والردع والزجر لمضمون كلام متأخر لا سابق ... الخ .

وحينذاك فإن العود إلى السياق الخارجي – وما ترتب عليه من تفصيل المناسبة في المواقع التي يتم فيها ذلك الانتقال – قد كشفت ما كانت تستشرف نفس هذا المتلقي إلى معرفته لو لم يتمّ هذا الاعتراض في السياق.

ولكـــن (ابن عاشور) – كما رأينا – لم يُقدم على هذا العمل إلا حين إنعدمت لديه وسائل التفسير اللغوي أو المنطقي المعتمد على ظاهر النَّصّ ، ولذلك رأيناه يعود للقاعدة المقررة في الانتقال ، التي يحيل فيها القارئ على ما يمكن أن يحدث من حوادث أثناء نـــزول تلك السورة التي وقع في آياتها ذلك التحول والانتقال ، وعلى وجه أخص حين لا يجد للآثار المروية من أسباب النـــزول ما يرشد إلى ذلك ، مثل : (آية الربا في سورة آل عمران)، أمـــا حـــين يتوصل بحثه إلى مناسبة نـــزولٍ يستفاد منها في تفسير موقع الآية ؛ فقد كان يجتهد في ربطها بسياقها الداخـــلي (النَّصّي) أولاً ، ومن ثمّ يعمد إلى الاسترشاد بذلك الأثر المرويّ في توضيح معناها ومناسبتها ، ويوضح ذلك موضعي الانتقال في سورة مريم ، وسورة القيامة .

ولا تـــزال مواضع تحول السياق وانتقال الخطاب في سور القرآن بحاجة إلى إعادة استقصاء البحث فيها ، إذا أردنا الدقة في استخلاص قواعد إلحاق الموضوعات في مثل هذه الصور . ونحسب أن هذا العرض يمثل صورةً لما ينبغي أن يتخذ في بقية مواضع تحول السياق وانتقال الخطاب في القرآن .

الفصل الثاني:
وسائل انسجام النص القرآني عند ابن عاشور

المبحث الأول: المستوى المعجمي والنحوي

المبحث الثاني: المستوى الدلالي والتداولي

مدخل :

بعد أن خُصص الفصل السابق لمجمل المبادئ والمفاهيم التي يفترض الباحث أنها الأساس الذي أقام عليه (ابن عاشور) نظرته لظاهرة اتساق النّص القرآني وانسجامه، يأتي هذا الفصل للحديث عن وسائل الاتساق والانسجام، وذلك في ضوء التفريق بين مصطلحي الاتساق والانسجام، حيث يختص الأول منهما بالبحث عن الوسائل المعجمية والنحوية الظاهرة التي يتحقق بها الاتساق ، ويندرج تحت المصطلح الثاني كل العلاقات التي تسهم في ربط النّص من زاوية الدلالة والتداول ولا تكون لها وسائل ربط واضحة على ظاهر النّص .

وقد رأى الباحث أن تصنف تلك الوسائل –التي أشار إليها (ابن عاشور) في تفسيره –على مبحثي الاتساق والانسجام مع ما في ذلك من صعوبة الفصل بين الدلالة التي تتحقق بواسطة المعجم والنحو ، وتلك التي تستفاد من ظروف الإلقاء والتلقي ، وما كان ذلك التقسيم إلا من أجل تقريب مساحة الوصف وتسهيلها.

لذلك فقد كان المبحث الأول مخصصاً للوسائل التي تؤول إلى اللغة، وقد صنفت إلى مستويين :

المستوى الأول: هو المستوى المعجمي وقد رصدت تحته الوسائل اللغوية ذات الطبيعة المعجمية ، أي تلك الوسائل التي تؤكد المعاني وتقررها ويمثل وجودها علامة على الاتساق ، ومن أهم تلك الوسائل المعجمية:

- التكرير الذي نال حظاً في هذه الدراسة حسب الأهمية التي أولاها إياه (ابن عاشور) في التفسير .
- ويرتبط بهذه الوسيلة المعجمية ما سُمي بـ"ردّ العجز على الصدر" الذي يشترك مع التكرير في ربط المعاني وتقريرها .
- والوسيلة المعجمية الأخيرة هي "المقابلة" .

أما المستوى الثاني فهو : المستوى النحوي ، وقد شمل الحديث فيه دور حروف العطف، والإحالة بالضمائر، وأسماء الإشارة، وأسماء الموصول، وكانت الأمثلة والشواهد في هذا المستوى أكثر من سابقه نظراً لأهمية الوسائل النحوية في تحقيق الاتساق والانسجام .

وقد حرص الباحث على أن يتتبع ما فيه إشارة للعلاقة بين أجزاء الخطاب في النّص وليس مجرد البحث عن دور هذه الوسائل في تحقيق العلاقة بين الجُمل .

وقد تداخل البحث النحوي مع الدلالة والتداول ضمن هذا المستوى لصعوبة الفصل بينهما في الضمائر –خاصة– والباحث يهدف إلى أن يجمع عناصر التأثير التي ترتبط بالعطف ووسائل الإحالة تحت سياق متصل لتتم الفائدة.

أما المبحث الثاني فقد رصدت فيه الوسائل الدلالية والتداولية التي ألمح إليها (ابن عاشور) وأهمها : موضوع الخطاب، وترتيبه، والعلاقات المعنوية، ومفهوم الجامع والمناسبة، وعزز ذلك بدليل إحصائي لتوزيع العلاقات المعنوية على بعض سور القرآن .

وقد بين الباحث –في مقدمة المبحث الثاني– المساحة التي أُكتفي بها في رصد هذه الوسائل، وتعد خلاصات هذه الوسائل المعجمية والنحوية ، والدلالية والتداولية أبرز ما يمكن الحكم به على تميز أسلوب التحرير والتنوير في التعبير عن الوظائف النصية لهذه الوسائل في السورة الكريمة .

المبحث الأول:
المستوى المعجمي والنحوي

أولاً المستوى المعجمي

١- التكرير

٢- ردّ العجز على الصدر "التصدير"

٣- المقابلة

تشـــترك وســـائل الاتساق المصنفة على هذا المستوى في أنها تحقق الترابط بين المعاني في النص ، وهي وإن كانـــت مـــن أبواب البديع إلا إن اتفاقها في الربط بإعادة الألفاظ أو إعادة المعاني أو المجيء بما يقابلـــها يجعلـــها ضـــمن وسائل الاتساق التي تؤول إلى المعجم ، وهو التصنيف الذي تعتمده كثير من الدراسات اللسانية ، وقد رصد البحث من هذه الوسائل : (التكرير – ردّ العجز على الصدر "التصدير"– المقابلة) وبيان ذلك على النحو الآتي:

١ـ التكرير :

❑ المفهوم اللغوي :

تشعبت عبارة البلاغيين والنقاد في تحديد مصطلح التكرير وضبط حدود استعمالـــه في ربط الكلام بعضه بـــبعض ، ومـــن أجل ذلك التشعب كان لا بد من أن نعرِّج على الأصل اللغوي لـــهذا المصطلح ، ونبين كيف يمكن أن تظهر بعض الفروق الدقيقة بين عبارات التكرير ، والتكرار ، والتعديد من خلال المعجم قبل ظهورها في كتب البلاغة ثم في كتب التفسير .

ولتوضـــيح هـــذه الفروق الدقيقة من خلال الإطلالة على المعجم وكتب اللغة نجد أن ابن منظور يقول : ((الكرُّ: الرجوع ... والكرُّ : مصدر كرَّ كرّاً وكُروراً وتَكراراً : عطفَ ... وكرَّر الشيء وكرْكرهُ : أعاده مرة بعد أخرى ... والكرُ : الرجوع على الشيء ، ومنه التَّكرار))[١] ونقل ابن منظور في هذه المادة عن الجوهري[٢] قولـــه : ((قلت لأبـــي عمرو: ما بـــين تِفعالٍ وتَفعالٍ؟ فقال: تِفعالٌ اسم، وتَفعالٌ، بالفتـــح، مصدر))[٣] والذي يتضح في هذين النصين أمران :

أولـــهما : أن مادة (الكاف والراء) تفيد بتركيبها معنى الإعادة والعطف على الشيء .

وثانيهما : أن المصدر (تكرار) بفتح التاء يفيد الإعادة ، وقد وقع الخلاف في أصل هذا المصدر ، هل يكون من (فعَّل تَفعال)، أم أنه مصدر فعَّل والألف فيه عوض من الياء في التفعيل؟

وظاهـــر كلام سيبويه أن التَّكرار بالفتح غير التكرير لما بين التَّفعال والتفعيل من الفرق وذلك أن التَّكرار مصدر على غير قياس من (فعَّلت) مراد به التكثير كما قيل في الـــهذر : التَّهذار ، وفي اللَّعب : التَّلْعاب . يقول ســـيبويه : ((وليس شيء من هذا مصدر فعَّلتُ ، ولكن لما أردت التكثير بنيت المصدر على هذا كما بنيت فعَلْت عـــلى فعَّلْـــت))[٤] وقد وضح السيرافي[٥] كلام سيبويه هذا وعلق عليه بقولـــه : ((اعلم أن سيبويه يجعل التَّفعال

---

[١] لسان العرب : مادة كرر ، ج٥ ، ص ١٣٥-١٣٦

[٢] هو إسماعيل بن حماد الجوهري : إمام لغوي ، صاحب المعجم المشهور "تاج اللغة وصحاح العربية" ، توفي (٣٩٣هـــ) .

[٣] لسان العرب : ج ٥، ص١٣٦.

[٤] الكتاب : ج٤ ، ص٨٤.

[٥] هو أبو سعيد حسن بن عبداللـــه بن المرزبان : شرح كتاب سيبويه فذكروا أن شرحه أعجب معاصريه حتى حسده أبو علي الفارسي ، توفي (٣٦٨ هـــ).

تكثيراً للمصدر الذي هو الفعل الثلاثي ، فيصير التَّهذار بمنزلة قولك السهذر الكثير ، والتَّلعاب بمنزلة قولك اللعب الكثير. وكان الفراء وغيره من الكوفيين يجعلون التَّفعال بمنزلة التفعيل والألف عوضاً من الياء ، ويجعلون التكرار والترداد بمنزلة ياء تكرير وترديد . والقول ما قاله سيبويه لأنه يقال : التَّلعاب ولا يقال التلعيب))[1] وعلى ضوء هذا الاختلاف ترددت عبارتا (التكرار والتكرير) في كتب اللغة دون مراعاة لـهذه الفروق، وممن استعمل مصطلح (التكرار) علي بن محمد الجرجاني في التعريف الثالث عشر بعد الأربعمائه حيث يقول : ((التكرار عبارة عن الإتيان بشيء مرة بعد أخرى))[2].

وزاد من ضرورة تعريف المصطلح ظهوره في سياق آخر حيث أصبح عنواناً للمؤلفات التي تبحث عن حكمة تكرر آيات مختلفة في سور القرآن الكريم لبيان أسرار اختلاف ورودها في كل موضع عن الموضع الآخر، وذلك مثل الكتاب الذي صنعه تاج القراء محمود بن عمر الكرماني[3] بعنوان البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان [4].

ورغبة في ضبط المصطلح فإن الأنسب أن يختار مصطلح (التكرير) بصيغة (التفعيل)، لإطلاقه على ما جاء من الكلام مردداً لغرض التنبيه والربط ، ليقابل مصطلحي الترديد والتعديد ، اللذين يلتقيان مع مصطلح التكرير في بعض وجوههما التي سنتناولها في المفهوم البلاغي للتكرير. وخروجاً من ما في لفظ (التكرار) بالفتح أو الكسر من الخلاف بين الاسمية والمصدرية كما اتضح ذلك في عبارة الجوهري التي أشار إليها ابن منظور آنفاً.

❑ المفهوم البلاغي للتكرير :

المطلع على كتب البلاغة والنقد يرى تبايناً كبيراً في تحديد مفهوم التكرير وبيان الغرض منه . فالتكرير عند قدامة بن جعفر[5] إعادة المعنى بلفظ مختلف وهو لا يشير إلى ذلك صراحة وإنما يستنتج ذلك من قوله: ((فأما التكرير فمثل قول هذيل الأشجعي[6] :

---

[1] أورد هذا الشرح المختصر محقق الكتاب الشيخ عبدالسلام هارون في حاشية ص٨٤ ، ج٤ ، وعنه نقلته . ومن الطريف ما نقله السيوطي عن أبي جعفر النحاس وجمال الدين بن مالك أنه ليس في كلام العرب على تفعال إلا أسماء معدودة ومنها : تبيان ، وتمثال ، وتمساح (على خلاف) وتعشار وتبراك (موضعان) . انظر المزهر في علوم اللغة وأنواعها : تحقيق : محمد أحمد جاد المولى ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ط (١٩٨٧م)ج٢ ، ص٩٢.

[2] التعريفات : ص٩٠ .

٣ هو محمود بن حمزة بن نصر الكرماني : وهو ليس الكرماني شارح صحيح البخاري ، أحد العلماء وأصحاب التصانيف، اختلف في زمن وفاته والمشهور أنه توفي بعد عام (٥٠٠هـ).انظر مقدمة كتابه أسرار التكرار في القرآن ، تحقيق عبدالقادر عطا ، دار الاعتصام ، (د.ت.ط)،ص١١.

[4] حققه : عبدالقادر عطا ، ونشره تحت عنوان: أسرار التكرار في القرآن . وقد ألف في هذا الفن -أيضاً- الشيخ بدرالدين بن جماعه (ت٧٣٣هـ) كتابه الموسوم : كشف المعاني في المتشابه من المثاني ، حققه عبدالجواد خلف ، من سلسلة منشورات جامعة الدراسات الاسلامية كراتشي ، باكستان ، وصدرت الطبعة الأولى عن دار الوفاء بالمنصورة مصر ، سنة (١٩٩٠م) .

٥ هو قدامة بن جعفر بن قدامة : وكان نصرانيا وأسلم على يد المكتفي بالله، وكان قدامة أحد البلغاء الفصحاء والفلاسفة ، وله من الكتب : كتاب الخراج، وكتاب نقد الشعر ، وكتاب الرد على ابن المعتز .

[أنظر : ابن النديم : الفهرست ، دار المعرفة -بيروت(١٩٧٨م)، ج١، ص١٨٨].

[6] هو هذيل بن عبدالله بن سالم الأشجعي: أحد شعراء الكوفة ومجانها ، اشتهر بهجاء قضاة الكوفة .

فما برحت تومي إليّ بطرفها   وتومض أحياناً إذا خصمها غَفَلْ

لأن تومض وتومي بطرفها متساويان))[1] وعلى هذا فالغرض من التكرير التأكيد ، وهو ما أخذ به أبو هلال العسكري حين تطرق إلى التكرير في تفصيله للإطناب مشيراً إلى أن العرب ((استعملوا التكرير ليتوكد القول للسامع ، وقد جاء في القرآن وفصيح الشعر منه كثير . فمن ذلك قوله تعالى :﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾[2] وقوله : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [3] فيكون للتوكيد))[4] .

وقد جمع بدر الدين الزركشي في عبارة موجزة حدّ التكرير وفوائده وصوره ، فقال : ((وحقيقته إعادة اللفظ أو مرادفه لتقرير معنى ، خشية تناسي الأول ، لطول العهد به . فإن أعيد لا لتقرير المعنى السابق لم يكن منه))[5] .

وحاصل كلام الزركشي أن التكرير يأتي على صورتين :

- إعادة جزء من الكلام السابق (جملة ، أو كلمة) لقصد ربط أجزاء الكلام .
- البناء بطريق الإجمال والتفصيل .

فالصورة الأولى تتم ((إذا طال الكلام وخشي تناسي الأول أعيد ثانياً تطرية له وتجديداً لعهده، كقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾[6]))[7] .

والصورة الثانية تتمثل فيما عبر عنه الزركشي بقوله : ((وقد يرد منه شيء يكون بناؤه بطريق الإجمال والتفصيل ؛ بأن تتقدم التفاصيل والجزئيات في القرآن ، فإذا خشي عليها التناسي لطول العهد بها، بني على ما

---

[1] نقد الشعر : تحقيق محمد عبدالمنعم خفاجي ، دار الكتب العلمية –بيروت ، (د.ت.ط) ، ص١٩٢ . وقد أورد الجاحظ قصة القصيدة التي منها هذا البيت في البيان والتبيين : ج٤،ص٨١ . وفيها أن كُلثم بنت سريع مولى عمرو بن حريث ، تقدمت إلى عبدالملك بن عمير وهو على قضاء الكوفة تخاصم أهلها، فقضى لها عبدالملك على أهلها ، فقال هذيل الأشجعي مشنعاً على القاضي:

أتاه وليد بالشهود يقودهم   على ما ادعى من صامت المال والخَوَلْ
وجاءت إليه كلثم وكلامها   شفاء من الداء المخامر والخبَلْ
إلى أن قال: إذا ذات دلٍ كلمته بحاجة   فهمّ بأن يقضي تنحنح أو سعَلْ
وبرّق عينيه ولاكَ لسانه   يَرى كلَّ شيءٍ ما خلا شخصَها جَلَلْ

[2] سورة التكاثر:الآيتان ٣، ٤.

[3] سورة الشرح:الآية ٥

[4] الصناعتين : ص ٢١٢، ٢١٣.

[5] البرهان : ج٣ ، ص١٠ . وقد مثّل الزركشي لما يعاد ولا يكون من التكرير بقوله تعالى : (قل الله أعبد مخلصاً له ديني) [سورة الزمر : آية ١٥] بعد قوله : (قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين)[سورة الزمر : آية ١١] ((لا لتقرير الأول بل لغرض آخر ، لأن معنى الأول : الأمر بالإخبار أنه مأمور بالعبادة... ومعنى الثاني: أنه يخص الله وحده دون غيره بالعبادة والإخلاص)).

[6] سورة النحل:الآية ١١٩

[7] الزركشي : البرهان ، ج٣ ، ص١٣،١٢.

سبق بها بالذكر الجُمْلي ، كقوله تعالى : ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1] إلى قوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[2] فقوله: (فبظلم)[3] بيان لذكر الجملي على ما سبق القول من التفصيل . وذلك أن الظلم جملي على ما سبق من التفاصيل من النقض ، والكفر ، وقتل الأنبياء ، وقولهم قلوبنا غلف وقولهم على مريم بالبهتان ، قتل المسيح إلى ما تخلل ذلك من أسلوب الاعتراض ... وأنه لما ذكر بالبناء جُملي الظلم من قوله : (فبظلم) لأنه يعم على كل ما تقدم وينطوي عليه ... ذكر حينئذ متعلق الجملي من قوله: (فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ) ... وقد اشتمل الظلم على كل ما تقدم قبله كما أنه – أيضاً – اشتمل على كل ما تأخر من المحرمات الأخر))[4].

وتسمي بعض الكتب الصورة الأولى –عند الزركشي– : البناء بالصورة الجزئية، وتمثّل لها بقوله تعالى :﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴾[5] وتسمي الثانية بناء بطريق الإجمال والتفصيل[6].

وكان ضياء الدين بن الأثير يرى أن الصورة الأولى التي وقع التكرير فيها بإعادة لفظ العامل المتقدم ، كما في قوله تعالى : ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[7] ليست من باب التكرير ، ولذلك يقول : ((وهذه الآيات يظن أنها من باب التكرير وليست كذلك ، وذلك أنه طال الفصل من الكلام ، وكان أوله يفتقر إلى تمام لا يفهم إلا به ، فالأولى من باب الفصاحة أن يعاد لفظ الأول مرة ثانية ، ليكون مقارناً لتمام الفصل كي لا يجيء الكلام منثوراً))[8].

ولعل ابن الأثير لم يقبل تسمية هذه الإعادة تكريراً على أساس أن التكرير لا يعد من الفصاحة ، وهذا أمر سيتضح بيانه لاحقاً .

---

[1] سورة النساء:الآية ١٥٥

[2] سورة النساء:الآية ١٦١

[3] من قوله تعالى : (فبظلم من الذين هادوا حرمنا طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً)[سورة النساء : آية ١٦٠].

[4] البرهان: ج:٣،ص١٣، ١٤

[5] سورة المؤمنون:الآية ٣٥

[6] انظر : المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع لأبي محمد القاسم السلجماسي ، تحقيق علال الغازي ، مكتبة المعارف ، الرباط ، ط(١٩٨٠م) ص٤٧٨، ٤٧٩.

[7] سورة آل عمران:الآية ١٨٨

[8] المثل السائر : تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ، المكتبة العصرية –بيروت ، (١٩٩٥م) ج ٢، ص١٥٥.

- **التكرير والترديد :**

تختلف حالات اللفظة المكررة في لزوم تعلقها بالمعنى السابق الذي أعيدت له أو لأحد لوازمه أو عدم لزوم ذلك ؛ فكما رأينا أنه إن تعلق اللفظ بالمعنى السابق فهو التكرير ، أما إذا تعلق بمعنى آخر فقد أطلق عليه البلاغيون اسم الترديد . وضبطه ابن أبي الإصبع[1] بقوله : "هو أن يعلق المتكلم لفظة من الكلام بمعنى ، ثم يردها بعينها ويعلقها بمعنى آخر ، كقوله تعالى : ﴿...حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ...﴾[2] فالجلالة الأولى مضاف إليها ، والثانية مبتدأ بها ... والفارق بين الترديد والتكرار أن اللفظة التي تتكرر في التكرار لا تفيد معنى زائداً بل الأولى هي تبيين للثانية وبالعكس ، واللفظة التي تتردد تفيد معنى غير معنى الأولى منهما "[3].

- **التكرير ومصطلح ردّ العجز على الصدر :**

إذا كان التكرير عود جزء من الكلام على ما سبق تثبيتاً وتقريراً له في ذهن السامع ، وربطاً لآخر الكلام بأوله ، فإن هذا المعنى يشترك فيه الفن البديعي المسمى بـ(ردّ العجز على الصدر) ذلك أن معناه في النثر "أن يجعل أحد اللفظين المكررين وهما المتفقان لفظاً ومعنى ، أو أحد المتجانسين وهما المتشابهان في اللفظ دون المعنى أو أحد الملحقين بالمتجانسين – في أول الفقرة ويجعل الآخر منهما في آخر تلك الفقرة "[4]

فإذا تجاوزنا مفهوم الجملة إلى النص في دراسة هذا الفن البديعي صار ذلك من صور التكرير لربط المعاني كما يفعل ابن عاشور في بيان ما تختم به أغراض السورة إن تناسبت مع ما افتتحت به لفظاً أو معنى . غير أن هذا اللون البديعي من ألوان البديع المعنوي والاتساع فيه يجعله قسيماً للتكرير يدرس ضمن المستوى المعجمي على استقلال .

والخلاصة أن الدراسات البلاغية القديمة نظرت إلى التكرير بوصفه أحد وسائل الربط لا غنى عنه ، ويمكن تصنيف ثلاث صور لما يقابل هذا المصطلح :

١-تكرير اللفظ (الجملة) والمعنى لغرض التأكيد والربط بما تقدم .

٢-تكرير اللفظ (الجملة) وتعليقها بمعنى جديد غير المعنى الأول : وهو الترديد .

---

[1] زكي الدين أبو محمد عبدالعظيم بن عبدالواحد البغدادي ثم المصري المعروف بابن أبي الإصبع (٥٨٥-٦٥٤هـ)، أحد الشعراء المجيدين وصاحب التصانيف المفيدة في الأدب وغيره ، من مصنفاته : تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر ، وبديع القرآن ، وكتاب الجواهر السوانح .

[2] سورة الأنعام:الآية ١٢٤

[3] تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن :تحقيق حفني محمد شرف ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي (د.ت)ص٢٢٩ .
ومما يستدل به من الشعر على الترديد قول زهير بن أبي سلمى : من يلق يوماً على علاته هرماً يلق السماحة منه والندى خلقا
حيث علّق الفعل (يلقَ) في صدر البيت بـ(هرم) ثم علقه في العجز بـ(السماحة) . يقول الدكتور بدوي طبانة : "وهذا النوع من أشعار المحدثين أكثر منه في أشعار القدماء جداً"[انظر : معجم البلاغة :ص ٢٤٩]

[4] معجم البلاغة العربية : ص٢٤٥. مثال **اللفظين المكررين** قوله تعالى : (وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه) [سورة الأحزاب : آية٣٧]
ومثال **المتجانسين** نحو قولهم : سائل اليتيم يرجع ودمعه سائل ، ومثال **الملحقين بالمتجانسين** (أ)من جهة الاشتقاق قوله تعالى : (فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا)[سورة نوح : آية١٠] . (ب) من جهة شبه الاشتقاق ، ومثاله قوله تعالى : (قال إني لعملكم من القالين) [الشعراء: ١٦٨].

٣–تكرير اللفظ والمعنى أو عودة إلى بداية الفقرة أو النص، وهو ردّ العجز على الصدر .

والحـــق أن الصورتين– الأولى والثانية – أكثر صلة بالتكرير ، وأما الثالثة فإنما أُلحقت إلحاقاً لكون العلاقة بين الألفاظ والمعاني علاقة تكرير وربط ولكن بين الفقرات والأغراض لا بين الجمل .

❑ التكرير في الدراسات الحديثة :

أكدت الدراسات الأسلوبية أهمية التكرير في تحقيق ترابط الكلام ، وعدّته من ألوان الربط بإعادة الذكر فـإن ((إعادة ذكر صدر الكلام بعد أن حال بينه وبين ما يتعلق به فاصل طويل من الكلام جعلـه مظنة النسيان، أو ضـعف العلاقة بما يتبعه من خبر أو فاعل أو جواب ، فإذا أعيد صدر الكلام إلى الذاكرة اتضحت العلاقة بما يليه وينتمي إليه))[1] .

كمـا ركزت الدراسات الحديثة في الأسلوبية وعلم النص على التكرير ووصفته بأنه : ((شكل من أشكال الاتساق المعجمي يتطلب إعادة عنصر معجمي ، أو ورود مرادف لـه أو شبه مرادف ، أو عنصراً مطلقاً أو اسماً عاماً))[2]

وبعـبارة أخـرى يعـد الـتكرير من وجهة نظر الدراسات الحديثة من أهم الوسائل التي تحقق ((خاصية الاستمرارية في النص))[3].

وقد قسمت هذه الدراسات صورالتكرير إلى أربع صور هي[4]:

١–التكرير التام المحض [Full recurrence] : يتكرر اللفظ والمعنى والمرجع واحد[5].

٢–التكرير الجزئي [Partial recurrence] وذلك بالاستخدامات المختلفة للجذر اللغوي[6].

---

[1] تمام حسا ن : البيان في روائع القرآن ، ص١١٣ .

[2] هالـيداي ورقية حسن في كتابهما (الاتساق في اللغة الانجليزية) الذي عرضه محمد خطابي في لسانيات النص ، ص٢٤١ . وعنه أخذت هذا النص وقد ضرب محمد خطابي مثالاً توضيحياً لبيان صور التكرار في الجملتين الآتيتين:

شرعت في الصعود { الصعود / التسلق / العمل / الشيء / [هو] } سهل للغاية

ثم قال : ((فالكلمة (الصعود) تعتبر إعادة لنفس الكلمة الواردة في الجملة الأولى . و(التسلق) مرادف (للصعود) و(العمل) اسم مطلق ...أو اسم عام يمكن أن يدرج فيه الصعود أو مسألة الصعود و(الشيء) كلمة عامة تندرج ضمنها أيضاً كلمة الصعود)) . انظر لسانيات النص ،ص٢٤ .

[3] انظر مقال جميل عبدالمجيد حسن : مجلة عالم الفكر العدد (٢) المجلد (٣٢) أكتوبر – ديسمبر ٢٠٠٣م ،ص١٤٥.

[4] المصدر نفسه : ص١٤٥ .

[5] وذلك كتكرير اسم (سلمى) في أبيات متتابعة لأمرئ القيس ومنها :

ديار لسلمى عافيات بذي خال ... ألحّ عليها كل أسحم هطّـال
وتحسب سلمى لا تزال ترى طلاً ... من الوحش أو بيضاً بميثاء محـلال
وتحسب سلمى لا تزال كعهدنـا ... بوادي الخزامى أو على رسّ أوعال
ليالي سلمى إذ تريك منصّبـاً ... وجيداً كجيد الرئم ليس بمعطـال

[6] كاستخدام مادة (ضير) في قول الشاعر : فدع الوعيد ، فما وعيدك ضائري ... أطنين أجنحة الذبـاب يضيرُ ؟

٣-تكرير المعنى واللفظ مختلف : ويشمل الترادف وشبه الترادف .

٤- التوازي[Parallelism] وذلك بتكرر البنية مع ملئها بعناصر جديدة أو قلبها[١].

وحاولـــت هذه الدراسات أن تستنتج عدة تعميمات من بروز التكرير في النص : مثل محاولة تجسيد المعنى أو الحـــدث واستحضاره ، وتركيز المفاهيم وتأكيدها ، إلى جانب تحقيق الربط الشكلي في النص . كما تجاوزت هـــذه الألوان من التكرير إلى دراسة التكرير الصوتيّ للأوزان والقوافي ومطالع القصائد ، لكون هذه الألوان من التكرير الصوتيّ وسائل لتحقيق الانسجام النَّصي[٢].

❑ التكرير في تفسير ابن عاشور :

يقـــرر (ابـــن عاشـــور) ابتداءً أن « أصل تكرير الكلمة أو الجملة في الكلام أن يكون مكروهاً ... لأن المقصـــود من الكلام تجدد المعاني»[٣] ولكنه يعود فيفصل القول في تفاوت الكراهة بين تكرير المفردات والجمل، فالمفردات يدفع كراهة تكريرها الحاجة إلى الإخبار عنها ووصفها «ولا يُعَدُّ من تكريرها معيباً إلا إذا كثر في كلام غير طويل نحو :

لا أرى الموت يسبق الموت شيء نغّص الموت ذا الغنى والفقيرا[٤]

ولذلـــك عدت كثرة التكرير منافية للفصاحة ... وأما تكرير الجمل في الكلام القريب فأصلـــه السماجة إلا إذا حصـــل من التكرير نكتة بلاغية ، فحينئذ يغالب النشاط الحاصل عن التكرير أو التأثر والانـــزعاج تلك السماجة فيدحضها.»[٥] ومثّل لذلك بتكرير الجمل لغرض التهويل في قول الشاعر : (قربا مربط النعامة مني)[٦].

وتكريـــر التطريب في إعادة اسم المحبوب[٧] فيقصد المتكلم تجديد ذلك التأثر في السامع حباً فيه أو نكاية، وذلـــك تابع لحالة السامعين في ذلك المقام بحيث لا يسأمون من التكرير لأنهم يتطلبونه ويحمدونه لما يتجدد لـــهم عنده من الانفعال الحسن .

---

١ وذلك مثل قول الشاعر : فوجهك كالنار في ضوئهـــا وقلبي كالنـــــار في حرّها

حيث تكرر قالب التشبيه مع اختلاف متعلقاته .

٢ انظر في هذا : دراسة د. سعد مصلوح ، نحو أجرومية النص الشعري : دراسة في قصيدة جاهلية ، مجلة فصول ، المجلد العاشر ،العددان الأول والثاني يوليو أغسطس (١٩٩١م) – وكذا كتابه : الأسلوب دراسة لغوية احصائية . عالم الكتب ، القاهرة ط٣ (١٩٩٢م).

٣ التحرير والتنوير : ج١ ، ص٤٢٨ .

٤ البيـــت منسوب في كتاب سيبويه لسواد بن عدي بن حاتم. وقد أورده سيبويه شاهداً على قبح إعادة الظاهر موقع المضمر إذا كان تكريره في جملة واحدة ، فلا يكاد يجوز إلا في ضرورة . [أنظر الكتاب : ج١،ص٦٢].

وعدّ ابن جني إعادة الثاني مظهراً بغير لفظه الأول قبيح أيضاً ، ثم قال : "وأجود ذلك أن يعاد لفظ الأول البتة ؛ نحو : زيدٌ مررتُ بزيدٍ ، مثل قولـــه تعالى : (الحاقّة .ما الحاقّة) [سورة الحاقة : الأيتان١-٢]" . انظر : أبو الفتح عثمان بن جني : الخصائص ، تحقيق محمد علي النجار ، المكتبة العلمية ،(د.ت.ط) ج٣،ص٥٣.

٥ التحرير والتنوير : ج١،ص٤٢٨.

٦ هذا صدر بيت للحارث بن عبّاد ، وعجزه : (لَقِحتْ حربُ وائلٍ عنْ حِيالِ) حيث كرر قولـــه : قربا مربط النعامة مني ،في رؤوس أبيات كثيرة من قصيدته التي قالـــها في يوم قصّة من أيام بكر وتغلب واستعظم فيها قتل ابن أخيه بجير في ناقة . انظر في ترجمة الشاعر والإشارة إلى القصيدة في [الأصمعيات لعبد الملك بن قريب الأصمعي : تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر وعبدالسلام هارون ، بيروت ، ط٥ ، ص٧٠]

٧ ومنه التكرير الذي أشرنا إليه سابقاً في أبيات امرئ القيس ، ويشبهها قول بشار بن برد :

ولا تجعل الشورى عليك غضاضة مكان الخوافي قوة للقـــــوادم

وأدن إلى الشورى المسدد رأيه ولا تشهد الشورى امرأ غير كاتم

ولأن القرآن قد بلغ الحد الأعلى من الفصاحة وليس فيه تكرير معيب أبداً فإن ما وجد فيه من التكرير لا يتم المعنى المراد إلا به[1]، والمتتبع لمواضع التكرير على اختلاف صوره في تفسير (ابن عاشور) يلحظ تمييزه للفروق الدقيقة بين ألوان التكرير ، وفهمه العميق لأهمية عنصر التكرير في تحقيق انتظام الخطاب وربط أجزائه ؛ ولذلك لا يغفل (ابن عاشور) الحديث عن المقتضيات اللغوية والبلاغية لأي موضع من مواضع التكرير ؛ ويمكن أن نستوضح ذلك في المواضع الآتية :

- تكرير جملة واحدة :

- في قوله تعالى : ﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾[2].

يختلف تناول (ابن عاشور) للتكرير في هذه الآية في قوله: (قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟) عن تناول كثير من المفسرين فبينما يقتصر الزمخشري على قوله : "فإن قلت : لم كرر : (قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟) ؟ قلتُ : للتأكيد ولما يرتبط به من زيادة قوله ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى ﴾[3]"[4] فإن هذا المعنى يتكرر عند ابن عطية ، حيث قال : "وكرر الأمر بالهبوط لمّا علق بكل أمر منها حكماً غير حكم الآخر ، فعلّق بالأول العداوة ، وعلق بالثاني إثبات الهدى ، وقيل: كرر الأمر بالهبوط على جهة تغليظ الأمر وتأكيده ، كما نقول للرجل : قم قم "[5] وهذا تناول مختصر لنوع التكرير وفائدته .

ولكن (ابن عاشور) يفصل القول في أغراض التكرير ، ويشير إلى نوعه في هذا الموضع، ويُنظّرهُ بأمثاله في القرآن الكريم ، فيقول : "كررت جملة (قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟) فاحتمل* تكريرها أن يكون لأجل ربط النظم في الآية ... فيكون هذا الربط لمجرد اتصال ما تعلق بمدلول (وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟) وذلك قوله (بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ) وقوله : (فإما يأتينكم مني هدى) إذ قد فصل بين هذين المتعلقين ما اعترض بينهما من قوله : (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه)[6]فإنه لو عقب ذلك بقوله : (فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى) لم يرتبط كمال الارتباط ، ولتوهم السامع أنه خطاب للمؤمنين ... فلدفع ذلك أعيد قوله: (قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟) ... وهو مغاير لما بنى عليه

---

١ انظر التحرير والتنوير : ج١، ص٤٢٨ .

٢ سورة البقرة:الآية ٣٦

٣ الآية من قوله تعالى : (قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون)[سورة البقرة : آية ٣٨].

٤ الكشاف : ج ٨ ، ص ١٥٨ .

٥ المحرر الوجيز : ص٧٩ .

* لأن هناك احتمالاً آخر أورده بعض المفسرين كابن عطية وهو أن قوله تعالى : (قلنا اهبطوا منها جميعاً) أمر آخر بهبوط غير الهبوط الأول ، وهذا يعني أنه لم يقع التكرير لغرض ربط نظم الكلام . [انظر : المحرر الوجيز لابن عطية ، ص٧٩ ، وابن عاشور ، ج١،ص٤٢٤].

٦ سورة البقرة : آية ٣٧.

قولـه: (وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ... ويسمى هذا الأسلوب في علم البديع بالترديد ، نحو قولـه تعـالى : ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[1]))[2] .

فالغـرض الأول مـن التكرير عند (ابن عاشور) هو الربط بين الكلام ، وقد تم ذلك بتكرير جملة (قُلْنَا ٱهْبِطُواْ) التي كان في إعادها تحقيق غرضين :

- وصل الكلام المفصول بالاعتراض .
- ودفع توهم السامع الذي يتوقع أنه خطاب آخر موجه للمؤمنين على أسلوب التفنن الذي يرد في القرآن كثيراً .

وقـد لفت (ابن عاشور) بتفسيره مقتضيات التكرير في هذه الآية أنظار الباحثين أمثال محمد خطابي الذي استخلص مـن كلام (ابن عاشور) أن دواعي الربط بالتكرير هي : "مقتضيات تداولية عبر عنها (ابن عاشور) "بـتوهم السامع أنه خطاب للمؤمنين" إضافة إلى مقتضى خطابي صرف متعلق بتماسك الخطاب ؛ وهو اعتراض كـلام بـين قولين ، وقد جاء التكرير لوصل ما انقطع بينهما))[3] فغرض الربط هو الأساس في هذا الموضع ، أما غرض التأكيد فهو تابع ، وقد أوضح (ابن عاشور) أنه حاصل بمجرد إعادة اللفظ . ونبه إلى أن ما وقع في كلام الزمخشـري مـن قولـه : (ٱهْبِطُواْ) الثاني تأكيدٌ ، إنما "أراد به ما يقارب التأكيد وهو أنه يحصل من مجرد إعادة اللفظ تقرير لمدلولـه في الذهن ، وإن لم يكن المقصود من ذكره التأكيد))[4] .

- تكرير عدة جمل :

– في قولـه تعالى : ﴿ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾[5] .

تكـرر الـنداء لبني إسرائيل لتذكيرهم بنعم اللـه عليهم بقولـه: (يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ) تكريـراً لمـا جاء في الآية(٤٠) وهي قولـه تعالى : :﴿ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾[6] وقـد أهمل الزمخشري توجيه

[1] سورة آل عمران : آية ١٨٨.
[2] التحرير والتنوير : ج١ ،ص٤٢٥.
[3] لسانيات النص : ص١٨٠.
[4] التحرير والتنوير : ج١،ص٤٢٥.
[5] سورة البقرة:الآية ٤٧
[6] سورة البقرة:الآية ٤٠

إعـــادة النداء والأمر في هذه الآية ، في حين ألمح ابن عطية إلى فائدة تكرير النداء بقولـــه : ((وفائدة ذلك أن الخطـــاب الأول يصـــح أن يكـــون للمؤمنين ويصح أن يكون للكافرين منهم ، وهذا المتكرر إنما هو للكافــرين بدلالـــة ما بعده ، وأيضاً فإن فيه تقوية التوقيف ، وتأكيد الحض على ذكر أيادي اللـــه))[1]

وابـــن عطية بهذا يشير إلى ترابط النداءين بواسطة التكرير ، وقد وضح نوع العلاقة بين الخطابين في الآيتين بأنهـــا علاقـــة العـــام بالخاص ، وهي علاقة دلالية فالخطاب في الآية الأولى كما يقول: " يصح أن يكون للمؤمنين ويصح أن يكون للكافرين منهم" فهو خطاب عام ، أما الخطاب في الآية الثانية فهو خطاب خاص بدلالـــة ما بعده. إضافة إلى أن ابن عطية قد أشار لوظيفة أخرى تداولية وهي المعبر عنها بقولـــه : "تقوية التوقيف ،وتأكيد الحض" وهذا من الاهتمام بالخطاب للفت أسماع المتلقين .

وقـــد ســـار (ابن عاشور) على أسلوب ابن عطية في بيان غاية التكرير ووظيفته ، وزاد على ذلك فقال: ((أعـــيد خطاب بني إسرائيل بطريق النداء ، مماثلاً لما وقع في خطابهم الأول لقصد التكرير للاهتمام بهذا الخطاب ومـــا يترتـــب عليه ، فإن الخطاب الأول قصد منه تذكيرهم بنعم اللـــه ... غير أنه لما كان الغرض المقصود من ذلـــك هـــو الامتثال كان حق البلاغة أن يفضي البليغ إلى المقصود ولا يطيل في المقدمة (...) فكان الإجمال في المقدمـــة قضاء لحق صدارتها وكان الإفضاء إلى المقصود قضاء لحقه في العناية ، والرجوع إلى تفصيل النعم قضاء لحقهـــا مـــن الـــتعداد ... فللـــتكرير هـــنا نكتة جمع الكلامين بعد تفريقهما ، ونكتة التعداد لما فيه إجمال معنى النعمة))[2].

ويتضـــح من هذا النص أن (ابن عاشور) يتصور الخطاب في الآيتين خطاباً واحداً – كما هو الأمر عند ابن عطـــية – غير أن الآية الأولى وهي مقدمة الخطاب حقها الإجمال، والآية الثانية بداية المقصود من الخطاب فحقها تفصيل ذلك الإجمال . والذي هيأ للانتقال من المقدمة المجملة إلى التفصيل هو التكرير ، فوظيفة التكرير النَّصية : جمع الكلامين بعد تفريقهما ، ووظيفته الدلالية : التفصيل بعد الإجمال ، ووظيفته التداولية : الاهتمام بالخطاب .

لقـــد نظـــر ابن عطية إلى المقصودين من النداء الأول والثاني فاستخلص علاقة العموم والخصوص ، وهي طـــريقة أحـــزم لأنهـــا نظـــرت إلى المتعلق بهم النداء ابتداءً وانتهاءً ، ونظر (ابن عاشور) إلى طبيعة النداء نفسه فاستخلص علاقة الإجمال والتفصيل وهي طريقة أحكم لأنها تصورت وحدة الخطاب والمخاطبين ، والتكرير يقوم بوظيفة الربط على التأويلين كليهما .

وعـــلى ضـــوء تصور (ابن عاشور) لوحدة الخطاب والمخاطبين يفسر موضع التكرير الواقع بصيغة النداء الســـابق وذلك في قولـــه تعالى : ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ۞ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ

[1] المحرر الوجيز : ص٨٤.

[2] التحرير والتنوير : ج١ ، ص٤٦٦.

يُنصَرُونَ ﴾[1] حيث يقول (ابن عاشور) : ((أعيد نداء بني إسرائيل نداء التنبيه والإنذار والتذكير ، على طريقة التكرير في الغرض الذي سيق الكلام الماضي لأجله ... فذكر مثل هاته الجملة هناك (في الآية ٤٧) كذكر المطلوب في صناعة المنطق قبل إقامة البرهان، وذكرها هنا كذكر النتيجة في المنطق عقب البرهان تأييداً لما تقدم وفذلكة له وهو من ضروب رد العجز على الصدر))[2] .

إن الذي يلفت النظر في هذا النّص هو تأكيد (ابن عاشور) أهمية الاستفادة من موقع الآية في تفسير مقتضيات التكرير، وهي هنا مقتضيات خطابية جدلية (المطلوب – البرهان – النتيجة) أما غرض التأييد – وهو التعضيد لما سبق وتقريره في الذهن – فهو مقتضى تداولي ويبقى قوله : ((وفذلكة له)) والفذلكة هي التحصيل لما سبق من الخطاب[3] في هذه الآية وبذلك يبدو الخطاب مترابطاً . وقد نبهنا (ابن عاشور) بعبارته السابقة إلى أن الفن البديعي المعروف برد العجز على الصدر ذو علاقة من ناحية مساحة الربط المعجمي بأسلوب التكرير ، وهي إشارة إلى أن هذا الفن يمكن أن يمثل وسيلة من وسائل الاتساق المعجمي في بعض صوره . ولذلك أفردنا له قسيماً مستقلاً في هذا الفصل .

وقد يغني التكرير عن العطف الذي يمثل أهم وسائل الاتساق والربط النّصي ففي قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾[4]

فإن اسم الإشارة في قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ ﴾ ((يحتمل أن تكون الإشارة فيه إلى نفس المشار إليه بذلك الأولى فيكون تكريراً للإشارة لزيادة تميز المشار إليه حرصاً على معرفته ، ويكون العصيان والاعتداء سببين آخرين لضرب الذلة والمسكنة ولغضب الله تعالى عليهم ، والآية حينئذ من قبيل التكرير وهو مغن عن العطف))[5] .

- التكرير بإعادة العامل :

وتظهر وظيفة الربط بالتكرير –أيضاً– في صورة إعادة لفظ العامل إذا فصل بينه وبين معموله، فيكون التكرير من أجل الربط بين أجزاء الخطاب . وقد تعرض (ابن عاشور) لهذا اللون من التكرير وأشار إلى بعض أمثلته عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَـٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾[6] حيث

---

[1] سورة البقرة:الآيتان ١٢٢، ١٢٣

[2] التحرير والتنوير : ج١،ص٤٦٦ .

[3] (فَذْلَكَ حسابه : أنهاه وفرغ منه ، مخترعة من قوله إذا أجمل حسابه : فذلك كذا وكذا) [انظر : الفيروزأبادي : القاموس المحيط ، ص١٢٢٧].

[4] سورة البقرة:الآية ٦١ .

[5] التحرير والتنوير : ج١ ، ص٥١٤،٥١٣.

[6] سورة البقرة:الآية ٨٩ .

أعـيدت (لَمَّا) في قولــه : (فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ) قبل أن تستوفي (لَمَّا) الأولى جوابها. وفي ذلك يقول (ابن عاشور): "وإعادة (لَمَّا) في الجملة الثانية دون أن يقول : وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فجاءهم مـا عـرفوا ...إلخ ، قصد إظهار اتحاد مفاد الجملتين المفتتحين بـ(لَمَّا) وزيادة الربط بين المعنيين حيث انفصل بالجملة الحالية ، فحصل بذلك نظم عجيب وإيجاز بديع "[1] .

وهذا يعني أن التكرير بصورة إعادة صدر الكلام المفتتح به (العامل) يحافظ على وحدة الموضوع المتحدث فـيه إذا وقع بين هذا العامل ومعمولـه كلام اعتراضي . وتزداد الحاجة إلى تكرير لفظ الافتتاح إذا كان ذلك اللفظ عاملاً نحوياً يحتاج إلى معمول (جواب أو خبر أو غيره) فبدون إعادة صدر الكلام لا تظهر العلاقة .

وهـذه الصـورة من التكرير هي التي سماها السلجماسي[2] "المشاكلة" وعدها من صور التكرير اللفظي . وفيها يعـاد اللفظ الواحد أكثر من مرة بناءً على اللفظ الأول وذلك نحو قولـه تعالى : ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴾[3] أعـاد (أَنَّكُمْ) قبل خبر الأولى لطول الفصل بين الأولى وبين الخبر والغرض كما يقول السلجماسي :"قولـه : (أَنَّكُمْ) الثاني بناءٌ على الأول وإذكار به خشية تناسيه لطول العهد به"[4] .

وقـد يكتفي (ابن عاشور) ببيان وجه التكرير ولا يشير إلى وظيفته في الربط بصورة مفصلة ، ففي تفسير قولـه تعالى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُواْ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾[5] .

يقول ابن عاشور: "أعاد (وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُواْ) تأكيداً للأول وتمهيداً لقولــه: (وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ)"[6] وكـان الزمخشـري قد أشار إلى غرض التأكيد فقط[7] غير أن ابن المنير الاسكندري[8] نبه في حاشيته على الكشـاف إلى غرض الربط بالتكرير في الآية فقال : "ووراء التأكيد سر أخص ، وهو أن العرب متى بنت أول كلامها عـلى مقصد ثم اعترضها مقصد آخر وأرادت الرجوع إلى الأول ، قصدت ذكره إما بتلك العبارة أو بقريب منها...وهذه الآية من هذا النمط : لمّا صدر الكلام بأن اقتتالـهم كان وفق المشيئة ، ثم طال الكلام –أو

---

[1] التحرير والتنوير : ج١ ، ص٥٨٤.

[2] هو أبو محمد القاسم السلجماسي : صاحب كتاب المنـزع البديع في تجنيس أساليب البديع .

[3] سورة المؤمنون:الآية ٣٥

[4] المنـزع البديع : ص٤٧٨ .

[5] سورة البقرة : الآية ٢٥٣

[6] التحرير والتنوير : ج٢ ،ص٤٨٨.

[7] انظر الكشاف : ج١ ، ص٣٢٦.

[8] هو القاضي ناصر الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن منصور ، المعروف بابن المنير ، لــه كتاب الانتصار من الكشاف وهو حاشية على نسخة الكشاف التي نعتمدها في هذا البحث ، توفي (٦٨٣هـ) .

أريد أن مشيئة اللـــه تعالى كما نفذت في هذا الأمر الخاص وهو اقتتال هؤلاء فهي نافذة في كل فعل واقع ، وهو المعـــنى المعـــبر عـــنه في قولـــه : (وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ)–طرأ ذِكْرُ تعلق المشيئة بالاقتتال لِتلوه عموم تعلق المشيئة لتناسب الكلام وتعرف كلٍ بشكلـــه))[1] .

وقد أضاف (تمام حسان) على هذا التعليل اللطيف للتكرير أن قولـــه تعالى: (وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ) ((لتوقي توالي استدراكين بـــ(لكن) لا يدرى ارتباط ثانيهما بعناصر الجملة))[2] .

وكمـــا أن الـــتكرير قد أفاد في ربط أجزاء الكلام في الآية الواحدة فإنه كذلك مفيد في إعادة الكلام في الغرض الأهم في السورة ، إذا وقع فاصل طويل يقتضيه المقام ، فيكون التكرير مؤشراً على العودة للغرض .

وقد أشار (ابن عاشور) إلى هذه الوظيفة التي تتجاوز نطـــاق الجملة والآية عند تفسير قولـــه تعـــالى : ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ﴾[3] حيث قـــال : ((وهذه الجملة تكرير لنظيرها السابقة : ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ ﴾[4] فأعـــيدت تلـــك الجملـــة إعادة الخطيب كلمة من خطبته ليأتي بما بقي عليه في ذلك الغرض بعد أن يفصل بما اقتضى المقام الفصل به ثم يتفرع إلى ما تركه من قبل))[5] .

وإنمـــا قلـــنا إن الغرض من التكرير هو العود لأهم أغراض السورة لأن (ابن عاشور) قد نصّ في مقدمة تفســـير السورة على أن من أهم مقاصدها ((إبطال أقوال المكذبين فلذلك تكررت حكاية أقوالـــهم خمس مرات موزعة على السورة بدءاً ونهاية))[6] .

- التعداد

هـــناك نوع آخر من التكرير تتردد فيه جملة واحدة أو آية من الآيات عدّة مرات ، فتكون تقريراً لنظائرها وتأكيداً لـــها مع اختصاصها بما قبلـــها أو بما وليها ، وذلك في مقامات معينة كمقامات التوبيخ والتهديد. ويعد تكرر هذه الوحدة بما تحويه من تماثل صوتيّ علامة على الانتقال بين أجزاء الخطاب ((وقد كرر اللـــه عز وجل في ســـورة الـــرحمن قولـــــه تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾[7] وذلك أنه عدد فيها نعمه وأذكر عباده آلاءه...وجعلـــها فاصلة بين كل نعمة ليعرف موضع ما أسداه إليهم منها))[8] .

---

[1] حاشية ابن المنير على الكشاف : ج١ ، ص٣٢٦.

[2] البيان في روائع القرآن : ص١١٣.

[3] سورة الرعد:الآية ٢٧

[4] سورة الرعد:الآية ٧

[5] التحرير والتنوير : ج١٢ ، ص١٨٠.

[6] المصدر نفسه : ج١٢ ،ص١٣٤. والآيات المكررة هي الآيات (٧ ، ٢٧ ، ٤٣) بلفظ : (ويقول الذين كفروا) والآيات (٥، ٣٢) حكيت فيها أقوالـــهم بدون هذا اللفظ .

[7] سورة الرحمن:الآية ١٣

[8] أبو هلال العسكري : كتاب الصناعتين ، ص٢١٣.

ويشبه هذا التكرير لغرض تقرير المعاني والتمكن من الانتقال بين أجزاء الخطاب : تكرير أبي ذؤيب الهذلي[1] قوله : (والدهر لا يبقي على حدثانه) ثلاث مرات[2] في بداية المعادلات الموضوعية[3] التي نظّر بها فجيعته بموت أبنائه في قصيدته العينية الشهيرة[4].

وعند (ابن عاشور) أن هذا اللون من إعادة الكلام السابق لا يعدّ تكريراً لمجرد التأكيد ، ففي تفسير موضع التكرير السابق (من سورة الرحمن) يقول : "تكرير من أسلوب التوبيخ ونحوه أن يكون بمثل الكلام السابق، فحق هذا أن يسمى بالتعداد لا بالتكرار ، لأنه ليس تكريراً لمجرد التأكيد ، وتحصل من تماثل الجمل المكررة فائدة التأكيد والتقرير"[5] .

ومثل هذا اللون من التكرير بالتعداد لغرض التهديد والموعظة ما وقع من نوع تكرير النمط في افتتاح القصص القرآني وتذييله في عدد من السور ، ومنه ما في سورة الشعراء حيث يقول تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾[6] فقد تكرر هذا النمط الافتتاحي خمس مرات في قصة قوم نوح ، وعاد ، وثمود ، وقوم لوط ، وأصحاب الأيكة ، وتكرر نمط التذييل وهو قوله تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾[7] سبع مرات في ختام الغرض الأول، وفي ختام قصة موسى ، ثم في ختام المواضع الخمسة السابقة.

وقد أشار (ابن عاشور) إلى الحكمة في تكرير النمط الافتتاحي (كذبت قوم .... المرسلين) فقال : "جملة مستأنفة استئناف تعداد لأخبار التسلية للرسول وتكرير الموعظة للمكذبين "[8] أما في وجه تكرير نمط الاختتام فقد قال في الموضع الأول منه[9] : "وأحسب أنها نزلت إثر طلب المشركين أن يأتيهم الرسول بخوارق...ولذلك ختم كل استدلال جيء به على المشركين المكذبين بتذييل واحد هو قوله : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ

---

[1] هو خويلد بن خالد بن محرث : أحد المخضرمين من الطبقة الثالثة ، ممن أدرك الجاهلية والإسلام فحسن إسلامه ، قال الجمحي : كان شاعراً فحلاً لا غميزة فيه ولا وهن ، ومات مرجعه من غزو الروم . [انظر : ابن سلام الجمحي : طبقات الشعراء ،ص٥٥].

[2] وهذه الأبيات المكررة هي : البيت رقم (١٦) والدهر لا يبقي على حدثانه جون السراة لــه جدائد أربع (حمار الوحش)
البيت رقم (٣٧) والدهر لا يبقي على حدثانه شبب أفزته الكلاب مروع (الثور)
البيت رقم (٥١) والدهر لا يبقي على حدثانه مستشعر حلق الحديد مقنع (الفارس)
انظر : المفضليات : القصيدة رقم (١٢٦) ، ص٤٢١.

[3] يقصد بالمعادل الموضوعي : مجموع الموضوعات والمواقف المشاكة للموقف الانفعالي الذي يتجاذب الشاعر والأديب ، بحيث إذا ذكرت الحقائق الخارجية تنتهي إلى أن يتمثل ذلك الانفعال في الذهن .[انظر معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب : ص٣٧٠].

٤ وهي المفتتحة بقولــه : أمن المنون وريبها تتوجع والدهر ليس بمعتب من يجزع

[5] التحرير والتنوير : ج٢٣ ، ص٢٣٠.

[6] سورة الشعراء:الآيتان ١٠٥، ١٠٦

[7] سورة الشعراء:الآيتان ٨، ٩

[8] التحرير والتنوير : ج١٩ ، ص١٧٢.

[9] الآيتان: ٨ ، ٩ من سورة الشعراء .

لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۞ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ تسجيلاً عليهم بأن آيات الوحدانية وصدق الرسول عديدة))[١].

غير أن عبارة الزمخشري في بيان أسرار التكرير بنمطيه (الافتتاح والتذييل) في سورة الشعراء أوضح وأفصح ، حيث تساءل : ((فإن قلتَ : كيف كرر في هذه السورة في أول كل قصة وآخرها ما كرر ؟ قُلتُ : كل قصة منها كتنزيل برأسه ، وفيها من الاعتبار مثل ما في غيرها ، فكانت كل واحدة منها تدلي بحق في أن تفتتح بما افتتحت به صاحبتها ، وأن تختتم بما اختتمت به ، ولأن في التكرير تقريراً للمعاني في الأنفس ... وكلما زاد ترديده كان أمكن له في القلب وأرسخ في الفهم ، وأثبت للذكر ، وأبعد من النسيان ، ولأن هذه القصص طرقت بها آذان وقرٌ عن الإنصات للحق ... فكوثرت بالوعظ والتذكير وروجعت بالترديد والتكرير لعلّ ذلك يفتح أذناً أو يفتق ذهناً))[٢].

ومن تكرير التعداد للتهديد التكرير في قوله تعالى : قال تعالى : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾ [٣] وقوله: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾[٤] أربع مرات في سورة القمر ، وتكرير قوله تعالى: ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [٥] عشر مرات في سورة المرسلات ، ولا غرابة في ذلك فإن ((التهديد من مقامات التكرير))[٦] .

وإذا كان في تعدد المتعلق بكل آية من الآيات المكررة ما يدعو إلى إعادة ذلك اللفظ فإن التكرير يساعد على انتظام غرض الآيات في السورة كما رأينا.

---

[١] التحرير والتنوير : ج ١٩ ، ص١٠٧.

[٢] الكشاف : ج٣ ،ص٣٣٩ ، وقد أورد ابن عاشور جزءاً من هذا الكلام في تفسير سبب تكرر تذييل القصص في سورة الشعراء ، وهو كما نرى صالح لتفسير تكرير آيات الافتتاح والتذييل .

[٣] سورة القمر:الآية ١٦. وقد تكررت في الآيات (١٨، ٢١ ،٣٠).

[٤] سورة القمر:الآية ١٧. وقد تكررت في الآيات (، ٢٢، ٣٢ ،٤٠).

[٥] سورة المرسلات:الآية١٥، وقد تكررت في الآيات (١٩ ،٢٤، ٢٨، ٣٤، ٣٧، ٤٠ ، ٤٥، ٤٧، ٤٩) .

٦ ابن عاشور : التحرير والتنوير ، ج ٢٣ ، ص٣٩٧ . ومثل هذا التكرير للتهديد تكرير المصراع الأول ثمان مرات في أبيات متتابعة من قصيدة لمهلهل بن ربيعة في رثاء أخيه كليب وذلك قوله : على أن ليس عدلاً من كليب إذا طرد اليتيم عن الجزور

٢- رد العجز على الصدر (التصدير) :

من وسائل الاتساق المعجمي التي يشير (ابن عاشور) إلى وظيفتها للجمع بين عناصر الخطاب (الآية، مجموع آيات الغرض ، السورة) المحسن البديعي المعروف بـ (رد العجز على الصدر) . وقد جعله ابن المعتز الباب الرابع[1] من البديع ، وقسمه ثلاثة أقسام :

- ما يوافق آخر كلمة من البيت آخر كلمة في نصفه الأول ، مثل قول الشاعر :

يلفى إذا ما الأمر كان عرمرماً   في جيش رأي لا يفل عرمرم

- ما يوافق آخر كلمة منه أول كلمة في نصفه الأول ، مثل قول الشاعر :

سريع إلى ابن عم يشتم عرضه   وليس إلى داعي الندى بسريع

- ما يوافق آخر كلمة فيه بعض ما فيه ، مثل قول الشاعر :

عميد بني سليم أقصدته   سهام الموت وهي له سهام

وهذا التعريف مقتصر على إدراك الرابطة اللفظية في البيت الشعري على اختلاف مواقع اللفظ، ولهذا نجد لهذا اللون البديعي تعريفاً أشمل عند ابن أبي الإصبع ، حيث يقول : ((إن ردّ الأعجاز على الصدور ويسمى "التصدير" عبارة عن كلام بين صدره وعجزه رابطة لفظية غالباً ، أو معنوية نادراً . تحصل بها الملاءمة والتلاحم بين قسمي كل كلام))[2] وقد بين ابن أبي الإصبع أن الأقسام الثلاثة التي ذكرها ابن المعتز تعدّ من الضرب الأول الذي رابطته لفظية ، ثم قال : ((وأما ما رابطته معنوية فمنه قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ﴾[3] فإن معنى صدر الكلام يقتضي معنى عجزه))[4] .

والذي يهمنا أن (ابن عاشور) سار في فهمه لفن ردّ العجز على الصدر على تعريف ابن أبي الإصبع وغيره، لما فيه من الشمول ، ولذلك لا يقتصر على إيراد ما كان منه في الآية الواحدة وإنما يورد –أيضاً– ما جاء منه في نهاية الغرض من أغراض السورة ، وهذا دليل على سعة مساحة الربط بواسطة هذا الفن البديعي ، ومن أمثلة ذلك : تفسير (ابن عاشور) قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَـٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾[5] فقد وضح ابن عاشور أن هذه الآية جاءت ((لبيان حال المؤمنين الصادقين من أهل الكتاب ... وهو ينظر إلى قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ﴾الآية[6] وهو صدر هذه المحاورة،

---

[1] كتاب البديع : تعليق أغناطيوس كراتشكوفسكي : ص٤٧ – ٤٨ . وابن المعتز هو : أبو العباس عبدالله بن المعتز العباسي ، أول من صنف في علم البديع ، تسوفي (٢٩٦هـ) . [انظر: أبجد العلوم :ص ٣٠٩].

[2] بديع القرآن : تحقيق حفني شرف ، مكتبة نهضة مصر ، ط١ ، (١٩٥٧م) ، ص٣٠.

[3] سورة المائدة:الآية ١٠٥

[4] بديع القرآن : ص٣١.

[5] سورة البقرة:الآية ١٢١.

[6] سورة البقرة:الآية ٩١.

ومـا تخللـهـا من الأمثال والعبر والبيان . فقولـه : (ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ) فذلكة لما تقدم وجواب قاطع لمعذرهم المتقدمة وهو من باب ردّ العجز على الصدر»[1] والرابطة – كما نرى – بين صدر الكلام وخاتمته في الآيـتين لفظية لورود لفظ (يؤمنون به – نؤمن بما أنـزل علينا) ومعنوية قائمة على المقابلة بين الفريقين من أهل الكتاب .

وأوضح من المثال المتقدم إعادة نداء بني إسرائيل في الآية الثانية والعشرين بعد المائة من سورة البقرة[2] في نهايـة غـرض محاورة أهل الكتاب المفتتحة بالنداء نفسه . يقول (ابن عاشور) : «وذكرها هنا كذكر النتيجة في المنطق عقب البرهان تأييداً لما تقدم وفذلكة وهو من ضروب ردّ العجز على الصدر»[3] .

ومما جـاء من ردّ العجز على الصدر في غرض من أغراض السورة – أيضاً – ما وقع في سورة النبأ في غـرض الاسـتدلال عـلى إمكان البعث المفتتح بقولـه تعـالى :﴿ أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدًا ﴾[4] والمختتم بقولـه : ﴿ لِّنُخۡرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝ وَجَنَّٰتٍ أَلۡفَافًا ﴾[5] فقد «ابتدأت هذه الدلائل بدلائل خلق الأرض وحالـتها ، وجالـت بهم الذكرى على أهم ما على الأرض من الحي والحيوان ، ثم ما في الأفق من أعراض الليل والنهار ثم تصاعد بهم التجوال بالنظر في خلق السموات وبخاصة الشمس ثم نـزل بهم إلى دلائل السحاب والمطر فـنـزلوا معـه إلى مـا يخـرج من الأرض ... فإذا هم ينظرون من حيث صدروا ، وذلك من ردّ العجز على الصدر»[6] .

وتتسـع مساحة الربط المعجمي بهذا المحسن البديعي ليشمل الربط بين خاتمة السورة وفاتحتها . ومن أمثلة ذلـك ما بينه (ابن عاشور) في خاتمة سورة الكهف من العلاقة القائمة على ردّ الغرض من الكلام في نهاية السورة عـلى الغرض المفتتحة به، وذلك في قولـه تعالى : ﴿ قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدًا ﴾[7] وهـو «انـتقال إلى التـنويه بعلم اللـه مفيض العلم على رسولـه لأن المشركين لمّا سألوه عن أشياء يظنونها مفحمة للرسول ، وأن لا قبل لـه بعلمها ، علّمه اللـه إياها وأخبر عنها...وكان آخرها خبر ذي القرنين ؛ أتبع ذلك بما يعلم منه سعة علم اللـه تعالى ، وسعة ما يجري على وفق علمه من الوحي ... وفي هذا ردّ عجز السورة على صدرها»[8] .

---

[1] التحرير والتنوير : ج ١ ، ص٦٧٧ ، ٦٧٨ .

[2] قال تعالى : (يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين)[سورة البقرة:الآية ١٢٢].

[3] التحرير والتنوير : ج ١ ، ص٦٧٩ .

[4] سورة النبأ:الآية ٦ .

[5] سورة النبأ:الآيتان ١٥ ، ١٦

[6] ابن عاشور : التحرير والتنوير : ج ٣٠ ، ص٢٦.

[7] سورة الكهف:الآية ١٠٩

[8] التحرير والتنوير : ج ١٥ ، ص١٤٥

وقد ظهرت مساحة الربط المعجمي بمحسن (ردّ العجز على الصدر) على هذا النحو في مواضع متعددة من القرآن أشار إليها (ابن عاشور)[1] ولم يهملـــها.

٣- المقابلة :

تـــندرج دراســـتنا لـــلمقابلة ضمن وسائل المستوى المعجمي لأن نطاق بحثها قائم على البحث عن تحقق التناســـب مـــن خـــلال الموافقة أو المخالفة بين المعاني المتابعة وهو ما يتضح في مفهوم المقابلة عند أهل البلاغة، وفصلـــهم بينه وبين الطباق .

فالمقابلـــة عند أبي هلال العسكري : ((إيراد الكلام ثم مقابلته بمثلـــه في المعنى أو اللفظ ، على جهة الموافقة أو المخالفـــة))[2] أمـــا ابن رشيق القيرواني فيزيد شرط الترتيب بين المعاني والألفاظ المتقابلة فيقول : ((وأصلـــها ترتيـــب الكـــلام على ما يجب فيعطي أول الكلام ما يليق به أولاً ، وآخره ما يليق به آخراً ، ويأتي في الموافق بما يوافقـــه وفي المخالف بما يخالفه))[3] والمقابلة عند سائر البلاغيين : ((أن يؤتى بمعنيين متوافقين أو أكثر ، ثم يؤتى بما يقابل ذلك المذكور من المعنيين المتوافقين أو المعاني المتوافقة على الترتيب))[4] .

وقد فرق أهل البلاغة بين الطباق والمقابلة من وجهين :

- الوجـــه الأول : أن الطـــباق لا يكـــون إلا بالجمع بين ضدين ، أما المقابلة فلا تكون إلا بما زاد عن الضدين .
- الوجه الثاني : أن المقابلة تكون بالأضداد وغير الأضداد[5].

واشـــترطوا لصحة المقابلة ((ترتيب الكلام على ما ينبغي فإذا أتى بأشياء في صدر كلامه أتى بأضدادها في عجزه على الترتيب))[6] ولكن شرط الترتيب لا يطّرد ، فقد يخالف لنكتة بلاغية ، وهذا ما أوضحه (ابن عاشور) في المقابلـــة الحاصـــلة بقولـــه تعالى: ﴿ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبۡتَ بِهَا وَٱسۡتَكۡبَرۡتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾[7] فقـــد قوبل بها كلام النفس المتقدم عليها بقولـــه تعالى : ﴿ أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ۞ أَوۡ تَقُولَ لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ۞ أَوۡ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةٗ فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾[8] يقـــول (ابـــن عاشور) : ((وقد قوبل كلام النفس بجـــواب يقابلـــــه على عدد قرآئنه الثلاث (الفقرات ذات الفاصلة) وذلك بقولـــه تعالى : (بَلَىٰ قَدۡ جَآءَتۡكَ

---

[1] انظر مثال ذلك : خاتمة سورة (ص) ،ج٢٦ ، ص١٩٨. وسورة الانفطار : ج٣٠،ص١٦٥ .

[2] كتاب الصناعتين : ص٣٧١ .

[3] العمدة : ،ج٢ ،ص١٥

[4] بدوي طبانة :معجم البلاغة ، ص٥٣٧ .

[5] المصدر نفسه : ص٥٣٧.

[6] ابن أبي الإصبع : تحرير التحبير ، ص٣٦٦.

[7] سورة الزمر:الآية ٥٩

[8] سورة الزمر:الآيات ٥٦- ٥٨ .

ءَايَٰتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا) وهذا مقابل (لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي) ثم بقولــه: (وَٱسْتَكْبَرْتَ) وهو مقابل قولــها : (عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ) ... ثم بقولـــــه : (وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ) وهــذا مقابل قولي النفس : (لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ) (فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ)))[1] وقد وضح (ابن عاشور) أن الغرض من وقوع المقابلة في الجواب على طـــريقة النشـــر المشوش بعد اللف هو ((أن يقع ابتداء النشر بإبطال الأهم مما اشتمل عليه اللف ، وهو ما ساقوه عـــلى معنى التنصل والاعتذار من قولـــهم : (لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي) لقصد إعلامهم بما يدحض معذرهم ، ثم عاد إلى إبطال قولـــهم : (عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ) فأبطل بقولـــه : (فَكَذَّبْتَ بِهَا) ثم أكمل بإبطال قولـــهم: (لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ) بقولـــــه : (وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ) ولم يـــورد جواباً عن قول النفس:(وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ) لأنه إقرار ، ولو لم يسلك هذا الأسلوب من النشر لـــهذا اللف لفات التعجيل بدحض المعذرة ، ولفاتت مقابلة القرائن (أقوال النفس) المجاب عنها أمثالـــها ... فلو لم يشوش النَّشر لوجب أن يقتصر فيه على أقل من عدد قرائن اللف فتفوت نكتة المقابلة التي هي شأن الجدال))[2] .

ومن أمثلة المقابلة قولـــه تعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[3] فإنـــه يقابل قولـــه تعالى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ۞ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[4] ((وفـــيه من حسن المقابلة في التقسيم ضرب من ضـــروب المقابلة : وذلك أنه أنكر على أهل الكتاب كفرهم وصدّهم الناس عن الإيمان ... وقابل ذلك بأن أمر المؤمـــنين بالإيمـــان والدعـــاء إليه إذ قال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[5] وقولـــه : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ ﴾ الآية))[6]

وتزداد صلة النَّص بعضه ببعض حين يبرز أسلوب المقابلة ماثلاً في جميع أغراض السورة ولا يخرج عن ذلك الجمـــل المعترضـــة بين هذه الأغراض، وبذلك يكون التقابل في المفردات والمعاني والصور، بما يحقق توازناً عجيباً لـــه أثر نفسي عند متلقي النَّص.

---

[1] التحرير والتنوير : ج ٢٤ ، ص١١٨.

[2] المصدر نفسه : ج٢٤ ، ص١١٩.

[3] سورة آل عمران:الآية ١٠٤.

[4] سورة آل عمران:الآيتان ٩٨، ٩٩.

[5] سورة آل عمران:الآية: ١٠٢ .

[6] ابن عاشور : التحرير والتنوير : ج ٣ ، ١٧٩ .

ومــن الســور التي أشار فيها (ابن عاشور) إلى قيام أسلوبها على أساس المقابلة سورة محمد، ففي السورة مقابلــة بالعناصر اللغوية بما يجسد أغراضها ، حيث أن "معظم ما في هذه السورة التحريض على قتال المشركين، وترغيب المسلمين في ثواب الجهاد"[1] ومن معالم المقابلة بين هذين الخصمين ما تضمنته الآيات الأولى في السورة. فالآيــة الثانية تقابل الآية الأولى تقابلاً تاماً، قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ ۝ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾[2] يقــول (ابن عاشور) في بيان هذا التقابل : "جاء في مقابلة الأوصاف الثلاثة التي أثبتت للذين كفروا بثلاثة أوصاف ضدها للمسلمين ، وهي : الإيمان مقابل الكفر، والإيمان بما نــزل على محمد مقابل الصدّ عن سبيل اللــه ، وعمل الصالحات مقابل بعض ما تضمنه (أَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ) و(كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ) مقابل بعض آخر مما تضمنه (أَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ) و (وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ) مقابل بقية ما تضمنه (أَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ) وزيْدَ في جانــب المؤمنين التنويه بشأن القرآن بالجملة المعترضة قولــه :(وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ)وهو نظير لوصفه بــ(سَبِيلِ ٱللَّهِ) في قولــه : (وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ)"[3] .

وتــبدو المقابلة بعد ذلك مرة أخرى في الآية الثالثة : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَـٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَـٰلَهُمْ ﴾[4] ففي الآية "تبيين للسبب الأصيل في إضلال أعمال الكافرين وإصلاح بال المؤمنين "[5] على طريقة الجمع بعد التفريق[6] .

وتستمر صور المقابلة في هذه السورة إلى قولــه تعالى : ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ۝ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَـٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَـٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَـٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴾[7] ففــي هــذه الآية بين اللــه تعــالى تقابل مصيري أهل الكفر والإيمان . لذلك يقول (ابن عاشور) : "وفيه اطراد أساليب السورة؛ إذ افتتحت

---

١ ابن عاشور : التحرير والتنوير، ج٢٦ ، ص٦١.

٢ سورة محمد:الآيتان ١، ٢.

٣ التحرير والتنوير : ج ٢٦،ص٣٦.

٤ سورة محمد:الآية ٣.

٥ ابن عاشور : التحرير والتنوير : ج ٢٦ ، ص٦٤.

٦ وهو أسلوب بديعي حيث : "يدخل شيئان في معنى ويفرق بين جهتي الإدخال ، أو أن يشبه المتكلم شيئين بشيء ثم يفرق بين وجهي الاشتباه كقول الشاعر :
فوجهك كالنار في ضوئها وقلبي كالنار في حرها ". [انظر: طبانة : معجم البلاغة ، ص١٣٣].

٧ سورة محمد:الآيتان ١٤، ١٥.

بالمقابلة بين الذين كفروا والذين آمنوا ، وأعقب باتباع الكافرين الباطل واتباع المؤمنين الحق ، وثلث بقولـــــه: (أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ...)الآية))[1] .

وحين ينتقل غرض السورة إلى الحديث عن المنافقين يشير (ابن عاشور) إلى أن عنصر التقابل ما يزال ماثلاً بصـــورة بـــارزة يقول تعالى : ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ۞ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾[2] فقـــد كان حال المنافقين مخالفاً حال الذيـــن آمـــنوا ، الذيـــن تمنوا أن ينـــزل القرآن بالدعوة إلى القتال ليلاقوا المشركين ((فبهذه المناسبة حكي تمني المؤمـــنين نـــزول حكم القتال، لأنه يلوح به تمييز حال المنافقين ... وأفاد ذِكْرُه مقابلة بين حالي الفريقين جرياً على سنن هذه السورة))[3] وهكذا تستمر السورة على أسلوب المقابلة إلى نهايتها .

ومـــن صـــور المقابلـــة ما أورده (ابن عاشور) في سورة الضحى ، حيث قوبلت النعم الثلاث المتضمنة في قولـــه تعالى : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۞ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۞ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾[4] بـــثلاثة أعمـــال تقابلـــهـــا ، ((فقولـــه : ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾[5] مقابل لقولـــه : (أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ) وقولـــه: ﴿ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾[6] مقابل قولـــه : (وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ) ... وقولـــــه: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾[7] مقـــابل قولـــه : (وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ)))[8] وقد أشار (ابن عاشور) إلى أن هذه المقابلة وقعت على طريقة اللف والنشر المرتب خلافاً للزمخشري[9].

وقد أقيمت عدد من سور القرآن على أساس التقابل ، مثل سورة الزمر ، وسورة الليل ، وسورة المطففين وغيرهـــا ، وهذا التقابل قد أوجد توازناً بين آيات السورة وأغراضها ، ولا يراد بهذا التوازن التوازن العددي في عـــدد الكلمات في الآيات المتقابلة ((بل التعادل في إفادة الغرض المعنوي الذي تلتقي جمل السياق للإفصاح عنه،

---

[1] التحرير والتنوير : ج ٢٦ ، ص٨٠.

[2] سورة محمد:الآيتان ٢٠، ٢١

[3] ابن عاشور : التحرير والتنوير : ج ٢٦ ، ص٩٠.

[4] سورة الضحى:الآيات ٦-٨

[5] سورة الضحى:الآية ٩

[6] سورة الضحى:الآية ١٠

[7] سورة الضحى:الآية ١١

[8] ابن عاشور : التحرير والتنوير : ج ٣٠ ، ص٣٥٦.

[9] اختار الزمخشري في تأويل كلمة السائل بأنه السائل عن العطاء ، فيكون قولـــه : (وأما السائل فلا تنهر) مقابل قولـــه : (ووجدك عائلاً فأغنى) وقولـــه: (وأما بنعمة ربك فحدث) مقابل قولـــه : (ووجدك ضالاً فهدى) . [انظر : الكشاف : ج٤ ، ص٧٧٤].

وبتعـــبير آخـــر إذا كان الغرض المعنوي على جهة التأكيد -مثلاً- تآلفت الجمل في سياقه لتنال حظاً متساوياً أو متقارباً من الأخذ بأساليب التوكيد))[1] وهكذا سائر صور التعبير الأخرى فللـــه بلاغة هذا الكتاب العظيم .

[1] أحمد مختار البزرة : أساليب التوكيد من خلال القرآن الكريم ، مؤسسة علوم القرآن -دمشق ، ط١(١٩٨٥م) ، ص١٤٤.

ثانياً المستوى النحوي

١- العطف

٢- الإحالة

من أهم وسائل التماسك اللغوي والانسجام الدلالي في النّص تلك الوسائل والأدوات النحوية التي تضمن تسلســـل الجمل وتشابك الموضوعات ، وتلاحم الأجزاء ، ويعدّ إدراك المتلقي (قارئاً أومستمعاً) لطبيعة أغراض هذه الأدوات ، وطريقة العرب في استعمالــها أساساً لفهم مقاصد النّص الذي يوجد بوجودها وينتفي بعدمها.

ولـــهذا فـــلا غرابة أن يرتبط ظهور التقعيد النحوي بالحاجة لفهم النَّص القرآني ، وضبط اللسان على أساس تلك القواعد والأساليب .

كمـــا أنه لا يعدّ غريباً أن تتوجه عناية السلف إلى مفهوم النظم وجعلـــه أساس الإعجاز اللغوي للقرآن، فإن فيما تعنيه تلك العناية الاهتمام بما تقوم به أدوات النحو من تحقيق تعليق الكلم بعضها ببعض ، وجعل بعضها بســـبب من بعض ، وهو أهم ما احتفل به عبدالقاهر الجرجاني في "الدلائل" فقد عبّر عن ذلك نظماً في المقدمة[1] وفصَّـــلـــه نـــثراً في مواضع متعددة من كتابه ، ومن ذلك قولـــه : " واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو ، وتعمل على قوانينه وأصولـــه"[2] .

لقـــد كان الحديث عن دور وسائل الربط النحوي في انسجام معاني النص القرآني محطّ أنظار المحققين من المفسرين قديماً وحديثاً ، ومن أهم هذه الوسائل : العطف ، والإحالة بالضمائر والإشارة والموصول .

وقـــد كـــان لـــ(ابن عاشور) موقف متميز في إماطة اللثام عن معانٍ في العطف و الإحالة تتفق مع أبرز ما استخلصته الدراسات النَّصية الحديثة ، وهو ما سنعرض لـــه في الصفحات الآتية .

---

[1] يقول الشيخ عبدالقاهر الجرجاني في مقدمة كتابه دلائل الإعجاز ، ص٥٣:

وقد علمنا بأن النظم ليس سوى ... حكم من النحو نمضي في توخّيه

لو نقب الأرض باغ غير ذاك لـــه ... معنىً وصعّد يعلو في ترقّيـــه

ما عاد إلا بخُسْرٍ في تطلبـــه ... ولا رأى غير غيٍّ في تبغيـــه

[2] المرجع نفسه : ص١١٧ .

١- العطف :

يمثل العطف أبرز وسيلة نحوية لإدراك ظاهرة الاتساق والانسجام في النّص القرآني ، ولذلك أفردته كتب النحو والتفسير والبلاغة بعناية خاصة .

وقد تعرض (ابن عاشور) لمباحث دقيقة في معاني حروفه ، ودلالات الوصل بها في كل موضع ، وبيان محل المعطـوف عليه ، ليتضح للقارئ ترتيب الجمل والآيات ، وليدرك أسرار القرآن في استعمال هذا المظهر اللغوي العجيب .

ولعـل مـن المفيد أن نقول إن الفصل بين المظهر النحوي والبلاغي للعطف لا يتحقق في الممارسة النَّصية للمفسر ؛ لأنه « وعلى الرغم من كون أداة العطف شكلية تابعة لأبواب النحو ، فالعلاقة بين المعطوف والمعطوف عليه دلالية ، فالتماسك إذن شكلي الأداة دلالي المضمون ، لذلك لا تكتسب أداة العطف معناها العطفي إلا من خـلال وقوعهـا في تركيب العطف»[1] ولكن الفصل الذي يتم في هذه الدراسات يستهدف البحث عن تحقيق مظهـر الاتساق من خلال إدراك العلاقة النحوية للعطف بين الجمل في المستوى النحوي ، ويتم البحث عن تحقق الانسجام من خلال إدراك الدلالات البلاغية للوصل في المستوى الدلالي والتداولي ، وذلك اعتماداً على الترتيب الـذي يسـلكه الباحـثون عن المناسبة (وسائل الانسجام والاتساق) في النّص ، إذ يبدأ بالبحث عن المتعلقات كالمعطوف عليه ، والمشار إليه ، والمسند ، ثم يفسر مظهر الوصل والفصل أو الإحالة بناءً على موقع الجملة بين أخواتها .

كمـا أن طبـيعة بحثنا عن العلاقة في إطار النَّص الواسع (عطف مجموع الجمل وعطف الآيات) تفرض أن يتداخل المظهران النحوي والبلاغي للعطف ، ولذلك سنسعى إلى الفصل بينهما ما وسع الأمر .

والـذي يجـب أن نتناولـه قبل أن نصطحب تفسير (ابن عاشور) هو الحديث عن العطف عموماً، ثم عن القـاعدة في عطـف الجمـل ، موضحين أهمية عطف الجمل في الكلام . ثم سنتتبع مواضع معينة في تفسير (ابن عاشـور) نتـناول فيها صوراً من عطف الجمل ولبيان أهمية الإشارة إليها في إدراك مفهوم الاتساق والانسجام بوسيلة العطف .

وبعدهـا نـتعرض لموضوع تعدد المعطوف عليه ، وكيف مثل ذلك التعدد إعجازاً بإتاحة ذلك القدر من الوجـوه والاحتمالات ، كما سنطلع على موقف (ابن عاشور) من موضوع تقديم المعطوف على المعطوف عليه، ونعرض صوراً للخروج عن مقتضى الظاهر في العطف نلمس جانبها النحوي ونرجئ الحديث عن الجانب الدلالي إلى موضعه من هذا البحث .

❑ معنى العطف :

جاء في لسان العرب «عطف عليه عطفاً ، رجع عليه بما يكره ، أو لـه بما يريد...وعطف الشيء يَعطفُ عطفـاً وعطوفاً ... حناه وأمالـه ، ... ويقال: عطفت رأس العود فانعطف أي حنيته فانحنى . وعطفت

---

[1] صبحي إبراهيم : علم اللغة النّصي ، ص٢٤٩.

أي مِلْتُ))[1] ويوضح أبو البقاء العكبري[2] علاقة هذا المعنى بالنحو فيقول: ((العطف لَيٌّ الشيء والالتفات إليه، يقال : عطفت العود إذا ثنيته ، وعطفت على الفارس : التفت إليه . وهو بهذا المعنى في النحو ، لأن الـــثاني ملويٌّ على الأول ومثنيٌّ إليه))[3] والمقصود بالعطف هنا عطف النسق[4] ((وهو المتداول نَسقاً بفتح السين اسم مصدر نسقت الكلام أنسقه نسْقاً بالتسكين أي عطفت بعضه على بعض))[5] .

والعطف في اصطلاح النحاة : تابع يتوسط بينه وبين متبوعه أحد حروف العطف[6] . وعرّفه علي بن محمد الجـــرجاني فقـــال: ((العطـــف : تابع يدل على معنى مقصود بالنسبة مع متبوعه ، يتوسط بينه وبين متبوعه أحد الحروف العشرة ، مثل : قام زيد وعمرو . فعمرو تابع مقصود بنسبة القيام إليه مع زيد))[7]

□ فائدة العطف:

يمـــثل العطـــف إحدى الوسائل التي يتم من خلالـــها ضم المعاني المتجاورة وظيفته : وصل الكلام بعضه بـــبعض والإشراك بين المعطوف والمعطوف عليه[8] والعطف يربط المفردات والجمل المتجاورة، وعلى ذلك فـــإن ((فائدة العطف في المفرد أن يُشْرَكَ الثاني في إعراب الأول ، وأنه إذا أشركه في إعرابه فقد أشركه في حكـــم ذلك الإعراب))[9] . أما عطف الجمل فإنهم بنوه على قاعدة عطف المفردات ((فإن الجمل المعطوف بعضـــها على بعض على ضربين : أحدهما : أن يكون للمعطوف عليها موضع من الإعراب، وإذا كانت كذلك كان حكمها حكم المفرد ، إذ لا يكون للجملة موضع من الإعراب حتى تكون واقعة موقع المفرد. وإذا كانـــت الجملـــة الأولى واقعة موقع المفرد كان عطف الثانية عليها جارياً مجرى عطف المفرد ، وكان وجـــه الحاجـــة إلى الـــواو ظاهراً والإشراك بها في الحكم موجوداً . فإذا قلت : مررت برجل خُلُقه حسن وخَلْـــقـــه قبـــيح . كنت قد أشركت الجملة الثانية في حكم الأولى ... والذي يُشكل أمره هو الضرب الثاني وذلك أن تعطف على الجملة العارية الموضع من الإعراب جملة أخرى ، كقولك : زيد قائم وعمرو

---

[1] ابن منظور : لسان العرب ، ج٩،ص٢٤٩ .

[2] أبو البقاء العكبري : محب الدين عبدالـلـه بن الحسين بن عبدالـلـه ، العكبري البغدادي ، صاحب التصانيف العديدة في النحو والصرف ، من تصانيفه: إملاء ما منّ به الرحمن في إعراب القرآن ، وشرح لامية العرب وغيرهما ، توفي (٦١٦هـــ).

[3] اللباب في علل البناء والإعراب : ج١ ، ص٤١٦ .

[4] جاء في شرح المفصل لابن يعيش: ج٣،ص٧٤ : ((ويسمى عطفاً بحرف ، ويسمى نسقاً ، فالعطف من عبارت البصريين ، والنسق من عبارات الكوفيين... وقيل لـــه نسق لمساواته الأول في الإعراب . يقال : ثغر نسق إذا تساوت أسنانه ، وكلام نسق إذا كان على نظام واحد)) .

[5] جلال الدين السيوطي : همع الـــهوامع ،تحقيق عبدالحميد هنداوي ، المكتبة التوفيقية – مصر ، (د.ت.ط) ، ج٣ ، ص١٨٥.

[6] انظر : ابن هشام : أوضح المسالك ، ج٣،ص٣١٧.

[7] التعريفات : ص١٩٥.

[8] انظر: (أ) سيبويه: الكتاب ، ج١،ص٤٣٧ –٤٣٨.

(ب) ابن الناظم: شرح ألفية ابن مالك، بتحقيق عبدالحميد السيد، دار الجيل، بيروت ، (د.ت.ط) ،ص٥١٩.

[9] عبدالقاهر الجرجاني : دلائل الاعجاز ، ص٢٤٢.

قـــاعد ، والعلم حَسَن والجهل قبيح . لا سبيل لنا أن ندعي أن الواو أشركت الثانية في إعراب قد وجب للأولى بوجه من الوجوه))[1].

وقـــد بـــين النحاة والبلاغيون أن العطف على الصورة الثانية لابد فيه من علاقة تؤذن بصحة العطف بين الجملـــتين ، فشرط العطف بالواو خاصة وجود سبب بين الجملة المعطوفة والجملة المعطوف عليها ، وهذا السبب هو المعبر عنه عندهم بمعنى الجمع ، وهو ما سنتعرض لـــه في وسائل الانسجام تحت المستوى الدلالي.

إن الغرض من عطف الجمل هو ((ربط بعضها ببعض واتصالـــها ، والإيذان بأن المتكلم لم يرد قطع الجملة الثانية من الأولى والأخذ في جملة ليست من الأولى في شيء))[2] كما أن الغرض من عطف الجمل -أحياناً- ليس التشـــريك في الحكـــم وإنما من أجل الإيذان باستقلال الكلام فيدل على معناه منفرداً ويعطى من الاهتمام لدى السامع ما أعطيته الجمل المتعاطفة ، ومن ذلك عطف قولـــه تعالى : ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾[3] على الآيات قبلـــه ، فقد وضح (ابن عاشور) حكمة العطف بقولـــه :((وإنما عطفه بالواو هنا ولم يفصلـــه كما فصل قولـــه : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا ...﴾[4]لأنـــه أريد هنا جعل هذه صفة مستقلة لـــهم في تلقي دعوة الإسلام ، ولو لم يعطفه لما صح ذلك))[5] وشواهد العطف للاهتمام بالكلام وجعلـــه مستقلاً كثيرة .

□ العطف مؤشر على اتحاد السياق:

الغالـــب أن العطف مؤشر على اتحاد السياق وقرينة على الربط ، لأن وجود حرف العطف يدعو للبحث عـــن العلاقة بين المعطوف والمعطوف عليه ، ولـــهذا فإن الصحيح أن الواو المسماة بواو الاستئناف ، التي تعطـــف جملة مبتدأة على كلام متقدم تام – أنها ((وإن كانت للاستئناف فلم تخرج عن معنى العطف ولكن لا تشـــرك بـــين مـــا بعدها وما قبلـــها إلا في أصل الإخبار دون شيء آخر ، فكأن القائل – بعد كلامه المتقدم– قال : وأخبرك أيضاً بكذا))[6].

كما أن وجود حرف العطف هو الذي دعا النحاة والمفسرين للجوء إلى ما سمي بعطف القصة على القصة، لتفسير معنى الاتصال بين الموضوعات والأغراض في السورة ، أو تقدير معطوف عليه يناسب المعطوف .

لقـــد الـــتزم (ابن عاشور) أن يُعدّ العطف دليلاً على اتحاد السياق لأن العطف مؤشر نحوي على الاتصال الـــدلالي ، ولـــــهذا فقد ردّ قول من زعم من المفسرين أن الخطاب في قولـــه تعـــالى : ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ

---

[1] عبدالقاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز ، ص٢٢٤.

[2] ابن يعيش : المفصل ، ج٣ ، ص٧٥.

[3] سورة البقرة:الآية ١٧١.

[4] سورة البقرة:الآية ١٧.

[5] التحرير والتنوير : ج ٢،ص ١١٠.

[6] انظر : صلاح الدين خليل العلائي : الفصول المفيدة في الواو المزيدة : تحقيق حسن موسى الشاعر ، دار البشير ، عمان الأردن ، ط١ (١٩٩٠م) ص٥٦.

﴿وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ﴾[1] خطـــاب للمسلمين وقع في ثنايا خطاب بني إسرائيل كما جوز ذلـــك الزمخشري[2] فكان جواب (ابن عاشور) عليهم بقولـــه: "ومن المفسرين من زعم أن الخطاب في قولـــه: (واســـتعينوا ...الخ) للمسلمين على وجه الانتقال من خطاب إلى خطاب آخر . وهذا وهمٌ ، لأن وجود حرف العطـــف يـــنادي على خلاف ذلك . ولأن قولـــه: (إلا على الخاشعين) يراد به : إلا على المؤمنين ، حسبما بينه قولـــــه: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾[3] اللـــــهم إلا أن يكون من الإظهار في مقـــام الإضمار ، وهو خلاف الظاهر مع عدم وجود الداعي"[4] وقد أشار (ابن عاشور)أن الذي غرّ هؤلاء هو توهـــم أنه لا يؤمر بأن يستعين بالصلاة إلا المؤمن . وردّه بأنه قد وقع الأمر بالصلاة في خطاب بني إسرائيل قبل هذه الآية وذلك في قولـــه تعالى : ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾[5] ونـــزيد على ذلك بأنه قد تكرر نداء بني إسرائيل بعد هاتين الآيتين وذلك يفيد توحد سياق الخطاب والمخاطبين .

ولاشـــك أن المواعـــظ التي وجهها القرآن لبني إسرائيل هي لـــهم ابتداءً وللمسلمين على سبيل الموعظة والتنبيه. على أنه قد جوز الزمخشري أن يراد بالصلاة الدعاء[6] ليخرج من تأويل المخاطبين وهو رأي وجيه.

إذن فـــــابن عاشـــور يجعل العطف مؤشراً على اتحاد السياق ، ولذلك فقد كان لاستصحاب هذا المؤشر أهمية في تفسير تتابع الآيات الواردة في الأحكام ، لفهم علاقات العموم والخصوص فيها . ومن أمثلة ذلك : توالي أحكـــام الطـــلاق ، والعضل[7] ، والرضاع . فإن تفسير عطف قولـــه تعالى :﴿ وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ لِمَنۡ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ﴾ الآيـــة[8] لا يتم بعيداً عن البحث عن علاقتها بالآيات السابقة إلا إذا أجريـــنا الأمـــر على إرادة العموم في لفظ (الوالدات) وهو رأي مرجوح كما سنرى . أما (ابن عاشور) فهو يرى أن العطف يدعونا لتفسير مناسبة الحديث عن الإرضاع بعد أحكام الطلاق والعضل لأن اللـــه تعالى "لمّا نهى عـــن العضـــل في الآيات المتقدمة، وكانت بعض المطلقات لـــهن أولاد في الرضاعة ويتعذر عليهن التزوج وهنّ مرضـــعات...كانت تلك الحالة مثار خلاف بين الآباء والأمهات ، فلذلك ناسب التعرض لوجه الفصل بينهم في

---

[1] سورة البقرة:الآية ٤٥.

[2] انظر : الكشاف :ج١،ص١٦٢.

[3] سورة البقرة:الآية ٤٦.

[4] التحرير والتنوير : ج ١،ص٤٦٢.

[5] سورة البقرة:الآية ٤٣.

[6] انظـــر : الكشاف : ج١،ص١٦٢. وقد ورد ما يؤيد هذا من قول النبي (صلى اللـــه عليه وسلم) : (إذا دعي أحدكم إلى طعام فليجب وإن كان صائماً فليصل أي : فليدع لأهل الطعام بالمغفرة والبركة). [انظر : النهاية في غريب الحديث : ج٣،ص٥٠].

[7] العضل : الحبس والتضييق ، قال الزمخشري : "عضلت الدجاجة إذا نشب بيضها فلم يخرج" وأنشد لابن هرمة :

وإن قصائدي لك فاصطنعني   عقائل قد عضلن عن النكاح

فقد شبه القصائد بالنساء ، والعضل على هذا منع الزوج أو الولي المرأةَ من النكاح .[انظر: الكشاف : ج١ ،ص٣٠٦].

[8] سورة البقرة:الآية ٢٣٣.

ذلك ... فجملة (وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ) معطوفة على جملة : ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ ﴾ الآية[1]))[2] وهذا أحد وجهي تفسير العموم في لفظ : (وَٱلْوَٰلِدَٰتُ) على اعتبار كون الآية في المطلقات[3] وقد سلك (ابن عاشور) لإثبات هذا الاتصال (المتضمن ضرورة تخصيص العموم الوارد في لفظ (وَٱلْوَٰلِدَٰتُ) بخصوص المطلقات) طريقاً لغوياً وآخر تداولياً استصحب فيه إطار الأحكام الشرعية المنظمة لعلاقات الأزواج فقال : ((وَٱلْوَٰلِدَٰتُ) عامّ لأنه جمع معرف باللام، وهو هنا مراد به خصوص الوالدات من المطلقات بقرينة سياق الآي التي قبلها من قوله :﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾[4] ولذلك وصلت هذه الجملة بالعطف للدلالة على اتحاد السياق . فقوله: (وَٱلْوَٰلِدَٰتُ) معناه : والوالدات منهن ، أي من المطلقات المتقدم الإخبار عنهن في الآي الماضية ... ودليل التخصيص أن الخلاف في مدة الإرضاع لا يقع بين الأب والأم إلا بعد الفراق ولا يقع في حالة العصمة ... ومما يدل على أنه ليس المراد الوالدات اللائي في العصمة قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ ﴾ الآية[5] ...فإن اللائي في العصمة لهن النفقة والكسوة بالأصالة))[6] فالاستناد إلى العطف في تخصيص لفظ العموم اعتماداً على وحدة السياق أظهر نسبة الإخبار الجديد إلى المخبر عنه في الآيات السابقة ، وهو الأنسب لمراعاة صحة العطف في مقام اتحاد المتحدث عنه .

ومما يبين اهتمام (ابن عاشور) بإظهار أثر وسيلة العطف في الربط وتحقيق الانسجام ، أنه يقوم بتصور جميع أركان السياق الداخلي والخارجي في تفسير العطف ، وقد ألمحنا إلى جانب من ذلك في مبحث (تحول السياق وانتقال الخطاب) ونؤكد ذلك هنا بالنموذج الآتي :

في تفسير سورة يونس يتوقف (ابن عاشور) عند قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾[7] فيقرر

---

[1] سورة البقرة:الآية ٢٣٢.

[2] التحرير والتنوير : ج ٢،ص٤٠٨، ٤٠٩.

[3] أورد الزمخشري وابن عطية وجهين في تفسير لفظ (الوالدات) فالأول : أن يراد به خصوص المطلقات قال ابن عطية : ((وهذه الآية في المطلقات . قاله السدّي ،والضحاك وغيرهما جعلها الله حداً عند اختلاف الزوجين في مدة الإرضاع))[المحرر الوجيز : ص٢٠٦] .
والوجه الثاني : أن يراد بالوالدات العموم سواء كن في العصمة أو بعد الطلاق . [انظر : الكشاف : ج١ ، ص٣٠٧].

[4] سورة البقرة:الآية ٢٢٨.

[5] سورة البقرة:الآية ٢٣٣.

[6] التحرير والتنوير : ج ٢،ص٤٠٩ ، ٤١٠.

[7] سورة يونس:الآية ١١.

ابتداءً أن ((مجيء حرف العطف في صدر هذه الآية يقتضي في علم البلاغة خصوصية لعطفها على ما قبلها، ومزيد اتصالها بما قبلها فتعين إيضاح مناسبة موقعها))[1] .

إن (ابن عاشور) يبحث عن المعطوف عليه المناسب ، وليس في الآيات المتقدمة ما يفهم منه لأول وهلة أنه محل للمعطوف عليه ، لذلك يلجأ (ابن عاشور) لبناء السياق الخارجي للنَّص ومن ثم يرتب السياق الداخلي (الآيات المتقدمة) عليه ، حتى يتم تصور وحدة الآيات وفهم معنى العطف ، فيقول : ((والظاهر أن المشركين كانوا من غرورهم يحسبون تصرفات اللـه كتصرفات الناس من الاندفاع إلى الانتقام ... ويحسبون الرسل مبعوثين لإظهار الخوارق ونكاية المعارضين[2]... فكانوا لما كذبوا النبي (صلى اللـه عليه وسلم) ... ولم تصبهم بأثر ذلك مصائب ... ازدادوا غروراً بباطلهم ... وكان المؤمنون ربما تمنوا نزول العذاب بالمشركين ... فلما جاءت آيات هذه السورة بقوارع التهديد للمشركين أعقبت بما يزيل شبهاتهم ويطمئن نفوس المؤمنين ... فهذه الجملة معطوفة على جملة ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ....﴾ الآية[3] فحيث ذكر عذابهم الذي هم آيلون إليه ناسب أن يبين لهم سبب تأخير العذاب عنهم في الدنيا ... والقرينة على اتصال هذه الجملة بجملة ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ﴾ قوله في آخر هذه الآية : ﴿ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾[4]))[5].

ولم يشر الزمخشري ولا ابن عطية إلى وجه العطف في هذه الآية ولا إلى مناسبتها لما قبلها من الآيات . في حين جعلها البقاعي عطفاً على قوله تعالى : ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[6] وربطها بالآية المتقدمة عليها ، وهي قوله تعالى : ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[7] فقال: ((ولما أشير في هذه الآية إلى تنزهه تعالى ...ودلّ بختمها بالحمد على إحاطته، وبرب العالمين على تمام قدرته وحسن تدبيره ... اتبعت بما يدل على ذلك من لطفه في معاملته من أنه لا يفعل شيئاً قبل أوانه ... فقال تعالى عاطفاً على قوله : (يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ) ما معناه :أنه تعالى يفعل فعل من ينظر في أدبار الأمور ، فلا يفعل إلا ما هو في غاية

---

[1] التحرير والتنوير : ج ١١ ، ص٢٩، ٣٠.

[2] وفي القرآن آيات كثيرة تدل على ذلك منها قوله تعالى : (وإذ قالوا اللـهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم)[سورة الأنفال: آية ٣٢]. وقوله تعالى : (ويستعجلونك بالعذاب... الآية)[سورة الحج : آية ٤٧] .

[3] سورة يونس:الآية ٧.

[4] سورة يونس:الآية ١١.

[5] التحرير والتنوير : ج ١١، ص٢٩ ، ٣٠.

[6] سورة يونس:الآية ٣.

[7] سورة يونس:الآية ١٠.

الإحكام ، فهو لا يعاجل العصاة بل يمهلـــهم"[1] والمقارنة بين وجهي المناسبة المعتمدة على اتصال المعاني بالواو تجعل كلام (ابن عاشور) أقوى ، لا سيما والمعطوف عليه أقرب ، والقرينة اللفظية عليه أدلّ ، والغرض في الآيات المعطـــوف عليها ذِكْر العذاب الذي هم آيلون إليه – كما يقول (ابن عاشور) – ثم ذِكْر إكرام اللـــه للمؤمنين. فناسب أن يعطف على هذا سبب تأخير العذاب عن هؤلاء المعاندين في الدنيا .

وكـــل هذه الأمثلة المتقدمة دليل على اعتماد (ابن عاشور)وسيلة العطف مؤشراً لإثبات الانسجام وتوحد الســـياق، ولا يخرج عن ذلك إلا حين يتعذر بيان وجه المناسبة ، وذلك مثل العطف بين الآيتين الكريمتين ، وهما قولـــــه تعـــالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ۞ وَقَـٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[2] فالآية الأولى كما يقول الزمخشري: " تشجيع للمسلمين على الجهاد والتعرض للشهادة...والدليل على أنه ساق هذه القصة بعثاً على الجهاد ما أتبعه من الأمر بالقتال في سبيل اللـــه"[3] .

وهـــي جملة مستأنفة ، ولذلك يقول (ابن عاشور) في بيان العطف عليها : "وجملة (وَقَـٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ) هـــي المقصود الأول، فإن ما قبلـــها تمهيدٌ لـــها ... وقد جعلت في النظم معطوفة على جملة (أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ) عطفـــاً عـــلى الاستئناف ، فيكون لـــها حكم جملة مستأنفة استئنافاً ابتدائياً ، ولولا طول الفصـــل بينها وبين جملة ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾[4] لقلت إنها معطوفة عليها . على أن اتصال الغرضين يُلحقها بها بدون عطف"[5].

❑ من صور عطف الجمل :

- عطـــف القصـــة على القصة : استعرض (ابن عاشور) وجهات نظر المفسرين في تفسير العطف عند قولـــه تعـــــالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ﴾[6] ونـــبه إلى مـــا وقـــع فيه شراح الكشاف ومن تابعهم من المفسرين من وهمٍ في تفسير كلام

---

[1] برهان الدين البقاعي : نظم الدرر ، ج٣ ، ص٤٢١.

[2] سورة البقرة:الآية ٢٤٣.

[3] الكشاف : ج١ ، ص٣١٨.

[4] سورة البقرة:الآية ٢١٦.

[5] التحرير والتنوير : ج ٢، ص٤٥٨. وفي تفسير العطف في هذه الآية يقول ابن عطية : "الواو في هذه الآية عاطفة جملة كلام على جملة ما تقدم . هذا قول الجمهـــور ، إن هذه الآية هي مخاطبة لأمة محمد (صلى اللـــه عليه وسلم) بالقتال في سبيل اللـــه ... وقال ابن عباس والضحاك : الأمر بالقتال هو للذين أُحيُوا من بني إسرائيل، قالوا: وعلى هذا تكون الواو عاطفة على الأمر المتقدم ، والمعنى : وقال لـــهم : قاتلوا – قال الطبري رحمه اللـــه: ولا وجه لقول من قال : إن الأمر بالقتال هو للذين أحيوا" انظر : المحرر الوجيز ، ص٢٢٠.

[6] سورة البقرة : آية ٢٥.

الزمخشـري عـن أن عطـف هـذه الجمل من باب عطف الترغيب على الترهيب وبحثهم عن المناسبة وتمحُلـهم في ذلك نتيجة اكتفائهم بمقولة ضرورة التناسب بين الجمل في الخبرية والإنشائية المشترط في عطف الجملة على الجملة ، ولم ينتبهوا أن ذلك من باب عطف مجموع جملٍ على مجموع جمل متقدمة، ولا إلى عدم اطراد المناسبة في الخبرية والإنشائية لورود آيات كثيرة تدل على خلاف ذلك[1].

يقـول (ابن عاشور) : "وأياً ما كان فقد روعي في الجمل المعطوفة ما يقابل ما في الجمل المعطوف عليها فقوبل الإنذار الذي في قولـه : (فاتقوا النار ...)[2] بالتبشير ، وقوبل (الناس) المراد به المشركون بالذين آمنوا، وقوبـل(النار) بـ(الجنة) وبذلك صلح أن يفسر قولـه: (وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ) على ما تضـمنه الإنذار المبتدأ بقولـه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[3]"[4] فلا يراعى في مثل هذا العطف إلا مناسبة الغرض للغرض .

- عطف التلقين : من صور عطف الجمل عطف كلام متكلم على كلام متكلم آخر، الذي سمي بعطف الـتلقين ، وقد أشار (ابن عاشور) إلى أن هذا اللقب أطلقه بعض شراح الكشاف ، وضبطه (ابن عاشور) بأنه "عطف المخاطب كلاماً على ما وقع في كلام المتكلم تنـزيلاً لنفسه في منـزلة المتكلم ، يكمّل شيئاً تـركه المتكلم إما عن غفلة وإما عن اقتصار ، فيلقنه السامع تداركه بحيث يلتئم من الكلامين كلام تام في اعتقاد المخاطب"[5]وقد أشار إلى هذا اللون من العطف عند تفسير قولـه تعالى : ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[6] فقـد عطف إبراهيم قولـه : (وَمِن ذُرِّيَّتِى) على كلام اللـه تعالى رغبة منه في تكميل الكلام الأول بما يحقق الخير للذرية .

ورأى (ابـن عاشـور) أن الأولى أن تحذف كلمة عطف وأن يسمى هذا الصنف من الكلام باسم التلقين "وهو تلقين السامع المتكلم ما يراه حقيقاً بأن يلحقه بكلامه"[7] لأن التلقين يكون بالعطف ، وبغير العطف ولكنه بالعطف أكثر وهو الغالب .

---

1 يقول تعالى : (ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين)[سورة البقرة : آية١٥٥]. "فإن جملة : (وبشر الصابرين) معطوفة على (ولنبلونكم) ... وهو عطف إنشاء على خبر ولا ضير فيه عند من تحقق أساليب العرب" .[انظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير :ج٢،ص٥٦].

2 من قولـه تعالى : (فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين)[سورة البقرة : آية٢٤].

3 سورة البقرة:الآية٢١.

4 التحرير والتنوير :ج١ ،ص٣٤٦.

5 المصدر نفسه : ج ١،ص٦٨٥.

6 سورة البقرة:الآية ١٢٤.

7 التحرير والتنوير : ج ١،ص٦٨٥.

- فقد يقع بطريق الاستفهام والحال كقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾[1] حيث اختار (ابن عاشور) أن الواو مع (لو) الوصلية واو الحال وليس واو العطف[2] .
- وقد يكون بالاستثناء ، وضرب له (ابن عاشور) مثلاً "بقول العباس بن عبد المطلب[3] لما قال النبي (صلى الله عليه وسلم) في حرم مكة (لا يعضد شجره) فقال العباس : إلا الإذخر لبيوتنا وقيننا"[4].

وقد وضح (ابن عاشور) أن للكلام المعطوف عطف التلقين من الحكم حكم الكلام المعطوف هو عليه خبراً أو طلباً ، ففي تفسير عطف قول الله تعالى : ﴿ قَالَ وَمَن كَفَرَ ﴾[5] على القيد المذكور في دعاء إبراهيم ﴿ وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ﴾[6] يقول (ابن عاشور) : "عطف التلقين في الإنشاء إذا كان صادراً من الذي خوطب بالإنشاء كان دليلاً على حصول الغرض من الإنشاء والزيادة عليه "[7].

وكما سمى (ابن عاشور) هذا اللون "التلقين" فقد اقترح في موضع آخر أن يسمى عطف التكميل : ففي حكاية جواب نوح (عليه السلام) على كلام قومه الذين قالوا : ﴿ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴾[8] قال الله على لسان نوح (عليه السلام) : ﴿ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾[9] يقول (ابن عاشور): "فاقتران أوله بالواو (وَمَا عِلْمِى) يجعله في حكم المعطوف على كلام قومه تنبيهاً على اتصاله بكلامهم. وذلك كناية عن مبادرته بالجواب كما في قوله تعالى حكاية عن إبراهيم (عليه السلام):﴿ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ﴾[10]

---

١ سورة البقرة:الآية ١٧٠.

٢ والقول بكونها واو عطف :نصّ عليه البيضاوي واستحسنه (ابن عاشور) وقال : لا أعلم سلفاً له فيه وتقدير الكلام (قالوا بل نتبع ... ولو كان آباءهم). ومنه قوله تعالى : (قال أولو جئتك بشيء مبين) [سورة الشعراء : آية٣٠] وقد قال الجرجاني : "وتسميتنا لها واو الحال لا يخرجها عن أن تكون مجتلبة لضم جملة إلى جملة " [دلائل الإعجاز : ص٢١٧].

٣ هو العباس بن عبد المطلب بن هاشم : عمّ النبي (صلى الله عليه وسلم) أسلم قبل الفتح

٤ الحديث في صحيح مسلم ج٤،ص١٠٩: باب تحريم مكة وصيدها وخلاها ، عن ابن عباس بلفظ (... لا يعضد شوكه ، ولا ينفر صيده ، ولا يلتقط إلا من عرفها ، ولا يختلى خلاها . فقال العباس : يا رسول الله إلا الإذخر فإنه لقينهم ولبيوتهم . فقال : إلا الإذخر) قال الشارح ابن العيني : قوله: (يا رسول الله إلا الإذخر) تلقين بالاستثناء والتماسه ، أي قل : إلا الإذخر ، وهو نبت عريض الأوراق طيب الرائحة . أ.هـ .

٥ سورة البقرة:الآية ١٢٦.

٦ سورة البقرة:الآية ١٢٦.

٧ التحرير والتنوير : ج ١،ص٦٩٧ .

٨ سورة الشعراء:الآية ١١١.

٩ سورة الشعراء:الآية ١١٢.

١٠ سورة البقرة:الآية ١٢٤.

بعـد قولـه: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾[1] ويسمى عطف تلقين مراعاة لوقوعه في تلك الآية ، والأولى أن يسمى عطف تكميل))[2].

ومما وقع من هذا اللون من العطف معطوفاً بالفاء قولـه تعالى : ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ۞ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾[3] فقولـه : (فَاهْبِطْ مِنْهَا) ((من عطف كلام متكلم على كلام متكلم آخر، لأن الكلامين بمنـزلة الكلام الواحد في مقام المحاورة))[4]. فالفاء لترتيب الأمر بالـهبوط على جواب إبليس بقولـه: (قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ) .

وحمل عليه العطف بالفاء في قولـه تعالى : ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ۞ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾[5] فالفـاء من قولـه : (فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ) عطفت كلام اللـه عزّ وجل على كلام أهل الجنة، يقول (ابن عاشور): ((وظاهر النظم أن قولـه : (الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ) إلى قولـه : (وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا) هو من حكاية كلام أهـل الجـنة... وجُوِّز أن يكون : (الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا) مبتدأ على أنه من كلام اللـه تعالى[6]، وهـو يفضي إلى جعل الفاء في قولـه : (فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ) داخلة على خبر المبتدأ لتشبيه اسم الموصول بأسماء الشرط...وقولـه: (فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا) اعتراض حكي به كلام يعلن به من جانب اللـه تعالى ، يسمعه الفريقان . وتغيير أسلوب الكلام هو القرينة على اختلاف المتكلم ... والفاء للتفريع على قـول أصحاب الجنة... وهذا العطف بالفاء من قبيل ما يسمى بعطف التلقين ، الممثل لـه غالباً بمعطوف بالواو ... وتقديـر الكـلام : قال اللـه (فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ) فحذف فعل القول))[7] والملاحظ أن (ابن عاشور) قدّر محذوفاً في الآية هو فعل القول وفاعلـه ، وجعل التقدير متعيناً ، خلافاً لمن جعلوا الكلام مستأنفاً من قبل اللـه

---

[1] سورة البقرة:الآية ١٢٤.

[2] التحرير والتنوير : ج ٩،ص١٦٩.

[3] سورة الأعراف:الآيتان ١٢، ١٣.

[4] التحرير والتنوير : ج ٨،ص٣٤.

[5] سورة الأعراف:الآيتان ٥٠، ٥١.

[6] ذكَرَ هذا الوجه ابن عطية في المحرر الوجيز : ص٧٠٨.

[7] التحرير والتنوير : ج ٨ ،ص١١٥.

من بداية الآية . ولذلك قال الله في الآية التي تليها : ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَـٰهُم بِكِتَـٰبٍ فَصَّلْنَـٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[1] .

كما جعل (ابن عاشور) التقدير متعيناً فيما يعطف بالفاء من قوله تعالى : ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مُفَصَّلًا ﴾[2] حيث يقول : "فتقدير القول متعين لأن الكلام لا يناسب إلا أن يكون من قول النبي (صلى الله عليه وسلم) ، والفاء لتفريع الجواب عن مجموع أقوالهم فهو من عطف التلقين بالفاء"[3] كما جوز أن يعطف على هذا القول المحذوف وهو كلام النبي (صلى الله عليه وسلم) قوله تعالى في الآية نفسها : ﴿ ...وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾[4] فقال: "معطوفة على القول المحذوف فتكون استئنافاً مثله ، أو معطوفة على جملة (أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى) أو على جملة (وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ) فهو عطف تلقين عطف به الكلام المنسوب إلى الله على الكلام المنسوب إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) تعضيداً لما اشتمل عليه الكلام المنسوب إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) من كون القرآن حقاً ، وأنه من عند الله"[5] .

والذي يمكن أن نستنتجه من الشواهد على هذا اللون من العطف أنه يمكن أن يُفرق بين نوعين من عطف كلام متكلم عن كلام متكلم آخر ، فإنه : إن كان المتكلم يريد بعطف كلامه على كلام المتكلم الآخر تكميل ذلك الكلام خبراً أو إنشاءً كما في قوله تعالى : (وَمِن ذُرِّيَّتِى ...)الآية وقوله : (قَالَ وَمَن كَفَرَ ...)الآية، وقوله : (وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ ...)الآية ، ليتوافق هذا الكلام مع ما يريده المتكلم أو ليعضده ويقويه فهو التلقين . وإن فهم من العطف المبادرة إلى الجواب لترتيب كلام المتكلم الثاني على مضمون كلام المتكلم الأول ، كما في قوله : (قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا) وقوله : (أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى) أو للمبادرة لتجاهل مضمون كلام المتكلم الأول تمهيداً لنقضه كما في قوله : (قَالَ وَمَا عِلْمِى) فهو التكميل .

ولا نزعم أن (ابن عاشور) قد نصّ على هذا التفريق، ولكن ورود مصطلحي التلقين والتكميل في آيتين غرض العطف فيهما مختلف جعلنا نستنتج هذا . والعجيب أن هذا اللون من العطف – وهو عطف كلام متكلم على كلام متكلم آخر – لم يشر إليه (ابن عاشور) عند قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟

---

[1] سورة الأعراف:الآية ٥٢.

[2] سورة الأنعام:الآية ١١٤.

[3] التحرير والتنوير : ج ٧،ص١١.

[4] سورة الأنعام:الآية ١١٤.

[5] التحرير والتنوير : ج ٧ ،ص١٢.

قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾[1] فإن قوله : (وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ) يجوز ألا يكون من بقية كلام ملكة سبأ بل من كلام الله كما ذكر ذلك الزمخشري في قوله : "وقيل : هو تصديق من الله لقولها"[2] ولعلّ السبب في إغفال(ابن عاشور) هذا الوجه أنه يرى أن الكلام متحد لمتكلم واحد ولم يجوّز غيره. وممن أخذ بجواز أن يكون قوله تعالى : (وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ) ليس من كلام الملكة ابن هشام ، وذلك في بيان حكم وصل الجمل المحكية بغير المحكي فيقول : "وقد يوصل بالمحكية غير محكيٍّ وهو الذي يسميه المحدّثون مُدرجاً ومنه : (وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ) بعد حكاية قولها ، وهذه الجملة وغيرها مستأنفة لا يقدر لها قول"[3] . وكان الأولى بابن عاشور أن يذكر هذا الوجه كما هي عادته في التنبيه على مثل هذه اللطائف.

- عطف المتكلم بعض كلامه على بعض والمخاطب مختلف : من صور عطف الجمل المحكية التي أشار إليها (ابن عاشور) عطف المتكلم بعض كلامه على بعض في مقام واحد إذا كان المخاطبان مختلفين، والمعروف أن النحويين يمنعون عطف أمر مخاطب على أمر مخاطب آخر إلا بقرينة تدل على تغاير المخاطبين كالنداء أو اتحاد مقام الخطاب .

وقد وضح (ابن عاشور) في سورة الأعراف هذا اللون من العطف ؛ وذلك أن الحق تبارك وتعالى لمّا ذكر توعد إبليس بني آدمَ بالإغواء بقوله :﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾[4] ردّ المولى سبحانه عليه بقوله : ﴿ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[5] ثم عطف على هذا الكلام الموجه إلى إبليس كلاماً موجهاً إلى آدم (عليه السلام) فقال : ﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[6] وقد بيّن (ابن عاشور) أنّ "الواو من قوله : (ويا آدم) عاطفة على جملة: (ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا) فهذه الواو من المحكي لا من الحكاية فالنداء والأمر من جملة المقول المحكي يقال ، أي قال الله لإبليس : (ٱخْرُجْ مِنْهَا) وقال لآدم : (وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ) وهذا من عطف المتكلم بعض كلامه على بعض ، إذا كان لبعض كلامه

---

1 سورة النمل:الآية ٣٤.

2 الكشاف : ج ٣،ص٣٦٩.

3 مغني اللبيب : ص٥٤٣.

4 سورة الأعراف:الآية ١٦.

5 سورة الأعراف:الآية ١٨.

6 سورة الأعراف:الآية ١٩.

اتصال وتناسب مع بعضه الآخر ولم يكن أحد الكلامين موجهاً إلى الذي وجه إليه الكلام الآخر ، مع اتحاد مقام الكلام ، كما يفعل المتكلم مع متعددين في مجلس واحد فيقبل على كل مخاطب منهم بكلام يخصه))[1] .

وفي سورة يوسف يحكي الله تعالى كلام العزيز معقباً على كلام امرأته وبراءة يوسف بقوله : ﴿ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ۞ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴾[2] يقول (ابن عاشور) : ((وجملة (يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا) من قول العزيز ، إذ هو صاحب الحكم ، وجملة (وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ) عطف على جملة (يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا) في كلام العزيز عطف أمر على أمر والمأمور مختلف))[3] وعلى هذا جوز (ابن عاشور) أن يكون قوله تعالى : ﴿ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾[4] عطفاً على قوله: ﴿ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾[5] أي ((ويقال (وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ) على الصفة مما يقال لأصحاب الجنة ، فتكون من توزيع الخطابين على مخاطبين في مقام واحد))[6] .

❑ تقديم المعطوف على المعطوف عليه :

يقرر أئمة النحو أنه لا يجوز تقديم المعطوف على المطوف عليه – في عطف المفردات – إلا في العطف بالواو خاصة بثلاثة شروط[7] :

- أحدها: ألا يؤدي إلى وقوع حرف العطف صدراً ، فلا تقول : وعمرو زيد قائمان . في : زيد وعمرو قائمان .
- وثانيهما : ألا يؤدي إلى مباشرة حرف العطف عاملاً غير متصرف ، مثل : إن وعمرواً زيداً قائمان .
- وثالثهما : ألا يكون مجروراً فلا تقول : مررت وعمرو بزيد .

وعند خلوه من هذه الثلاثة يجوز التقديم كقول الشاعر :

ألا يا نخلة من ذات عرق   عليك ورحمة اللـه السلام[8]

---

[1] التحرير والتنوير : ج ٨،ص٤٨١. ومنه ما جاء في البخاري عن أبي هريرة وذكر قصة العسيف وفيه قول النبي (صلى اللـه عليه وسلم) للشاكي : "المائة شاة والخادم ردّ وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام واغد يا أنيس على امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها..." الحديث . صحيح البخاري : ج٦ ، حديث رقم (٦٤٤٤) . فقد عطف أمره لأنيس على كلامه للشاكي لاتحاد مقام الخطاب .

[2] سورة يوسف:الآيتان ٢٨، ٢٩.

[3] التحرير والتنوير : ج ١٢،ص٥٢.

[4] سورة يس:الآية ٥٩.

[5] سورة يس:الآية ٥٨.

[6] التحرير والتنوير : ج ٢٢ ،٢٥٢.

[7] انظر : صلاح الدين العلائي : الفصول المفيدة في الواو المزيدة ، ص١٥٢.

[8] البيت ينسب للأحوص ، كما في حاشية مغني اللبيب والنخلة – هنا – كناية عن امرأة . وذات عرق موضع . [انظر : الحموي :خزانة الأدب : ج١ ، ص١٩٢]

وإذا كان هذا هو الحال في عطف المفردات فإن (ابن عاشور) يأخذ بما ترجح من كلام المحققين من النحويين ومنهم ابن جني ، والمرزوقي ، في شرح أبيات الحماسة – من أنه لا داعي لقصر هذا التقديم على عطف المفردات ، أو قصره على ضرورة الشعر كما فعل ذلك ابن هشام في حديثه عما اختصت به الواو من بين حروف العطف من عطف المقدم على متبوعه[1] .

واعتماداً على هذا يختار (ابن عاشور) في تفسير قوله تعالى : ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ۝ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾[2] أن يكون قوله تعالى: (وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا) معطوف على قوله: (يُمْدِدْكُمْ) مقدم عليه وأن ضميري الغيبه (المرفوع والمجرور)"عائدان على الملائكة الذين جرى الكلام عليهم كما هو الظاهر . وعلى هذا حمله جملة من المفسرين[3] .

وعليه فموقع قوله: (وَيَأْتُوكُم) موقع وعد ، فهو في المعنى معطوف على (يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم) وكان حقه أن يرد بعده ، ولكنه قدم على المعطوف عليه تعجيلاً للطمأنينة إلى نفوس المؤمنين فيكون تقديمه من تقديم المعطوف عليه"[4]

وقد أورد (ابن عاشور) أمثلة من عطف المفردات مثل قول الشاعر[5]:

ثم اشتكيت لأشكاني وساكنه قبر بسنجار أو قبر على قهد

ونوّه إلى استحسان ابن جني ، تقديم المعطوف (وساكنه) على المعطوف عليه (قبر) لشدة الاتصال بين الفعل ومرفوعه ، ثم قال (ابن عاشور) : "وليس في كلامهما أن تقديم المعطوف في مثل ما حسن تقديمه فيه خاص بالضرورة في الشعر ، فلذلك خرجنا عليه هذا الوجه في الآية ، وهو من عطف الجمل على أن عطف الجمل أوسع من عطف المفردات لأنه عطف صوري"[6] غير أنه وإن أمكن قبول هذا التخريج في بعض المواضع فإنه غير متوجه في هذه الآية ، لأن عود الضمائر إلى غير مذكور في القرآن كثير لأنه معلوم من السياق، ولكن تقديم المعطوف على المعطوف عليه قليل ، ولا نجد من أشار إليه من المفسرين في غير هذا الموضع اللهم إلا ما أشاروا

---

[1] انظر : مغني اللبيب ،ص٤٦٧. وقد أشار ابن عاشور إلى أن التفتزاني في شرح المفتاح وابن السيد في شرح أبيات الجمل قد سبقا ابن هشام إلى هذا الرأي.

[2] سورة آل عمران:الآيتان ١٢٤، ١٢٥.

[3] اختلف المفسرون في تحديد معاد الضمائر بناء على اختلافهم في تفسير الزمن المراد بقوله : (إذ تقول) أهو يوم بدر أم يوم أحد ؟ فقد نقل ابن عطية عن مجاهد وعكرمة والضحاك أن الوعد صادر في يوم أحد فيكون قوله : (إذ تقول) بدلاً من (وإذ غدوت) ويتعين أن تكون جملة : (ويأتوكم) مقدمة على المعطوفة هي عليها .وحمل بعض المفسرين المراد بقوله : (إذ تقول) أنه يوم بدر فتعود الضمائر إلى الملائكة أما الزمخشري ومتابعوه فقد حملوا ضميري الغيبة على المشركين وهم غير مذكورين،وعلى هذا يكون قوله : (ويأتوكم) معطوفاً على الشرط ، والتقدير : إن تصبروا وتتقوا ويأتيكم المشركون يمددكم ربكم، وهذا التوجيه أنسب بترتيب الكلام .

[4] التحرير والتنوير : ج ٣ ، ص٢٠٨.

[5] الشاعر هو : صنان بن عباد اليشكري.

[6] التحرير والتنوير : ج ٣ ، ص٢٠٩.

إلـيه مـن تقديم المعطوف لفظاً وهو مؤخر معنى في معرض مناقشتهم العطف بالواو وهل يفيد الترتيب وعكس الترتيب أم لا ؟ في نحـو قولـه تعالى : ﴿ يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾[1]. وادعـاء الإجمـاع على أنها لا تفيد الترتيب مع وجود القرينة مردود[2] ولكنها لا تفيد الترتيب بلا قرينة أبداً، ولذلك يقول ابن جني : "ليس فيها دليل على المبدوء به في المعنى ، قال لبيد[3] :

أغلي السباء بكل أدكن عاتق   أو جَونَةٍ قدحت وفضّ ختامها

فقولـه : (قدحت) أي: (غرفت) ... و(فض ختامها) : فتح رأسها ، وإنما تغرف بعد أن تفتح ، فقد علمت أن (قدحت) مقدم في اللفظ مؤخر في المعنى ، وعلى هذا يتوجه معنى العطف في قولـه تعالى : ﴿ يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾[4] فبدأ بالسجود قبل الركوع وهو مؤخر معنى[5]"[6] .

ولقلـة إفادة الواو عكس الترتيب فإنه لا يصح أن يخرج عليه آية سورة آل عمران – التي هي موضوع البحـث – لأن القرينة على معاد الضمائر في قولـه : ﴿ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ ﴾[7] متوفرة في ذهن السامعين يومئذ لا يتطرق إليها لبس ، ولـهذا فإن عكس الترتيب الوجودي لا حاجة لـه وإن كان في مقام الوعد . وإذا دققـنا النظر في الآية نجد أنه قد ذكر الملائكة بالاسم الظاهر في قولـه : ﴿ يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾[8] فلو سلمنا بصحة تقديم المعطوف على المعطوف عليه لما احتيج إلى هذا الإظهار .

---

[1] سورة آل عمران:آية ٤٣.

[2] يقـول ابـن هشام : "وقول السيرافي إن النحويين واللغويين أجمعوا على أنها لا تفيد الترتيب مردود ، بل قال بإفادتها إياه قطرب ، والربعي ، والفراء ، وتعلب ، وأبوعمر الزاهد ". [انظر : مغني اللبيب ، ص٣٦١].

[3] هو لبيد بن ربيعة بن ملك بن جعفر ، أبو عقيل : فارس شاعر شجاع عذب المنطق ، أسلم وحسن إسلامه.[انظر : ابن سلام: طبقات الشعراء ،ص٥٦].

[4] سورة آل عمران:الآية ٤٣.

[5] في تفسير معنى الآية وجوه أوردها المفسرون تتلخص في الآتي :

- أن الآيـة لم يقصد فيها السجود والركوع الذي تنتظم منه ركعة بل أنها أمرت بالقنوت والسجود ثم قيل لـها : (واركعي مع الراكعين) أي : صلي جماعـة . [أورده الزمخشـري في الكشاف : ج١،ص٣٨٩ ، وابن عطية في المحرر : ص٣٠٠] ووجهه ابن عاشور بأن ذلك خصوصية لـها من بين نساء بني إسرائيل . [التحرير والتنوير : ج ٣، ص٩٥]
- أن الواو لا تفيد ترتيباً فأمرت بالفعلين .
- أن اللـه أمرها بالصلاة ثم أمرها أن تكون مع الراكعين لأن من قومها من كان يقوم ويسجد ولا يركع مثل اليهود . [ذكره الزمخشري في تفسير الآية ٤٣: سورة البقرة ، الكشاف : ج ١ ،ص١٦١] ومنهم من كان يركع مثل زكريا ومن تبعه [ذكره ابن عطية : المحرر الوجيز : ص٣٠٠] ويؤيد هذا أن اللـه عـز وجـل أمر بني إسرائيل فقال : (وأقيموا الصلاة وآتو الزكاة واركعوا معه الراكعين)[سورة البقرة : ٤٣] فنصّ على الركوع في الآية بخصوصية القائمين به أو لخصوص إرادة معنى الجماعة واستغني به عن ذكر السجود تجنباً للتكرير .

[6] سر صناعة الاعراب : دراسة وتحقيق حسن هنداوي ، دار القلم – دمشق ، ط٢ (١٩٩٣م) ، ج٢ ، ص٦٣٢.

[7] سورة آل عمران:الآية ١٢٥.

[8] سورة آل عمران:الآية ١٢٥.

وليس في لجوء (ابن عاشور) إلى التوسع في عطف الجمل أو إلى ما في الواو من خصوصية عكس الترتيب ما يسوّغ هذا الرأي، بل إن في وقوع قوله تعالى : (وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ) في حيز الشرط المعطوفة عليه وهو قوله : ﴿ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ ﴾[1] لا في حيز الجواب ما يمنع عكس الترتيب ، فكأن المعنى – والله أعلم – أن الإمداد بالملائكة مترتب على مجموع تحققهم بالصبر والتقوى وحصول مداهمة المشركين لهم ، وهو الأقرب لسياق المواساة والوعد . وبه أخذ الزمخشري وابن عطية والبقاعي كما سبق .

[1] سورة آل عمران:الآية ١٢٥.

❑ تعدد المعطوف عليه :

لا شك أن تعدد وجوه الإعراب فيما يصح أن يعود عليه المعطوف عليه له ارتباط بموضوع ترابط الآيات، حيث يترتب على تفسيره تناسق الجمل وانسجام دلالاتها .

وقد حرص (ابن عاشور) على استبعاد الأوجه البعيدة عن جوهر أسلوب القرآن، ولم يُخرِّج على الأوجه الضعيفة، كما أُخذ على الزمخشري أنه جوز أن يكون قوله تعالى : ﴿ وَفِي مُوسَىٰٓ إِذۡ أَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴾[1] عطف على ﴿ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ﴾[2] مع بُعد ما بين الآيتين ، وأن الأولى به أن يكتفي بوجه واحد قوي وهو القول الثاني : "أو على قوله: ﴿ وَتَرَكۡنَا فِيهَآ ءَايَةٗ ﴾[3] على معنى : وجعلنا في موسى آية"[4] لكون المعطوف عليه القريب صالح لإفادة المعنى الناشيء عن تعدد المعطوف عليه .

ومن أمثلة تعدد المعطوف عليه: احتمالات المعطوف عليه قوله تعالى : ﴿ وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا ۞ قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ﴾[5] فللمفسرين في تفسير الآية وجهان :

- الوجه الأول: أن الآية إخبار من الله تعالى بمدة لبث أهل الكهف في كهفهم ، وقد أشكل على هذا معنى قوله تعالى بعده : (قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ) فقال الزمخشري : "ومعنى قوله : (قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ) أنه أعلم من الذين اختلفوا فيهم بمدة لبثهم ، والحق ما أخبرك الله به"[6] وعبّر عنه (ابن عاشور) بقوله : "وإن كان قوله تعالى : (وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ) إخبار من الله عن مدة لبثهم يكون قوله : (قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ) قطعاً للمماراة في مدة لبثهم المختلف فيها بين أهل الكتاب "[7] وعلى هذا المعنى فالمعطوف عليه عند الزمخشري هو قوله تعالى : ﴿ فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ فِي ٱلۡكَهۡفِ سِنِينَ عَدَدٗا ﴾[8] وأن هذا المعطوف بيان لما أُجمل فيها[9] .

---

[1] سورة الذاريات:الآية ٣٨.

[2] سورة الذاريات:الآية ٢٠.

[3] سورة الذاريات:الآية ٣٧.

[4] انظر الكشاف :ج٤ ، ص٤٠٦ . وقد عاب عليه ذلك ابن هشام في موضعين . هذا أحدهما ، والآخر أنه عطف قوله تعالى : (فاستفتهم ألربك البنات...)الآية [الصافات :١٤٩]على قوله : (فاستفتهم أهم أشد خلقاً) مع بعد المسافة بين الآيتين. [انظر مغني اللبيب : ص٧١٢]والظن بالزمخشري أنه يريد عطف الخطاب على الخطاب المماثل أول السورة من ناحية توالي أغراض السورة فبعد القصص والنذارة ناسب أن يعيد ما تقدم أول السورة . لا العطف بمعناه النحوي .

[5] سورة الكهف:الآيتين ٢٥، ٢٦.

[6] الكشاف : ج : ٢ ، ص٦٦٩.

[7] التحرير والتنوير : ج ١٥، ص٥٢.

[8] سورة الكهف:الآية ١١.

[9] الكشاف : ج ٢،ص٦٦٩.

أمـا (ابن عاشور) فقد جوز أن يكون هذا العطف من باب ((العطف على القصة كلـها . والتقدير: وكذلك أعثرنا عليهم إلى آخره ، وهم لبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنة وتسع سنين))[1] .

- الوجـه الثاني : أن الآية ليس فيها إخبار عن مدة لبثهم وإنما هي : حكاية لكلام أهل الكتاب ولذلك تكـون جملـة (وَلَبِثُوا) عطفاً على مقولـهم في قولـه : ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ ﴾[2] أي ويقولـون: لبـثوا في كهفهـم ، لـيكون موقع قولـه : (قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ) كموقع قولـه السـابق : ﴿ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم ﴾[3] أي ليكون قولـه تعالى : (قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ) ردّ علـيهم[4] تفويضـاً إلى اللـه في علم ذلك [5] . وهذا الوجه حكاه الزمخشري عن قتادة ، ونسبه ابن عطـية إليه –أيضاً– واحتجا لـه بقراءة عبد اللـه ابن مسعود : (وقالوا لبثوا في كهفهم) ، وقد ردّ ابـن عطية على من زعم أن هذا الكلام ليس خبراً من اللـه –كالطبري وغيره– لأنهم استشكلوا أن يـبنى عليه قولـه تعـالى: (قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ) فقال : ((أين ذهب بهذا القائل وما الوجه المفهوم الـبارع إلا أن تكون الآية خبراً عن لبثهم ، ثم قيل لمحمد (صلى اللـه عليه وسلم) : (قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ) بخبره ، هذا هو الحق من عالم الغيب ، فليزل اختلافكم أيها المتخرصون))[6] .

والغريـب أن (ابـن عاشـور) يعتد بالوجه الثاني في تفسير العطف ، ولذلك جعلـه في التفسير الوجه الأول، مع إدراكه أن الذي وقع فيه بعض المفسرين في تفسيرهم قول اللـه تعالى : (قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ...) بعد الإخبار عن مدة بقائهم في الكهف مشكلٌ ، حيث قال الطبري : ((كان أن أهل الكتاب قالوا فيما ذكر على عهد رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم أن للفتية من لدن دخلوا الكهف إلى يومنا ثلاثمائة سنين وتسع سنين فرد اللـه ذلك عليهم وأخبر نبيه أن ذلك قدر لبثهم في الكهف))[7] وهذا يعني أن الخلاف الذي جاء من أجلـه الأمر بتفويض الأمر إلى اللـه – حسب الوجه الثاني– خلاف في مدة لبثهم بعد الإفاقة ، وهناك من قـال إن

---

[1] ابن عاشور : التحرير والتنوير : ج ١٥،ص ٥١.

[2] سورة الكهف:الآية ٢٢.

[3] سورة الكهف:الآية ٢٢.

[4] انظر : الكشاف : ج ٢،ص٦٦٩.

[5] التحرير والتنوير : ج١٥ ، ص٥٢.

[6] المحرر الوجيز : ص١١٨٦، ١١٨٧.

[7] تفسير الطبري : ج ١٥، ص٢٣١.

الخلاف كان في الزيادة من قولـــه تعالى : ﴿ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴾[1] أهي أيام أم شهور أم سنوات كما حكى ذلك ابن عطية وردّه[2].

ولذلـــك فقـــد رجـــع (ابن عاشور) ليقول : ((ثم إن الظاهر أن القرآن أخبر بمدة لبث أهل الكتاب في كهفهـــم. وأن المراد لبثهم الأول قبل الإفاقة ، وهو المناسب لسبق الكلام على اللبث في قولـــه : ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْۖ... ﴾[3] ومـــع إشارته كذلك إلى الحكمة من التعبير عـــن التســـع الســـنين بالازدياد ، وأنها من علم القرآن وإعجازه الذي لم يكن لعموم العرب علم به[4] مع ذلك كلـــــه إلا إنه يجوِّز أن يكون العطف على مقولة أهل الكتاب في العدة ، ليعطف عليه الخلاف في المدة أخذاً من تقـــابل أمـــر اللـــــه الأول ﴿ قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم ﴾[5] مع قولـــه : (قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ) مع وجود اعتراض بين قولـــه تعالى: (سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ...)الآية ، التي فيها ذكر العِدّة ، وهذه الآية التي فيها ذكر المدة بقولـــه: ﴿ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ ...﴾ إلى قولـــه : ﴿ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴾[6] فهو اعتراض قبل نهاية الحديث عن أهل الكهف ، ليكون الإخبار عن مدة بقائهم في الكهف بهذه الدقة الحسابية إعجازاً متفرداً بذاته كشف اللـــه عنه ، وأخفى تحديد عددهم لكون ذلك كان أثناء حكاية اختلاف بني إسرائيل وغيرهـــم في عددهـــم . ولا حجـــة في إيرادهم قراءة عبداللـــه ابن مسعود أو بما ورد في مصحفه من قولـــه : (وقالوا لبثوا) فلعلـــها قراءة تفسيرية ، فكان الوجه الأنسب أن يكون العطف كما فسره الزمخشري بياناً لإجمال مـــا في قولـــه تعـــــالى : ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِي ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾[7] جيء به على صورة العطف لـــيكون كلاماً مستقلاً بذاته ، للاهتمام الحاصل عند جميع الطوائف بمعرفة مدة بقائهم في الكهف ، أو على وجه العطف على القصة كما أشار إلى ذلك (ابن عاشور) نفسه .

---

[1] سورة الكهف:الآية ٢٥.

[2] انظر المحرر الوجيز : ص ١١٨٧.

[3] سورة الكهف:الآية ١٩.

[4] هـــذه الزيادة نقلـــها ابن عاشور عن ابن عطية الذي قال : ((حكى النقاش ما معناه أنهم لبثوا ثلاثمائة سنة شمسية بحساب الأمم ، فلما كان الإخبار هنا للنبي العربي (صلى اللـــه عليه وسلم) ذكرت التسع إذ المفهوم عنده من السنين القمرية ، فهذه الزيادة هي ما بين الحسابين)) [المحرر الوجيز : ص ١١٧٨]قال ابن عاشور: ((فالتفاوت بين أيام السنة القمرية وأيام السنة الشمسية يحصل منه سنة قمرية كاملة في كل ثلاثة وثلاثين سنة شمسية فيكون التفاوت في مائة سنة شمسية ثلاث سنين زائدة قمرية)). [التحرير والتنوير : ج ١٥،ص٥١].

[5] سورة الكهف:الآية ٢٢.

[6] سورة الكهف:الآيات٢٢-٢٤.

[7] سورة الكهف:الآية ١١.

إن الذي دعانا إلى كل هذه الاستطرادات هو الإحاطة بجميع ما ترتب عليه الخلاف في تفسير العطف في هذه الآية الكريمة ، للدلالة على أن المفسّر حين يوفق في اختيار الوجه الأنسب لتفسير العطف يعين القارئ على تصور المعاني ، ويكشف لـه أبواباً من أسرار الإعجاز في كتاب اللـه تزيده يقيناً إلى يقين.

ولئن عذر (ابن عاشور) في إشارته لكل الأوجه التي احتملها العطف في هذه الآية ، فإنه لا يعذر بتقديمه وجهاً يمكن أن يكون تاليه أقوى منه في الدلالة على المعنى المناسب في تفسير العطف ،اللـهم إلا إن حدد الأولى منهما بالتقديم والاحتفال وهو ما لم يحصل في هذا الموضع .

ولكن (ابن عاشور) لا يسلك هذا المنحى في مواضع أخرى في القرآن ، وإنما يرجح معتمداً على مراعاة معنى حرف العطف ومعنى الآيات واتصال المعطوف عليه ، ومن ذلك تفسير معنى العطف بـ(ثم) وبيان المعطوف عليه في قولـه تعالى : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۞ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِيٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾[1] فإن المفسرين قديماً قد اختلفت عباراتهم في تفسير معنى العطف ، ووظيفة حرف العطف ، وبيان المعطوف عليه ، يقول الزمخشري : "فإن قلت: علام عطف قولـه : (ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ)؟ قلتُ : على (وَصَّىٰكُم بِهِۦ) فإن قلت : كيف صح عطفه عليه بثم – والإيتاء قبل التوصية بدهر طويل ؟ قلت : هذه التوصية قديمة ، لم تزل توصاها كل أمة ... ثم أعظم من ذلك أنّا (ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ) وأنزلنا هذا الكتاب المبارك – وقيل : هو معطوف على ما تقدم قبل شطر السورة من قولـه تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾[2]"[3] والوجه الثاني بعيد كما نبه عليه ابن هشام[4] لأن ثمّ لترتيب الإخبار لا لترتيب الزمان في هذا الموضع على الأرجح .

أما الوجه الأول : فإن الزمخشري لم يبين وجه هذا البعد التعظيمي ، الذي أفادته (ثمّ) اللـهم إلا من باب جعل الوصايا السابقة في رتبة تلي رتبة ما يليها . أما ابن عطية فقد بيّن معنى المهلة في الترتيب التي أفادها العطف بثم فقال : "(ثم) في هذه الآية إنما مهلتها ترتيب القول الذي أمر به محمد (صلى اللـه عليه وسلم) كأنه قال : ثم مما وصيناه أنّا آتينا موسى الكتاب ، ويدعو لذلك أن موسى (عليه السلام) متقدم في الزمان على محمد (صلى اللـه عليه وسلم) وتلاوته ما حرم اللـه "[5] ولكن إفادة (ثم) ترتيب القول هنا لا يتضح معها ما تفيده (ثم) في ترتيبها الإخبار من ميزة للإخبار بما بعدها على ما قبلها، لأن "إفادة التراخي الرتبي هو المعتبر في عطف

---

[1] سورة الأنعام:الآيتان ١٥٣، ١٥٤.

[2] سورة الأنعام:الآية ٨٤.

[3] الكشاف : ج ٢ ص٧٦، ٧٧.

[4] مغني اللبيب : ص٧١٣ . وقد أشار ابن هشام أن الآية عطف على (ذلكم وصاكم به) وهو الوجه الأول للزمخشري .

[5] المحرر الوجيز : ص ٦٧٧.

(ثمّ) لـلجمل ســواءً وافقت الترتيب الوجودي مع ذلك أو كان معطوفها متقدماً في الوجود»[1] ولأنها تأتي على المحصـلة عموماً فقد«جاءت لترتيب الأخبار لا لترتيب المخبر عنه ، كقولـه تعالى : ﴿ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴾[2]»[3] وقد قرر (ابن عاشور) ابتداءً أن (ثمّ) هنا عاطفة على جملة : ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ ﴾[4] أو على جملة: (ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ) كما يفيده كلام الزمخشري ، وابن عطية ، وابن هشام .

ثم وضح (ابن عاشور) أن تعدد آراء المفسرين في بيان معنى التراخي الرتبي الذي تفيده (ثمّ) في هذه الآية يعـود إلى «أن إتيان موسى (عليه السلام) الكتاب ليس برتبة أهم من رتبة تلاوة ما حرمه اللـه من المحرمات وما فرضـه من اتباع صراط الإسلام »[5] ولم يتعرض إلى إشارة الزمخشري للترابط بين إتيان موسى الكتاب وإنـزال الكتاب المبارك ، ومع أن الزمخشري لم يوضح معنى تراخي رتبة هذين الأمرين عن رتبة ما قبلـهما[6] إلا إنها تمثل كمـا سـنرى سـر انقداح الرأي الذي خرج به (ابن عاشور) وعبّر عنه بقولـه: «والوجه عندي : أن (ثمّ) ما فارقت المعروف من إفادة التراخي الرتبي ، وأن تراخي رتبة إيتاء موسى (عليه السلام) عن تلاوة ما حرم اللـه في القـرآن، ومـا أمـر به من ملازمة صراط الإسلام ، إنما يظهر بعد النظر إلى المقصود من نظم الكلام ، فإن المقصود من إيتاء موسى (عليه السلام) الكتاب ليس لذاته بل هو تمهيدٌ لقولـه: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ ﴾[7] ليرتب عليه قولـه : ﴿ أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ۞ أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾[8] فمعـنى الكـلام : وفـوق ذلك فهذا كتاب أنـزلناه مبارك جمع فيه ما أوتيه موسى (عليه السلام) ... وما في القرآن»[9].

ويتضـح من هذا البيان أن المعطوف عليه –في وجهة نظر (ابن عاشور)– مجموع المأمور به في قولـه: ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ ﴾ وأن المعطـوف في المعنى قولـه تعالى: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ ﴾[10] وما بعده هو الذي

---

[1] ابن عاشور : التحرير والتنوير : ج1،ص378 .

[2] سورة يونس:الآية 46.

[3] أبو البقاء العكبري : اللباب في علل البناء والإعراب ، ج1،ص422.

[4] من قولـه تعالى : (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً ...) الآية ، سورة الأنعام:الآية 151.

[5] التحرير والتنوير : ج 7،ص130، 131.

[6] وذلك لأنه ينظر إلى الآيات في غرض واحد بحكم كون الآيات الثلاث المفتتحة بقولـه : (قل تعالوا) وصايا موجودة في الكتب السابقة ومنها التوراة واستدل على ذلك ببعض الآثار عن كعب الأحبار وعن ابن عباس [انظر الكشاف : ج 2 ، ص76]وقد توسع في مقارنة ذلك البقاعي في نظم الدرر :ج2، ص744 وما بعدها .

[7] سورة الأنعام:الآية 92.

[8] سورة الأنعام:الآيتان 156، 157.

[9] التحرير والتنوير : ج 7 ، ص131.

[10] سورة الأنعام:الآية 92.

قـــدم لـــه بقولـــه : (ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ) والقرآن مصدق لما بين يديه ومهيمن عليه « فهذا غرض أهمّ جمعاً لاتّباع جميع ما اشتمل عليه القرآن وأدخل في إقناع المخاطبين بعزية أخذهم بهذا الكتاب»[1] .

إذاً فـــابن عاشـــور نظر إلى أن التراخي الرتبي المجازي الذي يترتب عليه أن ما بعد (ثمّ) أهم في الرتبة مما قبـــلها ، هو مجموع الآيات التي يقصد فيها إقناع المخاطبين بأنه لا عذر لهم في التخلف عن الإيمان – وهو غرض أهم مما قبله– وبذلك اتسع ما كان ضيقاً في عبارة المفسرين عن معنى التراخي الرتبي في هذه الآية[2].

[1] ابن عاشور : التحرير والتنوير : ج ٧،ص١٣١.

[2] من اللطائف التي يذكرها برهان الدين البقاعي في سر العطف بثم في هذا الموضع اعتماداً على حقيقتها لا على المجاز : أن الآيات الثلاث المفتتحة بقولـــه: (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ...) مشتملة على الوصايا العشر التي هي أول ما كتبه الله لموسى (عليه السلام) ثم بعد ذلك فصل لـــه الشرائع فناسب أن يقـــال بعدهـــا في القرآن : (ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على الذي أحسن وتفصيلاً لكل شيء) وفيه كما يقول البقاعي : «علم من أعلام النبوة ، وهو الاطلاع على أن العشر الآيات وتحريم ما حرم عليهم بالبغي في أوائل ما أوحي إلى موسى (عليه السلام) ثم جاء التفصيل . لذلك كانت (ثم) لإفادة الترتيب الرتبي والزمني معاً ، وهي معطوفة عنده على قولـــه تعالى: (وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر)[سورة الأنعام : آية ١٤٦]».[انظر: نظم الدرر :ج٢ ، ص٧٤٤].

٢- الإحالة :

❑ مفهوم الإحالة ووظيفتها :

الإحالة هي الإقبال على الشيء والميل إليه ، يقال : ((أحال الغريم : زجاه عنه إلى غريم آخر ، والاسم الحوالة كسحابة))[١] والحول : الحركة ((يقال : حال الشخص يحول إذا تحرك ... وفي حديث خيبر : "فحالوا إلى الحصن" أي تحولوا . ويروى أحالوا . أي أقبلوا عليه ... وفي حديث آخر " فجعلوا يضحكون ويحيل بعضهم على بعض " أي يقبل عليه ويميل إليه))[٢] فالإحالة على هذه المعاني تكون بالإقبال على الشيء والميل إليه .

ويكون الإقبال على الشيء والميل إليه في الكلام من أجل الربط اللغوي والدلالي ، لأن الربط إما أن يكون بالإحالة أو بالمطابقة أو بالأداة ، لذلك فالمقصود بالإحالة : ((أن يشتمل اللاحق على ما يشير إلى السابق، وذلك بإعادة ذكره ، أو إعادة معناه ، أو الإضمار له ، أو بالإشارة إليه ، أو وصفه بموصول أو صفة ، أو إلحاقه بالألف واللام نيابة عن ذلك))[٣] وقد عبر بعض الباحثين عن الربط بواسطة الإحالة بمصطلح (المرجعية)[٤] ولا فرق بين المصطلحين ، ومصطلح الإحالة أكثر شيوعاً .

وأهم وسائل الإحالة التي حضيت بعناية الباحثين في اللسانيات وعلم اللغة النصي الإحالة بالضمائر والإشارة والموصول ، التي أدرجها تمام حسان جميعاً تحت مصطلح الضمير وصنفها إلى ضمائر شخصية ، وضمائر إشارية ، وضمائر الموصول[٥] .

وقد قسمت الإحالة حسب وظيفتها إلى : ((نوعين رئيسين : الإحالة المقامية ، والإحالة النصية ، وتتفرع الثانية إلى إحالة قبلية ، وإحالة بعدية))[٦] .

ويعنون بالإحالة المقامية الإحالة على خارج النص أي على سياقه الخارجي والملابسات المحيطة به ، أما الإحالة الداخلية فتعني الإحالة على مذكور في النص متقدماً أو متأخراً .

وما يهمنا حسب أهميته هنا هو الإحالة الضميرية ثم الإحالة بالإشارة والموصول ، لأنها أهم وسائل الإحالة، حيث يمكن بواسطتها تحقيق ربط أجزاء النص دون حاجة لإعادة ذكره ((فعودها إلى مرجع يغني عن تكرار لفظ ما رجعت إليه ، ومن هنا تؤدي إلى تماسك أطراف الجملة))[٧] كما تحقق وسائل الإحالة عن طريق المقابلة المطابقة بين لفظها ومعادها تتابع المعاني في الجمل بما لا يترك للبس مجالاً .

---

[١] الفيروز أبادي : القاموس المحيط ، ص١٢٧٨. مادة حَوَلَ .

[٢] ابن الأثير مجد الدين بن محمد الجزري : النهاية في غريب الحديث ، تحقيق محمود محمد الطناحي وطاهر الزاوي ، دار إحياء التراث العربي - بيروت ، (د.ت. ط) ،ج١ ،ص٤٦٣.

[٣] تمام حسان : البيان في روائع القرآن : ص٢٢٩.

[٤] صبحي إبراهيم : علم اللغة النصي ، ص٣٩.وكلها ترجمة للمصطلح الإنجليزي (Referencc).

[٥] انظر : اللغة معناها ومبناها ، ص١١٣.

[٦] محمد خطابي : لسانيات النص ،ص١٧.

[٧] تمام حسان : اللغة معناها ومبناها ، ص١١٣.

ولكن هذه الوسائل لا تحيل إلى مرجعها إلا بقرائن ، فالضمائر وأسماء الإشارة ، وأسماء الموصول تشترك في طـــابع واحـــد هو الدلالة على غائب أو حاضر ((فضمائر المتكلم والمخاطب والإشارة قرينتها الحضور ، وأما ضـــمير الغائب فقرينته المرجع المتقدم إما لفظاً أو رتبة أو هما معاً ، فهذا المرجع هو القرينة التي تدل على المقصود بضمير الغائب ، وأما الموصول فقرينته جملة الصلة التي تشرح المقصود به))[1] .

ويكفـــي لفهم هذا أن نقرأ لسيبويه قولـــه : ((وإنما صار الإضمار معرفة لأنك إنما تضمر اسماً بعدما تعلم أن من يُحدَّث قد عرف من تعني وما تعني ، وأنك تريد شيئاً يعلمه))[2] .

وبناءً على التحديد السابق لمفهوم الإحالة وأنواعها فإننا سنتتبع مواضع حديث (ابن عاشور) عن وظيفة الربط بالضمير والإشارة والموصول – كلاً على حدة – وما تحقق بواسطة ذلك من انسجام في النص القرآني.

❑ الإحالة بالضمير :

الضـــمير مـــن أضـــمر الشيء بمعنى ((أخفاه ، فهو بمعنى مفعول ، وأصل الإضمار الستر[3] ومنه قول الأعشى[4] :

أيا أبتي لا ترمْ عندنـــــا ... فإنا بخير إذا لم تـــــرم

ترانا إذا أضمرتك البــلا ... د نجفى وتقطع عنا الرحم

والضـــمير هو الاسم الذي يعود إلى ظاهر قبلـــه لفظاً أو تقديراً))[5] وهو أعرف المعارف عند سيبويه[6] ومن تابعه كأبي العباس المبرد[7] الذي قال : ((وكل ما كان الشيء أخص فهو أعرف . فأخص المعارف بعد ما يقع عليه القول إضمار المتكلم نحو : أنا ...))[8] .

كمـــا يعد الضمير أول الروابط العشرة التي ذكرها ابن هشام في حديثه عن الضمير الرابط لجملة الخبر عن المبتدأ ، وجعلـــه الأصل ، لأنه يربط به مذكوراً ومحذوفاً.

---

١ تمام حسان : اللغة معناها ومبناها ، ص١١٠

٢ الكتاب : ج٢ ،ص٦.

٣ انظر القاموس المحيط للفيروز أبادي : ص٥٥١.

٤ البيتان من قصيدة للأعشى ميمون بن قيس في مدح قيس بن معد يكرب في الديوان برقم (٥٢ ، ٥٤) ولفظها في الديوان :

أبانا فلا رِمتَ من عندنـــــا ... فإنا بخيرٍ إذا لم تَـــــرِمْ

ويا أبتا لا تزلْ عندنـــــا ... فإنا نخافُ بأن تُختَـــرم

أرانا إذا أضمَرَتكَ البـــــلا ... د نجفى وتقطع منا الرحم

أفي الطوفِ خِفتِ عليّ الردى؟ ... وكم منْ رَدِ أهلـــه لم يرم

قال شارحه محمد محمد حسين : تقول ابنتي وقد عزمت على الرحيل : أقم ولا تبرح ، فإنا بخير ما دمت مقيماً ، فإذا أضمرتك البلاد جفانا الناس، وقطعتنا الرحم ، فقلت لـــها : أمن الأسفار تخافين عليّ الموت ؟ وكم ميت مات في فراشه لم يبرح بلده .[انظر الديوان : ص٩١].

٥ أبو البقاء العكبري : اللباب في علل البناء والإعراب ، ج١ ،ص٤٧٤.

٦ انظر كتاب سيبويه : ج٢،ص٥.

٧ هو أبو العباس محمد بن يزيد النحوي المعروف بالمبرد: صاحب الكامل، توفي (٢٨٦هـــ).

٨ المقتضب : تحقيق محمد عبدالخالق عظيمة ، عالم الكتب، بيروت ، (د.ت) ج٤ ، ص٢٨١. وانظر في تفصيل مسألة الخلاف حول أعرف المعارف كتاب الإنصاف : لأبي البركات الأنباري ، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ، دار الفكر ، دمشق ، (د. ت) ، ج٢ ، ص٧٠٧.

فوظيفة الربط أول وظائفه . وقد أكد الباحثون دور الضمائر في تحقيق التماسك النصي وأشاروا إلى أن الضمائر تكتسب أهميتها بصفتها نائبة عن الأسماء والأفعال والعبارات والجمل المتتالية "فليست وظيفة الضمير هي الإحالة فقط أو التعويض عن الاسم الظاهر ، لكن تتعداها إلى كونه رابطاً يحقق التماسك النصي ، ومن ثمّ له أهميته القصوى في التحليل النصي"[1] .

وأما ما يؤديه الضمير بعد ذلك من وظائف أخر كالاستغناء به عن إعادة المذكور، أو الاقتصار بواسطته على معين من الكلام فإنها تأتي تبعاً لوظيفة الربط .

لذلك "فإن الضمائر – خاصة – منها ضمائر الغيبة ، تقوم بوظيفتين : استحضار عنصر متقدم في خطاب سابق ، أو استحضار مجموع خطاب سابق في خطاب لاحق"[2].

ولكن الوظيفة إنما تحدد بمعرفة اتجاه الكلام ، ولعل إضافتها إلى التكلم والخطاب والغيبة يشير إلى هذا "فيكون المتكلم بمثابة المرجع لضميره ، ويكون المخاطب كذلك ، أما ضمير الغيبة فيفتقر – في العادة – إلى مذكور يُعد مرجعاً له ، فلا يتضح معنى الضمير إلا بواسطة ذلك المرجع"[3] . لذلك يهتم النحاة بمعاد الضمير ومرجعه ، ولو أدى بهم ذلك إلى الرجوع إلى قرائن السياق ودلالات الجمل .

وقد ترتب على هذا أن يبحث المفسرون وشراح الدواوين الشعرية عن مرجع الضمير، وقربه أو بعده عنه ، وبحثوا كذلك تعدد احتمالات ما يصح أن يعود عليه الضمير ، وبينوا ضرورة صرف الضمير لجهة واحدة إن اقتضى ذلك السياق ، كما تعرضوا لتغيُّر صورة الضمير ووجهته في مبحث الالتفات ، ومبحث الاستخدام المجازي للضمائر .

وكل هذه المباحث وغيرها انعكست بجلاء في تفسير (ابن عاشور)، وهو ما يمكن أن يتجلى أمامنا في الصفحات القادمة .

ونجد من المفيد – ونحن ندرس أثر الضمائر في تحقيق الانسجام – أن نشير بداية إلى أن دراسة الإحالة بالضمائر تخضع لما يسمى بأدوار الكلام ؛ فالمعلوم أن الضمائر تخضع لقرائن الغيبة والحضور[4] وتنقسم أدوار الكلام على ذلك ، فالنوع الأول : ما يكون الكلام فيه خطاباً صادراً من متحدث إلى مخاطب واحد بعينه لا يحتمل معه غيره ، أو يحتمل ذلك بقرينة أو إلى عدة مخاطبين يخص كلاً منهم ما يناسبه أو إلى مخاطب غير معين، وهي أحوال يرجع في تحديدها إلى السياق ، وهذا النوع من الكلام هو الخطاب المباشر .

---

[1] صبحي إبراهيم : علم اللغة النصي ، ص١٤٨.

[2] محمد خطابي : لسانيات النَّصي ،ص١٧٥ .

[3] تمام حسان : البيان ،ص١١٩.

[4] ولذلك يقول ابن مالك في الألفية : فما لذي غيبة أو حضور كأنت ، وهو سم بالضمير
يقول ابن عقيل في الشرح : "يشير إلى أن الضمير : ما دلّ على غيبة كهو ، أو حضور ، وهو قسمان : أحدهما ضمير المخاطب ، نحو أنت ، والثاني ضمير المتكلم ، نحو أنا ". [انظر شرح ابن عقيل على ألفية بن مالك : ج١،ص٨٨].

وقد نبه الباحثون في لسانيات النَّص إلى أن الإحالة بضمائر الخطاب والتكلم هي إحالة لخارج النَّص وأن هذه الإحالة "لا تصبح إحالة داخل النَّص أي اتساقية إلا في الكلام المستشهد به ، أو في خطابات مكتوبة متنوعة مــن ضمنها الخطاب السردي ، وذلك لأن سياق الكلام في الخطاب السردي يتضمن سياقاً للإحالة ، وهو تخيل ينــبغي أن يبنى انطلاقاً من النَّص نفسه"[(١)] وهذا التنبيه هو إشارة لما يسمى بأدوار الكلام (**speech roles**) التي تحدد المتكلم والمخاطب ، فالإحالة بضميري المتكلم والمخاطب إحالة تفهم من سياق موقف التكلم والخطاب فتسمى إحالة مقامية لأن قرينتها الحضور، وهي ضرورية في تصور انسجام النَّص .

وأمــا النوع الثاني من الكلام : فهو الإخبار فيكون حديثاً عن غائب أو في حكم الغائب ، والأصل أن عود الضمير في هذه الحالة إلى مذكور (متحدث عنه أو في حكم المذكور) فإذا تعددت الجهات المتحدث عنها أو تداخلــت لزم العود على السياق ليرجع كل ضمير إلى ما يناسبه، فالإحالة بضمائر الغيبة هي إحالة داخل النَّص لأنها "تحيل قبلياً بشكل نمطي ؛ إذ تقوم بربط أجزاء النَّص وتصل بين أقسامه"[(٢)] أو تحيل إلى متأخر كما هو الحال في ضمير الشأن والقصة.

ولكــن قولــــهم إن ضمائر الغيبة هي الوحيدة من بين الضمائر التي تكون إحالتها داخلية أي نصية لا مقامــية، إنمــا يصدق على حالة ما إذا ذكر مرجع ضمير الغائب ، إذ كثيراً ما نجد مرجع بعض ضمائر الغيبية لا دليل عليه إلا من السياق الخارجي .

وبــناءً على هذا التقسيم لأدوار الكلام إلى تكلم وخطاب وغيبة نرى (ابن عاشور) يحرص على تحديد المرجع متحدثاً عنه أو متحدثاً إليه وسينبني حديثنا وفق ذلك الترتيب .

---

١ محمد خطابي : لسانيات النص ، ص١٨.

٢ المصدر نفسه : ص١٨ .

❑ الإحالة بضمائر المخاطب :

تندرج أهمية البحث في ضمائر الخطاب ومعادلها ضمن الأهمية التي أفرزها (ابن عاشور) وألزم نفسه بها في البحث عن المخاطبين وتحديدهم ، وإرجاع ضمائرهم إليهم ، إذ يساعد ذلك البحث قارئ القرآن بعد عصر التنزيل على تصور حالات الخطاب ، وتحديد المخاطبين ، ونبين ذلك على التفصيل بالآتي :

- مفهوم الخطاب عند ابن عاشور :

يبين (ابن عاشور) أن الخطاب «هو الكلام الموجه لحاضر لدى المتكلم أو كالحاضر ، المتضمن إخباراً أو طلباً أو إنشاء مدح أو ذم»[1].

وما دام الشرط العام في الضمير أن يعود على مرجع مذكور أو مفهوم ، وأن يتطابق معه -غالباً- في النوع والعدد فإن اشتراط تحديد نوع الحضور (حقيقياً كان أو مجازياً) يزيد من معرفة اتجاه الخطاب وتحديد وجهة الكلام .

ذلك أن الخروج على شرط المطابقة بين الضمير والمرجع إما أن يتم على صورة الالتفات، أو على صورة ما يسمى بخطاب التلوين وهو من الالتفات -أيضاً- عند كثير من الباحثين وحقيقته : «الانتقال من خطاب الواحد والاثنين والجمع إلى خطاب آخر»[2] ومن صوره الانتقال من الاثنين إلى الجمع . ومن شواهده قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[3] حيث خوطب موسى وهارون بضمير التثنية (تَبَوَّءَا) وخاطبهم مع قومهم بضمائر الجمع (وَٱجْعَلُواْ - وَأَقِيمُوا) ثم خاطب موسى وحده فقال : (وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ)[4]. وأما الخروج على شرط العود على مخاطب (حاضر أو في حكم الحاضر) فيتم على صورة الخطاب العام الذي يوجه إلى غير معين فيشمل السامع في كل عصر ، لإشراكه في الحوار ، وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ...﴾الآية[5].

---

1 التحرير والتنوير : ج ٣٠،ص٤٥.

2 الزركشي : البرهان ،ج٣،ص٣٣٤ .

3 سورة يونس:الآية ٨٧.

٤ ومن صور خطاب التلوين الأخرى التي أوردها الزركشي :

١- الانتقال من خطاب الواحد لخطاب الاثنين ، كقوله تعالى : (أجئتنا لتلفتنا عمّا وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء في الأرض ...)[يونس:٧٨].

٢- الانتقال من خطاب الواحد إلى خطاب الجمع ، كقوله تعالى : (يا أيها النبيُّ إذا طلقتم النساء...)[الطلاق :١٠].

٣- الانتقال من خطاب الاثنين إلى الواحد ، كقوله تعالى : (قال فمن ربكما يا موسى)[طه:٤٩].

٤- الانتقال من خطاب الجمع إلى الواحد ، كقوله تعالى : (وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين)[يونس : ٨٧].

٥- الانتقال من خطاب الجمع إلى التثنية ، كقوله تعالى : (يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا ...) إلى قوله : (فبأي آلاء ربكما تكذبان)[الرحمن : ٣٣-٣٤]. [انظر البرهان : ج٣،ص٣٣٤- ٣٣٧].

5 سورة السجدة:الآية ١٢. وقد ورد في الحديث الشريف هذا اللون من الخطاب، مثل قوله صلى الله عليه وسلم: (بشروا المشائين في الظلم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة) [أورده النووي في رياض الصالحين برقم: ١٠٥٩].

وقـد وضح (ابن عاشور) كل صورة من صور عود ضمائر الخطاب ما كان منها على الأصل وما خرج عنه لمقتضيات بلاغية أو مطالب أسلوبية ، ويمكن أن يتضح ذلك في الآتي:

- عود ضمائر الخطاب إلى مرجع متقدم :

في سـورة البقرة يقول تعالى : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَـٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[1] يحـدد (ابـن عاشور) مرجع ضمير الخطاب بناءً على تصور مناسبة الآية لما قبلـها، فأقـرب المخاطبين هم من جاءت الآيتان السابقتان على هذه الآية لتدحض مقالاتهم وهم الموصوفون بالفسـق وبنقض العهود في قولـه تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾[2] وهؤلاء هم اليهود كما حكت الروايات التي استشهد بها (ابن عاشور) في بيان سبب نـزول قولـه تعالى : (إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ...) الآية ، فإذا أجريت ضمائر الخطاب في قولـه : (كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ ...)الآية ، على ما تصدق عليه أوصاف "الفاسقين – الذين ينقضون عهد اللـه – يقطعون ما أمر اللـه به أن يوصـل – يفسدون في الأرض" – وهي كما نرى ضمائر غيبة – كان في تحول الضمير وبقاء دلالته على من تقـدم صـورة مـن صور الالتفات، ولكن يناكده أن الأوصاف الجديدة في قولـه تعالى: (كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ ...) الآيـة، وهي "الكفر باللـه – وإنكار الإحياء الثاني " لا تتطابق مع معاد الضمائر في الآيتين المتقدمتين المتحدثة عن اليهود حسب ما أورده (ابن عاشور) ، لأنهم يؤمنون باللـه ولا ينكرون البعث .

ولتأكـيد انصـراف معاد الضمائر إلى اليهود في الآيات بدءاً من قولـه تعالى : (إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا ...) إلى قولـه : (...أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ) يقول (ابن عاشور): "وكون القائلين هم اليهود هـو الموافـق بأن السورة نـزلت بالمدينة[3] ... ولأنه الأوفق بقولـه تعالى : (وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ ۝

---

[1] سورة البقرة:الآية ٢٨.

[2] سورة البقرة:الآيتان ٢٦، ٢٧.

[3] ولكن هذا ليس على إطلاقه فقد بقي القرآن يردّ على مزاعم المشركين في آيات كثيرة نـزلت في المدينة ، ولعلّ افتتاح سورة البقرة بحروف التهجي يشهد لذلك ، وهو ما تنبه لـه ابن عاشور في نهاية الأقوال التي أوردها .

ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ...)الآية ، وهذه صفة اليهود"[1]. لـهذا يختار (ابن عاشور) أن يجعل الخطاب في قوله تعالى : (كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ ...)الآية ، موجهاً إلى من خاطبهم اللـه قبل هذه الآيات في قولـه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[2] يقـول (ابن عاشـور) : "قولـه تعالى : (كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ ...)الآية ، ثنى عنان الخطاب للناس الذين خوطبوا بقولـه آنفاً : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ...)الآية ، بعد أن عقب بأفانين من الجمل المعترضة من قولـه : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ...﴾ إلى قولـه: ﴿ ...وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾[3] ... وليس في قولـه : (كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ ...)الآيـة ، تناسب مع قولـه: (إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا...) وما بعده مما حكي عن الذين كفـروا ... حـتى يكـون الانتقال إلى الخطاب في قولـه : (تَكْفُرُونَ) التفاتاً ... فالخطاب في قولـه : (تَكْفُرُونَ) مـتعين رجوعـه إلى (الـناس) وهم المشركون، لأن اليهود لم يكفروا باللـه ولا أنكروا الإحياء الثاني"[4] فالاعـتراض المتخلل بين الخطابين لم يحل دون تصور وحدة المخاطبين بقولـه : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ...) وقولـه : (كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ ...) وقـد احتاج (ابن عاشور) لإثبات هذا أن يفسر انسجام الضـمائر والأوصـاف حتى يتضح الخطاب في الآيات ، ثم انتبه (ابن عاشور) لورود وصف الكافرين في مواضع أُخـر من القرآن بأنهم ينقضون عهد اللـه كما في قولـه تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾[5] إلا أنه لم يسـلم بـرأي من جعل قولـه تعالى : (كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ ...)الآية، منصباً على المشركين وحدهم ، ولو وصـفوا بهذه الصفات فإن اليهود والمشركين يدخلون جميعاً تحت الخطاب العام لقولـه تعالى : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ...) .

وإذا كنا قد أطلنا في بيان (ابن عاشور) معاد ضمائر الغيبة فما ذلك إلا لبيان صورة الإشكال الذي يقع فـيه من جعل الخطاب في قولـه تعالى : (كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ ...)الآية ، من باب الالتفات أمثال الزمخشري الذي فتح الباب أمام الاحتمالات في تفسير العهد والناقضين لـه في قولـه تعالى : (وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ)

---

[1] التحرير والتنوير : ج ١،ص٣٥٣.

[2] سورة البقرة:الآية٢١.

[3] سورة البقرة:الآيات ٢٥- ٢٧.

[4] التحرير والتنوير : ج ١،ص٣٦٨،٣٦٧.

[5] سورة الرعد:الآية ٢٥.

الآيـة ، حيـث يقـول : ((والمـراد بهؤلاء الناقضين لعهد اللـه أحبار اليهود المتعنتون أو منافقوهم أو الكفار جميعاً))[1].

وكذلـك فعل ابن عطية حيث لم يقبل أن يكون المراد بقولـه تعالى : (ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ...) الآية ، خصوص أهل الكتاب بل قال : ((وظاهر ما قبل وبعد أنها في جميع الكفار))[2] .

وظاهـر كلام البقاعي وشيخه الحرالي أن الآيات السابقة في المشركين خصوصاً لا في عموم الكفار وأن الخطـاب في قولـه تعالى : (كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ ...)الآية ، التفات متسق مضمونه مع ما قبلـه من بداية قولـه تعالى : (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ...)الآية ، يقول البقاعي : ((ولما دعى سبحانه إلى التوحيد ، ودل عليه، وأنذر من أعرض ، وبشر من أقبل ، وذَكَرَ حال الفريقين في قبول الأدلة التي زبدها الأمثال وإبائها التفت إلى تبكيـت المدبـر لعلـه يستبصر ... وما أبدع افتتاح ذلك عقب "الخاسرين" بقولـه على طريق التفات المغضب المستعطف المعجب : (كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ ...)الآية))[3] .

وبعـد هذا كلـه فالأقرب للقبول هو ما أشار إليه (ابن عاشور) من كون الخطاب في قولـه : (كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ ...)الآيـة ، راجـع إلى من خوطبوا بقولـه : (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ...)الآية، لا كما أجـراه البقاعي وغيره إلى من حكى القرآن عنهم في الآيات المعترضة من قولـه تعالى : (إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا...) إلى قولـه : (أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ) وهذا من الدقة في تفسير معاد الضمائر ، وبيان ما تحيل إليه من خطاب سابق بينها وبينه عدد من الآيات ورجوع (ابن عاشور) إلى مناسبة الآية لما قبلـها هو الذي أوصلـه إلى هذا الاختيار .

- توزيع ضمائر الخطاب بين مخاطبين :

اشـتملت سـورة الـبقرة على عدد من الخطابات التي ساقها القرآن في معرض تذكيره لبني إسرائيل الحاضـرين وقت نـزول القرآن بما أجراه على أسلافهم من النعم ، وكان بعض هذه الخطابات موجهاً إلى السـلف وبعضـها الآخـر موجهاً إليهم وقد تداخلت ضمائر الخطاب بصورة أشكلت على بعض المفسرين ، حتى نـزل الخلف في بعض المواضع منـزلة السلف في صلاحية مواجهتهم بالخطاب ، وجعل صـور الـتغير في الضـمير نوعاً من الالتفات ، كما أن بعض المفسرين عمد إلى جعل الخطابات جميعها مـتوافقة ، وأنها موجهة كلـها إلى السلف مع وجود قرائن تمنع من ذلك . ولتوضيح هذا الأمر نسرد الأمثلة الآتية :

---

[1] الكشاف : ج ١ ،ص١٤٩.

[2] المحرر الوجيز : ص ٦٨.

[3] نظم الدرر : ج١ ،ص٧٩.

أ- يقـــول تعـــالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴾[1] يقرر (ابن عاشور) أن ما ذكر في هذه الآية من أحوال بني إسرائيل قد اتصف به السـلف والخلف ، وقد عدل عن الأسلوب السابق الواقع فيه التعبير بضمير الخطاب إلى إظهار لفظ بني إسرائيل لـيجري عـلى ما سبق الافتتاح به بواسطة (إذ) في محاورة جديدة ولأن ضمائر الخطاب السابقة تحتمل السلف والخلـف ، ولـهذا "تعين أن يعبر عن سلفهم باللفظ الصريح ليتأتى توجيه الخطاب من بعد ذلك إلى المخاطبين حـتى لا يظن أنه من الخطاب الذي أريد به أسلافهم على وزان ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ ...﴾ الآية[2] أو عـلى وزان: ﴿ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ ...﴾ الآيـة[3] ... والمراد بالخطاب في (تَوَلَّيْتُمْ) خصوص من بعدهم لأنهـم الذي تولوا ، فليس في الكلام التفات ما ، وهو أولى من جعل ما صَدَق (بني إسرائيل) هو ما صـدق ضـمير (تَوَلَّيْتُمْ) وأن الكـلام الـتفات"[4] ثم قال بعد ذلك : "وقولـه: (ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ) خطـاب للحاضرين ... والمعنى أخذ ميثاق الأمة الإسرائيلية على التوحيد وأصول الإحسان فكنتم ممن تولى عن ذلـك وعصـيتم شـرعاً اتبعتموه"[5] وقد جعل بعض المفسرين المخاطب في الآية واحداً حيث عبر عنه بالاسم الظاهر (بني إسرائيل) لأن الاسم الظاهر في حكم الغائب ، ثم وجه إليه الخطاب بقولـه : (ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ) فيكون هـذا التفاتاً ، ومن هؤلاء المفسرين الزمخشري إذ يقول : "(ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ) على طريقة الالتفات ، أي توليتم عن الميثاق ورفضتموه (إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ) قيل : هم الذين أسلموا منهم"[6] والوجه الذي اختاره ابن عاشور في تعدد المخاطبين أقوى ، لأن غرض الآية استدعاء الحالة الماضية بواسطة التذكير بها أولاً وحكاية ما خوطب به أسلاف بـني إسـرائيل ، عـلى اخـتلاف القـراءة بالتاء أو الياء (خطاباً أو حكاية) في قولـه : (لَا تَعْبُدُونَ) يقول الزمخشري: "وقرئ بالتاء حكاية لما خوطبوا به ، وبالياء لأنه غيب"[7] لأن الظاهر أنه لم يكن غرض الآية حكاية الـتزامهم بهـذا الميثاق من عدمه ، ثم لمّا توجه الخطاب إلى السلف كان الغرض -واللـه أعلم- الإنحاء عليهم بالملامـة بمخالفة أسلافهم . ويتجه هذا بصورة أكبر إذا سلكنا في توجيه ضمير(ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ) ما سلكه ابن عطية،

---

[1] سورة البقرة:الآية ٨٣.

[2] سورة البقرة:الآية ٤٩.

[3] سورة البقرة:الآية ٥١.

[4] التحرير والتنوير : ج ١ ، ص٥٦٤.

[5] المصدر نفسه : ج ١،ص٥٦٥.

[6] الكشاف : ج ١ ، ص١٨٧.

[7] المصدر نفسه : ج١،ص١٨٧ . وقد قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي (لا يعبدون) بالياء من أسفل ، قرأ الباقون بالتاء من فوق ، وقرأ أبي بن كعب وابن مسعود (لا تعبدوا) على النهي . [انظر : مكي بن أبي طالب الكشف عن وجوه القراءات : ج١،ص٢٤٩].

إذ يقول : ((وقولـــه : (ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ) خطاب لمعاصري محمد (صلى اللـــه عليه وسلم) أسند إليهم تولي أسلافهم إذ هم كلـــهم بتلك السبيل . قال نحوه ابن عباس وغيره))[1] .

وهـــذا غـــير الخطاب المعتمد على الضمير المسند مجازاً إلى من ليس صالحاً في الحقيقة أن يكون منه فعل مخاطـــب بـــه ، فإن خطاب المجاز الذي على هذا السبيل يكون معاد الضمير على من أسند إليه الفعل قائماً على سـبيل الـتجوز . وذلك نحو قولـــه تعالى : ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾[2] فـإن هذا الخطاب مراد منه تذكير الخلف بالمنة التي وقعت على السلف ، لـهذا فإن (ابن عاشور) ينـبه على معنى إسناد النظر للذرية في قولـــه تعالى : (وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ) فيقول : ((وإسناد النظر إليهم باعتبار أن أســلافهم كــانوا ناظرين ذلك لأن النعمة على السلف نعمة على الأبناء لا محالة ، فضمير الخطاب مجاز))[3] ولم يفرق الزمخشري بين ضمائر الخطاب في الآية ، وظاهر كلامه أنها جميعاً تعود إلى السلف فليس في ضمير الخطاب بقولـــه: (وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ) مجاز لأن أسلافهم شاهدوا ذلك الإهلاك عياناً[4].

والذي دعا (ابن عاشور) إلى تعميم إسناد الخطاب إلى السلف والخلف في الآية – حقيقة إلى بعض ومجازاً إلى بعض آخر– رغبته في اتساق ضمائر المخاطبين المواجهين بالآيات وقت نـــزول الوحي ، وأولئك الذين حكى خطابـــه لـــــهم من أسلاف بني إسرائيل ، وهو مسلك حسن في تبيين عود ضمائر الخطاب المتداخلة في سياق الحكاية والإخبار والمجادلة ، مع أنه ليس في الكلام قرينة تصرف الخطاب إلى الحاضرين إلا مقام الخطاب والمجادلة والمواجهة .

أمـــا إذا وجدت قرينة تحدد ضمير الخطاب إلى الحاضرين (الخلف) دون السلف ، وكانت الضمائر قبل ذلـــك صـــالحة للخلف والسلف على طريقة التغليب، أو على طريقة تنـــزيل الخلف منـــزلة السلف – فلا بد حينـــئذ من التفريق في معاد الضمائر وهذا في مثل قولـــه تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ۞ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[5] فإن الخطاب

---

[1] المحرر الوجيز : ص ١٠٧.

[2] سورة البقرة:الآية ٥٠.

[3] التحرير والتنوير : ج ١،ص٤٨٠.

[4] انظر الكشاف : ج ١،ص١٦٧.

[5] سورة البقرة:الآيتان ٨٤، ٨٥.

في الآيــة الأولى يشــمل جميــع بني إسرائيل سلفاً وخلفاً ، أما قولــه : (ثُمَّ أَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ) فالخطاب فيه كما يقـــــول ابن عاشور: « لليهود الحاضرين في وقت نــزول القرآن بقرينة قولــه : (هَـٰٓؤُلَآءِ) لأن اسم الإشارة لا يكون إلى غائب...فليست زيادة اسم الإشارة إلا لتعيين معاد الضمير»[١] وهذا الذي أشار إليه (ابن عاشور) خــلاف مــا حرره الزمخشري الذي يُفهم كلامه أن المقصود بالخطابات جميعها أسلاف بني إسرائيل، وأن المغايرة المســتفادة مــن العطــف والإشارة والوصف مغايرة تنــزيلية لا حقيقية، إذ يقول : «والمعنى : ثم أنتم بعد ذلك هؤلاء المشاهدون ، يعني غير أولئك المقرين ، تنــزيلاً لتغير الصفة منــزلة تغير الذات ، كما تقول : رجعت بغير الوجــه الــذي خرجــت به»[٢] فكأن المخاطب واحد وإنما تغيرت صفاته، وهذا لا يستقيم مع وقوع المغايرة في الذات ، ووجود الإشارة الدالة على الحاضرين .

وقــد وصــف (ابــن عاشــور) تخريج الزمخشري بالتكلف فقال : «وذلك تكلف ساقه إليه محبة جعل الخطابــات في هذه الآية موافقة للخطابات في الآية قبلــها ، وقد علمت أنه غير لازم ، وأن المغايرة مقصودة هنا وقد استقامت فلا داعي إلى التكلف »[٣] .

- تعين صرف الخطاب لمخاطب معين :

يفرض مقام الخطاب ، وطبيعة ترتيب الآيات ،صرف الخطاب إلى مخاطب بعينه ، وإن لم يسبق في الآيات ما يحدد ذلك المخاطب ، ومثال ذلك قولــه تعالى : ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾[٤] فموقع الآية كما يحدده (ابن عاشور) : « استئناف وقع معترضاً بــين جملة ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا... ﴾[٥] وبين جملــة:﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ... ﴾[٦] ... ومناســبة موقع هذه الآية تلو سابقتها أن الآية السابقة لّما بينت أن الذين كفروا لن يقبل من أحدهم أعظم ما ينفقه ، بينت هذه الآية ما ينفع أهل الإيمان من بذل المال»[٧]

فــلم يــتعين قبل هذه الآية مخاطب مقصود محدد يمكن أن يحال إليه الخطاب . وقد نصّ ابن عطية على جعلــه مــتوجهاً إلى المؤمنين[٨]، ووضح (ابن عاشور) علّة صرفه للمؤمنين دون غيرهم بقولــه : « والخطاب

---

[١] التحرير والتنوير : ج ١ ، ص٥٦٨.

[٢] الكشاف : ج ١ ، ص١٨٧.

[٣] ابن عاشور : التحرير والتنوير : ج ١ ، ص٥٧٠.

[٤] سورة آل عمران:الآية ٩٢.

[٥] سورة آل عمران:الآية ٩١.

[٦] سورة آل عمران:الآية ٩٣.

[٧] التحرير والتنوير : ج ٣،ص١٥٣.

[٨] المحرر الوجيز : ص٣٢٨.

للمؤمنين لأنهم المقصود من كل خطاب لم يتقدم قبلــه ما يعين المقصود به))[1] فالمؤشر الذي استفيد منه في تعيين المخاطب هو موقع الآية بين أخواتها .

وهناك مؤشر آخر يستفاد منه في تعيين المقصود بالخطاب ، فقد تشتمل الآية التي يقع فيها الخطاب على تذييل يصلح أن يمثل قرينة على صرف الخطاب لمعاد معين، ومن ذلك ما أشار إليه (ابن عاشور) في قولــه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾[2] فـإن الخطابــات الواردة في الســورة قــبل هذا الموضع موجهة للمشركين ، ويندرج فيها المسلمون ، مثل قولــه تعالى : ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾[3]أمــا الخطــاب في هذه الآية فقد أشار (ابن عاشور) إلى أنه خطاب ((للمشركين خاصة ، لأنهم الذين قلّ شكرهم للــه تعالى ، إذ اتخذوا معه آلــهة))[4] فالقريــنة في توجــيه الخطاب أخذت من تذييل الآية ، لا من معاد سابق ، ولكن قول (ابن عاشور) : "لأنهم قلّ شــكرهم" فــيه تخصــيص للمشــركين بهذه الصفة من بين سائر البشر ، واللــه سبحانه يقول : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾[5] فالصحيح أن المشركين هم أقل العباد شكراً لأنهم اتخذوا مع اللــه آلــهة ، وليس الأمر كذلــك بالنسبة لغيرهم من البشر الموحدين ، لــهذا يصح أن يكون الخطاب للمشركين وغيرهم ، ويدل عليه انــتظام الخطاب في الآيات التالية، حيث وجه إلى سائر البشر قولــه تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴾[6] .

وقــد يصعب توجيه الخطاب إلى مخاطب مذكور في النَّص إذا نسج الخطاب ضمن تركيب لغوي محتمل لأكــثر من وجه ، مثل قولــه تعالى : ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴾[7] ولــهذا يفترض الزمخشري أن يتساءل متســائل عن المخاطب في هذه الآية فيقول : ((فإن قلت : (فَمَا يُكَذِّبُكَ) من المخاطب به ؟ قلت : هو خطاب للإنســان على طريقة الالتفات ، ... وقيل الخطاب لرسول اللــه (صلى اللــه عليه وسلم)))[8] وتوضيح ذلك أن (مــا) إن كانت للاستفهام فضمير الخطاب يعود على مخاطب مفهوم من مضمون ما تقدم وهو الإنسان، وإن كانت (ما) موصولة فالخطاب للنبي (صلى اللــه عليه وسلم) ، يقول (ابن عاشور) : ((يجوز أن تكون استفهامية

---

[1] التحرير والتنوير : ج ٣،ص١٥٣.

[2] سورة الأعراف:الآية ١٠.

[3] سورة الأعراف:الآية ٣.

[4] التحرير والتنوير : ج ٨ ،ص٢٧.

[5] سورة سبأ:الآية ١٣.

[6] سورة الأعراف:الآية ١١.

[7] سورة التين:الآية: ٧.

[8] الكشاف : ج ٤ ، ص٧٧٩ ، ٧٨٠.

... والخطـــاب للإنســـان المذكور في قولـــه تعالى : ﴿ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٍ ۝ ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾ [1] فإنه بعد أن استثنى منه الذين آمنوا بقي الإنسان المكذب ، فضمير الخطاب التفات ومقتضى الظاهر أن يقال : فما يكذبه ، ونكتة الالتفات هنا أنه أصرح في مواجهة الإنسان المكذب بالتوبيخ ... ويجوز أن تكـــون (مـــا) موصولة، وما صدقها المكذب فهي بمعنى (من) ... والخطاب للنبي (صلى اللـــه عليه وسلم)»[2] والوجه الأول أقوى لاحتياج الوجه الثاني إلى تقدير محذوفات كثيرة ليستقيم فهم خبر (ما) الموصولة .

- عود ضمير الخطاب على غير معين :

كثيراً ما ترد في القرآن خطابات لا يمكن معرفة معادها من الكلام ، فربما يكون الخطاب افتتاح سورة ، ولـــــهذا بـــين (ابن عاشور) في المواضع التي يكون الخطاب فيها لغير معين ما يصلح أن يوجه به ضمير الخطاب .

ففـــي تفســـير الخطـــاب في قولـــه تعالى : ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَهُمۡ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِ...﴾ الآيـــة[3] يقـــول (ابن عاشور) : «واعلم أن تركيب (ألم تر إلى كذا) إذا جاء فعل الرؤية فيه متعدٍ إلى ما ليس من شـــأن الســـامع أن يكون رآه ، كان كلاماً مقصوداً منه التحريض على علم ما عدي إليه فعل الرؤية ، وهذا مما اتفق عليه المفسرون . ولذلك تكون همزة الاستفهام مستعملة في غير معنى الاستفهام بل في معنى مجازي أو كنائي ... وكان الخطاب به غالباً موجهاً إلى غير معين ، وربما كان المخاطب مفروضاً متخيلاً»[4] والغرض من صياغة الخطاب بهذا الأسلوب القصد إلى إشراك السامع فكان المعاد معلوماً من سياق الموقف والكلام وكأن مقصد (ابن عاشـــور) من قولـــه : "وربما كان المخاطب مفروضاً متخيلاً" يشير إلى أهمية الاحتفاظ بالمتلقي من خلال مخاطبته مباشرة[5]

وتـــزداد أهمـــية هـــذا الضمير الذي يحيل إلى المتلقي في مواضع السرد القصصي ومثال ذلك من سورة الكهف قولـــه تعالى :

﴿ وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ ...﴾ الآية[6]

﴿ وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا ...﴾ الآية[7]

﴿ ... لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا ﴾[8]

---

[1] سورة التين:الآيتان ٤، ٥.

[2] التحرير والتنوير : ج ٣٠،ص٣٨٠.

[3] سورة البقرة:الآية ٢٤٣.

[4] التحرير والتنوير : ج ٢،ص٤٥٤.

[5] وهـــذا عين ما ذكره القزويني في أصل الخطاب وكيف يمكن أن يخرج عن هذا الأصل في قولـــه : «وأصل الخطاب أن يكون لمعين ، وقد يترك إلى غير معين كما تقول : فلان لئيم ؛ إن أكرمته أهانك ، وإن أحسنت إليه أساء إليك ، فلا تريد مخاطباً معينه بل تريد إن أكرم أو أحسن فتخرجه في صورة الخطاب فيفيد العموم ». [انظر: الايضاح في علوم البلاغة ، تحقيق موري عطوي، دار إحياء العلوم، بيروت، ط٤(١٩٩٨م) ص٥٨].

[6] سورة الكهف:الآية ١٧.

[7] سورة الكهف:الآية ١٨

[8] سورة الكهف:الآية ١٨.

فالخطاب في قولــه : (وَتَرَى - وَتَحْسَبُهُمْ - اطَّلَعْتَ - لَوَلَّيْتَ - لَمُلِئْتَ) لغير معين وفي هذا يقــول (ابن عاشور) : ((والخطاب لغير معين ، والمعنى يرى من تمكنه الرؤية . وهذا كثير في الاستعمال ومنه قول النابغة :

ترى عافيات[1] الطير قد وثقت لــها بشبع من السخل[2] العتاق الأكائل[3]))[4] .

وفي قولــه تعالى : (لَوِ اطَّلَعْتَ) يقول (ابن عاشور) : ((والخطاب لغير معين ، أي لو اطلعت عليهم أيها السـامع حـين كانوا في تلك الحالة قبل أن يبعثهم اللــه ، إذ ليس في الكلام أنهم لم يزالوا كذلك زمن نـزول الآية))[5] وقد أهمل الزمخشري توجيه ضمير : (وَتَرَى) وأشار إليه عند قولــه : (وَتَحْسَبُهُمْ) حيث قال: ((خطاب إلى كل أحد))[6] .

❑ الإحالة بضمائر الغائب:

تقدمت الإشارة إلى أن الإحالة النصية إنما تتحقق بواسطة ضمائر الغيبة لأنها تحيل داخل النّص ، كما أن ضـمائر الغيبة تسهم في ربط النّص من خلال وظيفتها المزدوجة المتمثلة في استحضار عنصر من خطاب لاحق .

واستحضـار مجمـوع خطاب سابق في خطاب لاحق ولذلك ركزت الدراسات النحوية والقرآنية على مرجع الضمير ، فكانت الأمثلة التي أوردوها منصبة على ضمير الغائب ومرجعه وتوسعوا في الإحالة على المرجع ما لم يتوسعوا في غيره ، لأن ترابط المعاني في ذهن السامع قائم على تعيينه ، فأحالوا في معرفة المرجع على السياق حين لا يظهر المعاد المناسب من داخل النّص .

والذي يهمنا هنا هو حديث (ابن عاشور) حول الربط بضمائر الغائب على مستوى الآيات في السورة، والـذي أفرزه تتبع مواقع هذه الضمائر في عدد من سور القرآن يجعلنا نلخص نظرة (ابن عاشور) إلى إسهام هذه الضمائر في تحقيق الانسجام والاتساق في العناصر الآتية :

- تعدد المحال إليه .
- وجوب صرف الضمير لمعاد واحد .
- امتناع عود الضمير لأقرب مذكور.
- الإحالة المقامية .
- الإحالة المزدوجة.

---

[1] عافيات : العافي من الطير الرائد ، والوارد . [القاموس المحيط : ص١٦٩٣].

[2] السخل : جمع سخلة ، والسخلة ولد الشاة [القاموس المحيط : ص١٣١٠].

[3] الأكائل : جمع أكولة ، وهي العاقر من الشياه ، والشاة تعزل للأكل .[القاموس المحيط : ص١٢٤٢].

[4] التحرير والتنوير : ج ١٥،ص٣٤.

[5] التحرير والتنوير : ج ١٥ ، ص٣٧.

[6] الكشاف : ج٢،ص٦٦٥.

وسنوضح الأسس التي استند إليها (ابن عاشور) في بيان معاد ضمير الغائب بمقارنته بعبارة غيره من المفسرين ما أمكن ذلك فيما يلي :

- تعدد المحال إليه :

تتبع (ابن عاشور) مواضع احتمال عود الضمير على أكثر من معاد ، وعدّ ذلك صورة من صور الإعجاز في القرآن ؛ حيث أن قوة العلاقة بين الضمير ومعاده تفتح المجال لعدد من المعاني والتأويلات تفيد كثيراً في تفسير آيات الأحكام .

والحق أن قدرة المفسر على تصور سياق الكلام وتمكنه من قواعد العربية وأساليب البيان تمكنه من استنباط أحسن الوجوه لما يصلح أن يعود عليه الضمير ، وقد كانت نظرة (ابن عاشور) إلى ما كتبه المفسرون من الوجوه المحتملة في بعض الآيات – تتميز بالعرض والمناقشة وإبداء ما يراه مناسباً مما لم يتفطن إليه من سبقه ، وهو ما تكشف عنه الأمثلة الآتية:

– يقول تعالى : ﴿ وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۞ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾[1] .

موضع الإحالة المقصود في هاتين الآيتين هو الضمير المجرور بـ(عن) من قوله تعالى : (فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ عَنْهَا) وقد أشار (ابن عاشور) إلى معادين يجوز أن يعود عليهما هذا الضمير وهما – على الترتيب– (الشجرة – الجنة) وهما جزء من خطاب في الآية السابقة على موضع هذا الضمير ، ولكن إجراء الضمير على أحدهما أو كليهما لا يتم إلا من خلال تدقيق النظر في الآتي :

– موقع المعاد قرباً وبعداً .
– معنى لفظ (أزلهما) وما ورد فيه من وجوه القراءات .
– معنى حرف الجر (عن) والعلاقات المترتبة عليه .
– معنى التفريع في قوله : (فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ) .

فإن لكل هذه النقاط أثراً في اختيار المعاد المناسب للضمير في هذه الآية ، ولبيان ذلك يقول (ابن عاشور): "الإزْلالُ : جعل الغير زالاً أي قائماً به الزَلَلَ ، وهو كالزلق ... مجاز مشهور في صدور الخطيئة...ومنه سمي العصيان ونحوه الزلل، والضمير في قوله : (عَنْهَا) يجوز أن يعود إلى (الشجرة) لأنها أقرب ، وليتبين سبب الزلة وسبب الخروج من الجنة ، إذ لو لم يجعل الضمير عائداً إلى (الشجرة) لخلت القصة عن ذكر سبب الخروج.

[1] سورة البقرة:الآيتان ٣٥، ٣٦.

و(عـــن) في أصل معناها[1] أي أزلـــهما إزلالاً ناشئاً عن الشجرة أي عن الأكل منها ، وتقدير المضاف دلّ عليه قولــه: (وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ) ، وليست (عن) للسببية ومن ذكر السببية أراد حاصل المعنى[2] ... ويجوز كـــون الضمير للجنة ، وتكون (عن) على ظاهرها ، والإزلال مجازاً في الإخراج بكُرْه ، والمراد منه الـــهبوط من الجنة مكرهين كمن يزل عن موقعه فيسقط ... وقرأ حمزة[3] : (فأزالــهما)[4] بألف بعد الزاي وهو من الإزالة وهو من الإبعاد ، وعلى هذه القراءة يتعين أن يكون ضمير (عنها) إلى الجنة لا إلى الشجرة))[5] .

مـــن هذا النّص المطول يمكن أن نستشف ميل (ابن عاشور) إلى الوجه الأول : وهو أن يعود الضمير إلى (الشـــجرة) ومبررات الإحالة حينئذ مستخرجة من قاعدة الغالب في عود الضمير إلى أقرب مذكور ما دام صالحاً للعـــود إليه وكذا من تعلقه بسياق قصة خروج آدم التي يلزم لـــها سبب للخروج ولذلك فقد استقام أن يتفرع عـــلى ذكر هذا السبب (أي على الأكل من الشجرة المنهي عنه آدم وزوجه) أن يقول بعد ذلك: (فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ) فكانت الفاء مفيدة للترتيب المتفرع عن الازلال وفي هذا يقول الزمخشري : ((مِمَّا كَانَا فِيهِ) من النعيم والكرامة أو من الجنة، إن كان الضمير للشجرة في (عنها)))[6] .

وأمـــا الوجـــه الثاني: وهو جواز أن يكون المعنى : أزلـــهما عن الجنة ، فقد عاد الضمير إلى متقدم دون اشـــتراط قـــرب أو بُعْد ، ولا ضير في ذلك إذا اتضح المعنى . لكن لم تظهر فيه نكتة ذِكْر السبب كما أن تعقيبه بقولـــه : (فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ) كأنه إعادة لمعنى الخبر المتقدم ، ولـــهذا فقد تأول (ابن عاشور) معنى الفاء ليستقيم هذا الوجه فقال: ((فإن جعلت الضمير في قولـــه : (عنها) عائداً إلى الجنة كان هذا التفريع تفريع المفصل

---

[1] أصل معنى (عن) الجارة : المجاوزة أي أنها ((تقتضي مجاوزة ما أضيف إليه نحو غيره وتعديه عنه، تقول : أطعمته عن جوع ، أي أزلت عنه الجوع ، ورميت عـــن القـــوس ، أي طرحت السهم عنها ، وقولك : أخذت العلم عن فلان ، مجاز ، لأنه علمه لم ينتقل عنه))[انظر الزركشي : البرهان ، ج٤،ص٢٨٦]. والمجـــاوزة معـــنى من عشرة معان ذكرها ابن هشام هي المجاوزة ، والبدل ، والاستعلاء ، والتعليل ، ومرادفة بعد ، والظرفية ، ومرادفة من ، ومرادفة الباء، والاستعانة ، وزائدة للتعويض من أخرى .[انظر : مغني اللبيب : ص١٩٦– ١٩٨].

[2] حاصـــل المعنى المقصود هنا هو ما يفسره معنى (عن) في قولـــه تعالى : (وما ينطق عن الـــهوى)[سورة النجم : آية٣] إذ جعلـــها أبو عبيدة بمعنى الباء ، وأجاب الرضي : الأولى أن (عن) بمعناها وأن الجار والمجرور صفة لمصدر محذوف أي نطقاً صادراً عن الـــهوى ، وعليه سار ابن هشام [انظر مغني اللبيب : ص١٩٨] . ونظّر الزمخشري معنى (عن) في هذه الآية بقولـــه تعالى : (وما فعلته عن أمري)[سورة الكهف : آية ٨٢].[انظر الكشاف : ج ١،ص١٥٧].

[3] هو حمزة بن حبيب الزيات : ابن عمارة بن إسماعيل الإمام أبو عمارة الكوفي مولى آل عكرمة بن ربعي التيمي الزيات أحد القراء السبعة [انظر : معرفة القراء الكبار للذهبي : تحقيق بشار معروف وآخرون ، مؤسسة الرسالة بيروت ، ط١، (١٤٠٤هـــ) ، ج١، ص١١١].

[4] يقول أبو محمد مكي بن أبي طالب : ((قرأه حمزة بألف مخففة ، وقرأه الباقون بغير ألف مشدداً ، وعلة من قرأ بالألف أنه جعلـــه من الزوال ، وهو التنحية ، واتـــبع في ذلك مطابقة معنى ما قبلـــه على الضد ، وذلك أنه قال تعالى ذِكره لآدم : (اسكن أنت وزوجك الجنة)[البقرة:٣٥] فأمرهما بالثبات في الجنة ، وضـــد الثبات الزوال ، فسمى إبليس اللعين فأزالـــهما بالمعصية عن المكان الذي أمرهما اللـــه بالثبات فيه مع الطاعة ، فكان الزوال به أليق ... وأيضاً فإنه مطابق لما بعده في المعنى لأن بعده (فأخرجهما مما كانا فيه) ... وعلة من قرأ بغير ألف : الإجماع في قولـــه : (إنما استزلـــهما الشيطان)[آل عمران:١٥٥] أي أكسبهم الزلة))[انظر الكشف عن وجوه القراءات : ج١،ص٢٣٥؛ ٢٣٦].

[5] التحرير والتنوير : ج ١ ، ص٤١٩.

[6] الكشاف : ج ١،ص١٥٧.

عـــن المجمـــل وكانت الفاء للترتيب الذكري المجرد كما في قولـــه تعالى : ﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴾[1])[2].

وكمـــا استدل (ابن عاشور) بقراءة حمزة (فأزالـــهما) وجعل محمل الضمير على ذلك متعيناً رجوعه إلى الجـــنة، فقـــد أشـــار الزمخشـــري – من قبل – إلى قراءة أخرى تؤيد الوجه الأول فقال : "وقرأ عبداللـــه[3]: (فوســـوس لـــهمـــا الشيطان عنها) وهذا دليل على أن الضمير للشجرة لأن المعنى : صدرت وسوسته عنها"[4]

وهي وإن كانت قراءة تفسيرية إلا أنه يستأنس بها في هذا الموضع.

ويمكن أن يزاد وجه ثالث في محمل الضمير وهو : أن يعود ضمير (عنها) إلى مضمون الآية السابقة، وهو جملة ما أمر اللـــه به آدم وما نهاه عنه ، فيكون المعنى –واللـــه أعلم– فأزلـــهما عن وصيتنا لـــهما بعدم الأكل من الشجرة بوسوسته ومقاسمته لـــهما وإظهاره النصح ؛ فالمعلوم أن وقوع آدم وحواء في الأكل من الشجرة إنما كان بعد محاولة من الشيطان وتزيين يدل عليه قول اللـــه تعالى : ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ۞ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۞ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾[5] ويكـــون معـــنى (فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا)أي : أبعدهما عن الوصية والعهدة ، بقرينة قولـــه تعالى بعده: (فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ) أي : من النعيم في الجنة ، أو من عصمة الطاعة . وتكون الإحالة بضمير الغائب (عنها) على هذا الوجه إحالة إلى خطاب برمته لا إلى عنصر من الخطاب كما في الوجهين السابقين .

– قولـــه تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾[6] الضـــمير بالمقصود بالإحالة في هذه الآية هو الضمير المجرور بالباء في قولـــه : (يُؤْمِنُونَ بِهِۦ) .

---

[1] سورة الأعراف:الآية ٤ .

[2] التحرير والتنوير : ج ١،ص١٤٩.

[3] المقصود به : عبد اللـــه بن مسعود .

[4] الكشاف : ج ١،ص١٥٧.

[5] سورة الأعراف:الآيات ٢٠-٢٢.

[6] سورة البقرة:الآية ١٢١.

فقـــد نصّ (ابن عاشور) على رجوع هذا الضمير إلى (الكتاب) من قولـــه : (ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ) وهـــو متابع في ذلك صاحب الكشاف[1] . وجوّز عوده إلى (الـــهدى) المذكور في الآية المتقدمة على هذه الآية وهـــي قولـــــه تعالى : ﴿ وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ﴾[2] ولم ينسبه (ابـــن عاشـــور) لأحد من المفسرين ، وقد نصّ عليه ابن عطية بقولـــه : ((ويحتمل عندي أن يعود الضمير على (الـــــهدى) الـــذي تقـــدّم ، وذلـــك أنه ذكر كفار اليهود والنصارى في أول الآية ،وحذر رسولـــه من اتباع أهوائهم، وأعلمه بأن هدى اللـــه هو الـــهدى الذي أعطاه ... ثم ذكر لـــه أن المؤمنين التالين لكتاب اللـــه هم المؤمنون بذلك الـــهدى))[3] كما أشار ابن عطية إلى وجه ثالث في معاد الضمير فقال : ((وقيل : يعود على محمد (صلى اللـــه عليه وسلم) لأن متبعي التوراة يجدونه فيها فيؤمنون به))[4] وقد أورده (ابن عاشور) في الوجه الأول مضـــمناً وهـــو الوجه الذي يعود الضمير فيه على (الكتاب) فقال : ((وإذا كانوا هم المؤمنين به ، كانوا مؤمنين بمحمـــد (صـــلى اللـــه عليه وسلم) لانطباق الصفات التي في كتبهم عليه ... فمن هنا قال بعض المفسرين : إن ضمير (به) عائد للنبي (صلى اللـــه عليه وسلم) ، مع أنه لم يتقدم لـــه معاد))[5].

وعلى كل فإن كانت الإحالة بالضمير في قولـــه : (يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ) إلى (الكتاب) كانت إحالة داخلية قبلية لعنصر من الخطاب، وإن كانت الإحالة إلى (الـــهدى) فهي إحالة إلى خطاب كامل ، أما إذا كانت الإحالة للنبي (صلى اللـــه عليه وسلم) حيث لم يتقدم لـــه ذكر –ولكنه معلوم من المقام– فهي إحالة خارجية .

ولعل أقوى الوجوه احتمالاً الإحالة إلى الكتاب والإحالة إلى النبي (صلى اللـــه عليه وسلم) . أما الإحالة إلى الـــــهدى فقـــد احـــتاج المفسرون إلى ذكر وجوه متعددة في تأويل معنى قولـــه : (قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ) فقد قال (ابن عاشور): (((هُدَى ٱللَّهِ)ما يقدره للشخص من التوفيق أي قل لـــهم : لا أملك هدى إلا أن يهديكم اللـــه...ويجوز أن يكون المراد بـــ(هُدَى ٱللَّهِ) الذي أنـــزلـــه إليّ يعني أن القرآن هو الـــهدى))[6] وهـــو معاد بعيد بموقعه واحتمالـــه لأكثر من وجه ، ولكن تخريج ابن عطية – السابق – لـــه وجيه فكان جديراً بالإشارة .

---

[1] انظر الكشاف : ج ١،ص٢٠٩.

[2] سورة البقرة:الآية ١٢٠.

[3] المحرر الوجيز : ص ١٣٠.

[4] المحرر الوجيز : ص١٣٠.

[5] التحرير والتنوير : ج ١،ص٦٧٨.

[6] المصدر نفسه : ج ١،ص٦٧٥.

- في سورة عبس يقول تعالى : ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۞ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾[1] تعددت الاحتمالات التي يمكـن أن تكون معاداً مناسباً لضميري (إِنَّهَا - ذَكَرَهُۥ) وقد جعل الزمخشري إحالة ضمير (إِنَّهَا) ترجع إلى الآيـات التي سبقت هذه الآية موعظة ومعاتبته للنبي (صلى اللـه عليه وسلم) . يقول الزمخشري : ((كـلا ردع عـن المعاتب عليه ، وعن معاودة مثلـه . (إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ) أي موعظة يجب الاتعاظ والعمل بموجـبها))[2] وجعل الضمير البارز في قولـه : (فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ) كذلك عائداً على الموعظة مع مجيئه مذكراً . فقال: ((وذكر الضمير لأن التذكرة في معنى الذكر والوعظ))[3]

ويتضـح مـن هذا أن الزمخشري بنى معاد الضمير على أن حرف (كلا) بتوجيه الردع إلى النبي (صلى اللـه عليه وسلم) ، فالضمير يحيل إلى خطاب سابق هو المفتتح به من أول السورة ولم يذكر وجهاً آخر في معاد الضميرين.

وقـد أشار ابن عطية إلى هذا الوجه -أيضاً- وأجرى الردع والزجر بـ(كلا) على الوجه الذي أجراه عليه الزمخشري، لكنه جعل ضمير (إنها) يحيل إلى القرآن الذي كان يقرأه الرسول على الكافر الذي كان حريصاً على إسلامه ، أوعلى جميع القرآن ، وهي إحالة إلى المقام والموقف لا إلى النَّص . يقول ابن عطية: ((ثم قال تعالى: (كـلا) يا محمد ، أي ليس الأمر في حقه (أي الأعمى) كما فعلت ،إن هذه السورة والقراءة التي كنت فيها مع ذلـك الكافر تذكرة لجميع العالم ،لا يؤثر فيها أحد دون أحد ، وقيل : هذه المعتبة تذكرة لك يا محمد ، ففي هذا التأويل إجلال لمحمد (صلى اللـه عليه وسلم) وتأنيس لـه . وقولـه : ﴿فِى صُحُفٍ﴾[4] متعلق بقولـه تعالى: (إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ)، وهـذا يؤيـد أن التذكرة يراد بها جميع القرآن))[5] . ولم يشر إلى الضمير المنصوب في قولـه : (فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ) وظاهر كلامه أنه يعود على القرآن ولا حاجة لتأويل وقوع لفظه مذكراً عند ذلك .

وقد سرد (ابن عاشور) جميع هذه الاحتمالات وأورد عليها وجهاً آخر في تأويل الجهة الموجه إليها الردع بـــ(كلا) فقال : ((وضمير (إنها) عائد إلى الدعوة التي تضمنها قولـه : ﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾[6] ويجوز أن يكـون المعنى أن هذه الموعظة تذكرة لك ، ويجوز عندي أن يكون (كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ) استئنافاً ابتدائياً موجهاً إلى من كان النبي (صلى اللـه عليه وسلم) يدعوه قبيل نـزول السورة ... وكانوا لا يستجيبون إلى ما دعاهم ... فـتكون (كـلا) إبطـالاً لما نعتوا به القرآن ... فيكون ضمير (إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ) عائد إلى الآيات التي قرأها النبي

---

[1] سورة عبس:الآيتان ١١، ١٢.

[2] التحرير والتنوير : ج ٤،ص٧٠٣.

[3] المصدر نفسه : ج٣٠٧،٤.

[4] سورة عبس:الآية ١٣.

[5] المحرر الوجيز : ص ١٩٤٨.

[6] سورة عبس:الآية ٦.

(صلى اللـــه علـــيه وسلم) عليهم في ذلك المجلس ثم أعيد عليها الضمير بالتذكير للتنبيه على أن المراد آيات القرآن))[1]. واستدل (ابن عاشور) على وجه انصراف الردع بكلا على المشركين بحديث القرآن بعد هذه الآيات عن البعث وسوقه لأدلته بدءاً من قولـــه تعالى : ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴾[2] .

أمـــا الضـــمير في قولـــه : (فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ) فيحتمل معادين عند (ابن عاشور) أن يعود إلى (تذكرة) الـــتي تأولـــها بالقرآن الذي كان يعرضه على صناديد قريش ((أي فمن شاء ذكر القرآن وعمل به . ويجوز أن يكون عائداً إلى اللـــه تعالى فإن إعادة ضمير الغيبة على اللـــه تعالى دون ذكر معاده في الكلام كثير في القرآن ، لأن شؤونه تعالى وأحكامه ينـــزل القرآن لأجلـــها فهو ملحوظ لكل سامع للقرآن))[3] .

وقـــد ألمـــح (ابن عاشور) إلى سرّ جمالي لمجيء هذا الضمير مذكراً مع أن معاده الأقرب هو لفظ (تذكرة) وهـــو مؤنـــث فقـــال : ((والذي اقتضى الإتيان بالضمير وكونه ضمير مذكر مراعاة الفواصل وهي : (تذكرة – مطهرة – سفرة – بررة)))[4] وهذا يقودنا إلى أن نستنتج أن توجيه الإحالة (إلى القرآن أو إلى اللـــه)لهذا الضمير تتحدد كذلك بالنظر إلى فواصل الآيات التي تتعلق بالقرآن ووصف صحفه وحملته ، وهي قرينة على أن الإحالة إلى القرآن أولى .

- وجوب صرف ضمير الغائب لمعاد واحد :

وقـــد تـــتعدد المراجع التي يمكن أن يحيل إليها ضمير الغائب –كما في المثال السابق– ولكن يتعين على المفســـر أحياناً أن يصرف الضمير إلى مرجع بعينه لاعتبارات دلالية أو تداولية، وتعد معرفتها والإشارة إلـــيها دليل تصور شامل لدور الضمير في تحقيق الانسجام في النَّص. ويمكن بيان ذلك من خلال الأمثلة الآتية :

– يقـــول تعالى : ﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾[5] ومحطّ النظر الضميـــــر في (أَنۢبَأَ) والضـــمير في : (قَالَ أَلَمْ أَقُل) حيـــث أن ضمائر الفاعل في (أَنۢبِئْهُم) و (أَنۢبَأَهُم) لآدم (عليه الســـلام) وضـــمير(قَالَ) لا يصلح أن يعود على ما عاد عليه الضميران السابقان مع أن الظاهر تساويهما فوجب صرفه لمعاد آخر يناسب مضمون القول.

[1] التحرير والتنوير : ج ٣،ص١٠١.
[2] سورة عبس:الآية ١٧.
[3] التحرير والتنوير : ج ٣٠،ص١٠٢.
[4] المصدر نفسه : ج ٣٠ ، ص١٠٢.
[5] سورة البقرة:الآية ٣٣.

وفي هـذا يقـول (ابن عاشور) : "الضمير في (أنبأ) لآدم وفي (قال) ضمير اسم الجلالة ، وإنما لم يؤت بفاعلـه اسماً ظاهراً مع أنه جرى على غير من هو لـه أي عقب ضمائر آدم في قولـه : (أَنۢبِئۡهُم) و (أَنۢبَأَهُم) لأن السـياق قريـنة على أن هذا القول لا يصدر من مثل آدم"[1] فكون هذا القول لا يصدر من آدم هو اعتبار تداولي أوجب صرف الضمير إلى من يصدق عليه ولا يكون إلا اللـه ، وكان هذا الضمير المستتر قد ذكر معاده صـراحة في بدايـة المحاورة في قولـه تعالى: ﴿ وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ ﴾[2] وعادت إليه ضمـائر ﴿ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ ﴾[3] ﴿ وَعَلَّمَ ﴾ و﴿ عَرَضَهُمۡ ﴾)[4] ومـا قـبلـه من الضمائر ، فكان السياق مشتملاً على المعاد فلم يؤت بالاسم الظاهر مع أن الضمير وقع عقب ضمائر آدم في هذه الآية لـهذا التوالي والتتابع .

ومثل هذا الخروج عن مقتضى الظاهر في العدول عن الاسم الظاهر إلى الضمير ، وتعين عود الضمير إلى معلـوم مـن السـياق : العدول بالالتفات عن ضمير المتكلم إلى ضمير الغائب ، ففي قولـه تعالى : ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۞ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴾[5] فالنـاظر إلى الضـمير في قولـه : (قَالَ مَا مَنَعَكَ) يجد تحولاً في الكلام (التفات)عن ضمائر المتكلم (خلقناكم – صورناكم – قلنا) وهذا تحول يوهم بأن معاد الضمير في قولـه : (قَالَ مَا مَنَعَكَ) غير معاد ضمائر المتكلم ، لذلك يحتاج (ابن عاشـور) لتوضـيح كيفية تصرف الكلام بضمائر المتكلم والغائب فيقول : "وضمير (قَالَ مَا مَنَعَكَ) عائد إلى معلوم من المقام . أي قال اللـه تعالى ، بقرينة قولـه : (ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ) وكان مقتضى الظاهر أن يقـال: قلنا ، فكان العدول إلى ضمير الغائب التفاتاً نكتته تحويل مقام الكلام ، إذ كان المقام مقام أمر للملائكة ومن في زمرتهم ، فصار مقام توبيخ لإبليس خاصة"[6] . ومن هنا يكون الالتفات بالضمير مؤشراً على تحول مقام الكلام والانسجام متحقق بتميز معاد كل ضمير من السياق .

- يقول تعالى : ﴿ قُلۡ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[7] .

---

[1] التحرير والتنوير : ج ١،ص٤٠٣.

[2] سورة البقرة:الآية ٣٠.

[3] سورة البقرة:الآية ٣٠.

[4] سورة البقرة:الآية ٣١.

[5] سورة الأعراف:الآيتان ١١، ١٢.

[6] التحرير والتنوير : ج ٨،ص٣١.

[7] سورة البقرة:الآية ٩٧.

يــرى (ابــن عاشور) أنه يتعين صرف الضمير المنصوب بــ(نَزَّلَهُۥ) لمعاد واحد ، ففي هذه الآية يعود إلى القــرآن[1]، ويعلل ذلك بقولــه : "إما لأنه تقدم في قولــه : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾[2] وإما لأن الفعل لا يصلح إلا لــه هنا، على حد ﴿ حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴾[3] وقولــه : ﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴾[4]"[5] .

وقــد أشــار الزمخشري إلى أن الضمير عائد على معلوم لم يسبق لــه ذِكْرٌ في الكلام ، وهو القرآن ، ثم قــال: " ونحو هذا الإضمار – أعني إضمار ما لم يسبق ذِكْره– فيه فخامة لشأن صاحبه حيث يجعل لفرط شهرته كأنــه يــدل على نفسه ، ويكتفي عن اسمه الصريح بذكر شيء من صفاته"[6]. فالإحالة الأولى التي ذكرها (ابن عاشور) إحالة داخلية ، وما نصّ عليه الزمخشري من نوع الإحالة الخارجية (الإحالة المقامية) وكلاهما محتمل .

ومما يتعين صرف ضمير الغائب فيه إلى معاد بعينه وإن لم يتقدم لــه ذكر في الكلام ، وإنما بدلالة السياق وحده: الضميران الغائبان في قولــه تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴾[7] حيــث لم يســبق في الكلام ما يبين معادهما إلا أن سياق الآية يدل عليه ، يقول (ابن عاشور) : "وضمير الغائب عائد إلى القرآن بدلالة السياق"[8] قال ابن عطية: "لأن المعنى يقتضي المراد ، وإن لم يتقدم ذكره"[9].

وخــالف (ابــن عاشــور) الزمخشري في توجيه معاد ضمائر الجمع في قولــه تعالى : ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَـٰنِ عَبْدًا ۞ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۞ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا ﴾[10] فقــد أشــار الزمخشري وابن عطية إلى أن ضمائر الغيبة في قولــه : (أحصاهم – وعدهم) تعود إلى المعبودين من دون اللــه ، الوارد ذكرهم في عموم قولــه تعالى: (مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ) وهذا مفهوم كلام الزمخشري الذي نصّه : "والمعنى : ما من معبود لــهم في السماوات والأرض من الملائكة ومن الناس إلا هو آتي

---

[1] لابن عطية وجه آخر في معاد الضمير المنصوب في قولــه : (نــزلــه) بناء على الضمير في قولــه : (فإنه) وهو أن "الضمير في (فإنه) عائد على اللــه عــز وجل والضمير في (نــزلــه) عائد على جبريل (عليه السلام) والمعني بالقرآن وسائر الوحي"[المحرر الوجيز : ص١١٤] ولكن ما أورده الزمخشري وابن عاشــور أنســب لأن الفعل (نــزل) قرينة على إرادة القرآن لذلك قال تعالى بعد هذه الآيات مباشرة : (ولقد أنــزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون).[البقرة :٩٩].

[2] سورة البقرة:الآية ٩١.

[3] سورة ص:الآية ٣٢.

[4] سورة الواقعة:الآية ٨٣.

[5] التحرير والتنوير : ج ١،ص٦٠٣.

[6] الكشاف : ج ١،ص١٩٥.

[7] سورة مريم:الآية ٩٧.

[8] التحرير والتنوير : ج ٦،ص٨٧.

[9] المحرر الوجيز : ص ١٢٤٤.

[10] سورة مريم:الآيات ٩٣-٩٥.

الــرحمن ، أي : يــأوي إليه ويلتجئ إلى ربوبيته عبداً منقاداً ... وكلــهم متقلبون في ملكوته ... وهو مهيمن علــيهم محيط بهم ، ويعلم أمورهم وتفاصيلــها وكيفيتهم وكميتهم لا يفوته شيء من أحوالــهم ، وكل واحد منهم يأتيه يوم القيامة منفرداً وليس معه من هؤلاء المشركين أحد وهم براء منهم"[1] .

أمــا (ابن عاشور) فيرى أن جملة (لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ) "مستأنفة ابتدائية لتهديد القائلين هذه المقالة فضمائر الجمــع عــائدةٌ إلى ما عاد إليه ضمير ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدًا﴾[2] وما بعده . وليس عائداً على (مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ) أي لقد علم اللــه كل من قال ذلك وعدّهم فلا ينفلت أحد منهم من عقابه"[3] .

ولعلّ تخصيص الزمخشري لعموم قولــه : (إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ) بأن يكون المقصود منه: مَنْ اتخذتموهم آلــهة من الملائكة والإنس وغيرهم وادّعيتم أن اللــه اتخذ منهم ولداً– يكون سبباً في ردّ الضمير من قولــه : (لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدًّا ۞ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ ...) إليهم ولأنهم مناط الاهتمام في الآيات بإظهار عبوديــتهم للــــه وبــيان عجزهم وإحاطة اللــه بهم وأنهم سيأتون يوم القيامة منفردين . وهذا يقتضيه اتساق الضمائر بدون تشتيت أو توزيع لمعاداتها إذْ تعود لأقرب مذكور .

ولا يذهــب (ابن عاشور) إلى هذا التخصيص وإنما يقول في تفسير الآية : "أي ما يجوز لجلال اللــه أن يتخذ ولداً لأن جميع الموجودات –غير ذاته تعالى– يجب أن تكون مستوية في المخلوقية لــه والعبودية لــه"[4] .

وتعــدّ الإحالة بضمير الغيبة وفق هذا إحالة إلى متقدم دون النظر إلى قرب أو بُعد. والأولى لسياق إبطال دعواهم أن للــه ولداً وأن ذلك موجب عليهم عبادتهم ليكونوا شفعاءهم عند اللــه أن يقال : إن ضمائر الجمع في قولــــه : (لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدًّا) ومــا بعدهــا تصدق على القائلين : اتخذ اللــه ولداً، وعلى هذه الآلــهة المزعومة، فالكل سيفد على اللــه تعالى فرداً لا نصير لــه ولا تابع .

ولا وجه لصرف معاد هذه الضمائر إلى المشركين فقط ، لأن عموم قولــه : (إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدًا) يشــملــهم ويشمل من يعبدونه من دونه . كما أنه لا وجه لتخصيص العموم في قولــــه : (إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ) وصرف الضمائر لــهذا المعاد المخصوص بلا حاجة ملزمة لذلك إلاّ قرب المعاد ، ولعل جميع المحامل مرادة وفي التعبير في الضمائر ما يقبلــه .

---

[1] الكشاف : ج ٣،ص٤٨.

[2] سورة مريم:الآية ٨٨.

[3] التحرير والتنوير : ج ١٦،ص٨٧.

[4] المصدر نفسه : ج ١٦،ص٨٦.

• امتناع عود الضمير إلى أقرب مذكور :

من المواضع التي يحتمل الضمير أكثر من وجه ، ويجب أن لا يعود فيها الضمير على أقرب مذكور قوله تعالى : ﴿ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي ٱلْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾[1] فقد أشكل في الآية المعاد والضمير مع وجود العطف على ما تقدم ، فإن هذه الآية معطوفة على قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾[2] ، وقد أشار (ابن عاشور) أن هذا من باب ((عطف الضد على ضده فإن الضدية مناسبة يحسن بها عطف حال الضد على ضده ، فلما ذكر شأن المتقين في دفعهم طائف الشياطين ذكر شأن أضدادهم من أهل الشرك))[3].

ولكون الخبر وهو قوله: (يَمُدُّونَهُمْ فِي ٱلْغَيِّ) لا يستقيم مع وصف (المتقين) الوارد في الآية المتقدمة، فقد أصبح عود ضمير (إخوانهم) إليهم ممتنعاً . ولهذا يقول (ابن عاشور): ((فضمير (وَإِخْوَانُهُم) عائد إلى غير مذكور في الكلام ، إذ لا يصح أن يكون الخبر وهو(يَمُدُّونَهُمْ فِي ٱلْغَيِّ) متعلقاً بضمير يعود إلى (المتقين)، فتعين أن يتطلب السامع لضمير(وَإِخْوَانُهُم) معاداً غير ما هو مذكور في الكلام بقربه))[4] وقد أورد (ابن عاشور) احتمالات ثلاثة لمعاد هذا الضمير كلها منتزعة من السياق المبتدئ بقوله تعالى : ﴿ ...فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۞ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۞ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾[5] ومن لفظ (إخوان) في قوله : (وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ) وبنى على كل معاد ما يناسبه من المعنى في الإخبار عنه بقوله: (يَمُدُّونَهُمْ فِي ٱلْغَيِّ) وتفصيل وجوه هذه الاحتمالات كما يلي:

- الوجه الأول : ((أن يكون الضمير عائداً على معلوم من السياق ، وهم الجماعة المتحدث عنهم في هذه الآيات – أعني المشركين – ... فيردّ السامع الضمير إلى ما دلّ عليه السياق بقرينة تقدم نظيره في أصل الكلام ... أي وإخوان المشركين ، أي أقارهم ومن هو من مثيلهم وجماعة دينهم ... أي يمدّ المشركون بعضهم بعضاً في الغي ويتعاونون عليه))[6].
- الوجه الثاني : وقد أشار (ابن عاشور) إلى أنه رأي جمهور المفسرين وهو أنه : ((يجوز أن يعود الضميران إلى الشيطان المذكور آنفاً باعتبار إرادة الجنس أو الأتباع ... فالمعنى وإخوان الشياطين أي أتباعهم ... أما الضميران المرفوعان في قوله : (يَمُدُّونَهُمْ) وقوله: (ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ) فهما

---

[1] سورة الأعراف:الآية ٢٠٢.

[2] سورة الأعراف:الآية ٢٠١.

[3] التحرير والتنوير : ج ١،ص٤٠٥.

[4] المصدر نفسه : ج ٨،ص٤٠٦.

[5] سورة الأعراف:الآيات ١٩٠-١٩٢.

[6] التحرير والتنوير : ج ٨،ص٤٠٦.

عائدان إلى ما عاد إليه ضمير (وإخوانهم) أي الشياطين ... والمعنى : وإخوان الشياطين يمدهم الشياطين في الغي ، فجملة : يمدونهم خبر عن إخوانهم ، وقد جرى الخبر على غير من هو له ولم يبرز فيه ضمير من هو له حيث كان اللبس مأموناً))[1].

- الوجه الثالث : ((ويجوز أن يكون المراد من (الإخوان) الأولياء ويكون الضميران للمشركين أيضاً، أي: وإخوان المشركين وأولياؤهم ، فيكون الإخوان صادقاً بالشياطين ... لأنه إذا كان المشركون إخوان الشياطين – كما هو معلوم- كان الشياطين إخواناً للمشركين ، وصادقاً بعظماء المشركين، فالخبر جارٍ على من هو له))[2] وقد رجح هذا الوجه الواحدي[3] .

وعلى هذا فالوجه الأول في معاد الضمير أوضح لأنه تساوى فيه لفظ ضمير الجمع مع لفظ معاده ولم يكن كالوجه الثاني الذي يحتاج إلى أن يفسر فيه وجه الاختلاف بين لفظ الضمير ولفظ المعاد كما فعل الزمخشري الذي رجح الوجه الثاني وقال : ((فإن قُلتَ : لم جمع الضمير في (إخوانهم) والشيطان مفرد ؟ ، قلتُ : المراد به الجنس كقوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾[4]))[5] وإذا كان المراد بهذه الآية – كما يقول ابن عطية –: ((وصف حالة الكفار مع الشياطين كما وصف حالة المتقين معهم من قبل))[6] فالوجه الثاني أوجه ، ومعاده أقرب ، وكلا المعادين منتزعان من السياق .

ومثل هذا الضمير الذي يصلح أن يعود إلى أكثر من معاد ، ولكنه لا يعود إلى أقرب مذكور الضمير المجرور في قوله : (وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ) من قوله تعالى : ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[7] فأقرب مذكور في السياق هو لفظ (المطلقات) -كما في صدر الآية- ولا وجه للحديث عن حقوق لهن وعليهن إذ قد انفصمت عرى الزوجية، لهذا يحتاج الضمير إلى معاد آخر يقول (ابن عاشور) : ((لا يجوز أن يكون ضمير (لهن) عائداً إلى أقرب مذكور ، وهو (المطلقات) على نسق الضمائر قبله ، لأن المطلقات لم تبق بينهن وبين الرجال علقة حتى يكون لهن حقوق وعليهن حقوق ، فتعين أن يكون ضمير(لهن) ضمير الأزواج النساء اللآئي اقتضاهن قوله : (بردهن) بقرينة قوله : (وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ) فالمراد بالرجال...

---

[1] التحرير والتنوير : ج ٨،ص٤٠٧.

[2] المصدر نفسه : ج ٨،ص٤٠٧.

[3] ذهب أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي إلى أن قوله تعالى : ((وإخوانهم) يعني الكفار وهم إخوان الشياطين (يمدونهم) أي الشياطين يطولون لهم الإغواء والضلالة)) . [انظر : الوجيز في تفسير الكتاب العزيز : تحقيق صفوان عدنان داوودي ، دار العلم دمشق ، ط١(١٤١٥هـ) ج١،ص٤٢٨].

[4] سورة البقرة:الآية ٢٥٧.

[5] الكشاف: ج ٢،ص١٨١.

[6] المحرر الوجيز : ص ٧٧٢.

[7] سورة البقرة:الآية ٢٢٨.

الأزواج ... ويجوز أن يعود الضمير إلى النساء في قوله : ﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1] بمناسبة أن الإيلاء من النساء هضم لحقوقهن إذا لم يكن له سبب ، فجاء هذا الحكم الكلي على ذلك السبب الخاص لمناسبة))[2].

وإلى هذا الوجه ذهب الزمخشري[3] وقد أوضح (ابن عاشور) كيفية ترتيب الكلام وفق الوجه الأخير من بداية قوله تعالى: (لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ...)الآية إلى قوله تعالى : (وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ) ليتضح صحة عود الضمير على ذلك المرجع فقال : ((الكلام تدرج من ذكر النساء اللاتي في العصمة ، حين ذكر طلاقهن بقوله : ﴿ وَإِنْ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ ...﴾الآية[4] إلى ذكر المطلقات بتلك المناسبة ، ولمّا اختتم حكم الطلاق بقوله: (وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ) صار أولئك النساء المطلقات زوجات ، فعاد الضمير إليهن باعتبار هذا الوصف الجديد الذي هو الوصف المبتدأ به في الحكم ، فكان في الآية ضرب من ردّ العجز على الصدر ، فعادت إلى أحكام الزوجات بأسلوب عجيب))[5].

- **الإحالة المقامية :**

تمثلت صور الإحالة المقامية بضمير الغائب التي أشار إليها (ابن عاشور) في مواضع عود الضمير إلى غير مذكور في الكلام ، وقد حرص (ابن عاشور) على بيان مرجع الضمير ليظهر أثر هذه الضمائر في تحقيق انسجام النّص من خلال ارتباطه بمقام التلقي ، ومن أمثلة ذلك :

– قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُواْ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[6] فضمير الجمع في قوله : (وَلَّىٰهُمْ) ((عائد إلى معلوم من المقام ، غير مذكور في اللفظ ، حكاية لقول السفهاء ، وهم يريدون بالضمير أو بما يعبر عنه في كلامهم أنه عائد على المسلمين))[7].

– قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾[8] يقول (ابن عاشور) : ((ضمير (يقولون) عائد إلى غير مذكور لأنه معلوم من المقام ، أي يقول الناس أو المسلمون))[9].

---

[1] سورة البقرة:الآية ٢٢٦.
[2] التحرير والتنوير : ج ٢،ص٣٧٦.
[3] انظر الكشاف : ج ١،ص٣٠٠.
[4] من قوله تعالى : (وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم) [البقرة: ٢٢٧].
[5] التحرير والتنوير : ج ٢،ص٣٣٧.
[6] سورة البقرة:الآية ١٤٢.
[7] ابن عاشور : التحرير والتنوير : ج ٢،ص٨.
[8] سورة الكهف:الآية ٢٢.
[9] التحرير والتنوير : ج ١٥،ص٤٤.

- يقـول تعـالى : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴾[1] يقول (ابن عاشـور) : "الضمير المنصوب [في قولـه : (عَلَّمْنَـٰهُ)] عائد إلى معلوم من مقام الردّ وليس عائداً إلى مذكور، إذ لم يتقدم لـه معاد"[2] والمعلوم من مقام الردّ هو النبي (صلى اللـه عليه وسلم) .

- وقولـه تعالى : ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴾[3] : ورد قولـه تعالى : (فَٱسْتَفْتِهِمْ) في سـورة الصافات مرتين، وهذه هي الثانية والأولى في قولـه تعالى : ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَـٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴾[4]، فكانـت الآيـة الأولى في صدر السورة والآية الثانية في نهايـتها بعد أن سرد القرآن القصص الذي استغرق معظم السورة "فضمير الغيبة عائد على غير مذكور يعـلم من المقام مثل نظيره السابق في قولـه : (فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ)"[5] ومعاده هو المشركون الذين جرى الخطاب معهم من أول السورة.

- في قولـه تعـالى : ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾[6] يقـول (ابن عاشور) : "وضمير(إِنَّهُۥ) عائد إلى القـرآن ولم يسـبق لـه ذكر ولكنه معلوم من المقام في سياق الإخبار بوقوع البعث فإن من أخبرهم به القرآن"[7].

- يقول تعالى : ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۞ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۞ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۞ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۞ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۞ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴾[8] يقـول (ابـن عاشور) : "فالضـميران المستتران في فعلي (كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۞ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ) عائدان إلى (عَبْدًا) وإن كانـت الضـمائر الحافة به عائدة إلى (ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۞ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ) فإن السياق يردّ كل ضمير إلى معاده كما في قول عباس ابن مرداس[9]:

عدنا ولولا نحن أحدق جمعهم   بالمسلمين وأحرزوا ما جمعوا

---

[1] سورة يس:الآية ٦٩.

[2] التحرير والتنوير : ج ٢٢،ص٢٦١.

[3] سورة الصافات:الآية ١٤٩.

[4] سورة الصافات:الآية ١١.

[5] التحرير والتنوير : ج ٢٣،ص٨٩.

[6] سورة التكوير:الآية ١٩.

[7] التحرير والتنوير : ج ٣٠،ص١٣٧.

[8] سورة العلق:الآيات ٩-١٤.

[9] هو أبو الـهيثم العباس بن مرداس بن أبي عامر السلمي : شاعر فارس مخضرم وفد على النبي (صلى اللـه عليه وسلم) فأسلم وأنشده شعراً فأعطاه مع المؤلفة قلوبهم ، توفي (١٨هـ) . وهذا البيت مروي من قصيدة له قالها عقب غزوة حنين أولها :

أما تري يا أم فروة خيلنا   منها معطلة تقاد وظلع [انظر : ابن كثير : البداية والنهاية :ج٤،ص٢٥٦]

... وضمير (كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ) عائد إلى (ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۞ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ) وقرينة المقام ترجع الضمائر إلى مراجعها المختلفة))[١].

ما سبق من الأمثلة يظهر أثر المقام في إحالة الضمائر عليه، وهي إحالة على غير مجهول ، لأن أركان المقام في الآيات تتمثل في (اللـــه – الرسول – المسلمين – القرآن – الكفار) وكلـــها معادات يفرضها ظرف التلقي أثناء نـــزول النَّص القرآن .

وقـــد يســـتدل على معاد الضمير من سياق الآيات ومقام التلقي معاً ، كما في قولـــه تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾[٢] فإن ضمير (لَعَلَّهُمْ) ضمير جمع لا يصح أن يعود إلى موسى ، وقد احتاج الزمخشري إلى تأويل قولـــه تعالى : (ءَاتَيْنَا مُوسَى) بمعنى آتينا قوم موسى ليستقيم معنى الجمع في الضمير من قولـــه: (لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ)[٣] أما (ابن عاشور) فيقول: ((والتعريف في (الكتاب) للعهد وهو التوراة، ولذلك كـــان ضـــمير (لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ) ظاهـــر العـــود إلى غير مذكور في الكلام بل إلى معلوم من المقام، وهم القوم المخاطـــبون بالتوراة ... فانتساق الضمائر ظاهر في المقام دون حاجة إلى تأويل قولـــه : (ءَاتَيْنَا مُوسَى) بمعنى: آتينا قوم موسى ، كما سلكه في الكشاف))[٤] .

كمـــا يســـتدل عـــلى معـــاد الضمير –أيضاً– من غرض الآيات الوارد فيها، نحو قولـــه تعالى : ﴿ قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۞ بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾[٥] فـــإن ضمير (عَجِبُوٓاْ) ((عائد إلى غير مذكور ، فمعاده معلوم من السياق أعني افتتاح السورة بحرف التهجي ، الذي قصد منه تعجيـــزهم عن الإتيان بمثل القرآن ... فإن المتحَدَّينَ بالإعجاز مشهورون يعلمهم المسلمون وهم أيضاً يعلمون أنهم المعنيون بالتحدي بالإعجاز . على أنه سيأتِي ما يفسر الضمير بقولـــه : (فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ)))[٦] .

ولم تكـــن الحاجـــة إلى الإظهار لأن الإضمار لا يدل على المعاد فذلك غرض تابع ، بل لأن التعبير عنهم بالاسم الظاهر من قولـــه : (فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ) ((لتوسيمهم ؛ فإن هذه المقالة من آثار الكفر ، وليكون فيه تفسير للضميرين السابقين))[٧] .

---

[١] التحرير والتنوير : ج ٣٠،ص٣٩٥.

[٢] سورة المؤمنون:الآية ٤٩.

[٣] انظر الكشاف : ج ٣،ص١٩١.

[٤] التحرير والتنوير : ج ١٨ ،ص٥٤.

[٥] سورة ق:الآيتان ١، ٢.

[٦] ابن عاشور :التحرير والتنوير : ج ٢٦،ص٢٣٢.

[٧] المصدر نفسه : ج٢٦،ص٢٣٢.

- **الإحالة المزدوجة لضمير الغائب :**

تحدثـــت كتب النحو عن الإحالة المزدوجة لضمير الغائب إلى سابق في الكلام وهو الأصل ، وإلى متأخر وهو الاستثناء .

وحــــدد الـــنحاة المواضع التي يصح أن يعود فيها الضمير على متأخر لفظاً ورتبة، واشتهرت عندهم هذه المواضع وهي :

١- أن يكـــون الضمير مرفوعاً بـــ(نِعْمَ أو بئس) وما يلحق بهما ولا يفسر إلا بالتمييز ، نحو : نعم رجلاً زيـــدٌ ، وبئس رجلاً عمروٌ . خلافاً للفراء والكسائي اللذين جعلا المخصوص هو الفاعل ولا ضمير في الفعل[١] .

٢- أن يكون مرفوعاً بأول المتنازعين المعمل ثانيهما ، نحو قول الشاعر[٢]:

جَفوني ولم أجفُ الأخلاءَ إنني ... لغير جميلٍ منْ خليليَّ مهملُ

٣- أن يكون مُخبراً عنه فيفسره خبره ، نحو قولـــه تعالى : ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا ﴾[٣] .

٤- ضمير الشأن والقصة : نحو قولـــه تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾[٤].

٥- أن يُجر الضمير بـــ(ربَّ) مفسراً بتمييز مفرد لازم للتذكير ، نحو : رُبَّهُ رجلاً . وزاد ابن هشام : رُبَّهُ امرأةً[٥]

٦- أن يكون مبدلاً منه الظاهر المفسر لـــه نحو : ضربتُه زيداً [٦].

٧- أن يكـــون الضـــمير متصلاً بفاعل مقدم ، ومفسره مفعول مؤخر ، نحو : ضربَ غلامُهُ زيداً ، وقد أجاز هذا من النحويين الأخفش[٧]، وابن جني، واستشهد لـــه ابن هشام بقول حسان بن ثابت[٨]:

---

[١] أورد ابن هشام جواز قولـــهم : نعم رجلاً كان زيدٌ . حيث لا يدخل الناسخ على الفاعل ، وأن المخصوص قد يحذف نحو قولـــه تعالى : (بئس للظالمين بدلاً)[سورة الكهف : آية ٥٠]انظر : مغني اللبيب : ص٦٣٥.

[٢] البيت من شواهد المغني ، لم يسمَّ قائلـــه . [انظر : مغني اللبيب : ص٦٣٥].

[٣] ســـورة المؤمنون:الآية ٣٧. قال الزمخشري : "هذا ضمير لا يُعلم ما يعني به إلا بما يتلوه من بيانه . وأصلـــه : إن الحياة (إلا حياتنا الدنيا) ثم وضع (هي) موضع الحياة لأن الخبر يدل عليها ويبينها" [انظر : الكشاف : ج ٣،ص١٨٩]

[٤] سورة الإخلاص:الآية ١.

[٥] يقـــول ابن هشام في مغني اللبيب ، ص٦٣٨: "وحكمه حكم ضمير نِعْمَ وبئس في وجوب كون مفسره تمييزاً ، وكونه هو مفرداً ... ولكنه يلزم أيضاً التذكير فيقال : رُبَّهُ امرأة ، لا رُبَّها ، ويقال : نعمت امرأةً هندٌ ، وأجاز الكوفيون مطابقته للتمييز في التأنيث والتثنية الجمع ، وليس بمسموع .وعندي أن الزمخشري يفسر الضمير بالتمييز في غير بابي نِعمَ ورُبَّ " واستدل بتفسير الزمخشري لقولـــه تعالى : (فسواهن سبع سماوات ...)الآية [سورة البقرة : آية٢٩] على أن الضمير في (فسواهن) ضمير مبهم ، و(سبع سماوات) تفسيره . [انظر الكشاف : ج١ ،ص١٥٢].

[٦] أشـــار ابـــن هشام إلى خلاف النحويين في تفسير البدل والنعت وذلك في قولـــه : "قال ابن عصفور : أجازه الأخفش ومنعه سيبويه ، وقال ابن كيسان : هو جائز بإجماع ، نقلـــه عنه ابن مالك ، ومما خرَّجوا على ذلك قولـــهم : (اللـــهم صلِّ عليه الرؤوفِ الرحيم) وقال الكسائي : هو نعت ، والجماعة يأبون نعت الضمير" .
[انظر : مغني اللبيب :ص٦٣٩]

[٧] هو أبو الحسن سعيد بن مسعدة : تلميذ سيبويه، وكان أسن من سيبويه ، له كتاب المقاييس والاشتقاق كان يلقب بالأخفش الأصغر . توفي (٢١٥هـــ) فلما ظهر علي بن سليمان المعروف بالأخفش أيضاً ، وهو تلميذ ثعلب والمبرد صار هذا وسطاً ، وصار علي بن سليمان معروفاً بالأصغر ، وأما الأخفش الأكبر فهو عبدالحميد بن عبدالمجيد ، أبو الخطاب ، شيخ يونس بن حبيب . [انظر :(أ) السيوطي: بغية الوعاة ، ص٢٥٨ (ب) القنوجي : أبجد العلوم ، ص٥٨٧].

[٨] هو حسان بن ثابت بن المنذر الخزرجي الأنصاري ، أبو الوليد : شاعر النبي (صلى الله عليه وسلم) ، وأحد المخضرمين . توفي (٥٤هـــ) .

ولو أنَّ مجداً أخلَدَ الدهرَ واحداً   من النَّاسِ أبقى مجدُهُ الدَّهرَ مُطْعِماً[1]

ثم قــال ابن هشام : "والجمهور يوجبون في ذلك : في النثر تقديم المفعول ، نحو : ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ ﴾[2]"[3].

فهــذه المواضـــع السبعة هي التي استثنى فيها النحاة عود الضمير إلى متأخر لفظاً ورتبة ، وقد عللوا هذا الاســـتثناء تعلـــيلاً تداولياً ، يتمثل في أنهم قصدوا التفخيم بذكر الشيء أولاً مبهماً ثم تفسيره ، ليتضمن ذلك تشوق النفس إلى التفسير فيكون أوقع فيها ، والذكر مرتين بالإجمال ثم التفصيل فيكون آكد .

وهـــذا يدلّ على أن البحث عن مرجع الضمير لا يتم بعيداً عن إدراك العلاقة بين مواقع الجمل لأن هذه العلاقات تتحكم في تحديد نوع الإحالة إلى متقدم أو متأخر .

وأبـــرز مثال نستدل به من تفسير (ابن عاشور) للإحالة المزدوجة المعتمدة على علاقات الجمل في تحديد جهـــة المرجع المناسب للضمير هو إحالة الضمير في قولـــه تعالى :﴿ قُلْ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ۝ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴾[4] يجوز فيه وجهان :

– الوجه الأول : "أن تكون في موقع الاستئناف الابتدائي انتقالاً من غرض وصف أحوال أهل المحشر إلى غرض قصة خلق آدم وشقاء الشيطان"[5] وبناء على هذا الموقع فإنه يتعين البحث عن تفسير مناسب للكلام يتضـــح به معنى للضمير ، لذلك يقول (ابن عاشور) : "فيكون ضمير (هو) ضمير شأن يفسره ما بعده ، وما يبين بـــه مـــا بعده من قولـــه : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴾[6] جعل هذا كالمقدمة للقصة تشويقاً لتلقيها ، فيكون المراد بالنبأ نبأ خلق آدم وما جرى بعده ، ويكون ضمير(يَخْتَصِمُون) [من قولـــه تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾[7]] عـــائداً إلى المـــلأ الأعـــلى لأن الملأ جماعة ويراد بالاختصام الاختلاف الذي جرى بين الشيطان وبين من بلّغ إليه من الملائكة أمر اللـــه بالسجود لآدم"[8] .

وإنما لم يصح أن يكون قولـــه : (نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ) هو المفسِّر لأن الشرط في الجملة المفسرة لضمير الشأن أن يتضـــح بهـــا إبهامـــه وأن تشير إلى شأن أو قصة ، وبهذا تكون الإحالة إلى متأخر في اللفظ والرتبة ،وبين الضمير

---

[1] البيت في ابن عقيل :ج١ ،ص١٧٥. وهو من شواهد المغني ولم يسم قائلـــه.

[2] سورة البقرة:الآية ١٢٤.

[3] انظر مغني اللبيب : ص٦٣٩.

[4] سورة ص:الآيتان ٦٧، ٦٨.

[5] ابن عاشور : التحرير والتنوير : ج ٢٣،ص١٨٥.

[6] سورة ص:الآية ٧١.

[7] سورة ص:الآية ٦٩.

[8] التحرير والتنوير : ج ٢٣،ص١٨٥.

ومعـــاده جمل متعددة ، والغرض من الفصل بينهما التشويق وهو مقتضى أسلوبي مهم ، يشترط لـــه متابعة قراءة الآيات إلى نهاية القصة التي قُدّم الضمير المحيل إليها لغرض التشويق .

– الوجه الثاني : ويمكن أن نفهم معنى الإحالة في الضمير من علاقة موقع الآية بما قبلـــها ، يقول (ابن عاشـــور) : "ويجـــوز أن تكون جملة (قُلْ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ...) تذييلاً للذي سبق من قولـــه : ﴿ هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾[1] إلى هـــنا ، تذيـــيلاً يشعر بالتنويه به ، وبطلب الإقبال على التدبر فيه والاعتبار به. وعليه يكون ضمير (هو) ضميراً عائداً إلى الكلام السابق على تأويلـــه بالمذكور فلذلك أتي لتعريفه بضمير المفرد. والمـــراد بالنبأ : خبر المحشر وما أعدّ فيه للمتقين من حسن مآب وللطاغين من شر مآب ومن سوء صحبة بعضهم لـــبعض ، وتراشقهم بالتأنيب والخصام بينهم ، وتكون جملة(إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ...)الآية، استئنافاً ابتدائياً، وعلى هذا فضمير (يختصمون) عائدٌ إلى أهل النار من قولـــه تعالى : ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾[2]"[3] وعـــلى هذا يكون ضمير الغائب قد أمكن بواسطته استحضار خطاب سابق استغرق (١٨) آية من الآية : (٤٩) وحـــتى الآيـــة: (٦٧) في خطاب جديد مُتأول جميعه بالمذكور ، وعاد الضمير مفرداً مناسباً لـــهذا المذكور الذي أغنانا الضمير عن إعادته .

وقـــد ذهـــب الزمخشري إلى عود الضمير في قولـــه : (قُلْ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ) إلى ما تقدم بناءاً على تفسير لفـــظ (النبأ) بأنه المتقدم في قولـــه: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۝ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّـٰرُ ﴾[4] وهو معاد قريب ، يقول الزمخشري : "(قُلْ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ) أي : هذا الذي أنبأتكم به من كوني رسولاً منذراً وأن اللـــه واحد لا شريك لـــه"[5] وأشار إلى وجه آخر في معنى (النبأ) وهو أن المقصود به : قصة آدم (عليه السلام) ، وعن عبد اللـــه بن عباس : القرآن ، وعن الحسن : يوم القيامة. وقـــال ابن عطية : "الإشارة بقولـــه تعالى : (قُلْ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ) إلى التوحيد والمعاد ، فهي إلى القرآن وجميع ما تضمنه وعده أن التصديق به نجاة والتكذيب به هلكة"[6] ، ويتضح من هذه المقارنة أن نظرة (ابن عاشور) لـــهذا الضـــمير أشمل ، لكونها أقيمت على تحديد معاد الضمير من العلاقة بين الآيات السابقة واللاحقة ، ومن معنى ما يصـــلح أن تفســـر به كلمتي (النبأ والاختصام) على الوجهين فكان المعنى متسلسلاً وواضحاً بعبارة أوضح من عبارة الزمخشري وابن عطية .

---

[1] سورة ص:الآية ٤٩.

[2] سورة ص:الآية ٦٤.

[3] التحرير والتنوير : ج ٢٣،ص١٨٥ ، ١٨٦.

[4] سورة ص:الآيتان ٦٥، ٦٦.

[5] الكشاف : ج ٤ ،ص١٠٦.

[6] المحرر الوجيز : ص ١٦٠٥.

❑ الإحالة بأسماء الإشارة :

تسمى أسماء الإشارة "الأسماء المبهمة" يقول سيبويه : "وأما الأسماء المبهمة فنحو : هذا ، وهذه ، وهذان، وهاتـان ، وهـؤلاء ، وذلك ، وتلك ، ، وذانك ، وتانك ، وأولئك ، وما أشبه ذلك ، وإنما صارت معرفة لأنها صارت أسماء إشارة إلى الشيء دون سائر أمته"[1] وذلك يعني أن قرينة الحضور هي الأصل في إزاحة الإبهام المحيط بأسمـاء الإشارة ، وهو الأمر ذاته الذي يحيط بضمائر التكلم والخطاب ، ولذلك كانت أسماء الإشارة صالحة لأن تعمـل عمل الضمير في تعريف المشار إليه وتميزه : "وقد يكون (هذا) وصواحبه بمنـزلة (هو) يعرّف به، تقول : هذا عبدالله لأعرفه ، إلا أن هذا ليس علامة للمضمر ، ولكنك أردت أن تعرِّف شيئاً بحضرتك"[2] .

وهي مع ذلك تفيد ما أفاد الضمير من صلاحيتها لربط الكلام وتلخيصه ، ولقد تقرر في الدرس اللغوي أن أسمـاء الإشـارة تحـيل إلى ما سبق في النَّص ، فتشير إلى مضمون ما تقدم من قول أو حدث ، فيكون (اسم الإشارة) تلخيص لـهذا القول أو ذلك الحدث تجنباً للإطناب ... وتحيل إلى ما يلي فيشبه عملـها عمل ضمير الشأن[3] .

ولم تغفـل الدراسـات القديمة والحديثة أن تشير إلى الإحالة الموسعة ، وهي : الإحالة النصية إلى خطاب سابق في النَّص إنما تتم بصورة أكبر بواسطة اسم الإشارة الذي يحيل إلى جملة أو متتالية من الجمل[4] .

وقـد حظيت الإحالة بواسطة أسماء الإشارة بعناية المفسرين على تفاوت في الشرح والتفصيل ، واهتموا بضـرورة تعيين المشار إليه إن كان متقدماً أو متأخراً ذاتاً أومعنى ، ووضحوا مرجع الإشارة في حالة ما إذا كان المشار إليه محذوفاً لتقرره في ذهن السامع بحيث أصبح كالمذكور .

كما فصلوا القول فيما يصح من الوجوه التي تحتملـها الإشارة ، إذا كان الكلام المتقدم قابلاً لجعل معاد الإشـارة متعدداً ، وبعبارة أخرى : فقد تصرّفت عنايتهم إلى الإحالة النَّصية القبلية والبعدية والى الإحالة المقامية، ثم إلى خـروج أسماء الإشارة عن أصل وضعها لتدل على الربط المجرد بين خطابين حين تدل بوضعها على فصل خطـاب عن خطاب ، فيخرج اسم الإشارة حينئذ عن أصل ما وضع لـه ، وهذه المباحث وغيرها كانت معقد الحديـث في تفسير (ابن عاشور) عن الإشارة ، ويمكن تبيين ذلك في تتبعنا لمواضع الإشارة في السور المختارة في هذا البحث وذلك عن النحو الآتي:

[1] الكتاب : ج٢،ص٥.

[2] سيبويه : الكتاب، ج٢،ص٨٠.

[3] انظر : تمام حسان : البيان في روائع القرآن ،ص٥٣٦.

[4] انظر : محمد خطابي : لسانيات النَّص ، ص١٩.

أ- الإحالة النَّصية:

تقدمت الإشارة إلى وعي المفسرين -ومنهم (ابن عاشور)- بوظيفة أسماء الإشارة في النَّص ألا وهي: ((جعل الخطاب متماسكاً من خلال استحضار عنصر متقدم أو خطاب بأكمله))[1] أو إظهار تماسكه من خلال استحضار الذوات المتحدث عنها بأوصافها أمام المتلقي .

وقد نصّ (ابن عاشور) على وظيفة الاستحضار هذه في أكثر من موضع فمن ذلك تفسير الإشارة في قوله تعالى : ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[2] حيث يقول : ((والإشارة إلى جماعة المرسلين في قوله : ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[3] وجيء بالإشارة لما فيها من الدلالة على الاستحضار، حتى كأن جماعة الرسل حاضرة للسامع ، بعدما مرّ من ذِكْرِ عجيب أحوال بعضهم، وما أعقبه من ذكرهم على سبيل الإجمال))[4] .

وفي موضع آخر من سورة آل عمران يفسِّر حكمة الإشارة الواردة في قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾[5] فيقول: ((وجيء بالإشارة في قوله : (وَأُوْلَٰٓئِكَ) لاستحضارهم كأنهم بحيث يشار إليهم ، وللتنبيه على أنهم أحرياء بما سيأتي من الخبر ، وهو قوله: (هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ))[6].

لهذا كله فإن تتبع مواضع الإحالة النَّصية بواسطة الإشارة عند (ابن عاشور) يمكن تصنيفه إلى :

- الإشارة إلى متقدم .
- الإشارة إلى متأخر .
- الربط المجرد عن الإشارة .

ولبيان ذلك نفصله على النحو الآتي :

- الإشارة إلى متقدم في النَّص :

من المعلوم أن الإحالة إلى متقدم في النَّص إما أن تكون إحالة إلى عنصر أو إلى خطاب (مجموع آيات) أو تحتملهما معاً ويتبين ذلك في الأمثلة الآتية :

[1] خطابي : لسانيات النَّص ،ص١٧٧.
[2] سورة البقرة:الآية ٢٥٣.
[3] سورة البقرة:الآية ٢٥٢.
[4] التحرير والتنوير : ج ٢،ص٤٨١.
[5] سورة آل عمران:الآية ١٠.
[6] ابن عاشور : التحرير والتنوير : ج ٣،ص٣٢.

- يقول تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾[1] .

في تفسير الإشارة بقوله : (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ) يقول (ابن عاشور) : "والإشارة إلى ما تقدم من قوله : (وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ) وإفراد اسم الإشارة لتأويل المشار إليه بالمذكور"[2] وهذا يعني أن الإحالة هنا من نوع الإحالة إلى عنصر في خطاب قريب .

- قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[3]

يختار (ابن عاشور) أن الإحالة باسم الإشارة في هذه الآية ليست إلى عنصر في الخطاب بل إلى خطاب برمته لأن مورد الآية كما يقول: "زيادة تعجيب من طرق القساوة للقلب بعد تكرر جميع الآيات السابقة المشار إلى مجموعها بـ(ذَٰلِكَ)"[4] ومجموع الآيات المرادة، يشمل جميع الآيات التي ضربها الله لبني إسرائيل مثل: رفع الطور ، ومسخ بعض عصاته قردة ، وقصة إحياء القتيل ، وغيرها ، وهي جميعاً متقدمة في السورة على هذه الآية .

وكان الزمخشري قد أورد وجهين لتفسير الإشارة في هذا الموضع حيث يقول : " و (ذَٰلِكَ) إشارة إلى إحياء القتيل ، أو إلى جميع ما تقدم من الآيات المعدودة"[5] فتكون الإحالة على هذا مزدوجة ، فهي إحالة إلى عنصر إن أشارت إلى إحياء القتيل ، لأن آية إحياء القتيل عنصر في قصة والقصة جزء من خطاب . أو إحالة إلى جميع ما ضرب لبني إسرائيل مما ورد في السورة فيكون إحالة إلى خطاب بأكمله .

---

[1] سورة البقرة:الآية ٦١.

[2] التحرير والتنوير : ج ١ ،ص٥١٢.

[3] سورة البقرة:الآية ٧٤.

[4] التحرير والتنوير : ج ١،ص٥٤٥.

[5] الكشاف : ج ١،ص١٨٣. وفسر محمد خطابي كلام الزمخشري عن الآية المعدودة بأنها سبع آيات تتمحور حول ذبح البقرة من الآية : ٦٧ إلى الآية : ٧٣ ، وما ذُكر أولى بالإحالة المقصودة عند الزمخشري وابن عاشور لأنها آيات ومعجزات نزلت على بني إسرائيل لعل قلوبهم تلين لنبيهم (عليه السلام). [انظر : لسانيات النّص :ص١٧٧].

– قولــه تعالى : ﴿ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [1]

"الإشارة إلى ما تضمنته القصص الماضية وما فيها من العبر ، [ولكل][2] الحكم العالية في قولــه تعــالى: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ ﴾[3] وقــد نــزلــها منــزلة المشاهد لوضوحها وبيانها"[4] ويظهر من قولــــه : (إلى ما تضمنته القصص الماضية) أن الإحالة إلى خطاب ابتدأ من قولــه : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ ...﴾ إلى قولـــه : ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ ...﴾ الآية[5] وهي كما يقول الزمخشري : "حديث الألوف، وإماتــتهم وإحيائهم ، وتمليك طالوت وإظهاره بالآية التي هي نــزول التابوت من السماء ، وغلبة الجبابرة على يد صبي"[6] .

– قــال تعــالى ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَـٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾ [7]

الإحالــة باســم الإشــارة من قولـــه : (ذَٰلِكَ مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا) إلى ما ذُكرَ في الآية ، يقول (ابن عاشور) : "والإشارة بقولـــه : (ذَٰلِكَ مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا) إلى جميع ما تقدم ذِكْرُه"[8] ويقصد بذلك ما تقدم ذكره في الآية لأن ما قبلــها ليس فيه شيء من المتاع.

– قولـــه تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾[9].

الإشارة بقولـــه : (هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ) إحالة إلى ما تقدم من الكلام ، ولكن عبارة المفسرين في تحديد ما يحيل عليه اسم الإشارة مختلفة ، ففيما أهمل الزمخشري توجيه الإشارة، اختار ابن عطية وجه إعادة الإشارة إلى أقرب مذكور . إذ يقول : "وقولـــه (هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ) إشارة إلى قولـــه : (إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ) لأن ألفاظــه جمعــت الإيمان والطاعات"[10]، فالإشارة عند ابن عطية إلى عنصر واحد من مجموع خطاب عيسى لقومه .

---

[1] سورة البقرة:الآية ٢٥٢.

[2] في نسخة التفسير ما بين الحاصرتين : (ولكن) غير أن سياق الكلام لا يقتضيه ، ولعلــه : (ولكل).

[3] سورة البقرة:الآية ٢٥١.

[4] ابن عاشور : التحرير والتنوير : ج ٢،ص٤٨٠.

[5] سورة البقرة:الآيات : ٢٤٣ – ٢٥١.

[6] الكشاف : ج ١ ،ص٣٢٤.

[7] سورة آل عمران:الآية ١٤.

[8] التحرير والتنوير : ج ٣،ص٤١.

[9] سورة آل عمران:الآية ٥١.

[10] المحرر الوجيز : ص ٣٠٦.

أمــا بــرهان الدين البقاعي فيفسر مرجع اسم الإشارة (هذا) بقولــه : "أي الذي دعوتكم إليه" فكأنها إحالــة إلى جمــيع ما دعا إليه عيسى قومه فيما ورد ذكره في الآيات المتقدمة فهي إحالة إلى خطاب قريب ، وهو أوجه وأشمل ولذلك أخذ به (ابن عاشور) فقال : "الإشارة إلى ما قاله كلــه أي أنه الحق الواضح"[1].

– قولــه تعالى : ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْآيَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾[2]

ينــبه (ابن عاشور) أن موقع الآية بالنسبة لما سبقها موقع التذييل "واسم الإشارة إلى الكلام السابق من قولـــه تعـــالى : ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ...﴾[3] "[4] فهي إحالة إلى خطاب مــتقدم ، اشــتمل على قصة عيسى "من ابتداء تكوينه إلى انتهاء رفعه، وما كان بعده من أمر أتباعه"[5] . وكان الزمخشري قد توسَّع في معاد الإشارة ليشمل ما سبق من الآيات في السورة إذ قال : "(ذَٰلِكَ) إشارة إلى ما سبق مــن نــبأ عيســى وغيره"[6] وهو حاصل كلام ابن عطية[7] ، فالإحالة موسعة على هذا الوجه فيكون إحالة إلى خطاب أو أكثر من خطاب متقدم على موضع الإشارة .

ومــن الباحثين المعاصرين من جعل الإحالة في هذا الموضع من نوع الإحالة إلى ما يلي وذلك بناءً على أن أسمــاء الإشارة تستعمل استعمال ضمير الشأن والاسم الموصول في الإشارة إلى مضمون الشأن ومنطوقة . يقول تمــام حسان : "وإما أن يكون الضمير [اسم الإشارة] إشارة إلى المنطوق والمضمون معاً فمثلــه مثل عبارة (ما يــلي) تمامــاً ، وذلك شأن الإشارة الموصول ونحوهما"[8] واستدل على هذا بأمثلة منها موضع الإشارة الذي نحن بصدده ، وهو قولــه تعالى: (ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْآيَٰتِ...) حيث عقب عليه بقولــه : "والإشارة إلى قياس خلــق عيسى على آدم"[9] وهو مضمون قولــه تعالى بعد هذه الآية : ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[10] ولم يبين تمام حسان ما الأصل الذي اعتمد عليه في تفسير مرجع اســم الإشارة إلى ما يلي من الكلام في هذا الموضع وأمثالــه . ومع التسليم بعد لزوم رجوع الإشارة إلى متقدم دائماً ، إلا أن وجود ما يصح الإشارة إليه مما سبق هنا واضح لأن المذكور كالمشاهد يمكن أن يشار إليه .

---

[1] التحرير والتنوير : ج ٣،ص١٠٤.

[2] سورة آل عمران:الآية ٥٨.

[3] سورة آل عمران:الآية ٤٥.

[4] التحرير والتنوير : ج ٣،ص١١١.

[5] البقاعي : نظم الدرر ، ج٢،ص٩.

[6] الكشاف : ج ٢ ،ص٣٩٤.

[7] حيث يقول : "(ذلك) رفع بالابتداء ، والإشارة به إلى ما تقدم من الأنباء" . [انظر : المحرر الوجيز : ص٣٠٩].

[8] البيان في روائع القرآن : ص٥٣٨.

[9] تمام حسان : البيان في روائع القرآن : ص٥٣٩.

[10] سورة آل عمران:الآية ٥٩.

وقد جوز الزمخشري "أن يكون (ذلك) بمعنى الذي ، و(تتلوه) صلته ، و(من الآيات) الخبر"[1] وعلى هذا يكون العامل في الحال اسم الإشارة ، وهي إحدى مسائل الخلاف بين النحاة[2] .

– قولــه تعالى : ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾[3].

يستند (ابن عاشور) في تحديد معاد هذه الإشارة إلى مفهوم دلالي وأسلوبي اعتماداً على ترتيب الخطاب في النّص وتحديد مواضع الانتقالات فيه ، فقد عُدّت هذه الآية وأخواتها في سورة (آل عمران)[4] مؤشراً على اختتام الخطاب ، وهذا ما يمثله المحسن المسمى بالتذييل . وقد جاء في السورة ما يشبه هذا التذييل للتعقيب على قصة مريم ، قولــه تعالى:﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ...﴾الآية[5] . وقال عقب قصة عيسى (عليه السلام): ﴿ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴾[6] وقال عقب مجادلة أهل الكتاب والمشركين وإبطال دعاواهم : ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾[7] لذلك فإن (ابن عاشور) يرى أن "الإشارة في قوله : (تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ) إلى طائفة من آيات القرآن السابقة من هذه السورة...فيتجه أن تكون الطائفة المقصودة بالإشارة هي الآيات المبدوءة بقوله : (إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ

---

[1] الكشاف : ج ٢،ص٣٩٤

[2] يرى الكوفيون أنه لا يصح أن يكون العامل في الحال اسم الإشارة ، وعلى هذا فإن قولــه تعالى : (نتلوه) صلة لذلك ، ويكون الخبر هو قولــه : (من الآيات) وفسروا الإشارة في قول يزيد بن مفرغ الحميري :

عدس ما لعبادٍ عليك إمارة ... نجوتِ ، وهذا تحملين طليقُ

أن قولــه : (وهــذا تحملين) هو على تأويل هذا بالذي ، أما البصريون فيرون صحة مجيء الحال من اسم الإشارة ، فالعامل في الحال عندهم فعل أو معنى فعل، وأسماء الإشارة تفيد معنى الفعل . يقول أبو البقاء العكبري : "وأما العامل المعنوي فكأسماء الإشارة ، كقولك : هذا زيدٌ قائماً ، وإنما عمل لأن معناه : أنبه وأشير إليه في حال قيامه"[انظر : اللباب : ج١،ص٢٨٩]. وعلى هذا يكون قولــه : (نتلوه) حال من اسم الإشارة ، وقولــه : (من الآيات) خبر، وحجة البصريين أن اسم الإشارة اسم تام بنفسه يحسن الوقف عليه فلم يكن موصولاً ، ولذلك يجمع بينه وبين (الذي) . وردّ البصريون –أيضاً– بأن البيت فيه ثلاثة أوجه:

١– أن (طليقاً) خبر (هذا) ، و (تحملين) حال من الضمير في (طليق) ، والعائد محذوف أي : تحملينه .

٢– أنه خبر بعد خبر .

٣– أن يكون حالاً والعامل فيه معنى الإشارة .

وجــاء في همع الــهوامع ، ج١،ص٢٤٤: "منع السهيلي عمل حرف التنبيه في الحال ... قال : ولا يصح أن يعمل فيه اسم الإشارة ... والعامل في مثل (هــذا زيــدٌ قائماً) إنما هو : (انظر) مقدرة ، وأيده أبو حيان". وقد رجح ابن عاشور رأي البصريين واستدل بقولــه تعالى : (وهذا بعلي شيخاً)[سورة هــود: آيــة ٧٢] فإنها حال منتقلة مقارنة ، ثم قال : "وهو استعمال عربي فصيح وإن خالف في صحة مجيء الحال من اسم الإشارة بعض النحاة"[التحرير والتنوير : ج ٣،ص١١١] وهو الصواب لكونه يجري على أصول استعمال اسم الإشارة في حضور التكلم . انظر في تفصيل المسألة :

(أ) الزمخشري : المفصل ، تحقيق علي بوملحم، مكتبة الهلال –بيروت ، ط١(١٩٩٣)ج٤ ، ص٢٤ .

(ب) السيوطي : همع الهوامع ، ج١،ص٢٤٤.

[3] سورة آل عمران:الآية ١٠٨.

[4] الآيات : (٤٤ ، ٥٨ ، ١٠٨) من سورة آل عمران .

[5] سورة آل عمران:الآية ٤٤.

[6] سورة آل عمران:الآية ٥٨.

[7] سورة آل عمران:الآية ١٠٨.

كَمَثَلِ ءَادَمَ...) إلى هنا ، لأن ما قبلـه ختم بتذييل قريب من هذا التذييل وهو قولـه : (ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْأَيَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ) فيكون كل تذييل مستقلاً بطائفة الجمل التي وقع هو عقبها"[1].

وهـذا التوجيه في جعل الإشارة تحيل إلى خطاب متكامل حول موضوع من موضوعات أغراض السورة أولى من حمل الإشارة على معاد متقدم ولو كان عنصراً من خطاب قريب لمجرد تقدمه وقربه كما فعل الزمخشري في تفسير تعلق اسم الإشارة هذا بقولـه : "(تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ)الواردة في الوعد والوعيد"[2] وكأنه يقصد الآيات السـابقة عـلى موضع الإشارة وهي الآيات المشتملة على بيان مصير الذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات يوم القيامة ، ومصير المؤمنين في قولـه : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ...﴾الآية[3] أو كما فعل ابن عطـية أيضـاً ، حيـث قـال : "الإشـارة بـ(تِلْكَ) إلى هذه الآيات المتقدمة المتضمنة تعذيب الكفار وتنعيم المؤمنين"[4].

وقـد بين (ابن عاشور) وجه اختصاص كل هذه الآيات (٥٩ – ١٠٨) بالإشارة فقال : "وحظيت هذه الطائفـة من القرآن بالإشارة لما فيها من الدلائل المثبتة صحة عقيدة الإسلام والمبطلة لدعاوى الفرق الثلاث من اليهود والنصارى والمشركين"[5] وهي لفتة قيمة إلى سياق السورة الذي جاء فيه أن من أهم أغراضها محاورة هذه الفرق الذين تداخلت الضمائر والإشارات المحيلة إليهم من بداية السورة.

– قولـه تعالى : ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[6].

يخـتار (ابن عاشور) أن يكون اسم الإشارة في هذه الآية محتملاً وجهين من الإحالة : فإما أن يحيل إحالة نصّية إلى مذكور ، ولم يبين حدوده ، أو أن يحيل إحالة مقامية "والإشارة إما إلى ما تقدم بتأويل المذكور ، وإما إلى حاضر في الذهن عند تلاوة الآية وهو القرآن"[7] .

ولم ينهج (ابن عاشور) نهج الزمخشري في تحديد المشار إليه بهذه الإشارة، الذي جعلـها جميعاً إحالة نصية إلى مـتقدم في الـنّص ، وهـذا المتقدم هو مضمون قولـه : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾[8] فـيكون قولـه : (هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ) بيان لسبب هلاكهم ، وحثّ

---

[1] التحرير والتنوير : ج ٣،ص١٨٦.

[2] الكشاف : ج ٢،ص٤٢٨.

[3] سورة آل عمران:الآية ١٠٦.

[4] المحرر الوجيز : ص ٣٤١.

[5] التحرير والتنوير : ج ٣،ص١٨٦.

[6] سورة آل عمران:الآية ١٣٨.

[7] التحرير والتنوير : ج٣،ص٢٢٧.

[8] سورة آل عمران:الآية ١٣٧.

لـــهؤلاء المكذبين على النظر في سوء عواقب من قبلـــهم ، فيكون قولـــه : (وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ) تثبيتاً للمؤمنين، والإحالة على هذا الوجه إحالة إلى عنصر متقدم في خطاب سابق[1].

وجـــوز الزمخشري أن يكون قولـــه : (قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ) جملة معترضة ... ويكـــون قولـــه: (هَـٰذَا بَيَانٌ) إشارة إلى ما لخص وبيّن من أمر المتقين والتائبين والمصِّرين[2] فتكون هذه الإشارة إحالة إلى خطاب سابق محدد . وهذا المحمل أولى بتوضيح الإشارة من العموم الموجود في كلام (ابن عاشور) .

وقـــد أبعد تمام حسان النجعة حين جعل هذه الإحالة في هذه الآية إحالة إلى ما يلي بقولـــه : ((الإشارة إلى ما يلي من تثبيت اللـــه لقلوب المؤمنين بالعزاء))[3]

– يقول تعالى : ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾[4] .

هـــذه إحالة إلى خطاب استغرق السورة من أولـــها إلى نهاية قصة يوسف ، يقول (ابن عاشور) : ((تذييل للقصـــة عند انتهائها ، والإشارة إلى ما ذكر من الحادث ، أي ذلك المذكور ، واسم الإشارة لتمييز الأنباء أكمل تمييز لتتمكن من عقول السامعين لما فيها من المواعظ))[5] .

– يقول تعالى : ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[6] .

تتضـــمن هـــذه الإشـــارة الإحالة إلى مضمون آية متقدمة هي قولـــه تعالى : ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ...﴾ الآية[7] ، يقول ابن عاشور: ((والإشارة إلى أن الـــهدى الذي هو مصدر من أفعال الـــهدايـــة الـــثلاثة المذكورة في الآية قبلـــها ، وخصوصاً المذكور آخراً بقولـــه تعالى : ﴿...وَهَدَيْنَـٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[8]))[9].

وأشار (ابن عاشور) إلى وظيفتين أخريين لـــهذه الإشارة هي:

– الاهتمام بالمشار إليه وتمييزه بما يجعلـــه كالشيء المشاهد .

---

[1] انظر الكشاف : ج ١،ص٤٤٥.

[2] المصدر نفسه : ج١،ص٤٤٦.

[3] البيان في روائع القرآن ، ص٥٣٩.

[4] سورة يوسف:الآية ١٠٢.

[5] التحرير والتنوير : ج ١٢،ص١٢٢.

[6] سورة الأنعام:الآية ٨٨.

[7] سورة الأنعام:الآية ٨٤.

[8] سورة الأنعام:الآية ٨٧.

[9] التحرير والتنوير : ج ٦،ص٢٠٢.

– التحصيل : "وقد جاء هذا الكلام على طريقة الفذلكة لأحوال الـــهداية التي تكرر ذكرها"[1].

وهذه الوظيفة تكررت باسم إشارة مثل هذا مرتين في هذه السورة في قولـــه تعالى بعد الآية: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَـٰهُمُ ٱلۡكِتَـٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ ...﴾الآيـــة[2] وقولـــــه : ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ ...﴾ الآيـــة[3] ، قـــال (ابن عاشور) : "لأن الفذلكة الأولى راجعة إلى ما في الجمل السابقة من الـــهدى، وهـــذه راجعـــة إلى مـــا فيها من المهديين ، واسم الإشارة لزيادة الاعتناء بتمييزهم وإحضار سيرهم في الأذهان، والمشار إليهم هم المعنيون بأسمائهم والمذكور إجمالاً في قولـــه : ﴿ وَمِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَذُرِّيَّـٰتِهِمۡ وَإِخۡوَٰنِهِمۡۖ ﴾[4]"[5].

– يقول تعالى : ﴿ أَفَبِهَـٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ﴾[6].

يـــناقش (ابن عاشور) مرجع الإشارة والمفرَّع عليه بالفاء، فيقرر بدءاً أن "الإشارة إلى جميع ما تقدم من السورة أصلاً وتفريعاً"[7] فهي إحالة موسعة على مستوى السورة .

وقد تتبع (ابن عاشور) كتب التفسير في بيان مرجع هذه الإشارة ومعنى قولـــه :(أَفَبِهَـٰذَا ٱلۡحَدِيثِ) ثم قال : "أطبق المفسرون –عدا الفخر– أن اسم الإشارة ... مشير إلى القرآن لمناسبة الانتقال من التنويه بشأنه إلى الإنكـــار عـــلى المكذبين ، فالتفريع على قولـــه : ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴾[8] والمراد بالحديث إخبار اللـــه تعالى بالقـــرآن ... ويكـــون العدول عن الإضمار إلى اسم الإشارة بقولـــه : (أَفَبِهَـٰذَا ٱلۡحَدِيثِ) دون أن يقول: أفَبه أنـــتم مدهنون ، إخراجاً للكلام على خلاف مقتضى الظاهر لتحصل باسم الإشارة زيادة تنويه بالقرآن"[9]وعلى هذا تكون الإحالة إلى خطاب قريب مترتب على خطاب سابق .

---

[1] ابن عاشور : التحرير والتنوير ، ج ٦،ص٢٠٢. وقد نظر ابن عاشور هذه الإشارة بأبيات حاتم الطائي التي يقول فيها :

ولـلـــه صعلوك يســـــاور همه ... ويمضي على الأحداث والدهر مقدمـــا

فتى طلبات لا يرى الخمص ترحةً ... ولا شبعةً إن نالـــها عدّ مغنمـــــا

إذا ما رأى يوماً مكارم أعرضت ... تيمم كبراهن ثمتَ صممـــــــا

إلى أن قال في محامد ذلك الصعلوك :

وأحناءِ سرجٍ قاترٍ ولجامــــــهُ ... عتاد أخي هيجا وطرفاً مسومــــا

فذلك إن يهلكْ فحسنى ثنـــاؤه ... وإن عاش لم يقعدْ ضعيفاً مذممـــا

[2] سورة الأنعام:الآية ٨٩.

[3] سورة الأنعام:الآية ٩٠.

[4] سورة الأنعام:الآية ٨٧.

[5] التحرير والتنوير : ج ٦،ص٢٠٣.

[6] سورة الواقعة:الآية ٨١.

[7] ابن عاشور : التحرير والتنوير : ج ٢٧،ص٣٠٨.

[8] سورة الواقعة:الآية ٧٧.

[9] التحرير والتنوير : ج ٢٧،ص٣٠٨.

أمـــا الفخـــر الـــرازي فجعل الإشارة تعود إلى ما تحدث به المشركون وحُكي من قبل السورة بقولـــه تعـــالى: ﴿ وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَبِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾[١] فردّ اللـــه عليهم ونوّه بشأن القرآن الذي نـــزل فيه خبر البعث ، فالحديث على هذا يقصد به حديثهم عن البعث[٢].

وقـــد عقّب (ابن عاشور) على كلام الفخر فقال : "وإنه لكلام جيد ولو يجعل المراد من (هذا الحديث) جمـــيع مـــا تقدم من أول السورة أصلاً وتفريعاً ، أي من هذا الكلام الذي قرع أسماعكم لكان أجود ، وإطلاق الحديث على خبر البعث أوضح لأن الحديث يراد به الخبر الذي صار حديثاً للقوم"[٣] .

وخبر البعث معلوم أنه موضوع السورة الذي افتتحت به ، فيكون كلام (ابن عاشور) أرشق بموقع اسم الإشارة بعدما تقدم من أول السورة تنويهاً وتذكيراً للسامع والقارئ.

- الإشارة إلى متأخر:

تستدعي الإحالة باسم الإشارة إلى متأخر أن يكون المشار إليه مأخوذاً من كلام متأخر عن اسم الإشارة، ذلـــك لأن استعمال اسم الإشارة لا يطرد فيه اعتبار مشار إليه مما سبق من الكلام ، وخاصة حين تجتمع الإشـــارة مع التشبيه ويكون المشبه به المشار إليه غير مذكور في الكلام المتقد م فيتعين تعرف المشار إليه والمشبه به .

وقـــد فصّل (ابن عاشور) هذه الحالة في تفسير قولـــه تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾[٤] فـــبعد أن اســـتعرض كـــلام الزمخشري الذي قال: "قولـــه : (وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ...)أي مثل ذلك الجَعـــل العجيـــب: (جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا)"[٥] وتفســـير البيضـــاوي[٦] الإشارة بأنها تعود إلى المفهوم من قولـــــــه: ﴿ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[٧] أي أن "المشـــار إليه على هذا الوجه معنى تقدم في الكلام السابق، فالإشارة حينئذ إلى متقرر في العلم ، فهي جارية على سنن الإشارات"[٨] ثم بين اختلاف شراح الكشاف في معنى الكاف وحمـــلهم للمعنى على غير ظاهر التشبيه[٩].

---

[١] سورة الواقعة:الآية ٤٧.

[٢] انظر تفسير الكبير : ج ٢٩،ص١٤٨.

[٣] التحرير والتنوير : ج ٢٧ ،ص٣٠٩.

[٤] سورة البقرة:الآية ١٤٣.

[٥] الكشاف : ج ١،ص٢٢٤.

[٦] البيضاوي ج١، ص٤١٥

[٧] سورة البقرة:الآية ١٤٢.

[٨] ابن عاشور : التحرير والتنوير : ج ٢،ص١٥. وقد مثّل لـــه بقول النابغة :

نبئت زرعة والسفاهة كاسمها يهدي إليّ غرائب الأشعار

[٩] حمـــل الطيبي والقطب (الكاف) على أنها اسم بمعنى : مثل ، فنصبت على المفعولية المطلقة لـــ(جعلناكم)... والمشار إليه ما يفهم من مضمون قولـــه : (يهدي) ، أما القـــزويني صاحب الكشف ،والتفتزاني فالكاف عندهم مقحمة كالزائدة لا تدل على التمثيل فيصير اسم الإشارة نائباً مناب مفعول مطلق لـــ(جعلناكم) كأنه قيل : ذلك الجعل جعلناكم فكأنه شبه الشيء بنفسه ، والإشارة لما يذكر بعدها.[انظر: تفصيل مناقشتهم في التحرير والتنوير : ج ٢،ص١٥-١٦].

وقد خص (ابن عاشور) علاقة الإشارة بالتشبيه في هذا الموضع وأمثاله ، وحاصل كلامه : أنه إذا كان المشبه به المشار إليه مذكوراً مثل قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ... ﴾[1] فهو إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ﴾[2] أو كان المشبه به المشار إليه مفهوماً من السياق فيحتمل اعتبار التشبيه ويحتمل اعتبار المفعولية المطلقة ، واستدل على هذا بتفسير الإشارة والتشبية في بيت أبي تمام[3] :

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر　　　فليس لعين لم يفض ماؤها عذر

وهو أن البيت وقع في صدر القصيدة ولم يسبق له ما يشبه به فقطع النظر فيه عن التشبيه ، واستعمل في لازم معنى التشبيه ، وردّ (ابن عاشور) كلام البيضاوي إلى هذا الوجه ثم قال : "وقد يكون مراد منه التنويه بالخبر فيجعل كأنه مما يروم المتكلم تشبيهه ثم لا يجد إلا أن يشبهه بنفسه ، وفي هذا قطع للنظر عن التشبيه في الواقع ... وقوله : (وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا) من هذا القبيل عند شراح الكشاف وهو الحق"[4] فالمشار إليه على هذا الوجه رجحه (ابن عاشور) مأخوذ من كلام متأخر عن اسم الإشارة ، ومن رأى لزوم تقدم المشار إليه كالبيضاوي جعل الإحالة قبلية حيث أفاد كلامه أن المشار إليه على هذا الوجه هو (الهدى) المأخوذ من قوله : (يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ) لكن (ابن عاشور) يقول : "وتأخير المشار إليه عن الإشارة استعمال بليغ في مقام التشويق كقوله تعالى : ﴿ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ﴾[5] "[6] والذي يظهر من كلام (ابن عاشور) أن أسماء الإشارة ليست كغيرها في حقل الافتقار إلى تقدم ذِكْر ، وأن الإقبال على المشار إليه أو تقرره في ذهن المتكلم والمستمع تكفي في الإخبار عنه أو التنويه به .

وهذا هو ما يجعل الإحالة بالإشارة في حالة التشبيه تتردد بين الإحالة النَّصية والإحالة المقامية ، ثم إنها في الإحالة النَّصية تحتمل الإحالة إلى مشار إليه مفهوم مما سبق إن كان هذا المشار إليه واضحاً بدون تكلف، أو إلى لاحق ويقطع النظر عن التشبيه الواقع فيه ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟

---

[1] سورة هود:الآية ١٠٢.

[2] سورة هود:الآية ١٠١.

[3] هو حبيب بن أوس الطائي ، استقدمه المعتصم إلى بغداد فأجازه وقدمه على شعراء وقته ، توفي (٢٣١هـ) .

[4] ابن عاشور : التحرير والتنوير : ج ٢،ص١٦، ١٧.

[5] سورة الكهف:الآية ٧٨.

[6] ابن عاشور : التحرير والتنوير : ج ٢،ص١٧ . وقد وضح ابن عاشور في تفسير هذه الآية أن "المشار إليه بلفظ (هذا) مقدر في الذهن حاصل من اشتراط موسى على نفسه أنه إن سأله عن شيء بعد سؤاله الثاني فقد انقطعت الصحبة بينهما ، أي هذا الذي حصل الآن هو فراق بيننا ... وكثيراً ما يكون المشار إليه مقدراً في الذهن كقوله تعالى : (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً)[سورة القصص : آية ٨٣] " [انظر: التحرير والتنوير : ج١٥،ص١١٦].

بَيْنَهُمْ ...﴾الآيــة[1] فالإشارة مع التشبيه إما ((إلى المذكور من إنامتهم وكيفيتها ... ووجه الشبه أن في الإفاقة آيــة عــلى عظيم قدرة اللــه تعالى مثل آية الإنامة ... ويجوز أن يكون تشبيه البعث المذكور بنفسه للمبالغة في التعجيب))[2] .

وأوضــح من هذا المثال الإشارة في قولــه تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾[3] حيــث يقــول : (ابن عاشور): ((إن أجرينا اسم الإشارة على قياس كثير من أمثالــه في القرآن ... كانت الإشارة إلى التمكين المستفاد من (مَكَّنَّا لِيُوسُفَ) تنويهاً بأن ذلك التمكين بلغ غاية ما يطلب من نوعه ، بحيث لو أريد تشبيه بتمكين أتمّ منه لما كان إلا أن يشبه بنفسه ... وإن أجرينا على ما يحتملــه اللفظ كانــت لحاصــل المذكــور آنفاً، وهو ما يفيد عثور السيارة عليه من أنه إنجاءٌ لــه ... أي مكنا ليوسف (عليه السلام) تمكيناً من صنعنا مثل ذلك الإنجاء))[4].

- الربط المجرد عن الإشارة :

أبــرز (ابــن عاشور) وظيفة أخرى لاسم الإشارة تسهم في تماسك الخطاب . هي وظيفة الربط ، وقد اخترنا أن نجعلــها تحت قسم الإحالة النَّصية ،لأن الغرض من الإشارة في الأمثلة التي سنوردها هو ربط خطــاب بخطاب ، ربطاً مجرداً ليحصل الانتقال بواسطة الإشارة إلى كلام جديد غير الكلام السابق ، أو ربطاً للكلام بما قبلــه إذا طال الفصل بين الكلام الجديد وما يرتبط به من الكلام المتقدم .

أشــار (ابن عاشور) إلى هذا اللون الأخير من الربط باسم الإشارة في تفسير قولــه تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴾[5] فقــال : ((جيء باسم الإشارة لربط الكلام اللاحق بالسابق على طريقة العرب في أمثالــه إذا طال الفصل بين الشيء وما ارتبط به من حكم أو علــة أو نحوهما ، كقول النابغة : وذلك من تلقاء مثلك رائع بعد قولــه : أتاني أبيت اللعن أنك لمتني[6]، والكلام الســابق الأظهــر أنه قولــه : ﴿ ... فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴾[7] والمعنى أنهم استحقوا العذاب على كتمانهم بســبب أن اللـــه أنــزل الكتاب بالحق ، فكتمانهم شيئاً من الكتاب كتمان للحق ، وذلك فساد وتغيير لمراد اللـــه))[8].

---

[1] سورة الكهف:الآية ١٩.

[2] ابن عاشور : التحرير والتنوير : ج ١٥،ص٣٨.

[3] سورة يوسف:الآية ٢١.

[4] التحرير والتنوير : ج ١٢،ص٤٢ — ٤٣.

[5] سورة البقرة:الآية ١٧٦.

[6] والبيتان على التوالي : أتاني أبيت اللعن أنك لمتنــي — وتلك التي تستك منها المسامع
مقالة أن قد قلت سوف أناله — وذلك من تلقاء مثلك رائــع

[7] سورة البقرة:الآية ١٧٥.

[8] التحرير والتنوير : ج ٢،ص١٢٥.

وقد لفت محمد خطابي النظر إلى هذه الوظيفة التي صرّح بها (ابن عاشور) واستنتج من كلام (ابن عاشور) ((أن هذا النوع (من الإشارة) الذي تفتتح به آية ما ، مفصولة عن آيات سابقة ترتبط بها ، فتنحصر مهمته في ربط كلام بكلام لا غير . ومن ثمّ لم يهتم بتعدد ما يشير إليه (ذلك)))[1] .

والحق أن (ابن عاشور) ذكر وجهين لما يصح أن تعود إليه الإشارة تقدم واحدٌ منها، وهو قوله تعالى: ﴿... فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ ، والثاني: هو (الكتمان) المأخوذ من قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾[2] فقال : ((ويجوز أن يكون المشار إليه السابق هو الكتمان المأخوذ من (يكتمون) أي : إنما كتموا بسبب أن الله نزل الكتاب بالحق ، فعلموا أنه على النعت الذي بشر الله به على لسان التوراة))[3]. وإنما رجح الوجه الأول لكونه يحتمل أن يكون (الكتاب) في قوله تعالى: (ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ..) على الوجه الأول هو نفس الكتاب المذكور في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ...﴾[4] وهو التوراة ، أما على الوجه الثاني فالمقصود به القرآن . والوجه الأول أولى لمناسبة إعادة ذكر الكتاب واستحقاقهم العذاب على كتمانهم ما أنزل الله فيه من الحق . وأصبح الربط باسم الإشارة فيه مناسبة لإظهار العلاقة بين خطابات النّص (علاقة السببية) ولو أن (ابن عاشور) وسّع المجال فيما يصح أن يرتبط بواسطة هذه الإشارة ليشتمل جميع الوعيد المتقدم في الآيات من قوله: ﴿...أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[5] لكان أسعد بمقام الإشارة وأوضح لوظيفة الربط، مع وجود الفصل بقوله تعالى : ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾[6] .

ولكنّ وظيفة الربط بواسطة اسم الإشارة لا تظهر بصورة أوضح إلا حين يكون الكلام الذي يجيء بعد اسم الإشارة ، يرجع إلى كلام بينه وبين ما سبق خطاب معترض، ويكون اسم الإشارة فصلاً للخطاب الجديد عما يسبقه مباشرة، ومرتبطاً بالحديث المتقدم مناسبة على الحديث المعترض به ، وهي صورة أخرى من الربط يصدق عليها ما استنتجه محمد خطابي من وجود الفصل المفتتح بالإشارة أكثر مما يصدق على ذلك الموضع المتقدم الذي ظهر فيه وجود علاقة معنوية بين اللاحق والسابق .

---

[1] لسانيات النّص : ص١٧٨.

[2] سورة البقرة:الآية ١٥٩.

[3] التحرير والتنوير : ج ٢،ص١٢٥.

[4] سورة البقرة:الآية ١٧٤.

[5] سورة البقرة:الآية ١٧٤.

[6] سورة البقرة:الآية ١٧٥.

ومن تتبع تفسير (ابن عاشور) نجد أن الربط الشكلي بواسطة الإشارة يمكن أن يصنف إلى نوعين :

١- الفصل بالإشارة لتنهية الكلام والشروع في كلام جديد.

٢- الفصل بالإشارة لتنهية الكلام والعود إلى ما قبله .

* فالنوع الأول : يرتبط بالتشبيه -غالباً- والمشبه به (المشار إليه) محذوف، وقد نبه (ابن عاشور) إليه في موضعين :

○ الموضع الأول : في سورة الكهف وهو قوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ وَقَدۡ أَحَطۡنَا بِمَا لَدَيۡهِ خُبۡرًا ﴾[١].

حيث ساق (ابن عاشور) عدة أوجه لإعراب الكاف ومجرورها . فإنه لما كانت ((الكاف للتشبيه والمشبه به شيء تضمنه الكلام السابق بلفظه أو معناه))[٢] فقد احتمل الإعراب الأوجه التالية :

- الكاف ومجرورها ((شبه جملة وقع صفة لمصدر محذوف يدل عليه السياق ، أي تشبيهاً مماثلاً لما سمعت))[٣].

- ((ويجوز أن يكون جزء جملة حذف أحد جزأيها والمحذوف مبتدأ . والتقدير : أمر ذي القرنين كذلك ، أي كما سمعت))[٤] وهذا التقدير هو عبارة الزمخشري بنصها[٥] .

- ((ويجوز أن يكون صفة لـ(قَوْم) – من قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَطۡلُعُ عَلَىٰ قَوۡمٖ لَّمۡ نَجۡعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتۡرًا ﴾[٦] – أي قوماً كذلك القوم الذين وجدهم في مغرب الشمس ، أي في كونهم كفاراً ، وفي تخييره في إجراء أمرهم على العقاب أو على الإمهال))[٧] وهذا أحد وجهين أوردهما ابن عطية ورجحه حيث قال : ((وقوله : (كَذَٰلِكَ) معناه فعل معهم كفعله مع الأولين أهل المغرب . فأوجز بقوله : (كَذَٰلِكَ) ثم أخبر الله تعالى عن إحاطته بجميع ما لدى ذي القرنين وما تصرّف من أفعال))[٨] .

وهذه الثلاثة الأوجه التي ذكرها (ابن عاشور) تعتمد على ربط مضمون ما بعدها بواسطة اسم الإشارة لأنه قد تضمنه الكلام السابق .

---

[١] سورة الكهف:الآية ٩١.
[٢] ابن عاشور : التحرير والتنوير : ج ١٥،ص١٣٠.
[٣] المصدر نفسه: ج١٥،ص١٣٠.
[٤] المصدر نفسه : ج١٥ ، ص١٣٠.
[٥] انظر الكشاف : ج ٢،ص٦٩٥.
[٦] سورة الكهف:الآية ٩٠.
[٧] التحرير والتنوير : ج ١٥،ص١٣٠.
[٨] المحرر الوجيز : ص ١٢١٢.

- والوجه الأخير : "أن يكون المجرور جزء جملة -أيضاً- جلبت للانتقال من كلام إلى كلام، فيكون فصل خطاب ، كما يقال : هذا الأمر كذا"[١] . وهذا يعني أن الكلام مبني على الاستئناف والانتقال وهو ما أشار إليه ابن عطية في قوله : "ويحتمل أن يكون (كَذَٰلِكَ) استئناف قول ، ولا يكون راجعاً على الطائفة الأولى ، فتأمله . والأول أصوب"[٢].

والذي يظهر أن استعمال الإشارة مع وجود كاف التشبيه للانتقال من كلام إلى كلام مناسب لتفصيل أحوال ذي القرنين المتعددة كما هو في الوجه الأخير.

○ والموضع الثاني في سورة الذاريات، قوله تعالى : ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾[٣] .

يقول (ابن عاشور) : "كلمة (كَذَٰلِكَ) فصل خطاب تدل على انتهاء حديث والشروع في غيره ، أو الرجوع إلى حديث قبله أتى عليه الحديث الأخير . والتقدير : الأمر كذلك . والإشارة إلى ما مضى من الحديث، ثم يورد بعده حديث آخر والسامع يرد كلاً إلى ما يناسبه ، فيكون ما بعد اسم الإشارة متصلاً بأخبار الأمم التي تقدم ذكرها ؛ من قوم لوط ومَنْ عطف عليهم ... فقوله : (كَذَٰلِكَ) فصل ، وجملة (مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ...)الآية ، مستأنفة استئنافاً ابتدائياً"[٤] .

والحديث الأخير الذي أتى على ما قبله من ذكر الأمم من قوم لوط ومن عطف عليهم مبتدئ من قوله تعالى : ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[٥] أي خمس آيات ، ولذلك فصل الخطاب بالإشارة لانتهاء الحديث الذي تضمنته الآيات الخمس ورجع إلى حديث قبله، هو إخبار الأمم وما حلّ بالمكذبين . يقول (ابن عاشور) : "أعقب تهديد المشركين بأن يحل بهم ما حلّ بالأمم المكذبين لرسل الله من قبلهم بتنظيرهم بهم في مقالهم"[٦] وهذا التوجيه قريب مما أورده الزمخشري، حيث قال"(كَذَٰلِكَ) الأمر أي : مثل ذلك ، وذلك إشارة إلى تكذيبهم

---

[١] ابن عاشور : التحرير والتنوير : ج ١٥،ص١٣٠.
[٢] المحرر الوجيز : ص ١٢١٢.
[٣] سورة الذاريات:الآية ٥٢.
[٤] التحرير والتنوير : ج ٢٧،ص٤٠.
[٥] سورة الذاريات:الآيات ٤٧- ٥١.
[٦] التحرير والتنوير : ج ٢٧،ص٤٠.

الرسـول (صلى اللـه عليه وسلم) وتسميته ساحراً و مجنوناً ،ثم فسر ما أجمل بقولـه (مَآ أَتَى))[1] ويقول ابن عطية : ((وقولـه تعالى : (كَذَٰلِكَ) تقديره سيرة الأمم كذلك ، أو الأمر في القديم كذلك))[2] .

وهـنالك وجه آخر لتفسير معنى اسم الإشارة بناءً على مبدأ الاستئناف ومعاد الإشارة إلى كلام متقدم فـتكون الإحالة داخلية إلى متقدم في أول النّص يقول (ابن عاشور) : ((ولك أن تجعل قولـه : (كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم) مـبدأ استئناف عوداً إلى الإنحاء على المشركين في قولـهم المختلف ... واسم الإشارة راجع إلى قولـه: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾[3] ... أي مثل قولـهم المختلف قال الذين من قبلـهم لما جاءهم الرسل))[4].

والذي يهمنا هنا هو تفسير (ابن عاشور) لوظيفة اسم الإشارة ، وهي ترتيب خطاب جديد على خطاب مـتقدم مفصـول عـنه بخطـاب لـه مضمون مختلف إلى حدٍّ ما . وهي لفتة تدل على استيعاب كامل لوسائل الانسجام في النّص .

* وأمـا النوع الثاني: من أساليب الفصل باسم الإشارة : ففيه يتضح استعمالٌ آخر، حيث يخرج به اسم الإشـارة عـن غرضه الأصلي من الإشارة إلى الذات إلى الإشارة إلى معنى يقتضيه ترتيب الخطاب ، وهذا الغرض هو التنبيه إلى ما سيذكر بعد اسم الإشارة ، وتنهية الكلام السابق .

– يقول تعالى : ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾[5].

يسـتخدم (ابـن عاشور) القرينة النحوية والدلالية في تفسير موقع اسم الإشارة ومعناه ، فيقول : ((اسم الإشـارة مسـتعمل هنا للفصل بين كلامين أو بين وجهين من كلام واحد، والقصد منه التنبيه على الاهتمام بما سـيذكر بعده . فالإشارة مرادٌ بها التنبيه ، وذلك حيث يكون ما بعده غير صالح لوقوعه خبراً عن اسم الإشارة فيـتعين تقدير خبر عنه في معنى : ذلك بيانٌ أو ذكرٌ))[6] . وقدر الزمخشري تقديراً آخر حيث جعل (ذَٰلِكَ) خبر مبـتدأ محذوف أي الأمر والشأن ذلك[7] أما ابن عطية فقد قال : ((وقولـه تعالى : (ذَٰلِكَ) يحتمل أن يكون في موضع رفع بتقدير فرضكم ذلك ، أو الواجب ذلك ، ويحتمل أن يكون في موضع نصب بتقدير امتثلوا ذلك))[8] وما أخذ به (ابن عاشور) أولى وهو منطوق القرآن حين يذكر الخبر .

---

[1] الكشاف : ج ٤،ص٤٠٨.

[2] المحرر الوجيز : ص ١٧٦٨.

[3] سورة الذاريات:الآية ٨.

[4] التحرير والتنوير : ج ٢٧ ،ص٤٧.

[5] سورة الحج:الآية ٣٠.

[6] التحرير والتنوير : ج ١٧،ص١٨٢.

[7] انظر الكشاف : ج ٣،ص١٥٥.

[8] المحرر الوجيز : ص ١٣١٠.

وقــد وضــح (ابــن عاشور) أن هذا من أساليب الاقتضاب في الانتقال وأن المشهور في هذا الأسلوب اسـتعمال لفــظ (هذا) واستدل بقولــه تعالى : ﴿ هَـٰذَا وَإِنَّ لِلطَّـٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴾[1]وهو في كلام العرب كثير[2].

ثم قال : "وهو كما يقدم الكاتب جملة من كتابه في بعض الأغراض فإذا أراد الخوض في غرض آخر، قال : هــذا وقد كان كذا وكذا"[3] . ويتضح الانتقال من الجملة الواردة بعد اسم الإشارة ، وهي قولــه تعــالى: (ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَـٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾ فالجملــة "معترضــة عطفاً على جملة : ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ ﴾[4] عطــف الغــرض عــلى الغرض، وهو انتقال إلى بيان ما يجب الحفاظ عليه من الحنيفية والتنبيه إلى أن الإسلام بني على أساسها"[5] .

وبهــذه الأمثلة يظهر لنا جلياً أن اسم الإشارة لــه وظيفة أوسع من مجرد الإحالة إلى متقدم أو متأخر في الـنَّص فهو وسيلة لربط الكلام في حال الانتقال إلى كلام جديد يلزم معه تنبيه السامع إلى هذا الانتقال ويحذف الخبر فيعطي معنى التلخيص لما سبق في النَّص ، كما يستعمل اسم الإشارة للعود إلى حديث متقدم فصل بينه وبين ما ورد فيه اسم الإشارة كلام معترض كما في سورة الذاريات .

ويعــدّ تفصــيل (ابن عاشور) هذا الأسلوب في الربط والانتقال، واستيعابه لإشارات المفسرين المتقدمين وتلميحاتهم دليل على التمكن من اللغة والبلاغة لا نجده عند كثير من المتقدمين والمتأخرين .

ب- الإحالة المقامية بواسطة أسماء الإشارة :

تحيل أسماء الإشارة إحالة مقامية وذلك حين يكون متلقي النَّص على وعي بمراد المتكلم ، ولم يرد في ظاهر النَّص ما يبينه ، أي حين تكون معارف المتلقي عن عالم النَّص حاضرة في ذهنه وهذا يعني "أن العنصر المحال إليه يكون حاضراً في الخطاب بالقوة ، وليس بالفعل"[6] .

وقــد أشار محمد خطابي إلى أن (ابن عاشور) قد التفت إلى هذا النوع من الإحالة فقال : "وربما كان ابن عاشور المفسر الوحيد[7] الذي التفت إلى نوع آخر من الإشارة هو المسمى لدى هاليداي ورقية حسن[8] بالإحالة

---

١ سورة ص:الآية ٥٥.

٢ مثل قول زهير بن أبي سلمى : هذا وليس كمن يعيا بخطبته   وسط النّدي إذا ما قائل نطقا.

٣ التحرير والتنوير : ج ١٧،ص١٨٢. وهذا التمثيل مأخوذ عن الزمخشري [انظر : الكشاف : ج ٣،ص١٥٥].

٤ سورة الحج:الآية ٢٦.

٥ ابن عاشور : التحرير والتنوير : ج ١٧،ص١٨٢.

٦ محمد خطابي :لسانيات النَّص ، ص١٧٨.

٧ لا يعــد ابن عاشور المفسر الوحيد الذي تحدث عن الإحالة المقامية ، فقد وجدنا الإشارة إليها ترد كثيراً في كلام ابن عطية ، من ذلك الإحالة في قولــه تعالى : (الم . ذلك الكتاب لا ريب فيه)[سورة البقرة : آية ١ - ٢] . حيث أورد الوجوه المحتملة لمعاد اسم الإشارة .انظر المحرر الوجيز : ص ٥٠.

٨ هاليداي و رقية حسن : باحثان لهما كتاب (Cohesion in English = الاتساق في اللغة الانجليزية) صدر في لندن عن دار لونكمان سنة(١٩٧٦م ، وقد اعتمده محمد خطابي أصلاً في تعريف بعض المصطلحات كالإحالة و الوصل والاتساق المعجمي .

المقامية))[1] واستدل بمثال واحد من افتتاح سورة البقرة على وعي (ابن عاشور) بهذا النوع من الإحالة في تفسير الإشارة وذلك قوله تعالى : ﴿ الٓمٓ ۞ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[2] حيث يقول (ابن عاشور) : ((وعلى الأظهر تكون الإشارة إلى القرآن المعروف لديهم يومئذ ، والاسم مبتدأ و(ٱلْكِتَٰبُ) بدل وخبره ما بعده))[3] . واستخلص خطابي أن (ابن عاشور) حدد المشار إليه بقوله تعالى: (ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ) بالاعتماد على قرينة نحوية وهي اعتبار الكتاب بدلاً من الإشارة ، وقرينة تداولية هي معرفة المخاطبين للمشار إليه لأنه حاضر في أذهانهم .

ولم ترد هذه الإشارة عند الزمخشري ، وأشار ابن عطية إلى أحد وجوه تفسير الإشارة وهي أن ذلك إشارة إلى ما قد نزل من القرآن[4]. وهو قريب من عبارة (ابن عاشور) .

ومن أمثلة هذا اللون من الإحالة :

- قوله تعالى : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾[5].

يقول (ابن عاشور) : ((واسم الإشارة وبيانه مراد به القرآن ، لأنه لحضوره في الأذهان كأنه حاضر في مقام نزول الآية فأشير إليه بذلك الاعتبار . وبُيّن بأنه الحديث))[6] .

- قوله تعالى : ﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴾[7].

((الإشارة في قوله تعالى : (هَٰٓؤُلَآءِ) إلى المشركين من أهل مكة ... وهي إشارة إلى حاضر في أذهان السامعين ... وقد تقصيت مواقع آي القرآن فوجدته يعبر عن مشركي قريش كثيراً بكلمة (هَٰٓؤُلَآءِ) كقوله : ﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ ﴾[8] ولم أر من نبه عليه من قبل))[9] ويوضح (ابن عاشور) هذا اللون من الرمز بالإشارة إلى محال معلوم من المقام في موضع آخر عند قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً ﴾[10] يقول (ابن عاشور) : ((هَٰٓؤُلَآءِ) إشارة إلى كفار قريش لأن تجدد دعوتهم ووعيدهم .. جعلهم كالحاضرين

[1] لسانيات النص : ص١٧٨.
[2] سورة البقرة:الآيتان ١-٢.
[3] التحرير والتنوير : ج ١، ص٢١٦.
[4] انظر : المحرر الوجيز : ص ٥٠.
[5] سورة الكهف:الآية ٦.
[6] التحرير والتنوير : ج ١٥،ص١٦.
[7] سورة الأنعام:الآية ٨٩.
[8] سورة الزخرف:الآية ٢٩.
[9] ابن عاشور : التحرير والتنوير : ج ٦ ،ص٢٠٤.
[10] سورة ص:الآية ١٥.

فكانت الإشارة مفهوماً منها أنها إليهم ، وقد تتبعت اصطلاح القرآن فوجدته إذا استعمل (هَٰٓؤُلَآءِ) ولم يكن معه مشار إليه مذكور : أنه يريد المشركين من أهل مكة))[1].

ج – المطابقة بين اسم الإشارة والمشار إليه :

تعدّ المطابقة بين اسم الإشارة والمشار إليه إحدى دعائم الانسجام الذي يتحقق بالإحالة بواسطة أسماء الإشارة ، وهي وسيلة من وسائل ربط الكلام قائمة على معان نحوية عامة كالعدد ، والنوع ،والتعيين[2].

وتتحدد المطابقة في باب أسماء الإشارة بالبحث عن تطابق اسم الإشارة مع المشار إليه من حيث :

١–الحضور والغياب .

٢– القرب والبعد : فإن الإشارة للبعيد باسم إشارة موضوع للقريب أو العكس تحتاج إلى بيان حكمته .

٣– المطابقة في العدد (إفراداً وتثنية وجمعاً) .

٤– المطابقة في النوع (تذكيراً وتأنيثاً).

فالأصل في الإشارة أن تعود إلى ذات مشاهدة معينة ، أو مضمون معين يأخذ حكم الذات المشاهدة كالكلام المنطوق به قبل الإشارة ، أو الأمر المشتهر المعروف بين المتكلم والسامع بحيث لا يلتبس بغيره فيحتاج إلى تمييز بالإشارة الحسية .

وقد حرص (ابن عاشور) على بحث هذا التطابق وتحرير قواعده في مواضع مختلفة من التفسير، نستعرض بعضاً منها في الآتي :

١–الإشارة إلى الكلام المتقدم :

الكلام المتقدم في حكم الغائب ، والإشارة إنما تكون للحاضر حضوراً حقيقياً أو حكمياً ، لذلك يقرر (ابن عاشور) أن ارتباط الإشارة بما يليها من الكلام في مثل قوله تعالى : ﴿ الٓمٓ ۞ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾[3] يجعلنا نفهم أن التعريف في لفظ (الكتاب) ((للعهد التقديري ، والإشارة إليه للحضور التقديري ... ويجوز الإتيان في مثل هذا باسم الإشارة الموضوع للقريب والموضوع للبعيد))[4] .

---

[1] التحرير والتنوير : ج ٢٣، ص١٢٤.

[2] انظر : تمام حسان : البيان من روائع القرآن ، ص١٤٢.

[3] سورة البقرة:الآيتان ١-٢.

[4] ابن عاشور : التحرير والتنوير : ج ١،ص٢١٧.

وهو بهذا التقرير إنما يرجح ما ذهب إليه بعض النحاة من التسوية بين الإتيان باسم الإشارة الموضوع للقريب وبين اسم الإشارة الموضوع للبعيد في الإشارة إلى الكلام المتقدم[1]وذلك خلافاً لما ذهب إليه الرضي[2] في شرح الكافية حيث يقول : ((وكذا يجوز لك في الكلام المسموع عن قريب أن تشير إليه بلفظ الغيبة والبعد، كما تقول : (والله ، وذلك قسم عظيم) لأن اللفظ زال سماعه فصار كالغائب ، ولكن الأغلب في هذا الإشارة بلفظ الحضور فتقول : وهذا قسم عظيم))[3] .

وقد تتبع (ابن عاشور) استعمال شعراء العرب وبلغائهم للوجهين ووجد أن تخيرهم في ذلك إنما يكون بما يناسب مقام الكلام ، مثل الرغبة في زيادة التنبيه للشيء، كما في قول خفاف بن ندبة[4] :

أقول لــه والرمح يأطر متنه تأمل خفافاً إنني أنا ذلكا[5]

كما يأتون بالإشارة إلى القريب لإظهار قلة الاكتراث ، كقول قيس بن الخطيم[6] :

متى يأت هذا الموت لا يلف حاجةً لنفسي إلا قد قضيت قضائها[7]

ثم قال (ابن عاشور) : ((فلا جرم أن كانت الإشارة في الآية باستعمال اسم الإشارة للبعيد لإظهار رفعة شأن هذا القرآن لجعلـه بعيد المنـزلة))[8] .

٢-الإشارة إلى ذات مستحضرة من الكلام :

تأتي الإشارة في مواضع كثيرة من القرآن بعد وإيراد صفاتٍ وأحوالٍ لمشارٍ إليه غائب، بحيث يصير الموصوف بها في حكم المشاهد لأنها طريق لاستحضاره، وهذا الاستحضار بالصفات هو الذي سمح بالإشارة إلى ذلك الغائب. وقد بين (ابن عاشور) حكمة الإشارة إلى الذات المستحضرة من الكلام السابق في تفسير قوله تعالى: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[9] فقال: ((وأصل الإشارة أن تعود إلى ذات مشاهدة معينة، إلا أن العرب قد يخرجون بها عن الأصل فتعود إلى ذات مستحضرة من الكلام بعد أن يذكر من صفاتها وأحوالها ما ينـزلها من منـزلة الحاضر في ذهن المتكلم والسامع ، فإن السامع إذا وعى تلك

---

[1] يقول السيوطي : ((قد ينوب ذو البعد عن ذي القرب ، وذو القرب عن ذي البعد ... إما لرفعة المشار إليه والمشير نحو (ذلك الكتاب)[سورة البقرة : ٢] و (ذلكم اللـه ربي)[سورة الشورى : ١٠])). [انظر : همع الـهوامع : ج١،ص٣٠٣].

[2] رضي الدين الاستراباذي هو: محمد بن الطاهر الحسين بن موسى ، الإمام المشهور ،شارح الكافية لابن الحاجب ، ولقبه نجم الأئمة ، اختلف في زمن وفاته ، ومنه (٤٠٦هـ) . [انظر : القنوجي : أبجد العلوم ، ص٥٩٤].

[3] شرح كافية ابن الحاجب : ج٢،ص٣٢.

[4] خفاف "بضم الخاء المعجمة وتخفيف الفاء" وهو : ابن عمير بن الحرث بن عمرو ، اشتهر بالنسبة إلى أمه ندبة "بفتح النون وضمها مع سكون الدال" ، وخفاف من فرسان العرب المعدودين ، شاعر مجيد ، يكنى أبا خراشة ، مخضرم ، أدرك الإسلام فأسلم وحسن إسلامه ، وشهد بعض الغزوات ، وبقي إلى زمن عمر . [انظر : حاشية الشيخين : شاكر وهارون في : الأصمعيات ، القصيدة الثانية ، ص٢١]

[5] البيت في الأغاني : ج٢،ص٣٢٣.

[6] هو قيس بن الخطيم بن عدي ، كان شاعر الأوس ، وبينه وبين حسان بن ثابت منافسات ، مات قبل أن يسلم .

[7] البيت في ديوان الحماسة لعبدالقاهر الجرجاني : تحقيق محمد التنجي، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط١(١٩٩٥م) ،ص٥٥

[8] التحرير والتنوير : ج ١،ص٢١٨.

[9] سورة البقرة:الآية ٥.

الصفات ، وكانت مهمة أو غريبة ... صار الموصوف بها كالمشاهد ، فالمتكلم يبني على ذلك فيشير إليه كالحاضر المشاهد ، فيؤتى بتلك الإشارة إلى أنه لا أوضح في تشخصه ، ولا أغنى في مشاهدته من تعرف تلك الصفات فتكفي الإشارة إليها))[1] .

٣-إفراد اسم الإشارة والمشار إليه جمع :

في تفسير الإشارة الواردة في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾[2].

يناقش المفسرون سبب مجيء اسم الإشارة مفرداً في قوله : (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ...)مع كون ما يشير إليه في صورة المتعدد ظاهراً وهو (الذلة – المسكنة – الغضب) وتأولوا ذلك بمفهوم مطابقة أسماء الإشارة لحقيقة التثنية والجمع والتأنيث والتذكير ، وأنها تؤول جميعاً بذوات مذكورة ، ففي حين لا يهتم الزمخشري بالمطابقة في هذا الموضع ويكتفي بقوله : ((الإشارة لما تقدم من ضرب الذلة والمسكنة والخلاقة بالغضب))[3] .

وفصل (ابن عاشور) فقال : ((أفرد اسم الإشارة لتأويل المشار إليه بالمذكور وهو أولى بجواز الإفراد من إفراد الضمير في قول رؤبة :

فيها خطوط من سواد وبلق   كأنه في الجلد توليع البهق

قال أبو عبيد ة لرؤبة : إن أردت الخطوط فقل : كأنها ، وإن أردت السواد والبياض فقل : كأنهما. فقال رؤبة : (أردت كأن ذلك ، ويلك)[4] وإنما كان ما في الآية أولى بالافراد لأن الذلة والمسكنة والغضب مما لا يشاهد ، فلا يشار إلى ذاتها ولكن يشار إلى مضمون الكلام ، وهو شيء واحد أي مذكور ومقول ، ومن هذا قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴾[5] أي : ذلك القصص السابق))[6] .

---

[1] التحرير والتنوير : ج ١،ص٢٣٨.

[2] سورة البقرة:الآية ٦١.

[3] الكشاف : ج ١،ص١٧٢. لكنه ذكر في موضع آخر أن ((أسماء الإشارة تثنيتها وجمعها وتأنيثها ليست على الحقيقة ، وكذلك الموصولات ولذلك جاء (الذي) بمعنى الجمع))[انظر الكشاف : ج ١،ص١٧٨].

[4] انظر : ابن هشام : مغني اللبيب ، ص٨٨٨ ، ٨٨٩.

[5] سورة آل عمران:الآية ٥٨.

[6] التحرير والتنوير : ح ١،ص٥١٢.

ومثل هذا الإشارة في قولـه تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾[1] يقول (ابن عاشور) : ((والإشارة بقوله : (ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا) إلى جميع ما تقدم ذكره ، وإفراد كاف الخطاب لأن الخطاب للنبي (صلى اللـه عليه وسلم) ، أو لغير معين ، على أن علامة المخاطب الواحد هي الغالب في الاقتران بأسماء الإشارة لإرادة البعد ، والبعد هنا مجازي بمعنى الرفعة والنفاسة))[2].

وقد يأتي اسم الإشارة بلفظ الجمع مراعاة لمضمون ما قبله ولو كانت الضمائر المذكورة معه بصورة المفرد ، وذلك في نحو قوله تعالى : ﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[3] فإن ((ما صَدَقَ (مَنْ) واحد ، لقوله : (مَوَٰزِينُهُۥ) وإذ قد كان هذا الواحد غير معين ، بل هو كل من تحقق فيه مضمون جملة الشرط، فهو عام صحّ اعتباره جماعة في الإشارة لضميرين من قوله : (فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ)))[4]

فإذا تعذر أن يكون ثمّة مشار إليه محسوس أو مستحضر بصفاته فيما تقدم من الكلام كانت المطابقة منظوراً فيها إلى الخبر وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾[5] يقول (ابن عاشور) : ((إشارة إلى جميع ما تكلم به . وأتي باسم إشارة المؤنث لأن المشار إليه حجّة ، فأخبر عنه بحجة فلمّا لم يكن ثمّة مشار إليه محسوس تعين أن يعتبر في الإشارة لفظ الخبر لا غير))[6].

❑ الإحالة باسم الموصول :

الإحالة بواسطة أسماء الموصول إحالة نصية ، فهي تغني عن تكرار مرجعها كما هو الحال في وسائل الإحالة غير أنها لا تعمل عمل الضمائر وأسماء الإشارة في الإحالة إلى خطاب وإنما إلى عنصر من خطاب وقد يكون الربط ((بالموصول عند إرادة وصف المرجع بصفة تدل على مدح أو ذم، ودليل صحة الربط بالموصول ... أن يصح لضمير الغيبة أن يعاقبه في موقعه))[7]

[1] سورة آل عمران:الآية ١٤.
[2] التحرير والتنوير : ج ٣،ص٤١.
[3] سورة الأعراف:الآية ٨.
[4] التحرير والتنوير : ج ٧،ص٢٥.
[5] سورة الأنعام:الآية ٨٣.
[6] التحرير والتنوير : ج ٦،ص١٩٠.
[7] تمام حسان : البيان في روائع القرآن ، ص١٢٢.

ولكـــن أسمـــاء الموصول تفتقر إلى قرينة غير قرينة الحضور أو الإشارة ألا وهي جملة الصلة ، لأن أسماء الموصـــول ما سميت موصولات إلا «لأنها نواقص تتم بما توصل به»[1] ولا يتم عملـــها في الربط إلا بالنظر إليها مـــع صـــلاتها ، فكثيراً ما تكون هذه الصلات وسيلة لربط المتلقي من خلال استحضار بعض ما يكون لديه من معـــرفة بمضـــمون الصـــلة وعالمها، فتكون إحالة من هذا الوجه. وهذا الأساس الذي بنى عليه النحاة عمل اسم الموصـــول ، فقد قالوا في (الذي) –مثلاً– إنه «اجتلب ليكون وصلة إلى وصف المعارف بالجمل ... يعنون بذلك أنك تقول : مررت بزيد الذي أبوه منطلق ؛ وبالرجل الذي كان عندنا أمس ، فتجدك قد توصلت بالذي إلى أن أبنت زيداً مِنْ غيره بالجملة التي هي قولك : (أبوه منطلق) ولولا (الذي) لم تصل إلى ذلك»[2] .

وقـــد رأى عـــبد القاهـــر الجرجاني أن هذه الوظيفة النحوية لا تكفي لضبط استعمال اسم الموصول في الـــربط، وإنما أراد أن يؤطرها بقيد دلالي وتداولي ، يكشف عن ذلك قولـــه : «والقول المبين في ذلك أن يقال: إنـــه إنمـــا اجتلبت حتى إذا كان قد عُرف رجل بقصَّة وأمر جرى لـــه فتخصَّص بتلك القصة وبذلك الأمر عند الســـامع ثم أريد القصد إليه ذكر"الذي"تفسير هذا أنك لا تصل "الذي" إلا بجملة من الكلام قد سبق من السامع عـــلم به ...فكان معنى قولـــهم إنه اجتلب ليتوصل به إلى وصف المعارف بالجملة : أنه جيء به ليفصل بين أن يراد ذكر الشيء بجملة قد عرفها السامع لـــه ، وبين أن لا يكون الأمر كذلك»[3] .

ومفـــاد هذا الكلام أن جملة الصلة لا بد أن تكون معهودة للسامع ليصح الربط بها وبموصولـــها مع من أجـــري علـــيه ذلك الموصول . وهي واحدة من المسائل التي وقف فيها (ابن عاشور) موقفاً يدل على تتبع كلام العـــرب في تقعيد القواعد ، وعدم الاعتداد بما يقرره النحاة –وإن كان مشهوراً إذا خالف الاستعمال– وهو في هـــذا يجري على سَنَن المحققين من النحاة ، فقد قال صاحب همع الـــهوامع : «والمشهور عند النحاة تقييد الجملة الموصـــول بها لكونها معهودة وذلك غير لازم . لأن الموصول قد يراد به معهود فتكون صلته معهودةً، كقولـــه تعـــالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ...﴾[4] وقـــد يـــراد به الجنس فتوافقه صلته، كقولـــه : ﴿... كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ...﴾[5]»[6] .

وقـــد رأى (ابـــن عاشور) ألا يكون الكلام على إطلاقه في اشتراط العهد لتعريف المسند إليه بالموصول وصـــلته ، فعـــند تفســـير قولـــه تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾[7] يقـــول (ابـــن عاشور) : «وظاهر قولـــه : (ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ...) أن المخاطبين

---

[1] أبو البقاء العكبري : اللباب : ج٢،ص١١٣.

[2] الجرجاني : دلائل الاعجاز ،ص٢٣.

[3] المصدر نفسه: ص٢٠٣ ، ٢٠٤.

[4] سورة الأحزاب:الآية ٣٧.

[5] سورة البقرة:الآية ١٧١.

[6] السيوطي : همع الهوامع ، ج١، ص٣٣٤.

[7] سورة البقرة:الآية ١٨٥.

يعلمون أن نزول القرآن وقع في شهر رمضان ، لأن الغالب في صلة الموصول أن يكون السامع عالماً باختصاصها بمن أجري عليه الموصول ، ولأن مثل هذا الحدث الديني من شأنه ألا يخفى عليهم ، فيكون الكلام تذكيراً بهذا الفضل ، ويجوز أيضاً أن يكون إعلاماً بهذا الفضل ، وأجري الكلام على طريقة الوصف بالموصول، للتنبيه على أن الموصوف مختص بمضمون هذه الصلة بحيث تُجعل طريقاً لمعرفته ، ولا نسلم لزوم علم المخاطب باتصاف ذي الصلة بمضمونها في التعريف بالموصولية ، بل ذلك غرض أغلبي كما يشهد به تتبع كلامهم . وليس المقصود الإخبار عن شهر رمضان بأنه أنـزل فيه القرآن لأن تركيب الكلام لا يسمح باعتباره خبراً ، لأن لفظ (شَهْرُ رَمَضَانَ) خبر وليس هو مبتدأ»[1] .

ولعل تقديم (ابن عاشور) للوجه الأول في ترتيب الكلام حول الموصول في الآية ، واستظهاره له بدليل الواقع مع تسليمه بعدم اطراد أن تكون الصلة معهودة للسامع في التعريف بالموصول ، دليل على الاستيعاب الذي أشرنا إليه .

وبناءً على هذا يخالف (ابن عاشور) ما ذهب إليه الزمخشري من جواز انقطاع الكلام عما قبله والاستئناف بالموصول، مع ظهور صورة العهد في الموصول ، وعدم استغناء المرجع الذي يعود إليه الموصول عنه؛ فقد جوّز الزمخشري –في وجه– أن يكون قوله تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾[2] مقطوعاً عما قبله، وأن (ٱلَّذِين) مرفوع على الابتداء ، وخبره : ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى﴾[3] .

أما (ابن عاشور) فيرى أنه يتعين أن يكون (ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ) متصلٌ بـ(ٱلْمُتَّقِين) من قوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[4] على أنه صفةٌ، وذلك على أساس التفصيل بعد الإجمال . وردّ كلام الزمخشري بقوله : «وجوز صاحب الكشاف كونه كلاماً مستأنفاً مبتدأ وكون : (أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى) خبره ، وعندي أنه تجويز لما لا يليق ، إذ الاستئناف يقتضي الانتقال من غرض إلى آخر وهو المسمى بالاقتضاب ، وإنما يحسن في البلاغة إذا أشبع الغرض الأول وأفيض فيه حتى أوعب ، أو حتى خيفت سآمة السامع ... وإلا كان تقصيراً من الخطيب والمتكلم لا سيما وأسلوب الكتاب أوسع من أسلوب الخطابة لأن الإطالة في أغراضه أمكن»[5] .

---

[1] التحرير والتنوير : ج ٢،ص١٦٩ ، ١٧٠.

[2] سورة البقرة:الآية ٣.

[3] سورة البقرة:الآية ٥. يقول الزمخشري : «(والذين يؤمنون) إما موصول بـ(المتقين) على أنه صفة مجرورة أو مدح منصوب ، أو مرفوع بتقدير : أعني الذين ، أو : هم الذين يؤمنون ، وإما مقتطع عن المتقين مرفوع على الابتداء مخبر عنه بـ(أولئك على هدى) ». [الكشاف : ج ١،ص٧٩]

[4] سورة البقرة:الآية ٢.

[5] التحرير والتنوير : ج ١،ص٢٢٦.

وبهـــذا يتضـــح أن الموصول وصلته في قولـــه تعالى : (ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ..) حين يعرب صفةً لـــ (ٱلۡمُتَّقِينَ) فإنـــه يتحقق بواسطة ذلك غرض الربط عن طريق العلاقة بين التابع والمتبوع ، وهي أقوى من العلاقة الـــتي يبحـــث عنها في حال الاستئناف ما دام المقام يتسع للوصف . كما أن هذه الصفـــات التي أجريت على (ٱلۡمُتَّقِينَ) في آيـــتين قـــد تكـــرر فيها لفظ الموصول ، وشملت جميع أصناف الناس الذين كانوا يتلقون الكتاب المذكور وصفه في بداية السورة ، وقد كانوا معروفين ولذلك فالموصولان للعهد[1] .

---

[1] انظر : ابن عاشور ، التحرير والتنوير : ج ١،ص٢٣٥.

المبحث الثاني:

المستوى الدلالي والتداولي

اتضح لنا في المبحث السابق أهم وسائل الاتساق ورأينا كيف تحقق بواسطتها الترابط المعجمي والنحوي، ومطلبنا الآن هو البحث عن نوع آخر من وسائل الانسجام في النّص القرآني يعود مظهر الربط فيها إلى الجانب الدلالي والتداولي .

فقد تحدث (ابن عاشور) عن أن أسلوب القرآن تميز بخصوصية الدقة المتناهية في اختيار مواقع الآيات، وترتيب أغراض السورة، وقد رأينا كيف أن تعريف (ابن عاشور) مصطلح السورة قد شمل الإشارة إلى هذه الأغراض والمناسبات .

لذلك فإن أبرز ما يمكن دراسته أولاً –في تفسير التحرير والتنوير– من وسائل الانسجام الدلالية هو موضوع الخطاب الذي يسميه (ابن عاشور) : (أغراض السورة ومقاصدها) ، ذلك أن تحديد موضوع الخطاب يسهل الوصول إلى معرفة المناسبة بين الآيات التي يجمعها موضوع واحد.

ثم نطلع على أسلوب (ابن عاشور) في التعبير عن ترتيب الخطاب في السورة، وترتيب الوقائع في جمل تلك الآيات ، وبعدها نتعرض إلى العلاقات المعنوية القائمة بين الآيات في السورة، هذه العلاقات التي يمثل وجودها علامة على انتظام أغراض السورة وتشير إلى مقاصدها . وأهم هذه العلاقات هي علاقة البيان والتفسير، وعلاقة الإجمال والتفصيل ، وعلاقة العموم والخصوص ، وعلاقة التعليل والتفريع ، فبواسطة إدراك هذه العلاقات ندرك منطق ترتيب الجمل في الآيات ، والآيات في السورة .

أما وسائل الانسجام ذات الطابع التداولي فأبرز ما يضاف إلى موضوع الإحالة المقامية –التي ورد الحديث عنها في المبحث السابق– هو نظرة (ابن عاشور) لمفهوم المناسبة والجامع في مبحث الفصل والوصل، حيث أن تتبع هذه المواضع يفضي إلى الحديث في الجانب التداولي الذي تكون العلاقة فيه بين الآيات نابعة من تصور حال المتلقي وما يحتاج إليه ، وأهم ما يصنف على الوسائل التداولية الاستئناف البياني ، ومفهوم التضام النفسي والجامع الخيالي.

وحتى تكون دراستنا محددة في هذا المستوى فسيتم التركيز على البحث عن هذه الوسائل في تفسير أربع سور هي : سورة آل عمران ، وسورة الرعد ، وسورة النور ، وسورة النبأ ، وذلك لتكون الاستنتاجات أقرب إلى الموضوعية ، أما ما لم يتطرق إليه (ابن عاشور) في هذه السور الأربع من الوسائل الدلالية التداولية فسنرجع إليه في مظانه من التفسير ما وسعنا ذلك ، ونحسب أن تنوع السور في موضوعاتها وعدد آياتها كافٍ في استنتاج ما يمكن من الوسائل الدلالية والتداولية التي تُعد إشارة (ابن عاشور) إليها خطوة مهمة في تشكيل النظرة المتكاملة عن انسجام النّص القرآني .

وفيما يلي تفصيل ما أجملناه .

أولاً موضوع الخطاب :

حددت بعض الدراسات الحديثة المقصود بموضوع الخطاب على أنه : ((بنية دلالية تصب فيها مجموعة من الآيـات بتضـافر مسـتمر عـبر متوالـيات قد تطول أو تقصر حسب ما يتطلبه الخطاب من إيجاز أو إطناب))(١).

وقد عبّر (ابن عاشور) عن هذه البنية الدلالية التي تجمع آيات السور بعنوان أغراض السورة ومقاصدها. ونبّه (ابن عاشور) إلى أن معرفة هذه الأغراض والمقاصد شرط في إدراك انسجام السورة فقال في مقدمة التفسير: ((ولم أغـادر سـورة إلا بينـت ما أحيط به من أغراضها، لئلا يكون الناظر في تفسير القرآن مقصوراً على بيان مفـرداته، ومعـاني جملـه ، كأنها فِقَرٌ متفرقة ، تصرفه عن روعة انسجامه ، وتحجب عنه روائع جمالـه))(٢). ولذلـك فقـد قدم بين يدي تفسير كل سورة أغراض السورة ومقاصدها ، غير أنه لم يبين لنا المبدأ العام الذي يسـلكه المفسِّـر في النظر إلى أغراض السورة ومقاصدها –كما فعل البقاعي في مقدمة نظم الدرر– ولكنه مع ذلك لا يغفل عن تنبيه القارئ إلى بداية الغرض ونهايته والانتقالات التي تتم بين هذه الأغراض وأساليب التخلص بينها من هذه الأغراض في كل سورة .

ولعـل من المفيد قبل البدء في عرض نماذج لمفهوم (ابن عاشور) لموضوع وحدة أغراض السورة وتقسيم تلـك الأغـراض إلى موضـوعات خطابية – أن نشير إلى أن الدراسات الحديثة في علم النَّص قد أعطتنا بعض الإشارات التي نستطيع من خلالـها الاهتداء إلى معرفة موضوع الخطاب في النَّص الذي تعبر عنه هذه الدراسات بالبنية الكلية للنص أو البنية المفهومية للمتتالية .

ويتمثل مفهوم البنية الكلية للنص والخطاب في ((وجود جمل متعددة متنوعة تعبر بشكل مباشر عن قضايا كلية تظهر بشكل نمطي في بداية أو نهاية المقطع))(٣) .

وأشـارت هذه الدراسات كذلك إلى عدد من المؤشرات التي تساعد على اختزال موضوعات النَّص في وحدات كلية ، وأهم هذه المؤشرات(٤) :

١– أن يكون الموضوع قد عبر عنه في النَّص عدّة مرات .

٢– وجود جمل متعددة ومتنوعة تعبر بشكل مباشر عن قضايا كلية .

٣– وجـود روابط مختلفة بين القضايا التي تشكل النَّص ، كأن تكون الموضوعات اللاحقة مؤكدة للمفاهيم السابقة ، أو مخصصة و شارحة لها.

---

١ محمد خطابي : لسانيات النَّص ، ص١٨٠.

٢ التحرير والتنوير : ج ١،ص٨.

٣ [العبارة لفان ديك : صاحب كتاب النَّص والسياق ، الصادر عن دار لونكمان بلندن سنة(١٩٧٧م) ، وقد اعتمد عليه محمد خطابي في كتاب لسانيات النَّص وعنه أخذت هذا التعريف] انظر محمد خطابي : لسانيات النَّص :ص٤٣-٤٦.

٤ محمد خطابي : لسانيات النَّص ، ص٤٦.

وقد أشارت هذه الدراسات –كذلك– إلى اختلاف النظرات في تحديد ما هو أساس ، وما هو ثانوي في كل نَص نظراً لاختلاف تصورات المتلقين ومداركهم .

فـإذا أضيف إلى ذلك ما يتميز به أسلوب القرآن الذي يبعد عن الأساليب التدريسية والأمالي العلمية، والقوانين الموضوعة للتشريع ، حيث تخللت فيه الأحكام والتشريعات في تضاعيف الموعظة ، والدعوة، والقصص – إذا كان الأمر كذلك فإن تحديد أغراض السورة ومقاصدها يحتاج إلى جهد، ولذلك تفاوتت أساليب المفسرين في التعبير عن هذه الأغراض ضمن موضوعات خطابية يدرك من خلالها روعة الانسجام في السورة مهما تعددت أغراضها وتنوعت مقاصدها .

ولبيان أسلوب (ابن عاشور) في تلخيص أغراض السورة وتحديد مقاصدها ، والإشارة إلى ما تخلل هذه الأغراض من الاستطرادات ، والاعتراضات ، التي يتطلبها سياق كل سورة ، نستعرض الأغراض العامة ثم الجزئية (الموضوعات الخطابية) التي حددها (ابن عاشور) ونوضح أرقام الآيات في كل غرض في السور الأربع وذلك على النحو التالي :

❑موضوعات الخطاب في سورة آل عمران :

سرد (ابن عاشور) أغراض السورة في مقدمة تفسيرها سرداً مطولاً متداخل الترتيب، ويمكن أن تلخص هذه الأغراض الواردة في المقدمة أو المضمنة في تفسير السورة إلى أغراض عامة ، وأغراض جزئية ، ومتخللات وذلك على النحو الآتي :

- **الغرض العام الأول : ويستغرق الآيات [١ – ٩٩] :**

محاجة وفد نصارى نجران في شأن ألوهية عيسى وإبطال ذلك وبيان فضل الإسلام . ويشمل هذا الغرض عدداً من الأغراض الجزئية الآتية :

- الآيات [١ – ٣٢] : تمهيد للغرض العام . يقول (ابن عاشور) : ((لما كان أول أغراض هذه السورة ، الذي نزلت فيه هو قضية مجادلة نصارى نجران حين وفدوا إلى المدينة ، وبيان فضل الإسلام على النصرانية ، لا جرم افتتحت بحروف التهجي ، المرموز بها إلى تحدي المكذبين بهذا الكتاب ... ، وهذا وما بعده إلى قوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا ...﴾[1] تمهيد لما نزلت السورة بسببه))[2].

---

[1] سورة آل عمران:الآية ٣٣.

[2] التحرير والتنوير : ج ٣،ص٨ . واشتمل التمهيد على عدد من الموضوعات، وقد أوردها ابن عاشور غير مرتبة على ترتيب الآيات سنسردها هنا نموذجاً ونكتفي به عن غيره : ((الابتداء بالتنويه بالقرآن ، ومحمد صلى الله عليه وسلم ، وتقسيم آيات القرآن ، ومراتب الأفهام في تلقيها ، والتنويه بفضيلة الإسلام... وأنه لا يقبل عند الله بعد ظهور الإسلام غير الإسلام ، والتنويه بالتوراة والإنجيل ، والإيماء إلى أنهما أنزلا قبل القرآن تمهيداً لهذا الدين، فلا يحق للناس أن يكفروا به ، وعلى التعريف بدلائل إلاهية الله تعالى ... وإبطال ضلالة الذين اتخذوا آلهة من دون الله ؛ من جعلوا له شركاء ، أو اتخذوا له أبناء ، وتهديد المشركين بأن أمرهم إلى زوال ، وألا يغرهم ما هم فيه من البذخ ، وأن ما أعد الله للمؤمنين خير من ذلك ، وتهديدهم بزوال سلطانهم)) و لم يشر ابن عاشور في هذه المقدمة إلى آيات تحريم موالاة الكافرين وهي الآيات [٢٢- ٣٢] .انظر التحرير والتنوير : ج ٣،ص٦.

- الآيات [٣٣، ٣٤]: ((انتقال من تمهيدات سبب السورة إلى واسطة بين التمهيد والمقصد، كطريقة الـــتخلص ، فهذا التخلص لمحاجة وفد نجران))[١] وقد اشتمل التمهيد على التذكير بآدم ونوح وآل إبراهـــيم ، وآل عمـــران ، والغرض من ذلك ((تذكير اليهود والنصارى بشدة انتساب أنبيائهم إلى النبي صلى اللـــه عليه وسلم ، فما كان ينبغي أن يجعلوا موجب القرابة موجب عداوة وتفريق))[٢].
- الآيـــات [٣٥ – ٩٩] : محاجة وفد نصارى نجران في شأن عيسى ، ومجادلة أهل الكتابين في حقيقة الحنيفـــية، وبـــيان بعـــض أحوال اليهود ، والتنويه بالبيت الحرام تعليلاً للأمر باتباع إبراهيم (عليه الســـلام) وقـــد تخلل آيات هذا الغرض الحث على الإنفاق في الآية [٩٢] في قولـــه تعالى : ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ...﴾ الآية[٣] .

- الغرض العام الثاني : الآيات[١٠٠ – ١٢٠]:

تحذيـــر المؤمنين من كيد أهل الكتاب ، وبيان خيرية هذه الأمة وإنصاف طائفة من أهل الكتاب ، ووعيد المشـــركين بعـــد وعد الذين آمنوا من أهل الكتاب، والمقابلة بين خُلق المنافقين (من أهل الكتاب) وخُلق المؤمنين.

- الغرض العام الثالث : الآيات[١٢١– ١٨٩]:

تذكـــير المســـلمين بما وقع في يوم أحد ، وتسليتهم عمّا حصل لـــهم بتذكيرهم بنصره لـــهم في بدر ، وعـــتابهم وموعظـــتهم وبشارتهم . يقول (ابن عاشور) في مقدمة السورة : ((ثم ذكرهم بيوم أحد ، ويوم بـــدر، وضرب لـــهم الأمثال بما حصل فيهما ونوّه بشأن الشهداء من المسلمين))[٤]. وقد استطرد خلال ذلـــك بـــذم الربا، وأمر المؤمنين بالإنفاق وفضائل العمال في الآيات [١٣٠ – ١٣٧] ، وذمّ البخل في الآيـــة [١٨٠] عند المنافقين ، والآيات [١٨١ –١٨٤] عند اليهود ، وقد ختم هذا الغرض بمقطع يبتدئ بقولـــه : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ...﴾ الآية[٥] .

وفي بيان موقع هذه الآية من الغرض يقول (ابن عاشور) : ((هذه الآية مرتبطة بأصل الغرض المسوق لـــه الكلام وهو تسلية المؤمنين على ما أصابهم يوم أحد))[٦] .

---

[١] ابن عاشور : التحرير والتنوير : ج ٣،ص٨٢.
[٢] المصدر نفسه : ج٣،ص٨٤.
[٣] سورة آل عمران:الآية ٩٢.
[٤] التحرير والتنوير : ج ٣،ص٧.
[٥] سورة آل عمران:الآية ١٨٥.
[٦] التحرير والتنوير : ج ٣ ،ص٣٠٠.

- الغرض العام الرابع : الآيات [١٩٠ -٢٠٠]:

اختتام السورة بالحث على الاعتبار بخلق السماوات والأرض ،وبيان حال المؤمنين في الاتعاظ بذلك .

وذلك من قوله تعالى:﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[1] يقول (ابن عاشور) : ((مثل هذا الانتقال يكون إيذاناً بانتهاء الكلام على أغراض السورة، على تفننها ، فقد كان التنقل فيها من الغرض إلى مشاكله ، وقد وقع الانتقال الآن إلى غرض عام هو الاعتبار بخلق السماوات والأرض ، وحال المؤمنين في الاتعاظ بذلك ... وشأن القرآن أن يختم بالموعظة لأنها أهم أغراض الرسالة، كما وقع في ختام سورة البقرة))[2] .

وقد وضح (ابن عاشور) موقع الاعتراض في أثناء هذه الخاتمة الحاصل بقوله تعالى : ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴾ إلى قوله: ﴿ ...وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴾ [3] فقال:((نشأ عن قوله تعالى : ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم ﴾[4] باعتبار ما يتضمنه عدم إضاعة العمل من الجزاء عليه جزاء كاملاً في الدنيا والآخرة ، وما يستلزمه ذلك من حرمان الذين لم يستجيبوا ... وهم المراد بالذين كفروا))[5] ، ثم استدرك بقوله : ﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ ﴾[6] ((لأن مضمونها ضد الكلام الذي قبلها ، لأن معنى (لَا يَغُرَّنَّكَ...) وصف ما هم فيه بأنه متاع قليل ، أي غير دائم ، وأن المؤمنين المتقين لهم منافع دائمة))[7] .

وأما قوله : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ...﴾ الآية[8] ، فهو ((عطف على جملة (لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟...) استكمالاً لذكر الفرق في تلقي الاسلام))[9] .

وختمت السورة بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[10] فقد ((ختمت السورة بوصية جامعة للمؤمنين تجدد عزيمتهم ، وتبعث الهمم إلى دوام

---

[1] سورة آل عمران:الآية ١٩٠.

[2] التحرير والتنوير : ج ٣،ص٣٠٧.

[3] سورة آل عمران:الآيات ١٩٦-١٩٨.

[4] سورة آل عمران:الآية ١٩٥.

[5] ابن عاشور : التحرير والتنوير : ج ٣،ص٣١٥.

[6] سورة آل عمران:الآية ١٩٨.

[7] ابن عاشور : التحرير والتنوير : ج ٣،ص٣١٦.

[8] سورة آل عمران:الآية ١٩٩.

[9] ابن عاشور : التحرير والتنوير : ج ٣،ص٣١٧.

[10] سورة آل عمران:الآية ٢٠٠.

الاستعداد للعدو كي لا يثبطهم ما حصل من الهزيمة"[1] . وهكذا نجد (ابن عاشور) يقدم السورة على أساس أنها موضوعات خطابية متكاملة ومتناسبة ، وحتى تلك الآيات التي كان وضعها بتوقيف من الله تعالى مثل آية الربا ، والحث على الانفاق فإنها تندرج ضمن غرض حث المسلمين على فضائل الأعمال ، وتجنب قبيحها، في سورة كشفت دخائل اليهود وطبيعتهم ، وقد كان الربا والبخل أبرز أخلاقهم التي نهى الله عنها .

❑موضوعات الخطاب في سورة الرعد:

يقرر (ابن عاشور) مقاصد هذه السورة إجمالاً بقوله : "أقيمت هذه السورة على أساس إثبات صدق الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيما أوحى إليه من إفراد الله بالإلهية والبعث وإبطال أقوال المكذبين، فلذلك تكررت حكاية أقوالهم خمس مرات موزعة على السورة بدءاً ونهايةً"[2] .

وهذه العبارة شاملة لما فصّل بعد ذلك من التمهيد للأغراض ، والانتقال بينها غرضاً غرضاً، مع ما في ذلك الاستعراض من التداخل والتقديم والتأخير . والذي يلفت نظر المتأمل في السورة أن المتتبع لكلام (ابن عاشور) في الأغراض والمقاصد التي اشتملت عليها يجد أنها تتوزع عليه الآيات توزيعاً متداخلاً لا يخرج عن الأساس الذي بنيت عليه وهو المشار إليه آنفاً، فكأنه الغرض العام الذي تدور حوله الأغراض الأخرى ، لذلك فإن الحديث عن القرآن (الوحي) – مثلاً – حديث عن الإلهية والرسالة والبعث وإبطال أقوال المكذبين ، فهو تمهيد لبقية الأغراض ولكنه يطلّ مرة أخرى في آيات متعددة في ثنايا الأغراض الأخرى[3] . وللخروج من سطحية تتبع أغراض الآيات بعيداً عن الثابت الذي بنى عليه (ابن عاشور) تفسيره لمواقع الآيات في السورة، يمكن أن يستعان بمواضع الانتقال في السورة – كما حددها (ابن عاشور) – لتصنيف أغراض السورة كما يلي:

الغرض	أرقام الآيات	المجموع
التنويه بالقرآن	١ ، ٧، ١٩، ٢٧ ، ٢٨، ٣٠ ، ٣١، ٣٦، ٣٧	٩
الاستدلال على الوحدانية	(٢) ، ٣ ، ٤ ، ٨–١٧ ، ٣٣ ، ٤١	١٥
الرد على منكري البعث	(٢)، ٥ ، ٦، ٣٥، ٤٢	٤
إبطال أقوال المكذبين في : (الوحدانية – القرآن – الرسول – البعث)	١٨، ٢٠–٢٦ ، ٢٩، ٣٢ ، ٣٦ ،٣٨، ٣٩، ٤٠، ٤٣	١٥

وإذا أردنا أن نتبين هذا ، فإن العود إلى تفسير (ابن عاشور) يتضح من خلاله رعاية هذا المفسر لتداخل هذه الأغراض في بيانه مناسبة الآيات . ومن أمثلة ذلك : تفسير العطف في قوله تعالى:

---

[1] ابن عاشور :التحرير والتنوير : ج ٣،ص٣١٧.

[2] المصدر نفسه : ج١٢،ص١٣٤.

[3] لفت سيد قطب النظر إلى سر هذا التداخل المتمحور حول ثابت واحد في السورة فقال: "إن موضوعها الرئيسي ككل موضوعات السور المكية – كلها على وجه التقريب– هو العقيدة وقضاياها ... توحيد الألوهية ، وتوحيد الربوبية ، وتوحيد الدينونة لله وحده في الدنيا والآخرة ، ومن ثم قضية الوحي وقضية البعث"[انظر : في ظلال القرآن :ج٤،ص٢٠٣٩].

﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا ...﴾ الآيـة[1] يقـول (ابن عاشور) : ((عطف على جملة : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ ﴾[2]فلما قضى حق الاستدلال على الوحدانية نقل الكلام إلى الرد على منكري البعـث ، وهو غرض مستقل مقصود من هذه السورة وقد أدمج ابتداءً خـلال الاستدلال على الوحـدانيـة بقولـه : ﴿ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾[3] تمهيداً هنا ، ثم نقل الكلام إليه باستقلالـه بمناسبة التدليل على عظيم القدرة))[4] .

وقـد وجـد (ابن عاشور) أن من بين مؤشرات انتظام هذه الأغراض في السورة : أن جمل فواتح غرض الاسـتدلال على وحدانية اللـه -مثلاً- افتتحت بالاسم العَلم ، وما تفرع عنها افتتح بضمير الجلالة دون اسم الجلالـة ، فقال : ((فإن جمل فواتح الأغراض افتتحت بالاسم العَلم كقولـه تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ...﴾[5] وقولـه : ﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ ...﴾[6] وقولـه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ...﴾[7] ، وجمـل الـتفاريع افتتحت بالضمائر كقولـه تعالى : ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ...﴾[8] وقولـه : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ ﴾[9] وقولـه : ﴿ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾[10]))[11]. وأكد هذا الاطراد في موضـع آخـر وهو تفسير قولـه تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾[12] فقال : ((وعدل عن ضمير الجلالة إلى اسمه تعالى العَلم ، تبعاً للأسلوب السابق في افتتاح الأغراض الأصلية))[13].

- موضوعات الخطاب في سورة النور :

و هذه السورة ((نـزلت منجمة متفرقة في مدة طويلة وأُلحق بعض آياتها ببعض))[14] .

---

[1] سورة الرعد:الآية ٥.

[2] سورة الرعد:الآية ٢.

[3] سورة الرعد:الآية ٢.

[4] التحرير والتنوير : ج ١٢،ص١٤٤.

[5] سورة الرعد:الآية ٢.

[6] سورة الرعد:الآية ٨.

[7] سورة الرعد:الآية ١١.

[8] سورة الرعد:الآية ٢.

[9] سورة الرعد:الآية ٣.

[10] سورة الرعد:الآية ٣.

[11] التحرير والتنوير : ج ١٢ ، ص١٥٥.

[12] سورة الرعد:الآية ١٥.

[13] التحرير والتنوير : ج ١٢،ص١٦١.

[14] المصدر نفسه: ج ١٨،ص١١٣.

وقد وضح (ابن عاشور) أغراضها بقوله : ((شملت من الأغراض كثيراً من أحكام معاشرة الرجال للنساء . ومن آداب الخلطة والزيارة)) [1] .

ومن أغراضها في غير الأحكام ((ذم أحوال أهل النفاق والإشارة إلى سوء طويتهم مع النبي صلى الله عليه وسلم ، والتحذير من الوقوع في حبائل الشيطان ، وضرب المثل لهدى الإيمان وضلال الكفر ، والتنويه ببيوت العبادة والقائمين فيها ، وتخلل ذلك وصف عظمة الله تعالى ، وبدائع مصنوعاته ، وما فيها من منن على الناس ، وقد أردف ذلك بوصف ما أعد الله للمؤمنين وأن الله عليم بما يضمره كل أحد وأن المرجع إليه))[2].

ويظهر توزيع الآيات في الأغراض على النحو الآتي :

الغرض	أرقام الآيات	المجموع
الأحكام والآداب	(١-٣٤) ، (٥٨ -٦١)	٣٨
ذم أحوال أهل النفاق	(٤٧-٥٧)	٨
ضرب الأمثال للهدى والضلال	(٣٥-٤٠)	٦
وصف عظمة الله وبدائع مصنوعاته	(٤١-٤٦)	٦

ولكن هذه الأحكام وما تلاها من التعقيبات لم تكن متباعدة في أغراضها بل يترتب بعضها على بعض[3] ويظهر (ابن عاشور) هذا الارتباط في مواقع الانتقال بين أغراض هذه السورة غالباً[4]، ومن ذلك عند قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [5] فبعد توضيح موقع التذييل للأحكام الواردة في الآيات من أول السورة بقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [6] يقول (ابن عاشور) : ((أتبع منة الهداية الخاصة في أحكام خاصة المفادة من قوله تعالى : (وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ) بالامتنان بأن الله هو مكون أصول الهداية العامة ... بإرسال رسوله بالهدى

---

[1] التحرير والتنوير : ج ١٨،ص١١٣. وساق عدداً من الأحكام التي وردت في السورة كبيان حدّ الزنا الذي صُدِّرت به السورة لارتباطه بموضوع معلوم عند السامعين وقت نزولها ، وعتاب الذين يقذفون المحصنات ، وحكم اللعان ، والتعرض لبراءة عائشة الصديقة رضي الله عنها مما أرجفه عليها أهل النفاق ، وما ترتب على ذلك ، وأحكام الاستئذان وآداب المسلمين والمسلمات ، والتحريض على تزويج العبيد والإماء ، وتحريم البغاء ، والأمر بالعفاف. [انظر :ج١٨،ص١١٣].

[2] المصدر نفسه : ج ١٨ ،ص١١٤.

[3] المحور الذي تدور عليه السورة كلها -كما يقول سيد قطب- :((هو محور التربية التي تشتد في وسائلها إلى درجة الحدود ، وترق إلى درجة اللمسات الوجدانية الرفيعة التي تصل القلب بنور الله وبآياته المبثوثة في تضاعيف الكون ... وتتداخل الآداب النفسية الفردية، وآداب البيت والأسرة ، وآداب الجماعة والقيادة بوصفها نابعة كلها من معين واحد هو العقيدة في الله)). [انظر : في ظلال القرآن :ج٤،ص٢٤٨٦] .

٤ ولكنه يربطها بالغرض العام للسورة وهو موضوع الأحكام والآداب .

[5] سورة النور:الآية ٣٥.

[6] سورة النور:الآية ٣٤.

وديــن الحــق»[1] وهذا وصف عام لانتظام الخطاب ، ويزيده تفصيلاً بقولــه: «ومناسبة موقع جملة : ﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ ﴾[2] بعد جملة : (وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ) أن آيات القرآن نور[3]... فكان قولــه: (ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ) كلمة جامعة لمعان جمّة تتبع معاني النور في إطلاقه في الكلام ، وموقع الجملة عجيب ... وانتقال من بيان الأحكام إلى غرض آخر من أغراض الإرشاد وأفانين من الموعظة والبرهان»[4] .

وفي تفســير عــود الآيــات إلى غرض الأحكام والأدلة عند قولــه تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾[5] بعد أن انقطع بجملة من الأغراض شغلت أربعاً وعشرين آية [٣٤ – ٥٨]بــين هذيــن الغرضين، يوضح (ابن عاشور) أن هذه الآية «استئناف انتقالي إلى غرض من أحكام المخالطة والمعاشرة . وهو عود إلى الغرض الذي ابتدأت به السورة وقطع عند قولــه تعالى : (وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ) ...وقــد ذُكر في هذه الآية شرع الاستئذان لأتباع العائلــة ومَــنْ هو شديد الاختلاط إذا أراد دخول بيت ، فهو من متممات ما ذكر في قولــه تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ...﴾[6]»[7].

❑ موضوعات الخطاب في سورة النبأ

يلخص (ابن عاشور) أغراض هذه السورة بقولــه: «اشتملت هذه السورة على وصف خوض المشركين في شــأن القرآن وما جاء به مما يخالف معتقداتهم ، ومن ذلك إثبات البعث ، وسؤال بعضهم بعضا ... مستهزئين بالإخبار عن وقوعه :

- وتهديدهم على استهزائهم .
- وفيها : إقامة الحجة على إمكان البعث بخلق المخلوقات ...
- ووصف الأحوال الحاصلة عند البعث ، من عذاب الطاغين مع مقابلة ذلك بوصف نعيم المؤمنين
- وصفة يوم المحشر ...

---

[1] التحرير والتنوير : ج ١٨،ص١٨٤.

[2] سورة النور:الآية ٣٥.

[3] قال تعالى : (وأنــزلنا إليكم نوراً مبيناً)[سورة النساء : آية ١٧٤] وقال : (قد جاءكم من اللــه نور وكتاب مبين) [سورة المائدة : آية١٥].

[4] ابن عاشور : التحرير والتنوير : ج ١٨،ص١٨٥. وفيه مخالفة ابن عاشور لكلام بعض المفسرين من أن جملة (مثل نوره) بيان لجملة (الله نور السماوات) وذلك في إشارته لتفسير سبب الفصل .

[5] سورة النور:الآية ٥٨.

[6] سورة النور:الآية ٢٧.

[7] التحرير والتنوير : ج ١٨،ص٢٣٣.

وأدمج في ذلك أن علم اللـــه تعالى محيط بكل شيء ، ومن جملة الأشياء أعمال الناس»[1]

وهـــذه الأغراض تؤول إلى موضوع واحد هو موضوع البعث ، وهو من أهم أغراض القرآن في الفترة المكـــية ، ولذلك سماه القرآن النبأ العظيم ، وعند (ابن عاشور) أن خوض المشركين إنما كان في شـــأن القرآن، واســـتلزم ذلك الخوض فيما جاء به ومن أهم ذلك إثبات البعث ، وقد تسلسل الحديث في أغراض السورة على النحو الآتي :

الغرض	أرقام الآيات	المجموع
الإعلام عن خوض المشركين فيما جاء به القرآن من حديث البعث ، وتهديدهم تهديداً إجمالياً	١-٥	٥
الاستدلال على إمكان البعث ضمن أدلة إنفراد الله بالإلـــهية	٦ - ١٦	١١
وصف يوم الحشر ، وأحوال المستهزئين	١٧-٣٠	١٤
مقابلة حال الطاغين ، بحال المؤمنين بالبعث	٣١-٣٦	٦
الاختتام بالتهديد والوعيد للعصاة	٣٧-٤٠	٤

ثانياً ترتيب الخطاب :

مـــن مظاهر انسجام الخطاب ترتيب وقائعه بحيث تأتي الجمل في الآيات ، والآيات في السورة ، وفق ترتيب مقصـــود يحمـــل دلالـــة يشـــعر به القارئ أو السامع، سواءً أكان هذا الترتيب جارياً على ترتيب حصول مدلـــولات هـــذا الكلام في الواقع –وهو الأصل في ترتيب الكلام– أم كان مخالفاً ذلك لمقاصد معينة ويمكن بيان ذلك من خلال الصور التالية:

- علاقة ترتيب عناصر الخطاب بالغرض العام للآيات :

مـــن أهـــم مـــا اشتغل به (ابن عاشور) في حديثه عن ترتيب موضوعات الخطاب في السورة (الأغراض والمقاصـــد) الإشـــارة إلى انـــتظام هذا الترتيب مع هذه الأغراض والمقاصد وذلك لأن ترتيب عناصر الخطـــاب يعـــتمد بدرجة كبيرة على أساس تصور حال السامع وما يخطر على ذهنه من الأمور المتعلقة بموضوع الخطاب وقد عبّر (ابن عاشور) عن ذلك في مواطن مختلفة من التفسير ومنها :

- مـــن ســـورة النبأ قال تعالى : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا ۞ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۞ وَخَلَقْنَـٰكُمْ أَزْوَٰجًا ۞ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۞ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۞ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۞ وَبَنَيْنَا

[1] التحرير والتنوير : ج٣٠،ص٦.

فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۞ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۞ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ۞ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ۞ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴾ [1].

أوضح (ابن عاشور) ترتب هذه الأدلة بعضها على بعض، وأوضح علاقة هذا الترتيب بالغرض العام للآيات الذي هو إثبات البعث، فقال : "ومناسبة ابتداء الاستدلال على إمكان البعث بخلق الأرض أن البعث هو إخراج أهل الحشر من الأرض فكانت الأرض أسبق شيء إلى ذهن السامع" [2] .

أما عن حكمة ترتيب قوله تعالى : (وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا) بعد قوله : (وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا) وعلاقة ذلك بغرض الاستدلال على البعث، فيقول (ابن عاشور) : "انتقل من الاستدلال بخلق الناس إلى الاستدلال بأحوالهم ، وخصّ منها الحالة التي هي أقوى أحوالهم المعروفة شبهاً بالموت الذي يعقبه البعث ...لأن تدبير نظام النوم وما يطرأ عليه من اليقظة أشبه حال بحال الموت وما يعقبه من البعث" [3] . وهكذا يمضي (ابن عاشور) في تبيين الرابطة بين ترتيب الأدلة وبين الغرض العام للآيات.

- ترتيب الإخبار عن الوقائع :

يشير (ابن عاشور) إلى أنه استقرأ أسلوب القرآن فوجد أن ترتيب الوقائع في الوجود أصل في ترتيب الإخبار عنها إلا إذا اقتضى المقام العدول عن ذلك ، وأشار إلى أنه لا يعلم من سبقه في الاهتداء إلى هذا الاستنتاج [4] .

ومن النماذج التي يسوقها على مراعاة ترتيب الإخبار عن الوقائع للترتيب الوجودي مايلي:

- **قال تعالى :** ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [5]

فإن قوله تعالى : (حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم) قد رتبت فيه "الأفعال الثلاثة (فشلتم – تنازعتم – عصيتم) في الآية على حسب ترتيبها في الحصول ، إذ كان الفشل وهو ضجر بعض الرماة من ملازمة موقفهم ...قد حصل أولاً فنشأ عنه التنازع بينهم في ملازمة الموقف ... ونشأ عن التنازع تصميم بعضهم على مفارقة الموقف الذي أمرهم الرسول عليه الصلاة والسلام بملازمته ...، وهذا هو الأصل في ترتيب الأخبار في صناعة الإنشاء، ما لم يقتض الحال العدول عنه" [6].

---

[1] سورة النبأ:الآيات ٦-١٦.

[2] التحرير والتنوير : ج ٣٠،ص١٣.

[3] المصدر نفسه : ج ٣٠،ص١٧.

[4] انظر : التحرير والتنوير : ج ٨،ص٥١.

[5] سورة آل عمران:الآية ١٤٩.

[6] ابن عاشور : التحرير والتنوير : ج ٣،ص٢٥٢.

- **الخروج عن مقتضى الظاهر في ترتيب عناصر الخطاب :**

المتتبع لإشارات (ابن عاشور) عن مقتضيات تغير ترتيب الخطاب في القرآن يجد أنها مقتضيات تداولية وخطابية تتعلق بأهمية الخطاب ،ثم بالطريقة التي يجب أن يتلقى بها السامع ذلك الخطاب .

ويشهد لهذا أن (ابن عاشور) يرى أن ترتيب عناصر الخطاب في قوله تعالى : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ...﴾ الآية[1] ، ترتيب على خلاف مقتضى الظاهر ، ومقتضى ظاهر ترتيب نظم الكلام كما يقول (ابن عاشور) : "أن يقال : وصدّ عن سبيل الله ، وكفر به ، وصدّ عن المسجد الحرام ، وإخراج أهله منه أكبر عند الله . فخولف مقتضى هذا النظم إلى الصورة التي جاءت الآية عليها ، بأن قدّم قوله : (وَكُفْرٌۢ بِهِۦ) فجعل معطوفاً على (صَدٌّ) قبل أن يستوفي (صَدٌّ) ما تعلق به ، وهو (وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ) فإنه معطوف على (سَبِيلِ ٱللَّهِ) المتعلق بـ(صَدٌّ)[2] ... والداعي إلى هذا الترتيب هو أن يكون نظم الكلام على أسلوب أدق من مقتضى الظاهر وهو الاهتمام بتقديم ما هو أفظع من جرائمهم فإن الكفر بالله أفظع من الصدّ عن المسجد الحرام ، فكان ترتيب النظم عل تقديم الأهم فالأهم ... فإن الصدّ عن سبيل الله يجمع مظالم كثيرة ... فليس الكفر بالله إلا ركناً من أركان الصدّ عن الإسلام فلذلك قدّم الصدّ عن سبيل الله ، ثم ثنى بالكفر بالله ... ،ثم عُدّ عليهم الصدّ عن المسجد الحرام ، ثم إخراج أهله منه"[3] .

ونظير هذا التغيير في الترتيب ما أشار إليه (ابن عاشور) في مخالفة ترتيب حكاية الحوادث عند قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ۞ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَـٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾[4] . يقول (ابن عاشور) : "كان مقتضى الظاهر في ترتيب حكاية الحوادث أن يتأخر قوله : (وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ..) عن قوله : (وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَـٰنَ أَسِفًا...) لأنهم ما سُقط في أيديهم إلا بعد أن رجع موسى ورأوا فرط غضبه ، وسمعوا توبيخه أخاه

[1] سورة البقرة:الآية ٢١٧.

[2] من وجوه الإعراب في هذه الآية أن قوله تعالى : (وصدّ عن سبيل الله) ابتداء ، و(كفر ، إخراج) عطف على (صدّ) و (أكبر عند الله) خبره ، وقوله: (والمسجد الحرام) عطف على (سبيل الله) أي : قتال في الشهر الحرام كبير وهو صدّ عن سبيل الله والمسجد .

[انظر : مكي بن أبي طالب القيسي : مشكل إعراب القرآن ، تحقيق حاتم الضامن ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط٢(١٤٠٥هـ) ج١،ص١٢٨].

[3] التحرير والتنوير : ج ٢،ص٣١٢.

[4] سورة الأعراف:الآيتان ١٤٩، ١٥٠.

وإيــاهم ، وإنمـا خولف مقتضى الترتيب تعجيلاً بذكر ما كان لاتخاذهم العجل من عاقبة الندامة وتبيين الضلالة موعظة للسامعين لكي لا يعجلوا في التحول عن سنتهم ، حتى يتبينوا عواقب ما هم متحولون إليه))[1].

ولم يشـر (ابن عاشور) إلى الأصل المعتمد عليه في هذا الترتيب اللـهم إلا ما دلّ على ذلك من ترتيب الوقـائع في الذهن، حيث لا ينشأ الندم إلا عن التوبيخ ، وإلى هذا المعنى أشار برهان الدين البقاعي فقال : ((هذا العمـل الذي قام به بنو إسرائيل موجب لإهلاكهم ولكن المبادرة بالتوبة حرسهم ... فكان السامع على شوق لمعرفة المصير ...ولّما اشتد من تشوف السامع إليه قدّمه على سببه وهو رجوع موسى إليهم وإنكاره عليهم))[2] .

وهـناك ترتيـب آخـر تحكمه قواعد الجدل والاحتجاج وأصول الخطابة والإنشاء ، يخالف فيه ترتيب الخطـاب بحسب المقام ، ومن ذلك ترتيب الدليل قبل الأمر المستدل عليه، فالأمر المعلوم أن الدليل يتبع المقصود بالاسـتدلال ليثبته، ولكن قد يخالف هذا الترتيب الوجودي لغرض بلاغي ، ومن ذلك ما أشار إليه (ابن عاشور) في ترتيب موقع قولـه تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾[3] قـبل قولـه : ﴿ وَقَـٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[4] ،فـإن موقع الآية ((موقع ذكر الدليل قبل المقصود، وهذا طريق من طرق الخطابة ، أن يقدم الدليل على المستدل عليه لمقاصد ...، والمقصود من مثل ذلك الاهتمام والعناية بالحجة قبل ذكر الدعوى تشويقاً للدعوى أو حملاً على التعجيل بالامتثال))[5] .

ومـما أشـار إلـيه (ابن عاشور) من التخيّر في ترتيب الخطاب لمقتضيات تتعلق بأحوال السامعين ترتيب التشـريعات والأوامـر بعـد الموعظة ، وذلك في قولـه تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ...﴾ الآيـة[6] ، فإنـه أمر بالانفاق بعد ما تقدّم من موعظة وترغيب وتحذيـر من قولـه تعالى : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ...﴾ الآية[7]، يقول (ابن عاشور) : ((وهي طريقة بلاغية في الخطابة والخطاب . فربما قدموا المطلوب ثم جـاءوا بما يكسبه قبولاً عند السامعين ، وربما قدموا ما يكسب القبول قبل المقصود كما هنا. وهذا من ارتكاب خلاف مقتضى الظاهر في ترتيب الجمل . ونكتة ذلك أنه قد شاع بين الناس الترغيب في الصدقة وتكرر ذلك في

---

[1] التحرير والتنوير : ج ٣،ص٢٩٣، ٢٩٤.

[2] نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : ج٣،ص١١٣ – ١١٤. وقد أشار الفخر الرازي إلى تغير الترتيب في الآية بقولـه : ((وهذا الندم والاستغفار إنما حصل بعد رجوع موسى عليه السلام)) [التفسير الكبير :ج١٥،ص٩].

[3] سورة البقرة:الآية ٢٤٣.

[4] سورة البقرة:الآية ٢٤٤.

[5] التحرير والتنوير : ج ٢،ص٤٥٤.

[6] سورة البقرة:الآية ٢٦٧.

[7] سورة البقرة:الآية ٢٦١.

نــــزول القــرآن فصار غرضاً دينياً مشهوراً ، وكان الاهتمام في إيضاحه والترغيب في أحوالــه و التنفير من نقائصه أجدر بالبيان))[1] .

[1] التحرير والتنوير : ج ٢،ص٥٢٥-٥٢٦.

ثالثاً العلاقات المعنوية:

تــترابط موضوعات الخطاب في السورة وفق منظومة من العلاقات يدرسها البلاغيون في بحثهم عن الجهة الجامعــة بــين الجمل المعطوفة ، ويبحث عنها النقاد من خلال القرآئن المعنوية التي تتماسك بها فصول القصيدة، ويكشــف عــنها المفسرون في بيان علاقة عناصر الخطاب في السورة حين لا تكفي للإشارة إليها وسائل الربط اللغوي كحروف العطف ، والضمائر ، وأسماء الإشارة .

فقد اشترط النقاد لتماسك الفصل في القصيدة ((أن يردف البيت الأول من الفصل بما يكون لائقاً به من معــاني الفصــل مثل أن يكون مقابلاً لــه، أو بعضه مقتضى لــه، مثل أن يكون مسبباً عنه ، أو تفسيراً لــه أو محاكي بعض ما فيه ببعض ما في الآخر))[١] .

كما أنهم فضلوا أن تبنى النصوص على أسلوب مراعاة إطراد هذه العلاقات في النَّص فقالوا : ((وأحسن مــا يكون عليه هيئة الكلام في ذلك أن تُصدر الفصول بالمعاني الجزئية وتردف بالمعاني الكلية على جهة تمثيل بأمر عــام عــلى أمر خاص ، واستدلال على الشيء بما هو أعمّ منه ، أو نحو ذلك))[٢]. وهو ما عبّر عنه الجرجاني – قديماً– حين تحدث عن حاجة المستمع إلى إعمال فكره في إدراك العلاقات بين المعاني فقال : ((هذا وليس إذا كان الكلام في غاية البيان، وعلى أبلغ ما يكون من الوضوح أغناك ذاك عن الفكرة إذا كان المعنى لطيفاً ، فإن المعاني الشريفة اللطيفة لا بد فيها من بناء ثانٍ على أول وردّ تالٍ إلى سابق))[٣] .

وبناءً على ذلك فإن تتبع أنواع العلاقات المعنوية التي أشار إليها (ابن عاشور) ضمن السور الأربع [آل عمــران – الــرعد – النور – النبأ] كشف عن وجود شبكة من العلاقات بين الآيات ترتبط بالأغراض العامة والجزئية في السورة ، ويمثل انتشار علاقة منها دالةً على معنىً مقصود من ذلك البناء الحكيم .

وأهم العلاقات التي تمّ رصدها في السور الأربع ما يأتي :

❑ علاقة البيان والتفسير :

لا غــرابة أن تــأتيَ علاقة البيان والتفسير على رأس العلاقات المعنوية في القرآن فإن غرض المتكلم الإفهام والإفــادة، وقد يتوجب بحكم البلاغة أن يجيء الكلام –أحياناً– مطوياً مبهماً ، ثم يأتي تفسيره وبيانه لتتضح دلالته ، وقد أحسن الجاحظ حين قال : ((والدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو البيان))[٤].

فأصبح إيضاح المراد وكشف الدلالة غرضاً من أغراض القرآن، فقد وُصف القرآن بأنه الكتاب المبين يقول تعــالى : ﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴾[٥]قــال تعـــالى : ﴿ وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ

---

[١] أبو الحسن حازم القرطاجني : منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، تحقيق محمد بلخوجة ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ،ط(١٩٨٢م) ،ص٢٩٠.

[٢] المصدر نفسه ، ص٢٩٥.

[٣] أسرار البلاغة : تصحيح وتعليق السيد محمد رشيد رضا . دار المطبوعات العربية ، (د.ت.ط) ، ص١٢٣.

[٤] البيان والتبيين : ج١،ص٧٦.

[٥] سورة يوسف:الآية ١.

وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ﴾[1] . ولكـــي تظهـــر أهمية هذه العلاقة في تحقيق الانسجام الدلالي بين آيات السورة سيتم الحديث عنها في جانبين :

الأول : مساحة الربط بعلاقة البيان والتفسير .

الثاني : مظاهر البيان والتفسير .

- **مساحة الربط بعلاقة البيان والتفسير :**

الاستقراء لمواضع هذه العلاقة المعنوية في السور الأربع يكشف أن المساحة التي يتحقق فيها الربط بعلاقة البيان والتفسير تأتي على صورتين :

– الصورة الأولى بيان جملة في نفس الآية بجملة أخرى أو بيان جملة في آية متقدمة :

ومن شواهد ذلك قولـــه تعالى : ﴿ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ﴾[2] يقول (ابن عاشور) : "وقولـــه : (يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ) استئناف لبيان مغزى هذا الاقتراب [المشار إليه بقولـــه : (هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ)] لأنهم يبدون من حالـــهم أنهم مؤمنون ، فكيف جُعلوا إلى الكفر أقرب ؟ فقيل : إن الذي يبدونه ليس موافقاً لما في قلوبهم"[3].

ومن ذلك أيضاً قولـــه تعالى : ﴿ ...إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ ﴾[4] حيث يقول (ابن عاشور) : "وجملة (إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ)بيان لجملة (إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ) أي :أن أعبده وأن أدعو الناس إلى ذلك"[5] .

وقـــد تكـــون الجملـــة أول آيـــة فـــتكون بـــياناً وتفسيراً لجملة متقدمة في آية قبلـــها وذلك نحو قولـــه تعـــــــالى: ﴿ ... فَنَجۡعَل لَّعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡقَصَصُ ٱلۡحَقُّۚ...﴾[6] فإن

---

[1] سورة الفرقان:الآية ٣٣.

[2] سورة آل عمران:الآية ١٦٧.

[3] الـــتحرير والتنوير : ج ٣،ص٢٨١. ولم يشر الزمخشري ولا ابن عطية إلى هذا المعنى وأشار إليه برهان الدين البقاعي بقوله : "ولمّا كان هذا الفعل المسند إلى هذا القول ظاهراً في نفاقهم ترجمه بقولـــه : (هم للكفر يومئذ...) أي : يوم إذ كان هذا حالـــهم(أقرب منهم للإيمان) عند كل من سمع قولـــهم ، أو رأى فعلـــهم ، ثم علل ذلك أو استأنف بقولـــه : (يقولون بأفواههم...) "[انظر : نظم الدرر : ج٢،ص١٧٩].

[4] سورة الرعد:الآية ٣٦.

[5] التحرير والتنوير : ج ١٢،ص١٩٨.

[6] سورة آل عمران:الآيات ٦١، ٦٢.

"جملة (إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ) وما عطف عليها بالواو اعتراض لبيان ما اقتضاه قوله: (ٱلْكَـٰذِبِينَ) لأنهم نفوا أن يكون عيسى عبد الله"[1].

ومثله قوله تعالى: ﴿... كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ۞ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ...﴾[2] فإن قوله تعالى: (لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ)"استئناف بياني لجملة (كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ) أي: فائدة هذه الأمثال أن للذين استجابوا لربهم حين يضربها لهم الحسنى"[3]

– الصورة الثانية: أن تجيء الآية بياناً لآية واحدة، أو آيات عديدة وقد يفصلها عنها عدد من الآيات. ومن شواهد ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾[4]فإن هذه الآية –كما يقول (ابن عاشور)– : "استئناف يتنزل منزلة البيان لوصف الحي[من قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾[5]]لأن عموم العلم يبين كمال الحياة"[6].

وفي سورة الرعد قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَـٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ﴾[7] بيان لجملة القول المتضمن في قوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ...﴾[8].

- مظاهر البيان والتفسير:

يتحقق الربط بعلاقة البيان والتفسير في مظهرين عامين يرجع أولهما إلى النّص؛ أي حين يكون التبيين والتفسير ضرورة يفرضها تتابع الجمل أو الآيات في السورة، ويرجع الآخر إلى المتلقي من جهة وأغراض السورة من جهة أخرى.

ويمكن أن يسمى المظهر الأول بالمظهر اللغوي والدلالي وأهم عناصره:

- الجملة التفسيرية.
- بيان المفرد بجمع، وبيان المفرد بجملة.
- البيان بالتشبيه والتمثيل.
- البيان بالضد والمقابل.

[1] ابن عاشور: التحرير والتنوير: ج ٣،ص١١٥.
[2] سورة الرعد:الآيتان ١٧، ١٨.
[3] ابن عاشور: التحرير والتنوير: ج ١٢،ص١٧٠.
[4] سورة آل عمران:الآية ٥.
[5] سورة آل عمران:الآية ٢.
[6] التحرير والتنوير: ج ٣،ص١٢.
[7] سورة الرعد:الآية ٣٠.
[8] سورة الرعد:الآية ٢٧. انظر التحرير والتنوير: ج ١٢،ص١٨٣.

أمـا المظهر الثاني فهو مظهر دلالي تداولي ، لاعتماده على الاستئناف البياني ، وسنرجئ الحديث عنه إلى وسائل الانسجام ذات الطبيعة التداولية ، ويمكن تفصيل العناصر اللغوية والدلالية السابقة على النحو الآتي :

– الجملة التفسيرية :

حدد ابن هشام ضابط الجملة التفسيرية بقولـه : ((هي الفضلة الكاشفة لحقيقة ما تليه))[1]. وبين أنها قد تأتي مجـردة من حرف التفسير نحو قولـه تعالى : ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[2] لذلـك يقـول (ابـن عاشور) : ((وجملة (خَلَقَهُۥ) وما عطف عليها مبينة لجملـة (كَمَثَلِ ءَادَمَ)))[3]. وقـد تقـترن بـ(أنْ)نحو قولـه تعالى : ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ...﴾الآية[4].

وقد وردت إشارات كثيرة في تفسير (ابن عاشور) للجملة المفسرة مستعملاً مصطلح البيان، مثل قولـه تعـالى : ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ...﴾ الآيـة[5]، يقول: ((وجملـة (لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ) بـيان لجملة (وَعَدَ) لأنها عين الموعود به . ولَمّا كانت جملة قسم وهو من قبيل القول كانت إحداهما بيان للأخرى))[6] وهذا الذي أشار إليه بقولـه : (ولَمّا كانت جملة قسم وهو من قبيل القول) إنما هو لفتة إلى ما ذكره المحققون من النحاة من أنه وإن كانت جملة القسم جملة إنشائية فسر بها الجملة الخبرية إلا أن القسـم من قبيل القول ، وجملة (وَعَدَ) كذلك فلذلك صح أن تكون إحدى الجملتين بياناً للأخرى . يقول ابن هشـام : ((ثم اعلم أنه لا يمتنع كون الجملة الإنشائية مفسرة بنفسها وذلك في موضعين أحدهما : أن يكون المفسر إنشـاءً أيضـاً نحو :أحْسِن إلى زيدٍ أعطه ألف دينار ، والثاني : أن يكون مفرداً مؤدياً معنى جملة نحو: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ...﴾[7]))[8].

---

[1] مغني اللبيب : ص٥٢١. وفي بيان ذلك يقول : ((وقولي في الضابط "الفضلة" احترزت به عن الجملة المفسرة بضمير الشأن فإنها كاشفة لحقيقة المعنى المراد به ، ولـها موضع بالاجماع ... وعن الجملة المفسرة في باب الاشتغال في نحو : "زيداً ضربته" فقد قيل : إنها تكون ذات محل)) [المغني :ص٥٢٦].

[2] سورة آل عمران:الآية ٥٩.

[3] التحرير والتنوير : ج ٣،ص١١٢.

[4] سورة المؤمنون:الآية ٢٧.

[5] سورة النور:الآية ٥٥.

[6] التحرير والتنوير : ج ١٨،ص٢٢٩.

[7] سورة الأنبياء:الآية ٣.

[8] مغني اللبيب : ص٥٢٣، ٥٢٤

- بيان المفرد بجمع ، وبيانه بجملة :

يحـــرص المفسرون على بيان عنصر الانسجام والتطابق بين المُبين والمُبَيَّن ، لذلك فقد أورد (ابن عاشور) رأياً للزمخشري تابع فيه الزجاج[1] في تفسير قولـــه تعالى: ﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ﴾[2]

حيـــث جعلوا قولـــه تعالى : (مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ) وهو مفرد بيان لقولـــه : (فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ) وهو جمع، يقول الزمخشري : ((فإن قلت : كيف صح بيان الجماعة بالواحد ؟ قلتُ : فيه وجهان : أحدهما : أن يجعل وحده بمـــنـــزلة آيـــات كـــثيرة لظهـــور شـــأنه وقوة دلالته على قدرة اللـــه ونبوة إبراهيم من تأثير قدمه في حجر صـــلد...والـــثاني : اشتمالـــه على آيات لأن أثر القدم في الصخرة الصماء آية ، وغوصه فيها إلى الكعبين آية وإلانـــة بعـــض الصـــخر دون بعـــض آية وإبقاؤه دون سائر آيات الأنبياء آية ... وحفظه مع كثرة أعدائه من المشركين...آية))[3] .وكأن (ابن عاشور) يوافق على صحة تبيين الجمع بالمفرد على هذا التأويل إذ يقول: ((وأنا أقول إنه آيات لدلالته على نبوة إبراهيم بمعجزة لـــه وعلى علم اللـــه وقدرته ، وأن بقاء ذلك الأثر مع تلاشي آيات كثيرة... آية أيضاً))[4].

وأما بيان المفرد بجملة : فإن قولـــه تعالى : (وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ) جملة بينت المفرد المتقدم وهو (مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ) يقـــول الزمخشـــري : ((فإن قلتَ : كيف أجزتَ أن يكون مقام إبراهيم والأمن عطف بيان للآيات ؟ وقولـــه : (وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ) جملة مستأنفة إما ابتدائية وإما شرطية ؟ قلتُ : أجزت ذلك من حيث المعنى، لأن قولـــه : (وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ) دلّ على أمن داخلـــه فكأنه قيل : فيه آيات بينات : مقام إبراهيم ، وأمن داخلـــــه))[5]. وفسر (ابن عاشور) كلام الزمخشري هذا بأن جملة (وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ)جملة في معنى المفرد فصـــح عطـــف البيان، ثم أخذ(ابن عاشور) على الزمخشري أنه ((لم يُنَظِر ذلك بما استعمل من كلام العرب حتى يقرب هذا الوجه))[6] ونظّره (ابن عاشور) بقول الحارث بن حلزة :

من لنا عنده من الخير آيـــا ... تٌ في كلـــهن القضـــاء

آية شارق الشقيقة إذ جـــا ... ءت مَعَدٌّ لكل حي لـــواء

ثم قال : ثم حُجْراً أعني ابن أم قَطـــامٍ ... ولـــه فارسيـــة خضـــراء

ثم قال : وفككنا غُلَّ أمرئ القيس عنه ... بعد ما طال حَبسه والعنَـــاء

---

1 هو إبراهيم بن السري أبو إسحاق الزجاج : صاحب كتاب معاني القرآن ، توفي (٣١١هـــ) .

2 سورة آل عمران:الآية ٩٧.

3 الكشاف : ج ١،ص٤١٥.

4 التحرير والتنوير : ج ٣،ص١٦٣.

5 الكشاف : ج ١،ص٤١٦.

6 ابن عاشور : التحرير والتنوير : ج ٣،ص ١٦٥.

يقــول (ابن عاشور) : ((فجعل "وفككنا" هي الآية الرابعة باتفاق الشرّاح إذ التقدير : وفكُّنا غلَّ امرئ القيس))[1].

- **البيان بالتشبيه والتمثيل :**

يؤكد (ابن عاشور) أن أسلوب القرآن جرى على طريقة يتم فيها ضرب المثل وإجراء التشبيه لاستيفاء البيان الكــامل[2] لأحوال من جرى عليهم الخطاب فيزيدها التمثيل تجسيداً ، وذلك ((إتماماً للبيان بجمع المتفرقات بالســمع ، المطالة في اللفظ ، في صورة واحدة ... وتقريراً لجميع ما تقدم في الذهن بصورة تخالف ما صور ســالفاً لأن تجــدد الصورة عند النفس أحب من تكررها))[3]، ومن شواهد البيان بالتشبيه والتمثيل قولــه تعــــالى: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴾ [4] يقــول (ابــن عاشور) : ((فجملة (مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا) واقعة من الجمــل الماضية موقع البيان والتقدير والفذلكة ، فكان بينها وبين ما قبلــها كمال الاتصال، فلذلك فصلت ولم تعطــف))[5]. وكان الزمخشري قد أوضح أهمية هذا وأشباهه عند تفسير هذه الآية فقال : ((لمّا جاء بحقيقة صــفتهم عقّبها بضرب المثل زيادة في الكشف وتتميماً للبيان ، ولضرب العرب الأمثال واستحضار العلماء المــثل والــنظائر –شأن ليس بالخفي في إبراز خبيات المعاني ، ورفع الأستار عن الحقائق حتى تريك المخيل في صورة المحقق، والمتوهم في معرض المتيقن ، والغائب كأنه مشاهد))[6].

ومن شواهد ذلك في السور الأربع –محل الاستقراء في هذا الفصل– :

○ في ســورة آل عمران : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ۞ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [7] يقــول (ابــن عاشــور) : ((وقولــه: (كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ)

---

[1] التحرير والتنوير : ج ٣،ص١٦٥.

[2] وقد نبه الزركشي إلى أهمية ضرب المثل فقال :((والمثل أعون شيء للبيان . فإن قلتَ : لماذا كان المثل عوناً على البيان ، وحاصله قياس معنى بشيء ، من عرف ذلك المقيس فحقه الإستغناء عن شبيهه ، ومن لم يعرفه لم يحدث التشبيه عنده معرفة ؟ . والجواب : أن الحكم والأمثال تصور المعاني تصور الأشخاص فإن الأشخاص والأعيان أثبت في الأذهان لاستعانة الذهن فيها بالحواس)). [انظر : البرهان : ج١،ص٤٨٧، ٤٨٨].

[3] ابن عاشور : التحرير والتنوير : ج ١،ص ٢٩٧.

[4] سورة البقرة:الآية ١٧.

[5] التحرير والتنوير : ج ١،ص٢٩٨.

[6] الكشاف : ج ١،ص١٠٩.

[7] سورة آل عمران:الآيتان ١٠، ١١.

موقـــع كاف التشبيه موقع خبر لمبتدأ محذوف يدل عليه المشبه به ، والتقدير : دأبهم في ذلك كدأب آل فرعون))[1] .

- في سورة الرعد :يقول تعالى ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ...﴾ [2]يقـــول (ابـــن عاشـــور) : ((واختير التشبيه في المتقابلات العمى والبصر، والظـــلمات والنور لتمام المناسبة، لأن حال المشركين أصحاب العمى كحال الظلمة في انعدام إدراك المبصـــرات ،وحال المؤمنين كحال البصر في العلم وكحال النور في الإفاضة والإرشاد))[3]. وأوضح من هذا التمثيل في السورة قولـــه تعالى : ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾[4]. حيـــث ضـــرب للـــباطل مـــثلاً بالزبد ، ومثّل الحق بالماء ، وأشار منوهاً بذلك المثل بقولـــه: (كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ) فذلكةً للتمثيل ببيان الغرض منه[5].

- في ســـورة النور قولـــه تعالى : ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [6] يقـــول (ابن عاشور) : ((قولـــه تعـــالى : (مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ...) يظهر أن هذه الجملة بيان لجملة : ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ﴾[7] فـــالكلام تمثيل لـــهيئة إرشاد للمؤمنين بهيئة المصباح الذي حفت به وسائل قوة الإشراق))[8].

---

[1] التحرير والتنوير : ج ٣،ص٣٣.

[2] سورة الرعد:الآية ١٦.

[3] التحرير والتنوير : ج ١٢،ص١٦٤.

[4] سورة الرعد:الآية ١٧.

[5] ابن عاشور : التحرير والتنوير : ج ١٢،ص١٦٨.

[6] سورة النور:الآية ٣٥.

[7] سورة النور:الآية ٣٤.

[8] الـــتحرير والتنوير : ج ١٨،ص١٨٧. وفي السورة أيضاً تشبيهات وتمثيلات متعددة نحو قولـــه تعالى : (والذين كفروا أعمالـــهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء...)الآية [النور :٣٩] ، وقولـــه تعالى : (أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ...) الآية [النور : ٤٠].

- البيان بالضد والمقابل :

يـتم البيان أحياناً بواسطة المجيء بالضد والمقابل للموضوع المراد بيانه، وذلك لأن الشيء يتعرف بنفي ضده ولذلك قالوا : "بضدها تتميز الأشياء" .

وقـد بـيّن (ابـن عاشور) في مواضع مختلفة من التفسير أن القرآن يعمد إلى تبيين القضايا من خلال عنصر التقابل بين المفاهيم والصفات والأحوال .

- ففي مطلع سورة البقرة وردت خمس آيات في ذكر الـهدى والمهتدين ثم أعقبها حديث عن الكفار في قولـه تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [1] وهم المقابل للموصوفين في صدر السورة ، وقد عبّر (ابن عاشور) عن هذه الطريقة من البيان فقال: ((هذا انتقال من الثناء على الكتاب ومتقلديه ، ووصف هديه ، وأثر ذلك الـهدي في الذين اهتدوا بـه والثـناء عليهم ... ولمّا كان الشيء قد يقدّر بضده، انتقل الكلام على الذين لا يحصل لـهم الاهتداء بهذا الكتاب ... وإنما قطعت هاته الجملة عن التي قبلـها لأن بينهما كمال الانقطاع ، إذ الجمل السابقة لذكر الـهدى والمهتدين ، وهذه لذكر الضالين فبينهما الانقطاع لأجل التضاد))[2].
- وفي سورة آل عمران يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ...﴾ [3] ثم يسـتأنف الحق سبحانه وتعالى الكلام مخاطـباً المؤمنين بقولـه : ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾[4] يقول (ابن عاشور) : ((ومناسبة موقع هذه الآية تلو سابقتها ، أن الآية السابقة لمّا بينـت أن الذين كفروا لن يُقبل من أحدهم أعظم ما ينفقه ، بينت هذه الآية ما ينفع أهل الإيمان من بذل المال ... فبين الطرفين مراتب كثيرة قد علمها الفطناء من هذه المقابلة))[5] .

□ علاقة الإجمال والتفصيل :

تعدّ علاقة الإجمال والتفصيل إحدى العلاقات المعنوية بين جمل القرآن وآياته ، سواءً أكانت تلك العلاقة بين آيات الغرض الواحد أو بين أغراض السورة والمقصود به هنا أن يأتي الكلام مطوياً ثم يجيء بعد ذلك مفصلاً، فمفهومه هنا غير مفهومه عند أهل الأصول[6].

---

[1] سورة البقرة:الآية ٦.

[2] التحرير والتنوير : ج ١،ص٢٤٤.

[3] سورة آل عمران:الآية ٩١.

[4] سورة آل عمران:الآية ٩٢.

[5] التحرير والتنوير : ج ٣،ص ١٥٣.

[6] الإجمال عند الأصوليين : إيراد الكلام على وجه يحتمل أموراً متعددة ، التفسير : تعيين بعض تلك المحتملات أو كلها .[انظر : الجرجاني :التعريفات ،ص٢٥]. ويقول السيوطي : ((المجمل : ما لم تتضح دلالته)). [انظر : الإتقان : ج٢،ص٥٢].

وتتخذ علاقة الإجمال والتفصيل صورة مزدوجة ، فقد يكون الكلام مجملاً ثم يأتي التفصيل أو بالعكس .

فمن صور العلاقة القائمة على الإجمال ثم التفصيل العلاقة بين قوله تعالى : ﴿ ...وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [1] وقوله في الآية التي تليها مباشرة : ﴿ قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُۗ ... ﴾ [2] علاقة قائمة على الإجمال والتفصيل ، يقول (ابن عاشور) : ((قوله تعالى: (قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُۗ) انتقال من التحذير المجمل إلى ضرب من ضروب تفصيله، وهو اشعار المُحَذَّر باطلاع الله على ما يخفونه من الأمر))[3] وهي علاقة بين آيتين في غرض واحد .

أما وقوع علاقة الإجمال الذي يليه التفصيل في نطاق الآية الواحدة فمن شواهده في سورة آل عمران – أيضاً– قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[4] فإن قوله تعالى : (يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌۚ) إجمال وتشويق لما يرد بعده من تفصيل عاقبة أصحاب الوجوه المبيضة والوجوه المسودة، يقول (ابن عاشور) : ((وقوله تعالى : (فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ) تفصيل للإجمال السابق، سلك فيه طريق النشر المعكوس))[5] .

وتتسع مساحة الربط بعلاقة الإجمال والتفصيل حين يكون افتتاح السورة أو الغرض افتتاحاً مجملاً، ويكون التفصيل متدرجاً ببيان مجمل ثم مفصل في سائر الآيات في السورة، وقد أشار (ابن عاشور) إلى هذا النوع من علاقة الإجمال والتفصيل في مطلع سورة النبأ ، فإن فاتحة السورة ((من الفواتح البعيدة لما فيها من أسلوب عزيز غير مألوف ، ومن تشويق بطريقة الإجمال ثم التفصيل المحصلة لتمكن الخبر الآتي بعده في نفس السامع أكمل تمكن))[6] والظاهر أن كلمة "النبأ" هي : اللفظة المجملة ، حيث جاءت الآيات من قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴾[7] إلى قوله : ﴿ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴾[8] تفصيلاً لما فيها من الإجمال يقول (ابن عاشور) : ((هذا بيان لما أجمله قوله تعالى : ﴿ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۞ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴾[9]))[10] ويلفت النظر هنا

[1] سورة آل عمران:الآية ٢٨.
[2] سورة آل عمران:الآية ٢٩.
[3] التحرير والتنوير : ج ٣،ص٧٦.
[4] سورة آل عمران:الآيتان ١٠٦ ، ١٠٧.
[5] ابن عاشور : التحرير والتنوير : ج ٣،ص١٨٤ ، ١٨٥.
[6] المصدر نفسه: ج ٣٠،ص٦.
[7] سورة النبأ:الآية٦.
[8] سورة النبأ:الآية ١٦.
[9] سورة النبأ:الآيتان ٢ ، ٣.
[10] التحرير والتنوير : ج ٣٠،ص٢٦.

استعمال (ابن عاشور) مصطلح البيان بدل التفصيل ، وهذا دليل على تداخل علاقة البيان والتفسير مع علاقة الإجمال والتفصيل ، لأن التفصيل بعد الإجمال بيان .

وكما كانت الصورة الأولى يأتي التفصيل فيها عقب الإجمال فالصورة الأخرى هي العكس وهو أن يرد الإجمال بعد التفصيل ، وهنا نجد (ابن عاشور) يوسع مساحة الربط بهذه العلاقة حيث يشير إلى آية هي في نهاية غرض من أغراض السورة، لينص على أن مضمونها إجمال لما فُصل من بداية الغرض على أسلوب الفذلكة والتحصيل ، ومثال ذلك أن قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾[1] "عوداً إلى الموعظة بطريق الإجمال البحت : فذلكةً للكلام ، وحرصاً على الإجابة"[2] ، وقد أشار (ابن عاشور) أن غرض الموعظة الذي أجملته هذه الآية هو المبتدئ بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾[3] .

ونستنتج من كلام (ابن عاشور) أن فائدة الإجمال بعد التفصيل هو التذكير بالغرض الأهم الذي تعود عليه . ويشبه هذا الموضع في إجمال آيات الغرض ما أورده (ابن عاشور) في تفسير قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا ﴾[4] فالآية "استئناف ابتدائي كالفذلكة لما تقدم من وعيد ووعد ، وإنذار وتبشير ... والإشارة بقوله : (ذَٰلِكَ) إلى اليوم المتقدم في قوله : ﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ﴾[5]"[6] .

□ علاقة العموم والخصوص :

نقصد بعلاقة العموم والخصوص المعنى المشهور لها في كتب التفسير وعلوم القرآن ، فقد قال الزركشي : "ليس المراد بالخاص والعام ها هنا ما اصطلح عليه في الأصول[7] : بل كل ما كان الأول فيه شاملاً للثاني"[8] و أكثر ما ترد هذه العلاقة في السور الأربع على صورة التذييل بالأعم على ما جاء متقدماً في صورة قضايا جزئية أو أحكامٍ خاصة .

---

[1] سورة آل عمران:الآية ٣٢.

[2] ابن عاشور : التحرير والتنوير : ج ٣،ص٨٢.

[3] سورة آل عمران:الآية ١٠.

[4] سورة النبأ:الآية ٣٩.

[5] سورة النبأ:الآية ١٧.

[6] التحرير والتنوير : ج ٣٠،ص٤٨.

[7] "الخاص : هو كل لفظ وضع لمعنى معلوم على الانفراد"[الجرجاني : التعريفات ، ص١٢٨]. "العام: كون اللفظ موضوعاً بالوضع الواحد لكثير غير محصور مستغرق جميع ما يصلح له" [الجرجاني : التعريفات ، ص١٨٨]."العام : لفظ يستغرق الصالح له من غير حصر"[السيوطي : الإتقان ، ص٤٣].

[8] البرهان في علوم القرآن :ج ،ص٤٦٩. وقد استدل على ذلك بقوله تعالى : (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر...) [سورة آل عمران :١٠٤] ثم قال : "إذ الأمر والنهي من جملة الدعاء إلى الخير" .

كمـا تتخذ هذه العلاقة صورة أخرى في الخطاب الخاص بآيات الأحكام ، وهاتان الصورتان هما مظهرا الربط اللذان تم رصدهما إلى جانب العطف المشهور بعطف الأعم على الأخص .

ويمكن تفصيل ذلك على النحو الآتي :

- <u>التعميم بالتذييل :</u>

التذييـل "إعادة الألفاظ المترادفة على المعنى بعينه حتى يظهر لمن لم يفهمه ويتوكد عند من فهمه"[1] وقد مُـثل لـه بقولـه تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ۞ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ... ﴾ الآية[2].

ولـيس شرط الاعادة أن تكون بالألفاظ المترادفة بل يكفي في ذلك أن تندرج المعاني السابقة تحت معنى أعمَّ منها ، لذلك كان التذييل ضربان :

"١- ضـرب أخـرج مخرج المثل : بأن يقصد بالجملة الثانية حكم كلي منفصل عمّا قبلـه جارٍ مجرى الأمثال في الاستقلال ... نحو قولـه تعالى : ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾[3].

٢- وضرب منه لم يخرج مخرج المثل : بأن لم يستقل بإفادة المراد ، بل يتوقف على ما قبلـه ، نحو قولـه تعـالى : ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا ۖ وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾[4] – عـلى قراءة من قرأ: (وهل يجـازى)[5]- عـلى وجه وهو أن يراد : وهل يجازى ذلك الجزاء المخصوص المذكور فيما قبل ... إلا الكفور ، وأما على الوجه الآخر ، وهو أن يراد : وهل يعاقب إلا الكفور فهو من الضرب الأول"[6].

وسـواءً أكـان من الضرب الأول أم من الثاني فإن العلاقة أكيدة لأن إخراج الكلام مخرج المثل في جملة التذييـل يـؤدي إلى وجـود حكـم عام يندرج تحته مجموع ما سبق ، واستقلال المقصود في جملة المثل لا يعني الانقطاع الكامل وإلا لما كان للتذييل مزية لوقوعه في ذلك الموقع .

---

[1] أبو هلال العسكري : كتاب الصناعتين ، ص٤١٣.

[2] سورة الأنبياء:الآيتان ٣٤-٣٥.

[3] سورة الإسراء:الآية ٨١.

[4] سورة سبأ:الآية ١٧.

[5] قولـه تعالى : (وهل نجازي إلا الكفور) يقول أبو محمد مكي بن أبي طالب القيسي : "قرأه حفص وحمزة والكسائي بالنون ،و كسر الزاي ، ونصب الكفور ، عـلى الإخـبار عن اللـه -جل ذكره- عن نفسه حملاً على ما أتى بعده من الإخبار عن اللـه -جل ذكره- عن نفسه في قولـه : (وجعلنا بينهم وبين القرى ...)وقولـه : (باركنا) [سبأ : ١٨] ،وعلى ما قبلـه أيضاً في قولـه : (فأرسلنا عليهم) [سبأ:١٦]... فحسن حمل الكلام على ما قبلـه وما بعده...وحجة من قرأ باليـاء والرفع -وهو الاختيار لأن الأكثر عليه- أنه بنى الفعل للمفعول ، فرفع "الكفور" لأنه مفعول لم يسم فاعلـه ، والناس كلـهم يُجازون بأعمالـهم ، لكن المؤمن يُكفر اللـه عنه سيئاته الصغائر باجتنابه الكبائر ، والكافر لا تكفير لسيئاته ... فلذلك خُص الكافر بذِكْر المجازاة في هذه الآية".

[انظر : الكشف عن وجوه القرآءات السبع :ج٢،ص٢٠٦].

[6] بدوي طبانة : معجم البلاغة ، ص٢٣٦.

وإلى هـذا المعـنى أشـار (ابن عاشور) عند تفسير قولـه تعالى : ﴿ ٱلْخَبِيثَـٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَـٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَـٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَـٰتِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾[1] فقـد جاءت هذه الآية عقب الآيات المتضمنة حديث الإفك وعتاب المؤمنين لتقرر أمراً عاماً يشمل الجزئيات ما قـبلـه ، يقـول (ابـن عاشور) : ((وهذه قضية كلية ، ولذلك حُق لـها أن تجري مجرى المثل وجُعلت في آخر القصة كالتذييل))[2].

وإذا كانـت هـذه صورة التذييل الذي أخرج مخرج المثل ، وقد اتضحت علاقتها بما قبلـها فإن ظهور عنصـر الترابط في الضرب الثاني من التذييل غير خفي ، ومثال ذلك قولـه تعالى : ﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ۞ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴾[3] فقـد اشـتملت الآية الأولى على صور من علم اللـه تعالى فكانت ((جملة (عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ) ... تذييل وفذلكـة لتعميم العلم بالخفيات والظواهر))[4]فبين جملة التذييل في هذا الضرب وما سبقها علاقة لفظية [يعلم – عالم] وعلاقة معنوية بين جزئيات ما تقدم وكلي ما في الآية .

والتذيـيل بموقعه ووظيفته يسهم في تعضيد قضايا النَّص ،وترتيب الانتقال فيما بينها ، ومن ذلك قولـه تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴾[5] ونظائرها في سورة آل عمران .

وقولـه تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[6] ونظيرها في سورة النور . يقول (ابن عاشور) : ((ذيلت الأحكام والمواعظ التي سبقت بإثبات نفعها ... فجملـة (وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ) مسـتأنفة استئناف التذييل ، وكان مقتضى الظاهر أن لا تعطف لأن شأن التذييل والاستئناف الفصل ... وإنما عدل عن العطف لأن هذا ختام للتشريعات والأحكام التي نـزلت السورة لأسبابها))[7].

وأخيراً فإن تحقق غاية التعميم بالتذييل لتأكيد مضامين النَّص لا يختص بموقعه عقب الآية أو الغرض وإنما يشـمل إمكـان وقوعـه تذيـيلاً لآيات السورة كلـها ، ومنه ما جاء في خاتمة سورة النور في قولـه تعالى:

---

[1] سورة النور:الآية ٢٦.

[2] التحرير والتنوير : ج ١٨،ص١٥٦.

[3] سورة الرعد:الآيتان ٨، ٩.

[4] ابن عاشور : التحرير والتنوير : ج ١٢،ص١٥١

[5] سورة آل عمران:الآية ٥٨ .

[6] سورة النور:الآية ٣٢.

[7] التحرير والتنوير : ج ١٨،ص١٨٣.

﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قَدۡ يَعۡلَمُ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ وَيَوۡمَ يُرۡجَعُونَ إِلَيۡهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴾[1] فإنها "تذييل لما تقدم في هذه السورة كلها"[2].

- **تخصيص العموم :**

وردت هذه الصورة من علاقة الخاص بالعام في إطار آيات الأحكام بشكل واضح ، ومن ذلك في سورة النور قوله تعالى : ﴿ لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡۚ... ﴾[3] **يقول (ابن عاشور) : "هذا تخصيص لعموم قوله :** ﴿ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ ﴾[4] **بالبيوت المعدة للسكنى"**[5] **وقوله تعالى :** ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ ... ﴾[6] **تخصيص عموم قوله تعالى :** ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ... ﴾[7]، **وقوله تعالى :** ﴿ وَٱلۡقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا يَرۡجُونَ نِكَاحٗا فَلَيۡسَ عَلَيۡهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعۡنَ ثِيَابَهُنَّ غَيۡرَ مُتَبَرِّجَٰتِۢ بِزِينَةٖۖ ﴾[8] **"هذه الآية مخصصة لقوله تعالى :** ﴿ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ... ﴾ **إلى قوله تعالى :** ﴿ ...عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ ﴾[9]"[10].

- **عطف العام على الخاص وعكسه :**

تظهر علاقة العموم والخصوص في صورة العطف –أيضاً– لتزيد في تقرير المعاني وتمييز بعضها إذا خفي، فمما جاء من عطف الخاص على العام قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ... ﴾[11] **وفي بيان ذلك العطف يقول (ابن عاشور) : "عطف على جملة :** ﴿ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ ﴾[12]،

---

[1] سورة النور:الآية ٦٤.

[2] التحرير والتنوير : ج ١٨،ص٢٥٠.

[3] سورة النور:الآية ٢٩.

[4] سورة النور:الآية ٢٧.

[5] التحرير والتنوير : ج ١٨،ص١٦١.

[6] سورة النور:الآية ٥٨.

[7] سورة النور:الآية ٢٧.

[8] سورة النور:الآية ٦٠.

[9] سورة النور:الآية ٣١.

[10] ابن عاشور : التحرير والتنوير : ج ١٨،ص٢٣٧.

[11] سورة النور:الآية ٢٢.

[12] سورة النور:الآية ٢١.

فإن من كيد الشيطان أن يأتي بوسوسته في صورة خواطر الخير إذا علم أن الموسوس إليه من الذين يتوخون البّر والطاعة))[1] .

فمضمون الآية خاص عطف على العام المشار إليه بقوله : (لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ) فأفاد موقع الآية بعدما سبقها من العموم تلك الفائدة .

وتظهر صور أخرى للعطف ضمن علاقة العموم والخصوص هي عكس الصورة الأولى، وذلك في سورة الأعراف، فبعد أن توالى القصص القرآني الذي حكى فيه أحوال الأمم يقول المولى تبارك وتعالى : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ﴾[2] وهو حديث يعمّ الرسل ومن أرسل إليهم ، عطف عليه كلاماً يعمّ جميع أحوال الأمم المكذبة مع المرسلين، وفي بيان ذلك يقول (ابن عاشور) : ((عطفت الواو جملة (وَمَآ أَرۡسَلۡنَا) على جملة ﴿ وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ ﴾[3] عطف الأعمّ على الأخص . لأن ما ذكر من القصص ابتداءً من قوله تعالى : ﴿ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ...﴾[4]كله القصد منه العبرة بالأمم الخالية ... فلما تلى عليهم قصص خمس أمم جاء الآن بحكم كلي يعمّ سائر الأمم المكذبة))[5] وهذه الصورة الأخيرة تظهر أهمية علاقة العموم والخصوص في ترابط الخطاب إذ شملت مساحة الربط بواسطتها مجموع الآيات [٥٩ – ٩٤] كما زاد من أهمية الربط بها أن موقعها مع ما يتلوها من الآيات إلى قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ... ﴾[6] ((كالمعترضة بين القصص للتنبيه على موقع الموعظة فهو اعتراض ببيان المقصود من الكلام))[7] .

❑ علاقة التفريع والتعليل :

التفريع : ((جعل شيء عقيب شيء ، لاحتياج اللاحق إلى السابق))[8]ويُفهم من لفظ التفريع وجود أصل يتبعه فرع، وهذه التبعية هي العلاقة المعنوية التي تربط الكلام .فقد يكون الإحتياج الذي يأتي له التفريع إحتياج إلى بيان سبب فيما سبق من الخبر ،أو تفريع معنى على ما تقدم .

---

[1] التحرير والتنوير : ج ١٨،ص١٥١. وقصة أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) مع ابن خالته مسطح بن أثاثه(رضي الله عنه) حين علم أبو بكر أنه قد خاض مع من خاض في حديث الإفك، وكان ينفق عليه قبل ذلك فأقسم بعد حديث الإفك أن لا ينفق عليه ، وقد تاب مسطح وتاب الله عليه، و لم يزل أبو بكر واجداً في نفسه عليه فنزلت هذه الآية [انظر : البخاري : حديث رقم ٤٧٥٧].

[2] سورة الأعراف:الآية ٩٤.

[3] سورة الأعراف:الآية ٨٥.

[4] سورة الأعراف:الآية ٥٩.

[5] التحرير والتنوير : ج ٨،ص٢٠٥.

[6] سورة الأعراف:الآية ١٠٣.

[7] ابن عاشور : التحرير والتنوير : ج ٨، ص٢٠٥.

[8] علي بن محمد الجرجاني : التعريفات ، ص٨٧.

والتفريع في الكلام يتم بواسطة الفاء حيث تربط الجملة أو الصفة بما قبلها فيكون ما بعدها مترتب على ما قبلها ، وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ... ﴾ [1] ((فالفاء للترتيب والتسبيب فيكون ما بعدها مترتباً على ما قبلها ، والظاهر أن ما بعدها مترتب على قوله : ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [2] الدال على وقوع تحريف عن عمد فرتب عليه الإخبار باستحقاقهم سوء الحالة)) [3] .

وقد أشار (ابن عاشور) إلى مواقع التفريع بالفاء حيثما وجدت في السور الأربع ، ومن ذلك حين يكون التفريع ناجماً عن الإخبار في عنصر متقدم من الخطاب، مثل قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ ... ﴾ [4] فالآية ((تفريع على قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ ﴾ [5] فإن الإسلام دين قد أنكروه ، واختلافهم في أديانهم يفضي بهم إلى محاجة الرسول في تبرير ما هم عليه من الدين)) [6] .

ويغني غَناء فاء التفريع في الربط والتعليل تصدر الكلام بـ(إنّ)التي لا يقصد بها توكيد الكلام للشاك أو المنكر ، وإنما يراد بها مجرد الاهتمام بالخبر ، وقد أشار إلى ذلك عبدالقاهر الجرجاني في معرض شرحه لبيت بشار [7] :

بكّرا صاحبي قبيل الهجير ... إن ذاك النجاح في التبكير

وقول بعض العرب :

فغنها وهي لك الفداء ... إن غناء الإبل الحداء

فقال : ((واعلم أن من شأن "إنّ" إذا جاءت على هذا الوجه أن تغني غَناء الفاء العاطفة –مثلاً– وأن تفيد من ربط الجملة بما قبلها أمراً عجيباً، فأنت ترى الكلام بها مستأنفاً غير مستأنف مقطوعاً موصولاً معاً)) [8] ويعيد في موطن آخر الحديث عن أهمية الربط بإنّ فيقول : ((ترى الجملة إذا هي دخلت ترتبط بما قبلها وتأتلف معه وتتحد به ، حتى كأن الكلامين قد أفرغا إفراغاً ... وهذا الضرب كثير في التنزيل جداً ، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴾ [9])) [10] وقد فسر الجرجاني معنى

---

[1] سورة البقرة:الآية ٧٩.

[2] سورة البقرة:الآية ٧٥.

[3] ابن عاشور : التحرير والتنوير : ج ١،ص٥٥٧.

[4] سورة آل عمران:الآية ٢٠.

[5] سورة آل عمران:الآية ١٩.

[6] التحرير والتنوير : ج ٣،ص٥٦

[7] هو بشار بن برد العقيلي ، أبو معاذ: أشعر المولدين ، وكان ضريراً ، وأدرك الدولتين الأموية والعباسية ، توفي (١٦٧هـ) .

[8] دلائل الإعجاز ص٢٦٦، وكررها ص١٩٩.

[9] سورة الحج:الآية ١.

[10] دلائل الاعجاز : ص٢٩٩.

التفريع بـ(إن) في بيت بشار -السابق- ثم في هذه الآية فقال: ((ألا ترى أن الغرض من قوله : إن ذاك النجاح في التبكير، جله أن يبيّن المعنى في قوله لصاحبه: "بكرا" وأن يحتج لنفسه في الأمر بالتبكير ، ويبين وجه الفائدة فيه. وكذلك الحكم في الآي التي تلوناها فقوله : (إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ) بيان للمعنى في قوله تعالى : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ) ولم أُمِرُوا بأن يتقوا))[1].

وقد نهج (ابن عاشور) نهج الجرجاني في هذا المعنى وزاده تفصيلاً في أول موضع ورد فيه[2] ،وذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾[3] (ومن مواضعه في السور الأربع قوله تعالى : ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[4] يقول (ابن عاشور) : ((هذا الكلام واقع موقع التعليل للأمر في قوله : ﴿فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾[5] ... وقد آذن بكون الكلام تعليلاً موقع "إنّ" في أوله، فإن التأكيد بإنّ لمجرد الاهتمام، وليس لرد إنكار منكر أو شك شاك، ومن خصائص إنّ إذا وردت في الكلام لمجرد الاهتمام أن تغني غَناء فاء التفريع ، وتفيد التعليل والربط ... ولما في هذه من إفادة الربط استغني عن العطف لكون إنّ مؤذنة بالربط . وبيان وجه التعليل أن هذا البيت لمّا كان أول بيت وضع للـهدى وإعلان توحيد الله ... فقد كان جامعاً لدلائل الحنيفية فإذا ثبت له شرف الأولية ودوام الحرمة ... كان ذلك دلالة إلهية على أنه بمحل العناية من الله تعالى فدلّ على أن الدين الذي قارن إقامته هو الدين المراد لله))[6] ومثل هذا التعليل بـ"إنّ" قوله تعالى : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾[7] يقول (ابن عاشور): ((موقع هذه الجملة موقع التعليل لجملة ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾[8] إلى قوله ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾[9] ... وحرف إنّ للاهتمام بالخبر وليست لردّ الانكار إذ لا ينكر أحد أنهم لا يرجون حساباً وأنهم مكذبون بالقرآن))[10] .

ويمكن لنا بعد هذا التفصيل في أنواع العلاقات المعنوية التي يرتبط بها الخطاب في النّص القرآني أن نطل إطلالة أقرب على شبكة العلاقات السابقة كما نرصدها من عبارة (ابن عاشور) في السور الأربع ضمن هذين الجدولين الذين يختص الأول منهما ببيان توزيع العلاقات في سورة آل عمران (نموذجاً)، أما الجدول الثاني فنلخص فيه انتشار العلاقات في السور الأربع جميعها .

---

[1] دلائل الإعجاز: ص٣٠٥.
[2] انظر : التحرير والتنوير : ج ١،ص٤٠٠.
[3] سورة البقرة:الآية ٣٢.
[4] سورة آل عمران:الآية ٩٦.
[5] سورة آل عمران:الآية ٩٥.
[6] التحرير والتنوير : ج ٣،١٥٨.
[7] سورة النبأ:الآية ٢٧.
[8] سورة النبأ:الآية ٢١.
[9] سورة النبأ:الآية ١.
[10] التحرير والتنوير : ج ٣٠، ص٣٥.

شبكة العلاقات المعنوية في سورة (آل عمران) (جدول : ١)

الغرض العام	الغرض الجزئي	موضع العلاقة	نوع العلاقة	الآية المتعلق بها	الموضع في تفسير ابن عاشور
[١ -٩٩] محاجة وفد النصارى	[١- ٣٢] تمهيد للغرض العام	(إن الذين كفروا بآيات الله ..)[٣]	بيان وتفسير	(نزّل عليك الكتاب بالحق..)[٢]	١١/٣
		(إن الله لا يخفى عليه شيء ..)[٥]	بيان وتفسير	(الله لا إله إلا هو الحي ..)[٢]	١٢/٣
		(هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء..) [٦]	بيان وتفسير	(الله لا إله إلا هو الحي القيوم)[٢]	١٢/٣
		(لا إله إلا هو العزيز الحكيم)[٦]	عموم وخصوص	الأحكام المتقدمة[٢-٦]	١٣/٣
		(هو الذي أنزل عليك الكتاب)[٧]	بيان وتفسير	(إن الذين كفروا بآيات الله ..)[٣]	١٤/٣
		(كدأب آل فرعون..)[١١]	بيان وتفسير	(إن الذين كفروا لن تغني عنهم..)[١٠]	٣٣/٣
		(قد كان لكم آية ..)[١٣]	بيان وتفسير	(قل للذين كفروا ..)[١٢]	٣٥/٣
		(قل أؤنبئكم ...)[١٥]	بيان وتفسير	(زين للناس حب الشهوات..)[١٤]	٤١/٣
		(شهد الله أنه لا إله إلا هو..)[١٨]	إجمال وتفصيل	الآيات[٢،٣]	٤٣،٤٤/٣
		(فإن حاجوك..)[٢٠]	تفريع وتعليل	(إن الدين عند الله الإسلام)[١٩]	٥٦/٣
		(ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات..)[٢٤]	تعليل	(ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً..)[٢٣]	٦٦/٣
		(قل إن تخفوا ما في صدوركم..)[٢٩]	تفصيل وإجمال	(لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء..)[٢٨]	٧٦/٣
		(...ويعلم ما في السموات وما في الأرض..)[٢٩]	عموم (تذييل)	(قل إن تخفوا ما في صدوركم..)[٢٩]	٧٦/٣
		(..والله غفور رحيم)[٣١]	عموم (تذييل)	(قل إن كنتم تحبون الله)[٣١]	٧٨/٣
		(قل أطيعوا الله والرسول..)[٣٢]	إجمال وتفصيل	الآيات[١٠-٣٢]	٨٢/٣
	[٣٣-٣٤] التخلص إلى سبب السورة	(إن الله اصطفى آدم ..)[٣٣]	إجمال وتفصيل (تمهيد)	الآيات المتعلق بها[٣٥-٦٠]	٨٢/٣
	[٣٥-٩٩] مقصد السورة	(إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك..)[٤٥]	بيان وتفسير	(وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك..)[٤٢]	٩٦/٣
		(ذلك نتلوه عليك..)[٥٨]	عموم(تذييل)	الآيات[٤٥ - ٥٧]	١١١/٣
		(إن مثل عيسى ..)[٥٩]	بيان وتفسير	(..إن الله يبشرك بكلمة منه..)[٤٥]	١١١-١١٢/٣
		(فمن حاجك فيه..)[٦١]	تفريع وتعليل	(الحق من ربك فلا تكن من الممترين)[٦٠]	١١٣/٣
		(إن هذا لهو القصص الحق..)[٦٢]	بيان وتفسير	(..فنجعل لعنة الله على الكاذبين)[٦١]	١١٥/٣

الغرض العام	الغرض الجزئي	موضع العلاقة	نوع العلاقة	الآية المتعلق بها	الموضع في تفسير ابن عاشور
		(قال أقررتم وأخذتم على ذلكم إصري..)[٨١]	بيان وتفسير	(وإذ أخذ الله ميثاق النبيين..)[٨١]	١٤٥/٣
		(أفغير دين الله يبغون..)[٨٣]	تفريع وتعليل	الآيات[٨١-٨٢]	١٤٧/٣
		(إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار..)[٩١]	بيان وتفسير	(إن الذين كفروا بعد إيمانهم..)[٩٠]	١٤٩/٣
		(لن تنالوا البر..)[٩٢]	بيان وتفسير	(..فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً..)[٩١]	١٥٣/٣
		(إن أول بيت وضع للناس..)[٩٦]	تفريع وتعليل	(فاتبعوا ملة إبراهيم..)[٩٥]	١٥٨/٣
[١٠٠-١٢٠] تحذير المسلمين من مكائد عدوهم وحثهم على فضائل الأعمال	~	(فأما الذين اسودت وجوههم ..)[١٠٦]	تفصيل وإجمال	(يوم تبيض وجوه وتسود وجوه)[١٠٦]	١٨٥/٣
		(تلك آيات الله نتلوها عليك..)[١٠٨]	عموم(تذييل)	الآيات[٥٩-١٠٥]	١٨٦/٣
		(كنتم خير أمة ...)[١١٠]	تفريع وتعليل	الآيات[١٠٤-١٠٥]	١٧٨/٣
		(..ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله..)[١١٢]	تفريع وتعليل	(ضربت عليهم الذلة..)[١١٢]	١٩٤/٣
		(..وما يفعلوا من خير..)[١١٥]	عموم (تذييل)	(..من أهل الكتاب أمة قائمة..)[١١٣]	١٩٦/٣
		(مثل ما ينفقون..)[١١٧]	بيان وتفسير	(لن تغني عنهم أموالهم ..)[١١٦]	١٩٨/٣
		(..إن الله عليم بذات الصدور)[١١٩]	عموم (تذييل)	(وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل..) [١١٩]	٢٠٣/٣
[١٢١-١٨٩] تذكير المسلمين بما وقع في أحد وتسليتهم	[١٢١-١٧٦] التذكير والاعتراض بالمتخللات والتسلية	(..وما النصر إلا من عند الله..)[١٢٦]	عموم (تذييل)	(..وما جعله الله إلا بشرى لكم..) [١٢٦]	٢١٢/٣
		(ولله ما في السموات وما في الأرض..)[١٢٩]	عموم (تذييل)	(ليس لك من الأمر شيء..)[١٢٢]	٢١٦/٣
		(وسارعوا إلى مغفرة ..)[١٣٣]	بيان وتفسير	(وأطيعوا الله والرسول..)[١٣٢]	٢٢٠/٣
		(وتلك الأيام نداولها بين الناس)[١٤٠-١٤١]	تفريع وتعليل	الجواب المحذوف المدلول عليه بقوله: (فقد مس القوم قرح مثله..)[١٤٠]	٢٢٩/٣
		(..منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة..) [١٥٢]	تفصيل وإجمال	(..حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر..) [١٥٢]	٢٥٣/٣
		(.. وطائفة قد أهمتهم أنفسهم..)[١٥٤]	بيان وتفسير	(..ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة..) [١٥٤]	٢٥٧/٣
		(..يظنون بالله غير الحق..)[١٥٤]	بيان وتفسير	(.. وطائفة قد أهمتهم أنفسهم..)[١٥٤]	٢٥٧/٣
		(..وليبتلي الله ما في صدوركم..)[١٥٤]	تفريع وتعليل	(فأثابكم غماً بغم)[١٥٣]	٢٦١/٣
		(إن الذين تولوا منكم ..)[١٥٥]	بيان وتفسير	مضمون الآية[١٥٤]	٢٦١/٣
		(فبما رحمة من الله ..)[١٥٩]	تفريع وتعليل	الآيات[١٥٢ - ١٥٦]	٢٦٥/٣

الغرض العام	الغرض الجزئي	موضع العلاقة	نوع العلاقة	الآية المتعلق بها	الموضع في تفسير ابن عاشور
		(أفمن اتبع رضوان الله..)[١٦٢]	تفريع وتعليل	(ثم توفى كل نفس ما كسبت..)[١٦١]	٢٧٥/٣
		(الذين قال لهم الناس..)[١٧٣]	بيان وتفسير	(الذين استجابوا لله وللرسول)[١٧٢]	٢٨٥/٣
		(إنما ذلكم الشيطان..)[١٧٥]	بيان وتفسير	(الذين قال لهم الناس)[١٧٣]	٢٨٧/٣
		(الذين قالوا إن الله عهد إلينا..)[١٨٣]	بيان وتفسير	(لقد سمع الله قول الذين قالوا..)[١٨١]	٢٩٩/٣
		(كل نفس ذائقة الموت..)[١٨٥]	إجمال وتفصيل	الآيات[١٥٥–١٦٨]	٣٠١/٣
[١٩٠–٢٠٠] اختتام السورة بالموعظة	[١٩٠–١٩٥] الموعظة	(ربنا إنك من تدخل النار..)[١٩٢]	تفريع وتعليل	(..فقنا عذاب النار)[١٩١]	٣٠٩/٣
		(..أن آمنوا بربكم..)[١٩٣]	بيان وتفسير	(..ينادي للإيمان..)[١٩٣]	٣١٠/٣
		(..فالذين هاجروا وأخرجوا...)[١٩٥]	عموم وخصوص	(..لا أضيع عمل عامل)[١٩٥]	٣١٤/٣
	[١٩٦–١٩٩] اعترا ض بالمقابل	(..متاع قليل..)[١٩٧]	بيان وتفسير	(لا يغرنك تقلب الذين كفروا..)[١٩٦]	٣١٥/٣
		(لكن الذين اتقوا ربهم..)[١٩٨]	بيان وتفسير	مضمون آية[١٩٦]	٣١٦/٣
	[٢٠٠] العودة إلى الموعظة	(يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا..)[٢٠٠]	إجمال بعد التفصيل	الآيات[١٢١–نهاية السورة]	٣١٧/٣

خلاصة جدول العلاقات المعنوية التي يرتبط بها الخطاب في النّص القرآني في السور الأربع (جدول :٢)

السورة	العلاقات			
	بيان وتفسير	إجمال وتفصيل	عموم وخصوص	تعليل وتفريع
آل عمران	٢٤	٨	١٠	١٢
الرعد	٩	٤	٥	٣
النور	٥	٠	١١	٣
النبأ	٢	٥	٠	٢

ولعل أهم ما يمكن استخلاصه من هذا الجدول هو ما يلي :

١- تبرز علاقة البيان والتفسير في سورة آل عمران أكثر من غيرها من العلاقات ، وهو ما يجعلنا نلتفت إلى صلة هذه العلاقة بأغراض السورة ، فإن الأغراض العامة لسورة آل عمران –كما سبق– تتمثل في : محاجة أهل الكتاب ، وتحذير المسلمين من مكائدهم ، وعتاب المسلمين عمّا حصل يوم أحد وتسليتهم ، لذلك فلا غرابة أن تكون علاقة البيان والتفسير وعلاقة التعليل أكثر العلاقات انتشاراً في السورة لحاجة الأغراض السابقة إليها .

٢- تبرز علاقة البيان والتفسير كذلك في سورة الرعد أكثر من غيرها ، ونحسب أن سيطرها على مساحة أكبر من علاقات السورة له صلة بأغراض السورة وهي الرد على مطاعن المشركين في القرآن والرسول والألوهية ، وحاجة ذلك إلى البيان غير خفية .

٣- في سورة النور تبرز علاقة العموم والخصوص ، ولعلّ ذلك يعود إلى أن أكثر أغراض السورة في الأحكام والآداب الخاصة والعامة .

٤- في سورة النبأ برزت علاقة الاجمال والتفصيل موزعة على انتقالات أغراض السورة ، وهي علاقة بين أغراض لا بين جمل وآيات فحسب ، ونحسب أن لافتتاح السورة بالإجمال ثم الجواب بالتفصيل علامة سيطرة هذه العلاقة على جوّ السورة ، وهو ما أكده (ابن عاشور) في بيان انتظام أغراض هذه السورة.

إذن فإن توزيع العلاقات في الخطاب توزيع له مقاصد تتوازى مع الغرض العام والأغراض الجزئية، وكل ذلك يعطي مؤشراً ذا دلالة على انسجام الخطاب في السورة يدركه كل متأمل ومدقق .

رابعاً الجامع والمناسبة :

تهتم التداولية بدراسة ظروف التواصل اللغوي بصفة خاصة ، والعلاقات بين الجمل والسياقات والأحوال التي استعملت اللغة فيها، وتدرس كيفية تفسير الأقوال بالاعتماد على معرفة العالم الواقعي المحيط بالنّص .

كما تدرس كيفية فهم المتحدثين للأحداث الكلامية ، وتأثر تركيب الجمل بالعلاقة بين المتحدث والسامع[1].

وبعبارة أخرى تهتم بالحديث عن الوسائل التي لا يمكن رصدها من ظاهر النّص ولا من دلالته اللغوية، بل من زاوية السياق والمتلقي ، وأهم ما يعنينا هو تلك التأويلات التي وردت في كتب البلاغة والتفسير لظهور المناسبة وتحقق الانسجام بين أجزاء الخطاب بواسطة مفهوم الجامع والمناسبة وانعكاس تلك المفاهيم في أسلوب (ابن عاشور) ، ويحسن أن نقدم بين يدي ذلك أهم التعريفات والقواعد التي يمثل الإلمام بها جسراً ضرورياً نعبر من خلاله إلى آفاق النّص القرآني المعجز .

❏ مفهوم الجامع والمناسبة :

برز الحديث عن مفهوم الجامع والمناسبة في باب عطف الجمل بالواو أو فصلها وتجريدها من العطف. والمعلوم أن عطف الجمل بالواو ضربان :

- الضرب الأول : عطف يفيد التشريك بين الجملتين المتعاطفتين في الحكم ، وذلك لا يكون إلا إذا كانت الجملتان في حكم المفرد وللجملة المعطوف عليها موضع من الإعراب «وإذا كانت الجملة الأولى واقعة موقع المفرد كان عطف الثانية عليها جارياً مجرى عطف المفرد ، وكان وجه الحاجة إلى الواو ظاهراً والاشراك بها في الحكم موجوداً . فإذا قلتَ : مررت برجل خُلُقه حسن ، وخَلْقُه قبيح، كنت قد أشركت الجملة الثانية بحكم الأولى وذلك الحكم كونها في موضع جر لأنها صفة للنكرة»[2].

- الضرب الثاني من عطف الجمل : «أن تعطف على الجملة العارية الموضع من الإعراب جملة أخرى كقولك : زيدٌ قائمٌ وعمروٌ قاعدٌ ، و العلمُ حسنٌ والجهل قبيحٌ – لا سبيل لنا أن ندعي أن الواو أشركت الثانية في إعراب قد وجب للأولى بوجه من الوجوه»[3]

وإذا كانت الواو لا تفيد إلا اشراك الجملتين في الحكم الاعرابي فقط ، وهو منعدم في الضرب الثاني فلا بد من البحث عن وجه المناسبة في العطف ليصلح تفسير معنى التشريك الذي تفيده الواو ، وهذا الوجه هو ما عبر عنه عبد القاهر الجرجاني في الصور الآتية :

---

١ انظر : صبحي إبراهيم : علم اللغة النّصي ، ص٤٣، ٤٤. وليست هذه المفاهيم بغريبة على البحث اللغوي عند العرب ، فالإشارات التداولية في صفحات كتاب سيبويه كثيرة ، وهي أكثر في كتاب الخصائص لابن جني ، فضلاً عما فصلته بعد ذلك كتب البلاغة .

٢ عبدالقاهر الجرجاني : الدلائل ،ص٢٢٤.

٣ المصدر نفسه :ص٢٢٤.

١- معنى الجمع :

فيجب أن يكون المحدث عنه في إحدى الجملتين لـه علاقة في ذهن السامع عن المتحدث عنه في الجملة الأخرى. يقول الجرجاني : "وذلك أنّا لا نقول : زيدٌ قائمٌ وعمروٌ قاعدٌ ، حتى يكون عمرو بسبب من زيد، وحتى يكونا كالنظيرين والشريكين وبحيث إذا عرف السامع حال الأول عناه أن يعرف حال الثاني ، يدلك على ذلك أنك إن جئت فعطفت على الأول شيئاً ليس منه بسبب ولا وهو مما يذكر بذكره ، ويتصل حديثه بحديثه لم يستقم . فلو قلتَ : خرجتُ اليومَ من داري . ثم قلتَ: وأحسنَ الذي يقول بيت كذا ، قلتَ ما يضحك منه. ومن هنا عابوا أبا تمام في قولـه[1] :

لا والذي هو عالم أن النوى صَبِرٌ وأن أبا الحسين كريم

وذلك لأنـه لا مناسبة بين كرم أبي الحسين ومرارة النوى ، ولا تعلق لأحدهما بالآخر وليس يقتضي الحديث بهذا الحديث بذاك "[2].

٢- المشاكلة بين المعاني :

وذلك بأن "يكون الخبر عن الثاني مما يجري مجرى الشبيه أو النقيض للخبر عن الأول ، فلو قلتَ : زيدٌ طويل القامة وعمروٌ شاعر . كان خُلفاً لأنه لا مشاكلة ولا تعلق بين طول القامة والشعر، وإنما الواجب أن يقال: زيدٌ كاتبٌ وعمرٌ شاعر ، وزيدٌ طويل القامة وعمرٌ قصير"[3].

٣- تضام المعاني في النفس والعقل :

ويتضح ذلك من جهة أنه لا يصح أن يقال : زيدٌ طويل القامة وعمروٌ قصيرٌ -مثلاً- "حتى يكون المعنى في هذه الجملة لفقاً للمعنى في الأخرى ومضاماً لـه ، مثل : أن زيداً وعمرواً إذا كانا أخوين أو نظيرين أو مشتبكي الأحوال على الجملة، كانت الحال التي يكون عليها أحدهما من قيام أو قعود أو ما شاكل ذلك مضمومة في النفس إلى الحال التي عليها الآخر من غير شك ، وكذا السبيل أبداً، والمعاني في ذلك كالأشخاص، فإنما قلتَ -مثلاً- : العلم حسنٌ والجهل قبيحٌ ، لأن كون العلم حسناً مضموم في العقول إلى كون الجهل قبيحٌ"[4] .

ويظهر من عبارة الجرجاني أن المناسبة القائمة على التضام النفسي بين الجملتين متعلقة باتحاد التصور عنهما عند السامع، لأن الإخبار عمن يُتحدث عنهما يجب أن يكون مقترناً في نفسه بأي نوع من أنواع الاقتران، أما التضام العقلي فيبدو أنه أمر مقرر في المعاني عند ذوي العقول جميعاً . وقد رأى بعض الباحثين أن هذا التبرير الأخير للعطف تبرير تداولي لأن الجرجاني "ينظر في الخطاب من زاوية التلقي ، أي من خلال علاقة المتلقي بالخطاب بحيث تعود مقبولية العطف لا إلى أسباب معنوية وإنما إلى أسباب تداولية"[5] لأن اقتران الشخصين

---

١ البيت لأبي تمام من قصدية في مدح محمد بن الهيثم بن شبانه ، ديوان أبي تمام : تحقيق محمد عبده عزام .طبعة دار المعارف مصر د.ت،٣ : ٢٩٠.

٢ دلائل الاعجاز : ص٢٢٥.

٣ المصدر نفسه : ص٢٢٦.

٤ عبد القاهر الجرجاني : دلائل الاعجاز : ص٢٢٦.

٥ محمد خطابي : لسانيات النّص ، ص١٠٣.

المتحدث عنهما في الذهن مختلف من متلقٍ إلى آخر وكذلك المعاني وهو أمر صحيح يرجع فيه إلى الغالب ، وبهذا يتضح معنى الجمع عند الجرجاني .

أمـــا الســـكاكي[1] فيوضح الصورة ويجلوها حين يرى «أن الجمل ينبغي أن يقطع بعضها عن بعض ما لم يكن بينها ما يجمعها من جهة العقل أو الوهم أو الخيال

- فالجامع العقلي : هو أن يكون بين الجملتين :
  - اتحاد في التصور : كالاتحاد في المخبر عنه ، والاتحاد في الخبر .
  - أو تماثل مع تباين يقتضي التعدد .
  - أو يكـــون بيـــنهما تضـــايف ، كما في العلة والمعلول ، والسبب والمسبب ، والسفل والعلو، والأقل والأكثر ...إلخ.

فإن العقل يأبى ألا يجتمعا في الذهن .

- والجامع الوهمي : هو أن يكون بين تصوراهما :
  - شـــبه تماثل نحو : أن يكون المُخبر عنه في أحدهما لون بياض وفي الثاني لون صفرة [فإن الوهم يبرزهما في معرض المثلين]ولذلك حسُن قول الشاعر :

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها　　　شمس الضحى وأبو اسحاق والقمر[2]

  - أو تضـــاد : كالسواد والبياض ، والـــهمس والجهارة ، والحلاوة والحموضة [والتحرك والسكون، والقيام والقعود ، والعلم والجهل ، والحسن والقبح].
  - أو شبه تضاد : كالذي بين السماء والأرض ، والسهل والجبل ، والأول والثاني . فإن الوهم ينـــزل المتضـــادين أو الشـــبيهين بهما منـــزلة المتضايفين فيجتهد في الجمع بينهما في الذهن ، ولذلك نجد الضد أقرب خطوراً بالبال مع الضد .

- الجامع الخيالي : هو أن يكون بين تصوراهما تقارن في الخيال سابق لأسباب مؤدية إلى ذلك . فإن جميع مـــا يثبـــت في الخـــيال مما يصل إليه من الخارج ، يثبت فيه على نحو ما يتأدى إليه ويتكرر لديه، ولمّا لم تكن الأســـباب عـــلى وتـــيرة واحـــدة فيما بين معشر البشر اختلف الحال في ثبوت الصور في الخيالات ترتيبـــاً ووضوحـــاً »[3].

وتعـــود هذه الأنواع الثلاثة إلى القوة المفكرة فإن كان الجامع «أمراً حقيقياً فهو "العقلي" وإن كان أمراً اعتـــبارياً ، فـــإن كـــان غير محسوس فهو "الوهمي"وإن كان محسوساً فهو "الخيالي"»[4] وقد رأى محمد خطابي أن

---

١ هو أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر بن محمد الخوارزمي ، المعروف بالسكاكي : صاحب كتاب مفتاح العلوم ، توفي (٦٢٥هـ) . انظر : السيوطي : بغية الوعاة ، ص٤٢٥.

٢ البيت لمحمد بن وهيب يمدح المعتصم العباسي .انظر معجم البلاغة ص٧٥٠.

٣ انظر : أبو يعقوب السكاكي : مفتاح العلوم . تحقيق نعيم زرزور ، ط١ ، دار الكتب العلمية -بيروت (١٩٨٣م) ،ص١١٠، ١١١.

٤ بدوي طبانة : معجم البلاغة ،ص١٣٥.

تصـــنف أنـــواع الجامع إلى «صنف دلالي يندرج فيه الجامع العقلي والوهمي ، وصنف تداولي يندرج فيه الجامع الخيالي»[1] وذلك لما في الجامعين العقلي والوهمي من العموم في جمع العناصر المتماثلة أو شبه المتماثلة ، أو العناصر المتضادة أو شبه المتضادة ، بينما الجامع الخيالي تتدخل فيه إعتبارات المتلقين واختلاف أفهامهم .

ومع ما في هذا التصنيف من التجوز إلا إنه يقبل من أجل حصر وسائل الانسجام ذات الطبيعة التداولية في أضـــيق نطـــاق لأن أدواتهـــا وأساليب التعبير عنها غير مضبوطة كما هو الحال في العلاقات المعنوية المتحققة بواســـطة الجـــامع العقـــلي والوهمـــي ، فقد محصت الفروق الدقيقة بين عناصرها في المنطق وعلم الكلام وعلم الأصول.

وقريب من مصطلح الجامع مصطلحٌ أطلّ به السلجماسي وهو مصطلح المناسبة . يقول: «المناسبة تركيب القـــول من جزأين فصاعداً ، كل جزء منها مضاف إلى الآخر ومنسوب إليه بجهة ما من جهات الاضافة ونحوِ من أنحاء النسبة»[2] وقد قسّم السلجماسي جهات الإضافة والمناسبة إلى :

- إيراد الملائم : أن يأتي بالشي وشبيهه ، مثل : الشمس والقمر، والسرج واللجام ...
- إيراد النقيض : أن يأتي بالأضداد ، مثل : الليل والنهار ، والصبح والمساء ، والحياة والموت ...
- الانجـــرار : وذلـــك أن يأتي بالشيء ومايستعمل فيه ، مثل : القوس والسهم ، والفرس واللجام، والقلم والدواة [3].

ويمكن أن يصنف القسم الأول والثاني على الجانب الدلالي لارتباطهما بالجامع الوهمي ، ويدرج الانجرار تحت الجانب التداولي لقربه من مفهوم الجامع الخيالي .

وبهـــذا التحديد لمفهوم الجامع والمناسبة يمكن أن تُفهم مبررات الوصل والفصل القائمة عليه . وقد أجمل عبدالقاهر الجرجاني أحوال الجملة في الفصل والوصل إلى ثلاث حالات :

« - جملـــة حالـــهـــا مـــع التي قبلـــها حال الصفة مع الموصوف ، والتأكيد مع المؤكد، فلا يكون فيه العطف البته لشبه العطف فيها لو عطفت بعطف الشيء على نفسه .

- وجملـــة حالها مع التي قبلـــها حال الاسم يكون غير الذي قبلـــه إلا أنه يشاركه في حكم ويدخل معه في معنى ، مثل : أن يكون كلا الاسمين فاعلاً أو مفعولاً أو مضافاً، فيكون حقها العطف .

- وجملة ليست في شيء من الحالين، بل سبيلـــها مع التي قبلـــها سبيل الاسم مع الاسم لا يكون منه في شـــيء، فلا يكون إياه ولا مشاركاً لـــه في معنى ، بل هو شيء إن ذكر لم يذكر إلا بأمر ينفرد به، ويكـــون ذكر الذي قبلـــه وترك الذكر سواء في حالـــه لعدم التعلق بينه وبينه رأساً. وحق هذا ترك

---

1 لسانيات النّص : ص١٢٢.

2 المنـــزع البديع في تجنيس أساليب البديع : ص٥١٨.

3 السلجماسي : المنـــزع البديع ،ص١٥٩.

العطـف البـتة . فترك العطف يكون إما للاتصال مع الغاية أو لانفصال إلى الغاية ، والعطف لما هو واسطة بين الأمرين وكان لـه حال بين حالين ››[1].

وقـد مثلـت هذه الأحوال الثلاثة ضابطاً دقيقاً لمعاقد الفصل والوصل ما زاد السكاكي على أن فصل مجملـها في مفاهيم كمال الاتصال وكمال الانقطاع والتوسط بين كمال الاتصال وكمال الانقطاع التي حفلت بها كتب البلاغة بعد ذلك .

❑ المظاهر التداولية في الفصل والوصل :

تتوزع قواعد الفصل والوصل على حقلي الدلالة والتداول ، فإذا كان الاعتماد في تفسير مناسبة العطف منظوراً فيه إلى جانب المتلقي فالتفسير تداولي لا دلالي .

وأبرز المظاهر التداولية في باب الوصل والفصل تتمثل في :

- الاستئناف البياني .
- التضام النفسي .
- الجامع الخيالي .

ولتوضـيح ذلـك بالأمـثلة مـن تفسير (ابن عاشور) فسيكون مجال الدراسة في السور الأربع المتقدمة بالإضـافة إلى سورة البقرة ، لأن كثيراً من القواعد العامة قد قررت فيها بعبارة أوسع مما في غيرها ، وبيان ذلك على النحو الآتي :

- الاستئناف البياني (تقدير السؤال) :

مـن موجـبات الفصل بين الجمل : شبه كمال الاتصال ويكون ذلك إذا كانت الجملة الثانية جواباً عن سـؤال اقتضته الجملة الأولى ، ويسمى الفصل حينئذ استئنافاً ، وقد تعرض لـهذا اللون من الاستئناف عـبدالقاهر الجـرجاني في ثنايا شرح مظهر الفصل في قولـه تعالى : ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾[2] حيـث قال : ‹‹وههنا أمر سوى ما مضى يوجب الاستئناف وترك العطف وهو أن الحكايـة بأنهم قالوا : كيت وكيت ، تحرك السامعين لأن يعلموا مصير أمرهم وما يصنع بهم ... وإذا كـان لذلـك كان هذا الكلام الذي هو قولـه : (ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ) في معنى ما صدر جواباً عن هذا المقـدر وقوعـه في أنفس السامعين . وإذا كان مصدره كذلك كان حقه أن يؤتى به مبتدأ غير معطوف ليكون في صورته إذا قيل : فإن سألتم قيل لكم : (ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ)››[3].

---

١ دلائل الاعجاز : ص٢٤١.

٢ سورة البقرة:الآية ١٥.

٣ دلائل الاعجاز : ص٢٣٤.

ونظّـــر الجرجاني هذا الأسلوب بأمثلة كثيرة من الشعر العربي[1] . وقد تعرض السكاكي لدواعي تقدير السـؤال الذي تقتضيه الجملة الأولى وتدل عليه بالفحوى وأجملــها بقولــه : ((إما لتنبيه السامع ، أو لإغنائه أن يسأل، أو لئلا يُسمع منه شيء ، أو لئلا ينقطع كلامك بكلامه ، أو للقصد إلى تكثير المعنى بتقليل اللفظ))[2] .

وقد اختلف في موجب الفصل بين الجملتين إذا كانت على أسلوب السؤال والجواب فذهب القزويني[3] إلى أن الموجب للفصل بين الجملتين هو تنـزيل الأولى منـزلة السؤال المقدر لكونها مقتضية لــه فتعطى بالنسبة للثانــية حكم السؤال بالنسبة إلى الجواب ، أي تفصل الثانية عنها كما يفصل الجواب عن السؤال[4] وإنما يفصل الجواب عن السؤال لما بينهما من كمال الانقطاع لاختلاف الأسلوب أو لما بينهما من الارتباط المقامي المُغني عن العطف.

ومذهــب السكاكي أن السؤال الذي تقتضيه الأولى وتدل عليه بالفحوى ينـزل منـزلة السؤال المحقق المصرح به، وتُجعل الثانية جواباً عن ذلك السؤال فتُقطع حينئذٍ عن الأولى إذ لا يعطف جواب سؤال على كلام آخر[5] .

ولـــهذا فإن اختيار (ابن عاشور) تسمية هذا الاستئناف بالاستئناف البياني كان أفضل لأن علة البيان أقــوى في اقتضــاء الفصـــل من الموجبات التي أشار إليها القزويني أو السكاكي ، على أن من المعلوم أن نكت الاستئناف تحدد طبيعة تفسير هذا النوع من الفصل .

وقـــد نبهـــت كتب البلاغة إلى أن هذا الاستئناف يصنف إلى ثلاثة أضرب وذلك بحسب طبيعة السؤال الذي تتطلبه الجملة الأولى[6] :

- فإمــا إن يكون عن سبب مطلق للحكم الكائن : وذلك إذا كان السامع يجهل السبب من أصلــه نحو قول الشاعر :

قال لي : كيف أنت؟ قلت : عليل ... سهر دائم وحزن طويل[7]

وإنما كان السؤال هنا عن السبب المطلق لا عن السبب الخاص بقرينة العرف والعادة .

---

١ ومن ذلك قول اليزيدي [ونسبه أبو الفرج الأصفهاني في الأغاني : ج٢٢،ص١٦٤ لإبراهيم بن المدبر]:

ملكتــه حبلي ولكنـــــه ... ألقاه من زهد على غاربي

وقال إني في الـــهوى كاذب ... انتقم الله من الكـــاذب

يقول الجرجاني : ((استأنف قولــه : "انتقم الله من الكاذب" لأنه جعل نفسه كأنه يجيب سائلاً قال لــه : فما تقول فيما اتهمك به من أنك كاذب ؟ فقال : أقول : انتقم اللـــه من الكاذب)) .[دلائل الاعجاز : ص٢٣٦].

٢ مفتاح العلوم : ص١١٠.

٣ هو محمد بن عبدالرحمن ، جلال الدين ، المعروف بالخطيب القزويني : توفي (٧٣٩هـ) .

٤ إيضاح البلاغة : ص٢٣٧.

٥ انظر : مفتاح العلوم : ص ١١٠.

٦ انظر : بدوي طبانة : معجم البلاغة ، ص٥٣-٥٤.

٧ البيت في العباسي : معاهد التنصيص شرح شواهد التلخيص : ج١،ص٢٧١. ولم ينسبه إلى أحد .

- وإمـا أن يكـون عـن سبب خاص لـهذا الحكم : نحو قولـه تعالى : ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ ...﴾[1] وكأنه قيل : لم لا تبرئ نفسك ؟ ، فكان الجواب: إن النفس لأمارة بالسوء . فالسؤال هنا عن السبب الخاص بقرينة التأكيد بإن واللام ، فالتأكيد دليل على أن السائل سأل عن سبب خاص .

- وإمـا أن يكـون السؤال عن غيرهما : بأن يكون عن شيء آخر يقتضي المقام السؤال عنه، نحو قولـه تعالى : ﴿ فَقَالُواْ سَلَـٰمًاۖ قَالَ سَلَـٰمٌ ...﴾[2] فكأنه قيل : فماذا كان جواب إبراهيم ؟ فكان الجواب : قال سلامٌ ، أي سلامٌ عليكم ، واستفيد منه أنه حياهم بتحية أحسن لأن تحيته كانت بجملة إسمـية دالة على الدوام والثبوت ، فقولـه : (قَالَ سَلَـٰمٌ) مبتدأ حذف خبره ، وأما قولهم: (سَلَـٰمًا) فهو مفعول مطلق لفعل محذوف وإذا كان السؤال عن السبب فالجواب يشتمل على جوابه لا محالة.

وعلى ضـوء هذه الاشارات في مفهوم الاستئناف البياني نسوق هذه الأمثلة من تفسير (ابن عاشور) من السور المختارة على النحو الآتي :

- قولـه تعـالى : ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾[3] يقـول (ابن عاشور): «لم تعطف هاته الجملة على ما قبلـها لأنها مستأنفة استئنافاً بيانياً جواباً لسؤال مقدر ، وذلك أن السامع لحكاية قولـهم للمؤمـنين : (آمنا)[4] وقولـهم للشياطين : (إنّا معكم) يقول: لقد راجت حيلتهم على المسلمين ... وهل يتفطن متفطن في المسلمين لأحوالـهم فيجازيهم على استهزائهم ؟ أو هل يرد لـهم ما راموا من المسلمين ؟، ومن الذي يتولى مقابلة صنيعهم ؟ فكان للاستئناف بقولـه : (ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ) غاية الفخامة والجزالة»[5].

وقـد ساق (ابن عاشور) وجهاً آخر للفصل وهو كون الكلام اعتراضاً بين حكاية أحوال المنافقين فقال: «وهو أيضاً واقع موقع الاعتراض والأكثر في الاعتراض ترك العاطف»[6] .

- قـال تعـالى: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبْحَـٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ ﴾[7] يوضح (ابن عاشور) دور الاستئناف البياني القائم على تصور حال المتلقي في توجيه قـراءة قولـه تعـالى: (وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ) بـالواو وبغير الواو فيقول :«وقد قرئ بالواو (وَقَالُواْ) على أنه معطوف على قولـه:

---

١ سورة يوسف:الآية ٥٣.

٢ سورة الذاريات:الآية ٢٥.

٣ سورة البقرة:الآية ١٥.

٤ يقول تعالى : (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون)[سورة البقرة : آية ١٤].

٥ التحرير والتنوير : ج ١،ص٢٨٩.

٦ المصدر نفسه : ج١،ص٢٨٩.

٧ سورة البقرة:الآية ١١٦.

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ...﴾[1] وهي قراءة الجمهور وقرأه ابن عامر[2] بدون واو عطف[3] ...فتكون استئنافاً كأن السامع بعد أن سمع ما مرّ من عجائب هؤلاء الفرق الثلاث [اليهود والنصارى والذين لا يعلمون وهو المشركون] جمعاً وتفريقاً تسنى له أن يقول :لقد أسمعتنا من مساويهم عجبا فهل انتهت مساويهم أم لهم مساوٍ أخرى؟ ››[4].

ومن أمثلة ذلك في السور الأربع :

-من سورة الرعد : قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا مَتَـٰعٌ ﴾[5] فإن موقع هذه الآية بعد حديث القرآن عن حال الذين ينقضون عهد الله ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل؛ لذلك فإن ‹‹هذه الجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً جواباً عمّا يهجس في نفوس السامعين من المؤمنين والكافرين من سماع قوله : ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾[6] المفيد أنهم مغضوب عليهم ، فأما المؤمنون فيقولون : كيف بسط الله الرزق لهم في الدنيا فازدادوا به طغياناً وكفرا؟ وهلا عذبهم في الدنيا بالخصاصة ... وأما الكافرون فيسخرون من الوعيد ... فأجيب الفريقان بأن الله يشاء بسط الرزق لبعض عباده ونقصه لبعض آخر لحكمة متعلقة بأسباب العيش في الدنيا ››[7] .

إن هذا التوقع لردود أفعال متلقي النّص (مؤمنين وكافرين) هو الذي برّر وجود هذا الاستئناف البياني الذي يقضي على التساؤلات المتعددة عند هؤلاء المتلقين ، وبذلك أصبح الكلام مرتبطاً بعضه ببعض عن طريق تصور تلك العلاقة .

– ومن سورة النور : يقول تعالى : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[8] فالآية ‹‹ استئناف بياني لأن الإخبار عن الذين يعرضون عندما يدعون إلى الحكومة[9] بأنهم ليسوا بالمؤمنين[10] في حين أنهم يظهرون الإيمان يثير سؤال سائل عن

١ سورة البقرة:الآية ١١٣.

٢ ابن عامر : عبد الله أبو عمران اليحصبي ، إمام أهل الشام في القراءة وإليه نهاية مشيخة الإقراء بها ، عرض على أبي الدرداء والمغيرة بن أبي شهاب صاحب عثمان بن عفان رضي الله عنه، وسمع من بعض الصحابة، وروى القراءة عنه يحيى الذماري. توفي ١١٨هـ .[انظر : الذهبي : معرفة القراء ، ج ١ ،ص٨٣].

٣ يقول أبو محمد مكي بن أبي طالب : "قوله : (وقالوا اتخذ الله ولدا) قرأه ابن عامر بغير واو، جعله مستأنفاً غير معطوف على ما قبله وقد علم أن المُخبر عنه بهذا القول هو المخبر عنه بمنع ذكر الله في المساجد، والسعي في خرابها ، وكذلك هي في مصاحف أهل الشام بغير واو . وقرأ الباقون: (وقالوا) بالواو على العطف على ما قبله ... وكذلك هي في جميع المصاحف بالواو". [انظر الكشف عن وجوه القراءات : ج١،ص٢٦٠].

٤ التحرير والتنوير : ج ١،ص٦٦٥.

٥ سورة الرعد:الآية ٢٦.

٦ سورة الرعد:الآية ٢٥.

٧ ابن عاشور : التحرير والتنوير : ج ١٢،ص١٧٩.

٨ سورة النور:الآية ٥١.

٩ الحكومة المقصود بها : التحاكم الذي يقع بين الخصوم عند من يرتضونه حَكَماً . "حكم عليه بالأمر حكماً وحكومة ، الحكم بالضم القضاء وحكم بينهم كذلك ... وتحكم حاز فيه حكمه، والاسم : الأحكومة والحكومة" [القاموس المحيط : مادة (حكم) ،ص١٤١٥].

١٠ وذلك في قوله تعالى : (وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون)[النور :٤٨].

الفاصل الذي يميز بين المؤمن الحق وبين الذي يرائي بإيمانه ... فيقتضي أن يبين للسائل الفرق بين الحالين لئلا يلتبس عنده الإيمان المزور بالإيمان الصادق))[1].

- التضام النفسي :

تتمثل صورة التضام النفسي في توافق المعاني بين الأشياء المتحدث عنها بحيث يكون المستمع قادراً على الربط بينها ليس من جهة العقل وإنما من جهة الانفعال النفسي تجاه كل مفردة من تلك المفردات المتعاقبة.

وقد بين (ابن عاشور) المناسبة التي حسنت الوصل بين المتعاطفات في قوله تعالى : ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا ۞ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۞ وَخَلَقْنَـٰكُمْ أَزْوَٰجًا ۞ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾[2] فإن الآيات واقعة في غرض الاستدلال على إمكان البعث بخلق الأرض أولاً، ورتب على هذه الصورة خلق الجبال، وخلق الإنسان، والنوم، يقول (ابن عاشور): ((ومناسبة ابتداء الاستدلال على إمكان البعث بخلق الأرض أن البعث هو إخراج أهل الحشر من الأرض، فكانت الأرض أسبق شيء إلى ذهن السامع عند الخوض في أمر البعث أي بعث أهل القبور))[3].

وقد ترتب على وصف الأرض بالمهاد ذكر الجبال في قوله تعالى : (وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا) ((ومناسبة ذكر الجبال دعا إليها ذكر الأرض وتشبيهها بالمهاد الذي يكون داخل البيت فلما كان البيت من شأنه أن يخطر ببال السامع من ذكر المهاد كانت الأرض مشبهة بالبيت ... وأيضاً فإن كثرة الجبال الناتئة على وجه الأرض قد يخطر في الأذهان أنها لا تناسب جعل الأرض مهاداً فكان تشبيه الجبال بالأوتاد مستملحاً بمنزلة حُسن الاعتذار))[4]. كما ألمح (ابن عاشور) إلى معرفة العرب بالجبال ومنافعها مما يجعلها مضمومة في النفوس إلى الحديث عن الأرض.

وأما قوله تعالى : (وَخَلَقْنَـٰكُمْ أَزْوَٰجًا) فقد ((أُعقب الاستدلال بخلق الأرض وجبالها بالاستدلال بخلق الناس للجمع بين إثبات التفرد بالخلق، وبين الدلالة على إمكان إعادتهم ... وللمناسبة التي قدمنا ذكرها في توجيه الابتداء بخلق الأرض في الاستدلال فهي أن من الأرض يخرج الناس للبعث، فكذلك ثُني باستدلال بخلق الناس الأول لأنهم الذين سيعاد خلقهم يوم البعث))[5].

وأما قوله تعالى: (وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا) فقد ((انتقل من الاستدلال بخلق الناس إلى الاستدلال بأحوالهم وخصّ منها الحالة التي هي أقوى أحوالهم المعروفة شبهاً بالموت الذي يعقبه البعث وهي حالة

---

١ ابن عاشور : التحرير والتنوير : ج ١٨،ص٢١٩.

٢ سورة النبأ:الآيات ٦-٩.

٣ التحرير والتنوير : ج ٣٠،ص١٣.

٤ المصدر نفسه : ج ٣٠،ص١٤.

٥ المصدر نفسه : ج٣٠،ص١٥.

مـــتكررة لا يخلون من الشعور بما فيها من العبرة، لأن تدبير نظام النوم وما يطرأ عليه من اليقظة أشبه حالٍ بحال الموت وما يعقبه من البعث))[١].

- الجامع الخيالي :

تـــتعدد صـــور الوصل بواسطة الجامع الخيالي الذي تختلف فيه أحوال المخاطبين في تصور العلاقة بين الأشياء .

وقد أشار (ابن عاشور) بوضوح إلى أمثلة من العطف إعتماداً على العلاقة القائمة بواسطة الجامع الخيالي ومـــن ذلـــك قولـــه تعالى : ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۞ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۞ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۞ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾[٢] فـــإن تصور المناسبة بين الحديث عن الإبل والسماء والجـــبال والأرض لا يتحقق إلا من خلال تصور حال المتلقي. يقول (ابن عاشور): ((وقد عُدّت أشياء أربعة هي مـــن الـــناظرين عن كثب لا تغيب عن أنظارهم ، وعطف بعضها على بعض ، فكان اشتراكهم في مرآهم جهة جامعة بينها بالنسبة إليهم فإنهم المقصودون بهذا الإنكار والتوبيخ ، فالذي حسّن اقتران الإبل مع السماء والجبال والأرض في الذكر هنا ، هو أنها تنتظم في نظر جمهور العرب من أهل تهامة والحجاز ونجد وأمثالـــها من بلاد أهل الوبر والانتجاع))[٣].

وأخيراً : فإن ورود هذه العناصر ذات الطبيعة الدلالية والتداولية ، إذا أضيف إليها ما تحرر قبل ذلك من حديث عن الإحالة المقامية ، ثم ما تضمنه مبحث تحول السياق وانتقال الخطاب – كل ذلك يشير إلى أن انسجام الـــنص القرآني لا يعتمد وصفه على الروابط الاتساقية المتمثلة في العناصر اللغوية كالعطف والإحالة ، وإنما يتسع ليشمل كل ما يمكن أن يتحقق من خلاله تصور الإنسان لمظاهر الاتساق والانسجام في القرآن من ظروف محيطة وتصور لأحوال المخاطبين ، وما يضاف إلى ذلك من وصف لحال قارئ هذا النص الكريم والمتدبر فيه .

ومهمـــا يكن من أمر فإن هذه المقولات التي أوردها (ابن عاشور) أو تلك التي وردت في كلام المفسرين قديمـــاً وحديـــثاً لايمكن أن يقال عنها إنها تمثل الوصف الكامل لظاهرة انسجام النص القرآني ، فالإحاطة الكاملة بمـــراد الله مـــن ذلك الترتيب العجيب للآيات والسور لا يتيسر للبشر ، ولكن غرض التدبر أوصل المفسرين – ومـــنهم (ابن عاشور)– إلى تصور تلك العلاقات والروابط والتعبير عنها ، ويظل الحديث في هذه الظاهرة نموذجاً للتوفيق الإلهي والتسديد الرباني الذي يمن الله به على من أقبل على كتابه وتفاعل معه ، وصـــدق الله القـــائل : ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[٤].

---

١ ابن عاشور : التحرير والتنوير : ج٣٠ ،ص١٧.

٢ سورة الغاشية:الآيات ١٧-٢٠.

٣ التحرير والتنوير : ج ٣٠،ص٢٧٠.

٤ سورة ص : الآية ٢٩ .

الخاتمة

بعد هذا الاستعراض الذي تم فيه تتبع إحدى ظواهر الإعجاز في القرآن يجد الباحث أن الحضور الواسع لظاهــرة انسجام النص القرآني في الدراسات القديمة والحديثة أعظم من أن يستقصي أبعادها أو يحيط بمعالمها مثل هــذا البحــث المتواضع ،غير أن العزاء الذي يجده الباحث –وقد بذل ما في وسعه– أنه سعد بصحبة كتاب الله يقلــب طــرفه بــين آياته وسوره ، دليله في تجواله وتدبره تراث أئمة أعلام أشرقت أنوار القرآن على صحائف كتــبهم ويــرجو أن تضــيء بها صحائف أعمالهم عند الله ، فإن وفّق هذا البحث في تقديم جهودهم وتقديرها فالفضل لله ثم لهم، وإن قصر في بلوغ ذلك الهدف فلعل فيما قدم ما يثير الشجي ويدعو الباحثين لتوسعة البحث "فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه".

هذا وإن أهم ما يمكن الوقوف عليه من النتائج في خاتمة هذا البحث يتضح في النقاط الآتية:–

- إن عــناية الســلف بظاهرة انسجام النص القرآني –فيما تمثل من حديث عن المناسبة– تعكس صورة الانــتقال مــن مرحلة الاندهاش والإعجاب –الذي تملك العرب إبان نــزول ا لقرآن– من بديع نظمه وعجيــب أســلوبه إلى مرحلة التعبير المباشر عن سرٍّ ذلك الإعجاب، وقد تطور ذلك التعبير من الوصف الجزئي لنظم الجملة إلى التحليل الشامل لانسجام النص .
- وجــد الباحــث أن تميز ترتيب آيات القرآن بأسلوب التسوير كان لــه بالغ الأثر في تحقيق كثير من مقاصــد القــرآن وغاياته التي من أهمها البيان والتأثير، ولأمر ما كانت سور القرآن مختلفة في عدد آياتها، وكان التحدي بأقصر سورة منه كالتحدي في الإتيان بمثل أكبر سورة من سوره سواء بسواء.
- نــاقش البحــث كــلام السلف في المعنى اللغوي والأصل الاشتقاقي لمصطلح "السورة"، وبيّن الرأي الــراجح، كما عرض التعريفات الاصطلاحية ، ووجد تعريف ابن عاشور "رحمه الله" جامعاً مانعاً، ولذلك يوصي باعتماده في الأبحاث والموسوعات والمناهج التعليمية.
- ناقش البحث الآراء المتعددة في موضوع تسمية السور في القرآن ، واختار مذهب التوسط القائم على التسليم بوجود عدد كبير من سور القرآن ثبت تسميتها عن طريق التوقيف، إلى جانب وجود أسماء سور أخــرى ثبتــت عن طريق شهرة التداول بين الصحابة، ولذلك تعددت أسماء بعض السور، فالبحث عن الانســجام بين عنوان السورة وأغراضها يحسن فيما ثبت تسمية السور فيه بالتوقيف ، تجنباً للتكلف الذي يصان عنه القرآن الكريم.
- تعــرض البحث لموضوع ترتيب النص القرآني ، ولم يرصد أي خلاف في ترتيب الآيات في السورة، مما يشــير إلى مــبلغ الحفظ الإلهي لهذا الكتاب العزيز ، وإلى تمام العدالة والضبط في كتّاب الوحي ، وفي من تولى جمع القرآن من الصحابة (رضوان الله عليهم) ومن تلقى عنهم من التابعين . وأما ترتيب السور بعضها إثر بعض في المصحف فقد وجد الباحث أنها ليست من المسائل التي يكون الخلاف فيها مناقضاً لأمر ثابت

بدليل قطعي؛ فكثير من سور القرآن ثبت تتابعها بترتيبها الحالي في المصحف على قراءة النبي (صلى الله عليه وسلم) وبقية السور تولى الصحابة ترتيبها في مواقعها باجتهادٍ منهم، وقد كشف البحث في المناسبة والانسجام عن توفيق الله تعالى لهم وتسديده إياهم.

- تبين من البحث أن مراعاة خصائص أسلوب القرآن شرط مهم يجب أن يستصحب أثناء دراسة انسجام النص القرآني، وأن الغفلة عن ذلك تؤدي إلى نتائج غير محمودة، إذ تدفع لأشكالٍ من التكلف لا تتناسب مع أسلوب القرآن، ومن هذه الخصائص: التوقيف في ترتيب آياته، وما عرف عند السلف بعادات القرآن، ثم ما يتعلق بمقاصد القرآن، فهو ليس كتاب تدريس يرتب بالتبويب والتقسيم ، ولكنه كتاب موعظة وتعليم وتشريع ، وهذا سر من أسرار أسلوب القرآن.
- وضح البحث مواقف السلف ومناهجهم في دراسة المناسبة بين الآيات، ووجد أن أوسط تلك المواقف والمناهج ما اكتفى بإبراز العلاقة بين الآيات من خلال سياقها في السورة، وما تعذر تفسير مناسبته من السياق الداخلي في السورة يستعان عليه بسياق أسباب النزول وظروف التلقي ، وقد رصد البحث نوعين من مظاهر المناسبة عند القدماء:

١- المظاهر العامة للمناسبة في السورة ، وتتمثل في:

- مناسبة عنوان السورة لما فيها من الآيات.
- مناسبة الفاصلة لأغراض السورة.
- مناسبة البدء والختام.
- مناسبة موقع السورة لما قبلها وما بعدها.

٢- مظاهر تناسب الآيات في السورة: وقد تمثل ذلك فيما سمي بالارتباط الجليّ المعتمد على العطف، والارتباط الخفيّ فيما خلا من ذلك.

- وجد الباحث أن موضوع انسجام النص القرآني لقي عناية خاصة في الدراسات الحديثة، وقد تبين للباحث أن هذه الدراسات توسلت بمفاهيم علم اللغة ، والنقد الأدبي ، وعلم الأسلوب ، واللسانيات النصية ، ومفاهيم تحليل الخطاب، وكانت جهود الباحثين -على اختلاف مناهجهم – دليلاً على أهمية هذه الظاهرة وخصوبة البحث فيها.
- عرض البحث المصطلحات الشائعة في الدراسات الحديثة لهذه الظاهرة، وأهم هذه المصطلحات مصطلح النص، مصطلح الخطاب،مصطلح الاتساق والانسجام،وقد أظهر تتبع السياق الذي أفرز هذه المصطلحات في الدراسات الغربية ثم العربية ما بينها من الفروق التي أبرزها البحث.
- تناول البحث أهم الاتجاهات الحديثة التي يمكن أن تصنف وفقها الكتابات النظرية والممارسات التطبيقية في الحديث عن انسجام النص القرآني، وقد وجد البحث أن القاسم المشترك بين هذه الاتجاهات يتمثل في تعدد نماذج التحليل المقترحة حتى بين الباحثين المصنفين على الاتجاه الواحد. وأبرز ملامح هذا

الاخـتلاف تمثل في تعدد تسمية عناصر نموذج التحليل واختلاف تصنيف وسائل الانسجام. ولعل السبب يعـود إلى الاخـتلاف في تـرجمة المصطلحات المنقولة من اللغات الأجنبية ، وهي واحدة من القضايا التي يوصي البحث بضرورة إجراء دراسات حولها.

- توصل الباحث من خلال استعراض الاتجاهات الحديثة في تحليل ظاهرة الانسجام في القرآن إلى وجود عدد من الأطر المقترحة لوصف هذه الظاهرة وتحديد عناصرها، وذلك على النحو الآتي:

– الاتجاه الفني: تتلخص أبرز عناصر التحليل التي رصدها هذا البحث في:

التناسب الصوتي – تناسق الكلمة مع الصورة الفنية – تناسق الصور والمشاهد – تناسق الأغراض في السورة – تناسق البدء والختام – تناسق العنوان مع أغراض السورة.

– الاتجاه اللغوي:

١ – حيـث تميز منهج التحليل البنائي والأسلوبي بالإشارة إلى عدد من الوسائل والروابط أهمها:–

في المستوى الصوتي(تناسق الإيقاع والفاصلة)،

في المسـتوى النحوي(دور القرآئن السياقية المانعة من اللبس ، مثل: قرينة الرتبة وقرينة الربط وقرينة التضام – الإحالة بإعادة الذكر والإحالة بالضمير – التكرير).

وقـدم هـذا المنهج تصوراً لمعالم الانسجام في القصة القرآنية (سورة يوسف)، وأشار المنهج إلى الانسـجام المعنوي من خلال مفهو م الهيكل البنيوي للسورة، ولا يزال هذا التصور محتاجاً إلى مزيد من الإيضاح من رواد هذا المنهج ومن اتبعهم من الباحثين .

٣– أمـا مـنهج التحليل اللساني النصي: فقد حاول ضبط عناصر الاتساق والانسجام، وأبرز عناصر نموذج التحليل القائم على هذا المنهج تصنف إلى:

المستوى المعجمي: (العنوان، الجملة الأولى في النص ، التكرير، المناسبة).

المستوى النحوي: (العطف ، الإحالة بالضمائر ، الربط بالتوابع ، الحذف).

المسـتوى السـدلالي: (موضوع الخطاب ، تنظيم الخطاب ، ترتيب الخطاب ، العلاقات المعنوية ، الجامع الوهمي والعقلي).

المستوى التداولي: (وحدة العالم ، الجامع الخيالي ، ظروف المتلقي).

- رصد البحث أبرز تجليات ظاهرة انسجام النص القرآني في تفسير ابن عاشور، وقد تبين أن تناوله لهذه الظاهرة يقوم على عدد من المبادئ العامة أوردها البحث مشفوعة بالأمثلة والشواهد.
- توصل البحث إلى تصنيف مستويات تحليل هذه الظاهرة عند ابن عاشور في العناصر الآتية :–

أولاً: مستوى الانسجام النصي ويتمثل ذلك في:

١- موقع السورة:

حيث أوضح البحث أن ابن عاشور لا يهتم كثيراً بالحديث عن موقع السورة، وأن ما جاء في تفسيره من حديث عن انسجام مواقع بعض السور إنما كان إيراده لإثبات التوفيق والتسديد الذي رافق الصحابة أثناء ترتيب سور القرآن ، ولكنه يمكن أن يمثل إحدى مظاهر الانسجام حيث إن ترتيب موقع النَّصّ ضمن متوالية النُّصُوص، له اعتبار في تأويل النَّصّ وإدراك علاقاته الداخلية ، فيكون السياق النَّصّي الأوسع هو المصحف الشريف كاملاً .

٢- انسجام أغراض السورة: ويتمثل في:

- انسجام عنوان السورة (أو لقبها) مع أغراضها.
- انسجام فاتحة السورة مع أغراضها.
- انسجام خاتمة السورة مع فاتحتها.

ثانياً: مستوى الانسجام بين الآيات: ويتمثل ذلك في:

١- موقع الآية:

- توضيح موقع الآية المفتتح بها الغرض.
- توضيح موقع الآية من خلال الآية التي تليها.
- توضيح موقع الآية بإعادة التذكير بالسياق.

٢- توضيح مواضع الانتقال بين أغراض السورة.

ثالثاً: مستوى الانسجام في الآية الواحدة:

أظهر البحث أن ابن عاشور يحلل الانسجام في هذا المستوى بناءً على سياق الجملة في الآية وعلاقتها بجاراتها، ويوضح ما في ترتيب الجمل من مقاصد أسلوبية، وللإشارة إليها أهمية في إدراك الانسجام.

- وضح البحث أثر السياق بأنواعه في دراسة ظاهرة الانسجام في مواضع معينة من القرآن، وقدم البحث مفهوماً له ، واقترح تصنيفاً لأنواعه يناسب دراسة ظاهرة الانسجام في القرآن ، حيث قسم إلى:

- السياق الداخلي للنص: ويشمل السياق الجزئي للآية ، وسياق النص وهو سياق السورة، والسياق الكلي وهو سياق القرآن.
- السياق الخارجي للنص: ويشمل سياق الموقف أثناء نزول القرآن، وحالة المتلقي، إضافة إلى السياق الثقافي العام.

- تتبع البحث مواضع مختلفة في تفسير ابن عاشور كان يلجأ فيها لتوظيف السياق، وتوصل إلى أن هناك مظهرين سياقيين تختلف طريقة ابن عاشور في بيان الانسجام فيها، وهذان المظهران هما:

- مظهر تحول السياق: وذلك حين يتغير موضوع الخطاب ثم يعود السياق إلى الموضوع المتحول عنه.
- مظهر انتقال الخطاب: وذلك حين يحصل انقطاع بين غرضين في السورة.

• عقد البحث مقارنةً بين عبارة ابن عاشور وعبارة ثلاثة من المفسرين في بيان المناسبة في مواضع تحول السياق وانتقال الخطاب وتوصل إلى رصد عدد من المؤشرات اللغوية والدلالية تشير إلى ذلك التحول والانتقال، ومنها : (الإضراب – الاقتضاب – تغير الضمائر – الإشارة – عطف القصة على القصة – الافتتاح بـ"إذ" – النداء- تغير الأسلوب) ولا يزال تعميم النتائج في هذه المواضع بحاجة إلى توسيع مساحة الرصد والمقارنة.

• استعرض البحث وسائل الانسجام التي أشار إليها ابن عاشور وفق الإطار التحليلي الذي قدمه الاتجاه اللساني النصي ، وذلك على أساس التفريق بين وسائل الاتساق والانسجام. وقد صنفت وسائل الاتساق تحت المستوى المعجمي والنحوي، أما وسائل الانسجام فقد صنفت تحت المستوى الدلالي والتداولي، وقد توزعت تلك الوسائل على النحو التالي:

- المستوى المعجمي: التكرير ، التصدير (رد العجز على الصدر) ، المقابلة.
- المستوى النحوي: العطف ، الإحالة بالضمير ، الإحالة باسم الإشارة ، الإحالة بالاسم الموصول .
- المستوى الدلالي والتداولي: وقد توصل البحث إلى صعوبة التفريق بين ما يتحقق به الانسجام من العناصر الدلالية والتداولية. وأبرز الوسائل المصنفة على هذا المستوى هي: موضوع الخطاب ، ترتيب الخطاب ، العلاقات المعنوية (البيان والتفسير ، الإجمال والتفصيل ، العموم والخصوص ، التعليل والتفريع)، الجامع والمناسبة.

وقد كشفت عبارة ابن عاشور في حديثه عن هذه الوسائل تميزه في الإشارة إلى ألوان من الانسجام سكتت عنها كثير من كتب التفسير .

• من خلال دراسة شبكة العلاقات المعنوية لأربع سور من القرآن في تفسير ابن عاشور توصل البحث إلى وجود ارتباط بين نسبة انتشار أي من العلاقات المعنوية –المذكورة- في السورة وأغراض تلك السور ومقاصدها .

• وأخيراً: فإن هذه النتائج التي توصل إليها البحث تبقى نسبية في الحكم على تجلي ظاهرة انسجام النص القرآني في الدارسات القديمة والحديثة ، أو في التعبير عنها في تفسير ابن عاشور ، ولكنها تمثل صورة عامة مما كانت تقوم به هذه الدراسات. ولا تزال الدعوة موجهة للباحثين لاستيعاب دراسة هذه الظاهرة في القرآن كله، وزيادة التأمل والتدبر في كتاب الله العزيز.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ،،،

الفهارس العامة

أولاً : فهارس الآيات القرآنية الكريمة (*)

سورة الفاتحة [١]

(٥) ٣٢، ١٦٤

سورة البقرة [٢]

(١) ٩٢، ١٢٨، ٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩٢، (٢) ٤٠، ٧٤، ٩٢، ١٢٨، ٢٩٠، ٢٨٩، ٢٩٢، ٢٩٦، (٣) ٤٠، ٧٤، ٧٥، ٢٩٦، (٤) ٧٤، ٧٥، (٥) ٧٤، ٢٩٦، ٢٩٢، (٦) ١١٥، ٣٢٠ ، (٨) ٢٦، (١٤) ٣٣٩، (١٥) ٣٣٧، ٣٣٩ ، (١٧) ٢٢٢، ٣١٨، (٢١) ٢٤٨، ٢٢٧، (٢٣) ٣، ٦، ١٢ ، ١٢٨، ١٣٠، (٢٤) ٢٢٧، (٢٥) ٢٦، ٢٢٦، ٢٤٨، ٢٥، (٢٦) ٢٤٧، ٢٤٣ (٢٧) ٢٤٧، ٢٤٨، (٢٨) ٢٤٧، ٦٦، (٢٩) ٢٧٠، (٣٠) ٩٠، ١١٦، ١٤٢، ٢٦٢، (٣١) ٢٦٢، (٣٢) ٣٢٨، (٣٣) ٢٦١، (٣٤) ٩٠، (٣٥) ٢٥٦، ٢٥٧، (٣٦) ٢٥٦، ٢٠٣، (٣٧) ٢٠٣ ، (٣٨) ٢٠٣، (٤٠) ٩٢، ٢٠٤، (٤٣) ٢٢٣، ٢٣٤، (٤٥) ٢٢٣، (٤٦) ١٢٣، (٤٧) ٨٠، ٩٢، ٢٠٤، (٤٩) ٨٠، ٢٥٠، (٥٠) ٨٠، ٢٥١، (٥١) ٨٠، ٢٥٠، (٥٣) ٨٠، (٥٤) ٨٠، (٥٥) ٨٠، (٥٨) ٨٠، (٦٠) ٨٠ ، (٦١) ٨٠، ٢٠٦، ٢٧٥، ٢٩٣، (٦٣) ٨٠، (٦٧) ٨٠، ٩٣، ٩٤، ٢٧٥، (٧١) ٩٣، (٧٢) ٩٣، (٧٣) ٦٦، (٧٤) ٢٧٥، (٧٥) ٨٠، ٣٢٧، (٧٩) ٣٤٧، (٨٣) ٢٥٠، (٨٤) ٢٥١، (٨٥) ٢٥١، (٨٨) ٧٥، (٨٩) ٢٠٦ ، (٩١) ٢٦٣، ٢١١، (٩٧) ٢٦٢، (٩٩) ٢٦٣، (١٠٤) ١١٣، (١٠٩) ١١٥، (١١١) ١١٦، (١١٣) ٣٤٠ ، (١١٦) ٣٣٩، (١٢٠) ٢٥٩،(١٢١) ٢٥٨، ٢١١، (١٢٢) ٢٠٦، ٢١٢، (١٢٣) ٢٠٦، (١٢٤) ١٤٢، ٢٢٧، ٢٢٩، ٢٧١، (١٢٦) ٢٢٨، (٢٤٢) ٢٨٢، ٢٦٧، (١٤٣) ٩١، ٢٨٢، (١٤٦) ٩١، (١٥٠) ١٨٤، (١٥٣) ١٨٤، (١٥٤) ١٨٤، (١٥٥) ٢٢٧، (١٥٩) ٢٨٥، (١٦٤) ٩٠، (١٧٠) ٢٢٨، (١٧١) ٢٩٥، ٢٢٢، (١٧٤) ١١٩، ٢٨٥، (١٧٥) ١١٩، ٢٨٤،٢٨٥، (١٧٦) ١١٩، ٢٨٤، (١٨٥) ٢٩٥، (٢١٣) ١٤٦، ١٦٦، (٢١٤) ١٦٥، (٢١٦) ٢٢٦، (٢١٧) ٣١٠، (٢٢٦) ٢٦٧، (٢٢٧) ٢٦٧، (٢٢٨) ٢٢٤،٢٦٦، (٢٣٢) ٢٢٤، (٢٣٣) ١٢٣، ٢٢٤، (٢٣٤) ١٧، (٢٣٧) ١٨٣، (٢٣٨) هـ، ١٠٩، ١٨٢، ١٨٨، (٢٣٩) ١٠٩، ١٨٢، (٢٤٠) ١٦، (٢٤٣) ١٤٠، ٢٧٦، ٢٥٤، ٢٢٦، ٣١١، (٢٤٤) ١٤٠، ٣١١، ٣٧٦، (٢٤٥) ٩٤، (٢٥١) ٢٧٦، (٢٥٢) ٢٧٤، ٢٧٦، (٢٥٣) ٢٠٧، ٢٧٤، (٢٧٥) ٢٦٦، (٢٦١) ٩٤، ٣١١، (٢٦٧) ٣١١، (٢٨٥) ٣٨

سورة آل عمران [٣]

(٢) ٣١٥، (٥) ٧٤، ٣١٥، (٦) ٧٤، (٨)م ، (١٠) ٢٧٤، ٣١٨، ٣٢٢، (١١) ٣١٨، (١٤) ٢٧٦، ٢٩٤، (١٩) ٣٢٧، (٢٠) ٣٢٧، (٢٨) ٣٢١، (٢٩) ٣٢١، (٣١) ١٦٧، (٣٢) ٣٢٢، (٣٣) ١٦٧، ٣٠١، (٤٣) ٢٣٤، (٤٥) ٢٧٧، (٤٤) ٢٧٨، (٥١) ٢٧٦، (٥٨) ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٩٣، ٣٢٤، (٥٩) ١٦٧، ٢٧٧، ٣١٦، (٦١) ٣١٤، (٦٢) ٣١٤ ، (٧٢) ١٤٩، (٧٣) ١٤٩ (٩١) ٢٥٢، ٣٢٠، (٩٢) ٢٥٢، ٣٠٢، ٣٢٠، (٩٣) ٢٥٢، (٩٥) ٣٢٨، (٩٦) ٣٢٨، (٩٧) ٣١٧، (٩٨) ٢١٤، (٩٩) ٢١٤، (١٠٢) ٢١٤، (١٠٤) ٢١٤، ٣٢٢، (١٠٦) ٢٧٩، ٣٢١، (١٠٧) ٣٢١ ، (١٠٨) ٢٧٨، (١١٨) ١٦٨، (١٢٠) ١٦٨، (١٢١) ١٦٧، (١٢٣) ١١٦، (١٢٤) ١١٦، ٢٣٣، (١٢٥) ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٥، (١٣٠) هـ، ١١٢ ، ١٨٤، (١٣٧) ١١٢، ٢٧٩، (١٣٨) ٢٧٩، (١٤٩) ٣٠٩، (١٥٥) ٢٥٧،

* الرقم الذي بين [ ] رقم السورة في المصحف ، والرقم الذي بين ( ) رقم الآية في السورة وبقية الأرقام تمثل صفحات البحث .

(١٦٧) ٣١٤، (١٧١) ١٨٤، (١٨٥) ٣٠٢، (١٨٨) ١٩٩، ٢٠٤، (١٩٠) ١٣٨، ٣٠٣، ١٦٩، (١٩٥) ٣٠٣،
(١٩٦) ٣٠٣(١٩٨) ٣٠٣ ، (١٩٩) ٣٠٣، (٢٠٠) ٣٠٣

سورة النساء [٤]

(٢٦) ٧٧، ٨٢، (٢٧) ٧٧، ٨٢، (٢٨) ٨٢، ٧٧، (٤٦) ٧٥، (٤٧) ٨١ (٨٢) أ ، (١٥٣) ١١٥،
(١٥٥) ٧٥، ١٩٩، (١٦٠) ١٩٩، (١٦١) ١٩٩، (١٦٣) ٧٦، (١٧٤) ٣٠٧، (١٧٦) ١٥٠

سورة المائدة [٥]

(١٥) ٣٠٧،(٢٧) هـ،ز ، (١٠٥) ٢١١

سورة الأنعام [٦]

(٨) ٢٩٤، (٨٣) ٢٩٤، (٨٤) ٢٣٩، ٢٨٠، (٨٧) ٢٨٠، (٨٨) ٢٨٠، (٨٩) ٢٩٠،١٨١،
(٩٠) ٢٨١، (٩٢) ٢٨٠، (١١٤) ٢٣٠، (١٢٤) ٢٠٠، (١٥١) ٨٢، ٢٤٠، (١٥٢) ٨٢،
(١٥٣) ٨٢، ٢٣٩، (١٥٤) ٢٣٩، (١٥٦) ٢٤٠، (١٥٧) ٢٤٠

سورة الأعراف [٧]

(٢) ٨١، (٣) ٨١ ، ٢٥٣، (٤) ١١٨، ٢٥٨، (٥) ١١٨، (٦) ١٧٠ (٧) ١٧٠، (٨) ١٧٠،
(١٠) ٢٥٣، (١١) ١٧٠، ٢٥٣، ٢٦٢، (١٢) ٢٦٢، (١٦) ٢٣١، (١٨) ٢٣١، (١٩) ٢٣١، (٢٠) ٢٥٨، (٢١)
٢٥٨، (٢٢) ٢٥٨، (٤٥) ٣٧، (٥٠) ٢٢٩، (٥١) ٢٢٩، (٥٢) ٢٣٠، (٥٩) ٣٢٦، (٨٥) ٣٢٦، (٩٤) ٣٢٦ ،
(١٠٣) ٣٢٦، (١٤٩) ٣٠١، (١٥٠) ٣١٠، (١٧٢) ١٤٨، ١٧١، ١٧٢، (١٨٧) ١٧٠، (١٨٨) ١٧٠، ١٧١،
(١٨٩) ١٧٠، ١٩٠، ١٧٣، ٢٦٥، (١٩١) ٢٦٥، (١٩٢) ٢٦٥، (٢٠١) ٢٦٥، (٢٠٢) ٢٦٥

سورة الأنفال[٨]

(١) ١٧٤، (٤) ١٧٤، (٥) ١٧٣، (٦) ١٧٣، (١١) ١٦٩، (٣٢) ٢٢٥، (٣٣)ل

سورة التوبة[٩]

(١) ٢٢ (٦٤) ٦ (٨٦) ٦ (١٢٤) ٦ (١٢٧) ٦ (١٢٨) ١٣٧

سورة يونس[١٠]

(٣) ٢٢٥، (٧) ٢٢٥ (١٠) ٢٢٥ ، (١١) ٢٢٥،٢٢٤، (١٩) ١٤٧، (٣٨) ٦ (٤٦) ٢٤٠،(٧٨) ٢٤٦ (٨٧) ٢٤٦

سورة هود[١١]

(١) ٢١ (١٣) ٧ (١٠١) ٢٨٣ (١٠٢) ٢٨٣

سورة يوسف[١٢]

(١-٣) ٨٤، ٣١٣ (٥) ٨٤، (٢١) ٢٨٤، (٢٨) ٢٣٢ (٢٩) ٢٣٢، (٥٣) ٣٣٩،
(١٠٢) ٨٤، ٢٨٠ (١٠٣) ٨٤ (١١١) ٨٥

سورة الرعد[١٣]

(٢) ٣٠٥، (٣) ٣٠٥، (٥) ٣٠٥ (٧) ٢٠٨، (٨) ٣٠٥، ٣٢٤ (٩) ٣٢٤ (١١) ٣٠٥ ؛ (١٥) ٣٠٥ (١٦) ٣١٩
(١٧) ٣١٥، ٣١٩ (١٨) ٣١٥ (٢٥) ٢٤٨ ؛ ٣٤٠ (٢٦) ٣٤٠ (٢٧) ٢٠٨، ٣١٥ (٣٠) ٣١٥ (٣٦) ٣١٤

سورة النحل[١٦]

(٩٠) ١٦، (١١٩) ١٩٨

سورة الإسراء[١٧]

(٩-١١) ١٧٥ (١٢) ١٥١ (٨١) ٣٢٣ ؛ (٨٨) أ

الكهف[١٨]

(٦) ١٣٩، ٢٩٠ (٩) ١٣٩ (١١) ٢٣٦، ٢٣٨ (١٧) ٢٥٤ (١٨) ٢٥٤ (١٩) ١٢٣، ٢٣٨، ٢٨٤ (٢٢) ٢٣٧،
٢٣٨، ٢٦٧ (٢٣) ٢٣٨ (٢٤) ٢٣٨، (٢٥) ٢٣٦، ٢٣٨ (٢٦) ٢٣٦(٥٠) ٢٧٠ (٧٤) ٧٤ ، ١٢٣ (٧٨) ٢٨٣
(٨٢) ٢٥٧ (٩٠) ٢٨٦ (٩١) ٢٨٦ (١٠٩) ٢١٢

سورة مريم[١٩]

(١) ١٢٩ (٢) ١١٥، ١٢٩ (١٦) ١١٥، ١٢٥، ١٢٩(١٩) ١٨٦ (٤١) ١٢٥ (٥١) ١٢٥(٥٤) ١٢٥ (٥٦) ١٢٥
(٦٣) ١٠٨، ١٨٥ (٦٤) ٣١، ١٠٨، ١٨٥، ١٨٨ (٦٥) ١٨٥ (٧٨) ١٤٣ (٧٩) ١٤٣ (٨٨) ٢٦٤، (٩٣) ٢٦٣
(٩٤) ٢٦٣ (٩٥) ٢٦٣(٩٧) ١٢٩، ١٣٨، ٢٦٣

سورة طه[٢٠]

(٤٩) ٢٤٦

سورة الأنبياء[٢١]

(٣) ٣١٦ (٢٦) ١٦١ (٣٤) ٣٢٣، (٣٥) ٣٢٣

الحج[٢٢]

(١) ٣٢٧ (٢٦) ٢٨٩ (٣٠) ١٧٩، ٢٨٨ (٤٧) ٢٢٥

سورة المؤمنون[٢٣]

(١) ٣٨ (٢٧) ٣١٦ (٣٥) ١٩٩، ٢٠٧ (٣٧) ٢٧٠ (٤٩) ٢٦٩ (٦٢) ١٦١ (٦٣) ١٦١(١١٧) ٣٨

سورة النور[٢٤]

(١) ٦ (٢١) ٣٢٥ (٢٢) ٢٣٥ (٢٦) ٣٢٤ (٢٧) ٣٠٧ ، ٣٢٥ (٢٩) ٣٢٥ (٣١) ٣٢٥(٣٢) ٣٢٤ (٣٤) ٣٠٦ ،
٣١٩ (٣٥) ٣٠٦، ٣٠٧، ٣١٩ (٣٩) ٣١٩ (٤٠) ٧٩، ٣١٩(٤٨) ٣٤٠ (٥١) ٣٤٠ (٥٥) ٣١٦ (٥٨) ٣٠٧،
٣٢٥ (٦٠) ٣٢٥(٦٤) ٣٢٥

ثانياً : فهرس الأحاديث النبوية الشريفة

ثالثاً : فهرس الشواهد الشعرية

الشطر الأول من الشاهد	القافية	الشاعر	الصفحة
آذنتنا ببينها أسماء	الثواء	الحارث بن حلزة	١٣١ (بيتان)
متى يأت هذا الموت لا يلف حاجة	قضاءها	قيس بن الخطيم	٢٩٢
من لنا عنده من الخير آيات	القضاء	الحارث بن حلزة	٣١٧ (أربعة أبيات)
فعنها وهي لك الفداء	الحداء	مجهول	٣٢٧
ألم تر أن الله أعطاك سورة	يتذبذب	النابغة	٨
إذا لم يسالمك الزمان فحارب	بالأقارب	نجم الدين عمارة اليمني	١٣٤
فخذ الفضيلة عن ذنوب قد خلت	تائب	عبد الله بن الزبعرى	١٣٥
على أنها كانت تأول حبها	فأصحبا	الأعشى	١٥٤
أصم أم يسمع رب القبة	صلبة	النابغة الذبياني	١٦٥ (بيتان)
إذا نزل السماء بأرض قوم	غضابا	مجهول	١٧٢
ملكته حبلي ولكنه	غاربي	اليزيدي	٣٣٨ (بيتان)
وإن قصائدي لك فادخرني	النكاح	ابن هرمه	٢٢٣
لخولة أطلال ببرقة ثهمد	اليد	طرفة بن العبد	١٣١ (بيتان)
هذا ثنائي بما أوليت من حسن	محسودا	ربيعة بن مقروم	١٣٨
ثم اشتكيت لأشكاني وساكنه	قهد	صنان بن عباد اليشكري	٢٣٣
فرب ذي سرادق محجور	السور	العجاج	٧
أثنى على نفسه سبحانه بثبوت	السورا	أبو شامة المقدسي	٢٢ (بيتان)
فلا وأبيك ابنة العامري	أفر	امرؤ القيس	١٤٣
متى لا ح برق أو بدا طلل قفر	ولا نزر	البحتري	١٧٧
فدع الوعيد فما وعيدك	يضير	مجهول	٢٠١
فوجهك كالنار في ضوئها	حرها	مجهول	٢٠٢
لا أرى الموت يسبق الموت شيء	والفقيرا	سواد بن عدي	٢٠٢
على أن ليس عدلا من كليب	الجزور	مهلهل بن ربيعة	٢١٠
فما لذي غيبة أو حضور	بالضمير	ابن مالك	٢٤٤
كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر	عذر	أبو تمام	٢٨٣
نبئت زرعة والسفاهة كاسمها	الأشعار	النابغة الذبياني	٢٨٢
بكرا صاحبي قبل الهجير	التبكير	بشار بن برد	٣٢٧
ثلاث تشرق الدنيا ببهجتها	والقمر	محمد بن وهيب	٣٣٥
كتمتك ليلا بالجمومين ساهرا	وظاهرا	النابغة	١٣١ (بيتان)
بانت وقد أسارت في النفس حاجتها	مانفعا	أعشى بني ثعلبة	٨

الشطر الأول من الشاهد	القافية	الشاعر	الصفحة
فسقى الغضا والساكنيه وإن هم	وضلوعي	مجهول	١٧٢(ثلاثة أبيات)
والدهر لا يبقي على حدثانه	أربع	أبو ذؤيب الهذلي	٢٠٩(ثلاثة أبيات)
أمن المنون وريبها تتوجع	يجزع	أبو ذؤيب الهذلي	٢٠٩
سريع إلى ابن العم يشتم عرضه	بسريع	الأقيشر الأسدي	٢١١
عدنا ولولا نحن أحدق جمعهم	ما جمعوا	عباس بن مرداس	٢٦٨
أتاني أبيت اللعن أنك لمتني	رائع	النابغة الذبياني	٢٨٤
لتقرعن علي السن بالندم	أخلاقي	تأبط شرا	١٣٧
عدس ما لعباد عليك إمارة	طليق	يزيد بن مفرغ الحميري	٢٧٨
هذا وليس كمن يعيا بخطبته	نطقا	زهير بن أبي سلمى	٢٨٩
فيها خطوط من سواد وبلق	البهق	رؤبة	٢٩٣
من يلق يوماً على علاته هرماً	خلقاً	زهير	٣٠٠
يا دار غيرك البلى فمحاك	أبلاك	إسحاق الموصلي	١٢٧
أقول له والرمح يأطر متنه	ذلكا	خفاف بن ندبة	٢٩٢
قفا نبك من ذكرى حبيب ومنـــزل	فحومل	أمرؤ القيس	١٣١(بيتان)
بل هل ترى عارضاً قد بت أرقبه	سقل	الأعشى	١٦١
فما برحت تومي إلّي بطرفها	غفل	هذيل الأشجعي	١٩٨(خمسة أبيات)
ديار لسلمى عافيات بذي خال	هطال	امرؤ القيس	٢٠١
ترى عافيات الطير قد وثقت لها	الأكائل	النابغة الذبياني	٢٥٥
جفوني ولم أجف الأخلاء إنني	مهمل	مجهول	٢٧٠
قال لي كيف أنت قلت عليل	طويل	مجهول	٣٣٨
هل غادر الشعراء من متردم	توهم	عنترة	١٣١
قد أصبح الحبل من أسماء مصروما	مكتوما	أعشى بني نهشل	١٣١
هل ما علمت وما استودعت مكتوم	مصروم	علقمة الفحل	١٣٩
ألا أبلغا هذا المعرض آية	حلم	كعب بن زهير	١٤٥
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة	للقوادم	بشار بن برد	٢٠٢(بيتان)
يلفى إذا ما الأمر كان عرمرماً	عرمرم	مجهول	٢١١
عميد بني سليم أقصدته	سهام	مجهول	٢١١
ألا يا نخلة من ذات عرق	السلام	الأحوص	٢٣٢
أغلي السباء بكل أدكن عاتق	ختامها	لبيد	٢٣٤
أيا يا أبتي لا ترم عندنا	ترم	الأعشى	٢٤٣ (بيتان)
ولو أن مجدا أخلد الدهر واحدا	مطعما	حسان بن ثابت	٢٧١
ولله صعلوك يساور همه	مقدما	حاتم الطائي	٢٨١(خمسة أبيات)

الشطر الأول من الشاهد	القافية	الشاعر	الصفحة
لا والذي هو عالم أن النوى	كريم	أبو تمام	٣٣٤
قالت بنات العم ياسلمى وإن	وإن	رؤبة بن العجاج	١١٧
ألا هبي بصحنك فاصبحينا	الأندرينا	عمرو بن كلثوم	١٣١
قيل لهم ألا أركبوا ألاتا	ألافا	زهير بن أبي سلمى	١١٧
وما وردت كلا بيثرب فاعلمن	الأعلى	مجهول	١٤٣
ألكني إليها عمرك الله يا فتى	تماديا	سحيم عبد بني الحسحاس	١٤٥
وقد علمنا بأن النظم ليس سوى	توخيه	عبد القاهر الجرجاني	٢١٩(ثلاثة أبيات)

رابعاً : فهرس المصادر والمراجع

ابن الأثير ، ضياء الدين:

المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد, المكتبة العصرية, بيروت (١٩٩٥م).

ابن الأثير ، مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري:

النهاية في غريب الحديث، تحقيق محمود محمد الطماحي، وطاهر الزاوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت،(د.ت).

إسماعيل ، عز الدين:

الأسس الجمالية في النقد العربي، دار الفكر العربي، دمشق، ط٣(١٩٧٤م).

ابن أبي الإصبع،زكي الدين عبد العظيم بن عبد الواحد:

- تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، تحقيق حفني محمد شرف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية لجنة إحياء التراث (١٣٨٣هـ) .
- بديع القرآن ، تحقيق حفني شرف ، مكتبة نهضة مصر ، ط١ (١٩٥٧م) .

الأصفهاني ، الراغب:

مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق صفوان عدنان داودي، دار العلم، دمشق، ط٢(١٩٩٧م).

الأصفهاني ، أبو الفرج :

كتاب الأغاني :(د.ت.ط)

الأصمعي ، أبو سعيد عبدالملك بن قريب:

الأصمعيات ، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر وعبدالسلام هارون ، بيروت ، ط٥ .

الأعشى ، ميمون بن قيس :

"الديوان "، تحقيق محمد محمد حسين ، مؤسسة الرسالة ، ط٧ ، (١٩٨٣م) .

الألوسي ، شهاب الدين:

روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث، بيروت،(د. ت. ط).

الأنباري، أبو البركات عبدالرحمن بن محمد :

الإنصاف في مسائل الخلاف ، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ، دار الفكر، دمشق، (د. ت . ط).

البخاري ، محمد بن إسماعيل :

صحيح البخاري، دار الفكر، (١٩٨١م).

البزرة ، أحمد مختار:

أساليب التوكيد من خلال القرآن الكريم، مؤسسة علوم القرآن، دمشق، ط١(١٩٨٥م).

البستاني ، محمود:

دراسات فنية في التعبير القرآني، دار الهادي، بيروت، ط١(١٩٨١).

البعلبكي ، منير:

المورد، دار العلم للملايين، بيروت، (١٩٩٩م).

البقاعي ، برهان الدين:

نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، خرج آيته وأحاديثه عبدالرزاق المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١(١٩٩٥م).

البيضاوي ، أبو سعيد:

أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، دار الفكر – بيروت ، (د.ت.ط).

التفتازاني، سعد الدين :

المطول شرح تلخيص مفتاح العلوم: تحقيق عبدالحميد هنداوي، درا الكتب العلمية بيروت، ط١، (٢٠٠١م)

الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر:

البيان والتبيين، تحقيق عبدالسلام هارون، المؤسسة السعودية بمصر، ط٥، (١٩٨٥م).

الجرجاني ، عبدالقاهر:

– أسرار البلاغة، تصحيح وتعليق السيد محمد رشيد رضا، دار المطبوعات العربية، (د.ت.ط).

– دلائل الإعجاز، تحقيق محمد رضوان الداية وفايز الداية، مكتبة سعد الدين، دمشق،ط٢، (١٩٨٧م).

– ديوان الحماسة : تحقيق محمد التنجي، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط١، (١٩٩٥م)

الجرجاني ، علي بن محمد:

التعريفات، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، (١٩٨٥م).

ابن جماعة ، أبو عبد الله بدرالدين محمد بن إبراهيم:

كشف المعاني في المتشابه من المثاني، تحقيق:عبد الجواد خلف، دار الوفاء ، المنصورة ط١، (١٩٩٠م).

الجمحي ، محمد بن سلام:

طبقات فحول الشعراء، دراسة وتحقيق طه أحمد إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، (١٩٨٢م).

ابن جني ، أبو الفتح عثمان :

– سر صناعة الإعراب : دراسة وتحقيق حسن هنداوي ، دار القلم – دمشق ، ط٢ ، (١٩٩٣م) .

– الخصائص ، تحقيق محمد علي النجار ، المكتبة العلمية ،(د.ت.ط)

الجويني ، مصطفى:

مناهج التفسير، منشأة المعارف، الإسكندرية، مصر، د.ت.ط.

حسان ، تمام:

– البيان في روائع القرآن، عالم الكتب، القاهرة، ط١، (١٩٩٣).

– اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة، المغرب، الدار البيضاء، (١٩٩٤م).

الحسناوي ، محمد:

الفاصلة في القرآن، المكتب الإسلامي، بيروت، (د.ت.ط).

حمودة ، عبدالعزيز:

المرايا المقعرة (نحو نظرية نقدية عربية)، الكتاب(٢٧٢) سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، أغسطس (٢٠٠١م).

الحموي ، تقي الدين علي بن عبدالله :

خزانة الأدب ، تحقيق عصام شعيتو ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت . ط١ ، (١٩٨٧م) .

الحنبلي، ابن العماد:

شذرات الذهب، بيروت، (د.ت.ط).

خطابي ، محمد:

لسانيات النّص، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط١(١٩٩١م).

الخطيب ، حكمت:

في معرفة النّص، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط٣، (١٩٨٥م).

أبو داود، سليمان بن الأشعث :

سنن أبي داود، مراجعة محيي الدين عبدالحميد، دار الفكر ، (د.ت.ط).

الذبياني ، النابغة:

الديوان، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ط(١٩٧٧م).

الذهبي ، أبي عبدالله محمد بن أحمد :

- تذكرة الحفاظ : مراجعة عبد الرحمن المعلمي ، دار الكتب العلمية – بيروت ، (١٣٧٤هـ)
- معرفة القراء الكبار : تحقيق بشار معروف وآخرون ، مؤسسة الرسالة بيروت ، ط١، (١٤٠٤هـ)

الرازي ، فخر الدين:

التفسير الكبير، دار الفكر بيروت، ط١،(١٩٨١م).

الرافعي ، مصطفى صادق:

تاريخ آداب العرب، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، (١٩٨٤م).

الزركشي ، بدر الدين:

البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، (د.ت.ط).

الزركلي ، خير الدين :

الأعلام ، دار العلم للملايين – بيروت، ط١، (١٩٩٠م) .

الزمخشري ، جار الله محمود بن عمر:

- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، تحقيق عبدالرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١(١٩٩٧م).
- شرح المفصل، تحقيق علي بو ملحم، مكتبة الهلال بيروت، ط١(١٩٩٣م).

الزوزني:

المعلقات السبع، مراجعة ونشر دار الحياة، بيروت، (١٩٩١م).

السبكي ، تاج الدين

طبقات الشافعية، المطبعة الحسنية، (د.ت.ط)

ابن سعد ، محمد بن سعد بن منيع :

الطبقات الكبرى ، دار صادر ، بيروت ، (١٩٦٨م) .

السكاكي ، أبو يعقوب:

مفتاح العلوم، تحقيق نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١(١٩٨٣م).

السلجماسي ، أبو محمد القاسم:

المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع ، تحقيق: علال الغازي ، مكتبة المعارف الرباط ، (١٩٨٠م).

سلطان ، منير:

مناهج في تحليل النظم القرآني: منشأة المعارف الإسكندرية، مصر، (١٩٩٠م).

سيبويه، أبو بشر عمر بن عثمان :

الكتاب، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، دار الجيل ، بيروت، ط١، (د.ت)

ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل النحوي:

المخصص، الطبعة الأميرية، بولاق، مصر، ط١،(١٣٢٠هـ).

السيوطي ،جلال الدين:

- المزهر في علوم اللغة ، تحقيق:محمد أحمد جاد المولى ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، (١٩٨٧م).
- همع الهوامع، تحقيق عبدالحميد هنداوي المكتبة التوفيقية، مصر، (د. ت.ط).
- بغية الوعاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، طبعة مكتبة عيسى البابي الحلبي . القاهرة ، (١٩٦٤م).
- الإتقان في علوم القرآن، تقديم وتعليق محمد شريف سكر، ومراجعة مصطفى قصاص، دار إحياء العلوم، بيروت، ط٢، (١٩٩٢م).
- تناسق الدرر في تناسب السور، تحقيق عبدالقادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، (١٩٨٦م).
- لباب النقول في أسباب النزول، دار إحياء العلوم، (د.ت.ط).

الضبي ، المفضل بن محمد:

المفضليات، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبدالسلام هارون، دار المعارف/ ط١(١٩٩٢م).

الطائي ، أبو تمام حبيب بن أوس:

الديوان، تحقيق محمد عبده عزام، دار المعارف، مصر، (د.ت.ط).

طبانة ، بدوي:

معجم البلاغة العربية، دار ابن حزم، بيروت، ط٤، (١٩٩٧م).

الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير :

جامع البيان في تفسير القرآن، طبعة دار الفكر، (١٩٧٨م).

ابن عاشور ، محمد الطاهر:

التحرير والتنوير، مؤسسة التاريخ بيروت، ط١، (٢٠٠٠م).

العباسي ، عبدالرحيم:

معاهد التنصيص، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة التجارية، القاهرة، ط١،(١٩٤٧م).

عبدالباقي ، محمد فؤاد:

المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار الجيل، بيروت، (١٩٨٧م).

عبدالفتاح ، نازك إبراهيم:

مشكلات اللغة والتخاطب في ضوء علم اللغة النفسي، دار قباء، القاهرة، (٢٠٠٢م).

عبداللطيف ، محمد حماسة:

الجملة في الشعر العربي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١،(١٩٩٠م).

العسقلاني ، ابن حجر:
الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، حيدر آباد، (١٣٥٠هـ).
العسكري ، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل:
كتاب الصناعتين، تحقيق مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، (١٩٨١م).
ابن عطية ، أبو محمد عبدالحق:
المحرر الوجيز، اعتنى بطباعته دار ابن حزم، ط١، (٢٠٠٢م).
ابن عقيل ، بهاء الدين عبدالله بن عقيل
شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ، مع كتاب منحة الجليل ، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ، ط٢، (د.ت).
العكبري ، أبو البقاء عبد الله بن الحسين:
اللباب في علل البناء والإعراب ، تحقيق عبد الإله نبهان، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١، (١٩٩٥م) .
العلائي ، صلاح الدين خليل:
الفصول المفيدة في الواو المزيدة، تحقيق حسن محمد الشاعر، دار البشير، عمان الأردن، ط١، (١٩٩٠م).
العلوي ، يحيى بن حمزة:
الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، بعناية سعيد بن علي المرصفي، دار الطباعة الخديوية، القاهرة،(١٩١٤م).
العلي ، هيا ثامر:
محمد الطاهر بن عاشور ومنهجه في التفسير، دار الثقافة، الدوحة قطر، (١٩٩٤م).
عمر ، أحمد مختار:
علم الدلالة، عالم الكتب، مصر، ط٤، (١٩٩٣م).
فارع ،شحدة (وآخرون):
مقدمة في اللغويات المعاصرة، دار وائل للنشر، عمان، الأردن، ط١، (٢٠٠٠م).
فضل ، صلاح:
- نظرية البنائية في النقد الأدبي، دار الشروق، القاهرة، ط١، (١٩٩٨م).
- علم الأسلوب، دار الشروق، القاهرة، ط١، (١٩٩٨م).
- أساليب الشعرية المعاصرة، شركة الأمل للطباعة والنشر، (١٩٩٦م).
الفقي ، صبحي إبراهيم:
علم اللغة النّصي، دار قبا، القاهرة، ط١(٢٠٠٠م).
الفيروز أبادي ، مجدالدين محمد بن يعقوب:
القاموس المحيط، تحقيق مكتب تحقيق التراث، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، (١٩٨٧م).
قدامة بن جعفر :
نقد الشعر : تحقيق محمد عبدالمنعم خفاجي ، دار الكتيب العلمية ، بيروت ، (د.ت.ط).
القرطاجني ، أبو الحسن حازم:
منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد بلخوجة، دار الغرب الإسلامي بيروت، ط١، (١٩٨٢م).
القزويني، جلال الدين محمد
الإيضاح : تحقيق فوزي عطوي ، دار إحياء العلوم ، بيروت ، ط٤، (١٩٩٨م)

القشيري ، مسلم بن الحجاج :
صحيح مسلم ، مراجعة محمد فؤاد عبدالباقي ، دار إحياء التراث العربي ، (١٩٥٤م) .
قطب ، سيد:
- التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، القاهرة، ط١٤، (١٩٩٣م).
- في ظلال القرآن دار الشروق، ط١١، (١٩٨٥م).
قطوش ، باسم:
استراتيجيات القراءة، مؤسسة حمادة ودار الكندي، إربد، الأردن، (١٩٩٨م).
القعود ، عبدالرحمن:
الإبهام في شعر الحداثة، الكتاب(٢٧٩) سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، أغسطس(٢٠٠١م).
قنوجي ، صديق بن حسن:
أبجد العلوم، دار ابن حزم، بيروت، ط١، (٢٠٠٢م).
القيرواني ، ابن رشيق:
العمدة في صناعة الشعر ونقده : دار الجيل للنشر والتوزيع – بيروت،ط٤، (١٩٧٢م)
القيسي ، مكي بن أبي طالب:
- مشكل إعراب القرآن، تحقيق حاتم الضامن، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢،(١٤٠٥هـ).
- الرعاية في تجويد وتحقيق لفظ التلاوة ، تحقيق أحمد حسن فرحات ، دار عمار – عمان ، ط٢،(١٩٨٤م)
- الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها، تحقيق محيي الدين رمضان، مؤسسة الرسالة، ط٤، (١٩٨٧م).
ابن قيم الجوزية ، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر:
- بدائع الفوائد، تحقيق بشير محمد عيون، مكتبة البيان، بيروت، ط١،(١٩٩٤م).
- زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق شعيب الأرنؤوط وعبدالقادر الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٣(١٩٩٨م).
ابن كثير ، أبو الفداء إسماعيل:
- البداية والنهاية، تحقيق مكتب التحقيق بدار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، (١٩٩٧م).
- تفسير القرآن العظيم، دار الفكر، بيروت، (١٩٨١م).
الكرماني ، تاج القراء محمود بن عمر:
أسرار التكرار في القرآن ،دراسة وتحقيق:عبد القادر عطا، دار الاعتصام ، (د.ت.ط).
المبرد ، أبو العباس محمد بن يزيد :
المقتضب ، تحقيق محمد عبدالخالق عظيمة ، عالم الكتب ، بيروت ، (د.ت.ط).
مرتاض، عبد الملك :
نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد . الكتاب (٢٤٠) سلسلة عالم المعرفة . المجلس الوطني للثقافة والفنون . الكويت (١٩٩٨).
المرسي ، كمال الدين عبدالغني:
مراعاة النظير في كلام الله العلي القدير، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية، (٢٠٠٠م).
مصلوح ، سعد:
الأسلوب دراسة لغوية إحصائية، عالم الكتب، القاهرة ط٣ ، (١٩٩٢).

معبد ، محمد أحمد :

الملخص المفيد في علم التجويد، مكتبة الإرشاد، اليمن، ط٤ ، (١٩٨٩م)

ابن المعتز ، عبد الله:

كتاب البديع، تعليق: أغناطيوس كراتشكوفسكي ، (د. ت .ط).

مفتاح ، محمد:

– دينامية النّص، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط٢، (١٩٩٠م).

– تحليل الخطاب الشعري ، المركز الثقافي العربي – الدار البيضاء المغرب . ط١ ، (١٩٨٥م)

ابن منظور ، جمال الدين:

لسان العرب، دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط٣، (١٩٩٩م).

ابن الناظم،محمد بن محمد بن عبدالله بن مالك:

شرح ألفية ابن مالك، تحقيق عبدالحميد السيد، دار الجيل بيروت، (د.ت.ط).

ابن النديم ، محمد بن إسحاق:

الفهرست، دار المعرفة ، بيروت، (١٩٧٨م)

نصار ، حسين:

الفواصل، مكتبة مصر، ط١، (١٩٩٩م).

النووي ، أبو زكريا يحيى بن شرف:

رياض الصالحين، خرج أحاديثه وضبطه محمد الحصري، المكتب العالمي للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، (د.ت.ط).

ابن هشام ، جمال الدين عبد الله بن يوسف بن هشام الأنصاري:

– مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق مازن مبارك ومحمد علي حمدالله، دار الفكر، بيروت، ط٦، (١٩٨٥م).

– أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، تحقيق مكتب البحوث والدراسات دار الفكر، بيروت، (٢٠٠٠م).

هولب ، روبرت:

نظرية التلقي، ترجمة عز الدين إسماعيل، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، ط١، (٢٠٠٠م).

الواحدي ، أبو الحسن علي بن أحمد:

الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق صفوان عدنان داودي، دار العلم، دمشق،ط١ ، (١٤١٥هـ).

وهبة ، مجدي وكامل المهندس:

معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، ط٢(١٩٨٤م).

ابن يعيش، أبو البقاء يعيش بن علي:

شرح المفصل، دار الطباعة المنيرية، القاهرة، (د.ت.ط).

الرســـائل والحوليات:

الحدابي ، سعاد عبدالملك :

الالتفات في القرآن الكريم دراسة أسلوبية (ماجستير) ، جامعة صنعاء ، كلية الآداب، (٢٠٠١م) .

الحسني ، إسماعيل :

نظرية المقاصد عند الإمام محمد الطاهر بن عاشور ، إصدارت المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، سلسلة الرسائل الجامعية (١٥) ، ط١، (١٩٩٥م) .

الوافي ، إبراهيم :

محمد الطاهر بن عاشور ومنهجه في التفسير ، بحث لنيل شهادة تكوين المكونين ، الرباط ، جامعة محمد الخامس ، الموسم الجامعي (١٩٨٤م) .

المجلات والدوريات :

الأقلام ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، عدد (٦) حزيران (١٩٩٠م) .

عالم الفكر ، المجلس الوطني للثقافة والفنون ، الكويت :

- العدد ٢، مج٣٠، أكتوبر – ديسمبر (٢٠٠١م) .
- العدد ٢، مج٣١ ، أكتوبر – ديسمبر (٢٠٠٢م) .
- العدد ٢ ، مج ٣٢ ، يناير – مارس (٢٠٠٣م) .

العرب والفكر العالمي ، عدد (٣) ، صيف (١٩٩٨م).

فصول ، المجلد العاشر ، العددان (١، ٢) يوليو – أغسطس (١٩٩١م) .

المنهل ، عدد (٢٢٤) سنة (١٩٩٥م) .

خامساً : فهرس الموضوعات

Abstract

The title of this thesis is "Insijam an-Nass Al-Qurani Ind 'Ibn-Ashur". It is divided into two main sections. The first section deals with the relationship between the phenomenon of coherence of the Quranic text as tackled by scholars both old and new. There are three chapters in this section. Some of them are concerned by definitions of terminology or Mustlahat such as Sura, Ayah and order or Tartib of various chapters of the Quran. After discussing these important issue talked by ancient scholars the researcher stepped forward to point out the wonderful style followed to by the holly book which was very much admired by the Arabs believers or non- believers.

The bulck of this academic work is study of the critic outlook of Ibn Ashur to the views presented by scholars of the Quran.

This section is divided in to two chapters the first chapter deals with the view of coherence of the Quranic text as for as Ibn Ashur is concerned these view are well expressed in his commentary on the Quran titled At- Tahrir wat-Tanwir.

The means of cohesion and coherence are exhibited into two levels- the lexical level and the structural one.

These two sections are followed by comprehensive conclusion mentioning the most important results reached.